

مَكْتَبَةُ الْعُلَمَاءِ الْعَامَّةِ
الطُّوسِيَّةِ وَبَحْرُ الْعُلُومِ - (بَيْتُ الْبَرَقِ)

الثَّوْرَةُ الْحُسَيْنِيَّةُ

بِحُذُورِهَا وَمُعْطِيَاتِهَا



الْثَوْرَةُ الْحُسَيْنِيَّةُ

يُجَنِّدُهَا وَمُعْطَايَاهَا



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مَكْتَبَةُ الْعُلَمَاءِ الْعَامَّةِ
الطُّوسِيِّ وَبَنِي الْعَالَمِ - (الْمَدِينَةُ الْعِلْمِيَّةُ)

الثَّوَرَةُ الْحُسَيْنِيَّةُ

بِحُذُورِهَا وَمُعْطَايَاتِهَا

سَمَّاخَةُ رَأْيَةِ اللَّهِ الْعَظِيمِ
السَّيِّدِ الْحُسَيْنِ بْنِ النَّقِيِّ (ع) فِي تَحْقِيقِهَا

المجلد الاول

الثورة الحسينية بجذورها ومعطياتها / المجلد الأول

آية الله العظمى السيد الحسين آل بحر العلوم رحمته الله

منشورات الإجتهد / قم / هاتف: ٧٧٣٥٤٦٤

الطبعة الأولى: ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

دورة ٢٠٠٠

ISBN (الدورة) : 987-964-2941-21-6

ISBN (مج : ١) : 987-964-2941-80-3

توزيع

الغدير للطباعة والنشر والتوزيع: +٩٨٩١٢٥٥١٤٤٢٦

E-mail : algadeer_pub@yahoo.com

جميع الحقوق مسجلة ومحفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه وخاتم رسله محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين .

لم تكن معركة كربلاء حدثاً عابراً كبقية الاحداث التي يزخر بها التاريخ، ولم تكن ثورة عادية كتلك التي يقوم بها المظلومون اتجاه الظالمين، إنما كانت حدثاً فاصلاً بين الحق والباطل، ونبراساً لكل من اراد الخلاص من الظلم، ونوراً يهتدي به من اراد الطريق الى الله، وتهذيباً للنفوس مما قد يعلق بها من شوائب الدهر ...

ولم تكن معركة كربلاء وليدة ساعتها، بل نتاج خط وسلوك امتد عبر الاجيال في صراع الحق والباطل تأجج وظهر في الستين من الهجرة المباركة.

وقليل من درّس هذا الصراع في جذوره، وحاول تلمّس خيوطه الاولى في تاريخ الجزيرة العربية، ورسم ملامحه عبر هذه المسيرة الطويلة للبشرية، وكان ممّن وضع الخطة لهذا البحث سماحة آية الله العظمى السيد الحسين آل بحر العلوم، الذي وضع منهجية لبحثه الطويل بأسم: «الثورة الحسينية بجذورها ومعطياتها»، حيث يضع امام الباحث الجذور التاريخية لهذا الصراع وخارطته، كما يظهر اثارها وبركاتها فيما تحقّق للمظلومين والمستضعفين الذين استناروا بمصباح الهدى وركبوا سفينة النجاة، لكن العمر والاجل والحصار الذي فرضه طاغية الزمان وديكتاتور العصر لم يمهل سيدنا الله لاكمال هذه المسيرة فاكمل الجزء الاول وهو الجذور ووصل به المطاف الى المعركة التي انتصر بها الدم على السيف، فكانت هذه الاجزاء الخمسة، التي طبع بعضها في ايام

حياته، واكمل طباعتها بعض احبته وتلامذته من بعده.

ولا همية هذا الكتاب، وكثرة الطلب عليه، ووفاء لذكره العطرة، نعيد طباعة هذا السفر المهم بحلته القشبية ليكون في متناول الباحثين والمؤرخين.
واتوجه بالشكر الجزيل لكل من ساهم في طباعته من عائلته واحبته وتلامذته، راجياً من العليّ القدير ان ياخذ بيد الجميع لما فيه الخير والصلاح، وان يوفّقنا لما فيه مرضاته.

. محرم الحرام / ١٤٢٩

مكتبة العلمين العامة / النجف الأشرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

□ ينتهي نسب سيدنا بحر العلوم «حفظه الله» بواسطة الإمام السبط الأول الحسن بن علي عليه السلام إلى شرف النبوة ومجد الامامة.

فهو الحسين بن التقي بن الحسين بن ابراهيم بن الحسين بن الرضا بن الحجة «المهدي» سيد الطائفة «في عصره» الملقب بـ «بحر العلوم» قدس الله اسرار الجميع.

وتصاعد نسبة الحسيني الشريف إلى الحسن الزكي سبط النبي محمد عليه السلام وابن الإمام علي عليه السلام أظهر من «نار على علم» كما أثبتته الجد الاعلى للأسرة «السيد بحر العلوم عليه السلام» بخطه الشريف، وأخذ عنه كل من ترجم له ولأسرته الكريمة من بعده، وقد ذكرت سلسلة مفصلة ومتصاعدة إلى أمير المؤمنين عليه السلام في مقدمة الجزء الأول من كتاب «رجال السيد بحر العلوم»، المطبوع في النجف فراجع.

قال بعض الشعراء المعاصرين من قصيدة له في مدح سيدنا المؤلف:

أبحر للعلم يا من طببت أصلاً	ويا لبن العاشقين ذرى المعالي
بجدهم تسبحوا (بحر علم)	وملك في الفضيلة لا يجارى
ومن عليائها قطفوا الثمارا	كما في جدهم طابوا نجارا

□ ولد سماحة سيدنا المؤلف في النجف الاشرف، منوى باب مدينة علم النبي عليه السلام في غرة ربيع الأول من سنة ١٣٤٨ هـ وترعرع وفع في كنف والده: آية الله السيد التقي، رائعة عصره في علمه وتقواه، وسلوكه الحسن وخلقه الإسلامي، ونشأ مع بعض لداته وأبناء أسرته نشأة علم ومعرفة وأدب ودين وسيادة وشرف له في بيت أدن الله أن ترفع

(١) كتبت هذه اللمحات في حياة السيد المؤلف عليه السلام (الناسخ).

وَيُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُهُ»، تلك البيوت العريقة بالجد والسيادة، والحافلة بالعلماء والأدباء والزعماء ويتوارثون ذلك المجد وتلك السيادة، كابرأ عن كابر.

□ تعلم القراءة والكتابة والخط والاملاء، وضبط قواعدها على أيدي «الكتاتيب والشيخوخ» في ذلك الزمان، المخلصين في أداء رسالتهم، ومسؤولياتهم تجاه الناشئة المتطلعين لمستقبلهم المنتظر، وهو بعد لم يتجاوز العقد الأول من عمره إلا بنيف من الأشهر.

□ درس وهو في أوائل العقد الثاني من عمره مبادئ العلوم العربية واللغة والصرف والبلاغة، والعروض، والمنطق، والعقائد، والفقه، والرياضيات، وبعض المعارف الأخرى خارج نطاق التحصيل الحوزوي على أيدي المتخصصين يومئذ في تلك المضامير من فضلاء «الحوزة الدينية» ومدرسيها.

□ وفي عرض ذلك التأريخ تطلع إلى تجديد دراسته لتلك العلوم والفنون وتطويرها، فدخل مدرسة «مفتي النشر الدينية» إبان تأسيسها من قبل الحجة الشيخ محمد رضا المظفر والعلية من أصحابه وأضرابه من العلماء، وواصل دراسته المنهجية في صفوفها الأربعة خلال سنوات أربع على أيدي أساتذتها المهرة المتضلعين المر موقين في «الحوزة» بالعلم والأدب والمعارف العامة يومئذ، أمثال: الشيخ محمد رضا المظفر، والشيخ علي ثامر، والشيخ محمد الشريعة، والشيخ علي سماكة، والشيخ سعيد مانع، وأضرابه من عليّة العلماء ورواد الفضيلة والأدب تغمدهم الله برحمته الواسعة.

□ أخذ يدرس وهو في مقربة العقد الثالث من عمره كتب السطوح: من الأصول: المعالم، والكفاية، والقوانين، والرسائل، ومن الفقه: الشرائع، واللمعة والرياض، والمكاسب، ومن الفلسفة وعلم الكلام: شرح التجريد للعلامة بوللقوشجي، واللاهيجي، ومنظومة السبزواري، أسفار ملا صدرا، لدى العلماء المجتهدين المتضلعين في تلك العلوم، وكتبها، أمثال: الشيخ محمد تقي الجواهري، والشيخ محمد تقي الايرواني، والشيخ ميرزا علي الفلسفي، والشيخ أبو القاسم الطهراني، والشيخ محمد أمين زين الدين، والشيخ مجتبي اللنكراني، والشيخ ميرزا جواد التبريزي، والسيد محمد

الروحاني، والشيخ محمد طاهر آل الشيخ راضي، والشيخ محمد تقي آل راضي، والشيخ ميرزا حسن اليزدي، والسيد أحمد الاشكوري، والسيد محمود الحكيم، والشيخ محمد طه الحويزي وأضرابهم من العلوية رحم الله الماضين منهم وحفظ الباقيين، وأنهى دراسة تلك الكتب المذكورة في خلال عشر سنين أو أكثر بنيف من الشهور. وكان في عرض ذلك التاريخ وبعده يواصل تدريسه في الحوزة ومحاضراته في علوم الأصول، والفقه، والتفسير، والفلسفة، وعلم الكلام، حتى تخرج تحت منبره العلمي كثير من الطلبة ورواد الفضيلة من داخل القطر وخارجه.

ثم تسنّم وهو في طلائع العقد الرابع من عمره مراقي «البحث الخارج» في الفقه وأصوله تحت منابر مراجع العصر ونوابغ الدهر يومئذ أمثال: والده السيد التقي، والسيد محسن الحكيم، والسيد حسين الحمامي، والشيخ ميرزا باقر الزنجاني، والشيخ حسين الحلبي، والسيد ميرزا حسين البوجنوردي، والسيد أبو القاسم الخوئي، وأكمل حضوره لدى هؤلاء المراجع العظام، وكتبَ تقريراتهم في الفقه والأصول، ولا تزال من نفائس المخطوطات عنده، وبلغ درجة الاجتهاد وأسس خطواته الأولى وهو بعد لم يتجاوز حدود العقد الرابع من العمر.

▣ وبدأ وهو في أوائل العقد الخامس من العمر ولا يزال يحاضر بنحو «البحث الخارج الاستدلالي» في علمي: الأصول، والفقه في «جامع الطوسي»، ويكتب لنفسه ما يلقيه من البحوث الأصولية والفقهية على مجموعة كبيرة من طلاب «الحوزة» وفضلائها، حتى اجتمع لديه إلى ما قبل هذا التاريخ نحو من ثلاثين (دفترًا) من متوسط الحجم لا تزال من نفائس المخطوطات.

▣ وكان في خلال ذلك التاريخ يحاضر في علم الكلام، والفلسفة، والأخلاق، وعلوم القرآن، والتاريخ الإسلامي في يومي: (الخميس والجمعة) من كل أسبوع، وذلك في جامع الطوسي قبل الظهر بساعتين، ويكتب محاضراته في تلك العلوم والبحوث، ولا يزال يحتفظ بمجاميع كثيرة منها، في ضمن مخطوطاته.

▣ أخذ يقيم صلاة الجماعة ولا يزال في جامع الشيخ الطوسي ظهرًا ومغربًا بعد وفاة

والده «السيد التقي» في ٢٢ من شهر جمادى الثانية لسنة ١٣٩٣ هـ حيث كان هو الآخر أيام حياته إمام الجامع في الأوقات الثلاثة للفرائض الخمس.

✻ نشرت له بعض الصحف والمجلات والكتب والنشرات داخل القطر وخارجة مختلف المواضيع الثرية والشعرية في شتى المواضيع العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية.

كما كتبت عن حياته ونشاطه العلمي والأدبي والتربوي أيضاً بعض الصحف والمجلات والنشرات والمجاميع داخل القطر وخارجه، وبعض موسوعات التراجم والمعاجم المعنية بعرض حياة العلماء والأدباء والمصلحين.

✻ كانت عنده وهو في سن الشباب هواية التطلع والاشتراك في الحفلات الدينية والاجتماعية التي كانت تعقد لمواليد النبي ﷺ وأهل بيته المعصومين عليه السلام ولو فياتهم ومآتمهم في عامة أنحاء القطر، فكان كثيراً ما يلقي فيها بعض المواضيع الثرية والشعرية، فكان حصيلة ذلك مجموعته الثرية، ديوان شعره الكبير ولا يزال الآن قيد الحفظ من مخطوطاته.

✻ كما انتخب أيام شبابه عضواً إدارياً في كل من الجمعيات الثلاث منتدى النشر، والرابطة الأدبية، والتحرير الثقافي (في النجف الأشرف) عدة مرات، كما انتخب عضو شرف في جمعية المؤلفين والكتاب في بغداد.

✻ كانت له «وهو في سن الكهولة» رغبة في السعي لإحياء بعض المشاريع العلمية والدينية، وكان من بينها تشييد جامع الشيخ الطوسي بالشكل المائل اليوم، فقد استثمر العمل المتواصل فيه قرابة ثلاث سنين، وكم كلفه إتمامه: من تعب في الفكر والجسم وفي تحضير المال من هنا وهناك، غير أنه كان يعتبر التعب في سبيل الله راحة في النتيجة، فتكامل الجامع بتوفيق من الله تعالى وتشجيع ودعاء من والده المقدس «التقي» سنة (١٣٨٢) هـ فكان من يوم تمامه وإلى اليوم ولا يزال مركز إشعاع فكري، وديني، واجتماعي ففي الصباح يكتظ بحلقات الدرس والتدريس والبحوث الخارجية، وفي المساء تعقد فيه تجمعات التشييع والفواتح، وفي الظهر والمغرب تقام فيه صلاة

الجماعة من قبل سيدنا «بحر العلوم» بجموع غفيرة من الشباب المؤمن وعوام الطبقات الاجتماعية من النجف وخارجه.

❏ كما تم لسيدنا «بحر العلوم» تأسيس مكتبة عامة باسم «مكتبة العلمين» رمزاً لشيوخ الطائفة الطوسي، ولسيدنا «بحر العلوم» المدفونين هناك، ولا تزال المكتبة منطلقاً للإشعاع العلمي والديني والاجتماعي بما لهذه النسب من مفاهيم عامة، وكانت في الأواخر مركزاً خاصاً لمكتب السيد بحر العلوم من حيث المراجعات العامة لجميع الناس من عامة أنحاء القطر وخارجه، يحضر فيه سيدنا «بحر العلوم» قبل الظهر بساعة وقبل المغرب بساعة مع عليّة أهل العلم والفضيلة من تلامذته وبطانته، فتحل في هذين الوقتين عامة المشاكل الدينية والاجتماعية والاقتصادية، بإشراف مباشر منه «حفظه الله ورعاه».

❏ وكانت لسيدنا «بحر العلوم» سفرة لخارج العراق في كل عام أو عامين تستغرق زهاء الشهر أو تزيد عليه بأيام لغرض التطلع إلى آفاق الحياة العلمية والدينية والاجتماعية، وكان يلتقي من خلال سفراته الحولية إلى تلك البلدان العربية والإسلامية ببعض ذوي المذاهب والأديان فتجري بينه وبينهم بعض المحاورات والمناظرات العلمية والدينية، في القاعات والمساجد والبيوت والفنادق، وفي قارعة الطريق أحياناً، فكان يسجلها في حينها ولا تزال مسوداتها محفوظة لديه.

وبالتالي كان سيدنا «بحر العلوم» أيام الشباب والكهولة، بل إلى حد قريب من مدارج شيخوخته من ذوي الحركة والمواصلة في سلوكهم العلمي والديني والأدبي والاجتماعي إلى حد يستحق الفخر ولا فخر.

❏ حتى إذا وضع قدم عمره المعطاء على مدرجة الخمسين أو تجاوزها بقليل وحدثت ظروف استثنائية حاسمة يتصدع منها الصخر الأصم، بدأ يقلص الكثير من أعماله الخارجية، ومواصلاته الاجتماعية وتحركاته المرصودة، بل وحتى نشاطاته العملية والدينية، فحوّل سكناه من داخل البلد إلى خارجة ضمن «هي العنانة» واتخذ العزلة عن المجتمع بعض الشيء، والصمت عن الكثير من الكلام، وترك الاستماع إلى

كثير من النقلة خصوصاً نقلة السوء، لوأذا من العيون والرقباء، وانصياًعاً لأوامر الأئمة الأطهار عليهم السلام خصوصاً في ظرف الفتن الفاشمة التي دخانها أكثر من نارها، وهي التي يتحسسها المؤمن اليوم في عامة أقطار الأرض، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

❏ وفي السنين الأواخر؛ أي بعد وفاة السيدين المعظمين: الخوئي والسبزواري، رجع إليه بالتقليد بعض الناس من داخل العراق وخارجه، وأصبح يعد من مراجع التقليد في النجف الأشرف، الأمر الذي اضطره إلى أن يخرج من عزلته وانطوائه إلى ظهوره وانفتاحه، بحكم انثيال الناس عليه من هنا وهناك شأن أي مرجع ديني من مراجع النجف الأشرف.

فأخذ يخرج من بيته إلى مكتبه الخاص، داخل جامع الطوسي كل يوم قبل الظهر بساعة، وقبل المغرب بساعة، فيلقي على بعض تلاميذه دروسه الفقهية الاستدلالية، ثم يجلس للناس من داخل النجف وخارجه ومن خارج القطر أحياناً من الواردين والوافدين على اختلاف طبقاتهم، فهناك تحل المشاكل، الاجتماعية، وتجاب الاستفتاءات الشرعية، وتبذل بعض المساعدات المادية للفقراء والمعوزين وعموم ذوي الحاجات، وهناك أيضاً توزع الرواتب الشهرية والمنح في المناسبات الدينية لطلاب العلوم في «الحوزة» وللعوائل الفقيرة، ويتم ذلك ونحوه من قبل وكلاء السيد حفظه الله وبطانة مكتبه الخاص المؤلف من عليّة أهل العلم والفضلاء، ثم إذا أزف الوقت، واذن المؤذن لصلاة الظهر أو لصلاة المغرب، ينفض المكتب من الحاضرين، وينهض سيدنا إلى أداء الصلاة في داخل «الجامع» ويبقى بعد ذلك قليلاً من الوقت في محرابه ريثما ينتهي الناس والمصلون من أسئلتهم وحوائجهم، فيخرج من الجامع إلى حيث «مركبه الخاص» فينقله إلى داره العامرة في «حي الحنّانة»، فيخلد إلى الراحة قليلاً ثم يعاود العمل الدؤوب بعد ذلك، وهكذا حتى إذا كان الليل استمر في الكتابة والتأليف والقراءة، وأداء أعماله الخاصة. ساعده الله، وأخذ بيده، وسدد خطاه لما يحب ويرضى، وللخير العام للمسلمين.

❏ كتب نثراً وشعراً وجمع الكثير مما كتب، فوفق البعض من مؤلفاته للطبع، وبقي

الآخر من نفائس المخطوطات.

أما المطبوعات منها إلى حين التأريخ فهي:

١- تلخيص الشافي للشيخ الطوسي، في الإمامة، طبع في أربعة مجلدات، سنة ١٣٨٣ هـ

هـ في النجف وإيران، لسيدنا منه مشاركة التقديم والتحقيق والشرح.

٢- رجال السيد بحر العلوم الموسوم بـ «الفوائد الرجالية»، طبع في أربعة مجلدات

ضخام، في النجف سنة ١٣٨٥ هـ لسيدنا منه مع عمه الحجة السيد محمد صادق رحمه

الله: مجال التقديم والتحقيق والتعليق المفصل.

٣- بلغة الفقيه: مجموعة مسائل فقهية نادرة للبحث للحجة المحقق السيد محمد بحر

العلوم رحمته، لسيدنا منه: مشاركة مع والده الفقيه السيد التقي رحمته حق التقديم والتحقيق

والتعليق المفصل، طبع في أربعة مجلدات في النجف.

٤- مقتل الحسين رحمته: مجلد واحد ضخيم لوالده الحجة السيد التقي رحمته، لسيدنا منه شرف

التقديم والتحقيق والتبويب في مجالس عشرة، والإضافات الوافية.

٥- موجز الأحكام: رسالته العلمية في الفتاوى الفقهية، طبعت خمس طبعات في

النجف وبيروت، تقع في مجلدات ثلاثة، يبدأ الجزء الأول منها «بعد المقدمة في الاجتهاد

والتقليد والاحتياط» بكتاب الطهارة، وينتهي بكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويبدأ الجزء الثاني منها بكتاب التجارة وملحقاتها، وينتهي بكتاب الظهار والإيلاء

واللعان، ويبدأ الجزء الثالث منها بكتاب اليمين والنذر والعهد، وينتهي بكتاب الإرث.

٦- ألف مسألة ومسألة: مجموعة من الاستفتاءات ترده من داخل القطر وخارجه في

مختلف أبواب الفقه، تشكل سلاسل عشر، كل سلسلة منها تحتوي على مئة مسألة أو

أكثر أو أقل بنيف، طبع (في بيروت لحد الآن) منها أربع سلاسل، اختصت السلسلة

الأولى منها بمسائل الاجتهاد والتقليد وكتاب الطهارة، واقتصرت الثانية منها على

كتاب الصلاة، كما اقتصرت الثانية منها على الكتب الثلاثة: الصوم والزكاة والخمس، كما

اقتصرت الرابعة منها على كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا زلنا نعد لسيدنا

بحر العلوم مسائل بقية السلاسل حتى ننهيا إلى العشر إن شاء الله.

٧- كتاب الجهاد في الإسلام، طبع في كراس صغير في بيروت.

٨- الصلاة هوية المسلم، طبع في بيروت عدة مرات.

٩- الصوم عبادة وإرادة، طبع في بيروت عدة طبعات.

١٠- ملامح العظمة في المعجزات الثلاث للإسلام: القرآن، محمد، علي، طبع في

بيروت مرتين.

وأما المخطوطة منها فعدد كثير قد ينوف على عشرة، وهي «إلى حين التاريخ»

١- المحاضرات في الفقه الإسلامي: موسوعة فقهية تناهز العشرين جزءاً أو أكثر،

مسوداتها متكاملة، وانتهى التبييض والتهينة للطبع منها: لمجلدات سبعة فيما يخص

الاجتهاد، والتقليد، وكتاب الطهارة، والصلاة، والصوم، والزكاة، والخمس، ولا يزال

يستمر سيدنا في تببيض بقية الأجزاء، وهي حصيلة بحوثه الفقهية الاستدلالية التي كان

ولا يزال يلقيها على طلبة «الحوزة» بنحو «البحث الخارج الاستدلالي» صباح كل يوم من

أيام التحصيل، وفي جامع الطوسي.

٢- مجموعة محاضرات في علم الكلام (مجلد واحد)، كان يلقيها على طلبة العلم

في جامع الطوسي (صباح كل خميس).

٣- مجموعة محاضرات في علوم القرآن (يقع في مجلدين)، كان يلقيها على طلبة

الحوزة ورواد الفضيلة من غيرهم صباح كل جمعة في جامع الطوسي.

٤- المجالس العشرة في مجلد واحد، كان (ولا يزال) يقرأها في مجلسه الخاص في

بيته ليالي العشر من المحرم، يستعرض فيها واقعة الطف من البداية إلى النهاية.

٥- شذرات ذهبية: مختارات من كلمات وحكم النبي ﷺ وأهل بيته

المعصومين عليهم السلام، مع شرح بسيط لغوامضها، يقع في مجلد واحد.

٦- صفحات مشرقة من تاريخ أهل البيت، يستعرض فيه (بايجاز) تاريخ النبي ﷺ

وأهل بيته المعصومين، مدعوم بمصادر معتبرة، يقع في مجلدات أربعة^(١).

٧- شرح منظومة جده الأعلى السيد بحر العلوم في الفقه، المعروفة بالدرة النجفية،

في مجلد واحد.

٨ - الهاشميون: نسباً وتاريخاً: مجلد واحد.

٩ - من كل قدر معرفة: مختارات من الكتب التي قرأها واختارها في مختلف العلوم والأدب والفنون، أشبه بالكشاكيل المطبوعة، يقع في مجلدين.

١٠ - مجموعة الأدعية والأحراز والتعاويذ والحجبات والختومات، مجلد واحد.

١١ - مجموعة الأراجيز الشريفة في مدح ورثاء النبي ﷺ وأهل بيته

المعصومين ﷺ، مجلد واحد.

١٢ - زورق الخيال^(١)، وهو ديوان شعره الكامل، ويحتوي على الكثير مما كتبه في مدح النبي ﷺ وأهل بيته المعصومين ﷺ ورثائهم، رتبته على حروف المعجم من قوافي الشعر، يقع في مجلدين ضخمين، وقد طبع البعض منه في بيروت (قبل أكثر من عشر سنوات).

١٤ - وأخيراً «الثورة الحسينية» جزورها ومعطياتها، وهو الكتاب الذي نحن بين يديه، يستعرض جذور الثورة، قصتها الأليمة بتفصيل، ثم يتحدث فيه عن معطيات تلك الثورة من أحداث وثورات مما لها أي مساس بالثورة، يقع في مجلدات خمس أو أكثر^(٢). ولا تزال رواد الفضيلة وطلاب المعرفة والأدب «داخل القطر وخارجه» تنهل دائماً من فيض فكره، ورشح قلمه، وطلاقة بيانه، وواقعة عرفانه، وعطاء سلوكه وأخلاقه، وغيرها من الصفات مما يجعله في مصاف الخالدين من الدعاة المصلحين في الحياة.

إذ لا يزال يبذل للأمة كل جهده في لياليه وأيامه، ولا يعرف طعماً للراحة، ولا ينام من الليل في قلبه وفكره، والأمراض الكثيرة التي لا تفارقه، والضغطات السياسية والاجتماعية التي تكاد تعيق مسيرته الإصلاحية، وتناجيه العلمي، سواء كانت من داخل «الحوزة» والقطر أم من خارجها، لكنه بدوره يقابل ذلك كله بالتصبر والتوكل على الله

(١) استلقت منه القصائد التي هي في مدح ورثاء النبي وأهل بيته ﷺ، وطبع بعد وفاته ﷺ بعنوان «الباقيات الصالحات».

(٢) تم طبع جزئين في حياته الشريفة، وطبع ثلاث أجزاء بعد وفاته ﷺ.

تعالى، والتوسل بالنبي ﷺ وأهل بيته المعصومين  أن يكشف هذه الغمة عن هذه الأمة، إنه على ذلك قدير.

وختاماً ندعو الله العلي القدير أن يطيل عمر سيدنا «بحر العلوم» وينفع المسلمين بوجوده وجوده المعطاءين، إنه سميع مجيب وعباده رؤوف رحيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غزة ربيع الأول / سنة ١٤٢٠ هـ

إدارة مكتب السيد بحر العلوم / النجف الاشرف: جامع الطوسي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد، صلى الله عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين.

وبعد، فكثيراً أولئك الذين كتبوا عن ثورة الحسين بن علي عليه السلام ونهضته في وجه الكفر والطغيان، المتمثلين (يومئذٍ) بطاغية بني أمية: يزيد بن معاوية، وصنيعته: جرثومة الفساد: عبيد الله بن زياد، ويطانتيهما: من عموم بني أمية، وآل زياد، ومن لفٍّ لفهما: من المتزلفين، وسقط المتاع.

أجل لقد كتب الكثير من ذوي الأفكار المجنعة، والأقلام المرهقة عن ذلك الموضوع، المترامي الأطراف، المتباعد الأهداف، منذ العصور الماضية، حتى عصرنا الحاضر.

فخاضوا ذلك البحر الخضم. وتناولوا الموضوع: عرضاً واستقلالاً، وبعناوين متواردة الأساليب، وبيحوث متوالدة المضامين.

وأسموا ما كتبوه بنحو الاستقلال: مقتل الحسين، أو ثورة الحسين، أو نهضة الحسين، أو واقعة الطف، أو حديث كربلاء.

إلى أمثال تلك الاسماء والعناوين التي تنضوي تحت أطرها الواسعة: عامة ما تحتويه «الثورة» من مقدمات وأسباب، وفصول وأبواب، ونتائج وآثار: انطلاقاً من بدايتها في المدينة، ووصولاً «في مسيرتها»: إلى نهايتها في كربلاء، حيث موقعة الملحمة المشرفة، وكسب الظفر النهائي بالتضحية والفداء، أو إلى نهايتها في الشام، حيث انتهاء المسرحية الحاقدة بكمال مرحلتها: من القتل، والسبي، أو إلى نهايتها في المدينة،

رجوعاً إلى منطلقها الأول، أو إلى أبعد من ذلك الأمد المحدود، والهدف المرصود، بل إلى أية نهاية يمكن أن يمتد إليها سنى الثورة ويبلغها صداها بأسلوب اعلامي مصرح، كان لا بد منه في تصدير مفاهيمها الإصلاحية إلى أطراف الدنيا.

وعلى غرار تلك النظرات المحدودة، وغير المحدودة من قبل الكتاب والمؤلفين بالنسبة إلى بداية الثورة ونهايتها جاءت كتبهم ومؤلفاتهم عن الموضوع بأحجام وعروض مختلفة الكمية والكيفية، على ضوء ما حددته النظرات والأهداف قصراً أو امتداداً، اقتضاباً أو إسهاباً.

ونحن مشاركة منا في شرف الانخراط مع أولئك الذين تشر فوا باقتحام هذا الميدان الواسع المشرف فكتبوا ما شاء لهم التوفيق أن يكتبوا فيه.

شئنا عن ذراع الجبد، بالرغم من ضعف الحال، وتشويش البال، مستعينين بالله تعالى، وببركة النبي محمد ﷺ وحببيه وامتداد وجوده الرسالي: الحسين بن علي رضي الله عنهما، فكتبنا هذا الكتاب، الذي نحن بين يديه: عرضاً تاريخياً متسلسلاً، وتحقيقاً واعياً، ومفاهيم إسلامية نابضة، إلى ما هنالك: من أدب، وشعر، ومثل ونقد، ونحو ذلك من المعارف التي تتخلل فصول الكتاب، وتمت إليه بصلة.

نظرة منا إلى سعة حجم «الثورة الحسينية» بحكم نظرة مفجرها الواسعة، وتفكير مخططها العميق: الإمام الثائر عليه السلام، فلا مناص من توسيع عرضها على «شاشة» التاريخ، والمطاء بفصولها المتسلسلة، إذ لا بد أن يكون لها منبع تنحدر منه، كما لا بد أن يكون لها منطلق تعرض فيه، كما لا بد أن تكون لها عطاءات، متواصلة الإشعاع، عالية الأصداء، بعيدة الآفاق.

لذلك كان لزاماً علينا ونحن نريد أن نتعرف على شمولية الثورة ولو عن كتب أن نتعرض إلى أسباب الثورة وجزورها، التي منها تحدد الصراع بين حسين الحق، ويزيد الباطل، أخذاً من الأعالي بالمقارنة، وأستميح أدب التعبير من هذه التسمية بين قبيلتي هاشم وأميه، على ملاك العدل والزيغ، والفضيلة والرذيلة، والمحاسن والمساوئ، وما إلى ذلك: من مقارنات، ومفارقات ذاتية، ومكتسبة، ثم نستعرض بعض معطيات الثورة،

وحصائلها مما لا يمت لها بأدنى صلة.

وعلى هذا القرار، يستقيم الكتاب بعدة أجزاء، وفصول عدة، بادئة من عرض الجذور والأسباب، ثم عرض وقائع انطلاق الثورة في المدينة، فإلى مكة، وفيها، حيث بلورة الفكرة، وإنضاجها، ومنها: مسيرة الركب الشائر إلى العراق، حيث الواقعة المأساوية في كربلاء. ومن ثم: عرض الحوادث التي جرت على أجساد الشهداء، وعلى أهل بيت الحسين عليه السلام، بعد انحسار الواقعة يوم عاشوراء، ثم ترحيل السبايا إلى الكوفة، وما جرى لها وعليها في الطريق، وفي الكوفة. ثم مسيرة السبي من الكوفة إلى الشام، وما جرى من حوادث في الطريق وفي الشام، ثم عرض كيفية قفول الركب النبوي من الشام، مروراً في كربلاء، وما جرى من حوادث في الطريق وفي كربلاء، وأخيراً رجوع الركب المقدس بالحزن والاسى إلى المدينة المقدسة، منطلق البداية لهذه النهاية.

وبالتالي: عرض بعض الحوادث التي وقعت بعد ذلك في المدينة المنورة مما لها أواصر مشتبكة بالثورة الحسينية الخالدة، ومن معطياتها المباشرة وغير المباشرة. ثم ذكر بعض الثورات السياسية التي نتجت من الثورة الحسينية، أو تأثرت بها عن كثب.

ومن فصول الكتاب أيضاً: عرض وتلميح لبعض الملحقات التي لها صلة ما بالثورة، وأبالحسين عليه السلام من حيث الأثر الواسعة والأداف البعيدة، وغيرها من فصول الكتاب، التي لا يسعنا استعراضها في هذه المقدمة السريعة.

وربما يتميز كتابنا هذا بجميع أجزائه وفصوله عن الكثير مما كتب في هذا الموضوع من قبل بتسلسل العرض، ودقة التحقيق، ودعم ما جاء فيه بالمصادر المعتبرة المطبوعة منها والمخطوطة، فقل أن نورد فيه موضوعاً مهما كانت هويته التاريخية غير مدعوم بأكثر من مصدر واحد: من كتب السير، أو المقاتل، أو التراجم، أو الأساب، أو الآداب، أو نحوها من المصادر التي وقفنا عليها مباشرة أو اعتمدنا على ما نظمثن إليه من الواسطة، كما ينذر أن نذكر في الكتاب رأياً مهما كان نوعه عن مصادرة، من دون تحقيق وتثبت.

فالكتاب بعد هذا: بحث موضوعي، ونقد أدبي، وعرض تأريخي، وكتاب مقتل ملحمة ثورات، ومنجم تراجم، وسفر أدب، وسلسلة أنساب، إلى ما هنالك مما يتخلل البحوث والعروض: من فوائد وفرائد، وتوابع وملحقات قد لا يجدها القارئ المتتبع بغير جهد جهيد في مظانها من أمهات المصادر ومناهل الموارد القديمة والحديثة، والمطبوعة وغيرها.

وقد أسمينا الكتاب لسعة محتوياته، وتشابك جذوره وثمراته «الثورة الحسينية: بجذورها ومعطياتها».

ورتبناه على فصول، متواصلة العرض، متشعبة المضامين، منسقة الترتيب على حسب ما يوحيه عنوانه المذكور.

وقد استأثر الجزء الأول منه بالأوائل من فصوله العديدة، ولم تخرج أبوابها عن نطاق: جذور الثورة، وأسبابها.

● الإهداء

وأخيراً وبعد هذا العرض البسيط عن ذلك المجهود المتواضع، والإلماع إلى بعض محتوياته وفصوله، أرفعه بكلتا يدي بفخر واعتزاز إلى ذروة المقام النبوي الشامخ: هدية متواضعة، وبضاعة مزجاة، وذلك بحكم الآصرة المحبوبة بين الشخصين والرسالتين: شخصية النبي المصلح العظيم، المبلغ رسالة السماء إلى أبناء الأرض كافة، وشخصية الإمام الثائر الكريم، المنصب في امتداد تلك الرسالة، وتجسيدها من حجمها الرسالي المجنح إلى صعيدية التضحية والفداء، ليمتد بها العمر، وينهمر منها العطاء. إن تلك الآصرة الملتحمة بين ذينك الشخصين، وتينك الرسالتين في المد والامتداد، والزرع والسقي، هي التي رمزت إليها الكلمة النبوية الخالدة على لسان النبي العظيم: «حسين مني وأنا من حسين»، وذلك من حيث المسيرة من حيث المنطلق والضخم والهدف البعيد بين ما أسسه النبي محمد ﷺ في بيعته الإسلامية، وما شيده الإمام الحسين عليه السلام في نهضته الإصلاحية.

راجياً من المهدي إليه - وهو النبي الأكرم - قبول الهدية المتواضعة الضئيلة، لولا أنها

مشفوعة باسم حبيبه، وريحانته الحسين بن علي والزهراء عليهما السلام.

كما أرجو أن ينفعني هذا المجهود البسيط عن الله «الرؤف الرحيم» ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.﴿

خصوصاً، وأنا خيط دقيق من تلك الملحمة النبوية الشريفة، ونبضة ضئيلة من ذلك القلب العطوف الكبير، وقبسة خافتة من نور الإمامة الوهاج.

وتلك الصلة - لعمرى - على تضاؤلها من أوسع أبواب شفاعتي، ومن ألمع وسائل دالتي إلى التقرب من حضرة ذلك المقام الشامخ، والتطاول إلى أوج ذلك المجد الباذخ، وذلك هو الشرف، كل الشرف، والحمد لله رب العالمين.

النجف: العراق المؤلف

في غرة محرم الحرام سنة ١٤٠٩ هـ الحسين بن التقي آل بحر العلوم



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الجزء الأول

يحتوي على فصول ثمانية تختص «هاشم» والمليحة من بني ه



مرکز تحقیقات کلامی و فقهی اسلامی

● حسين مني، وأنا من حسين

كلمة الوحي المبين، تنطلق على مدى القرون والأجيال؛ غضة معطاء على لسان محمد ﷺ سيد الأنبياء والمرسلين، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . إنها كلمة ذات فقرتين، كل منهما لها معنى ظاهري، ومعنى باطني.

أما المعنى الظاهري، فلا يتعدى كون الحسين من محمد - نسباً - باعتباره ثاني سبطيه الشريفيين من ابنته الصديقة الزهراء ؑ، وأن وجود محمد ﷺ - نسبياً أيضاً - من الحسين ؑ، بحكم كون المحمدية منه على اختلاف تفرعاتها وتفرعاتها، فإن الأمة التسعة الذين هم أصول العلويين والفاطميين باستثناء علي والحسين من ذرية الحسين ؑ، وهذه إحدى الخصائص الثلاث التي جعلها الله تعالى بالجعل التكويني للحسين ؑ: إعلاء لشأنه وتقييماً لمقامه، وجزاء لشهادته في ذات الله، بتلك القفاعة المنقطعة النظير.

الإثنان الأخريان هما: جعل الشفاء في تربته المطهرة، واستجابة الدعاء تحت قبته المعظمة، كل ذلك طبعاً شريطة الإيمان والاعتقاد واللجوء.

قال الشفهي من قصيدته الجزلة.

له نربة فسيها الشفاء وقبة	يجاب بها داعي إذا مضى الضر
وذرية دريعة منه تسعة	أئمة حق لا ثمان ولا عشر

هذا هو المعنى الظاهري البسيط لكلتا الفقرتين من الكلمة النبوية الموجزة، وهو المعنى الذي يلوح ويبدو لكل من قرأ الكلمة أو سمع بها، من دون تعمق فيها وراء ذلك: «الحسين سبط محمد، ومحمد جد الحسين وأبناؤه البررة».

أترى أيها القاريء الواعي أن محمداً ذلك العملاق العظيم في النظر البعيد والفكر الحديد الذي نزل عليه القرآن الكريم بمحكمه ومتشابهه، وهضمه بعمي وتأمل، ذلك

النبي المرسل من قبل الله تعالى للعالم كله، من أجل انتشاره من الضلالة والعمية إلى الرشاد والهداية، وهو يريد أن يخلد حسيناً المجدد لدينه، والباعث الروح في رسالته، بكلمة إطراء وثناء، يبقى صداها عالياً متجاوباً في أرجاء الحياة، غصاً متمامياً ما دامت رئة الدنيا تتنفس بالوجود، وتتأفح بالعطاء.

أترى محمداً يقنع بهذه العفوية الظاهرية من الكلام، ويرضى لنفسه أن يخبر عن قضية خارجية، بديهية المراد، وسطحية الهدف، ووجدانية العرض: من حيث الروابط والأمشاج النسبية والوراثية بينه كجد، وبين حسين كسبط، انشداد الفرع بأصله، وتكوين الأصل لفرعه؟ إن ذلك ونحوه من القضايا البديهية الخارجة كما يسميها المناطقة كقولك: «الليل ليلٌ والنهار نهارٌ».

لأحسب أن محمداً كذلك المفكر العظيم -يكتفي بتلك البساطة من التعبير الظاهري وهو يريد أن يطري حسيناً، سيظه النائر في وجه الكفر والضلال ويخلده بأقصر كلمة، يفرض أن يبقى صوتها يرن في أذن التأريخ المديد، ويتجاوب صداها مع عمر الدنيا، بل لأحسب أن يقتنع الوعي المجنح، والعقل المتأمل من منطق الرسالة، ولسان الوحي المبين بذلك الإخبار البسيط، بكلتا فقرتي الكلمة: إنها كلمة النبوة الرسالية ذات الوحي الإلهي تقال في مقام إطراء الإمامة القدانية للإسلام، والامتدادية لوجوده الخالد بما لهذا التعبير: من معنى أعمق، ومدلولٍ أطلق، وتركيزٍ أوثق.

بعد أن ننفض يد البساطة والعفوية من التفسير الظاهري لهذه الكلمة الرائعة، المنطلقة من لسان عبقرٍ رائع، لا بد لنا أن نقور في أعماق التفسير الباطني لفقرتي الكلمة، فنعطئها حق الإطراء النبوي للناثر العلوي، فنقول:

أما الفقرة الأولى من الكلمة: «حسين مني» فتعني امتداد الرسالة المحمدية، فحسين الإمامة -بذاته وذاتياته- امتداداً طبيعياً لمحمد الرسالة -بذاته وذاتياته- أيضاً -في ضوء التخطيط الفكري البناء، ومن خلال التركيز الهادف، فإن حسيناً لم يتجاوز الخط الرسالي الذي خطه له جده النبي محمد ﷺ بأمر من الله تعالى على لسان الوحي المبين، فلقد أبلى بلاء حسناً في دوره الطبيعي يوم الطف، فانصاع لما أمره الله ورسوله

تمام الإنصياح، وأجزل في العطاء والفداء بما لها تين الكلمتين من معنى مشرف في سبيل تركيز كلمتي الشهادة في أبعد مرامي المعمورة، وأوسع آفاقها.

وأما الفقرة الثانية من الكلمة: «وأنا من حسين» فتعني: أن رسالتي الإسلامية سر خلودها، ومواصلة مسيرتها، بل وتحقيق أهدافها الرسالية، كل أولئك تستقي من حسين العظمة وحسين الشهادة بعطائه الثري، وبفدائه السخي دون كلمة التوحيد، وتوحد الكلمة، حيث إن التعريش الرسالي لشجرة الإسلام «محمد» الوارفة، ما كان ليتكامل، ويعطي ثمره المنداح على مدى الوجود، لولا حسين الفداء، وتضحيته الهادفة، وعطاؤها الثري، وسقيها الدموي، وهذا الواقع المصغر ينطق على لسان الحسين عليه السلام وهو يقول في عزيمة كربلاء وحيداً فريداً بين الأعداء، فيطلق كلمته المأثورة رافعاً يديه إلى السماء: «إلهي إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى».

وفي لحظات حياته الأخيرة وهو طريح على الرضاء الصالية يناجي ربه برفان حنانه وطهارة لسانه، فينشد قول رابعة العدوية، كما قيل:

تركبت الضلوق طرّاً في هواها وأبستت العيال لكي أراكا
فلو قطعني في الحب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا

وهنا يكمن التركيز النبوي البناء، والتهديف الرسالي المعطاء، فإن خلود سر الوجود بخلود امتداده، واندياح عطائه، وإن سمو المعنى بسمو الذات، وسمو الذات بسمو الذاتيات، والأصول في فروعها، والفروع تتبع من أصولها.

وهذا المعنى الدقيق والمحتوى العميق من فقرتي الكلمة النبوية الخالدة، هو الذي كان يرمي إليه المصلح العظيم الإمام المجاهد الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء عليه السلام في كلمته الهادفة، التي لا يزال صدى فحواها يتجاوب مع عمر الدنيا، حيث يقول في عرض حديثه عن الثورة الحسينية: «الإسلام محمدي الوجود، حسيني البقاء» يالها من كلمة صغيرة في ميناها، كبيرة في معناها.

لقد أصفق الذين كتبوا عن الحسين عليه السلام، ولید العظمة وشهيد الكرامة، على أنه من أبرز الشخصيات الانسانية في عامة مراحلها التاريخية، ومن أروع من ظهر على «شاشة»

الخلود، بمختلف مسرحيات العظمة والصلاح والإصلاح، ومن أسمى القمم الشاهقة في سماء الفكر والمعرفة، ومن أنبل المثل الفدائية في سبيل المبدأ والعقيدة، ومن أركز الأرضيات الصلبة في تكوين الحضارة التي كانت تتطلع إليها حياة الإنسان العربي منذ قرون وقرون.

إن حسناً ذلك العملاق الانساني، الذي بلور قضايا الانسانية المصيرية، على اختلاف أهدافها ومراميها في الحياة، فجعلها في متناول التطبيق من دون تكلف والتواء، إنه ذلك المصلح الثائر، العبقرى الفذ، الذي خطط للمصلحين والتأثرين في مضامير الإصلاح والثورة: النهج الذي يستهدف الاعجاز والتحدى والخلود، وكتب لثورته البناءة، بدم الغداء والشهادة - بيانها الأول - وهي بعد في مهدها الفكري، ومنطلقها الطبيعي، حيث أدلى لأخيه محمد بن الحنفية، وقد سأله هو الآخر عن سبب خروجه من مدينة جده فقال له مما قال: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي محمد ﷺ، أريد أن آمر بالمعروف، وأنهي عن المنكر، وأسير بسيرة جدي محمد، وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر، حتى يحكم الله بيني وبين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين».

إن ثورة الحسين عليه السلام مثلى فريضة في جنب ثورات المصلحين العظماء في العالم من قبله ومن بعده، حيث استهدف الأهداف المصيرية لجميع الشعوب المضطهدة تحت نير الاستعمار الظالم بشتى جهاته وتبريراته، والممتهنة أمام الارستقراطية الغاشمة بشتى أساليبها ومتعلقاتها، فان الإمام الحسين عليه السلام في ثورته الإصلاحية لم يكن ينشد أي مطمع سياسي، ولم يرم إلى أي نفع مادي، بل كان بثورته ينشد الإصلاح الجذري الشامل، ويرمي إلى العدل الاجتماعي الهادف، والتركيز الأوغل، والتأثير في إعلاء كلمة الله في الأرض، فلا غرابة بعد نشدانه تلك الأهداف النبيلة بأبعادها الواسعة أن تستعرض ثورته الدنيا بالخلود، وتستوعب الأرض بالعرض، وتستقطب الإنسانية والاسلام في نظر واحد.

إن ثورة بهذه النظرة الشمولية المنداحة، لجديرة أن تبقى تسير ركب الانسانية

الزاحف، حاملة بين ثناياها شعار الحق والصدق والوجدان. وملوحة بطغرائها الأسمى إلى الأبعاد الشاسعة للكرامة، والسنن الأبلج، والفتح المبين.

ولواستعرضنا تاريخ الإسلام «بخاصة» وتاريخ الإنسانية «بعمامة» لم نجد أثر من الحسين (عليه السلام) دالة وعطاء أعلى التاريخين «معاً» من حيث كونه المنقذ الأمثل والمجدد الأفضل والساعد الأعيل للإنسانية المضطهدة في العالم المجهول، وللإسلام المظلوم من قبل أهله ومدعي الانتساب إليه، حيث أجهزت على واقعه السياسي الاجتماعي الأموية الرعناء، فتركته ينوء بجراحاته العميقة من جراء التحلل الآجن، والتفسيخ الماجن، والانهيار الخليع في الداخل والخارج، ولم يكن ليستعيد بعض قواه في وجه الجاهلية العمياء والضلال السافر، وأصبح كالضوء الخافت، والذوق الباهت، حيث قد اصحرت السلطة الأموية عما في نواياها الإنسانية بالجهد لقرارات الإسلام، فلا وحي منزل، ولا نبي مرسل، ولا كتاب تشريع، ولاجنة ولا نار، ولا ثواب ولا عقاب، فهذا أبو سفيان أعمى البصر والبصيرة يجهر بكلمته الجرئية الكافرة أمام الملأ الحاشد من بني أمية وغيرهم، أمام حكومة عثمان وفي بلاطه الأموي ويسمع منه ومن بطانته، فيقول: «تلافوها يا بني أمية تلاف الكرة، فو الذي يحلف به أبو سفيان لاجنة ولا نار، ولا ثواب ولا عقاب». ويقصد بضمير «تلافوها»: الخلافة والإمرة، ويأتي من بعده المنافق الذي يظهر الإسلام، ويبطن الكفر «معاوية بن أبي سفيان»، فلقد كان يغلي قلبه حقداً وضغناً على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلى ذريته.

فقد سمع المؤذن (يوماً) يقول «أشهد أن محمداً رسول الله»، فقال: «الله أبوك يابن عبد الله لقد كنت عالي الهمة ما رضيت لنفسك إلا أن تقرن باسم رب العالمين»، شرح النهج للحديدي. ومكث في أيام خلافته أربعين جمعة لا يصلي على النبي (صلى الله عليه وآله)، فقيل له في ذلك؟ فقال: «لا يمنعني عن ذكره إلا أن تشمخ رجال بآئالها»، النصائح الكافية.

ثم يجي دور يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: ابن الكفر والضلال، وحفيدهما، ذلك الفتى الأرعن الماجن الخليع، فقد حسب بعد قتل الحسين (عليه السلام)، أن الأمور استوسقت له، فأخذ يهز أعطافه جذلان مسروراً حينما وضع الرأس الشريف بين يديه فأخذ يضرب

ثنايا أبي عبد الله الحسين عليه السلام بمخصرته، ويطرئ بأبيات ابن الزبيرى ويقول:

لبت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخنزرج من وقع الأسل

لأهلوا واستهلوا فرحاً لعبت هاشم بالملك فلا

ثم قالوا يا يزيد لا تشل خسر جاء ولا وحي نزل

أرايت كيف تحدرت نطفة يزيد الخبيثة الكافرة من النطفتين الخبيثتين الكافرتين لأبيه وجده، ذلك الثالث اللعين على لسان رسول رب العالمين، فقد ذكر المؤرخون: أن رسول الله صلى الله عليه وآله رأى (يوماً) أبا سفيان مقبلاً على حمار، ومعاوية يقود به، وابنه يزيد يسوق به.

فقال: «لعن الله القائد والراكب والسائق».

ومن المقطوع به: أن لعن رسول الله صلى الله عليه وآله كل من لعن الله تعالى لا يطلق على غير الكافر، فانعم وتأمل؟

ولما رأى الإمام الحسين عليه السلام ريب النبوة، ومنتجع الإمامة، أن ذلك الغزو الجاهلي الأموي كاد أن يجتاح العالم بأسره، وهو يندرب بالخطر الذي يلوح (من قرب) وتماس بانهار ما أسسه جده محمد صلى الله عليه وآله وعلى عليه أبوه علي عليه السلام، حيث تخلى عامة المسلمين عن الدفاع المباشر عن عقيدتهم، والذب عن إسلامهم، لسبب ولغير سبب، وتخدير أفكارهم المؤمنة بشكل غير منتظر «نتيجة» الخوف المفرغ، والطمع المنجع، عند إذ انتفضت في واقعه المناراحيمية الانسانية، ونخوة الإسلام، فتمخضت عن تلك النهضة الجبارة التي طبقت العالم المأهول بأصداها المتجاوبة في الصلاح والإصلاح والهدم والبناء، فأعلن (سلام الله عليه) أمام التأريخ المديد جهاده المسلح بسلاح العقيدة والإيمان، والتخطيط الثوري في وجه تلك الطغمة الأموية الغاشمة، والسلطة المستبدة الظالمة، هنالك أصح بخطابه الثوري الذي ألقاه على الحر بن يزيد الرياحي وجيشه الألفي، وقد بعثه ابن زياد ليجمع بالحسين وجيشه الزاحف إلى شرف الغداء دون الإسلام، المتمثل يومئذ بالحسين عليه السلام، ليقهره على الرجوع إلى المدينة، وكان اللقاء قريباً من الكوفة، فقال عليه السلام مما قال في خطابه: «أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: من رأى

سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرم الله، ناكثاً عهده، مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، إلا إن هؤلاء - يعني بني أمية ومردتهم - قد لزموا طاعة الشيطان، وتولوا عن طاعة الرحمن، أظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفي، وأحلوا حلاله...».

وبالتالي، فقد نشر الحسين عليه السلام بثورته البناء راية الإسلام خفاقةً على عامة ربوع الكرة الأرضية، بعد أن كانت مطوية العرض والفداء برهة من السنين، حتى إذا جاء دور الحسين عليه السلام فعمل بنهضته الرائعة من حيث تخطيطها الهادف، وتطبيقها الزاحف على تكوين الحس الاجتماعي وتجسيد الشخصية الذاتية في كيان الأمة لكي تنطلق بعد الحذر والرقبة من واقعها المضطهد إلى تأريخها المنتفض في وجه الظلم والاستبداد، المتمثلين بالحكم الأموي الغاشم، ذلك الحكم الذي جهد بكل قواه على وأد الحقيقة الإنسانية من أصلها، ودفن العقيدة الإسلامية في مهدها.

إن ثورة هادفة كهذه الثورة لجديرة باللطف والعناية من الله تعالى في الدنيا والآخرة، ثم جدية (أيضاً) أن يمدّها التاريخ، كما يمتد منها، بالخلود والبقاء، وأن يهبها، كما يتهب منها، المجد والعظمة، والايثار والتركيز والزحف المقدس على سعة ما لهذه الكلمات: من مفهوم أوسع ومستوى أرفع، وتهديف أوقع.

وحصيلة هذا وذاك: أن حسيناً بثورته نفس محمد برسالاته، وليست تلك المقارنة بالكثيرة على هذين العظمين في عالم الإنسانية، قبل عالم الإسلام، من حيث التخطيط الفكري، والتطبيق البناء، فلا غرو إذا حصل من بين هذين ما ملأ الخافقين: من الوجود والجد، والصمود، والإصرار والحق.

إن محمداً بصموده وإصراره وحقه الذي واقف بذلك قريشاً بكلمته الحاسمة التي قالها لعمه أبي طالب، مؤمن قريش: «يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته».

هو نفس الحسين بصموده وإصراره وحقه الذي واقف بذلك الطغمة الأموية المتمثلة حينئذ بيزيد وابن زياد ومردتهما بكلمته الخالدة: «والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا

أقر إقرار العبيد» .

يا للعظمة والخلود لهذين العظيمين في التاريخ، يا للسخاء والعطاء لهاتين الثورتين في وجه الكفر والتمرد الجاهلي، تأسيساً وامتداداً، وكفى بذلك فخراً واعتزازاً، على مدى التاريخ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

غرة محرم لسنة ١٤٠٩ هـ

الحسين بن النقي آل بحر العلوم: النجف / العراق

وبعد هذا العرض السريع عن الثورة الحسينية وتخطيطها وأهدافها ندخل في سرد
الفصول المتسلسلة من الكتاب، فإلى الفصل الأول:

الفصل الأول

مدخل لعرض جذرية الصراع

بين الهاشميين والأمويين

ثم الحديث - بإيجاز -

عن سلسلة النسب والعقب بين الشجرتين

وبيان أول خلاف في بني الإنسان



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

● جذرية الصراع بين الهاشميين والأمويين

ذكر أرباب التاريخ والنسب: أن بني هاشم وبني أمية بطنان من أب واحد، وهو عبد مناف^(١)، بن قصي^(٢)، بن كلاب^(٣)، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر^(٤)، إلى

(١) واسمه (المنفزة) وسمته أمه حبي بنت حليل بـ (عبد المناف)، لأنها أهدته إلى (مناف) تصحيف (مناة) أعظم أصنام مكة يومئذ، فغلب عليه اسم (عبد المناف). وكان عبد المناف يدعى (القمر) بجماله وحسنه. كما يدعى (السيد) لشرفه وسؤده في قريش. كما قال عنه معاصره الشاعر الجاهلي مطرود الخزاعي من أبيات:

كانت قريش بيضة فتلذت
فالمح لخالصة لعبد مناف

ولما هلك قصي بن كلاب قام عبد المناف بن قصي على أمر قصي بعده، وأمر قريش إليه، «طبقات ابن سعد ج ١ قسم ١». وترأس عبد مناف على قريش بعد وفاة أبيه قصي، فعظم قدره، واتسع أمره، فجاهته (خزاعة) وبني العارث بن عبد مناة يسألونه الحلف، ليزفوا به، فعقد بينهم الحلف المسمى بحلف الأحابيش، وتم ذلك بحذاء الركن من البيت الحرام، على أساس النصر على الملقى جسماً، والتعاون والتعاقد، حتى يرث الله الأرض ومن عليها. «تأريخ الحقب»: ج ١ ص ٢١٢ ط النجف».

ولعبد المناف من البنين (أربعة أو خمسة): هاشم واسمه عمرو، وعبد شمس، والمطلب وأم هؤلاء الثلاثة: هانكة الكبرى بن مرة بن حلال بن فالح بن ذكوان السلمية، ونوفل، وأبو عمرو وعبد كما قيل وأسمها: واقدة بنت عمرو (أو هامر) المازنية بن بني همار بن حصصة، ولكل من الأبناء الأربعة الأوائل نسل وعقب مذكوران في كتب التاريخ والأنساب، غير أن الأخير درج في حياة أبيه فلا عقب له. بأقتضاب من كتب السير والأنساب: كتأريخ الطبري وكامل ابن الأثير، ونهاية النوري، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، والسيرة النبوية لابن هشام، وعمدة الطالب لابن عتبة، وأمالى المرتضى، وتأريخ الحقب.

(٢) واسمه «زيد» وسكن «قصياً»، لأن أمه فاطمة بنت سعد بن شبل بالتحريك، (تزوجت) بعد موت أبيه (كلاب بن مرة) من ربيعة بن حزام بن شنة بن عبد من بني هذرة من قضاة، فعضى بها ربيعة إلى قومه في الشام، وولدها زيد فطمم في حجرها، فشب في حجر ربيعة ونشأ مع قومه في الشام، فسمي (قصياً) بالتصغير، لبعده عن أهله ومسقط رأسه وكان لا إلى ربيعة، ولما كبر أعلمته أمه بأبيه الحقيقي وعشرته ومسقط رأسه، فكره المقام في الشام وخرج مع بعض حجاج بني قضاة (أيام الموسم) إلى مكة، حيث مسقط رأسه ومنازل عشيرته، فأقام مراسيم الحج، واستقر بعد ذلك في مكة، وخطب إلى (حليل) بالتصغير، بن حبشية بالضم فالسكون والتشديد، بن سليل أو سلول بن كعب زعيم بني خزاعة، وآخر من كان يتولى أمر مكة والكعبة منهم على الأصح بعد انتهاء ولاية (الجرهميين) طيلة عدة قرون، وفوجه (حليل) ابنه (حبي) بالضم

→ فالتشديد فألف التأنيت، فولدت له من البنين أربعة: عبد مناف، وعبد الدار، وعبد العزى، وعبد قصي.

وكان قصي يقول: «لي أربعة بنين، سميت اثنين بالاهين، وهما عبد مناف وعبد العزى، وواحدًا ببناري وهو عبد الدار. وواحدًا بي، وهو عبد قصي». نهاية الأرب للنويري: ج ١٦ ص ٣٢ ط القاهرة، وأعقب الثلاثة الأوائل، وانقرض عقب الرابع كما ذكر في كتب التاريخ والأنساب، ولما كبر ولد قصي وقوى أمره في مكة، ومات حليل أبو زوجته الذي كان هو المتولي لشؤون مكة والبيت الحرام كما أشرنا، فأوصى إليه حليل كما قيل بأمر الولاية، أو هو استخلص ولاية مكة، وسدانة الكعبة من بني خزاعة) بالقوة على الأصح فأجلى بني خزاعة عن الحرم، وجمع قبائل قريش، وكانوا متفرقين في بوادي مكة، فأسكنهم الحرم، وبني لهم (دار الندوة) وهي أول نادٍ في مكة يجتمع فيه ذوو الرأي والسن من قريش للتداول والتصميم والحل والمقد في الأمور الدينية والاجتماعية، ولقصي رئاسة تلك الندوة.

ثم كان له «اللواء» وهو ترمع القوى الحرة بين قريش، ويكون لمن ذلك اللواء.

ثم كان له أيضاً، الحجابة، وهي سدانة الكعبة، وتولى أمرها، ولا تتفتح أبوابها إلا بأمره.

ثم كان له أيضاً، الرفادة، والسقاية وهما: إرفاد وإطعام الحاج. ولرواؤهم وسقيهم طيلة أيام الموسم في مكة، فكان «قصي» يتولى بنفسه أو بأمره، تلك المهام المآثر الدينية والاجتماعية في البلد الحرام، وكانت كلها لبنيه (من بعده) لا ينازعهم فيها منازع، ولا يفخر عليهم فيها مفاخر. وكان قصي أول من حفر بمكة (بعد اسماعيل) بئراً، تسمى بالمجول، وبني البيت، ووضع الحجر، بعد أن كان مخفياً في الأرض من قبل خزاعة.

ثم أخذ (قصي) بعد أن استقام أمره، واشتد أزده، بجميع قبائل قريش المنتشرة في أطراف البوادي، وكانوا أكثر من عشرين قبيلة كما ذكر السعدي في مروج الذهب، فبرئهم وبعز الأباطع منهم، وهم الذين دخلوا معه بطعام مكة، من الظواهر الذين ظلوا ساكنين في ضواحي مكة. فكان من الأباطع: بنو عبد مناف، وبنو عبد الدار، وبنو عبد العزى، وبنو زهرة، وبنو مغزوم، وبنو تميم، وبنو عدي، وبنو جميع، وبنو سهيم، وبنو حسل، وبنو هلال، وغيرهم.

ومن الظواهر: بنو الحارث، ومحارب ابني فهر، وبنو الأزم بن غالب، وبنو هصيص من بني عامر بن لؤي وغيرهم.

فهذا ونحوه من الجميع والترتيب، والإدارة والإمارة يسمى (قصي) بجميع قريش أو مجمع العرب.

قال الشاعر الجاهلي مطرود بن كعب، أو حذافة بن غانم العدوي كما قيل يخاطب بني هاشم.

أبوكم لصمري كان يدعى

مجمعاً

به جمع الله القبائل من فهر

بافتضاب من كتب السر والنسب، كتأريخ الطبري، وكامل ابن الأثير، ونهاية التواري، وسيرة ابن هشام ومروج الذهب، ومحرر النسابة البغدادي، وحمدة الطالب لابن عتبة، ومعارف ابن قتيبة، وتأريخ البقري.

(٣) واسمه (حكيم). وإنما سمي «كلاًباً» لتولمه جميع كلاب الصيد لوصفها، فكانت إذا مرت على قريش، قالوا: هذا كلاب

بن مرة، هن حمدة الطالب لابن عتبة.

(٤) واسمه «قريش» وإليه تسب القبائل القرشية. وقد ورد عن نسابي العرب: أنهم قالوا: (من جاوز فهراً فليس من قريش)،

آخر سلسلة المتصاعدة الضارية إلى عدنان^(١)

فنبو هاشم، وبنو عبد الشمس، شجرتان متفرعتان من جذر واحد، أصرة واحدة^(٢)، ولكن شتان ما بين الشجرتين شجرة طيبة، أصلها ثابت، وفروعها في السماء توتي أكلها كل حين بأذن ربها، وشجرة خبيثة، اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار^(٣)، وقد ذكر المؤرخون وأرباب النسب عن أولاد عبد مناف الأربعة: هاشم وعبد الشمس ونوفل

→ من شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٧٥. وسمت تلك القبيلة الواسمة البطون، بقرش لتجمعها على بعضها. من «القرش»، أو لشدة شوكتها، باسم دابة عظيمة في البحر تدعى «القرش». كما يقول الترمذ (الحميري) من شعراء الجاهلية من أبيات:

وقريش هي التي تسكن البحر بها سميت قريش قريشا
تأكل الغث والسمين ولا تترك فيها لذى الجفاحين ريشا
هكذا في الأنعام حي قريش يأكلون الأنعام أكلاً كشيئا

من تاج العروس للزبيدي، ومعجم الشعراء للمرزباني، وعمدة الطالب لابن حبة، وذخائر المتقى للمحب الطبري.

(١) فظهر من مالك بن النضر قيس بن كنانة بن خزيمه بن مدركة (عامر) بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أد أو أدد. هكذا وإلى آخر السلسلة الضارية إلى شيت بن آدم عليه السلام في (مروج الذهب للمسعودي، ج ٢ ص ٢٧٢) ط الثانية بمصر. وفيه بعد ذلك: «٢٩٦، فإن قريشاً - هو فهر - خمسة وعشرين بطناً، وهم: بنو هاشم بن عبد مناف، بنو المطلب بن عبد المطلب، بنو الحارث بن عبد المطلب، بنو أمية بن عبد شمس، بنو نوفل بن عبد مناف، بنو الحارث بن فهر، بنو أسد بن عبد العزى، بنو عبد الدار بن قصي، وهم حبيبة الكعبة بنو جمح. وإلى هنا تنتهي (قريش الطحاح)، بنو مالك بن جنبل، معيط بن عامر بن لؤي، بنو نزار بن عامر، بنو أسامة بن لؤي، بنو الأدهم وهم تميم بن غالب، بنو محارب بن فهر، بنو الحارث بن عبد الله بن كنانة، بنو هائلة وهو خزيمه بن لؤي، بنو بناته، وهو سعد بن لؤي، ومن بني مالك إلى آخر القبائل في قريش الطواهر. على حسب ما قدمناه فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا للمطهيين وغيرهم من قريش.

وقد اضطربت أقوال النسابين والمؤرخين فيما بعد (عدنان) حتى كادوا لا يتفقون فيه من فوقه. كما أشار إلى ذلك المسعودي في موجه بعد ذلك.

وقد روي عن النبي ﷺ: «أنه كان إذا انتسب لم يتجاوز في نسبه (عدنان بن أد) ثم يسلك ويقول: «كذب النسابون».

السيرة النبوية لابن هشام، ج ١ ص ٢ ط الثانية بمصر، ونهاية الأرب للنويري، ج ١٦ ص ٣ ط القاهرة، وفي أحلام الوري للطبرسي ص ٦ ط للنجف قوله عليه السلام: «إذا بلغ نسبي عدنان فأمسكوا».

المسعودي في موجه، ج ٢ ص ٢٧٤ ط ثانية: «وقد نهى النبي ﷺ عن تجاوز مدد لعلهم من تعايد الأتساب وكثرة الآراء في طول هذه المدة والأهصار».

(٢) جذر النبات يفتح وكسر فسكون. أصله في التربة، جمعه جذور والأصرة بعد الهمة وكسر الصاد: ما يحفظك على الرجل

من رحم أو قرابة أو صهر، جمعه أواصر. (٣) الآيات الثلاث «٢٤ - ٢٦» من سورة إبراهيم.

والمطلب: أن الشرف والرئاسة من قريش كانت لهم، توارثوها عن أبيهم، حيث كان سيد قريش كافة.

وكان يقال لهم: «المجبرون»، حيث أن كل واحدٍ منهم أخذ العصم والعهود والأمان لقريش حتى انتشروا من الحرم، فعبد شمس أخذ العهود من النجاشي الأكبر ملك الحبشة، وهاشم أخذ العهود من ملوك الشام والروم، ونوفل أخذ ذلك من الأكاسرة، والمطلب أخذ من ملوك حمير في اليمن، فأخذت قريش تختلف إلى تلك الأصقاع والممالك ببركة هؤلاء البنين الأربعة، فنجرت شوكتهم بين القبائل العربية وغيرها آنذاك، ف قيل لهم «المجبرون» أي: المقوون شوكة قريش، وإلى هذه الظاهرة من سيادتهم ورفادتهم يشير الشاعر الجاهلي مطرود بن كعب الخزاعي بقوله:

يا أيها الرجل المحول رحله	هلا نزلت بال عبد مناف
هبلتك أمك لو نزلت عليهم	ضمنوك من جوع ومن تطواف
الأخذون العهد من آفائها	والراحلون برحلة الإيلاف
والمفضلون إذا المحول تراءفت	والقائلون: هم للأخيار

وألحقت بعض المصادر بالآيات المذكورة: أبيات أخر باختلاف فيها، وقد تعزى بعض الآيات إلى ابن الزبيري، ومنها هذا البيت في مدح هاشم:

عمرو العلي هشم الشريد للومه ورجال مكة مسنتون عجاف^(١)

على ما في البيت من إقواء لضم قافيته بالنسبة إلى الآيات المكسورة القافية: ومات أبناء عبد مناف الثلاثة: هاشم والمطلب ونوفل غرباء عن مساقط رؤوسهم، يحكم تردادهم إلى تلك الأصقاع التي أخذوا العهود من ملوكها إلى قريش كما ذكرنا، فأول من مات: هاشم بغزة من أرض الشام. ومات المطلب بردمان من أرض اليمن، ومات

(١) معجم الشعراء للزمراني ص ١٨٣، ط دار إحياء الكتب العربية بمصر، والبحر للنسابة البغدادي: ص ١٦٤، ط بيروت، وأما المرتضى: ج ٢ ص ٢٦٨، ط مصر دار إحياء الكتب العربية، وسيرة ابن هاشم ج ١ ص ٩٤ ط مصر، وشرح النهج للحديدي: ج ٣ ص ٤٥٣ ط قديم بمصر، ومروج الذهب للمسعودي: ج ٢ ص ٦٠ دار السعادة، وفي بعض المصادر: إنها قبلت في رثاء عبد المطلب.

نوفل بسلمان من ناحية العراق.

أما عبد الشمس، فمات بمكة في الحجون. وقال الشاعر الجاهلي مطرود بن كعب الخزاعي قصيدة في رثائهم، وذكر مناقبهم، وأيادهم على العرب^(١)

● عقب هاشم وعبد شمس

وقد ذكر أرباب السير والنسب لكل من الإخوة من أبناء عبد مناف: عقباً متسلسلاً وأبناءً متحدرين.

ونحن بحكم اقتصار موضوعنا في الصراع القائم بين عبد شمس وهاشم، نقصر العرض بإيجاز في عقب، وأبناء هذين الأخوين بالخصوص فنقول:

● عقب هاشم

لقد ذكر المؤرخون والنسابون لهاشم بن عبد مناف من البنين: أربعة: عبد المطلب، وهو شيبة الحمد، ونضلة وبه كان يكنى هاشم كما قيل، وأسد، وأبو صيفي^(٢).

(١) ذكرها كاملة ابن هشام في السيرة النبوية: ج ١ ص ١٣٩ - ١٤٠، ط ثانية بمصر منها قوله:

وابكي على السر من كعب المغيرات
ضخم النسيعة وهاب الجزيلات

يا عين جودي، وأذري الدمع وانهمري
وابكي على كل فياض أخى ثلج

إلى أن يقول في تعدادهم بالثناء والتسمية:

وأستخرطي بعد فيضات بججات
يالها نفسي عليه بين أموات
لعبد شمس بشرقي البنيات
تسفي الرياح عليه بين غزات
أمسى بسلمان في رمس بمومة
إذا استطلعت بهم أدم المعطيات

ثم انديبي الفيض والفيض مطلباً
أمسى بردمان عنا اليوم مفترباً
وابكي لك الوليل أما كنت باكية
وهاشم في شربح وسط بلقعة
ونوفل كان دون القوم خالصتي
ثم ألق مستطعم صجماً ولا عريباً

يقصد بالسر: بالخالص، والمغيرات بني المغيرة، خضمة الدسيمة: كثير المطاء، وكلمة (استخرطي) أي: استعترني، والجمعات: المجتمع من الماء، والمومة: القفر كالبلقعة، وأدم المطيات: الإبل البيض الكرام.

(٢) وأم عبد المطلب ومعه شقيقته الشفاء: سلمى بنت عمرو بن زيد (أو حمزة) ومن بني عدي بن النجار، الخزرجية الأنصارية، وأم نضلة: وأم أمية بالتصغير. بنت عدي بن عبد الله، وأم أسد: قيلة بنت عامر بن مالك بن المطلب، وأم أبو صيفي: هند بنت عمرو بن ثعلبة الخزرجية الأنصارية عن تاريخ المطيعي: ج ١ ص ٢١٤ ط النجف.

وليس لهاشم عقب مستمر إلا من ولده عبد المطلب^(١).

● أولاد عبد المطلب

كما ذكر المؤرخون والنسابون لعبد المطلب من البنين لصلبه عشرة، وأكثر: عبد الله، وأبو طالب، والعباس، والحارث، وأبو لهب (عبد العزى)، والحمة، والزبير، والمقوم، وضرار، والغيداق.

وفي ذخائر العقبي للمحب الطبري: ثلاثة عشر بزيادة: «قثم وعبد الكعبة، وحجل المفيرة»، وفيه: نقل القول باتني عشر بأسقاط (المقوم) من العدد، أو اتحاده مع عبد الكعبة. وفيه نقل القول بأحد عشر بأسقاط الغيداق، وحجل، والظاهر أنهما واحد عند عامة أهل النسب.

وهؤلاء العشرة من البنين أو الأكثر، ومعهم ست من البنات لست من الأمهات كما يلي:

فعبد الله، وأبو طالب، والزبير، وعبد الكعبة كما قيل، ومعهم أربع من البنات عاتكة، وأميمة، والبيضاء أم حكيم، وبرّة أمهم: فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بقطعة بن مرة.

والعباس، وضرار، وقثم (كما قيل) أمهم: نائلة بالتصغير، بنت كليب بالتصغير، بن

→ والملاحظ: أن الذي عليه عامة المؤرخين والنسابين أبناء هاشم في أولئك الأزمنة، غير أن المعقوبي في آخر المصدر الآنف يضيف لهم خامساً اسمه (صفي) شقيق أبي صفي.

ويقول: إنه درج في حياة أبيه. ومثله يرى المسعودي «سبائك الذهب».

(١) فأما نائلة: على فعله عقب مطلقاً، وأما اسد، فله من البنين: حنين بالتصغير، وله ابن، أسمه عبد الله، لا عقب له، ولأسد من البنات الفضليات: فاطمة بنت أسد (أم أمير المؤمنين عليه السلام)، وإخوانه الثلاثة: مع أختهم أم هاني (من أبي طالب) وهي من طلائع النساء المؤمنات المهاجرات مع النبي ﷺ، وأما أبو صفي، فله من البنين: عمرو بن أبي صفي، الذي اعتق سارة التي حملت كتاب حاطب بن أبي بلتمة إلى قريش، يندرحم فيه بغزو النبي ﷺ إليهم عام فتح مكة، فأنتعها علي بن أبي طالب والزبير بن العوام، فأدر كاها في الطريق، وأخذوا الكتاب منها، والقصة مفصلة في كتب التفسير. وانقرض عقب عمرو هذا أيضاً، عن جمهرة بن حزم: ص ١٤ ط دار المعارف بمصر.

مالك بن خباب بن كلب النمرية، من النمر بن قاسط^(١)

والحارث معه شقيقته أروى، أمهما صفية بن حنيث، امرأة من بني عامر بن صعصعة. وسماها ابن هشام في السيرة: ج ١ ص ١٠٩ ط ثانية «سمراء بنت جندب بن صفية بنت حنيذ».

وأبولهب وحده، أمه امرأة من خزاعة إسمها «لبنى» بالضم، بنت هاجر بن عبد مناف. والحزمة، والمقوم، ومعهما شقيقتهما صفية (أم الزبير)، ومعهم حجل (كما قيل)، أمهم: هالة بنت وهيب بالتصغير، بن عبد مناف بن زهرة، بنت عم آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ. والفيداق وحده، أمه خزاعة، إسمها: «ممتعة بنت عمرو بن مالك بن نوفل الخزاعي»^(٢). وهؤلاء البنون العشرة أو الأكثر، لعبد المطلب، خمسة منهم لا عقب لهم أصلاً أو انقرض الخمسة عقبهم، وهم الخمسة الأواخر^(٣).

(١) هكذا في (معارف ابن قتيبة ص ١١٩) ط دار الكتب بمصر، وبعض المصادر، ولكن الأشهر كما عليه ابن حزم في الجمهرة: ص ١٥ ط دار المعارف بمصر، وابن هشام في السيرة: ج ١ ص ١٠٩ ط ثانية بمصر، وابن عبد البر في الاستيعاب بترجمة حمزة هكذا: «تيلة بنت جناب بن كليب بن مالك بن عمرو بن عامر بن النمر بن قاسط»، كذلك ذكر السحب الطبري في الذخائر، وفي تاريخ الخواري «خباب».

(٢) العقد الفريد للأندلسي: ج ٣ ص ٣١٦، الطبعة الثانية بالقاهرة، بالإضافة إلى المصادر الآتفة الذكر.

وفي المصدر الآتف من سيرة ابن هشام: أن الفيداق هو الحجل المذكور.

(٣) أما الحزمة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله، وسيد الشهداء في واقعة أحد في السنة الثانية للهجرة، ورضيع النبي ﷺ بلبن امرأة من أهل مكة، أسماها «قوية» مولاة أبي لهب، قبل قدوم حليمة السعدية بأيام. فقد ولد له ابن يقال له «عامرة» بالضم، وبه كان يكنى أبوه، من امرأة أنصارية، أسماها خولة، بنت قيس بن فهد من بني النجار، ويضيف له ابن حزم في الجمهرة: ص ١٧، يحلى وعامر من تلك المرأة الأنصارية. كما أن للحزمة بنتاً، تسمى (أمامة) أمها زينب بنت عيسى الغثمية تزوجها بأمر النبي ﷺ سلمة بن أبي سلمة بالتحريك، وقد انقرض عقب حمزة رضي الله عنه.

عن الجمهرة: ص ١٧، والسحب للنسابة البهتادي: ص ٦٤.

وأما الزبير بن عبد المطلب، وكان من رجالات العرب وشجعان فريش وشعرانهم، فله من البنين: الطاهر، وبه كان يكنى، والمغيرة (حجل)، وقرة بالتفديد، وعبد الله المستشهد يوم «أجنادين»، وكانت له صحبة مع النبي ﷺ. ولا عقب لواحد منهم كما يقول ابن حزم في الجمهرة: ص ١٧.

كما أن للزبير هذا من الإثبات: طباعة بالضم، وهي التي زوجها النبي ﷺ: المعداد بن عمرو، وله أيضاً، أم الحكم زوجة ربيعة بن

أما «عبد الله» والد النبي ﷺ فليس له من الولد سوى رسول الله محمد ﷺ، فأنحصر عقبه فيه.

وقد ذكر المؤرخون والنسابون لمحمد ﷺ من البنين: إبراهيم، من زوجته «مارية بنت شمعون القبطية»، التي أهداها اليه المقوقس النصراني صاحب الاسكندرية. وقد ولد في ذي الحجة من سنة ثمان للهجرة، وتوفي لعشر ليل خلت من ربيع الأول، سنة عشرة للهجرة، وله نحو من سنة ونصف^(١)، فحزن عليه النبي حزناً عميقاً.

كما ذكروا للنبي ﷺ أيضاً من البنين: القاسم وهو أكبر بنيه، من زوجته الأولى

→ المارث بن عبد المطلب.

وأما المقوم (بالفتح)، بن عبد المطلب، فله من البنين اثنان: بكر، وعبد الله، ولبكر عبد الله، ولا عقب له، فلا عقب للمقوم هذا كما يقول ابن حزم في الجمهرة ص ١٧. كما أن للمقوم هذا بنتاً يقال لها (هند) زوجة عبد الله بن مسروح أخي بني سعد بن بكر بن هوازن، ويذكر النسابة البغدادي في (المحرر ص ٦٤) للمقوم هذا بنات ثلاث: هكنا: «هند» وكانت عند أبي عمر بن محسن بن عمرو بن عتيك من الانصار، وأروى، وكانت عند أبي مسروح المذكور وهو العارث بن يعمر بن حبان بن عمرة من هوازن، وفاخعة، وكانت عند مسعود بن متعب الثقفي.

وأما ضرار بالكسر، وكذلك الندياق (حجل أو نول)، أبناء عبد المطلب، فلا عقب لهما، وماذا قبل أن يدركا الإسلام. باقتضاب من المعارف لابن قتيبة: ص ١٢٠ - ١٢٥ ط دار الكتب بمصر، وجمهرة الأنساب لابن حزم: ص ١٧ ط دار المعارف بمصر، والمحرر للنسابة البغدادي: ص ٦٤ ط بيروت، والإستيعاب لأبن عبد البر ضمن ترجمة حمزة، وعامة كتب السير والمعاجم. وهنا يتعرض النسابة البغدادي في (المحرر ص ٦٢) أصهار عبد المطلب لبناته الست فيقول: «كرب بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، كانت عنده (أم حكيم وهي البيضاء) بنت عبد المطلب، وأبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، كانت عنده (برة بنت عبد المطلب)، وأبو دهم بن عبد العزى بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، خلف علي (برة) بعد عبد الأسد، وجعش بن رثاب بن يعمر بن مرة بن كعب بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمه، كانت عنده (أميمة بنت عبد المطلب)، وعمر بن وهب بن عبد بن قصي، كانت عنده (صفية بنت عبد المطلب)، والعوام بن شويلد بن أسد بن عبد العزى، خلف علي (صفية) بعد عمرو بن وهب.

(١) ذكر هذا التحديد للولادة، والوفاة: المحب الطبري في الذخائر: ص ١٥٣-١٥٥ ط القدسي بالقاهرة، وبعض آخرون، وحامة المؤرخين لم يشهروا إلا إلى ولادته في ذي الحجة من سنة ثمان للهجرة، أما تحديد وفاته، فأكثروا عنه بذكر السنة: أنها العاشرة للهجرة، أو تعبير «قبل وفاة النبي بأشهر»، والكثير منهم يذكر: أنه مات وله من العمر ستة عشر شهراً، أو ثمانية عشر، أو سنة ونصف، أو هامين تقريباً، ونحو ذلك من التحديدات. وقال يعقوب: إنه توفي وله سنة وعشرة أشهر، وأضاف ابن قتيبة: إلى ذلك ثمانية أيام.

المفضلة خديجة بنت خويلد بن أسد القريشية^(١)، وهو أكبر بنيه، وبه كانت ولا تزال كنيته المشهورة، ومات صغيراً قبل النبوة^(٢)، وقد أضاف المشهور منهم للقاسم هذا شقيقاً أسموه «عبد الله» ولقبوه بالطيب، والطاهر، لولادته بعد النبوة، ودرج صغيراً في حياة النبي^(٣)، وسمى البعض منهم: شقيق القاسم: «الطيب»، واقتصر بالذكر عليهما ابنين

(١) من المطلق عليه لدى عامة المؤرخين والنسابين وأرباب المعاجم الذين يترجمون لخديجة أم المؤمنين: أنها كانت قبل رسول الله ﷺ هند أبي هالة بن زوزارة بن نياش، أو بالعكس من بني أسيد بن عمرو بن تميم، فولدت له ابناً اسمه «هند بن أبي هالة»، ثم خلف عليها ثانياً عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمرو (أو عمر) المخزومي، فولدت له جارية، يقال لها «هند»، وعكس بعض المؤرخين والنسابين في الترتيب بين زوجيها الأولين. ثم خلف عليها رسول الله ﷺ فأولدها: بنين وبنات اختلفوا في نسبة بعضهم إلى النبي ﷺ كما سيأتي. وقال ابن حجر في إصابته، وابن عبد البر في استيعابه في الجزء الرابع جرحها ضمن حرف الخاء، بعد ذكر ما ذكرناه: «أنهم لا يختلفون: أن رسول الله ﷺ لم يتزوج على خديجة، حتى ماتت، ولم تلد له من المهاري غيرها»، ومثل ذلك في عامة كتب التاريخ والنسب.

(٢) ففي تاريخ الطبري: ج ٢ ص ١٥ ط التجف «إنه ولد قبل أن يبعث النبي ﷺ». وفي ذخائر المحب الطبري: ص ١٥٢ - بعد ذكر الخلاف في عمره: «ومات قبل البعث أو بعده على الخلاف المتقدم»، والذي ظهر لنا من مختلف عبارات المؤرخين، والنسابين، وأرباب المعاجم عن القاسم هذا بأنه أكبر أولاد النبي ﷺ. ومن تعليل تلقيب أخيه الآخر كما ستعرف بالطيب والطاهر بأنه ولد بعد النبوة ومن قرأتين آخر، تكتنف يقدم تزويج النبي ﷺ بخديجة أن القاسم ولد ومات قبل النبوة بسنتين، وبنوة القاسم هذا للنبي ﷺ من خديجة مما لا خلاف فيها بين المؤرخين والنسابين، وربما اقتصر البعض على ذكره وحده قال ابن عبد البر في الاستيعاب بهامش الإصابة لابن حجر: ج ٤ بترجمة خديجة: «وأجمعوا أن خديجة ولدت للنبي ﷺ: ابناً، يسمى القاسم، وبه كان يكنى. وهذا مما لا خلاف فيه بين أهل العلم، وقال معمر بن الصهايب: زعم بعض العلماء، قال: إنها ولدت له ولداً، يسمى الطاهر، وقال بعضهم ما تلماها ولدت له إلا القاسم، وولدت له بناته الأربع». وفي ذخائر المحب الطبري: ص ١٥١: «وجملة ما اتفق عليه: ابنان القاسم، وإبراهيم».

(٣) في الإصابة لابن حجر: ج ٤ بترجمة رقم (٣٣٥): «فولدت للنبي ﷺ: القاسم، وعبد الله، وهو الطيب وهو الطاهر، لأنها ولدت له في الإسلام». وكذلك يرى ابن عبد البر في الاستيعاب ضمن ترجمة خديجة من حرف الخاء نقلاً عن قتادة، والزبير. وقال بعد ذلك نقلاً عن علي بن عبد العزيز الجرجاني النسابة، عن ابن الكلبي: «أن أولاد رسول الله ﷺ من خديجة: القاسم وهو أكبر أولاده، وعبد الله، وكان يقال له: الطيب والطاهر، قال: وهذا هو الصحيح، وغيره تخليط»، وكذلك يرى السهيلي في الروض الآف: ج ١ ص ١٢٣. وفي أعلام الوري للطبرسي: ص ١٤٠ ط التجف تحت عنوان: أزواج رسول الله ﷺ «فأول ما حملت ولدت عبد الله بن محمد وهو الطيب، الطاهر، وولدت له القاسم، وقيل: إن القاسم أكبر، وهو بكره، وبه كان يكنى، والناس يخلطون، فيقولون: ولد له أي النبي ﷺ منها (أي خديجة) أربع بنين: القاسم، وعبد الله

لخديجة، وقال عنهما: «إنهما ماتا بمكة صغيرين»^(١).

وربما عددهم البعض: أشقاء ثلاثة من خديجة، على أساس أن الطيب والظاهر اثنان شقيقان للقاسم^(٢)، وشذ بعض منهم، فأضاف للقاسم: أشقاء ثلاثة من خديجة: الطيب، والظاهر، وعبد الله^(٣).

وبعد هذا العرض، فيكون الخلاف في عدد أبناء النبي ﷺ من خديجة هكذا - للقاسم وحده - أو هو وشقيقه «عبد الله»، أو الطيب أو الظاهر، أو ثلاثتهم، أو اربعتهم من اتفاق الجميع على موت الأبناء كلهم بمن فيهم إبراهيم بن مارية القبطية قلوا أم كثر وا في حياة النبي ﷺ، وأول من مات منهم: القاسم، وآخرهم إبراهيم: مات قبل النبي ﷺ بأشهر، كما اتفق عامة من كتب عن «خديجة» من المؤرخين والنسائين وغيرهم من أرباب المعاجم فذكروا لها من النبي ﷺ أربعاً من البنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة الزهراء ؑ. والمشهور عندهم: أن زينب أكبر البنات، وفاطمة أصغرهم^(٤)، ثم استعرضوا: أخبار

→ والطيب، والظاهر وإنما ولد له منها اثنان وأربع بنات...»، وفي ذخائر المحب ص ١٥٢ نقلاً عن أبي عمر: «إنه قول أكثر أهل النسب» ونقل عن الدارقطني: «أنه الأئمة». وكذلك يرى الحقوقي في تأريخه، ومن الذين اتصروا على ذكر القاسم والطيب: ابن خديجة من النبي ﷺ، ابن عبد ربه في المقد الفريد ج ٤ أوائل كتاب السجدة الثانية في الخلفاء.

(١) ابن قتيبة في (المعارف: ص ١٤٦) ط دار الكتب بمصر. بعنوان (أولاد النبي ﷺ).

(٢) في السيرة النبوية لابن هشام: قسم ١ ص ١٩٠ ط ثانية بمصر. نقل عددهم ثلاثة عن ابن اسحاق: القاسم، والطيب، والظاهر، وأنهم هلكوا في الجاهلية.

(٣) قال الطبري في تأريخه: ج ٣ ص ١٦١ ط دار المعارف بالقاهرة بعنوان: الخبر عن أزواج النبي ﷺ: «فولدت (أي خديجة) لرسول الله ﷺ ثمانية: القاسم، والطيب، والظاهر، وعبد الله...» وعد بناته الأربع. وكذلك حكاه المحب الطبري في ذخائره عن الدارقطني وغيره، وذكر ذلك ابن حزم في الجمهرة أيضاً.

القول: بعد ذلك العرض لتلك الأحوال في تعداد أبناء النبي ﷺ من خديجة: إذا كان لنا أن نختار أحد الأحوال المذكورة، فلا نتجاوز المتقين منها وهو انفراد القاسم بنته النبي ﷺ من خديجة إلا إلى القول الذي يليه، وهو القول بأنهما اثنان: القاسم، شقيقه، سواء سمناه (عبد الله) ولقبناه بالطيب، والظاهر، أم سمناه بأحدهما؟ وهذا هو الأقوى، بل الأشهر بين المؤرخين، والنسائين، وعليه الاعتبار والله العالم.

(٤) أما عدد البنات أربع بأسمائهن فهو المتفق عليه بين الجميع، وأما اعتبار زينب أكبرهن، وفاطمة أصغرهن، فهو المشهور بل الأشهر بينهما، وربما ذهب البعض كابن هشام في السيرة إلى عد رقية أكبر من زينب، وربما يظهر ذلك من الحقوقي في تأريخه. وبعض غيرهما، وفي الجمهرة: أن فاطمة هي الثالثة، والرابعة أم كلثوم.

تلك البنات الأربع، فقالوا بإيجاز: أما زينب، فتزوجها في الجاهلية: ابن خالتها أبو العاصي وأسمه القسم كما قيل بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس، وأمها هالة بنت خويلد أخت خديجة، وأولدها: علياً على الأكثر، أو الربيع، كما في الاستغاثة، وأما علي، فمات صغيراً، أيام عمر بن الخطاب، وأما أمانة، فتزوجها أمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاة الزهراء عليها السلام بوصية منها إليه حين وفاتها، فأولدها ولد أسماه «محمد الأصغر». كما قيل، فكان بعد ذلك شهيد الطف بين يدي أخيه الحسين عليه السلام. كما سنذكر، أما ابن حزم في جمهرته فيقول: «ولم تلده»، وتزوجها بعد علي عليه السلام المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، بوصية منه، ولم تلد منه شيئاً، وقيل له: «يحيى» ولم يعقب، وماتت أمانة عند المغيرة سنة (٥٠ هـ) أو قريب من ذلك، وبعد البعثة النبوية، أسلمت زينب، وبقي زوجها علي الجاهلية، حتى إذا كانت وقعة «بدر الكبرى» في السنة الثانية للهجرة، وخرج أبو العاص مع المشركين، وأسره المسلمون مع من أسروا وأرسلت زينب من مكة إلى النبي ﷺ فداء زوجها، ومن ضمنه فدادتها التي قلدها أمها خديجة ليلة زفافها، فعرفها النبي ﷺ فرد علي أبي العاص فداءه، واشترط عليه أن يرد زينب، وابنها إليه، فوفى أبو العاص بذلك، فجاء علي الفور إلى مكة، وحمل زينب وابنها إلى النبي ﷺ في المدينة ورجع إلى قومه في مكة.

ثم إنه خرج بعد ذلك في غير لقريش، فلما صار خارج مكة استولى عليه أصحاب النبي ﷺ فأسروه، وأخذوا أمواله، وأقبلوا به إلى المدينة، فبعث أبو العاص إلى زينب وهي في بيت النبي ﷺ يستجير بها فأجارتها، فأقر النبي ﷺ إيجارتها، وأطلق أبا العاص، وأمواله، فأسلم في الحال على يد النبي ﷺ، وقيل: إنه كان قد أسلم بعد واقعة بدر ومضى إلى مكة، وأدى إلى قريش أموالهم، وأعلن لهم: إسلامه. ثم عاد إلى النبي ﷺ فرد عليه النبي ﷺ زوجته زينب بعد ست سنوات بالنكاح الأول، وذلك الحكم من خصائص النبي ﷺ كما يقولون.

وبقيت زينب بعد ذلك عند زوجها مدة يسيرة، ثم مات عنها، أو هي ماتت قبله على الخلاف على أثر ترويعها من قبل هبار بن الأسود، والقصة مفصلة في كتب التاريخ

فبقيت مريضة، حتى ماتت في أواخر السنة السابعة للهجرة، أو أوائل الثامنة أو التاسعة على الخلاف، وكانت ولادتها قبل البعثة بعشر سنين أو أكثر.
وأما رقية وأم كلثوم، فتزوجوهما في الجاهلية أيضاً: أبنا أبي لهب، عتبة، وعتبة، فكانت رقية لعتبة، وأختها لأخيه. ودخلتا بيت أبي لهب، وسرعان ما ظهر الإسلام، واشتدت عداوة أبي لهب وزوجته حمالة الحطب لرسول الله ﷺ ولإسلامه، فأمرتا ولديهما أن يفارقا البنتين المسلمتين، ففرقهما، قبل أن يدخل بهما، فرجعت البنات إلى بيت أبيهما النبي ﷺ.

فتزوج عثمان بن عفان في البداية: رقية، وهاجر بها إلى الحبشة مع رجيل من المسلمين بقيادة جعفر بن أبي طالب، ثم عاد إلى مكة، ثم هاجر بها إلى المدينة مع المهاجرين، وكانت قد ولدت صبياً اسمه عبد الله، بلغ عمره الست سنوات، ثم مات وماتت أمه بعده أيام غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة.

فتزوج عثمان بعد موت رقية بأشهر: أختها أم كلثوم، وبقيت عنده ولم تلد منه شيئاً حتى ماتت في أخريات السنة الثامنة، أو أوليات السنة التاسعة للهجرة على الخلاف.
وأما فاطمة الزهراء ﷺ فكانت الوحيدة الباقية من أولاد النبي ﷺ بعده، وكان قد تزوجها أمير المؤمنين ﷺ بعد الهجرة بزهاء عامين، وشاء الله أن يؤثرها ويؤثر عليها ﷺ بالنعمة الكبرى، والمجد المؤثل، فيحصر فيهما ذرية رسول الله ﷺ، ويحفظ بهما أشرف سلالة عرفتها البشرية منذ كانت، فاختص علي ﷺ كما أختصت الزهراء ﷺ من بين الأصهار والبنات بمجد الأبوة، والأمومة لسلالة النبي الكريم، وآل بيته الأكرمين. فكان من ذلك الصلب الطيب، والرحم الطاهر عقب النبي العظيم^(١)، فولدت فاطمة الزهراء لعلي ﷺ: الحسن، والحسين، وزينب، وأم كلثوم، أو قبل ذلك التأريخ، أو بعده علي

(١) وقد ورد الحديث عن النبي ﷺ بطرق مختلفة: فإن الله جعل ذرية كل نبي من صلبه، وجعل ذريتي من صلب علي بن أبي طالب، أخرجه ابن المغازلي في مناقبه: ص ٤٩ ط طهران، والقندوزي في ينابيعه: ص ٢٦٦، والهيثمي في مجمع: ج ٩ ص ٢٧٢، والسويسي في جامعه ج ١ ص ٢٣٠، والمحب الطبري في ذخائره: ص ٦٧، وابن حجر في لسانه: ج ٣ ص ٤٢٩، والزرقاتي في شرح المواهب: ج ٤ ص ٦، وابن حجر في صواعقه، وغيرهم من الحفاظ والمحدثين في كتبهم، والحديث أشهر من أن يذكر.

خلاف بين المؤرخين.

هكذا ذكر عامة أرباب التأريخ، والنسب، والمعاجم، وغيرهم^(١).

ولعل البعض منهم كأبي القاسم علي بن أحمد الكوفي المتوفي سنة «٣٥٢ هـ» في كتابه «الإستغناء» يرى أن غير فاطمة الزهراء عليها السلام من البنات لم تكن للنبي ﷺ ولا لخديجة، وإنما هن لأخت خديجة «هالة بنت خويلد»، وكانت متزوجة من رجل تميمي، ولدت ابناً، يقال له، «هند»، وابنتين أو ثلاثة، وبعد موت التميمي زوج هالة استقل الولد لكبره، وبقيت البنات الصغيرات عند أمهما الأرملة وهي فقيرة الحال، خاملة الذكر، فأوتها أختها خديجة، الثرية المعروفة إلى بيتها، حتى إذا تم تزويجها بالنبي ﷺ كانت البنات أو بنتان في كنف النبي ﷺ وخديجة، ومن ربيباتها. فاشتهر بالنسبة إليها بحكم التربية، والشهرة الاجتماعية.

كما ارتأى البعض الآخر ونقل ذلك عن بعض محدثي الشيعة ومحققهم بأن البنات الثلاث غير الزهراء عليها السلام هن لخديجة من أحد زوجيها السابقين على النبي ﷺ، وهو المعروف بأبي هالة التميمي، وبعد موته وتزويج خديجة بالنبي ﷺ كانت البنات في بيت النبي ﷺ وفي كنفه وتربيته، فعرفت بالنسبة إليه، وهن في الحقيقة رباته.

وهذا الرأي فيه بعض الاعتبار، ولا ينشز عنه الاختيار والله العالم، وبناءً عليه فليس للنبي ﷺ ابنة من صلبه غير فاطمة الزهراء عليها السلام، وكفى.....

وأما أبو طالب بن عبيد المطلب واسمه عبد مناف أو أن اسمه كنيته، فله من البنين أربعة: طالب وهو الأكبر وكان يكنى به، ثم عقيل، ثم جعفر، ثم علي عليه السلام.

وكل من السابق أكبر من اللاحق بعشر سنين، فعلي عليه السلام أصغر من طالب بثلاثين، ومن

(١) تاريخ البقوي: ج ٢ ص ١٥٧ ط النجف، وتاريخ الطبري، وكامل ابن الأثير، وبداية ابن كثير ضمن حديث عن أزواج النبي ﷺ وأولاده، ونهاية الأرب للنويري: أوائل ج ١٦ ط القاهرة، دار المعارف بالقاهرة، والمعبر للنسابة البغدادي: ص ٥٢ ط بيروت، وكشف الغمة للألبلي أوائل الجزء الأول ط قم، والسيرة النبوية لابن هشام قسم ١ ص ٨-١٠ ط الثانية بمصر، وسر اعلام النبلاء للذهبي: أوائل الجزء الثاني ط ٤ بترجمة خديجة ونهايتها على الحروف وأعلام النوري للطبرسي في ذكر أزواج النبي ﷺ، وموسوعة آل النبي ﷺ للدكتورة بنت الشاطي، وكتابتها المخطوط (صفحات مغمرة عن تاريخ أهل البيت عليهم السلام).

عقيل بعشرين، ومن جعفر بعشر، وله بنت واحدة وهي أم هاني، وأمهم جميعاً: فاطمة بنت أسد بن هاشم أول هاشمية ولدت لها شمي، وكانت من طلائع النساء المسلمات المهاجرات، وقد قامت بتربية النبي ﷺ ورعايته بعد وفاة أمه أحسن قيام.

أما طالب، فأكرهته قريش على الخروج معها لحرب النبي ﷺ والمسلمين في واقعة بدر الكبرى، ففقد، فلم يعرف له خبر حتى اليوم، وهو القائل حين أخرجه بالإكراه:

يارب إما أخرجوا بطالب في ملق من هذه الملقاب

فليكن المطلوب غير الطالب والرجل المقلوب غير الغالب

فليس لطالب عقب، وإنما العقب منحصر في اخوته الثلاثة الآخرين^(١).

فلعقيل بن أبي طالب المتوفي سنة ٥٩ أو ٦٠ من البنين أكثر من عشرة: يزيد، وبه كان يكنى، وعبد الله، وعبيد الله، وعبد الرحمن، ومسلم، وعلي، وحزرة، وجعفر.

الأكبر، والأصغر، وسعيد، وأبو سعيد الأحول، وعيسى، وموسى، وعثمان، ومحمد، والكثير منهم أمهات أولاد، غير أن جعفر الأكبر أمه الخوصاء الكلابية، المعروفة بأُم الثغر، وكذلك هي أم أبو سعيد الأحول، وسعيد أمه عامرية سماها ابن قتيبة في المعارف سعدى، كما ذكروا له من البنات ثمانية: أم عبد الله، ورملة، وأم القاسم، وأم هاني، وفاطمة، وأم النعمان، وأسماء الشاعرة، وكلهن لأمهات أولاد^(٢).

وعامة أولاد عقيل من طلائع الشهداء بين يدي الحسين ﷺ، وليس لعقيل عقب متسلسل إلا من ابنه محمد والد الفقيه المحدث عبد الله بن محمد، وأمّه زينب الصغرى بنت أمير المؤمنين^(٣)

ولجعفر بن أبي طالب «شهيد مؤتة» سنة ٨ هـ من البنين زهاء ثمانية: عبد الله الأكبر وهو الجواد، وبه كان يكنى أبوه، وعبد الله الأصغر، ومحمد الأكبر شهيد صفين بين يدي عمه علي ﷺ، ومحمد الأصغر، وعون شهيد استر على التحقيق، وإن قيل أنهما شهداء

(١) عمدة الطالب لابن عتبة النسابة الحسيني: ص ٣٠ ط النجف.

(٢) سفر الحمين مسلم بن عقيل للعلامة المحقق الشيخ عبد الواحد المظفر: ص ٣٣ ط النجف.

(٣) عمدة الطالب للنسابة الحسيني: ص ٢٨. ط النجف.

الطف^(١)، وحמיד وحسين. وأهمهم جميعاً أسماء بنت عميس الخثعمية، أخت ميمونة زوجة النبي ﷺ، وسلمى زوجة عمه الحمزة، ولبابة زوجة عمه العباس، وانقرض عقب محمد الأكبر من قبل ابنه القاسم^(٢)، وليس لعون عقب معروف^(٣).

ودرج الآخرون صغاراً في حياة أبيهم، فلم يبق من جعفر بن أبي طالب عقب متسلسل إلا من ولده عبد الله الأكبر، ولعبد الله الأكبر هذا من البنين: زهاء عشرين: عون الأكبر، وجعفر، وعلي، والعباس، ومحمد، وعبيد الله، وأبو بكر، وصالح، وموسى، وهارون، ويحيى، وإسحاق، وإسماعيل، ومعاوية، والقاسم، والحسن، وعون الأصغر، وبعض آخرون كما قيل. استشهد منهم في واقعة الطف ثلاثة: عون الأكبر وأمه زينب الكبرى بنت أمير المؤمنين ﷺ، ومحمد، وعبيد الله وأمهما: الخوصاء بنت حفصة التميمية من بني بكر بن وائل.

ومات بعضهم في حياة أبيهم، وانقرض عقب البعض الآخرين، ولم يبق لأبناء عبد الله بن جعفر من المعقبين باستمرار سوى أربعة بنين. وهم: علي الزينبي وأمه زينب الكبرى ﷺ وهو شقيق أخيه عون الشهيد يوم الطف، وإسحاق العريضي، وإسماعيل الزاهد، ومعاوية لأمهات أولاد شتى، وانقرض عقب عبد الله إلا من ولديه: علي الزينبي، وإسحاق العريضي، فالعقب من علي الزينبي من ولدين: محمد الأريس أو الرئيس وإسحاق الأشرف، وأمهما: لبابة بنت عبد الله بن العباس بن عبد المطلب^(٤) والعقب من إسحاق العريضي من ثلاثة أبناء: محمد، وجعفر، والقاسم^(٥)، ولعلي بن أبي طالب أمير المؤمنين، وسيد الوصيين من البنين زهاء أو أكثر من خمسة أو ستة عشر، وهم: الحسن،

(١) المصدر الثم من العمد.

(٢) جهمرة ابن حزم: ص ٦٨ ط دار المعارف بمصر.

(٣) واختلف النسابون في التصريح عن عقب عون بن جعفر: فبعضهم يقول: إنه ليس له عقب. وبعضهم يقول: ليس له عقب معروف، أو مشهور، وفي العمد: ص ٣٦ ط النجف: (وولد عون الشهيد ابناً اسمه وله عقب لم يطل).

(٤) ويقول النسابة البغدادي ص ٤٤٠: «وتزوجت لبابة عبد الله بن العباس بن عبد المطلب علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. ثم خلف عليها إسماعيل بن طلحة بن عبيد الله، ثم محمد بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب.

(٥) ويظهر من النسابة الحسني في العمد ص ٤٠ ط النجف: أن النسب المتسلسل في ولد العريضي من ابنه القاسم، وانقرض عقب أخويه الآخرين.

والحسين، والمحسن السقط، ومحمد بن الحنفية، والعباس الأكبر وأشقاؤه الثلاثة من أمهم أم البنين عبد الله، وعثمان، وجعفر، والعباس الأصغر، وعمر الأكبر، والأصغر، وعمر الأطراف، وعبد الله أسمه أبو بكر كما قيل، وعبد الله، ومحمد الأوسط، ومحمد الأصغر، وجعفر، وعثمان الأصغر، ويحيى، وعون، وإبراهيم كما قيل، ولعل في بعض الأسماء تداعلاً أو اتحاداً خمسة أو ستة منهم درجوا صغاراً في حياته ﷺ وبقي أكثر من عشرة بعد وفاته، منهم: سبعة أو ثمانية شهداء الطف، وهم غير الحسين ﷺ: العباس وأشقاؤه الثلاثة، وأبو بكر، ومحمد وعمر الأصغر وهو أكبر من الأطراف، والعباس الأصغر، وإبراهيم، وعون كما قيل وسنذكرهم في هذا الكتاب، ضمن فصل خاص بشهداء أهل البيت ﷺ، وعبد الله قتيل «المدار» مع مصعب بن الزبير في حربه للمختار الثقفي.

كما أن علياً ﷺ من البنات زهاء أو أكثر من ستة عشر أيضاً استعرضهن العمري في المجدي وحصرهن في (١٨ عشرة)، هكذا: أم كلثوم من فاطمة، زينب الكبرى من فاطمة، رملة، أم الحسن، أمامة، فاطمة، خديجة، ميمونة، رقية، نفيسة، زينب الصغرى، أما أم هاني فاخته، إلى آخر العرض.

وينحصر عقب أمير المؤمنين ﷺ المتسلسل في خمسة من بنيه. وهم: الحسن، والحسين وأمه فاطمة الزهراء ﷺ بنت النبي محمد ﷺ، ومحمد بن الحنفية وأمه خولة بنت جعفر بن قيس من بني حنيفة^(١)، والعباس الأكبر وأمه وأم أشقائه الثلاثة: أم البنين فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابية العامرية الوحيدية، وعمر الأطراف وهو أصغر أولاد أمير المؤمنين ﷺ كما قيل وأمه: وأم شقيقته رقية الصهباء أم حبيب التغلبية^(٢)، فللحسن بن علي ﷺ من البنين: أكثر من عشرة: زيد، والحسن المثنى، وعلي الأكبر،

(١) أو خولة بنت أبياس بن جعفر، جار الصدا، وهي الحنفية... ويقال: بل كانت أمه من بني يمامة، فصارت إلى «علي»، ولها كانت أمه لبني حنفية سندية سوداء، ولم تكن من أنفسهم وإنما صالهم خالد بن الوليد على الرقيق، ولم يصالهم على أنفسهم أيام أبي بكر المعارف لابن قتيبة: ص ٢١٠ مطبعة دار الكتب.

(٢) وكان خالد بن الوليد سبها في «الردة» في خلافة أبي بكر فاشتراها علي المصدر الآنف من المعارف.

والأصغر، والقاسم، وعبد الله، وأبو بكر، وطلحة، وعمر، وعبد الرحمان، والحسين الأثرم، ومحمد، وكان يكنى به، ويعقوب، وإسماعيل.....

درج البعض منهم صفاراً في حياة أبيهم، ومات بعضهم بعد وفاته واستشهد ثلاثة منهم وقيل أربعة في واقعة الطف كما سنذكر، وأعقب منهم أربعة: زيد، والحسن، والحسين، وعمر، وانقرض عقب الآخرين، وبقي عقبه المستمر في الأولين.

أما زيد بن الحسن عليه السلام وأمه أم بشر فاطمة بنت أبي مسعود الأنصارية، فله ولد واحد وهو الحسن بن زيد، والعقب منه ^(١)

وأما الحسن بن الحسن عليه السلام وأمه خولة بنت منظور بن زبان بن سيار الفزارية فأعقب من خمسة بنين: عبد الله المحض، وإبراهيم الغمر، والحسن المثلث وأمه فاطمة بنت الحسين بن علي عليه السلام، وداود، وجعفر وأمه أم ولد تدعى حبيبة

وللحسين بن علي عليه السلام سيد الشهداء من البنين: أربعة، وقيل: خمسة: علي الأكبر، وعلي زين العابدين عليه السلام، وجعفر، وعبد الله الرضيع، وعلي الأصغر كما قيل.

مات جعفر وأمه القضاعية في حياة أبيه. واستشهداثنان: علي الأكبر وأمه ليلى بنت أبي مرة الثقفية، وعبد الله الرضيع شقيق سكينه من أمها: الرباب بنت أمري القيس في واقعة الطف.

وعقبه منحصر في ولده الإمام علي بن الحسين زين العابدين وهو الأصغر كما في بعض المصادر وأمه: شاه زنان، أو شهر بانو بنت كسرى يز دجرد بن شهر يار ملك الفرس في عصره ^(٢). قال الشاعر فيه:

وإن وليداً بين كسرى وهاشم لأكرم من نيطت عليه الثعائن

ولمحمد بن علي عليه السلام المعروف بأبن الحنفية تعريفاً له بأمه من البنين أكثر من عشرة أيضاً: عبد الله أبو هاشم، والحسن، وجعفر، وعلي، وعون، وإبراهيم، والقاسم، وطالب،

(١) حمدة الطالبي للنسابة الحسيني: ص ٧٠ ط التلجف.

(٢) ويقال إن أمه سندية يقال لها «سلافة»، ويقال «غزالة»، خلف عليها بعد الحسين زيد مولى الحسين بن علي فولدت له:

عبد الله بن زيد، فهو أخو «علي بن الحسين» عليه السلام..... المعارف لابن قتيبة: ص ٢١٤ ط دار الكتب بمصر.

وعبد الله، وحمزة، وبعض آخرون، لأمهات أولاد شتى^(١).

قال ابن حزم في «الجمهرة» بعد أن عدّ من أولاد محمد بن الحنفية جعفر، وعلي، وإبراهيم، والقاسم: «والعقب لهؤلاء، ولا عقب لسانر ولده». ثم يستعرض عقب أولئك المذكورين^(٢)

ويرى النسابة الحسني في «العمدة ص ٣٥٢» ط النجف: أن العقب المتصل من محمد بن الحنفية من ابنه: علي وهو الأكبر، وجعفر قتيل «الحزة»^(٣).
ويذكر السبط في «التذكرة» أن أم علي قضاعية: بنت أبي جدير، وأم جعفر: بنت محمد بن جعفر أبي طالب^(٤).

وللعباس الأكبر شهيد كربلاء ابن أمير المؤمنين عليه السلام من البنين:
ولدين أو أكثر كما قيل^(٥): الفضل وهو الأكبر يكنى أبوه، وعبيد الله وأمهما: لبابة بنت عبد الله بن العباس بن عبد المطلب يقول النسابة البغدادي في كتابه المحبر ص ٤٤١ بيروت «وتزوجت لبابة بنت عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب (العباس) بن علي بن أبي طالب، ثم خلف عليها: الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، ثم زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب».
أما الفضل فمنقرض العقب، فأنحصر عقب العباس عليه السلام في ولده: عبيد الله^(٦).
ولعمر الأطراف بن أمير المؤمنين عليه السلام من البنين: جماعة كثيرة، متفرقة في بلاد

(١) فقد ذكر له السبط في التذكرة: ص ٢٩٩ - ٣٠٠ ط النجف: جعفر الأصغر إضافة إلى جعفر الأكبر المذكور، وعبد الرحمن، وعبد الله الأصغر: إضافة إلى الأكبر أبي هاشم. (٢) راجع ذلك في: ص ٦٦ من الجمهرة ط دار المعارف بمصر.

(٣) ووقعة العرة، حرة واقم في المدينة؛ كانت في آخرها سنة «٦٣» هـ بأسر من يزيد بن معاوية، وقيادة مسلم (مسرف) بن عقبة المزني، فقد قتل فيها من أهل المدينة الألف، ومن أبناء المهاجرين والأنصار المئات ومن بعض وجوه الصحابة، وأُبيحت المدينة لسكر أهل الشام ثلاثاً يمضون بالنفوس والأموال والأعراض، وأرغم أهلها بعد ذلك على البيعة ليزيد على أنهم حول وعبيد، وسنذكرها بعد ذلك.

(٤) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي: ص ٢٢٩ - ٣٠٠ ط النجف العيدرية سنة ١٣٩٣ هـ.

(٥) فقد قيل: إن العباس بن علي عليه السلام من البنين غير المذكورين: اثنين أو ثلاثة: محمد، والقاسم، والحسن. من أم الأولين، أو من أم ولد، كما ذكر بعض أرباب المقاتل: أن أحدهم محمداً أو القاسم قتل بين يدي أبيه يوم الطف، وسنذكره فيما بعد.

(٦) يقول ابن حزم في (جمهرة أنسابه: ص ٦٧) ط دار المعارف بمصر هنا «فولد عبيد الله المذكور: الحسن والحسين، وحمزة»، ويقول النسابة الحسني في (العمدة: ص ٣٥٧) ط النجف: «وعقب عبيد الله ينتهي إلى ابنه الحسن».

عديدة، وأعقب من رجل واحد، وهو ابنه محمد^(١)

أما العباس بن عبد المطلب فله من البنين تسعة: الفضل وهو أكبر، وبه كان يكنى أبوه^(٢)، وعبد الله الحبر، وعبيد الله، وقثم، ومعبد، وعبد الرحمان^(٣)، وتمام، وكثير^(٤)، والحارث وأمه جميلة بنت جندب من هذيل، كما في محاضرات الخصري^(٥) التوفيقية معهم صفية وأميعة، كما في محاضرات تأريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية لمحمد الحصري.

والعقب المتصل للعباس بن عبد المطلب في أولاده الثلاثة معبد، وعبيد الله، عبد الله. أما معبد بن العباس، فعقبه باقٍ في ولده: عبد الله بن معبد. وأما عبيد الله بن عباس، فعقبه في ولده: العباس بن عبد الله، وجعفر بن عبيد الله. وأما عبد الله الحبر بن العباس، فله من البنين: العباس، ومحمد، والفضل، وعبد الرحمن، لا عقب لواحد منهم، وعلي وهو أصغرهم وفيه الجهمرة والعدد والخلافة ولا عقب لعبد الله بن العباس من غير علي، وأمه: زهرة أو زرعة بنت مشرح أو مشرح بن معدي كرب الكندي، ومن ولد علي هذا: محمد، وهو مؤسس الدولة العباسية، ومن ولده: أبو العباس السفاح عبد الله، ومحمد أول خلفاء بني العباس^(٦).

(١) عن العمدة للنسابة الحسيني: ص ٣٦٢ ط التجف. وعقب على ذلك، فيقول: «فأعقب محمد من أربعة رجال: عبد الله، وعبيد الله، وعمر، وجعفر...» راجع في مصادر عقب أبناء أبي طالب الثلاثة: عقيل، وجعفر، وعلي: سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ١، ط ٣ دار المعارف بمصر، وأنساب البلاذري: ج ٢ ط بيروت تحقيق المحمودي، والإصابة لأبن حجر، وبها مشافها الإستيعاب لأبن عبد البر ج ٣، والمحبر للنسابة البغدادي على العروف، وعمدة الطالب للنسابة الحسيني ابن عتبة ط التجف، وسياك الذهب للسويدي البغدادي، ودوائر المعارف لمحمد مهدي الموسوي ط بغداد، وجهمرة أنساب العرب لابن حزم على الحروف، وتذكرة الخواص لسبط بن الجوزي على الفهرس، المعارف لابن قتيبة على الفهرس، وكشف القصة للأرمني، وارشاد المفيد، وأعلام الطبرسي، وتاريخ العقوي وغيرها من عامة كتب التاريخ والتراجم، وأخيراً: كتابنا الكبير المخطوط: صفحات مشرقة عن تاريخ أهل البيت عليه السلام.

(٢) وليس للفضل إلا ابنة، تزوجها أبو موسى الأشعري، فلا عقب له، كما يقول ابن حزم في الجهمرة: ص ١٨.

(٣) وهؤلاء الإخوة الستة ومنهم أم حبيبة أمهم: أم الفضل لبابة بنت الحارث بن حمرث بن بجر الهلالية.

(٤) تمام بالتشديد وكثير بالضم والتشديد وهما شقيقان من أمهما أم ولد، والحارث لأم ولد وحده.

(٥) راجعنا في نسب العباس بن عبد المطلب، وعقبه: المصادر التالية: محاضرات: تأريخ الاسلامية لمحمد الحصري: ج ٢.

وأما الحارث بن عبد المطلب فله من البنين: أبو سفيان واسمه المغيرة من الشعراء الاسلاميين^(١)، وعبد شمس سماه النبي ﷺ: عبد الله، وأميه ولا عقب لواحد منهم. وكان لأبي سفيان ابن اسمه: عبد الله يكنى: أبا الهياج، أبرص، وولد أبو سفيان أيضاً ولداً، اسمه جعفر، له صحبة، ولا عقب له^(٢).

وللحارث هذا من البنين أيضاً: نوفل، وربيعة وفيهما العقب الكثير المستمر. أما نوفل، وكان أسن بني هاشم في زمانه، فله من البنين كثير، والظاهر: انحصار عقبه الباقي في ابنه الحارث، وله صحبة، ومات في أيام عثمان بن عفان، عن سبعين سنة من

→ وتأريخ الخلفاء للسويطي: ص ٢٥٦: ط ثالثة في مصر، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم: ص ١٨-٢٠: ط دار المعارف بمصر، قريش للزبيدي: ط مصر، وسير أعلام النبلاء للذهبي ج ٣، والمحرر للنسابة البغدادي على الحروف، وسبائك الذهب للسويدي، ودوائر المعارف للموسوي، ومعارف ابن قتيبة حسب الفهرس بالإضافة إلى الموسوعات التاريخية، والمعاجم، ومعرضنا لذلك في كتابنا الكبير المخطوط: صلحات مشرفة عن تأريخ أهل البيت.

(١) هكذا يقول الذهبي عنه « سير أعلام النبلاء » ج ١ ص ١٤٩، ط دار المعارف بمصر. ويذكر له عن ابن اسحاق: قصيدة، تنوف على العشرة أبيات في رثاء النبي ﷺ منها:

وأسعدني البكاء وذلك فيما

أراقت فبات ليلى لا يزول

وليل أخي المصيبة فيه طول

فقد عظمت مصيبتنا وجلت

عشية قيل: قد قبض الرسول

أصيب المسلمون به قليل

كما ذكر له ابن أبي الحديد في الشرح النهج: ج ١ ص ١٤٩ ط دار إحياء الكتب العربية بمصر: أبيات في وقعة صفين، وهي:

وأيقنوا أن من أضحى يخالفكم

يا عصابة الموت، صبراً لا يهو لكم

جيش ابن حرب فإن للحق قد ظهر

فيكم وصي رسول الله قائمكم

أضحى شقيقاً، وأمسى نفسه

وصهره، وكتاب الله قد نشر

خسراً

(٢) هكذا ذكر ابن حزم في الجمهرة: ص ٧٠، ويذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج: ج ١ ص ١٤٣ ط جديد: لعبد الله بن أبي سفيان هذا بيتين من الشعر، يفخر فيها بعلي بن أبي طالب، ويذكر وصايته عن النبي ﷺ، وهما:

وصي النبي المصطفى وابن عمه

ومنا علي ذلك صاحب خيبر

فمن ذا يدانيه ومن ذا يقاربه

وصاحب بدر يوم سالت كتابه

العمر، وكان نوفل أسن من عمه العباس بسنتين، وتوفي في خلافة عمر.
وأما ريعة، فله من البنين كثير أيضاً، والظاهر انحصار عقبه الباقي في ولديه العباس،
وعبد المطلب^(١)

ويعدّ الذهبي في «الأعلام»: للحارث بن عبد المطلب: ابنين آخرين، هما: سفيان،
وسعيد، ولم يذكر لهما عقباً^(٢)

وأما أبو لهب بن عبد المطلب وأسمه عبد المزى، وأمّه: لبنى الخزاعية كما ذكرنا فهو
أحد أعمام النبي ﷺ، ومن أشدّ المشركين عليه، وعلى إسلامه، وعلى المسلمين^(٣)،
وكذلك كانت زوجته «أم جميل بنت حرب بن أمية» حاملة الحطب من أشدّ المشركات
على النبي ﷺ وعلى إسلامه، وعلى المسلمين.

ولأبي لهب من البنين عتبة، وعتيبة، ومعتب، بضم فكسر وتشديد أمهم جميعاً: أم
جميل، وهي أشهر من نار على علم في الفجور، ولا عقب لعتيبة، ولعتبة ومعتب عقب
مستمر، فمن ولد عتبة: العباس، وأبو خدّاش، ومنهما العقب. ومن ولد معتب: معمر
بافتح ومنه العقب^(٤)



(١) سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ١ ص ١٤٥ و ص ١٨٦ ط دار المعارف بمصر.

(٢) سير أعلام النبلاء: ج ١ ص ١٤٤، ١٤٧. ويراجع عن تفصيل الحارث بن عبد المطلب بالإضافة إلى المصادر الآتية الذكر:
تأريخ الإسلام للذهبي، وسبائك الذهب للسويدي، ودوائر المعارف للموسوي، وفلاذد الذهب في أنساب العرب لابن حزم،
والمعبر للنسابة البغدادي. بالإضافة إلى الموسوعات التاريخية والنسبية الأخرى. واستطردنا ذكره في كتابنا الكبير
المخطوط: صفحات مشرقة عن تأريخ أهل البيت عليه السلام.

(٣) ويعدّ النسابة البغدادي في المعبر: ص ١٧٥ ط بيروت من المقتولين يوم بدر مع المشركين، وفي عامة التواريخ: إنه لم
يخرج مع المشركين إلى الواقعة، وبقي يحرض الناس على الخروج، وما أن بلغه انكسار المشركين يوم بدر، حتى مات
حنقاً. ويقول التويري في كتابه «نهاية الأرب: ج ١ ص ٣٣» ط دار الكتب بالقاهرة: «فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب
بدر، كبتّه الله وأخزله، إلى قوله: فو الله، ما عاش بعد ذلك إلا سبع ليال، حتى رماه الله بالمدسة قرحة قاتلة كالطاعون».

(٤) لاحظ نسب وعقب أبي لهب في: كامل ابن الأثير: ج ٢ ص ٤٧ ط بيروت، والروض الأثف للسبلي: ج ١ ص ٢٦٥ ط
مصر، ومعبر النسابة للبغدادي: ص ٣٠٣، ١٥٧ وجمهرة الأنساب لابن حزم: ص ٧٢. ط دار المعارف بمصر، وكذلك
مشجرتّه «فلاذد الذهب» بالإضافة إلى عامة الموسوعات التاريخية والنسبية.

بعد أن انتهينا من عرض الحديث بإيجاز عن عقب هاشم بن عبد مناف المتسلسل في ولده المعقب عبد المطلب، نثني الحديث بإيجاز أيضاً عن عقب أخيه عبد شمس بن عبد مناف المتسلسل في أبنائه السبعة الآتية.

فنقول:

لقد ذكر المؤرخون، والنسابون لعبد الشمس من البنين ثمانية أو أكثر، والمعقبون منهم سبعة نفر: أمية الأكبر على ذلك شك لنا في بنوته كما سنذكر، وأمие الأصغر، وعبد أمية ويقال لأبنائهما القبيلات، وحبيب ولعله أكبر أبنائه، وبه كان يكنى أبوه ونوفل، وعبد العزى، وربيعه، أربعة منهم لأم واحدة، وهم: أمية الأصغر، وعبد أمية، ونوفل، وعبد العزى، ويقال لها «عيلة» بالتحريك بنت عبيد، من بني غنم، والباقون من أمهات شتى. أما أمية الأكبر بن عبد شمس ويقال له بنيه بالخصوص «بنو أمية» على الإطلاق، فله من البنين أكثر من عشرة، والمعقبون منهم خمسة، حرب، وأبو عمرو وعلى شك لنا في بنوته لأمية كما سنذكر والعاصي، وأبو العاص، والعيص، وأبو العيص^(١).

فلحرب بن أمية الأكبر من البنين جماعة ولا عقب له إلا من ابنه أبي سفيان صخر بن حرب، وعقب أبي سفيان من بنيه الكثيرين في أربعة منهم: معاوية، ومحمد، وعنبسة، وعتبة، فعقب معاوية بن أبي سفيان في يزيد، وعقب يزيد من بنيه في ابنه خالد وعبد الله على الظاهر، وعقب محمد بن أبي سفيان في ولده: عثمان، وعقب عثمان في ولده محمد، وعقب عنبسة بن أبي سفيان في ولديه: أبان، وعثمان بنو ولده بمختلف، وعقب عتبة ابن أبي سفيان في بنيه كثيرين: الوليد، ومعاوية، وعتبة، ويعلى، وعبيد الله، والحصين، وعمر.

ولأبي عمرو بن أمية الأكبر كثير من البنين ولا عقب له إلا من ابنه «أبان» أبي معيط، ولا عقب من أبي أبان إلا من ابنه عتبة.

(١) ويقال لحرب وأولاده ولبنوته غير المعقبين: أبي حرب، وسفيان، وأبي سفيان، وعمرو، وأبي عمرو «العنابس» لما قبل من أن «عنبسة» لقب بعضهم، كما يقال لأخوة حرب: الأربعة المعقبين وأولاده: «الأعاص»، انتزاعاً من أسمائهم وأسماء بعض أخوتهم الآخرين. وغير المعقبين. والملاحظ: أن بعض المصادر أسمت: أبا عمرو المذكور به «ذكوان»، وإن اشتهر بكنيته.

المأسور يوم بدر والمقتول بعد الأسر: صبراً بأمر النبي ﷺ، وعقبه في بنيه الاربعة: الوليد، وخالد، وهشام، وعمارة.

وللعاصي بن أمية الأكبر: جماعة من البنين. واختص عقبه بولده: أبي أحيدة بالتصغير واسمه: سعيد بن العاصي، وقد مات كافراً.

ولسعيد هذا من البنين جماعة، والعقب من ابنه: العاصي بن سعيد بن العاصي، وقد قتل هو وأخوه عبدة يوم بدر كافرين.

وأعقب العاصي الثاني هذا من ابنه: سعيد بن العاصي بن العاصي.

ولسعيد الأخير: عقب كثير من عدة أبنائه.

ولأبي العاصي بن أمية الأكبر: عدة بنين منهم: المغيرة، والحكم بالتحريك وعفان.

فلمغيرة: ابن، اسمه: «معاوية» قتله رسول الله ﷺ بعد أسره يوم بدر. وليس له سوى

ابنة، إسمها «عائشة» فانقرض عقبه، وقصته مفصلة في التاريخ.

وللحكم طريد رسول الله ﷺ زهاء عشرين من البنين، وأعقب منهم: مروان، وأبان،

وعثمان، وخالد، وعبد الرحمان، والحارث، ويحيى.

ولعفان بالتشديد عدة بنين، لم يعقب منهم سوى عثمان، وعقب عثمان بن عفان

المستمر في بنيه: عمر، وعمر، وأبان، وخالد، والوليد، فعقب عمر في ابنه: عاصم

وزيد، وعقب عمرو في بنيه: خالد، وعبيد الله، والمغيرة، وعنبسة، وغيرهم. وعقب أبان

في بنيه: سعيد، وعبد الرحمان، وعمر، ومروان، وعقب خالد في ابنه: عبيد الله، وعقب

الوليد في ابنه: عبد الله، وعمر.

ولأبي العيص بن أمية الأكبر من البنين المعقبين: أسيد بالتصغير، ولأسيد من البنين

المعقبين: خالد، وعتاب بالتشديد، والعقب من خالد في ولده: عبد الله، ومن عتاب في

ولده: عبد الرحمان.

وأما أمية الأصغر بن عبد شمس، فعقبه في ابنه «الحارث»، وعقب الحارث في ابنه عبد

الله، وعبد الله في ابنه محمد.

ومحمد هذا شقيق «الدرية» المشهورة سيدة الغريص المغني التي كان يتغزل بها شاعر

الغزل والنسيب عمر بن أبي ربيعة المخزومي، وكان قد تزوجها سهل بن عبد الرحمان بن عوف، فقال ابن أبي ربيعة في ذلك من أبيات.

أيها المنكح «الشربا» سهيلاً عسرك الله كيف بالثقلين

هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يعاني^(١)

وأما عبد أمية بن عبد الشمس، فعقبه في ولديه: أسد، ومعل، وعقيل، والأحوص.

وأما حبيب بن عبد شمس، فعقبه في ولديه: ربيعة، وسمرة بضم ففتح.

وعقب ربيعة في ابنه كرز بالتصغير، وعقب سمرة في ابنه عبد الرحمان.

وأما نوفل بن عبد شمس، فعقبه في ابنه أبي العاصي، المقتول يوم بدر كافراً.

وعقب أبي عاصي في بنيه: حاجب، وعثمان، وهبار بالتشديد، وحزن بالتسكين،

وحزام، وعبيدة بالتصغير.

وأما عبد العزى بن عبد الشمس، فله من البنين: الربيع، وربيعه.

فللربيع ابن، اسمه القاسم على الأكثر «وكنيته أبو العاصي» وهو صهر النبي ﷺ على

ابنته أورييته زينب، وله منها: ابن، اسمه علي، مات صغيراً، وبنت، اسمها «أمامة» بقيت

(١) البيتان: ضمن مقطوعة ذات أربعة أبيات ذكرت في ديوانه المطبوع بمطبعة السعادة بمصر، برقم القطعة ٤٦٣٩.

والشاعر: أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة (حذيفة) بن المغيرة المخزومي القريشي، وقد اشتهر بالنسبة إلى جده، فقل:

عمر بن أبي ربيعة. وكان اسم أبيه في الجاهلية بجزراً بالتصغير أو بكسر الحاء أو ألجهم فسماه رسول الله ﷺ بعد الإسلام:

عبد الله، واستعمله على إحدى مدن اليمن، يقال لها: (الجنبد) بالتحريك. وأمه: أم ولد، يقال لها: (مجد) سببت من حضر موت،

أو حمير. ولد: ليلة وفاة عمر بن الخطاب في أخريات ذي الحجة من سنة (٢٣) هـ فسمي باسمه.

ومات غرقاً في البحر سنة (٩٣) هـ وقد جاوز السبعين عاماً أو جاوزها من العمر، كان أرق شعراء عصره، من طبقة جرير

والفرزدق، وغيرهما، ولم يكن في القريشيين أشعر منه، وقد عرف شعره بـ(الفتق المقشر) لرفق أسلوبه، وترف مضامينه،

خصوصاً بالتشبيب والغزل بالنساء، وقد اشتهر بذلك من بين شعراء عصره.

وترك الشعر. ونسك في أخريات أعوامه، حتى مات ناسكاً متصوفاً.

كتبت عنه عامة كتب الأدب والمعاجم كوفيات الأعيان لابن خلكان، والأخاني لأبي الفرج، والشعر والشعراء لابن قتيبة،

وخزانة الأدب للشاذلي وغيرها. كما كتب عن سيرته، وشعره، وغزله، رسائل خاصة مطبوعة بأفلام كثير من الباحثين

والأدباء كابن بسام الشاعر، وجبران جبور، وعباس العقاد، وزكي مبارك، وعمر فروخ وغيرهم، وترجم له ترجمة شافية:

شرح ديوانه المطبوع: العلامة الباحث محمد محي الدين عبد الحميد.

بعده فتزوجها أمير المؤمنين عليه السلام كما ذكرنا، فانقرض عقب الربيع بن أبي العاصي من الذكور. وبقي عقب ربيعة في بنيه: عدي، وحارثة، ويزيد.

وأما ربيعة بن عبد شمس، فعقبه من بنيه في اثنين منهم: عتبة بالضم، وشيبة بالفتح وقد قتل يوم بدر بسيف علي عليه السلام وبمعاونته.

فلعتبة من البنين جماعة، والظاهر: انحصار عقبه في اثنين منهم: أبي هاشم والوليد المقتول يوم بدر مع المشركين، بسيف أمير المؤمنين عليه السلام.

ولشيبة من البنين جماعة، وعقبه في ابنه عبد الله (١)

وبعد هذا العرض البسيط لنسب، وأعقاب هاتين القبيلتين والتأشير على الفروع البارزة من كلتا الشجرتين، نستدرج الحديث بإيجاز في موضوعين، متدرجين بحسب النتيجة.

نتحدث في أولهما عن جذرية الخلاف والصراع بين القبيلتين، وكيف بدأ حتى وصل إلى مرحلته العنيفة بين الحسين بن علي فخر الهاشميين ويزيد بن معاوية عار الأمويين. ونسلط الأضواء في ثانيهما على بعض الملامح والمؤشرات الطاغية على سلوكية معظم من أفراد تلك الأسرة، أو هذه القبيلة، من حيث الموازنة الدينية والإنسانية والاجتماعية، لنقف في خلال ذلك على ظلال اجتماعية، وظلمات تاريخية. فتبرز على «شاشة» الواقع صور مظلومة، وملامح مطوية تحت الرقابات القاسية، والتكثيف الحقود، وتتوارى عن تلك «الشاشة» صور ظالمة، وأشباح متلصصة في وضع النهار. أما الكلام حول الموضوع الأول منطلق النزاع ونشأته بين القبيلتين فنقول:

كان أول نزاع وخلاف على وجه الأرض بين الحق والباطل والهدى والضلال هو

(١) ارجع في تفصيل نسب وعقب بني أمية: معارف ابن قتيبة: ص ٧٦ - ٧٤ ط دار الكتب بمصر، وتاريخ الخلفاء للسيوطي: ص ١٤٧ - ١٦٤ وص ١٩٥ - ٢٥٠ ط ثانية بمصر، والمقد الفريد للأندلسي: ج ٣ ص ٣١٦ وج ٤ ص ٣٦٠ ط ثانية بمصر، وسير أعلام النبلاء للذهبي: ج ١ - ٣ على الحروف ط دار المعارف بمصر، والمعبر للنسابة البغدادي عدة مواضع حسب الفهرس، وسبائك الذهب للسيوطي، ودوائر المعارف للموسوي حسب المشجرة وجمهرة الأنساب لابن حزم: ص ٧٨ - ١١٥ ط دار المعارف بمصر، ومشجرة فلكلند الذهب، وتاريخ الدولة الأسوية للغضري المصري: ج ٢ وغيرهما من موسوعات السير والأنساب كتأريخ الطبري، وكامل ابن الأثير، ونهاية التويري.

الذي حصل لولدي آدم أبي البشر: هابيل وقابيل.

قال أرباب التأريخ والتفسير في بيان السبب ذلك باقتضاب: إن «حواء» أم البشر زوجة آدم كانت منذ هبوطها بعد آدم من الجنة إلى الأرض تحمل توأماً ذكراً وأنثى حتى ولدت لآدم أربعين ولداً في عشرين بطناً.

وكان الذكر من ابن آدم يتزوج أية أخواته شاء، إلا توأمة التي ولدت معه في بطن واحد، فانها لا تحل له حسبما فرضتها شريعة آدم حينئذ، هكذا يقول عامة المؤرخين، حيث يرون تضاول بشاعة تزويج الأخت بهذا النحو غير الشقيق وإن ذهب بعض علماء المسلمين ومؤرخيهم إلى بعض التأويلات هي إلى الغيبيات أقرب منها إلى الواقع الخارجي.

قالوا: حتى إذا ولد لآدم ابنان هابيل وقابيل وكانت لكل منهما أخت ولدت معه في بطن واحد، وكانت توأمة قابيل أجمل من توأمة هابيل، أمرهما أبوهما كبقية إخوتهما أن يتزوج كل منهما توأمة أخيه، فقبل هابيل، وأبى قابيل، ضناً منه بجمال توأمة، وقال لهابيل، أختي ولدت معي، وهي أجمل من أختك وأنا أحق بتزويجها، فنهاه أبوه آدم وقال له: إنها لا تحل لك، فأبى قابيل أن يصاع إلى نهي أبيه.

لفصل آدم بين ولديه: أن يقرب كل منهما قرباناً إلى الله، فمن قبل قربانه فهو على حق، ومن رفض قربانه فهو على ضلال، فرضي ابنه بذلك الفصل، ثم تركهما آدم، وذهب إلى مكة كما قيل يدعوا الله لولديه بالوفاق.

وكان قابيل صاحب زرع، وهابيل صاحب زرع، فقرب هابيل قمحاً من زرعه، وقرب هابيل أبكاراً من ماشيته، فأرسل الله ناراً يضاء أكلت قربان هابيل، وكان ذلك علامة القبول من الله، وتركت قربان هابيل وكان ذلك دلالة الرفض منه تعالى، فكان في ذلك القضاء لهابيل على قابيل، فغضب قابيل على أخيه. وقال له:

«لأقتلك فقال هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين لمن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط اليك لأقتلك، إني أخاف الله رب العالمين إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل أخيه، فقتله فأصبح من الخاسرين».

فقد روى: أنه لما قتله، ندم على فعله، وتركه في العراء، وجعل يطيل النظر إلى جثته،

ولم يدر ما يصنع بها لاختفاء جريمته، فبعث الله غرابين أخوين أقتلا أمام نظر قابيل فقتل أحدهما الآخر، ثم حفر له بمخالبه وجعل «يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَ قَابِيلَ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ، فَقَالَ قَابِيلُ: يَا وَيْلَتَى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ»^(١).

فكان «قابيل» أول متناول على الحق من بني الإنسان، وأول جائر عن سنن الواقع في الحياة.

● روافد الخلاف بين القبيلتين

وهكذا انطوى الزمن، وتتابعت أشواطه، فاذا نحن نقرأ من خلال خطوطه العربية امتداداً طبيعياً لأول مسيرة الإنسان في منطلق الحياة، ذلك هو الصراع القائم بين قبيلتي هاشم، وأمّية، الممتد من الصراع العريق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والفضيلة والرذيلة، والنور والظلام، والخير والشر، ونحوها من المتضادات الذاتية على طول المسيرة الإنسانية.

فأخذ ذلك الصراع المتسلسل يتواصل في حلقاته التاريخية حتى وقف على مرحلة البون الشاسع، والفرق المتميز بين شخصيتي الأخوين: «هاشم، وعبد شمس» حيث مفترق التدرج نزولاً في التخاصم والتنازع بين خطي القبيلتين إلى أن وصل إلى شخصيتي: حسين، ويزيد، حيث تقف الحديث عليهما، بحكم اقتضار الموضوع المرصود من هذا الفصل.

كل ذلك على ضوء الملاك المستوي، الذي يستمد أصوله وفصوله من روح الحنفية البيضاء والإسلام الأبلج، والملاك الملتوي الذي يستمد أصوله وفصوله من حياة العرب في جاهليتهم ومن تماذيمهم في الطفيان حتى بعد شروق فجر الإسلام على أفق الجزيرة العربية.

وهذان الملاكان المتباينان هما الطاغيان على سلوكية كل فرد من أفراد القبيلتين في الأشواط المتدرجة: من الأجداد إلى الأباء إلى الأبناء والأحفاد، بل وحتى إلى الأسباط

(١) تلخيص قصة ابني آدم المذكورة في الآيات (٢٧-٣١) من سورة المائدة. كما عرضها ابن الأثير في الكامل: ج ١ ص ٢٥ -

أحياناً إذا ما وسّعنا النظر، وعممنا البحث.

فمن هاشم وعبد شمس، إلى عبد المطلب وأمية، إلى أبي طالب وحرب، إلى النبي محمد ﷺ وأبي سفيان، إلى علي ومعاوية، وبالتالي: إلى حسين ويزيد.....

وهكذا استمرت الخصومات والمنافرات على ضوء ذينك الملاكين المزبورين بين أبناء الحسين وآل حسين، وأبناء يزيد وآل يزيد، إلى حيث لا يسعنا استعراض التسلسل الطبقي في الصراع بين فروع القبيلتين، أو مظاهر الملاكين المزبورين على مدى القرون والأجيال.

ولعل من أبسط شواهد الذاتية المتوارثة من العداوة والمنافرة بين القبيلتين أننا لو استعرضنا تفصيلاً سيرة كل فرد من أفراد القبيلتين، ومن كان على وتيرتهم، منطلقين من هاشم وعبد شمس، إلى آخر التسلسل النسبي المتمثل فيما هو المقصود من البحث: من الصراع بين الحسين ويزيد.

أقول: لو استعرضنا تلك المسيرة المنحدرة، لم نجد في صحائف الكثير بل الأكثر من أبناء هاشم إلا الوفاء، والشجاعة والسخاء، والحكمة، والإستواء، والتواضع والحلم، وحب الخير للعامة، وطهارة المولد، وشرف النفس، وعلو الهمة، والتورع عن الخسة، والنفقة عن الدناءة، وما إلى ذلك: من سماعة الاخلاق، وزكاة الأعراق، وإشراق الآفاق، مما تفوح به كلمة «الفضيلة» بإطارها الشمولي الواسع، ومفهومها العميق الشاسع.

كما أننا لم نجد إذا واكبنا تلك المسيرة المنحدرة على مدى الأجيال، ومن حيث السعة الشمولية في صفحات الكثير بل الأكثر أيضاً من أبناء عبد شمس من الأمويين ومن الأهم إلا ما يعطى بالرديلة ومعانيها ومخلفاتها التنتة: من الكذب والغدر، والخبث، والمكر، والزيف والروغان، والزور والبهتان، والحسد والحقد، والشح والخيلاء، وضعف النفس وخستها، وخمول الهمة ودنائتها، والإبصياح إلى التحلل الخلقي، والإفغاس في الموبقات، والارتطام في المهر والفجور، وخبث المولد، ومهانة المحتد، وما إلى ذلك مما تعنيه كلمة «الرديلة» بمفهومها العفن، وإطارها الشامل.

وأخيراً، فلنصوب، الفكر والقلم، إلى الفصل الثاني من الكتاب لتعرف على أصل الشجرة الهاشمية بفروعها الباسقة بالخير والفضيلة، فنقول:

الفصل الثاني

هاشم: فتى عبد مُناف

جذرية الخلاف بين الهاشميين، الأمويين من هاشم وعبد
شمس، عرض سمات هاشم الجميلة وصفاته الجلية، على
العكس من سمات وصفات أخيه وابن أخيه عبد شمس
وأمية، وأخيراً كان التنافر بين الفضيلة والرذيلة.

مدخل لعرض جذرية الصراع

بين الهاشميين والأمويين

ثم الحديث - بإيجاز -

عن سلسلة النسب والعقب بين الشجرتين

وبيان أول خلاف في بني الإنسان



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وبالجملة، فلا بد لنا من بيان موجز للموضوعين المرتبين في الفكرة، اللذين أشرنا إليهما: أسباب الخلاف ودوافعه بين القبيلتين، وعرض بعض الظواهر التي يعكسها تأريخ كل منهما على شاستي: الحق والباطل.

أما الموضوع الأول: فحسبنا أن نقف وقفة متأملة في عرض موجز للشخصية المثالية الكريمة المتمثلة في هاشم فتى عبد مناف لتتعرف بعد ذلك وبحكم المعاكسة في عامة الظواهر على شخصية أخيه عبد شمس، فنكون بذلك قد وقفنا على منطلق الخلاف بين القبيلتين بصورة واضحة، فنقول:

بعد إجماع المؤرخين والنسابين على أخوة هذين الاسمين، فقد قال: بأنهما توأمان في بطن واحد، وأن عبد شمس خرج في الولادة قبل هاشم، أو بالعكس، وقد لصقت إبهام رجل هاشم في جبهة عبد شمس، فلما نزعت بالسيف أو المدية دمي المكان فتطيرت قريش، قالوا: سيكون بينهما وبين أولادهما السيف والدم إلى الأبد^(١). ولقد عرف التأريخ هاشماً بأنه الفتى المتميز دون إخوته الثلاثة بسماة جسمية باهرة، وصفات نفسية ساحرة.

فقال عنه في عرض سماته: إنه كان غض الشباب، وريق العمر، طيب النشر، باسم الثغر، نضير الغصن، أغر الجبين، أنف العرنيين، صبيح الوجه، مبارك الطلعة، رشيقي القوام، مترف الهندام. وكان لهذه السمات المحسنة يدعى بالبدر تارةً وبالقمر أخرى عما كان أبوه يدعى كذلك من قبل.

(١) النزاع والتخاصم: للمقرئ: ص ١٠ - ١١ ط التجف، وتأريخ الطبري: ج ٢ ص ٢٥٢ ط دار المعارف بالقاهرة، وكامل ابن الأثير: ج ٢ ص ١٠ ط بيروت.

● سمات هاشم وصفاته

يقول معاصره في مدحه: مطرود بن كعب الخزاعي في قضية حاكم فيها بعض القرشيين إلى هاشم:

إلى القمر الساري المنير دعوته ومطعمهم في الأزل من قمع الجُزْز^(١)

وقال عنه بعض المؤرخون في عرض صفاته النفسية: إنه كان يتمتع بسعة الصدر وسماحة الطبع، ولين الجانب، ورقة الشمائل، وكبرياء النبل، وبذخ الشرف، وقوة النفس، وتفهم الأحداث، ووضع الحلول المناسبة لها.

وكان على ريعان شبابه حيث مات عن عشرين أو خمسة وعشرين عاماً على الخلاف، يتصرف برزانة ووقار الشيوخ. وكان يتعرض للكريمات من الخصال، فيملؤها، غذاءً ورواءً، وكان يمتاز بالصدق في إيمانه وكلامه، وباليقين في أحكامه، وهو بعد ذلك يصل الأرحام ويطعم الجائع، ويكسو العريان، وينتصف إلى المظلوم من الظالم ويجبر الكسير، ويمنع المستجير.... إلى نحو ذلك مما عرضه المؤرخون والذين كتبوا عن صفاته النفسية العالية.

أما أخوه عبد شمس فلم يكن يتمتع ببعض تلك السمات الجميلة والصفات النبيلة، لو لم نقل إنه كان يتميز بأضدادها.

وهذا الأمر هو الذي أهاب بقبائل قريش بعد وفاة عبد مناف أن تنيط تلك الزعامات التي كان يتولاها من النداء، والحجابه، والسقاية، والرفادة، واللواء بولده هاشم دون بقية إخوته.

فكان هاشم بعد ذلك يقوم برفادة قريش بمن فيهم إخوته أحسن قيام، فكان إذا أصاب قومه في بعض السنين قحط وجوع ينفق عليهم جميع ما عنده ثم يرحل إلى فلسطين من بلاد الشام فيجلب منها قمحاً ودقيقاً، ويقدم به إلى مكة، ويأمر بخبزه،

(١) شرح النهج للحدادي: ج ١٥ ص ٢٠٠ ط دار إحياء الكتب العربية بمصر، والأزل بالنسكين: الشدة وضيق العيش، والقمع

- بالتحريك - جمع قمعة - بالفتح على فعله - وهي أعلى السنام، ومن كل شيء - خياره وأهاليه، والجزر - بضتين وسكن

هنا للشر - جمع جزور، وهي الناقة الممدة للنحر.

وينحر الجزر، فيتخذ لقومه مرقّة تريد بذلك الخبز.

وفي تلك يقول ابن عمه وهب بن عبد قصي^(١)

نحمل هاشم ما ضاق عنه وأعيى أن يقوم به ابن بيض
لنساهم بالفرائر مناقات من أرض الشام بالبحر النقيض
فأوسع أهل مكة من هشيم وشاب الخبز باللحم الغريش^(٢)
وقال مطرود بن كعب الخزاعي^(٣) من أبيات قد تنسب إلى ابن الزبير^(٤)
عمرو العلى هشم الشريد لقومه ورهال مكة مستنون عجاف^(٥)

وكان إذا حضر موسم الحج من كل عام يجمع قبائل قريش، ويخطب فيها، ويذكرها بأنسابها وأحسابها، وبما للبيت الحرام من منزلة عند الله وعند الناس، وبما للحجاجة من حق وكرامة، فكان يقول في إحدى خطبه:

«يا معشر قريش، إنكم جيران الله، وأهل بيته، وأهل الحرم، وسيأتيكم في هذا الموسم زوار الله، يعظمون حرمة بيته، فهم - لذلك - ضيف الله، وأحق ضيف بالكرامة ضيف الله، وقد خصكم الله بذلك، وأكرمكم به، ثم حفظ منكم أحفظ ما حفظ جار من جاره، فأكرموا: ضيفه وزواره، فإنهم يأتون شعفاً غبراً^(٦)، من كل بلد على ضواير كالقداح^(٧). قد أزحفوا، وتظلوا، وقبّلوا،

(١) لقصي بن كلاب من البنيين أربعة: عبد مناف، وعبد العزى، وعبد الدار، وعبد قصي، استمر عقب الثلاثة الأوائل. وانقرض عقب الرابع، فقد ولد وهباً - صاحب الأبيات - وهجرأ، وولد وهب عمرأ، وولد عمر طليأ، وولد نضر: الحويرث، وقد انقرض جميع ولد عبد قصي كما في جمهرة ابن حزم. (٢) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٢٥٣ ط دار المعارف بمصر.
(٣) المصدر الآنف من الطبري: ص ٢٥١.

(٤) كما في شرح النهج للعديدي: ج ١٥ ص ٢٠٠ ط دار إحياء الكتب العربية بمصر، ويضيف للبيت المذكور: بيتين آخرين. وكذلك نسب المرتضى في أماله: ج ٢ ص ٢٦٩ ط دار إحياء الكتب العربية بمصر، مع إضافة بيت آخر، وكذلك في سيرة ابن هشام.

(٥) المستنون، الذين أصابتهم السنة الجيدة الشديدة، فهم عجاف لذلك، أي: ضعاف هزل من فرط الجوع والفاقة.

(٦) كلتا الكلمتين بالضم فالسكون وهما: جمعا: أشعث، أخير: المتلبد الشعر، والمفهر.

(٧) ضواير: جمع ضامر، وهو الجمل الهزيل الهضم البطن من الجوع وتعيب السير، والقداح بالكسر: جمع قداح بالكسر فالسكون وهو السهم، أو العود المقطوع على مقدار النبل قبل أن ينصل أو يُرأش.

أرملوا^(١) فأقروهم^(٢)، وأغنوهم، وأعينوهم».

بهذا البيان الساحر المشرق كان هاشم يستحث قبائل قريش على التراقد والمعاونة لتيسير وسائل الضيافة والرفادة لوفود الموسم، فكانت قريش تستجيب لما نذبههم إليه راضية منقادة، فيرسل إليه كل أهل البيت منهم: ما تسمح به الحال من المال والطعام على قدرهم، وربما راسل إليه البعض منهم مئة مثقال هرقلية من الذهب^(٣)، وهاشم بدوره يجمع ما تجتمع لديه من المال والطعام، ويسد عجز النفقات لذلك الموسم من ماله الخاص، فقد كان من مؤسري قريش.

فكان هاشم إذا حضر الموسم يأمر بتحضير حياض من آدم^(٤)، فتجعل في موضع من «زمزم» قبل أن تحفر حيث إن الذي حفرها عبد المطلب كما سنذكر .

فيستقي إليها الماء من مختلف آبار مكة، فيملؤها، ويدعها لإرواء الحاج . وكان يثرد لهم الخبز، واللحم، والسمن، والسويق، والتمر في جفان واسعة^(٥) ويحضرها لإطعامهم.

وكان أول ما يطعم الحاج، ويرويه قبل يوم التروية بيوم بمكة، ومنى، وعرفة، ويستمر الإطعام والإرواء طيلة أيام الموسم حيث يتهيأ الحاج إلى الرحيل من مكة إلى أهاليهم وبلدانهم.

وكان إطعامه وإروؤه يسع كل من حضر مكة ومنى من الناس، وعلى هذا الغرار عرف في الأوساط العربية باسم «هاشم»، وكان اسمه «عمرو»، ثم قالوا: عمرو المثلّي،

(١) يقال: أرحف الرجل في سيره: إذا أعبت دابته عن المسير، ونقل الرجل بكسر الفاء: إذا أتت ريحه لتركه الفسل والتطيب والادهان، ونقل الرجل بكسر الميم: إذا صار ذا قمل، أو كثر قمله من كثرة الوسخ. وأرمل القوم: إذا نفد زادهم، وافترقوا إلى القوت. (٢) أقروهم: أمر من: قرى الرجل الضيف: إذا أخافه، وأطعمه.

(٣) نسبة إلى هرقل بكسرتين فسكون ملك الروم، وهو أول من ضرب الدنانير.

(٤) آدم بضمتين: جمع آدم، وهو الجلد المدبوغ.

(٥) السويق: - على فعل - الناعم من دقيق العنطة والشمير. والجفان بالكسر - جمع (الجفنة) - بالفتح فالسكون - وهي

القضعة الكبيرة، أشبه بالطلست الكبير.

لمعاليه^(١).

وكان يحرص كل الحرص أن يكون المال المبدول لرفاة الحاج من الحلال الطيب، دونما إحراج لأحد، ولا ظلم، ولا غصب.

إنه نفسه يصور لنا تورعه الشديد في جمع المال، فيقول وهو يتعذر إلى قومه من قبول معاونتهم في الرفاة في بعض خطبه.

«قرب هذه البنية - يعني الكعبة - لو كان مال يحمل ذلك - مشيراً إلى نفقات الحاج - لكفيتهم، ألا، وإني مخرج من طيب مالي وحلاله: ما لم تقطع فيه رحم، ولم يؤخذ بظلم، ولم يدخل فيه حرام، فواضعه، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل، وأسألكم برحمة هذا البيت ألا يخرج منكم رجل من ماله، لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيباً، لم يؤخذ ظلماً، ولم تقطع فيه رحم، ولم يفتصب»^(٢).

ثم إن همة هذا الفتى العملاق لم تقف عند رفاة الحاج وسقايته حتى أخذ يفكر لقومه أن يخرجهم من الإبطاء في مكة وحواليها إلى الأفق البعيدة والضرب في الأرض في سبيل الحصول على حياة أفضل مما كانوا عليها، فقبائل قریش متشابكة في ربوع مكة ويواديها، وجُلّ اعتمادها على تجارات محلية ضيقة ولا تتجاوزها إلى أكثر من أبتياح السلع والعروض من بعض الواردين إلى مكة من الأعاجم، ثم يكون التبايع فيما بينهم بعد ذلك ومتى فضل من تلك السلع شيء فيبيعونها إلى بعض العرب الرحالة من حولهم.

لقد ضاقت نفس هاشم العالمة ونفسيته الكريمة بهذا اللف والدوران من العيش المختنق، فابتدع لنفسه ولقومه فكرة الإيلاف والإبطلاق إلى الرحلتين الشتائيتين والصيفية: إلى اليمن، وإلى الشام.

(١) النزاع والتخاصم للمقريزي: ص ١٠-١١ ط النجف، وشرح النهج للحديدي: ج ١٥ ص ٢١٠-٢١١ ط دار إحياء الكتب العربية بمصر، وتأريخ الحقوقي ج ١ ص ٢١٣ ط النجف باختلاف بسيط بينها في بعض الكلمات.

(٢) النزاع والتخاصم للمقريزي: ص ١٠-١١ ط النجف، وشرح النهج للحديدي: ج ١٥ ص ٢١٠-٢١١ ط دار إحياء الكتب العربية بمصر، وتأريخ الحقوقي ج ١ ص ٢١٣ ط النجف باختلاف بسيط بينها في بعض الكلمات.

يقول الحبر عبد الله بن العباس: «والله، لقد علمت قريش أن أقول من أخذ الإيلاف وأجاز لها العيرات^(١) لهاشم».

والله، ما شددت قريش رحالاً، ولا حبلاً بسفر، ولا أناخت بعيراً بحضر إلا بهاشم^(٢). ويقول الطبري ومثله عامة المؤرخين من بعده: «إن هاشماً هو أول من سنَّ سُنَّةَ الرحلتين لقريش: رحلة الشتاء، ورحلة الصيف»^(٣)، وهكذا يعرّف لهاشم عامة المفسرين لسورة الإيلاف .

وقال النسابة البغدادي في المحبر ص ١٦٤ ط بيروت: «وكان هاشم أول من رحل الرحلتين، وله يقول الحارث بن حنش السلمي وكان أخاه لأمه».

والله ما هاشم بنناقص كاسد	إن أخي هاشماً ليس أخاً واحد
الأخذ الألف والوالد للقاعد	وللخير في ثوبه في حفرة اللاهد
وقال مطرود الخزاعي:	

أودى بفزة هاشم لا يبعد	مات الندى بالشام يوم ثوى كما
عود السقيم يوجد بين العود	لا يبعدن رب الفناء نعوذ
والنصر منه باللسان وبالياد	فجفانه رذم لمن يستنابه

ولعل «هاشم» وهو الفتى المتطلع للحياة كان يرمي من وراء رحلتيه الشتائية والصيفية إلى أبعد شأ وأمن الإتجار المالي له ولقبيلته، ولعله كان يستهدف لفت نظر العواصم الشاسعة المزدهمة بأنماط من الزعامات إلى زعامة قريش على العرب على العموم، وإلى زعامة بني هاشم على الخصوص، وإلى زعامته المطلقة على الأخص. وفعلًا تم له ما أراد، فقد رحل فتى عبد مناف إلى الشام، فنزل بالملك قيصر، فكان هاشم في الشام كما كان في مكة يذبح كل يوم شاة أو جزوراً، ويصنع جفنة كبيرة^(٤) من

(١) العيرات بالكسر فالفتح: كل ما امتهر عليه: من إبل أو حمير أو بغال، واحده (عير)

(٢) شرح النهج للحديدي: ج ١٥ ص ٢١٠ ط دار إحياء الكتب العربية بمصر.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٢٥٢ ط دار المعارف بمصر.

(٤) الجفنة بالفتح فالسكون: القصعة الكبيرة، جمعه: جفان بالكسر وجففات.

ثريد، ويدعو الناس إليها فيأكلون، فرأى الناس منه خلقاً طيباً، وشماثل نبيلة، فذاع صيته في عموم أنحاء الشام، ذكر للملك قيصر: أن هاهنا شاباً من قریش، يهشم الثريد، ثم يصب عليه المرق، ويفرغ عليه اللحم، ويدعو الناس إلى طعامه كل يوم في حين أن الأعاجم والروم تصنع المرق في الصحاف^(١)، ثم تأتدم عليه بالخيز. فدعا به الملك يوماً ليراه ويسمع منه، فلما دخل عليه هاشم، أكرم مثواه وأعلى مجلسه.

فقال له هاشم فيما قال: «الملك - أيها الملك - تشع لقریش أن تختلف بمناجرتها إلى هذه المملكة، فتُصارف رعاياك بما تحمل إليهم: ما تحتاج إليه مما عندهم، فتصيب التجارة في بلدك بعض الربح المتبادل بينها وبين سلع جديدة، ولعل رعيك أيها الملك - تبيع من معونات هؤلاء الوافدين أكثر مما تبيع من ماديائهم، فإن لقریش جاهاً في العرب، وسلطاناً تستحق بهما أن تختصتها ببعض الود، وتصلفها ببعض المنافع، ولقریش رعاك الله من الوفاء، وعرقان الجميل: ما تستطيع أن تعتمد عليه، وتثق به...».

فأعجب الملك بمنطق هاشم، وأدرك نبل غايته من طلبه الحلف، وجعل يرسل عليه كل يوم، فيكلمه ويستمع إليه، ثم أجابه إلى ما سأل لقریش من الحلف، الذي يرمي إلى المعاهدات السياسية بمقدار ما يرمي إلى المعاهدات الاقتصادية. ثم توسط قيصر بطلب من هاشم وإعجاباً به إلى ملك الحبشة باعطاء قریش نفس المعاهدة والمعاقدة اللتين أبرمهما لهم^(٢).

وهذه المبادرات الهائلة من فتى لا يتجاوز العشرين من عمره إلا ينيف على أكثر الروايات كونت له صيتاً طبق الآفاق العربية، بل تجاوزها إلى أبعد من تلك الحدود، ونصبت له في الأجيال صورة شيخ كبير، ينوء بأعباء الحقب الثقيل، ويستوعب من التجارب الاجتماعية الكثير، مما فتح الله على يديه هذا الفتح المبين.

(١) الصحاف بالكسر: جمع صفه يفتح فسكون وهي القصعة المنبسطة.

(٢) باقتضاب من كتب التاريخ في ترجمة هاشم، وطبقات ابن سعد: ج ١ ص ٤٣، وشرح النهج للحديدي: ج ١٥ ص ٢١١ ط

جديد، وتاريخ المعقوي ج ١ ص ٢١٣ ط النجف.

فلا عجب بعد ذلك إذا عدها شمس مجدداً مبدعاً في حساب المجددين المبدعين على مدى الأجيال والقرون.

وأخيراً، فكان محض هذا الوجود الكريم من هاشم بين قبائل قريش، والتفافهم حوله، دون أخيه عبد شمس الأكبر منه أو الأصغر أو توأمه علي خلاف مما أوغل صدر عبد شمس أخيه هاشم، إذ لم يمتلك عبد شمس كما كان يمتلكه هاشم: نفسية كريمة في ذاتها ولا لقباً كريماً في قريش، ولا اشتق له من صالح أعماله إسم شريف. ولم يكن لعبد شمس ابن يأخذ بضبعه^(١) ويرفع من قدره، ويزيد في ذكره، كما كان له هاشم.

فلهاشم: عبد المطلب سيد الوادي غير مدافع، أجمل الناس جمالاً، وأظهرهم جوداً، وأكملهم كمالاً، وهو صاحب الفيل، والطير الأبايل، وصاحب «زمزم»، وساقى الحجيج. وولد عبد شمس: أمية بن عبد شمس، وأمие: في نفسه ليس هناك، وإنما ذكر بأولاده، ولا لقب له.

وإنما شرف عبد شمس بأبيه عبد مناف، وبني إنه أمية بن عبد شمس لو صحت لأمية هذه البنية.

وهاشم شرف بنفسه، وبأبيه عبد مناف، وبابنه عبد المطلب كذلك.

وأخيراً: فشرّف هاشم، وبني هاشم المتصل، من حيث عدّدت كان الشرف كابراً عن كابر، وليس عبد شمس وبنو عبد شمس كذلك^(٢)...

ثم باعد الحسد بين الأخوين وبين أبنائهما من ذلك المنطلق، الذي مرده إلى ما تركه هاشم والهاشميون من بعده في حياة العرب في مختلف أنحاء الجزيرة: من أنظمة العدل والإنصاف والفضيلة، والخير والنعيم، والأمن والسلام على نحو لم يكن لعبد شمس ولا للأُمويين من بعده قدم ولا قدم في تلك المضامير، وقال ابن الأثير في الكامل: ج ٢ ص ١٠ ط بيروت: «وولي هاشم بعد أبيه عبد مناف ما كان إليه: من السقاية والرفادة، فحسده

(١) الضح بالفتح فالسكون: وسط العضد، أو العضد كلها.

(٢) إلى آخر كلام الجاحظ أبي عمرو في المفاضلة بين هاشم وبنيه، وعبد شمس وبنيه.

بانتصاب من شرح النهج للحدّادي: ج ١٥ ص ١٩٨ - ٢٠٦ ط دار إحياء الكتب العربية.

أمية بن عبد شمس على رئاسته وإطعامه، فتكلف أن يصنع صنيع هاشم، فعجز عنه، فشمت به ناس من قريش، فغضب ونال من هاشم، ودعاه إلى المنافرة، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره، فلم تدعه قريش حتى نافرته على خمسين ناقة، والجلاء عن مكة عشر سنين، فرضي أمية وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي - وهو جد عمرو بن الحمق - ومنزله بعسفان، وكان مع أمية مهمة بن عبد العزى الفهري، وكانت ابنته عند أمية.

فقال الكاهن: والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر: من منجد وغائر، ولقد سبق هاشم أمية إلى المأثر، أول منه وآخر، وأبو مهمة بذلك خابر.

فقضى لهاشم بالغلبة، وأخذ هاشم الإبل فحرها وأطعمها، وغاب أمية عن مكة بالشام عشر سنين، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية.

وختاماً نذكر أن لهاشم من البنين أربعة: شيبه وهو عبد المطلب، وأمه سلمى بنت عمرو، وأبو صيفي واسمه عمرو وهو أكبرهم سناً، وأمه هند بنت عمرو بن ثعلبة الخزرجية، وأسد وأمه قبله، وكانت تلقب بالجزور لعظمتها بنت عامر بن مالك بن مالك بن جذيمة الخزاعية، ونضلة بالتسكين، وأميمة بنت عدي بن عبد الله القضائية.

والمفضل من بنيهِ وإن لم يكن أسنهم هو عبد المطلب، فنصرف الحديث إليه، فنقول:



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثالث

شَيْبَةُ الْخَمْد: عبد المطلب فتى هاشم

- ولادة عبد المطلب، سبب تسميته، سمائه، وصفاته، غوث

المستجير، الحلف، حفر زمزم، إسقاؤه لقريش، قصته مع

أبرهة والأبائيل، وفادته على سيف بن ذي زين، والبشارة

بالنبوة - وأخيراً وفاته وأبناؤه



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وحسبنا ما أوجزناه من الحديث عن شخصية هاشم فتى عبد مناف، وكبرياء قريش، وفخر الأمة العربية دليلاً مؤشراً بحكم المعاكسة بين شخصيته المعنوية، وشخصية أخيه عبد شمس المادية على أسباب الخلاف وجذريته بين بني هاشم، وبني أمية، انطلاقاً من الحسد بادىء الأمر ثم انقلاباً إلى عداء، فصراع دائم على ملاكي: الفضيلة، ونقيضها، بمختلف الميادين الاجتماعية والدينية.

فنكون بذلك قد وضعنا أصابع البحث بإيجاز على خطوط الموضوع الأول الذي أشرنا إليه.

لنزدلف بعد ذلك إلى بيان الموضوع الثاني، المنبثق، عن سابقه، بعرض بعض الذوات من أبناء القبيلتين على «شاشة» الفضيلة، ونقيضها، لتبدو الحقيقة المغمورة تحت غبش الظلمات، ونير الظلمات لذي عينين غير عمشاوين فيتم لنا بعد ذلك استيعاب فكرة الصراع بين القبيلتين بكلام موضوعيها المتدرجين
فلنبدأ بالحديث عن الشخصية الهاشمية الأولى، وهو: قمة المجد، وشيبة الحمد، وسيد البطحاء:

● عبد المطلب بن هاشم

فنقول: أبوه: هاشم فتى عبد مناف. وقد تحدثنا عن عظمته في نفسه، وعن سيادته في قومه، وعن شموخه في تأريخه بما تيسر لنا من بيان.

وأمه: سلمى الخزرجية بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خدّاش من بني عدي بن النجار، واسم النجار تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج وكانت قبل هاشم تحت أحيعة بن الجلاح بالضم بن الحرّيش، ففارقها زوجها عن ولدين: عمرو ومعيد، فهما أخوا عبد المطلب لأمه، كانت بارعة في الكمال والجمال وشريفة في قومها بحكم كونها

ابنة زعيمهم، فظلت بعد مفارقة زوجها الأول لا تقبل الزواج من أي أحد، بالرغم من كثرة الطالبين لها، وذلك لشرفها في قومها، ولثقل ما تشترطه على كل من يريد خطبتها باتفاق مع أبيها بأن يكون أمر فراقها بيدها، وأن تلد متى حملت عند أهلها.

حتى إذا لاحت لهاشم ولاح لها وهو في جماعة من قريش في المدينة قاصدين الرحيل إلى الشام، فرآها في سوق النبط أو في بيت أبيها فأعجبته فخطبها إلى أبيها وإلى نفسها، فعرفت شرفه، ونسبه وحسبه، وبهرها شبابه الطري، فزوجته نفسها بموافقة أبيها، والتزم لها بما اشترطت عليه.

ولما تمت الخطبة، مضى هاشم إلى الشام مع قومه، وسرعان ما عاد إلى المدينة، فنزل مع بعض بني قومه على أبيها، وبني زوجته هناك وأولم لعرسه: وليمة عظيمة دعا لها جماعة كثيرة من أصحاب العير الذين كانوا معه وكانوا أربعين رجلاً من قريش ورجالاً من الخزرج، وآخرين من غيرهم، ثم انصرف أصحابه بعد أيام إلى مكة، وبقي هو في المدينة عند زوجته مدة علفت في خلالها بعبد المطلب، فحملها هاشم إلى مكة ووضعها عند أهله، حتى إذا أثقلت بحملها ردها إلى أهلها في المدينة، فوضعها عندهم، التزاماً منه بالشرط ثم غادر المدينة إلى الشام مع جماعة من قريش كعاداته في كل عام فولدت له بغيابه ولداً اسمه «شبية» أو شبية الحمد، لأنها وجدت في مقدم رأسه أو في ذؤابته شعرة بيضاء، وكانت ولادته سنة (١٢٧) قبل الهجرة النبوية كما في أعلام الزركلي وغيره

ويكنى «أبا الحارث» باسم أكبر أولاده، وأبا البطحاء بحكم زعامته على بطحاء مكة ويلقب «الفياض» لجوده وسخائه^(١).

ومات أبوه «هاشم» في سفرته تلك بـ«غزة» من بلاد الشام، ودفن هناك، وكان قد أوصى قبل سفره إلى الشام أخاه المطلب: «فيض قريش» بالرفادة والسقاية والرعاية والعناية بشؤونه العامة والخاصة، فقام أخوه بدوره بوصية أخيه أحسن قيام. وقال أرياب السير في وجه تسميته بعبد المطلب: أنه لما مات هاشم بغزة، وولد

«شبية» عند غيابه في المدينة، بقي في حضانة أمه ورعاية أخواله من بني النجار: سبيع أو ثمان سنين.

ثم إن رجلاً من بني الحارث بن عبد مناف على رواية مشهورة^(١) مريثرب يوماً، فرأى غلماناً ينتضلون^(٢) بالنبل وفيهم شبية فجعل شبية إذا أصاب الهدف، قال: أنا ابن هاشم، أنا ابن عمر والعلی، أنا ابن سيد البطحاء، فوقف عليه الرجل الحارثي، وقال له: من تكون أنت؟ فقال أنا شبيه: أنا ابن هاشم بن عبد مناف فتركه الحارثي، وانطلق إلى مكة، فرأى المطلب أخا هاشم: «فيض قريش» في البيت وهو يطوف ويسعى فتركه، حتى إذا استقر به المجلس جلس أمامه، فحدثه بما رأى وسمع من شبية وهو يرمي مع صبيان المدينة ومدحه وأطراه، وقال له فيما قال: ولا يحسن بك أن تترك مثله؟.

فقال المطلب وقد فوجئ بالخبر: والله، لا أرجع إلى أهلي، حتى آتي به إلى مكة. فقال له الحارثي: هذه ناقتي بالفناء فاركباها، وامض إلى قصدك؟ فخرج المطلب من البيت، وركب ناقة الحارثي، وسار توأ وكان الوقت ضحوة النهار فقدم المدينة عند العشاء. فرأى غلماناً يلعبون بالكرة أمام مجلس بني عدي بن النجار، فحقق النظر فيهم، فعرف ابن أخيه بملامحه الهاشمية، وتحقق عنه بالسؤال من الغلمان، فأجابوه: إنه ابن هاشم فأخذه وضمه إلى صدره وكساه حلة يمانية، كانت معه، وأنشأ يقول:

عرفت شبية، ولانجار قد حلفت ابناؤها حوله بالنبل تنتضل

عرفت أجداده منا وشيمته ففاض مني عليه وابيل سبل

ثم قال له: يا ابن أخي، أنا عمك المطلب، أريد الذهاب بك إلى قومك في مكة؟ فطأوه عبد المطلب، وقيل: إنه استشار أمه «سلمى» في ذلك، فأبته أمه، ومأمنت، ثم لما رأت إصرار عمه على أخذه، رضخت للأمر، فرضيت، فودعها ابنها، وودعته

(١) كما عليه عامة المؤرخين والنسابين، كالطبري في تاريخه، وابن الأثير في كامله، والنويري في نهايته. وابن كثير في البداية، وابن حنبل في المدة، وفي بعض المصادر: أن الرجل كان من بني تهامة كما في تاريخ الطبري، وشرح النهج للحمدي، وفي بعض كطبيقات ابن سعد إنه ثابت بن منذر أبو الشاعر حسان بن ثابت الأنصاري.

(٢) انتضل وتناضل القوم: تبادروا في النضال، وتزاموا للسبق والمفاخرة.

بحرارة.

فأردفه «المطلب» على الناقة خلفه، وسار على الفور في ليلته تلك حتى دخل «مكة» في ضحوة من نهار غد، والناس مجتمعون في مجالسهم، ونواديهم في البيت، وحوالي البيت.

فلما بصروا بالمطلب من بعيد وقد أُرْدِف الغلام خلفه تسائلوا فيما بينهم أو قالوا للمطلب من هذا؟، فأجاب بعضهم البعض: إنه عبده أو هو أجب: إنه عبدي على خلاف بين المؤرخين، ثم جاء به عمه، حتى أدخله منزله على امرأته خديجة بنت سعيد بن سهم فسألته عن الغلام، فأجابها بجلية الواقع على الأصح فرجلت له شعره ورتبت هندامه.

ثم خرج المطلب من منزله ومعه ابن أخيه حتى أتى السوق، فاشترى له حلة قشبية فألبسه إياها، ثم خرج يطوف به عند العشي على نوادي قريش، ومجمعاتها في مكة وسككها، ويعلم الناس: أن هذا الغلام ابن أخيه: شيبه بن هاشم، جاء به من أخواله في المدينة ولكنه بقي معروفاً في أوساط قريش بعبد المطلب، قالوا أوقفه المطلب على ملك أبيه هاشم، وسلمه إليه^(١).

● سمات عبد المطلب وصفاته

كان عبد المطلب متميزاً بعامه ما كان يتميز به أبوه هاشم: من سمات، وصفات، ومواهب، وخلق، وأحدوث حسنة، وسلوك إنساني رفيع.

ولئن هاشم كان أول عربي تعنيه المصلحة العامة، ويهيب به الإصلاح الاجتماعي بين الأمة، فإن فتاه عبد المطلب لا يقل عن أبيه انغماراً وانصهاراً في مصالح الناس، فكان يتم رسالة أبيه، ويصلها برسالته، فهو يستمد من أبيه بمقدار ما ينبع من ذاته من حيث الصلاح والإصلاح.

(١) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ١٣٧-١٣٨ ط ثانية بمصر، وتاريخ الطبري: ج ص ٢٤٧-٢٤٨ ط دار المعارف بمصر، وكامل

ابن الأثير ج ٢ ص ٦ ط بيروت، ونهاية الأرب للنوري: ج ١٦ ص ٤٢-٣٩ ط دار الكتب المصرية، وتاريخ العقوي: ج ١

ص ٢١٥ ط التنجف، وشرح النهج للحلي ج ١٥ ص ٢١٢-٢١٦ ط دار إحياء الكتب العربية.

فقد شاءت القدرة الإلهية أن يكون هذان الوجودان المترتبان المباركان تمريناً علمياً، وإرادة ناصعة للناس على إلفة الوجود الشامخ، والنبع الغزير، والنور المتفجر في الآفاق، ولا غرابة من ذلك إذا كان كل من ذلك الوجود، وذلك النبع، وذلك النور سوف ينتهي من طرفيه إلى مرفأ الرسالة المحمدية، وميناء الإمامة العلوية.

يقول الجاحظ أبو عمرو في مقام المفاخرة بين الهاشميين والأمويين: «وقد أعطى الله عبد المطلب في زمانه، وأجرى على يديه، وأظهر من كرامته: ما لا يعرف مثله إلا لنبي مرسل»^(١)...

ولقد أفاض المؤرخون في شرح سمات عبد المطلب، وانطباعاته، فقالوا: إنه كان جميلاً، أبيض، وسميناً، طويل القامة، معتدلاً، عظيم الهامة، مقرون الحاجبين، أشم العينين، مبارك الطلعة، يشرق من جبينه نور النبوة، وتحيط به هالة الإمامة، فكأنما هيئته هيبة الملوك، ما رآه أحد إلا أحبه^(٢).

وكان في الطليعة ممن حرمو على أنفسهم الخمر، والسكر، والأزلام قبل الاسلام^(٣). وكان هو وولده: الزبير وأبو طالب من حكام قريش في الجاهلية^(٤)، وكان ناسكاً، مجاب للدعوة، وهو أول من تعبد بغار «هراء»، فاذا أستهل رمضان صعد «هراء» وأطعم المساكين، ورفع مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال، وسفوح الأودية^(٥). قالوا: ولقد كان عبد المطلب متميزاً في شبابه عن بقية أقرانه ولداته، يسبقهم في كل شوط من أشواط الفخر والسيادة بالرغم من قلة ذات يده، لو قيس إلى أبناء التجار، وذوي الأموال من قريش.

(١) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ١٣٧-١٣٨ ط ثانية بمصر، وتاريخ الطبري: ج ٥ ص ٢٤٧-٢٤٨ ط دار المعارف بمصر، وكامل ابن الأثير ج ٢ ص ٦ ط بيروت، ونهاية الأرب للنويري: ج ١٦ ص ٣٩-٤٢ ط دار الكتب المصرية، وتاريخ الخلفاء: ج ١ ص ٢١٥ ط النجف، وشرح التهج للعديدي: ج ١٥ ص ٢١٣-٢١٤ ط دار إحياء الكتب العربية بمصر.

(٢) نهاية الأرب للنويري: ج ١٦ ص ١٤٢ ط دار الكتب العربية بمصر، وشرح التهج ج ٣ ص ٤٥٩ ط قديم.

(٣) المعبر للنسابة البغدادي: ص ٢٣٧ و ١٢٣ ط بيروت.

(٤) المصدر الآنف من المعبر.

(٥) شرح التهج: ج ٣ ص ٤٦٦ وما قبلها وما بعدها ط مصر قديم، وكامل ابن الأثير: ج ٢ ص ٩ ط بيروت.

ثم شب وترعرع وفي نفسه الطموح ذاتية وإمتداد إلى الزعامة العربية، والسيادة الاجتماعية وليس ذلك نشازاً على فتى هاشم، ما دام يتمتع بشمائل ومزايا وصفات موروثه ومتبناة، فلقد تناول السيادة والرفادة والسقاية من عمه «المطلب» بـ «فيض قريش» لوجوده، إذ كانت قبل نضج عبد المطلب ودعوة مؤقته عنده من أخيه هاشم ولولده عبد المطلب، تسلم إليه عندما يخضر عوده ويخضب وجوده، وتتسع حدوده، وفعلًا كان الذي أراد هاشم بعدما توفي بغزة الشام، وعبد المطلب جنين في بطن أمه.

فقد قام أخوه عبد المطلب عندئذ بالأدوار التي كان يقوم بها هاشم، حتى إذا تم لعبد المطلب نحو من ثمان سنين، وجلبه من أخواله في المدينة إلى قومه في مكة كما ذكرنا رد إليه إرثه المادي والمعنوي من أبيه، مع حيلة بالعطف والحنان والبر والإيثار، حتى إذا اختار الله لعمه «المطلب» بعد قيامه بوصية أخيه أن يفادر الحياة بـ «ردمان اليمن»، وعبد المطلب حينئذ يافع مكتمل تولى بنفسه تلك المناصب الموروثة من أبيه، والموعودة عند عمه، ومثلها خير تمثيل.

قال المؤرخون: ومن مآثر عبد المطلب: وهي كثر جبر الكسير، وفك الأسير، وغوث المستجير.

فقد ذكروا: أن ركباً من «جذام» خرجوا من مكة، صادرين عن الحج، فلما صاروا في عالية مكة، اقتقدوا رجلاً منهم، فجعلوا يفتشون عليه، فلم يقعوا على أثره وواصلوا السير آيسين من صاحبهم، فبينما هم يسرون، إذا هم بحذافة بن غانم العدوي الشاعر الجاهلي المعروف واردة إلى مكة، فلما بصروا به من بعيد، انشالوا عليه بالضرب والشتيمة، وأوثقوه كتافاً، انطلقوا به، ولعل ذلك لذهول شخصية أو قبلية معه، أو لظن منهم، واتهامهم إياه بدم صاحبهم.

قالوا: فبينما هم بهذا ونحوه، إذ يتلقاهم عبد المطلب، مقبلاً من الطائف ومعه ابنه أبو لهب، يقوده حيث كان مكفوف البصر في أخريات أعوامه.

فلما نظر العدوي إلى عبد المطلب مقبلاً، هتف به، واستجار بكنفه، واستعداه أن يخلصه من برائن الهلكة.

فقال عبد المطلب لابنه: ويلك من هذا الهاتف؟

قال: هذا حذافة بن غانم، مربوطاً مع ركب، قال عبد المطلب: إلحقهم فسلهم: ما شأنهم وشأنه؟

فلحقهم أبو لهب، فسألهم عن ذلك؟ فأخبروه الخبر.

فجاء إلى أبيه، وأخبره بما يقولون، فقال له أبوه: ويحك؟ ما معك؟ قال: لا والله ما

معي شيء قال: فالحقهم لا أم لك فاعطهم بيدك، وأطلق الرجل منهم؟

فلحقهم أبو لهب وهم مجدون في السير، فرحون ببذل صاحبهم فناداهم يكلمهم؟

فوقفوا له، فقال لهم: قد عرفتوني، وعرفتكم مالي وتجارتي؟ وليس معي الآن شيء من

ذلك وأنا أحلف لكم، لأعطينكم عشرين أوقية ذهباً، من الإبل، وفرساً، وهذا ردائي

رهن عندكم على ذلك أن تخلوا عن الرجل؟

فقبل القوم منه وعده ورهنه، وأطلقوا له حذافة. فأقبل به أبو لهب إلى نحو أبيه عبد

المطلب وهو على أحر من الجمر في انتظار النتيجة، فلما قربا من عبد المطلب سمع

صوت ابنه، ولم يسمع صوت حذافة.

فصاح عبد المطلب بابنه ظاناً أنه التماهل في الموضوع: وأبي، إنك لعاصي؟ إرجع

اليهم لا أم لك وأتي بالرجل مهما كلفك الأمر من ثمن.

قال أبو لهب وقد دنا وحذافة معه: يا أبتا، هذا الرجل معي، وهو إلى جنبك.

فعند ذلك استقر واقع عبد المطلب، وهدأت نفسه، ونادى الرجل قائلاً: يا حذافة

أسمعني أسمعني صوتك؟

قال حذافة: ها أنا ذا بأبي أنت وأمي يا ساقى الحبيج، أردفني معك؟

فأردفه عبد المطلب معه، حتى دخل به مكة بأمان واطمينان باستجارته بسيد

البطحاء وابن سيدها: عبد المطلب بن هاشم.

فعند ذلك أخذ حذافة يوصي ابنه «خارجة» بالازدلاف إلى عبد المطلب، وبنيه، إذا

دهته داهية، أو نزلت به نازلة.

فيقول له:

أخارج إما أهلكن فلا تزل
بني شيبه الحمد، للكريم فعاله
لساقي الحبيج، ثم للشيخ هاشم
أبوهم قصي كان يدعى مجمعا
أبو عتبة الملقب إليّ جواره
كهولهم خير الكهول ونسلهم
ملوك وأبناء الملوك وسادة
متى تلق منهم طامحا في عنانه
هم ملوكو لبطحاء مجداً وسؤداً
وهم يغفرون الذنب - ينقم مثله -
لهم شاكراً حتى نفث في القبر
يضي غلام الليل كالقمر البدر
وعبد مناف ذلك السيد الفخر
به جَعَّ لله القبائل من فخر
أعز هجان اللّون من نحر غر
كنسل الملوك لا يبور ولا يجري
تطلق عنهم بيضة الطائر الضفر
تجده على إجراء والده يجري
وهم نكلوا عنها غواة بني بكر
وهم تركوا رأي السفاهة والهجراً^(١)

● حلف عبد المطلب

ويفتح عبد المطلب عينه بعد وفاة عمه المطلب، وتوليّه بنفسه شؤون الزعامة والسيادة على عداوات بدوية، وثارات قبلية. فلا بد له وهو يستقبل حياة أوسع أن يحيط نفسه بالأيد والقوة، ويحاول سد الثغرات والنعرات من هنا وهناك، فأخذ يتصل ببعض القبائل العربية البعيدة عنه اتصالاً اجتماعياً وسياسياً على شكل حلفٍ موطن، وعهد محدد، تترتب عليه منافع متبادلة بين الطرفين.

فأول قبيلة عربية استجابت إليه: «خزاعة»، فعقد الحلف مع رجال بارزين منهم، وكتب بنوده في الكعبة على نحو كتاب جاء في بعض نصوصه كما ذكرته كتب السير: «أن عبد المطلب وولده، ومن معهم ورجال (خزاعة) متكافون، متضافرون متعاونون على عبد المطلب، النصرة لهم بمن تابعه على كل طالب، وعلى (خزاعة) النصرة لعبد المطلب وولده، ومن معه على جميع العرب في شرق أو غرب أو حزن أو سهل وجعلوا الله على ذلك كفيلاً».

(١) الأبيات الخمسة الأوائل برواية الجاحظ في رسالة المفارقة بين بني هاشم وأمية كما نقلها عنه: ابن أبي الحديد في شرح النهج: ج ١٥ ص ٢٠٠ ط دار إحياء الكتب العربية بمصر، والخمسة الأواخر: من إضافة الزبير بن بكار في كتب النسب كما نقلها عنه ابن أبي الحديد أيضاً في نفس المصدر بعد ذلك: ص ٢١٤

ولدى التأمل في بعض بنود هذا الحلف مع قبيلة كخراعة، شاسعة الأطراف متفرعة البطون، تظهر عبقرية فتى هاشم، ونظرته البعيدة من وراء هذا الحلف^(١)

● حفر زمزم

وبحكم اضطلاع عبد المطلب بعد موت عمه المطلب بسقاية الحاج وهي إحدى المآثر التي تركها له أبوه هاشم وديعة عند عمه، فكان يضيق خصوصاً أيام القيظ في استخراج الماء من الآبار المحيطة بمكة، ونقله إلى حياض الأذم، التي كان يعدها في مكة، وفي منى لسقي الحجيج قبل أيام الموسم، فكان دائم التفكير في التخلص من ذلك العنت والضيق.

وفيما هو بهذا ونحوه من التفكير ذات ليلة من ليالي القيظ عائداً من اجتماعاته بنوادي قريش إلى منزله في «الحجر» حيث يطلب فيه الراحة على فراش النوم، حتى إذا أوغل وهجع أهله، أخذت عينا عبد المطلب بعد إياه ومراوضةً طريقها إلى نومة عميقة. إذا بشيخ لم يعرفه من قبل، قد انتصب على رأسه، وهو يردد أمره لعبد المطلب حيث يراه بغير عين، ويسمعه بغير أذن قائلاً: «أحفر طيبة»^(٢)، ثم سرعان ما يغيب ذلك الشبح المنتصب فينتبه عبد المطلب فزعاً، يردد مع الصوت في نفسه، متسائلاً، ومستوضحاً: أحفر طيبة؟ وما طيبة؟.

وأعياء الحل، فاستلقى على فراشه، ليتناسى ذلك الحلم المزعج، ويتعلّل عن ذلك بأنه أضغاث الأحلام؟ وبعد صراع ومحاولات بين تفكيره وتعبيره خلد إلى النوم، إلى أن أصبح عليه ذلك النهار، وهو منطوٍ على الجديد من أفكاره، والغريب من أطواره. وجاءت الليلة الثانية، فرجع عبد المطلب من اجتماعاته ونواديه كعادته في كل ليلة وأطلق لجسمه ونفسه أعنة الإسترخاء في فراش نومه، وما أن هجع قليلاً، حتى عاد إليه طائفه ليلة أمس في مثل وقته، منتصباً أمامه في ذات المكان. وهو يردد صوته الخفيف

(١) أشار إلى ذلك الحلف: الطبري في تاريخه: ٢ ص ٢٥٦ ط دار المعارف بمصر، وابن الأثير في: كامله: ج ٢ ص ٧ ط

بهرت

(٢) وقبل لزمن: طيبة، لأنها للطيبيين والطيبات من ولد إبراهيم عليه السلام.

حيث يسمعه عبد المطلب بغير إذن كما قلنا، ويقول في هذه الليلة: «إحفر برة»^(١). وكذلك يفزع عبد المطلب من نومه هذه الليلة: مردداً، ومتسائلاً: «إحفر برة» هاهنا؟ إنها تقل عن كلمة البارحة تعميماً وغموضاً؟

وبعد كد وعياء، نام في أخريات ليلته حتى إذا أصبح ليله، وانصرم نهاره بالتفكير المحسوس على حركاته وسكناته، واعتكر الظلام من جديد وعاد إلى فراش نومه من اجتماعاته المألوفة وأخذ يتعجل النوم، عساه يحظى بطائفه المعهود، وزائر ليله المرصود.

وهاهو، قد أقبل إليه طائفه في ليلته الثالثة بنفس الوقت وبذات المكان، فيقول له: «إحفر المضمونة»^(٢).

ثم يتباعد ذلك الشبح كعاداته كل ليلة عن عبد المطلب، فلا يكاد يراه. وينتفض عبد المطلب من فراشه، وهو يردد في نفسه: تساؤله معنى الكلمات الثلاث؟.

ويعاود نومه، ويستيقظ عند الصباح، فيقطع أشواط نهاره الثالث في التفكير والشكوك والأوهام.

وكانت الليلة الرابعة، فيزدلف إلى فراش النوم في مكانه من حيث الحجر، ويسرع في كراه العميق، وإذا بطائفه المعهود منه في نفس المكان والزمان فيردد كلمته الرابعة: «إحفر زمزم»^(٣).

ولكن الشبح في هذه المرة لم يفر عن عبد المطلب، بل ظل واقفاً أمامه، ينتظر منه استيضاحاً للأمر الجديد الذي فيه بعض التوضيح بالنسبة إلى الأوامر الثلاثة السابقة، وفعلًا كان المنتظر فأخذ عبد المطلب يتسائل من ذلك الشبح تعريفة خفيفة عما يريد، فقال: ما زمزم؟.

(١) وقيل لزمن: برة، لأنها فاخست على الأبرار، فاخست عن الفجار.

(٢) وقيل لزمن المضمونة، لأنها ومنها على غير المؤمنين من المنافقين.

(٣) زمزم بالفتح على فعلل سميت تلك البئر بذلك لكثرة ماؤها، وشدة صوته.

فأخذ ذلك الطائف يجيبه بإيجاز وهو يسجع في كلامه، فيقول: «تراث من أبيك الأعظم، إنها لا تنزف أبداً، ولا تدم، تسقي الحبيب الأعظم، مثل نعام جافل لم يقسم، وهي بين الفرت والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل»^(١).

وهنا أتلج صدر عبد المطلب، وأستفاضت نفسه بالرجاء والأمل المشرقين وأدرك المغازي من تلك الكلمات الثلاث: طيبة، وبرة، والمظنونة، وأنها كلها ترمي إلى حفر بشر، تدعى «زمزم» بتعريفاتها الإجمالية الكافية، أصبح بعد ليلته هذه وهو مؤمن عميق الإيمان بأن تلك الأحلام المتوالية ليست من نسيج الأضغاث. وإنما هي من نسيج الوحي الإلهي، بالرغم من أن عبد المطلب ليس نبياً، ولا وصي نبي، ولكنه ليس بعيداً كل البعد عن قدسية النبوة، وحضيرة الإمامة، بحكم انتهاء عقبه إلى حفيديه المتآخيين من حيث الرسالة وامتدادها، ألا وهما: محمد وعلي، للذان ما عرف الله حق معرفته ألا هما على حد الحديث النبوي المشهور.

وأصبحت قريش كعادتها كل صباح على بيت الحرام، وتطوف، وتسعى، وتتعلق في جلساتها بعد ذلك في ضحوة النهار.

فما تحس، إلا وهي تفاجأ بعبد المطلب ومن خلفه ابنه العارث ولم يكن حينئذ له ولد غيره، ويبد عبد المطلب معول ومطرقة، ويبد ابنه العارث مكمل ومسحاة، فانطلقا إلى ذلك المكان الذي عينه الإلهام الأخير يواصلان عملهما غير آبهين بأحد: الأب بمعوله يحفر، والابن بمكمله ينقل التراب.

(١) لا تنزف، أي: لا يفرغ ماؤها، ولا ينفد، بالرغم من كثرة الاستقاء منها، ولا تدم، أي: لا توجد قليلة ماء تقول: أذمت البئر: وإذا وجدت قليلة الماء، أو بمعنى الاتمام من: ذمت الشيء: إذا أعينته، وكلمة (بين الفرت والدم): إشارة إلى موقعها في القرب من مذبذبة القريتين من منى، والأعصم من الغريبان: الذي في أحد جناحيه أو أحد وجهيه بياض، أو هو الشديد الطمران، والخفوق في السماء، وهذا النوع من الغريبان: عزيز الوجود، ولا يتواجد إلا عند الذبائح مكان الفرت والدم.

وإنما خصصت هذه البئر بالمعلومات الثلاث بعد وصفها بكثرة الماء باعتبار أن ماءها طعام طعم، وشفاء سقم، وفي الضراب الأعصم: إشارة إلى ما ورد عن النبي ﷺ من قوله: «ليخرن الكعبة ذو السويقتين من الحبشة»، وفي تشبيهها وتشبيه موقعها وهي مكة بقرية النمل، إشارة إلى أنها كواد النمل لا تحترق ولا تبذر، وإنما تجلب إليها الحبوب وموارد الحياة من كل صوب وحذب....

وهنا يقف القرشيون على ذلك المشهد الغريب عليهم، وهم يحاولون الاعتراض على ذلك العمل الذي يجرح شعورهم من حيث موقعهم الحفر بذلك المكان المقدس، بين أسافٍ وناثلةٍ صلمي قریش، فحاطبوا عبد المطلب بكلام واحد، فيه بعض الغضب والانتهاز، «والله لا نتركك تحفر بين وثينا هذين، اللذين ننحدر عندهما».

فلم يعبأ عبد المطلب باعتراضهم، وإنما أجابهم بكلام صارم: «أمرني ربي أن أحفرها هنا؛ ما يروي الحجيج الأعظم» ثم يلتفت إلى ابنه الحارث وهو يواصل عمله: «يا حارث، دُد عني حتى أحفر، فوالله، لأمضين لما أمرت به».

ويذود الحارث القوم عن أبيه، فينصرفون وهم على مضض وما زال عبد المطلب يحفر، وابنه الحارث ينقل التراب على مرثئٍ من قریش طوال ذلك النهار، حتى إذا كادت الشمس أن تغيب بدا العبد المطلب طي البشر وقعرها، فكبر، فإذا هو بلمعان ذهب، ويريق سيوف وأدراع من خلال التراب فكشف التراب، فإذا وراء ذلك اللمعان والبريق: غزالان مجسدان من ذهب، وسيوف قلعية من رصاص، وأدراع، كانت «جرهم» يوم كانوا يتولون إدارة البيت قبل خزاعة قد دفنت ذلك في ذلك المكان من البيت، حينما نزلت عن مكة

ويشيع الخبر بين قبائل قریش بأن عبد المطلب وجد خبيثة نفيسة من خلال عمله، فيهرعون أفواجاً أفواجاً وهم ينادون: يا عبد المطلب، لنا معك في هذا شرك وحق، قال لا، ولكن هلم إلي أمر نصف بيني وبينكم: نضرب عليها القداح^(١).

قالوا: وكيف نصنع؟ قال: أجعل للكعبة قدحين، ولي قدحين، ولكم قدحين، فمن خرج له قدحاه على شيء كان له، ومن تخلف قدحاه، فلا شيء له.

قالوا: أنصفت، فجعل عبد المطلب: قدحين أصفرين للكعبة، وقدحين أسودين له، وقدحين أبيضين لقریش.

(١) القداح بالكسر جمع قدح بكسر فسكون وهو السهم الذي كانوا يستقسمون به في الجاهلية، والقداح: هي الأزام المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ اسْتَظْمُوا بِالْأَزَامِ...﴾ ضمن آية التحريم في أول سورة المائدة وهي أيضاً المشار إليها ضمن آية ٩٠ / من نفس السورة بأنها رجس من عمل الشيطان.

ثم سلم القداح إلى الشخص الموكل ضربها عند «هبل» أعظم صنم في جوف الكعبة^(١).
وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل في أن يظهر الحق لأهله.
وسرعان ما ظهرت الحقيقة من ضرب القداح بفوز الكعبة بالقرالين، وفوز عبد
المطلب بالأسياف، وخسران صفقة قرينش.
فعند ذلك ضرب عبد المطلب: القرالين الذهبيين.

● فوز عبد المطلب بالقداح

وسرهما على باب الكعبة، وكذلك تبرع بأسيافه الثمينة فحضرها، وعلقها إلى أطراف
الباب، إيثارة آمنه للكعبة على نفسه، وكبحاً لألسنة المناققين، فكانت الكعبة حينئذٍ أول ما
حليت بالذهب، والمعدن الثمين.

● كرامة لعبد المطلب

ولكن مطامع قرينش لا تنتهي عند هذا الحد، ولا يسكتهم عن عبد المطلب: إيثارة
بحصته إلى الكعبة، فقد عاودوا الكرة لمباهلة عبد المطلب، لكن، لا على الذهب
والأسياف وإنما على حصتهم من الماء المستنبت من تلك البئر، فوقفوا على رأس عبد
المطلب وهو يستنبت ماء زمزم فقالوا: «يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها
حقاً، فأشركنا معك»؟

فيجيبهم عبد المطلب هذه المرة بالرد الصارم، قائلاً لهم: «ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد
خصصت به، دونكم، وأعطيت من بينكم».

قالوا له: أنصفنا، فإننا غير تاركيك، حتى نخاصمك فيها؟

قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه.

قالوا: الحكم بيننا: «هذيم» كاهنة بني سعد.

فرضي عبد المطلب نزولاً على رأيهم، وكانت الكاهنة بمشارف الشام ونادى منادي

(١) ولعل انصباغ عبد المطلب إلى طريقة القداح، وضربها عند (هبل) وإن لم يعترف بها، وبه يحكم تدنيه بدين جده إبراهيم
الخليل عليه السلام، وأبطل الأثر لا كان من باب النزول على طريقهم المألوفة يومئذٍ لهم الاحتجاج عليهم بما
يعتقدون.

قريش: أن يتجهز من كل حي نفر؟ فإن الغداة موعد السفر إلى مشارف الشام، لمقاضاة عبد المطلب.

وهكذا انتدب عبد المطلب: بعض رجاله من بني عبد مناف.

وكان الغد، فركب رجال قريش، وركب رجال عبد المطلب، وخرج الجميع من مكة في ضحوة من نهار، والأرض كلها مفاوز وقفار^(١)، حتى إذا توسط الصحراء، فإذا بالرمل كأنها أسنة اللهب من شواظ الهجير، وإذا بالقضاء كأنه غيوم دخان والبخار. وقطعوا: طويلاً من الأشواط المتبادية بين الحجاز والشام، وبلغوا موضعاً، يقال له: «الفقر»^(٢)، فجفت أسقية عبد المطلب وأصحابه من الماء فصبروا في البداية ولم يستذلوا الطلب الماء من قريش، واضطروا بعد ذلك إلى طلب اليسير من الماء الكثير عند قريش، فأبوا أن يسقوه، وقالوا: إنا في مفازة ونخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم، حتى إذا بلغ العطش من عبد الطلب وأصحابه مبلغه، أمرهم في البداية أن يترجلوا عن صهوات دوابهم ويحفروا حفراص في الأرض على عددهم لتكون قبورهم إذا أدركهم الموت. ففعلوا ما أمرهم عبد المطلب، وجعلوا ينتظرون الموت لحظة بعد أخرى. وهنا، أطل عبد المطلب: التفكير في ذلك المصير، فأبت نفسه العالية: الاستسلام الرخيص للموت، دون أي دفاع ومكافحة.

فنهض قائماً على قدميه، وأهاب بأصحابه، قائلاً: «والله، إن اللقاء بأيدينا هكذا للموت، لا نضرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا، لمجز وخور، ارتحلوا؟ فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد».

فارتحل قومه، وارتحل هو، وقريش تنظر إليهم عن كتب ما هم فاعلون. وما أن دفع عبد المطلب راحلته إلى السير أمام أصحابه فإذا بعين ماء عذب قد أنبجست من تحت قوائمها، بحيث لم يعهد لها سابقة في مثل هذا المكان. فكبر عبد المطلب، وكبر أصحابه معه، فنزل عن راحلته، ونزلت أصحابه، فاستقوا من

(١) المفاوز: جمع مفازة، وهي البرية القفرة التي لا ماء فيها ولا كلاء. والقفار بالكسر: جمع القفر بفتح فسكون وهي الأرض

الخالية من الماء والكلاء والأشج، أشد من المفازة. (٢) إسم محطة ومنزل في طريق الشام من أرض الحجاز.

ذلك الماء، وسقوا خيولهم، وملئوا أسقيتهم وأوعيتهم وهم على مرثى من قريش.
ثم دعا عبد المطلب: رجال قريش إلى ذلك الماء، قائلاً لهم هلموا إلى الماء، فقد سقانا الله، فاشربوا، واسقوا؟.

فنزّلوا عن رواحلهم إلى ما دعاهم إليه عبد المطلب، ثم قالوا له بعد أن لمسوا تلك الكرامة على يديه: «والله لقد قضى الله لك علينا يا عبد المطلب، لا والله لا نخاصمك في زمزم أبداً، أن الذي سقاك هذا الماء هذه الغلاة^(١) لهُ الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً».
فرجع عبد المطلب، ورجعت قريش معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وآب الفريقان إلى مكة، هذا بفوزه، وذلك بخسرانه^(٢).

وليس نشأراً على عبد المطلب: ما صدر عنه: من كرامة نبوع الماء من تحت خف راحلته في طريق الشام كما مر ذكره لا زال هو ذلك الشخص، الذي حرم على نفسه الخنا، والفجور. والخمر وحرم نساء الأبناء على الأبناء وكل موبقة تهبط بالروح، وتذهب ببهاء النفس. في حين ليس بمكة ولا في عامة اقطار الدنيا دين آلهي يحضر ذلك الألوان من الأثام، بل لم تكن في عرف الجاهلية تسمى بالأثام.
وعلى هذا الفرار، فلا غرابة وقد عرفه مجتمع قريش واهل مكة عامة: أنه فناء في الله، وأنصاع أمام قدرته، أن يلجؤا إليه متضرعين متى مستهم الضراء، وطافت بنواديهم العسرة.

(١) الغلاة بالفتح الصحراء الواسعة.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص ١٤٣ ط ثانية بمصر، وكامل ابن الأثير: ج ٢ ص ٨٧ ط بيروت، ونهاية التوحيدي ج ١٦ ص ٤٣ - ٤٧ ط دار الكتب العربية بمصر، وشرح التهج للحمدي: ج ١ ص ٢١٦ ط دار إحياء الكتب العربية، وعامة كتب السير ضمن ترجمة عبد المطلب، وأمثال الميداني ج ١ ص ٤٥ ط السعادة بمصر، وهنا يقول عامة المؤرخين ومنهم العقوبي في تأريخه: ج ١ ص ٢١٧ ط النجف: «ثم إن عبد المطلب بنى على زمزم حوضاً وملاً ساء، وأخذ ينادي عليه: هلم إلى ماء الرواء: أعطته علي رغم العدا، وكانت قريش تفسد ذلك الحوض الكبير وتكسره، فرأى في المنام قاتلاً يقول له: «قم، فقل: اللهم، إني لا أحله لمفتسل ولا لشارب حل» فقام عبد المطلب فقال ذلك فلم يكن يفسد ذلك الحوض أحد الا رمي بناء من ساعته، فتركوه».

● كرامة أخرى لعبد المطلب

قال التاريخ والرواية عن رقيقة (بالتصغير) بنت أبي صيفي بن هاشم، لدة عبد المطلب، والدة مخزومة بن نوفل: لقد مرت بمكة بعامة أطرافها: حقة من الزمن ضنكة، وتتابع على قریش سنون عجاف مجدبة^(١)، أقحلت الضرع^(٢) وأرقت العظم^(٣) وذهبت بالأخضر واليابس.

قالت رقيقة: فينما أنا نائمة أو مهومة إذا هاتف يصرخ بصوت صحل صيت^(٤) يقول: «يا معشر قریش، أن هذا النبي المبعوث قد أظلمكم أيامه^(٥)».

وهذا إبان نجومه ومخرجه^(٦) فحي هلا بالخير والخصب؟

ألا، فانظروا رجلاً منكم، وسيطاً، عظاماً، جساماً^(٧)، أبيض بضاً^(٨)، أوطف الأهداب^(٩)، سهل الخدين،^(١٠) شم العرين، له فخر يكظم عليه^(١١)، وسنة تهدي إليه، ألا فليخلص هو وولده وليهبط إليه من كل بطن رجل، فليشئوا من الماء^(١٢)، وليمسوا من الطيب، ثم ليستلموا الركن، وليطوفوا بالبيت سبعاً؛ ثم ليرتقوا (أبا قبيس)، فليستسق الرجل، وليؤمن القوم».

إنها رؤياً، أشبه بالوحي الإلهي منها بالأضغاث من الأحلام، ولم لا يكن كذلك؟ ففي مكة: بيت الله، ومؤمل قدسه، وقریش: صعيد النبوة ومهد الرسالة على المدى البعيد، فلم

(١) عجاف بالكسر: جمع أعجف وأعجاء، وهما: ضد السمين والسيئة، ومجدبة بالضم اسم فاعل من أجدبت الأرض: إذا أمحلت، فلم تخصب.

(٢) وأقحلت الضرع وأقحلت فحلاً وإقحلاً: إذا جف ويس.

(٣) وأرقت العظم: إذا جمعه رقيقاً: خد غلط.

(٤) حصل وصيت بفتح فكسر صفة الفاعل من: صحل صوته: إذا بهج وخشن، وصات إذا نادى بصوت رفيع.

(٥) أظلم الأمر فلاناً: غشي ودنا منه، يقال: أظلمك الشهر، أي: دنا منك.

(٦) إبان الشيء بالكسر: فالتشديد: أوله، أو حينه، ونجوم الشيء: ظهوره.

(٧) العظام، والبشام بالضم، وبشدان: العظيم الشأن، والجسم الضخم.

(٨) البض بالفتح: رقيق الجلد، ناعمه في الجسم.

(٩) وطف بالكسر الوسط وطفاً: كثر شعر حاجبيه، وعينه، فهو أوطف.

(١٠) العرين بالكسر: الأنف، وأشمه: مرضعه كبرياء وأنفة.

(١١) كظم الشيء وعلى شيء: حبسه، وحبس عليه، ولم يتعدا.

(١٢) الشئ: الصب المتفرق، وفي المصادر «فليشربوا من الماء».

لا يكون ذلك الطائف من وحي السماء، يهدي لأعاش أرض النبوة وأهلها من الجذب والقحط إلى الخصب، والحياة؟.

قالت رقيقة: «فأصبحت بعد ما رأيت علم الله مذعورة قد اقتشعر جلدي، ووله عقلي^(١)، واقتصصت رؤيائي على بعض رجالات قريش ونسائهم، فو الحرمة والحرام، ما بقي أبطي^(٢) إلا قال: هذا شيبة، هذا شيبة الصمد».

صحيح كما قال القوم إن تلك السمات والصفات لا تنطبق إلا على عبد المطلب، بل هي نص فيه، وليست من باب الانطباق.

وما أن تسامع الناس من عامة أهل مكة بخبر الرؤيا، وتيقنوا: أن المقصود منها: شيبة الحمد، وقمة المجد عبد المطلب، وأنه هو وحده الذي سوف يكون الخلاص والإيقاذ من الهلكة على يديه المباركين، ببركة دعائه، واستسقائه.

حتى أخذوا يهرعون أفواجاً أفواجاً إلى بيت ذلك القديس الإلهي، سيد البطحاء خاشعين متضرعين، وتتابع قريش بعامة بطونها فهبط إليه من كل بطن رجل أو أكثر، فطيبوا، واستلموا، وطافوا، وسعوا، ثم ارتقوا «جبل أبي قبيس» كما أمرتهم الرؤيا الصادقة، حتى إذا استووا بذروة الجبل، فنظروا، فإذا بعبد المطلب وفتي هاشم يخرج من منزله، مستجيباً لنداء الله وأوامره، وملبياً رجاء وطلب المتضرعين المتضررين من قريش، وأهل مكة، تحف به بنوه الأكارم، وبعض العلية من آل عبد مناف ومعه رسول الله محمد ﷺ وهو غلام قد أيفع أو كرب^(٣)، فيصعد سيد البطحاء مع ذلك الموكب الهاشمي الرهيب ببكاء وتضرع: جبل أبي قبيس، المشرف على مكة وأطرافها، فيستقبله من كان قبله من رجال قريش بالأمل المشرق وانتظار الفرج والفرج على يديه.

وبينما هم في هذا نحوه من الأمل الانتظار، إذا بعبد المطلب ومن حوله تلك الثلة المباركة من الهاشميين يرفع عقيرته إلى حيث السماء الضاحية، وينادي بصوته الشجي،

(١) وله عقله: كاد أن يذهب من شدة التحير والمعاجاة.

(٢) أبطي: نسبة إلى أبطح مكة، وساكني بطاحها من قبائل قريش.

(٣) يفع وأيفع: الغلام: ترعرع، وناهل البلوغ، وكرب: بمعنى دنا، وقرب.

ونبراته المطمئنة: «اللهم، ياساد الخلة، وياكاشف الكربة، أنت عالم غير معلم، ومسؤول غير مبخل. وهذه عبيدك، وبنو عبيدك، وإماؤك وبنات إمامك، عذارى حرمك، يشكون إليك سنتهم، التي أقمت، أذهبت الخف والظلف،^(١) وأشفت على الأنفس^(٢)، وقد نزل بنا ما ترى، اللهم فامطرنا: غيثاً مفدقاً مربعاً^(٣)».

قالت الرواية: ولم يكن عبد المطلب يستتم دعاءه وكلماته الشجوية وآله وبنوه يؤتمنون على دعائه وكلماته حتى هبت الرياح، وهي تسوق السحاب من هنا وهناك، وتجمعها في سماء مكة، فسرعان ما أفلتت السحائب أوكيتها، وتفجرت السماء بمائها، واكتظ الوادي بشجيجه^(٤)، فرجع عبد المطلب بموكبه الهاشمي المبارك من مركز دعائه، ومنطلق استسقائه إلى منزله: ظافراً برضى الله، شاكراً له فضله العميم الشامل، ورجعت شيخان قریش وجلتها، وهم يقولون لعبد المطلب: هنيئاً لك يا أبا البطحاء، لقد عاش بك أهل البطحاء، عيشة طيبة.

واندفعت عند ذلك رقيقة بنت أبي صفي راوية القصة تقول: مطرية عبد المطلب، وذاكرة له هذه المكرمة:

بشيبه الحمد أسطى الله بلدتنا	لما ولدنا الحيا واجلود المطر ^(٥)
فجاد بالماء جوني له سئل	بان فعاشت به الأنعام والشجر ^(٦)

(١) الخف بالضم للبحر والتمام، كالحافر للفرس ونحوه من الدواب، والظلف بالكسر: هو لما اجتر من الحيوانيات كاليفر والظبي والشاة بمنزلة الحافر للفرس، ونحوه من الدواب.

(٢) أشفى الرجل على كذا: إذا أشرف عليه، وداناه. (٣) المفدق، المربع: الفزير المنخصب.

(٤) التصحيح بالتاء المثناة: السيل الفزير.

(٥) الحيا بحد ويدونه: المطر، والخصب. واجلود المطر بتشديد الواو: ذهب وانقطع، وامتد وقت تأخره وطال، وفي بعض المصادر: «لما عدنا الحيا» كما في أقرب الموارد.

(٦) الجون بالفتح: من كلمات الأخداد، يطلق على الأسود والأبيض، ويقال على ألوان أخرى صرقة، ومشوبة، والباه للنسبة إلى ذلك المعنى. كناية عن الغمام الماطر أو للنسبة إلى «جون» بالضم وهو ضرب من القطا سود البطون والأجنحة، وبذلك تشبيه الغمام الماطر الأسود بذلك الضرب من القطا، وكلمة (سيل) بالتحريك من الإتهام، والهطول، والإصباح.

مناً من الله بالميمون طائره
وخير من بشرت يوماً به مضر^(١)
مبارك الأمر يستسقى الغمام به
ما في الأنام له عدل ولا خطر^(٢)

● كرامة أخرى لعبد المطلب

وروى النويري أيضاً بسنده المتسلسل عن رجلٍ من هذيل، قال: قحطت بلاد قيس، وأجدبت أرضهم، فلم تصبهم سماء يعقد بها الثرى ولا ينبت بها الكلاء، فذاب الشحم، وذهب اللحم، ورق العظم، وتهافتوا مع حيواناتهم: ضراً وهزلاً.

فاجتمع جماعة من ذوي الرأي والسن، وتشاوروا فيما بينهم بعد أن عزموا على الإرتحال، وترك المحال، وانتجاع الخصب^(٣) فمنهم من رجح انتجاع بلاد سعد وبطن العُشُر وهو شعب لهذيل قرب مكة، ومنهم من ارتأى أن ينتجع كل ولدأب منهم: ولدأب غيرهم، مع عقد حلفٍ فيما بينهم بالاشتراك في الربيع والمنزل^(٤)، ومنهم من قال: إن تجميعاً عدد كثير لا يفضل منهم ما يكفيهم.

فبينما هم بهذا ونحوه: من إجالة الرأي في كيفية الإبتجاع، إذ قام رجل منهم، حسن الوجه، مجتمع الخلق، جيد الرأي، فخطب القوم قائلاً:

يا بني عيلان، إنكم قد أصبحتم في أمر ليس بالهزل، هذا أمر عظيم خطره، متباعد أمره، وقد بلغنا أن عبد المطلب بن هاشم، سيد البطحاء، استسقى لأهل مكة، فسقي، ودعا، فأجيب، واستجير، فأجار^(٥) فاجعلوا قصدكم إليه؟ وفاد تكم عليه؟ فان ذلك أوكد للسبب، وأوجه في الطلب.

فاستحسن الحاضرون رأيه، واستصوبوا اختياره.

فرحلت قيس، وهذيل، ومن نزل حواليتهم من الأعراب، حتى أتوا «مكة» فنزلوا على

(١) مضر بن نزار: أحد أجداد عبد المطلب الأعلى، وأخوه لأبويه: إيلاد وأمهيا: سودة بنت عك، ولهما أخوان من أميها: ربيعة وأنمار، أمهما جدالة بنت وعلان من جرهم.

(٢) العدل بالكسر فالسكون والخطر بالتحريك: متقاربان في معنى المثل والنضير. وتراجع القصة في: نهاية الأرب للنويري: ج ١٦ ص ١٤٢ - ١٤٣ ط دار الكتب العربية بمصر. وأشار إليها ابن حجر في الإصابة: ج ٤ ضمن ترجمة مرقمة برقم ٤٢٥.

(٣) اتجمع القوم: الخصب: ذهبوا في طلبه، واتجمع فلان: فلاناً، أنا، طالباً معروفاً.

(٤) الربيع: الموضوع للقوم المنتجعين يرتعون فيه. (٥) إشارة إلى القصة الآتفة الذكر، من استسقائه لأهل مكة.

عبد المطلب، فرحب بهم، ولما استقر بهم المجلس، قالوا: «أفلح الوجه يا أبا الحارث نحن ذووا أرحامك الواشجات»^(١)، أصابتنا سنون مجديات، أهزلن السمين، وأنفذن المعين. وقد بلغنا خبرك، وبأن لنا أمرك» إلى آخر كلامهم في هذا العرض.

فرحب بهم عبد المطلب، وبشرهم بخير يحكم جبلته الخيرة المحبة للخير، ثم قال لهم: موعدكم جبل عرفات، فاخرجوا إليه الساعة؟.

وخرج هو في بنيهِ وبعض بني قومه من الهاشميين، حتى أتى جبل عرفات، والناس مزدحمون لاستقباله، منتظرين لنواله.

فصعد الجبل، ثم رفع يديه إلى السماء، وقال: «اللهم، رب الريح العاصف، والرعْد القاصف، والبرق الخاطف، منشي السحاب، ومالك الرقاب، ذا المن العظام، والأيادي الجسام، هذه «مضر» خير البشر، تشكو إليك سوء الحال، وشدة الإحمال، قد اهدودبت ظهورها، وغارت عيونها، وشعثت شعورها وقد خلفوا نساءً ضلعاً، وصبياناً رضعاً، وبهائم رتعا، فآتهم - اللهم ريحاً جراحة وسحابة درارة تضحك أرضهم، وتكشف ضرهم».

قال الراوي: «فما فرغ من كلامه، حتى نشأت سحابة دكناء. فيها ودق شديد»^(٢).

فالتفت إليها عبد المطلب، وقال: هي هي، ثم قال: يا معشر مضر، ارجعوا إلى مواطنكم؟ فقد سقيتم، فرجعوا إلى مواطنهم، وقد اخضرت أرضهم، وكثرت مياههم، وتحسنت أحوالهم».

قالوا: وكان ذلك بعد أن استسقى عبد المطلب لقريش، وذلك بعد مولد النبي ﷺ بسنتين^(٣).

● أهم كرامات عبد المطلب

ولفتي هاشم: من قصة الفيل، والطير الأباييل أنبل كرامة، وأشد نبضاً من عامة كراماته التي يحدث بها التاريخ، ولعلها من أولى كراماته .

(١) الواشجات: المشتبكات: بعضها بعض.

(٢) دكناء: مؤنث؛ أدكن. وهو السائل لونه إلى السواد، والودق بالسكين: المطر المتواصل.

(٣) باقتضاب من المصدر الاتف: نهاية التويري: ج ١٦ ص ٤٩ - ٥٠.

وموجز القصة كما ذكرتها عامة كتب السير، أثناء تعرضهم لعبد المطلب وكتب التفسير: في تفسير سورة الفيل من القرآن:

وقالوا: إنه كان بنجران ملك من ملوك «حمير» وهو آخرهم يقال له: ذو نواس صاحب الأخدود. وذلك قبل مولد النبي ﷺ بستين أو سبعين عاماً، وكان يدعو إلى اليهودية ويقتل ويعذب كل من دان بالنصرانية، وأفلت من بين تعذيبه رجل من سباء يقال له: «دؤس ذو ثعلبان»، فهرب من «اليمن» إلى «قيصر» ملك الروم فاستنصره على «ذي النّوَّاس»، فكتب قيصر مع الرجل المذكور إلى نجاشي ملك الحبشة، وهو جند نجاشي ملك الحبشة الذي كان على عهد النبي ﷺ وأسلم بهداية جعفر بن أبي طالب كما ستذكر: كتاباً، يأمره فيه بنصر الرجل ودينه، فكان أن جهز النجاشي مع الرجل جيشاً لها مائة عتده ستون أو سبعون ألفاً وبقيادة: «أرياط أو روزه» الحبشي، وكان من ضمن الجيش المذكور جندي متميز بشجاعته وذكائه يدعى «أبرهه»، ويكنى بأبي يكسوم فسار الجيش بقيادة أرياط المذكور من طريق البحر حتى أشرف على بلاد اليمن، فخرج «ذو نّوَّاس» مع جنوده من حمير وبعض أهل اليمن فتناوش الفريقان من دون قتال، مما أدى الأمر إلى انهزام جيش «ذو نواس» وتفرقهم عنه، فاقتحم البحر بفرسه فغرق.

وبينما أرياط متنمر بظفره مدة سنين إذا استعصى عليه ذلك الجندي المدعو: أبرهه وأراد قيادة الجيش وقال له: أنا أولى منك بذلك الأمر، فدعاه القائد إلى المنازلة فضربه على رأسه فوق السيف أو الحربة على حاجبه وشفته فشر متهما، فعرف بعد ذلك بـ «أبرهه الأشرم»، ثم إن أبرهه اغتال القائد أرياط فقتله هو أو غلامه واستولى على قيادة الجيش ففتح اليمن ودخلها وقتل وسبى، وكتب إلى النجاشي بذلك فأقره النجاشي على قيادة الجيش وتملكه على اليمن.

قالوا: ثم حال الحول فتجهز العرب من اليمن، وأطرافها لحج بيت الله الحرام وتوافدت القبائل العربية إلى اليمن، متهيأة إلى أداء الحج فأنهر أبرهه لتلك الظاهرة التلقائية، فسأل عن جليلة الهدف فأجيب: إنه موسم الحج يتجهز فيه العرب إلى أداء المناسك إلى مكة، ويعاود أبرهه سؤاله مستفضلاً: عن المادة التي يتكون منها ذلك البيت

فيجاب: إنه من الحجارة، فيسأل عن كسوته؟ فيجاب: إنه من قطع وصائل تهدى اليه من هنا وهناك .

وهكذا يستمر بسؤاله عن العناصر البدائية التي يتكون منها ذلك البيت، فظن الحبشي: أن كل ما في البيت من شرف وعظمه أت من تكوينه المادي .

فاستعد هو الآخر من وقته فبنى في اليمن بيتاً من أصلب الرخام وأروع، وكساه بعد أن أكمله بكل نفيس من الستائر المختلفة النوعية والألوان، وزينه بأعلاق الذهب والفضة والجوهر المثلث، وضمخ جدرانه وأطرافه بصنوف المسك والعنبر، وأوقد في وسطه البخور المعطرة، ووضع له حجاباً وسدنة تقوم له باتمام الرعاية والعناية، وسمى تلك البنية الضخمة «القليس»^(١)، وقد بناها به «صنعاء اليمن»، وكتب إلى النجاشي مما كتب «اني بنيت لك: كنيسة، لم ير مثلاً، ولست مفتة حتى أصرف إليها حاج العرب».

ثم إنه بعد أن أكمل بنايته بعد عدة سنين أمر الناس من العرب وغيرهم بالحج إلى ذلك البيت وبالإصراف عن مكة ؟

وفي غلس من ليلة، وعلى خفية الحرس والسدنة يدب إلى داخل تلك البنية: رجل من خثعم اسمه نفيل، أو من بني فقيم بن عدي من بني كنانة فيتغوط في وسطها ويلطخ جدرانها ومحاريبها من العذرة وينثر الجيف والقذارات في عامة جنباتها ثم يختفي وكأنه لم يفعل شيئاً، وكان ذلك الرجل إنما فعل ما فعل بقصد الإطاحة بخيال تلك الصورة التي اتبر بها طعام الناس .

ويصبح الناس من حراس وحجاب وزائرين فيرون ما يشين كرامة ذلك البيت فيوصل الخبر إلى أبرهه فيحضر ويرى بنفسه ما جعله يتميز غيضاً وحقداً ولم يعرف على من تلقى التبعة، غير أنه ألقى المسؤولية على العرب جميعاً فهم الذين لا يريدون بيتاً موازاً لبيتهم الذي يحجون إليه كل عام، فحلف بنصرانيته المقدسه: أن يهدم «البيت» الذي تحج إليه العرب في مكة .

وأرسل أبرهه على الفور إلى النجاشي فيخبره بجلية الامر، وبعزمه على هدم الكعبة

ويطلب منه: أن يرسل إليه جماعة من القبيلة وفيه الخاص المسمى «محمود» أعظم القبيلة على وجه الأرض جسماً وقوة وهامة.

فأجابته النجاشي يشجعه على عزمه وأرسل إليه الفيل الذي طلبه ومعه: أكثر من عشرة من القبيلة الجسام.

فاستعد أبرهه وتجهز بجيش عظيم من الحبشة واليمن كان معظمه من حمير وعك والأشعرين وخثعم، وكان بضمن الجيش ذلك الرجل الذي فعل ما فعل ببيت اليمن وأمام الجيش العظيم رعييل من القبيلة وأمامها ملك القبيلة «محمود» فيل النجاشي الخاص.

وخرج عليه قبل خروجه من حدود اليمن رجل من أشراف اليمن ومعه جماعة من العرب يقال له: «ذو نفر»، فقاتله أبرهه فهزم وأخذ أسيراً فحبسه أبرهه عنده وأوثقه ولم يقتله، ثم خرج من حدود اليمن يجد السير حتى إذا كان ببعض الطريق بعث رجلاً من بني سليم أو من بني خزاعة ليدعو الناس إلى «القليس في اليمن» ويصرفهم عن الحج إلى البيت في مكة، فتلقى رسوله رجل من الخمس من بني كنانة فقتله فأخبر أبرهه بقتله فأزاد حنقه وغيظه، وأخذ يواصل سيره إلى مكة ليفرغ حنقه وغيضه يهدم الكعبة .

ثم مضى على وجهه حتى إذا صار بأرض خثعم خرج عليه: نفيل بن حبيب الخثعمي مع جماعة من العرب فاعترضته فقاتله أبرهه وأسره، فضمن نفيل لأبرهه أن يدلّه على الطريق فحبسه عنده ولم يقتله.

ثم سار أبرهه حتى إذا مر بالطائف فاستسلم أهلها وبعث معه ثقيف رجلاً يدعى: «أبا رغال»، ولعله من هذيل، فأخذ يدلّه عن الطريق إلى مكة حتى أنزله وجيشه بالمغمس وهو على ستة أميال من حدود مكة، فلما نزل أبرهه وجيشه في ذلك المكان مات «أبو رغال» فقبر بالمكان، فرجعت العرب بعد ذلك قبره ولا يزال قبره يرجم .

وانتهى أبرهه بجيشه وفيلته إلى ضواحي مكة بعد المغمس فنزل هناك بجيشه وبعث: الأسود بن مقصود مع بعض قطعات جيشه فأغاروا على نعم قريش وألبها فنهبوا وأصابوا من بينها إبلاً لعبد المطلب عداها مائتي بعير .

واتصل خبر أبرهة ونيته المشؤمة بقبائل قريش فخرجت عباديد^(١) فهتت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم من سائر الناس بقتال أبرهة، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به فتركوا ذلك، وظلت تلك الايام يهلبها بتروع ودهشة لا يدرون نهاية المطاف ولا يستطيعون الوقوف أمام ذلك الزحف الهائل والمعداء الحاقد، ولا يتهمضون إهانة البيت الحرام مركز مقدساتهم وموئل حاجاتهم .

ولم يبق بمكة غير عبد المطلب أقام على سقاية الحاج وشيبة بن عثمان بن عبد الدار أقام على حجابة البيت .

وأما عامة الناس رجالاً ونساءً وأطفالاً فقد اتخذوا من رؤوس الجبال المحيطة بمكة منجى ومناص من الفياقي والقفار مهرباً من شمول البلاء.

ثم أرسل أبرهة: حناطة الحميري إلى مكة وقال له: سل عن سيد قريش وزعيم مكة، وقل له: إني لم آت لحربكم وإنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تمنعوا عنه فلا حاجة لي بقتالكم فإن لم يرد حربي فائتني به.

فدخل حناطة مكة ورأى عبد المطلب فبلغه: رسالة أبرهة .

فقال عبد المطلب: قل له: «والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يمنعه فهو يمنع بيته وحرمة، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا من دفع». فقال له حناطة: انطلق معي الى الملك ؟ فانه قد أمرني بذلك .

فانطلق عبد المطلب مع حناطة وقد علم مسبقاً أن قطعات الجيش الحبشي انتهبوا فيما انتهبوا إيله.

فلما رأى نفير وذو نفر المحبوسان عند أبرهة عرفاه فأسرعا إلى أبرهة قائلين له أو قال له أنيس سائس فيله: «أيها الملك أتاك سيد قريش الذي يحمل على الجياد ويعطي الأموال ويطلع ما هبت الريح: الإنس في السهل والوحش في الجبل...».

فأسرع الملك في الإذن له، فدخل عبد المطلب عليه وهو يرقل بجلال الوقار والعظمة، وكان وسيما جسيما عظيما مهيب الطلعة والعارضة.

فلما رآه أبرهه أجله وأكرمه ونزل عن سرير الملك إليه وجلس معه على بساط وأجلسه الى جنبه.

فلما استقر بعبد المطلب مجلسه، فقال الملك لترجمانه: قل له: ما حاجتك ؟ فقال عبد المطلب: حاجتي: أن يرد عليّ إبلي المنهوبة من مقدمة جيشه: مائتي بعير . فقال أبرهه على لسان الترجمان: لعبد المطلب: أعجبتني حين رأيتك، ثم كلمتني فزهدت فيك .

فقال عبد المطلب: ولم أيها الملك ؟ فقال أبرهه: لأنك حين سألتك عن حاجتك كلمتني في إيلك ولم تكلمني في بيت عزك ومنعتك من العرب وفضلك في الناس وشفرك عليهم ودينكم الذي تعبدون قد جئت الى هدمه؟

فانتفض عبد المطلب في وجه أبرهه وقال: أيها الملك أنا أكلمك في مالي وأنا رب إبلي ولهذا البيت رب سيمنعه منك ولست أنا منه في شيء . فارتاع أبرهه من كلام عبد المطلب وتوعيده، قال لأبرهه: ما كان ليمنعني مني، قال عبد المطلب: أنت وذاك اردد إلي إبلي ؟

وأمر أبرهه برد إبله عليه، فتسلمها عبد المطلب فقلدها وأشعرها^(١)، وجعلها هدياً للحرم، وسيبها فيه من غير رقيب في معرض أن يأخذها أو يعتدي عليها أحد من الجيش الحبشي فيغضب الله لها كما غضب لناقة صالح وفصيلها حينما اعتدى عليها قوم ثمود من قبل^(٢).

(١) قلد الناقة ونحوها: خلق يحققها شيئاً من جلد ونحوه ليرمز أنها هدي للكعبة فكف الناس عنها، وأشعرها: جعلها شجرة وهدياً للكعبة .

(٢) قوم ثمود بن عامر بن إرم، عاثوا في الأرض ففسدين فأرسل الله إليهم: صالح بن عبيد بن آسف نبياً ورسولاً لهدايتهم، فدعاهم الى عبادة الله ونيز عبادة الأوثان فلم يستجيبوا له وطلبوا منه تصديقاً لدعواه: أن يخرج لهم من صخرة عظيمة في ناحية الجبل: ناقة جوفاء وبرآء عشاء.

لدعا الله صالح أن يجيبهم إلى ما طلبوا فتمحضت الصخرة عن الناقة بنفس الأوصاف ثم انتجت فصلاً شبيهاً بأمه فامن به

ثم رجع عبد المطلب من قبل أهره وقد توجه الى بيت الله وتعلق بأستار الكعبة
واخذ بحلقة بابها أو بعضادتي الباب، وهو يقول متضرعاً:

يا رب لا أرجو لهم سواك يا رب فامنح منهم حماكا
ان عدو البيت من عدلكا إنهم لم يقهروا قواكا^(١)
ثم أخذ يواصل تضرعه واستعداده فيقول:

لا هم أن المرء يمنع رحا لله، فامنح رحالك
لا يطلبوا بصليبيهم ومحا لانهم أبداً محالك^(٢)
عمدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلاك
جروا جموع بلادهم كي يسبوا عيالك
إن كفت ناركم، وقب فتننا، فامر ما بدالك^(٣)

ثم انفتل عبد المطلب من بين قريش الى منسكه المعتاد ارتياده به «غار حراء»
فجلس فيه بعد أداء مناسكه وهو يطيل التفكير فيما سيؤول إليه أمر البيت على يد ذلك
الملك الحبشي الجبار لو اقتضت حكمة الله وحلمه أن تتركه وشأنه؟
وأمسى وعامة اهل مكة معه في هذا ونحوه من التفكير ليلية بلاء .

→ البعض وتعد آخرون .

ومكنت الناقة وفصلها في قوم نمود ترعى من شجر الوادي وتشرب من بئر في خروج عليهم باللبن الكثير والغير المصم
فيطمعون ويدخرون ليومهم هذا.

وكانت فيهم امرأة مسنة ثرية خبيثة لها بنات حسان فاغرت تلك المرأة بيناتها: رجلاً من نمود يقال له (قدار) وهو ابن زنا،
وأمرته بقهر الناقة وذبح الفصيل، فانظر الناقة الى أن جاء يوم شربها وصدرت عن البئر عمد اليها بالسيف فقرها وطعن
لبتها ونحرها وقسم لحمها بين مردة قومه، وكان فصلها ينظر الى أمه، فرغاً، وهرب الى قبة الجبل فلحقه (قدار) وربما
بهم فخلط لحمه مع لحم أمه.

فاستغبر صالح بقصة الناقة وفصلها فانذر قومه ثلاثة أيام ثم كانت الصيحة في السماء فتقطعت قلوب القوم في صدورهم
وما تواروا عن آخرهم باقتصاب من كتب قصص الأنبياء، وكتب التفسير

(١) في تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٣٤ ط دار المعارف بمصر ثبت المعجز هكذا: «امنعهما ان يظهروا قراكماء»، وفي كامل ابن
البراء ج ١ ص ٢٦٦ ط بيروت غالية المعجز: فناكا. (٢) من معاني المحال بالكسر: الكيد والمكر والشدة والقوة

(٣) الآيات في بعض المصادر أكثر مما ذكرنا وباختلاف في بعض الكلمات والقوافي

أما أبرهه فقد أمسى تلك الليلة ومن معه من مقربي أصحابه في قلق وصراع واضطراب من خطورة الموقف، ينظرون إلى السماء كاحلة النجوم مسمرة الأحداق، كأنها تنذرهم بالعذاب القريب.

وخرج دليلهم حتى دخل الحرم وترك الجيش وقام الأشعرون وخثعم وجماعة من عرب اليمن فكسروا رماحهم وسيوفهم وبرؤوا إلى الله: أن يعينوا على هدم بيته فباتوا تلك الليلة بأخيت ليلة^(١)

قالوا: ثم أدلج أبرهه بجيشه وفيلته عند السحر مصممين أن يصبحوا بمكة وأمامهم الفيل الأعظم «محمود» فوجهوه إلى مكة فأقبل عليه نفيل بن حبيب الخثعمي فمسك بأذنه وقال: إرجع محمود إرجع راشداً من حيث جئت فانك في بلد الله الحرام، فربض الفيل ولم ينهض فضر به بالطبر فتمرغ بالتراب وأبى أن ينهض، فوجهوه نحو اليمن فقام يهرول فوجهوه إلى جهة الشام فكذلك فعل، فعطفوه حين رأوه منطلقاً إلى مكة، فربض ولم ينهض وأخذ يتمرغ بالتراب فلم يزلوا به كذلك حتى كادت الشمس أن تشرق . وبينما هم بهذا ونحوه من محاولة الفيل وعبد المطلب فوق جبل أبي قبيس، يدعوا الله برفع الخطر عن مكة وينتظر الفرج.

وإذا بطير الأبايل^(٢) وقد طلعت عليه من كل جانب، فخيبت على سماء مكة كأنها الجراد المنتشر ويحمل كل طائر منها حبة، منها أحجاراً ثلاثة: في رجليه ومنقاره وهي بقدر الحمصة أو العدسة، ثم ألقت تلك الطيور المخيمة بجميع ما تحمل من أحجار على رؤوس ذلك الجيش المكثف، فكانت إذا رمت بأحجارها ترجع وتعود بلحظات وهي محملة بنفس ما كانت تحمل فترمي بها على ذلك الجيش، وهكذا استمرت الحالة إلى عدة دفعات وفي بعض لحظات حتى شملت عامة أفراد الجيش بالقتل والدمار، فكانت

(١) خبت الرجل إلى الله: اطمأن إليه تعالى وتخضع وتخضع أمام عظمته.

(٢) أبايل إسم جنس لذلك النوع من الطير لا واحد له من لفظه على المشهور، وقيل: جمع أبايلة أو أبول أو أبيل اختلف المفسرون والرواة في نوعية الأبايل التي أرسلها الله على أصحاب الفيل كما أشار إليه قوله تعالى. فقيل: هي طير تمشمش وتفرخ بين السماء والأرض، ولها خراطيم كخراطيم الطير. وأكف كأكف الكلاب وقيل: لها أنياب كأنياب السباع، وقيل: كانت كالبلسان، وقيل: كالوطواط، وقيل: هي الزراير، وقيل: هي السنون، وقيل: أشبه بالخفاف.

تلك الأحجار لا تقع على أي موضع من مواضع الجيش إلا ونشرت فيه وفي أطرافه من الوباء المهلك كما تفعل قنابل الجراثيم والمكروبات.

تعالى الله من مصدر القوة ومنطق النعمة!!، فقد حطمت تلك الطيور الصغار بحجاراتها الصغار «المستوردة من سجيل»: شديد الصلب، ذلك الجيش العظيم العدد والعدد، وجعلتهم كعصف أي زرع وتين وورق قد أكلته الدواب. ونشرت في أوساطهم أوبئة الجدري والحصبة القاتلة المدمرة.

حتى إذا انتهت الجولة السريعة من قدرة الله وانتقامه بدمار جيش «أبره» وانحداره عن الوصول إلى ما أراد، انحدرت السيول الجارفة من الجبال المحيطة بمكة ففسلت الأرض من الدماء والجراثيم والمصابين وجرفتها إلى البحر وعادت أرض النبوات كما كانت طاهرة نقية.

وولى أبره دبره خاسئاً منكسراً مذعوراً وقد أصابته بعض الحجارة أو شمله وباؤها، تحيط بالحثالة المتبقية من فلول جيشه، ولكن سرعان ما نشب الداء في أبره فتناثرت أعضاؤه تدريجياً في أثناء رجوعه إلى صنعاء اليمن حتى بقي كالفرخ فانصدع صدره بعد ذلك عن قلبه، فمات في بلاده، وكذلك لم يفت الوباء فلول جيشه الذين أنهزموا معه حتى أبيدوا عن آخرهم.

وهنا وبعد أن انجلت السماء عن تلك الكرامة لبیت الله ينزل عبد المطلب من موضع نسكه ودعائه «غار حراء»، تضي على ثغره ابتسامة النصر باستجابة دعاءه وشفره إلى الله في أن يحمي حماه ويمنع رحله كما طلب، فغمرت نفسه الطهور بشاشة الإيمان بقدرة ربه العظيم الذي هدده أبره بقدرته.

قالوا: فلما رد الله كيد أبره وجيشه الحبشي عن بيته الحرام، وأصابهم ما أصابهم: من النعمة السريعة، أعظمت العرب «في كل مكان» مكانة قريش عامة وبني هاشم خاصة وسيد بطحاء عبد المطلب بالذات لما لمسوا من استجابة دعائه في استعداداته على أبره وجيشه الحبشي وتوعده لهم بالنكال والنقمة.

فقال العرب «في تلك الكرامة»: أشعارا كثيرة، فمن ذلك: قول نفيل بن حبيب الخثعمي

وكان أسيراً عند أبرهه، فلما نزل العذاب به وبجيشه أخذوا يسألون عنه ليدلهم على طريق الفرار من البلاد فاخفى عنهم، فكان يقول بعد ذلك:

ألا حبيت منا يا زدينا	نعمناكم من الصباح هينا ^(١)
أنا قلابس منكم يشاء	فلم يقرر للابسكم لدينا
رديفة لو رأيت ولائريه	لدى جنب المحصب ما راينا
إذا نعدرتني وهمدت رأبي	لدى جنب المحصب ما راينا
حمدت لله أن أبصرت طيرا	ولم تأسي..على ما فات بينا ^(٢)
وكل اللوم يسأل عن نفيل	كان عليّ للكبشان دينا

وقال عبد الله بن الزبيري بن عدي بن قيس السهمي القريشي:

تنظروا عن بطن مكة إننا	كنا قديماً لا بُرام حريقها ^(٣)
لم تُخلق للزبيري لبالي حُرمت	إذ لا عزيز من الأنام يرونها ^(٤)
سائل أمير الجيش عنها مارأى	ولسوف يبني الجاهلين عليها
سنون ألفاً لم يثوبوا أرضهم	بل لم يعش بعد الإياب سقيمها ^(٥)
كانت بها عادٌ وجُرهم قبلهم	والله من فوق العباد يقيها

وقال أبو قبيس صفي بن الأسلت بن حشم الأوسي:

لقوموا، صلوا ربكم وتمسحوا	بأركان هذا البيت بين الأخاشب ^(٦)
فمعدنكم منه بلاء مصدق	غداة أبي يكسوم هادي الكنائب ^(٧)

(١) ردينا (بضم ففتح): مرخم (ردينة)، كذلك وهو اسم امرأة من العرب.

(٢) بيتنا: مصدر بان: إذا بهد، وهو تؤكد كلمة «فات»

(٣) وفي رواية: تنكبوا وعلى كلنا الرواتين، ففي البيت وقص ظاهر.

(٤) الشعرى بالكسر: اسم النجم المرتفع، وهما شريان: الضياء وأخرى تبج الجوزاء.

(٥) والمراد بالسقيم: أبرهه وبعض مرته من الذين أصابتهم العجاجة فماتوا بعد حين.

(٦) صلوا ربكم أية ادعوه، والأخاشب: جبال بمكة ومنى.

(٧) أبو يكسوم: كنية (أبرهه) كما ذكرناه، والكنائب: الجيوش.

كسيتيه بالنسب الحسي ورجله على القاذفات في رؤوس المناقب^(١)
فلما أتاك نصر ذي العرش ردهم جنود الملك بين سائب حاصب^(٢)
فولوا سراعاً هاربين ولم يؤب الى أهله ملجس غير عصائب^(٣)
وقال طالب بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي، وهو أكبر أبناء أبي طالب
«الأربعة» من قصيدة له في «بدر الكبرى»:
ألم تعلموا ما كان في حرب داحس وجيش أبي يكسوم إذ ملثوا الشيعيا^(٤)
فلولا دفاع الله لا شيء غيرُه لأصبحتم لا تسمعون لكم سربا^(٥)

(١) القاذفات: أعالي الجبال البعيدة، والمناقب: جمع منقبة، وهي الطريق في رأس الجبل .

(٢) السائب (هنا): الذي غطاه التراب، والحاصب: الذي أصابته الحجارة.

(٣) يريد: من الجيش فادسج لضرورة الوزن.

(٤) داحس: اسم فرس أصيل، مشهورة، وكانت حرب قديمة بسببه، وأبي يكسوم: كنية (أبرهه) كما ذكرنا، والتعب بالكسر: الطريق في الجبل.

(٥) السرب بالكسر: النفس والقوم، ومنه قولك: أصبحنا أمنا في سربه. وتراجع قصة الأبايل من البداية الى النهاية في عامة كتب السير والتفسير والتي اقتضيناها من السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٣١-٦٠ ط ثانية بمصر، وطبقات ابن سعد ج ١ ص ٥٦ ط مصر، وشرح النهج للحديدي: ج ١ ص ١٥ ط دار إحياء الكتب العربية بمصر، وكامل ابن الأثير: ج ١ ص ٢٦٠-٢٦٣ ط بيروت، وجميع البيان للطبرسي مجلد ٥ ص ٥٤٠-٥٤١ ط طهران، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٢٣-١٣٨ ط دار المعارف بمصر، وتاريخ العقوبي ج ١ ص ٢٢٢-٢٢٣، ويذكر العقوبي في ختام القصة لعبد المطلب هذه الأبيات فيقول: وقال عبد المطلب لما كان من أصحاب القتل ما كان:

أيها الداهي لقد اسمعني ثم ما بي عن نداكم من صمم
هل بدا لله امرا ام له سنة في القوم ليست في الامم
قللت والاشرم تردى خيله ان ذا الاشرم عز بالكرم
ان للعبث لربما مانعا ممن يرده بأثم يصظم
رامه (تبع) في ما قد ماضى وكذا (خمسير) والصي قدم
فانفنى نسه وفي اوداجه جراح امسك منه بالظلم
هلكت يابغي فيه (جرهم) بعد (طسم وجديس وجخم)
وكذا الامر بمن كاد بحرب فامر الله بالحرب اللمم

● وفادة عبد المطلب على سيف بن يزن

قال أرباب السير: ولما أهلك الله «أبرهة الأشرم» ملك الحبشة واليمن بقصة الأبايل تملك ابنه «يكسوم» على اليمن فعلاً، وتجتر في بلاده.

ومات بعد سنين، فملك اليمن بعده أخوه مسروق بن أبرهه وكان كأخيه وأبيه في شدة وطأته على البلاد خصوصاً على العرب في اليمن وما والاها فذلت حمير، وقبائل العرب، ووطأتهم الحبشة، وقهرتهم.

قالوا: فلما طالت مدة البلاء على العرب من قبل الأحابيش، خرج سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح واسمه معدي كرب كما قيل^(١) إلى «أنطاكية»، حتى قدم على «قيصر» ملك الروم فشكا إليه الشدة والقسوة التي يتجرعها عرب اليمن من الأحباش، وسأله أن يعينه على إخراجهم من البلاد ويبعث إلى اليمن من شاء من الروم، فيكون ملكاً عليها من قبله؟ فلم يستجب له قيصر شيء من ذلك.

فخرج منه حتى أتى النعمان بن المنذر ملك الحيرة من قبل كسرى أنوشروان ملك الفرس، فشكا إليه أمره واستعانه وطلب منه الوساطة إلى الدخول على كسرى. فأجابه النعمان وبقي سيف عنده إلى أن كانت وفادة النعمان على كسرى صحبه معه وأدخله على كسرى.

فتكلم سيف مع كسرى، وشكى إليه غلبة الحبشة على بلاد اليمن، وقسوتهم على

صلة الرحم وإيفاء الذمم

يصدف الله بها عنا النقم

لم يزل ذلك على عهد (أبرهم) (٥)

→ نعرف الله وفينا سنة

لم نزل فينا حجة

نحن أهل الله في بلدته

(٥) أي: إبراهيم الخليل نبي الله الذي بنى القواعد في البيت مع ولده اسماعيل الجد الأعلى لهاشم وأبناء البررة.

(١) والذي يظهر من المسعودي في مروج: ج ٢ ص ٨٠ ٨٣ ط السعادة بمصر، وبعض المصادر الآخر: أن معد يكرب بن

سيف بن ذي يزن، وأنه هو الذي انتصر على اليمن، وهو الذي جاءت له الوفود العربية (وفي مقدمتهم عبد المطلب) لتنهته

بعودة الملك إليه، ويمكن الجمع بين الأخبار بأن الذي أخرج الحبشة من اليمن وقتل ملكهم (بإستعانة جيش الفرس) هو

سيف، وأن الذي قابله الوفود العربية (لتهنئته باستقرار ملكه على اليمن بعد أبيه) معد يكرب على تأمل لنا في هذا الجمع.

فالمشهور: أن القصة مع سيف نفسه.

العرب فيها، وطلب النصرة عليهم باخراجهم من البلاد، وإرسال من يلي اليمن من قبله. فابى عليه كسرى ذلك (في البداية) وقال له: «بعدت بلاذك مع قلة خيرها، فلم أكن لأورط جيشاً من فارس بأرض العرب، فلا حاجة لي بذلك».

ثم أجازته بعشرة الاف درهم من دراهمه الخاصة وكساه كسوة حسنة فخرج سيف من عنده، ومعه الدراهم فجعل يفرقها على الخدم والحجاب والعبيد والصبيان وعامة الناس، فبلغ ذلك كسرى، فبعث إليه وسأله عن سبب تفريقه جيشاء الملك؟

فقال له سيف: ما جئتكم للمال، وإنما جئتكم للرجال، لثمتننا من الذل والهوان، وإن في بلادنا جبلاً من الذهب والفضة، وأراد بذلك: إغراء الملك، وإظهار العزة أمامه.

واستحسن كسرى: موقفه، فاستشار وزراءه في نصرته؟ فأشاروا بأن يبعث جيشاً من الذين حبسهم للقتل، للتخلص منهم، فبعث معه أولئك، وكانوا (٨٠٠ رجلاً). واستعمل عليهم قائداً محنكاً مسناً من قواد الفرس، اسمه «وهرز» بالكسر، وكان ذا شأن ونسب وحسب في الفرس.

فخرجوا على السفن في البحر، حتى وصلوا الى ساحل عدن. فجمع سيف إلى «وهرز» من استطاع من قومه من أهل اليمن.

ثم أقبلوا نحو اليمن، فخرج إليهم مسروق بن أيريه «ملك اليمن» بجند كثير مؤلف من الأحابيش، وحمير، وبعض الأعراب، عداة (مائة ألف) فتقابل الفريقان على مقربة من البلاد.

فأرسل «وهرز» قائد الفرس ابناً له لمقاتلة مسروق وجنده، يقال له «نوزاذ» مقدمة لحربه، فقتل من قبل جيش الحيشة، فازداد «وهرز» حنقاً وغيظاً، وتقدم أمام القوم، وطلب من الحاضرين تعيين الملك مسروق وتركيز موقفه، «لأنه كان ضعيف البصر بحكم تقدم سنه»، فعيّنوه له ووصفوه بأنه هو ذلك الراكب على بقله، أمام الفيل، فقال لمن حوله من الفرس والعرب: أصدقوا الحملة، واستشعروا الصبر؟ ثم تأمل مسروقاً في مقدمة جيشه فرأى بين عينه ياقوتة حمراء معلقة في تاجه، فأوترقوسه، ورمى ورمى القوم، فأصابه بنشابة شديدة في رأسه، فخرجت من قفاه، فتنكس عن دابته، ودارت عليه

الحبشة، فقال «وهرز»: احملوا على القوم، واصدقوهم فاحملوا عليهم، وقتلوا منهم نحواً من ثلاثين ألفاً، وانهزم الباقيون، مستسلمين، وكان النصر للفرس والعرب على الحبشة، وكتب القائد الفارسي بالظفر إلى كسرى، وأرسل إليه من الغنائم: الشيء الكثير وبقي «وهرز» مع أصحابه من الفرس مدة في اليمن ثم استدعي من قبل «كسرى» على أن يترك اليمن وولايته بيد سيف «أو ولده» «وهو آخر ملوك حمير» كما قيل إلى آخر القصة، وفي ذلك يقول أبو الصلت بن أبي ربيعة الثقفي^(١)

ليطلب الوتر أمثال بن ذي بزن	أقام في البحر للأعداء أحوالا
ينثم البصر لما حان رحلته	فلم يجد عنده بعض الذي سالا
ثم انثنى لكسرى بعد عاصفة	من المسنين يهين النفس والمالا ^(٢)
حتى أتى ببني الأحرار يحملهم	تخالهم في سواد الليل أجيالا ^(٣)
له درهم من عصبة خرجوا	ما إنه ترى لهم في الناس أمثالا
أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد	فقد أضحي شديدهم في الأرض فلالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً	في رأس (غمدان) داراً منك محلالا ^(٤)
ثم أطل بالمسك إذ شالت نهاتهم	وأسبل اليوم في يديك إسبالا ^(٥)

قال النويري في نهاية الأرب^(٦): «ولما ظهر سيف بن ذي يزن على الحبشة، وذلك

(١) هكذا في: ابن هشام: ج ١ ص ٦٥ ط ثانية بمصر. ويقول: (وروى لأمية بن أبي الصلت)، وفي مروج السمودي: ج ٢ ص ٨٤ ط السعادة بمصر أثناء حديثه عن كلمات الوفود العربية أمام معد يكرّب (كما يقول): (ثم قام أبو زعمة أمية بن أبي الصلت)....

(٢) في رواية الطبري: (بعد الساعة) ولعله الأصح.

(٣) يريد ببني الأحرار: الفرس الذي اقتادهم (وهرز) من بلاد فارس.

(٤) غمدان بالضم: ذلك القصر الشامخ الذي بناه يشرح بن حصب، وقيل: إن الذي بناه سليمان بن داود عليه السلام. هو من أعاجيب الزمن في عظمة البناء وزخرفته وقد تحدثت عنه كتب التاريخ، وتفتت بوصفه ألسنة الشعراء من قديم الزمن وبقي على وضعه إلى أيام عثمان بن عفان فأمر بهدمه، وقد جلس فيه سيف بن ذي يزن (أو معد يكرّب) ووفدت عليه العرب فيه.

(٥) اختلاف كثير في كمية الأبيات وكيفيتها، وكذلك في تعيين قائلها بين المؤرخين وأرباب السير والمعاجم، وإلى هنا: من عرض: قتل الأحباش، وسيطرة سيف بن ذي يزن على ملك اليمن، يذكره ابن الأثير كاملاً: ج ١ ص ٢٦٣... ط بيروت، وابن هشام في السيرة ج ١ ص ٦٧ ط ثانية بمصر، والطبري في تأريخه ج ٢ ص ٢٦٣ ط دار المعارف بمصر.

(٦) كذلك في: أعلام الوري للطبرسي وعامة المؤرخين من الفريقين، ولكن في مروج السمودي ج ٢ ص ٨٢-٨٣ ط السعادة

بعد مولد الرسول ﷺ يستتين أخته وفود العرب وأشرافها وشعراؤها لتتهنئته بعودة الملك إليه... وأتاه وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم، وأمّية بن عبد شمس، وعبد الله بن جدعان، وأسد بن عبد العزى^(١)، ووهب بن عبد مناف، وقصي بن عبد الدار وغيرهم من وجوه قريش).

فدخل عليه آذنه وهو في قصره المعروف، بفمدان، وهو مضمخ بالعنبر والمسك وعليه بردان أخضران، مرتد بأحدهما ومؤتز بالآخر وسيفه بين يديه، وعن يمينه وشماله الملوك وأبناء الملوك فاستأذن لهم، فدخلوا عليه.

ودنا منه عبد المطلب (من بين الجماعة) واستأذن في الكلام، فأذن له فقال: «أيها الملك، إن الله عز وجل قد أحلك محلاً رفيعاً شامخاً منيعاً وانبتك نباتاً، طابت أرومته^(٢) وعظمت جرثومته^(٣)، وثبت أصله، وبسق فرعه في أطيب موضع وأكرم معدن، فانت (أبيت اللعن) رأس العرب، وربيعها الذي تخصب به، وأنت ملك العرب الذي عليه الاعتماد، ومعلها الذي لجأ إليه العباد، سلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف، فلن يخذل من أنت سلفه، ولن يخذل من أنت خلفه.

أيها الملك نحن أهل حرم الله وسدنة بيت الله، اشخصنا إليك الذي أبهجنا من كشف الكرب الذي فدحنا^(٤)، فنحن وفد التهنة لا وفد المرزئة»

فأعجب الملك بهذا الكلام، فالتفت إلى عبد المطلب بكله قائلاً: من أنت أيها المتكلم؟ فقال: أنا عبد المطلب بن هاشم، قال الملك: ابن أخينا^(٥)؟ قال: نعم.

قال: إذن مني؟ فدنا منه.

→ يذكر القصة مع معد يكرب، لا سيف (كما أشرنا). (١) عند المسعودي: خويلد بن أسد.

(٢) أرومته بضمين وفتح ضم: أصل الشجرة جمعه: أروم بالفتح.

(٣) والجرثومة بالضم: من الشيء: أصله، أو التراب المجتمع في جذور الشجر، جمعه: جرثوم.

(٤) فدحه الأمر الغلاي: أقتله ويهله.

(٥) في مروج المسعودي بالمصدر الآنف: ابن أختنا، والظاهر، أن كلنا الكلمتين من باب الكناية والمجاز ولا علاقة لهما بواقع الصحابة (التربيين)، فإن كلنا الكلمتين من كناية الصلة والتحملة ما لا يخفى.

ثم أقبل (على الوفد الذي معه) فقال لهم: مرحباً واهلاً^(١) وناقة ورحلاً ومستنخاً سهلاً، ملكاً رِبْخاً^(٢)، يعطي عطاء جزلاً، قد سمع الملك: مقابلتكم وعرف قرابتكم وقبل وسيلتكم، فانكم أهل الليل والنهار ولكم الكرامة ما أقمتم؟ والصباء إذا ظعنتم^(٣).

ثم يستمر التويري فيقول: ثم نهضوا (أي عبد المطلب والوفد الذي معه) إلى دار الضيافة والوفود وأجريت عليهم الأنزال^(٤)، فاقاموا بذلك شهراً لا يصلون اليه، ولا يؤذن لهم بالانصراف ثم انتبه لهم انتباهة، فأرسل إلى عبد المطلب (بالخصوص) فأدناه من مجلسه، ثم قال له: يا عبد المطلب إني مفض إليك من سر علمي أمراً لو غيرك يكون لم أبح به، ولكنني رأيتك معدنه، فأطلعك عليه، فليكن عنك مخبئاً^(٥) حتى يأذن الله عز وجل فيه؟

إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي ادخرناه لأنفسنا واحتجبتناه دون غيرنا: خبراً عظيماً، وخطراً جسيماً، فيه شرف الحياة، وفضيلة الوفاء للناس (عامه)، ولرهطك كافة، ولك خاصة.

فقال له عبد المطلب: مثلك أيها الملك سر وبر^(٦)، فما هذا؟ فذاك أهل الوبر: زمراً بعد زمراً؟ قال سيف: إنا ولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة.

قال عبد المطلب: أيها الملك لقد أبث بخبر ما أب بعثه وأقد قوم. ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه، لسألت من بشارته إياي: ما أزداد به سروراً.

(١) هنا يقول التويري: وأرسلها مثلاً، وكان أول من تكلم بها .

(٢) الربحل بالكسر فالفتح فالسكون: الكثير العطاء الجزيل النوال.

(٣) الصباء بالكسر: العطية.

(٤) الانزال: جمع نزل ينتح لسكون وهو قرى الضيف وإكرامه وإلى هنا ينتمي السموذي بمصدره الاتف ومن عرض القصة ونسبها إلى معد يكرب ويقول: بعد ذكر الآيات الالامية لأبي رفعه الثقفي التي قالها مع الوفد (ولمعد يكرب بن سيف بن ذي يزن كلام كثير مع عبد المطلب، وكواتن، أخبره بها في أمر النبي ﷺ ويده ظهوره..)

ويرمي بذلك إلى ما أثبتناه بعد هذا من التويري.

(٥) في بعض المصادر (كالدلائل للبهقي)، (مخبئاً) والمعنى واحد.

(٦) السر بالفتح: التحية بالمسرة والفرح، والتيز: كذلك حسن المعاملة عن حب، والمراد من أهل الوبر أهل الإبل من العرب.

قال له الملك: هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد. اسمه محمد ﷺ. يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه. وقد ولدناه مراراً والله باعته جهاراً، وجاعل له انصاراً.

يعز بهم أوليائه، ويذل بهم أعدائه، ويضرب بهم الناس عن عرض ويستفتح بهم كرائم الأرض، يعبد الرحمان، ويدحر أو يدحض الشيطان، وتخدم النيران، وتكسر الأوثان، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله.

قال له عبد المطلب: عز جدك ودام ملكك وعلا كعبك فهل الملك سارني بالفصاح؟ فقد أوضح لي بعض الإيضاح؟

فقال له سيف بن ذي يزن: والبيت ذي الحجب، والعلامات على النصب، إنك لجده يا عبد المطلب غير كذب.

قال الراوي: فخر عبد المطلب ساجداً.

فقال له سيف: إرفع رأسك، تلج صدرك وعلا أمرك، فهل أحسست بشي مما ذكرت؟ فقال عبد المطلب: نعم أيها الملك، إنه كان لي ابن، وكنت به معجباً، وعليه رقيقاً، وإنني زوجته كريمة من كرائم قومي: أمنة بنت وهب بن عبد مناف، فجاءت بغلام وسميته محمد مات أبوه وأمه، وكفلته أنا وعمه، وهنا قال التويري في نهايته: ج ١٦ ص ٨٨ باقتضاب منا: ولما توفيت أم النبي ﷺ أمنة بنت وهب قبضه إليه جده عبد المطلب وضمه إليه، ورقى عليه رقة لم يرقها على ولده، وكان يقربه منه ويدنيه ويدخل النبي ﷺ إذا خلا عبد المطلب وإذا نام، ويجلس على فراشه وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني فوالله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا قال: علي بابني؟ (فيؤتى به إليه).

قال له ابن ذي يزن: إن الذي قلت لك كما قلت، فاحفظ بابنك واحذر عليه اليهود فانهم أعداؤه، ولن يجعل الله عليه سبيلاً، واطو ما ذكرت لك، دون هؤلاء الرهط الذين معك، فاني لست

أمن أن تداخلهم النفاسة^(١) من أن تكون لهم الرئاسة فينصبون له الحبال، ويبغون له الفوائل^(٢) وهم فاعلون ذلك أو أبنائهم من غير شك.

لو أني أعلم أن الموت مجتاحي قبيل مبته، سرت بخيلي ورجلي^(٣) حتى أجي يثرب: (دار ملكه)؟ فاني أجد في الكتاب الناطق، والعلم السابق: أن يثرب استحكام أمره وأهل نصرته، وموضع قبره، ولولا أني أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات، لأعليت (على حدائث سنه) أمره، ولأوطأت على أستان العرب: كعبه، ولن أحرف ذلك إليك، من غير تقصير بمن معك.

ثم إنه دعا بالقوم، وأمر لكل رجل منهم بعشرة أهد سود، وعشرة إماء سود، وحلتين من حلل البرود، وخمسة أرطال ذهب، وعشرة أرطال فضة، ومائة من الإبل، وكرش ملو عنبراً، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال له: إذا حال الحول، فأنتي بخبره.

قال الراوي: فمات سيف بن ذي يزن قبل أن يحل عليه الحول، وكان عبد المطلب كثيراً ما يقول: يا معشر قريش، لا يغبطني رجل منكم بهزئ عطاء الملك؟ وإن كثر فائته إلى نفاذ، ولكن يغبطني بما يبقى لي ولعقبتي ذكره وفخره، فإذا قيل: وما هو؟ قال: سيعلم ما أقول ولو بعد حين^(٤).

ومن المناسب أن نختم حديثنا عن سيد البطحاء بكلمة موجزة ذكرها: ابن أبي الحديد «عن الزبير بن بكار» في (شرح النهج ج ١٥ ص ٢١٨) ط دار إحياء الكتب العربية، قال: «ومكّار عبد المطلب أكثر من أن يحاط بها، كان سيد قريش غير مدافع، نفساً وأباً، وبيتاً وجمالاً، قال أحد بني كنانة يمدحه:

إنسي وما سقرت قريش والذي	نغزو لآل كلهن ظباء
ووحق من رفع الجبال منيفة	والأرض مدأ فوقهن سماء
مثن ومهد لابن سلمى مدحه	فيها أداء ذمامه ووفاء

(١) النفاسة (بالتحفيف): الحسد والشديد: جمع نافس، وهو الحاسد.

(٢) الفوائل: جمع فائلة: ومن معانيها: الشر والعقد الباطن.

(٣) رجل يفتح فككون: أحد جموع راجل: هو ضد الراكب.

(٤) نهاية الأرب للنوري: ج ١٦ ص ١٣٧-١٤١ ط دار الكتب العربية بمصر.



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

الفصل الرابع

والد النبي ﷺ عبد الله بن عبد المطلب

ولادة عبد الله، نذر ذبحه وفداؤه بمائة من الإبل، عفته

ونزاعته، زواجه بآمنة بنت وهب، وانحصار عقبه في النبي

محمد ﷺ من ابنته الزهراء (في ولديها الحسنين ﷺ).



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

● عبد الله والد النبي ﷺ

ويموت عبد المطلب وسيد البطحاء ذلك العملاق العربي والعنقوان الهاشمي بعد عام الفيل بثمان سنين، أي: بعد ولادة النبي ﷺ بذلك القدر «وكان المضطلع الوحيد حينئذ» برعاية حفيده النبي ﷺ طيلة هذه السنوات من عمره الشريف «على أتم رعاية ليأتي دور عمه أبي طالب» مؤمن قريش بعد ذلك في الرعاية والعناية كما سنقرأ.

وانتهت أيام عبد المطلب وتصرمت أعوامه وظلت مكارمه وأياديه خالدة ناصعة في جبين الدهر.

ولقد ترك للتاريخ العربي، للفخر الهاشمي «من البنين»: عشرة أويذون جروا «ولو استثنينا شذوذ أبي لهب» على سنته، من حيث المجد والسيادة والواقعية والصلة بالله تعالى.

ونحن لغرض الإلماع إلى نماذج حية من أغصان هذه الزيتونة المباركة نشير بدورنا الآن إلى أفذاذ خمسة من أبناءه الأكارم، وإن كان عامتهم أفذاذاً أكارم فنتحدث بإيجاز عن عبد الله والد النبي ﷺ، وشقيقه أبي طالب والد أمير المؤمنين ﷺ، وشقيقهما الزبير صاحب حلف الفضول، والحمزة أسد الله وأسدر سوله، والعباس صاحب السقاية والعجد الأعلى لملوك بني العباس.

فلنبداً الحديث عن أصغر الأفذاذ الخمسة سناً، وأعظمهم شأنًا ذبيح الله وابن ذبيحه وأحب ولد أبيه إليه: «عبد الله» والد النبي محمد ﷺ فنقول: كانت ولادته المباركة لأربع وعشرين سنة مضت من سلطان كسرى أنوشير وان كما نقل ذلك ابن الأثير في الكامل ج ١ ص ٤٦٩ عن ابن الكلبي:

وإن من دواعي فخر عبد الله على بقية أخوته وذويه: أن يعدّه التاريخ ويعرفه بأنه: ذبيح الله وابن ذبيحه

أما كونه: ابن ذبيح الله، فلأن نسبه الهاشمي يتصل من حيث جدوده الأعالي بإسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن ﷺ، وقصة تسمية إسماعيل بذبيح الله معروفة لدى عامة المفسرين والمؤرخين، وموجزها: مقتضبة من كتب السير والتفسير:

أن إبراهيم ﷺ بعدما أيس من هداية قومه وإيمانهم بالرغم مما شاهدوه على يده من الآيات العظيمة هاجر من ظهرانيهم الى بيت الله وذلك قوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾، وقد حمل معه زوجته هاجر فيتضرع الى الله هناك أن يهبه أولاداً صالحين عوضاً عن قومه المتمردين، فيقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حيث لم يكن عنده يومئذ ولد فيستجيب الله دعائه، فيرزقه: أول مولود من زوجته هاجر وذلك قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، وهو أكبر ولده إسحق من زوجته الأخرى سارة باتفاق المفسرين، فقد ولد له إسماعيل وعمره ست وثمانون سنة، وولد له إسحاق وعمره تسع وتسعون سنة، ولما كبر إسماعيل وبلغ مع أبيه السمي أي: ترعرع وجعل يمشي ويركب مع أبيه إبراهيم ﷺ قال له أبوه يوماً: ﴿يَا بَنِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى...﴾ ورؤيا الأنبياء في المنام يومئذ وحي مبين، فأخبر إبراهيم ولده بذلك واستخبر منه مدى تحمله وتلقيه لأوامر الله تعالى، فإذا بالشيخ المتطامن يتلقى من فتاه الذي فاجأه بتلك الرؤيا الصارمة تطامناً واستجابةً لأمر الله لا يقلان وزناً عما يكنه أبوه بين اضلاعه: من إيمانه العميق، فيرد على استدراج أبيه بقوله: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

وهنا بعد أن لمس إبراهيم من ابنه ذلك الاتقياء المؤمن أمره أن يأخذ الحبل والمدية وينطلق أمامه الى «شعب ثبير» حيث تذبح القرابين عنده، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: أطاع إبراهيم أمر ربه وإسماعيل أمر أبيه، فأكبه على وجهه، وكان ذلك بطلب من إسماعيل، عطفاً على أبيه الشيخ، كيلا يرى محاسن وجهه قد تغيرت، فتأخذه عاطفة الأبوة فيتأثر.

وطلب لإسماعيل أيضاً من أبيه تحضيراً لتنفيذ أمر الله: أن يشد رباطه حتى لا يضطرب من ألم الذبح، وأن يكفف عن رقبة ثياب أبيه، حتى لا ينتضخ عليها دمه فتراه

أمه فتجنزع. وأن يشحذ الشفرة. ويسرع في ذبحه ليهون عليه ألمه، فإن الموت شديد. فقال له أبوه إبراهيم «وقد طبق لولده جميع ما أراد»: نعم العون أنت يا بني على أمر الله. وشرع إبراهيم محاولاته في ذبح ابنه الوحيد، فوضع المديّة على رقبتة، فانقلبت بأمر الله على عكس شفرتها. وحاول ثانياً وثالثاً فانقلبت كذلك.

وفي أثناء تلك المحاولات يطلب إسماعيل من أبيه أن يخلع قميصه عنه ليبقى نظيفاً من الدم فيكفن به، ويمضي لتنفيذ أمر به، إذ ليس عنده قميص آخر صالح للكفن. وبينما إبراهيم في هذا نحوه: في محاولة الذبح وخلع قميص ولده، إذ يسمع نداء من خلفه: ﴿أَنْ يَابْرَاهِيمُ • قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا﴾ أي: حصل المقصود من رؤياك بهذا التحضير والأيتمار بالأمر الإلهي باضجاعك ولدك للذبح، وإمرار المديّة على رقبتة بقصد ذبحه، وإن لم تعمل شيئاً غير الخدش، حيث لم تكن الغاية من الأمر الإلهي: نفس الذبح، بل كانت تلك المحاولة الاختبارية من إبراهيم لولده إسماعيل: هذا من حيث الأيتمار لأمر الله، وهذا من حيث الانصياع والطاعة لأمر أبيه نبي الله.

فيلتفت إبراهيم إلى وراءه حيث يسمع النداء فإذا هو بكبش أبيض أو أملح أقرن، أعين، سالم الأعضاء والجوارح، يمشي في سواد، ويأكل في سواد، ويرك في سواد، من كباش رياض الجنة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَنَاءَ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

وهناك حل إبراهيم أكتاف ولده وفك عصاة عينيه: وأطلق ولده من تحت الشفرة وأخذ ذلك الكبش العظيم المربي في رياض الجنة أربعين خريفاً كما روي إلى موضع النحر والذبح في «منى» فيذبحه على الجبل الأيمن من مسجد منى حيال الجمرة الوسطى من الجمرات الثلاث ويتصدق بلحمه على المساكين فكانت السنة على ذلك بعده.

● تسمية عبد الله بالذبيح

وأما كون عبد الله الذبيح فموجز قصته كما اقتضيناها من كتب السير والتفسير: أن أباه عبد المطلب عندما لقي من قريش ما لقي: من العنت والحسد عند حفره بئر زمزم بأمر الوحي الإلهي «ولم يكن عنده» حينئذ من الولد غير ابنه الحارث، فاراد أن يشدّ أزره

ببنين كثيرين، ليتكامل فخره بين قبائل قريش، حيث كان التكاثر في الأموال والأولاد من دواعي الفخر في المجتمع الجاهلي.

وتحت تأثير هذه العوامل القبلية نذر عبد المطلب «إن رزقه الله» سوى الحارث من البنين عشرة أن يذبح أحدهم قرباناً لله ولبيته الحرام.

ويدأ عبد المطلب يتخير كرائم النساء، ويتزوج منهن، ليحقق له الله ما يطلب، ولم يكن عنده من النساء حينئذ غير صفية العامرية من بني عامر بن صعصعة وليس عندها من البنين غير الحارث، ويضيف إليه اليعقوبي في تأريخه «قلماً» أيضاً:

فتزوج سواها فاطمة بنت عمرو وبنت عائذ المخزومية فولدت له من البنين: عبد الله، والزيبر، وأبا طالب، وعبد الكعبة كما قيل، وكان عبد الله أصغر أشقائه.

وتزوج هالة بنت وهيب أو أهيب الزهرية فولدت له من البنين: حمزه والمقوم وحجل كما قيل.

وتزوج نائلة بنت جناب -بالجيم- بن كليب النمرية، فولدت له من البنين: العباس وضاراً وقتما كما قيل.

وتزوج ممته بنت عمر بن مالك الخزاعية، فولدت له «من البنين»: غيداق الأغتر وقيل: باتحاده مع حجل.

وتزوج لبنى بنت هاجر بن مناف الخزاعية، فولدت له: أبا لهب.

وحتى إذا تكامل بنوه العشرة أو زادوا عليها وترعرعوا وكانوا رجالاً، واشتد بهم وبمنعهم أزره، جمعهم أبوهم يوماً إليه، وقص عليهم نبأ نذره بذبح أحدهم إن بلغوا العدد الذي بلغوه، قرباناً لله وشكراً على نعمه وطالبهم بمساعدته على الوفاء بالنذر؟ فأجابهم جميعهم وبصوت واحد قائلين: «أوف بنذك وأفعل ما شئت».

فقال: إذاً ليأخذ كل رجل منكم قدحاً^(١) ويكتب إسمه عليه ثم اثنوني، ففعلوا ما أمرهم أبوهم، وجمعوا أقداحهم ووضعوها أمام أبيهم وانتظروا أمره بعد ذلك؟

وكان ذلك صباح يوم من شهر جمادي الأولى قبل بعثة النبي بإحدى وأربعين

(١) القدح بكسر فسكون: هو السهم الذي كانوا في الجاهلية يستقسمون به (كما مر تفسيره).

عاماً^(١).

فتوجه عبد المطلب لله تعالى قائلاً: اللهم اني نذرت لك نحرأحدهم وإني أقرع بينهم فأصّب بذلك من شئت؟

ثم دخل في جوف الكعبة ووقف على هبل وكان منصوباً على بئر داخل الكعبة يجمع فيها ما يهدى إلى الكعبة من نذور.

وقال للسادن «الموكل بضرب القداح» فخرجت القرعة بالذبيح على قدح عبد الله وكان أصغر أشقاءه الثلاثة، وكان أحب ولد أبيه إليه ولعله لما كان يستشرف في غزته أنواراً متميزة بالنبوة والرسالة.

وما أن خرجت القرعة على عبد الله حتى أخذ أبوه من بين بنيه، وبيده المدينة الحادة إلى حيث تذبح القرابين في بيت الله ما بين «أساف وناثلة» صنمي قريش، واستسلم الفتى لذلك: امتثالاً لله، وطاعة لأبيه غير هيباب من الذبيح ما دام فيه رضى الله وبرأبيه، ويقف الشيخ القديس، وهو أشد وفاء لله، ويُلقي ولده «الحبيب إلى نفسه» على وجه الأرض بين هذين الصنمين، ويمتشق مديته، ويهم بتنفيذ ما وقعت عليه القرعة «مهما كلفه الأمر من ويلات العاطفة وتبعات التنفيذ»، ولكن قريشاً ومنهم بنو عبد المطلب الآخرون وقفوا بتعطف ورجاء «صارمين» في وجه تنفيذ الذبيح، قائلين لعبد المطلب: والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه؟، ولئن فعلت هذا لا يزال الرجل من قريش يأتي بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا؟

ووقفت مخزوم أخوال عبد الله وفي مقدمتهم: المغيرة بن عبد الله بن عمرو المخزومي وقالوا: والله لا تذبحه حتى تعذر فيه؟، فان كان فداؤه بأموال فديناه، بلغت ما بلغت.

وانثالت قريش رجالاً ونساءً اتداعى على عبد المطلب من هنا وهناك لتقف في وجه تنفيذ ما يصر عليه: من ذبح ابنه البار الوديع زين شباب مكة من قريش. وكان وجه الفتى المدعو للذبح يتهلل فرحاً برضى الله، وكانت عزيمة الشيخ أبيه

تشدد لتنفيذ ما يرضي الله.

ويصر عبد المطلب على ما يريد ويلج جمهور الناس على ما يريدون من تأجيل التنفيذ، ريثما يفكرون في حل آخر «يتقاضي به الذبح» بعرض النعم والإبل إلى أن يرضى الله بذلك بدلاً عن ذبح ذلك الشاب المتطامن.

ويتراجع عبد المطلب أمام هذا الإلحاح الجماهيري فيؤجل التنفيذ إلى غداة غد، عسى أن يفتردي ولده بالمال.

وجاء صباح الغد فخرج عبد المطلب بابه عبد الله إلى الكعبة حيث موضع ذبح القرابين، وأحضر عشرة من الإبل وكانت مقداراً لديه يومئذ^(١) فوضعها إلى جانب ولده عبد الله، وقال للسادن: إضرب عليه بالقداح وعلى الإبل العشرة؟ فضرب السادن فخرج القداح على عبد الله.

وهنا انفتل عبد المطلب للمرة الثانية إلى تحقيق مأربه وانتال عليه الناس أيضاً يمنعونه من التنفيذ ويطلبون منه مضاعفة الإبل للفداء.

فطأوهم عبد المطلب، وأخذ يضاعف الإبل فيكرر المضاعفات ويأمر السادن بالضرب على العدد المضاعف وعلى عبد الله، وفي كل تلك الجولات المتكررة من ضرب القداح كان عبد المطلب قائماً يدعو الله ويؤمن الحاضرون أن يسجى ولده الحبيب من الذبح ويرضى بفداء الإبل مهما بلغت.

حتى إذا بلغ بالعدد «مئة من الإبل» وضعها إلى جانب ولده عبد الله فأمر السادن أن يضرب عليها وعلى ولده. «ولعل عبد المطلب نوى في نفسه أن هذه آخر محاولة أرادها الناس، ورضخ لها هو فضج الناس رجالاً ونساءً بالدعاء والتضرع إلى الله بين الصفا والعروة» وفيهم أخوات عبد الله وعقائل آل عبد المطلب أن يرضى من عبد المطلب بالبدل من الإبل دون ذبح ولده الصغير.

(١) قال ابن العباس رضي الله عنه: (كانت الدية يومئذ عشرة من الإبل، وعهد المطلب أول من سن دية النفس مئة من الإبل فجرت في قريش والعرب وأقرها الرسول ﷺ على ما كانت عليه) نهاية الأرب للنووي: ج ١٦ ص ٥٢ ط دار الكتب المصرية.

ومرت لحظات حاسمة ريثما ضرب السادن وجالت القداح دورتها العاشرة، فإذا بالمنة من الإبل موضع القبول من الاقتراع وضرب القداح فيقع القدح عليها ويتخطى عبد الله.

فكبر عبد المطلب وكبر معه الحاضرون وملأت الفرحة قلوبهم، فقالوا لعبد المطلب: قد انتهى رضى ربك بفداء الإبل يا عبد المطلب.

قال: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات وفي جميعها تخرج القرعة على الإبل المنة.

يا للفرحة الشاملة؟ يخرج المطلب عند ذلك من الكعبة ويده ولده الحبيب وهو ظافر برضى الله وحياته ولده، فكان عبد الله بعد ذلك يعرف بالذبيح.

وقدم عبد المطلب على الفور إليه المنة، فنحراها بين الصفا والمروة، وخلقى بينها وبين الوارد إليها: من إنس أو وحش أو طائر، لم يذب عنها أحداً، ولم يأكل منها هو ولا أحد من ولده شيئاً... فجرت بذلك السنة^(١).

إنه الفتى الوديع المتطامن والشاب الممتلئ بالإيمان، وذبيح الله، وابن ذبيحه، وفي وجهه نور النبوة والرسالة وفي صلبه الطاهر يشرق وضوح الإمامة والدلالة.

فلا عجب بعد هذا إذا كان عبد الله بمنتهى درجات الثقة بالله، والجنف عن محارمه، وعن كل ما يهبط بالنفس، ويخل بالكرامة والدين.

قال المؤرخون بعد أن انصرف عبد المطلب «يوم الغداء» وهو ظافر برضى ربه وحياته أحب بنيه إلى قلبه وأقربهم إلى واقعه، أخذ بيد ابنه عبد الله، فمر به على امرأة قرشية من بني أسد بن عبد العزى بن قصي، وهي أخت ورقة بن نوفل الكاهن المعروف تدعى: «قتيلة» أورقية أورقيقة، وتكنى: «أم قتال» بالتشديد كما قيل وكانت في البيت عند الكعبة فلما خطف عليها عبد الله مع أبيه، ونظرت إلى حسن طلعته وجمال هيأتها ولمحت النور

(١) اقتضاب من تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٢٤٣ ط دار المعارف بمصر، وكامل ابن الأثير: ج ٢ في الصفحات الاوائل ط بيروت

ونهاية الارب للنويري: ج ١٦ ص ٥٦٥ ط دار الكتب المصرية والسيرة النبوية لأبن هشام ج ١ ص ١٥١-١٥٥ ط ٢

بمصر وموسوعة آل النبي المذكورة بنت شاطن: ص ٨٨-٩٣ ط بيروت.

يسطع على جبينه بهرها جماله، وخلق لبها جلاله، فتسمرت قدمها أمامه، واستوقفته وسألته: أين تذهب يا عبد الله؟ فقال بإيجاز: مع أبي وكان أبوه عبد المطلب قد سبقه بالمشي، فقالت له: لك عندي مثل الإبل التي نحرها أبوك عنك «إن وقعت علي الآن» وتملتق بثيابه، فانتقل عنها بعفته وجنف وهو يقول:

أنا مع أبي لا أستطيع خلافه ولا فراقه، ونحن الآن في بيت الله، ثم أخذ يقول:

أما الحرام فالعمات يونه والحلل لا حل فاستبينه

فكسيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكريم عرضه وبينه^(١)

● زواجه بأمنة

فخرج عبد المطلب بابنه عبد الله من البيت حتى أتى منزل وهب بن عبد المناف بن زهرة، وهو يومئذ سيد بني زهرة سناً وشرفاً فخطب إليه: أمنة لابنه عبد الله. وكانت يومئذ أفضل امرأة في قريش: جمالاً ونسباً وموضعاً، فزوجه أبوها في الوقت، وعقد لها عبد المطلب، وبنى بها عبد الله في بيت أبيها، وأقام عندها ثلاثاً، ثم انصرف إلى أهله بمكة، فحملت أمنة في خلال تلك الأيام بأفضل الخلف أجمعين وأشرف الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين. قالوا: وحينما أحسّت أمنة بالحمل نوديت من قبل الواقع المحسوس: يا أمنة إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فاذا وقع إلى الأرض فقولِي: أعيز بالواحد من كل حاسد، ثم سميه محمداً، ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور، انتشر في الأفق حتى رأت به قصور «بصري» في الشام.

ويقال: إن تلك المرأة التي مر بها عبد الله في البيت مع أبيه كانت من خثعم اسمها: فاطمة بنت مر، كاهنة خثعم متهودة، تنظر في الكتب، وتكهن بالغيب، وكانت من أجمل فتيات العرب، وأعفهن، وكانت شهاب قريش يتحدثون إليها، وحينما مر بها عبد الله، ونظرت إليه لمحت في وجهه نور النبوة فاستدعته إلى نفسها لينتقل ذلك النور إليها.

(١) في بعض المصادر اختصار على الأشطر الثلاثة الأولى من الشعر. ومن ذلك: شرح النهج لابن أبي الحديد: ج ٢٠ ص ٢٣٥ دار إحياء الكتب العربية.

فلما أبى عليها عبد الله وخرج مع أبيه وتزوج آمنة وبني بها ورجع منها بعد ثلاث رأى تلك المرأة في البيت أيضاً ولم تعرض له في هذه المرة بشي.

فقال لها عبد الله: مالك لا تعرضين علي اليوم ما كنت عرضت علي بالأمس ؟ فقالت له قد فارقت النور الذي كان في وجهك بالأمس فاردت أن يكون لي، فأبى الله إلا ان يجعله حيث أراد، أخبرني: ما صنعت بعدي ؟

قال عبد الله: زوجني أبي آمنة بنت وهب. فانشأت فاطمة الخثعمية تقول

إنني رأيت مخيلة لمعت فتلألأت بمناتم القطر^(١)

فلماؤها نوراً يضي له ما حوله كإضاءة للبدر^(٢)

ورأيت سقياها حيا بلد وقعت به وعمارة القفر^(٣)

فرجوته فخرأ أبوه به ما حل قراح زنده يوري^(٤)

له ما زهرية سلبت منك لذي سلبت وما تدري^(٥)

● وفاة عبد الله

قالوا: ثم إن عبد المطلب أرسل ولده «عبد الله» بعدما زوجه آمنة بنت وهب، وحملت النبي محمد ﷺ أيام التشريق من مكة إلى المدينة، ليمتار لهم تمراً، فمات هناك.

(١) المخيلة (بالضم): البرق، أو السحابة التي إذا رأيتها حسبها مطرة، والخناتم على مفاعل: جمع (خنتم) بالفتح: وهي

السحابة السوداء. والقطر بالفتح: المطر. (٢) لمأها: أبصرتها ولمحتها.

(٣) السقيا بالضم: الاسم من السقي، ومن معاني الحيا: بالفتح: الغصب.

(٤) بهاء بالشتي يهوه به: إذا أجمعوه، والزند: المرد الأعلى الذي تتحد به النار، وأورى الزند: إذا قدحه وأخرج ناره.

(٥) ذكرت الأبيات المذكورة في المصادر الآتية باختلاف بسيط من حيث الكم والكيف، وفي نهاية التوضيح ج ١٦ ص ٦١

بعد ذكر أبيات فاطمة الخثعمية هذه الأبيات:

أمية إذ للياه يهتجان

فتائل قد ميئت له بدخان

بحزم وما فاته لتوان

سيتكفيك جذان يصطرعان

وإما يد مبسوطة ببين

بنا بصري منه وكل لساني

بني هاشم قد غادرت من أخيكم

كما غادر المصباح بعد خبوه

وما كل ما يحوي الفتى من تلامه

فأجمل إذا طالبت أمراً فانه

سيتكفيك إما يد مقلعة

ولما قضت منه أمينه ما قضت

وقيل: بل أرسله أبوه إلى الشام في غير له ولقريش، فنزل في المدينة في طريقة إلى الشام فتمرّض هناك فأقام بها، حتى توفاه الله، وله من العمر (٢٥ أو ٢٨ سنة)^(١).

● عقب عبد الله في ابنه محمد ﷺ

ويشاء القدر الحاسم لعبد الله أن يموت في عنفوان شبابه، وريمان حياته فيترك للتاريخ على مدى الأجيال والإنسانية حيثما تكون وللخير والصلاح مع شمول الحرف، وفوح الكلمة «يترك للصعيد العربي» على سعته وللأمة الإسلامية جمعاء: الوجود الأفضل والعطاء الأشمل ذلك هو الوليد الوحيد والنبي العظيم محمد بن عبد الله «صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين».

فلقد مات أبوه وتركه حملاً في بطن أمه على الأشهر «أو رضيعاً في المهد كما قيل». فكان خير كنز وذخيرة لمن في الأرض أجمعين.

كما إن ابنه رسول الإنسانية محمد ﷺ ترك للعالم المأهول من نسله الطاهر المبارك فلذة كبد الرسالة ومهجة روح الوحي: فاطمة الزهراء ﷺ سيدة نساء العالمين، فكان من وجودها الميمون، ووجود ابن عمها وجوده الغمر الإمام علي بن أبي طالب ﷺ تعريش الزيتونة الهاشمية بنموها المطرد وعطاءها الفياض ببركة وخير لخير أمة أخرجت للناس، والحمد لله رب العالمين.

(١) باقتضاب من عامة كتب السير: كتاب تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٢٤٣-٢٤٦ ط دار المعارف بمصر، وكامل ابن الأثير: ج ٢

ص ٥٤ ط بيروت، ونهاية الأرب للنويري: ج ١٦ ص ٦١-٥٨ ط دار الكتب المصرية. والسيرة النبوية لابن هشام: ج ١

ص ١٥٦-١٥٨ ط ثانية بمصر، والمصدر الأثف من شرح النهج للحدادي.

الفصل الخامس

الزبير بن عبد المطلب: صاحب حلف الفضول
الزبير يشبه أباه في صفاته ومميزاته النفسية، وعرض
مظاهر زعامته في قريش وعموم بني هاشم في (حرب
الفجار) و(حلف الفضول)، بعد ذلك بيان أسباب الحلف
وسريان مفعوله حتى بعد الإسلام، نخوته العربية،
وعرض اثارها في إجارة المستجير التميمي من (حرب
بني أمية)، وأخيراً موت الزبير وذكر أبنائه وانقطاع عقبه
منهم.



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وإلى هنا ينتهي بنا العرض الموجز للفصل الأول من الأغصان الياضعة الخمسة
للشجرة المطلوبة والزيتونة الهاشمية عبد الله بن عبد المطلب.
لتزدلف إلى الحديث (بإيجاز أيضاً) عن الفصل الثاني من تلك الأغصان المطلوبة
الهاشمية ألا وهو الشقيق الثاني لعبد الله، أبو طاهر:

● الزبير بن عبد المطلب (صاحب حلف الفضول)

فنعول: لقد كان ابن عبد المطلب وحفيد هاشم يحكي أباه وجدته في شموخ النفسية،
وصلابة الرأي وطهارة القلب وعفة الضمير وعمق الإيمان فلا تمسه لومة من عصره
الجاهلي ولا تبطره عنجهية من صعيدته القبلية، ولا يفريه ترف جماله وكبرياء جلاله.
فكان إلى جانب تلك الظواهر والمآثر النبيلة يحاول باستمرار أن يتعدى إطار نفسه
إلى تطهير زمنه وإصلاح أبنائه جيله، وجرّهم إلى حضيرة الخير والإيمان.

فنراه إذا ضلت الحياة بأهلها وتسيبت في متاهات الجاهلية يلوح لها من قرب أو بعد
ليهدئها إلى ما هو خير وأبقى ونراه إذا اندفعت الحياة بأهلها إلى الظلم والقسوة
والاستغلال يتصدى لها بصارم من الحزم والعدل، ليردها إلى سنن النصف والوجدان.
لقد أخبروه يوماً بموت أحد القرشيين وكان ذلك الرجل ظلوماً للناس فقال الزبير
للمخبرين: بأي عقوبة مات؟ فقالوا: مات حتف أنفه، قال الزبير: لئن كان ما قلتُموه حقاً،
إن للناس معاداً يؤخذ فيه للمظلوم من الظالم^(١)

والذي نلمسه من كلامه هذا شدة مناوئته للظلم وأهله، وعمق إيمانه بحتمية انتقام الله
للمظلوم من ظالمه «إن عاجلاً في الدنيا أو آجلاً في المعاد»، وذلك هو ما شرحه الإسلام
(بعد ذلك) على لسان قرآنه الكريم ونبيه العظيم.

وكان الزبير «كما أطراه المترجمون» من رجالات العرب وشجعانهم ومن سادات

(١) شرح النهج للحمداني: ج ١٥ ص ٢٢٢ دار إحياء الكتب العربية.

قريش وشعرائهم ومن سرايا بني هاشم وأقربائهم، وكان خطيباً ذلق اللسان وطلق البيان وثبت الجنان.

وبالجملة فقد كان من حيث السمات والصفات من أجمل فتيان قريش بسماته الجميلة ومن أنبلهم بصفاته الجليلة.

قال ابن أبي الحديد: نقلًا عن الزبير بن بكار^(١): فأما الزبير بن عبد المطلب، فكان من أشرف قريش ووجوهها، وهو الذي استثنته بنو قصي على بني سهم حين هجا عبد الله بن الزبير: ابن قصي، فأرسلت بنو قصي: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس إلى بني سهم. فقال لهم: إن قومكم قد كرهوا أن يعجلوا عليكم فأرسلوني إليكم في هذا السفينة الذي هجاهم في غير ذنب اجترموا إليه، فإن كان ما صنع عن رأيكم فبنس الرأي رأيكم وإن كان من غير رأيكم فادفعوه إليهم.

فقال القوم نبرأ إلى الله أن يكون عن رأينا.

قال: فأسلموه إليهم؟ فقال بعض بني سهم: إن شئتم فعلنا، على أن من هجانا منكم

(١) ابن أبي الحديد: عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين المدائني، ولد في المدائن غرة ذي الحجة ٥٨٦ هـ الجانب الغربي من بغداد ونشأ فيها وتخرج على شيوخها وأدبائها ثم انتقل إلى بغداد عاصمة العلم والأدب يومئذ فقرأ على علمائها واستازد من متابعة أخريات أعوامه، إدارة خزان الكتب ببغداد، وكانت له حضوة كبيرة عند الوزير ابن الملقمي، وكان من جهازة العلماء وعبارتهم ومن الفقهاء المعتزلة والمتكلمين إلى أن مات سنة (٦٥٦) على الأصح.

له من المصنفات القيمة في مختلف العلوم والآداب كثيرة، منها بل أهمها: شرح نهج البلاغة، طبع عدة طبعات في عدة مجلدات، كان آخرها: طبعة دار إحياء الكتب العربية في عشرين جزءاً، وله أيضاً: الفلك الدائر على المثل السائر، والاقتصاد السبع الملويات، والعبري الحسان في الأدب وغير ذلك.

بانتصاب من أعلام الزركلي. وفوات الوفيات لابن شاکر، والبدایة النهایة لابن الأثير، ونسمة السحر فیمین تشیع وشعر (وسیر أعلام النبلاء للذهبي).

والزبير بن بكار (بالتشديد) بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام.

ولد في المدينة سنة ١٧٢ هـ ونشأ فيها، حتى كان من جهازة العلماء بالأنساب وأخبار العرب وولي قضاء مكة حتى توفي فيها سنة ٢٥٦ عن ٨٤ سنة من العمر، وقد كان هو أبوه وجده من المنحرفين عن أهل البيت عليهم السلام، صنف في النسب وأخبار العرب كثيراً، ومن آثاره المطبوعة في ذلك: نسب قريش وأخبارها وهو الكتاب المشار إليه.

بانتصاب من وفیات الأعیان لأبن خلكان، وآداب اللغة، وتاریخ بغداد للخطيب، وشذرات ابن عماد الحنبلي.

دفعتموه إلينا .

فقال عتبة: ما يمنعني أن أقول ما تقول، إلا أن الزبير بن عبد المطلب غائب بالطائف وقد عرفت أنه سيفرغ لهذا الأمر فيقول، ولم أكن أجعل الزبير خطراً لابن الزبيرى^(١). فقال قاتل منهم: أيها القوم ادفعوا إليهم، فلعمري إن لكم مثل الذي عليكم، فكثر في ذلك الكلام واللفظ.

فلما رأى العاص بن وائل السهمي ذلك دعا برمة^(٢) فأوثق بها عبد الله بن الزبيرى ودفعه إلى عتبة بن ربيعة فأقبل عتبة به مربوطاً، حتى أتى به قومه، فأطلقه حمزة بن عبد المطلب، وكساه، فأغرى ابن الزبيرى أناس من قريش بقومه بني سهم، وقالوا له: اهجم كما أسلموك، فقال:

لعمري ما جاءت بنكر عشيرتي وإن صالحت إخوانها لا ألومها^(٣)

فقدم الزبير بن عبد المطلب (بعد ذلك) من الطائف فقال يفخر بقومه ويشيد بهم:

ولولا الحس لم يلبس رجال ثياب أعزة حتى يموتوا^(٤)

ثيابهم شمال أو عباء بها دنس كما دنس الحميت^(٥)

ولكننا خلقنا إذ خلقنا لنا الحبرات والمسك المتيت^(٦)

وكأس لو تبين لهم كلاماً لقالت: إنما لهم سبيت^(٧)

(١) من معاني الخطر (بالحرىك): المتل والمذل، ومن هذه الجملة تستشف مال الزبير بن عبد المطلب من مكانه رفعة عند قريش وبني هاشم.

(٢) رمة (بالضم والتشديد): القطة من الحبل البالي. جمعه: رمم (بالضم فالفتح)

(٣) إلى آخر أبياته السبعة يعتب فيها على قومه بني سهم، ويثني على بني قصي.

(٤) الحس: بالضم فالسكون هنا: قريش ومن ولدت سميت بذلك لتحمهم في دينهم وأعرافهم، وتسمى خرازة كذلك.

(٥) يريد بالشمال والباء بالفتح: الرداء الواسع والكساء المفتوح من الأمام، بالفتح: القدر الوسخ، والحميت (على فعمل): الزرق الصغير يتخذ للسن ونحوه.

(٦) الحبرات: بكسر ففتح: جمع حبرة كذلك؛ وهي: ضرب من برود الهم، وملاءة سوداء تلبسها النساء، والمتيت: المفتوت

المتكسر بالأصابع. (٧) سبيت مبنياً للمجهول: بمعنى جلبت.

تبيين لنا القذا إن كان فيها رصين الحلم يشربها هببت^(١)
ويقطع نخوة المختال عنا رفيق الصّد ضربته صموت
بكف مجرب لا عيب فيه إذا لقي الكريهة يستमित^(٢)

وكان الزبير بن عبدالمطلب: كبير أولاد أبيه وزعيم بني هاشم والمتصدي لقريش في عامة أمورهم السياسية والاجتماعية .

فقد كان على رأس إخوته وعموم بني هاشم في حرب الفجار^(٣) بين قبائل قريش وكنانة وبين قيس وهوازن، حيث ترأس كل شاخص قبيلة من قريش وكنانة ومن قيس وهوازن بني قومه لمواجهة الحرب المذكورة بين الفريقين كما هو مفصل في مظانه من كتب السير .

وموجز ذلك: أن «البراض» بالتشديد بين قيس الكناني الضمري الفاتك الخليع وعروة بن عتبة بن جعفر العامري المعروف «بالرحال» رئيس هوازن تجمعهما الصدفة في مجلس النعمان بن المنذر اللخمي «ملك الحيرة»، وكان النعمان يبعث في كل عام بلطيمة^(٤) للتجارة إلى أسواق عكاظ^(٥) لتباع فيه ويشتري بدلها بعض الأجناس والأعيان، وكان يبعثها مع من يؤمنها ذهاباً وإياباً من أشراف العرب .

فطلب النعمان إلى الحاضرين من يؤمن لطيمته من كنانة وقيس من عموم أهل تهامة ونجد، حتى يوصلها إلى مأمنها من سوق عكاظ، فأنبرى البراض بن قيس الكناني

(١) الهبت: بالفتح: الجبان الداهل.

(٢) شرح النهج ج ١٥ ص ٢٠٤ ص ٢٢٠ دار إحياء الكتب العربية.

(٣) الفجار بالكسر وسميت حربها بذلك لما استحل فيها من قتال، واستحلال الدم في الشهر الحرام المحرم فيه القتال في الجاهلية والأشهر الحرم هي رجب وذو القعدة والحجة والسحرم. وكانت الفجار في أوائل ذي القعدة كما قبل، أو في أواخر شوال واستمر إلى ذي القعدة، وقد ذكر ابن هبيرة الأندلسي في العقد الفريد: ج ٥ ص ٢٥٢ ط القاهرة لسنة ١٣٨٥ هـ عدة حروب باسم الفجار، كان آخرها ما ذكرناه بين قريش وكنانة وقيس وهوازن.

(٤) اللطيمة على فعلة: العير والجمال التي تحمل التجارة والطيب والبر ونحوها إلى عرضها ويبيعها في أسواق عكاظ.

(٥) عكاظ بالضم وكذلك: ذو المجاز، ومجنة: أسواق التجارة تجتمع فيها العرب (أيام موسم كل عام) فعكاظ: بين النخلة والطائف وبينها وبين الطائف نحو عشرة أميال، وكانت تقوم في غرة ذي القعدة.

الضمري لتحمل ذلك.

فقال عروة بن عتبة العامري للنعمان: أكلب خليع يجيرها لك أبييت اللعن؟
أنا أجيرها لك على أهل الشيخ والقيصوم، من أهل تهامة ونجد يقصد: جميع أهل
تلك البادية من الأعراب.

فقال له البراض: بغضب وعلى كنانة تجيرها «يا عروة»؟

قال عروة: نعم أجيرها على كنانة وعلى الناس كلهم، فدفعت النعمان اللطيمة إلى عروة
الرحال وأمره بالمسير بها وخرج البراض من مجلس النعمان يتبع أثر عروة ويطلب
غفلته، حتى إذا وصل عروة إلى قريب من عالية نجد في واد يقال له «تين» أو أورة ماء
لبنى تميم وثب البراض إلى عروة بالسيف فقتله فانهزم جمالة العير، وجعل البراض
يقول:

وداهية يسهال الناس منها	شدت لها بني بكر ضلوعي
هكت بها بيموت بني كلاب	وارضعت الموالي بالضلوع
جمعت له يدئي بفنمل سيف	أفعل فخر كالجعد الصريع

فاستاق البراض: العير بما فيها من أموال التجارة إلى خيبر، فتبعه رجلان من قيس
ليقطعا عليه الطريق وهما: المساور بن مالك الغطفاني وأسد بن خيثم الغنوي فتحيل
البراض عليهما فقتلهما: الواحد تلو الآخر وأخذ سلاحهما وراحلتهما ثم سار بالعير
إلى جهة مكة فأرسل من مكانه إلى قريش وكنانة، حيث كانوا مجتمعين في عكاظ
يخبرهم بقتل عروة والرجلين القيسيين ويحذرهم من أخذ ثأر قيس من قريش وكنانة.
فجاء المخبر إلى «عكاظ» فوجد جماعة من قريش وكنانة فبلغهم رسالة البراض
فتشاوروا فيما بينهم وقالوا نخشى من قيس أن يطلبوا ثأر صاحبهم منا، فانهم لا
يرضون أن يقتلوا به خليعا من بني ضمرة «أي براض».

ثم تناخت قريش بجميع قبائلها وأحلافها من كنانة يتقدمهم بنو هاشم وأمامهم الزبير
بن عبد المطلب وخرجت إلى مكة، فاعترضهم بنو قيس وهو ازن يتقدمهم أبو براء عامر
بن مالك بن «جعفر بن كلاب» ملاعب الأسنة، فادركوا قريشاً قبل أن يدخلوا الحرم في

مكان يدعى «نخلة» فنازلوهم حتى كادت قريش أن تنتهزم، ولولا أنهم بادروا للدخول الحرم عند الليل فتراجعت عنهم قيس وهم يقولون: يامعشر قريش إنا نعاهد الله أن لا نترك دم عروة أبداً أو نقتل به عظيماً منكم وميعادنا: عكاظ في العام المقبل. وانصرفت قيس إلى بلادها وعادت قريش إلى مكة، حتى إذا كان العام المقبل جمعت قيس جموعها ومعها ثقيف.

وكذلك جمعت قريش جموعها ومعها كنانة وأحلافها والأحابيش ومن لحق بهم من بني أسد بن خزيمة وأعدت واستعدت وخرجت للموعد المضروب، وجعلت على كل بطن منها رئيساً، فكان على عموم بني هاشم: الزبير بن عبد المطلب ومعه إخوته وابن أخيه محمد ﷺ وعمره يومئذ لا يتجاوز العشرون عاماً^(١)، وكان يقول: «كنت أنبل على أعمامي يوم الفجار، أي كنت أنوالهم النبل وارد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها»، وكان على عبد شمس: حرب بن أمية، وعلى بني عبد المطلب عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب، وعلى بني نوفل: مطعم بن عدي بن نوفل، وعلى بني عبد الدار: عكرمة بن هاشم بن عبد الدار إلى غيرها من القبائل القرشية التي يفصلها النسابة البغدادي في المحبر ص ١٧٠. وكانت قيس بحشودها قد تقدمت إلى عكاظ قبل قريش وكنانة، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً، وكان الظفر لقيس على قريش إلى أن انتصف النهار ثم دال الظفر بعد ذلك إلى قريش واشتد القتال، حتى إذا أوغل الليل تداعى الفريقان للصالح على أن يعدوا القتلى فاي الفريقين له فضل من القتلى أخذ ديتهم من الفريق الآخر، فتعادوا ففضلت قريش وكنانة على قيس وهوازن بعشرين قتيلاً، فأدوا الدية وتعاهد الفريقان بعدم التعرض ووضع الحرب وتناسوا ما كان من أمر البراض وعروة^(٢) ومن مظاهر شخصية

(١) هكذا في عامة المصادر التاريخية، ولكن ابن عدي ربه في (العقد الفريد: ج ٥ ص ٢٥٣ ط القاهرة لسنة ١٣٨٥) هروي أن عمر النبي ﷺ حينئذ أربع عشرة سنة، ويذكر ذلك نفا في كلام النبي المذكور. وكذلك هروي النوري في نهايته: ج ١٥ ص ٤٢٥.

(٢) باقتضاب من عامة كتب السير والنسب والأدب ككمال: ابن الاثير: ج ٢ ص ٣٥٩-٣٦٣ ط بيروت. ونهاية الأرب للنوري: ج ١٥ ص ٢٣-٢٤ ط دار الكتب العربية، والسيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٨٤-١٨٧ ط ثانية بمصر، والعقد

الزبير الاجتماعية، وغير ته العربية، ونظر تمالانسانية: انتفاضته وسعيه في تأسيس «حلف الفضول» والدعوة له، فقد سجل له التاريخ: هذه المأثرة النبيلة بأحرف من خلود. يقول الجاحظ: «إن الزبير بن عبد المطلب هو الذي نهض في الحلف ودعا إليه وحث عليه، وهو الذي سمّاه حلف الفضول»^(١)

ويقول الواقدي عنه: «كان حلف الفضول منصرف قريش من الحرب الفجار ورسول الله ﷺ يومئذ ابن العشرين سنة، وكان الفجار في شوال وكان الحلف في ذي القعدة وكان أشرف حلف كان (قط) وأول من دعا عليه: الزبير بن عبد المطلب ولا نعلم أحد سبق بني هاشم بهذا الحلف...»^(٢)

وقد اختلفوا في وجه تسمية هذا الحلف بـ «حلف الفضول»: فقد حكى عن أبي فرج الأصفهاني في سبب تسميته بذلك: «أن قوماً من قريش قالوا في هذا الحلف بعد تمامه: هذا والله فضل من حلف، فسمي حلف الفضول»^(٣). وقيل: بل سمي بذلك، لأنهم تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها وأن لا يغزو ظالم مظلوماً^(٤).

وعلى البلاذري في أنسابه: وجه التسمية فقال «ولبذلهم فضول أموالهم»، ولكن المشهور بين المؤرخين: أن وجه تسميته بذلك للتشبيه بالحلف الجرهمي السابق المسمى بحلف الفضول أيضاً من حيث نبيل الهدف وشرفه، فقد ذكروا أن نفراً ثلاثة أو

→ الفريد لابن عبد ربه الأندلسي: ج ٥ ص ٢٥٣-٢٥٦ ط القاهرة لسنة (١٣٨٥) هـ والمعبر للنسابة البهتادي: ص ١٦٩-١٧٠ ط بيروت.

(١) شرح النهج للحديدي: ج ١٥ ص ٢٠٣ دار إحياء الكتب العربية .

(٢) نهاية النويري ج ١٦ ص ٩٤-٩٥ ط دار إحياء الكتب العربية بمصر، وذكر مثل ذلك في هامش ص ٢٦ من الجزء الثاني من كامل ابن الأثير ط بيروت وكذلك في الهامش ص ١٢٣ من الجزء الأول من السيرة النبوية ط ثانية في مصر، وكذلك ذكر البلاذري (من أعلام القرن الثالث الهجري) في طليعة الجزء الثاني من كتابه (أنساب الأشراف) ط بيروت، والظاهر أن علاقة حلف الفضول بالزبير بن عبد المطلب من حيث تأسيسه والدعوة إليه والتحمس له مما يغفله كل من تعرض للزبير والحلف المذكور.

(٣) ذكر ابن التويري في المصدر الألف: من نهايته.

(٤) ذكر ذلك في الهامش ص ١٢٣: من المصدر الألف من السيرة .

أربعة من «جرهم» حيث كانوا يترجمون العرب في مكة قبل خراعة، يقال لهم: الفضل بن فضالة، والفضل بن وداعة، والفضيل بن الحارث^(١) اجتمعوا ومن تحالف معهم في مكة فتحالفوا أن لا يقرؤا ببطن مكة ظلماً، وقالوا: لا ينبغي لمكة إلا ذلك لما عظم الله حقها. فقال في ذلك شاعرهم عمر بن عوف الجرهمي:

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا أن لا يقر ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا فالجار والمعتز فيها سالم^(٢)

ثم عفى ذلك الحلف الجرهمي فلم يبق إلا اسمه يدور في أندية قريش بالذكر الجميل، حتى إذا كان قبل المبعث النبوي بعشرين عاماً، وفي غرة ذي القعدة تداعت قريش وفي طليعتها بني هاشم وفي طليعتهم: الزبير بن عبد المطلب إلى تجديد وتشديد آثار ذلك الحلف الجرهمي، بنحو أنبل، ويهدف أفضل، وب نطاق أشمل، فلتن لم يكن حلف الفضول أو حلف عربي في تاريخه واسمه فكونه أول حلف إنساني في سمو معناه وعمق هدفه وجوهره وشمول بنوده مما لا ريب فيه.

فهو لم يعد يشبه أي حلف عربي قبله من سعة بنوده وشرف أهدافه، اذ لم يكن الهدف منه شخصياً ضيقاً، ولا قبلياً منطوياً ولا محلياً جامداً، وإنما كان أشرف حلف إنساني حياتي في تأريخ العرب يهدف إلى شد أزر الضعيف المظلوم ومساعدته على الظالم القوي في استنزاع الظلامه منه.

وذلك أسمى وأشرف وأنبل هدف تدعو إليه حركة إنسانية في أي جهة من أنحاء العالم ولدى أية حقبة من حقب التاريخ .

كما أن الزبير فتى عبد المطلب لم يكن ينشي ويدعو إلى تأليف هذا الحلف بتلك

(١) هكذا في هامش الصفحة المذكورة من السيرة وبعض المصادر الأخرى، وفي المصدر الآنف من نهاية التوحيدي تقرأ عن أبي الفرج: أنهم: الفضل بن شراعة، والفضل بن قضاة، والفضل بن سعادة.

وقال بعد ذلك: (وروي أيضاً أي: أبو الفرج بسندته إلى أبي إسحاق بن الفضل قال: إنما سمعت تحالفوا على مثل ما تحالفت عليه قريش)، وقال: بعد ذلك تقرأ عن الواقدي: والصحيح أن قوماً من جرهم يقال لهم فضل وفضالة وفضال ومفضل وفضل ويشير إلى ذلك البيهقي في تأريخه ج ١ ص ١٤ ط النجف.

(٢) كامل ابن الأثير: ج ٢ ص ٢٢٥ ط بيروت.

القوة وذلك الاستمرار لحاجة شخصية له أو لقومه بني هاشم فيه، إذ هو وقومه كانوا بأشد منعه وأعز جانب من حيث البسطة في اليد والمال والكثرة في الولد، وإنما أنشأ لغرض بسط الحياة المطمئنة الوادعة في الجزيرة العربية «عامّة» وفي مكة «خاصة»، ولدعم الإنسانية المضطهدة في غمرة سلطان القوة والظفيان من عموم بني الإنسان. والذي أثار حلف الفضول: أن رجلاً من بني زبيد^(١) قدم إلى مكة ببضاعة فاعتمر وعرض بضاعته فاشترها منه العاص بن وائل السهمي القرشي، وكان بنو سهم وبني جهم أهل بني وعدوان في مكة، وأخفاها في بيته وما طله في ثمنها وغيب وجهه عنه، فاستعدى عليه رجل بني سهم فأغلظوا له في الجواب، فجاء إلى قريش وأحلافهم وأخذ يطوف في قبائلهم ويستفز بهم فتحاذلوا عنه وأبوا أن يعينوه على العاص وبني سهم. فلما رأى امتناع القبائل عن نصرته والأخذ بظلامته أشرف على جبل «أبي قبيس» المشرف على مكة وأطرافها عند طلوع الشمس، وأخذت قريش مجالسها في انديتهم في الكعبة وحواليها يتحدثون ويتندرون بمجادهم العربية فأخذ الرجل يهتف بأعلى صوته ويقول:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته	ببطن مكة نائي الأهل والنهر ^(٢)
ومحرم أشعث لم يقض عمرته	يا آل فهر وبين الحجر والحجر ^(٣)
هل منصف من بني سهم فمرجع	ما غيبوا أم حلال مال معتبر
إن الحرام لم تمت كرامته	ولا هرام لشوب الفاجر الفدر ^(٤)

(١) في أنساب الأشراف للبلاذري: ج ٢ ص ١٢ ط بيروت (من بني أبي يزيد، واسم أبي زيد: منبه بن ربيعة بن سلمة بن مازن بن سعد العنبري)، وفي شرح النهج: ج ١٥ ص ٢٢٥ ط دار الكتب العربية: (من بني أسد بن خزيمه)، وكذلك يذكر العقوبي في تاريخه: ج ٢ ص ١٣ ط التجف.

(٢) في بعض المصادر (كشرح النهج): يا للرجل المظلوم، كما كان في بعض المصادر ككامل ابن الأثير (ناهي الدار) كما إن بعضها نائي الحي كأنساب البلاذري.

(٣) الحجر بالكسر والتسكين والمقصود به: حجر اسماعيل، والحجر بالفتح والتعريف المقصود به الحجر الأسود.

(٤) هذا البيت الرابع لم يذكر في كثير من المصادر وإنما ذكره العقوبي في المصدر الاتف هكذا:

ان الحرام لم تمت هرامته ولا هرام لثوبي لابس الفدر

وأر هفت الأسماع لهذا الصوت المستعدي المهيج، وأعظمت ذلك قريش وتكلموا فيه فقالت قبائل منهم: هلموا فلنحلف حلفاً جديداً لننصرن المظلوم على الظالم ما بل بحر صوفه؟

وأول من انبرى وسعى لإجابة ذلك النداء من قريش: بنو هاشم وفي طليعتهم يومئذ: الزبير بن عبد المطلب، فأخذ يصيح ويردد في قبائل قريش وهو يجوب أنديةهم «ما لهذا متراً»، فاجتمع عليه: بنو هاشم والمطلب وأسد وتيم وزهرة فعدوا اجتماعاً طارئاً في دار الندوة التي أسسها قصي للتداول في شؤون العرب، وبعد الاجتماع والتداول فيما بينهم، وعقدوا اجتماعهم الحاسم في دار أبي زهير: عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن يعد بن تيم بن مرة^(١) لعظم شرفه وكبر سنه، فصنع لهم طعاماً بما يناسبه ويناسبهم، وبعد الانتهاء من الطعام قام الزبير فيهم خطيباً فحضرهم لعقد حلف وسلام لأهل مكة ولعامة الواردين عليها من كل صوب وحذب فاستجابوا له، فتحالفوا وتعاقدوا: أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من الواردين إليها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى يأخذوا له بحقه ويردوا إليه ظلامته من أنفسهم ومن غيرهم، ثم عمدوا إلى ماء زمزم فجعلوه في جفنة وبعثوا به إلى البيت ففسلوا به أركانه ثم جمعوه وأتوه به فشريوه^(٢).

ثم سمت قريش أو سعى الزبير بن عبد المطلب ذلك الحلف «بحلف الفضول» على غرار الحلف الجرمي السابق لشبهه به من حيث نبل هدفه وشمول بنوده. ثم انبرى الزبير من بين الحاضرين يشهد بذلك الحلف ويفخر أمام القوم بأنه أول المبادرين لعقده والداعين إليه، فأخذ يقول:

هلفت لنصدقن حلفاً عليهم وإن كنا جميعاً أهل دار

(١) كان في البداية فقيراً ثم أترى بعد ذلك بثوره على ثمان من الذهب وعيناه ياقوتان، فأوسع في الكرم حتى كان يضرب بجفنته العنل، فكان يأكل منها القائم والراكب، وهذه النسابة البغدادي في المعبر: ص ١٣٨ ط بيروت من أجود العرب في الجاهلية، كما يحدده البقوي في تاريخه: ج ١ ص ٢٢٨ ط النجف من أحكام قريش في الجاهلية.

(٢) شرح نهج البلاغة للحيدري: ج ١٥ ص ٢٢٥ ط دار إحياء الكتب العربية.

نسمة الفضول إذا علفنا يعزّ به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالي البيت أنا أباة للضميم نمنع كل عار^(١)

قال الرواة: فلما تم تحالف القوم وتعاقدهم انطلقوا على الفور إلى العاص بن وائل فأرغموه واستخلصوا منه حق الرجل الزبيدي «أو الأسدي».

وكان حلف الفضول بعد انصراف قريش من «حرب الفجار» في غرة ذي القعدة قبل مبعث النبي ﷺ بعشرين عاماً، «وكان هو الآخر» حاضراً مجلس الحلف في دار عبد الله بن جدعان وعمره عشرون عاماً، وقد أثر عنه قوله ﷺ: «لقد شهدت مع عمومي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»^(٢).

قالوا: لقد بقي ذلك الحلف ساري المفعول في تأثيره ومهابته إلى ما بعد المبعث النبوي بسنين.

فمن ذلك: أن رجلاً بارقياً من ثمالة الأزد قدم إلى مكة بسلعة باعها من أبي بن خلف الجمحي، فمطله أبي بالثمن وما كسه وكان معروفاً بسوء المخالطة والمعاملة شأنه بذلك شأن عامة بني جمح وبني سهم كما أشرنا.

فرفع البارقي ظلامته إلى أهل «حلف الفضول» واستعدهم على الجمحي؟ فقالوا له اذهب إليه فأخبره أنك قد اتيتنا، فإن أعطاك حقك وإلا فارجع إلينا.

فأتاه البارقي فأخبره بما قال أهل الحلف مهدداً إياه!!

فأخرج إليه الجمحي حقه وأعطاه عن اذعان، فانقتل البارقي يقول:

أيسفر بي في بطن مكة ظالماً أبسي ولا قومي لدي ولا صحبي
ناديت قومي (بارقا) لتجيبني وكم دون قومي من قبالي ومن سهبي^(٣)

(١) هامش ص ٢٦ من الجزء الثاني من كامل ابن الأثير ط بيروت وشرح التهج للحمدي ج ١٥ ص ٢٠٤ ط دار إحياء الكتب العربية، وفي أنساب البلاذري اقتصار على ذكر البيتين الأولين، ولعله الأصح.

(٢) باقتضاب من عامة كتب السير ككامل ابن الأثير: ج ٢ ص ٢٦-٢٥ ط بيروت، وتاريخ العقوبي: ج ٢ ص ١٣-١٤ ط النجف، والسيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٣٣-١٣٤ ط ثانية بمصر، وشرح التهج للحمدي: ج ١٦ ص ٩٤-٩٥ ط دار الكتب المصرية، والمحرر للنسابة البغدادي: ص ١٦٧ ط بيروت، وأنساب البلاذري: ج ٢ ص ١٢-١٣.

(٣) الفياضي: جمع فيف وفيهفاء وهي المغازة التي لا ماء فيها ولا كلام، والسهب بالضم: جمع السهب بالفتح، وهي الأرض

ويأبى لكم حلف الفضول ظلامتي بني.. جمع والحق يؤخذ بالفضب^(١)
ومن ذلك: أن رجلاً من خثعم قدم مكة بعد ذلك بتجارة وكانت معه ابنته واسمها
«القول» بالفتح، وكانت أوضاً فتاة وأصبح في عمرها، فرأها نبيه بن الحجاج بن عامر
السهمي فبهره جمالها فألقى على نفسه أن لا يبارحها حتى يصطادها بحباله، وسرعان
ما وقعت الفتاة في شباكه «وهي تعج وتضج» بمراى ومسمع من أبيها وبعض رجالات
قريش فاحتجزها من أبيها وانتبذ بها مكاناً خفياً.

فأخذ أبوها يدير بطرفه ويتنخى بالناس في خلاص ابنته من أنياب ذلك القول
العربي، ف قيل له: عليك بحلف الفضول؟ فانبرى مسرعاً إلى ندوة الحلف فرأى عامة
أعضاءه ومنهم بنوهاشم بمن فيهم الزبير بن عبدالمطلب مجتمعين هناك، فما أتم عرض
قصته الحساسة حتى بدر الحاضرون إلى القيام معه حيث كان اختطاف ابنته، فرأوا
نبيهاً ومعه ابنة الرجل منتبذاً ناحية من نواحي مكة محاولاً الهروب إلى حيث شاء،
فصاحوا به من بعيد: أخرج ابنة هذا الرجل وإلا فانتنا من قد عرفت.

فقال لهم: يا قوم متعوني بها الليلة؟

قالوا له: قبحك الله؟ ما أجهلك؟ والله ولا شخب لقحة؟^(٢)

فأخرجها إليهم صاغراً فأخذ بيدها أبوها ومضى لشأنه، فجعل نبيه بن الحجاج يقول
بعد ذلك أبيات كثيرة، منها قوله:

راح صبحي، ولم أصبي القنولا لم أودعهموا وداعاً جميلاً

وخشيت الفضول حين أتوني قد أراني ولا أخاف الفضولا^(٣)

ولقد بقي شبح الحلف وعنوانه مهاب الجانب مبعث الرعدة.. في نفوس عامة الأبناء

→ الواسعة، وفي أنساب البلاذري (ومن كتب).

(١) المصدر الآف الذكر: من شرح النهج، وفي بعض المصادر بالعصب أي السيف.

والملاحظ أن ثبت الصدر في البيت الأول في أنساب البلاذري: ج ٢ ص ١٣ ط بيروت وهكذا: تهمني حتي بمكة ظالماً.

(٢) شخب الضرع: غزوه وعصره للحلب، واللقة بالفتح: العلوب الغزيرة اللين، وأشار الى هذه القصة هامش (الكامل لابن

الانبر) ج ٢ ص ٢٦ ط بيروت.

(٣) شرح النهج: ج ١٥ ص ٢٢-٢٤ ط دار إحياء الكتب العربية، وأنساب البلاذري: ج ٢ ص ١٤ ط بيروت.

والأحفاد من أعضائه، يتداعون إليه وباسمه متى مست الحاجة إليه: بضياح حق أو شيوخ باطل.

فقد روى: أن خلافاً نشب بين الحسين بن علي بن أبي طالب وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة يومئذ من قبل معاوية في مال بذى المروة للحسين عليه السلام أراد الوليد بايعاز أو رضى من مواليه أن يبتزّه من الحسين ويسطو عليه بسلطانه. فلما أحس الحسين عليه السلام بقصد الوليد ومحاويلته قال: ويقصد أن يصل قصده إلى الوليد: «أيستطيل الوليد علي بسلطانه؟ أقسم بالله لينصفني من حقي أو لأخذن سيفي ثم أقوم في مسجد رسول الله فأدعو بحلف الفضول»

فبلغ صوته: عبد الله الزبير بن العوام، فقال: «أحلف بالله لأن دعا الحسين بحلف الفضول لأخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينتصف أو نموت جميعاً»

وبلغ ذلك الصوت المسور بن محزمة بن نوفل الزهري، فقال مثل ذلك ثم بلغ الصوت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال بنحو ذلك.

فكانت حصيلة ذلك التجاوب والتداعي بحلف الفضول حينما بلغ الأمر الوليد أن أتاب وتضاغر عن تطاوله وأذعن للحق أمام الحسين عليه السلام فأأنصفه حتى رضي ^(١)

ومن مظاهر عظمة الزبير بن عبد المطلب، ونخوته العربية إجارته المستجير به من العرب مهما كلف الأمر من ثمن ونصب، وقد سجلت له كتب السير في هذا المضمار ما أثر كثيرة كان من بينها: قصة إجارته التيمي من سطوة حرب بني أمية.

فقد روي: أن حرباً هذا خرج يوماً مع سفر ^(٢) وهم يجتازون العقبة ليلاً وكان فيهم تيمي من بني حاجب بن زرة ^(٣)، وكان التيمي ادنى إلى العقبة من حرب، فاجتاز

(١) المصدر الآنف: ص ٢٢٧، وكامل ابن الأثير: ج ٢ ص ٢٦-٢٧ ط بيروت، وسيرة ابن هشام: ج ١ ص ١٣١-١٣٥ ط ثانية بمصر، وأشار البلاذري إلى ذلك.

(٢) السفر بالتسكين: المسافرون وهو جمع سافر كصحب وصاحب.

(٣) حاجب بن زرة بن عدي بن يزيد بن عبد الله الدارمي التيمي، من سادات العرب في الجاهلية ومن عليهم في الإسلام، وكان رئيس بني تميم وممثلهم في عدة مواطن، وهو الذي رهن قوسه عند كسرى ملك الفرس على مال عظيم

العقبة قبل حرب فعرز على حرب أن يتعداه ذلك التميمي في التقدم فتنحج ليلفت التميمي بوجوده فلم يأبه له التميمي كما فعل فتنحج وجهر بصوته قائلاً: أنا ابن حاجب بن زرارة، ثم بدر فجاز العقبة وترك حرباً وراءه.

وهنا يتميز حرب غيضاً من رد التميمي ويصيح في وجهه: لاها الله؟ لا تدخل مكة بعدها وأنا حي؟

فانصرف التميمي عنه وبقي زمناً طويلاً لا يرد مكة ولا يلم بأطرافها خوفاً من سطوة بني أمية وعموم قبائل قريش، ويتضايق التميمي من هذا الإجراء الخائق، لأن مكة «بأطرافها» بدل تجاري للعرب بالإضافة الى موقعها الديني منهم.

ويستشير أصحابه في أن يجدوا له حلاً لمشكلته فيشيرون عليه بأن يستجير بسيد البطحاء أو ابنه الزبير.

فركب التميمي ناقته مُقْذَأً^(١) في سيره «ليلاً» حتى وصل إلى مكة في أخريات الليل، فجاء ووقف على باب ابن الزبير وأناخ راحلته فرغت الناقة، وما أن سمع الزبير «من داخل داره» رغاء الناقة حتى انطلق الى الباب بنجدته وفتوته، وهو يقول:

«أستجير فتجار أم طالب قرئ فتقري»^(٢)

فاندفع التميمي: قصته في أبيات من الشعر، ويقول:

لا قسيت حرباً بالثنية مقللاً	والليل أبلىج نوره للشساري
لعل بصوت واكنني لبروعني	ودعا بدعوة معلن وشعار
فتركته خلفي وجزت أمامه	وكذاك كسفت أكون في الأسفار
فمضى يهددني ويمنع مكة	أن لا أحصل بها دار قرار
فتركته يسبح وحده	وأنسيت قرم مكارم وفخار ^(٣)

→ ووفى به وحضر يوم شعب، وجعله بالتحريك من أيام العرب المشهورة قبل مولد النبي ﷺ بزهاء عشرين عاماً وأدرك الإسلام وأسلم وبعثه النبي ﷺ وهو شيخ على صدقات بني تمم وفي ذلك حتى مات في السنة الثالثة للهجرة قهرماً.

(١) غذه (وأغذه بالتحديد): الرجل في سيره: (إذا أسرع فيه). (٢) القرى بالكسر: ما يقدم للضيف من طعام وشراب.

(٣) القرم (بكسر ففتح فسكون): السيد العظيم من الرجال.

ليثاً هزبراً يستجار بقربه رعب المباءة مكرماً للجار^(١)
وحملت بالبيت المتيق وجهه وبزمزم والحجر والأسنار
أن الزبير لمأنني بمهدد صافي الصديدة صارم بئار
وبعد أن انتهى التميمي من إنشاء قصته وقصيدته قال له الزبير: ادخل المنزل فقد
أجرتك:

فدخل التميمي دار الزبير ويمسي في تلك العشية في اطمينان وضيافة حتى إذا
أصبح خرج الزبير «ومعه أخوه غيداق» وقد علقا سيفيهما على كتفيهما فامراه ان يمشي
أمامهما وقالوا له: إنا إذا أجرنا رجلاً لم نمش أمامه فامش أمامنا ترمك أبصارنا كي لا
تختلس من خلفنا؟

فجعل التميمي يشق وهما معه شوارع مكة وطرقها، حتى إذا انتهيا إلى المسجد وكان
حرب جالساً فيه مع لمة من قومه وذويه، فما أن رآه حرب حتى خرج به قائلاً: وإتك
لهاهنا؟ وسبق إليه فلطمه على وجهه فنهز الزبير صائحاً به أتلطمه ثكلتك امك وقد
أجرته؟ فثنى حرب على التميمي بلطمة ثانية غير آبه بانتهاز الزبير.

فعند ذلك انتضى الزبير سيفه وحمل على حرب ليخترطه به فهرب حرب من بين
يديه فأتبعه الزبير فلم يزل يعدو من الخوف والزبير يعدو خلفه فلم يرجع عنه حتى
هجم حرب على عبد المطلب داره وهو يلهث من الرعب والتعب، فسأله عبد المطلب
عن شأنه فاجابه حرب وقد تلعثت الكلمات في فمه من الخوف: الزبير، فقال له عبد
المطلب وقد فهم منه انه مطلوب من قبل ولده الزبير: اجلس؟ وكفاً عليه إناء كان أبوه
هاشم يهشم فيه الثريد.

وبقي الزبير ومعه بنو أمية وعموم الناس: واقفين على باب دار عبد المطلب منتظرين
عاقبة حرب وقد سلوا سيوفهم، وبينما هم كذلك وإذا بحرب يخرج مطمئناً آمن السرب
قد التحف بأزار عرفه بنو عبد المطلب إنه أزار أبيهم وتردى برداء له طرفان هوراء
أبيهم أيضاً وأخرجه عبد المطلب من داره بتلك الهيئة من الحماية والإجارة، فعند ذلك

(١) الهزبر بكسر ففتح فسكون: من أسماء الأسد، والمباءة بالفتح: المراح الذي تبيت فيه الإبل.

أدرك الزبير وإخوته وعموم الناس: أن خروج حرب من دار عبد المطلب بتلك البزة رمز الحماية والإجارة، فكفوا عنه وأطلقوا سراحه.

وإلى هذه القصة يشير عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وهو يفاخر يزيد بن معاوية في حضور أبيه في الشام، يقول له: «بأي آباءك تفاخرنى اب حرب الذي أجرناه أم بأمية الذي ملكناه أم بعبد شمس الذي كفناه».

فقال معاوية: لحرب من أمية يقال هذا؟ ما كنت أحسب أن أحداً في عصر حرب يزعم أنه أشرف من كفأ عليه إناءه وجلله برداءه... إلى آخر القصة^(١).

● وفاة الزبير وراثؤه

ويموت الزبير بن عبد المطلب: رهين عظمته وفقيد واقعيته قبيل المبعث النبوي بسنوات (على الأصح)^(٢)

فيشعر شقيقه أبو طالب بألم فقدته وشماته عدوه، فيرثيه بقوله:

يا زُبَيْرُ المردتني للسائبات لقد	أحلت لحمي وأسى الرأس مشتهبا
من كان شَرُّ بما نال الزبير لقد	نادى منادي بزبير إنه شحبا
تغيبرت كمة سوداء واردة	وفارق المرء محموداً وما جدباً ^(٣)

وقال ضرار بن الخطاب^(٤) يرثيه ويعزي أهنته «ضباعه» بفقدته:

(١) شرح التهج للحميدي: ج ١٥ ص ٢٢٩-٢٣١ ط دار إحياء الكتب العربية.

(٢) في أنساب البلاذري: ج ٢ ص ٢٠ ط بيروت: ومات الزبير ورسول الله ﷺ ابن بضع وثلاثين سنة، ويقال: إنه مات في أيام المبعث. (٣) المصدر الآنف من أنساب البلاذري.

(٤) ضرار بن الخطاب (بالتشديد) بن مرداس بن كثر بن عمرو القرشي الهجري، كان من فرسان الطائف، أسلم يوم الفتح ومدح النبي ﷺ ذلك اليوم بأبيات منها قوله:

يا نبي الهدى إليك نجاحي	بقرش ولات حين نجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأر	رض وعاداهم اله السماء

وصحب النبي بعد ذلك وحسنت صعبته كما حسن لبلاؤه، وبقي حتى استشهد في وقعة أجنادين سنة (١٣ هـ) أيام أبي بكر، بانتصاب مما فصله ابن حجر في الإصابة، وابن عبد البر في الاستيعاب، وابن عساكر في التهذيب وعامة أرباب السير والتراجم ضمن حوادث سنة ١٣ هـ

بكى - (ضباع) على لبيك
 كنت اشهد فلا
 كالكوكب الذي يملو
 طالت به اعرافه
 بكاء مسحون اليم
 رث السلاح ولا ظلموم
 ضوؤه ضوء للنجوم
 ونسماء والده الكريم^(١)

ورثته اخته صفية بنت عبد المطلب^(٢) بقولها:

بكى الزبير الخير لانه مات ان
 لو لفظته الارض ما كتمها
 قد كان في نفسي ان اترك
 فلم اطق صبرا على رزه
 لو لم اقل من في قوله
 كنت على ذي كرم باكية
 او اصبحت خاشعة عارية
 الموتى ولا اتبعهم قافية
 لأنه اقرب اخوانيه
 لقصت الاهزان اضلاعية^(٣)

وللزبير من البنين: عبد الله وبقي بعده حتى استشهد يوم «اجنادين» في حرب الروم
 (١٨ جمادى الاولى سنة ١٣ هـ)^(٤)

(١) المصدر الآنف من الأنساب شرح النهج للحديدي: ج ١٥ ص ٢٢٣ ط جديد باختلاف بسيط بينهما في تغيير وتبديل بعض الكلمات، وأضاف الحديدي للأبيات الأربعة بيتاً خامساً.

(٢) صفية بنت عبد المطلب بن هاشم: السيدة الهاشمية القرشية عمة النبي ﷺ وشقيقة حمزه فتى عبد المطلب من أمهما وأم شقيقهما المقوم، وحجل: هالة بنت وهب الزهرية بنت عم آمنه بنت وهب أم النبي ﷺ وأخت الزبير بن عبد المطلب لأبيه: حيث إن أمهما وأم أختائهما أم حكيم أو حكم وبرة هي فاطمة بن عمرو المخزومية وصفيّة أيضاً: والدة الزبير بن العوام القرشي. وهم بعد ذلك من سيدات البيت الهاشمي ومن فضليات نساء قريش ومن الشاعرات والباسلات ومن المتقدمات في الإسلام والهجرة. وقد حضرت واقعة أحد مع شقيقها العمزه وولدها الزبير وبارزت وقتلت رجلاً من اليهود ووقفت على مصرع أخيها وأبنته برقيق النثر والشعر، كما أن لها في مدح النبي ﷺ ورفائه شعر مذكور من مظان في كتب السير والمآجم، كما سيأتي لها ذكر في ذلك المجال.

(٣) المصدران الأتقان: من الأنساب وشرح النهج باختلاف بسيط في بعض الكلمات.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ٣ ص ٢٥٧ ط دار المعارف بمصر وفي الدرجات الرفيعة للمذني: ص ١٦٨ ط التنجف: (أمة حاتكة بنت أبي وهب بن عمرو بن عائد المخزومية) أدرك الإسلام ونبت مع النبي ﷺ على مبدته، وكان النبي يحبه ويعبر عنه: ابن عمي وحمي.

والطاهر وبه كان يكنى أبوه، وكان من أظرف وأجمل فتيان مكة.
وبه سُمِّي رسول الله ﷺ: ولده «الطاهر»، وبه كُنْتُ صغية ابنها «الزبير»^(١)
وحجل بالتحريك، وقره بالضم الشديد، ولا عقب لواحد منهم^(٢).

→ قتل يوم أجنادين في خلافة أبي بكر شهيداً، وجد حوله عصبه من الروم قد قتلهم ثم أُنقِضَت الجراح فمات، وهو ابن نحو من (ثلاثين سنة ولم يعقب).

(١) المصدر الألف من شرح النهج: ص ٢٢٢

(٢) أي: هؤلاء البنين الأربعة، هكذا يقول ابن حزم في جمهرته: ص ١٧ ط فالأمعارف بمصر وعامة النساين والمؤرخين وأرباب المعاجم، فانتطع عقب الزبير من بنيه، وترك من بعده من البنات اثنتين: ضباعة بالضم وأم الحكم فالأولى تزوجها المقداد بن الأسود الكندي بأمر النبي ﷺ، والثانية تزوجها ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، قال الزبير بن بكار: لم يكن للزبير بن عبد المطلب عقب إلا من ابنته: ضباعة وأم الحكم، وكذلك قال ابن سعد في الطبقات، وابن حجر في الإصابه وغيرهم.

الفصل السادس

مؤمن قريش: أبو طالب بن عبد المطلب

ضبط تاريخ ولادته، حرصه على رعاية النبي ﷺ والدفاع عنه، تزعمه قبائل قريش وبني هاشم بعد أبيه بالرغم من فقره، علمه ومعرفته ببعض الأحكام الشرعية قبل تشريعها الإسلامي، إيمانه بالنبي ﷺ ورسالته في الخفاء ويظهر ذلك: أولاً: من خلال بعض الأحاديث والروايات في حقه، وثانياً: من خلال مواقفه الصارمة في الدفاع عن النبي والإسلام والمسلمين، نقضه لصحيفة قريش في حصار بني هاشم، وثالثاً: من خلال كلماته وأشعاره، وأخيراً: وفاته وحزن النبي ﷺ عليه، ثم أمر النبي ﷺ علياً بتجهيزه. ثم ذكر أبناء أبي طالب الأربعة وعقبه المتسلسل من أبناء الثلاثة: عقيل وجعفر وعلي، وأخيراً عرض موجز عن حياة هؤلاء الثلاثة وأعقابهم.



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ويوقف القلم جولته البسيطة في الحديث عن الغصن الثاني من أغصان الدوحة المطلية الهاشمية، وليمتد التاريخ كما يمتد منه في جولته الثالثة فيتحدث بإيجاز عن الغصن الثالث من تلك الأغصان الباسقة بالحمية العربية والحماية الإسلامية والشخصية الهاشمية العملاقة ذلك هو كافل محمد ﷺ ومربيه، والمؤمن برسالته وحاميها، ووالد الإمام أمير المؤمنين ﷺ شيخ الأبطح ومؤمن قريش وسيد بني هاشم في حياته:

● أبو طالب

ولد قبل ولادة النبي محمد ﷺ بخمس وثلاثين عاماً، وسمي: عبد مناف على الأشهر وكني بأبي طالب أكبر ولده الأربعة، وهو شقيق عبد الله والزيير من أمهم فاطمة المغزومية.

وكان وصي أبيه وسيد البطحاء عبد المطلب في كفالة النبي ﷺ وتربيته ورعايته ونصرته، حيث مات عبد المطلب وعمر النبي لم يتجاوز الثمانية من السنين فقد روي أن عبد المطلب عند موته أوصى ولده أبو طالب بالنبي ﷺ فقال:

أوصيك يا عبد مناف بعدي بواحد بعد أبيه فرد
فبارقه وهو ضجيع المهد فكنت كالأم له في الوجد^(١)

فقام أبو طالب بتطبيق وصية أبيه أحسن قيام. فقد كفل محمد ﷺ صغيراً، ورياه يافعاً، ونصره كبيراً، على مشركي قريش، وحماه من كيدهم فكان يقدمه بالعطف ويؤثره بالرعاية على ولده «بمن فيهم أمير المؤمنين ﷺ»

وكان من شدة حرصه على النبي ﷺ: أنه كثيراً ما كان ينهض من مضجعه ليلاً ويضع

(١) الدرجات الرفيعة للسيد عليخان المدني: ص ٤١ ط النجف، ويريد بعجز هذا البيت الأول: أن محمد ﷺ وحيد أبيه عبد الله فليس له من الولد غيره، ويريد بصدر البيت الثاني أن أباه عبد الله توفي (وهو رضيع في المهد)، ولعل: إنه كان (حين وفاة أبيه) حلاً في بطن أمه وولد بعد أبيه بعدة أشهر، وقد ذكرنا ذلك قريباً.

ابنه علياً مكانه، فقال له علي «يوماً»: إني مقتول يا أبة؟ فقال له أبة:

اصبرن يا بني بالصبر احبى
قد بذلتك والبلاء شديد
لهداك الأغر ذي الحسب الشاقب
إن تصبك المنون فالذبل تفرى
كل حي وإن تملئ بعمر
فأجابه علي عليه السلام بقوله:

أتأمرني بالصبر في نصر أحمد
ولكنني أحببت أن تر نصرتي
سأسمي لوجه الله في نصر أحمد
ووالله ما قلت الذي قلت جازعا
وأعلم أني لم أزل لك طائعا
نبي الهدى المحمود: مطلقاً وبالله (١)

ولم يزل أبو طالب في رعاية النبي ﷺ ونصرته وحمايته من مشركي قريش إلى آخر لحظة في حياته المقدسة، فقد أوحى إلى النبي ﷺ ليلة مات أبو طالب نزل عليه جبرائيل وقال له: «أخرج من مكة فقد مات ناصرک» (٢).

● أبو طالب وابن أخيه إلى الشام

قال التويري في نهايته ج ١٦ ص ٩٠: ولما بلغ الرسول ﷺ اثنتي عشرة سنة وعشرة أيام خرج أبو طالب في ركب تاجر إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل تعلق به رسول الله ﷺ فرق له أبو طالب وقال: والله لا أخرجن به ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً، فخرج به معه فلما نزل الركب «بصري» من أرض الشام وبها راهب يقال له «بحيرا» في صومعة له، وكان إليه علم أهل النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة: راهب إليه يصير ذلك نزل من صومعته وقد أمر بذلك الطعام فصنع ثم أرسل إلى القوم، فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً

(١) شعوب بالفتح: إسم علم للمنية وهو غير منصرف

(٢) شرح النهج للحديدي: ج ١٤ ص ٦٤ دار إحياء الكتب العربية، والدرجات الرفيعة للسيد عليخان المدني: ص ٤٢ ط

التجف، وإيمان أبي طالب الموسوم بالحجة على المذاهب لشمس الدين الموسوي: ص ٢٧٦ ط التجف، والدبير الأميني ج

٧ ص ٣٥٨ ط ثانية في إيران.

(٣) شرح النهج للحديدي: ج ١ ص ٢٩ و ج ١٤ ص ٧٠ دار إحياء الكتب.

يا معشر قريش فأنا أحب أن تحظروا وكلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحرکم، فقال له رجل منهم يا بحيرا: إن لك شأنا اليوم؟ فقال له بحيرا: صدقت قد كان ما تقول، فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداته سنة في رجال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرا إلى القوم لم ير الصفة التي يعرف فقال: يا معشر قريش لا يتخلف منكم أحد عن طعامي؟ قالوا: ما تخلف عنك أحد ينبغي أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سنأ تخلف في رجالهم، قال: لا تفعلوا ادعوه فليحضر؟، فقال رجل من قريش: واللوات والعزى إن كان اللوما بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام بيتنا ثم قام فاحتضنه وأجلسه مع القوم، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرا فقال له: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرني بما أسألك عنه؟ فقال: لا تسألني بهما فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما فقال: فبالله إلا أخبرني ما أسألك عنه؟ فقال: سلني عما بدا لك؟

فجعل بحيرا يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهياته وأموره ورسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، ثم نظر إلى خاتم النبوة بين كتفيه وكان مثل أثر الحجم.

فلما فرغ بحيرا من السؤال والنظر أقبل على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: إني، قال له بحيرا: ما هو بابنك وما ينبغي بهذا الغلام أن يكون أبوه حيا، قال: فانه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه، قال: مات وأمه حُبلَى به، قال: صدقت ارجع بابن أخيك إلى بلده فاحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغته شرا، فانه كائن لابن أخيك (هذا) شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده؟ فخرج أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام.

وذكر نحو ذلك في شرح المواهب اللدنية، وعيون الأثر، والسيرة الحلبية وعامة كتب التاريخ والسير.

● يسود قومه وهو فقير

ولقد ساد أبو طالب «في الجاهلية والإسلام» وتزعم قبائل قريش بعد أبيه عبد المطلب، فقد كانت السقاية والرفادة له بالرغم من كونه أعزل من عامة وسائل السيادة والزعامة حينئذ من الكثرة في الولد والوفرة في المال، فقد كان ضعيف الحال بحيث لا يستطيع إعالة ولده وعياله على قلتهم فساهمه في ذلك بعض إخوته وأبناء أخيه كما هو مذكور في كتب السير.

وليس من السهل أن يسود امرؤه في قريش مع هذا الإقلال في الولد والمال وفيهم من تتوفر فيه عامة أسباب السيادة ومقوماتها، ولكن أبا طالب برّ القوم وبالرغم من ذلك كله حتى كانوا يسمونه «الشيخ» لعظم مقامه^(١)

ولئن كان أبو طالب فقيراً في ذات اليد من المال فقد كان غنياً في ذات نفسه من حيث الواقع بصدق النية وإخلاص في العمل وكبرياء النفس ونزاهة عن الدناءات الجاهلية ودماثة في الخلق وأريحية في الطبع وخفة في الروح وجوداً بالموجود وتفكير وسعي ودؤبين وراء المصالح العامة

كان ذا علم ومعرفة ببعض الأحكام الشرعية قبل نزول التشريع السماوي بها على لسان النبي محمد ﷺ، فقد حرم على نفسه: الخمر والفجور والكذب والزور والسرقة والنهب وعامة الآثام التي جاء بتحريمها الإسلام بعد ذلك .

وهو أول من سن القسامة في دم عمرو بن علقمة وكان إلى جانب ذلك كله يتمتع بروحية ويمن يدركها فيه عامة الناس، فقد كانوا يلتسمون ببركة وجوده القوة والظفر

فمن ذلك: إنه كان في أيام حرب الفجار بين قريش وقيس مدار الفتح المبين والظفر الأبلج، فكان إذا حضر مع قريش وكثافتها ظهرت وغلبت وانتهزمت قيس واندهرت، وإذا غاب عنها يوماً تضععت مراكزها ولانت مغامزها ومنيت بالهزيمة أمام قيس واحلافها فكانت قريش تلاحظ ذلك الأثر المبروك بوجوده معهم فرغبت إليه أن لا

يغيب عن مواقفهم ما دامت الحرب قائمة فاستجاب لذلك عبد المطلب، فكانت الحيلة في النهاية النصر لقريش والهزيمة لقيس^(١)

● أبو طالب يخطب خديجة لمحمد ﷺ

ذكر عامة المؤرخين: أن خديجة بنت خويلد أرسلت إلى رسول الله ﷺ تقول له: يا بن العم إني قد رغبت فيك لقربائك مني وشرفك في قومك ويسطتك وأمانتك عندهم وحسن خلقك وصدق حديثك، ثم عرضت نفسها عليه فذكر الرسول ﷺ ذلك لأعمامه، فخرج معه عمرو بن أمية عمها وكان شيخاً كبيراً فخطبها إليه وحضر أبو طالب فقال: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ معد وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسؤاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوباً وحرماً آمناً وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به، فإن كان في المال قل فإن المال ظل زائد وأمر هائل ومحمد من قد عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وقد بذل لها من الصداق ما أجله وعاجله من مالي كذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطب جليل...» إلى آخر الخطبة.

● إيمان أبي طالب بالإسلام

وكان أبو طالب مؤمن قريش وسيد بني هاشم من طلائع المؤمنين برسالة النبي ﷺ وحمايته وحماية دينه من عامة المنافقين والمشركين إلى آخر لحظة من حياته، كما كان المضطلع الوحيد لتربية النبي وكفالته بعد وفاة جده عبد المطلب كما ذكرنا. ويترائى لنا من خلال ما ورد في حقه على لسان النبي محمد ﷺ وأهل بيته الأطهار ﷺ من أحاديث وروايات صريحة أو ملوحة، ومن مظاهر مواقفه الصارمة في الدفاع عن النبي ﷺ والنصرة لدينه والتفاني في سبيله، وأخيراً مما جاء على لسانه من نثر وشعر مما يكشف عما يكنه قلبه المطمئن بالإيمان.

ولا يسعنا التفصيل في تلكم المواضع الثلاثة وإنما نأخذ منها بعض الشواهد والمؤيدات بهذا الخصوص، فنقول:

أما الموضوع الأول:

فما ورد في حقه من أحاديث وروايات فكثيرة العدد ومختلفة المضامين، يعرف من مجموعها ما لمؤمن قريش من المقام العظيم عند الله تعالى والحظوة الشامخة عند النبي وأهل بيته الكرام عليهم السلام.

فمن ذلك: ما رواه شمس الدين الموسوي في كتابه: إيمان أبي طالب بسنده المعتبر المنتهي إلى مسمع كردين^(١) عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام عن آبائه عن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: هبط علي جبرائيل، فقال لي: يا محمد إن الله عز وجل مشفعك إلى ستة: بطن حملك أمنة بنت وهب، وصلب أنزلك عبد الله بن عبد المطلب، وحجر كفلك أبو طالب، وببيت أواك (عبد المطلب)، وأخ كان لك في الجاهلية قيل: يا رسول الله وما كان فعله؟ قال: كان سخيّاً يطعم الطعام ويجود بالنواء وتدي أرضك حليمة بنت أبي ذؤيب»^(٢).

ومنها ما رواه السيد الموسوي المذكور بسنده المعتبر المنتهي إلى أدریس وعلي بن أسباط عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، أن قال: «أوحى الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وآله: أني حرمت

(١) شمس الدين: هو أبو علي فخار بن معد بن فخار بن أحمد المنتهي نسبه إلى الموسوي إلى إبراهيم المجاب بن محمد العابد بن الإمام موسى الكاظم عليه السلام. وبيت فخار من البيوت العلمية الأدبية التي كانت تسكن الحلة منذ زمن بعيد، كان قفلاً رجالاً مؤرخاً نساباً زاوية وأديباً، من الشعراء المجيدين، روى عن أبيه معد بن فخار، وعن ابن أدریس صاحب السرائر وكثير من حملة الفقه والحديث، كما روى عنه ولده عبد الحميد بن الفخار. والمحقق العلي، وأبو الفضائل وكثير من العلماء وذوي الفضل والادب.

توفي المترجم له في الحلة سنة (٦٣٠) هـ ترك عدة مؤلفات قيمة في مختلف الفنون الإسلامية كان من بينها: كتابه المشار إليه المعروف بالحجة على المذاهب إلى تكفير أبي طالب، وقد طبع عدة مرات في النجف وغيرها.

ومسمع الكردین هو: مسمع بن عبد الملك بن مسمع المنتهي نسبه إلى بكر بن وائل، كنيته (أبو سيار) ولقبه (كردین) بكسر أوله ونالته وسكون ثانيه، وكان المترجم له شيخ آل بكر بن وائل في البصرة ووجهها المقدم، روى عن الائمة الثلاثة: الباقر والصادق والكاظم عليهم السلام، ولكنه أكثر في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام واختص به، وقد وثقه حامة الرجالين كالتجاشي والكشي وغيرهما، باقتضاب من كتب الرجال.

(٢) وحليمة السعدية بنت أبي ذؤيب بن بكر، زوجها الحارث بن عبد المزی بن رفاعه المنتهي نسبه إلى بكر بن هوزان. وقد ذكر هذا الحديث باختلاف بسط ابن أبي الحديد في شرح التهجج ج ١٤ ص ٦٧ ط دار إحياء الكتب العربية، وكذلك ذكره السيوطي في (التعظيم والمنة ص ٢٥).

النار على صلب أنزل، وبطن حملك، وحجر كلك، وأهل بيت آوأك، فعبد الله بن عبد المطلب:
الصلب الذي أنزله، والبطن الذي حملة: أمنة بنت وهب، والحجر الذي كفله: فاطمة بنت أسد، وأما
أهل البيت الذي آوأك فأبو طالب^(١)، وبنفس المضمون رواية عبد الرحمان بن كثير
الهاشمي^(٢)، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال: يا
محمد إن الله تعالى يقرئك السلام ويقول لك: إني حرمت النار...» إلى آخر الحديث^(٣).
ومنها ما روي عن أبي عبد الله الصادق عن آبائه عليه السلام: «أن رسول الله ﷺ قال: أن
أصحاب الكهف أسروا الإيمان وأظهروا الشرك فأتاهم الله أجورهم مرتين، وإن أبا طالب أسر
الإيمان وأظهر الشرك فأتاه الله أجره مرتين»^(٤).
ومنها ما روى عن المفضل بن عمر الجعفي^(٥)، عن أبي عبد الله الصادق عن أبيه الباقر
عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنه قال: من الحديث «...والذي بعث محمداً بالحق إن نور أبي طالب
(يوم القيامة) ليطلعي أنوار الخلق إلا خمسة أنوار: نور محمد ﷺ، ونوري ونور فاطمة،
نور الحسن والحسين عليهما السلام، ومن ولدته من الأئمة، لأن نوره من نورنا الذي خلق الله تعالى من
قبل أن يخلق الله آدم عليه السلام بألفي عام»^(٦).

(١) المصدر الآنف: من إيمان أبي طالب: ص ١٩-٥٠ ط النجف

والملاحظ أن راوي الحديث (علي بن أسباط) هو ابن سالم بن يعقوب الرطبي، أبو الحسن المقرئ الكوفي الثقة، وإن كان في بداية أمره
فطحياً، ولكنه رجع إلى الحق في أيام الإمام محمد انجودا عليه السلام، فهو لم يدرك زمن الصادق عليه السلام وإنما كان من أصحاب
الرضا عليه السلام ومن الرواة عنه، ولعل هذه الرواية صدرت عنه بالواسطة أو بالإرسال والله العالم.

(٢) هو مولى العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وقد اختلف الرجالون في توثيقه وتضعيفه
والأكثر على توثيقه.

(٣) المصدر الآنف: من إيمان أبي طالب: ص ٥٥، والدرجات الرفيعة: ص ٥١ ط النجف، والقدیر الاميني: ج ٧ ص ٣٩٠ ط
ثانية، وتفسير الرازي: ج ٤ ص ٢١٢.

(٤) الدرجات الرفيعة: ص ٤٩
(٥) وكان في بداية عمره مع الخطايب الذين يقولون بامامة إسماعيل بن الإمام الصادق عليه السلام، ثم رجع إلى الحق بعد ذلك على
ما يقوله عامة الرجالين.

(٦) الدرجات الرفيعة: ص ٥٠، وإيمان أبي طالب للمسوي: ص ٧٤، ومنته الراغب للطبسي: ص ٢٨ ك الأولى، والقدیر
للأميني: ج ٧ ص ٣٨٧ ط ثانية في طهران، وقد خرجته عن: كنز الفوائد للكرجكي: ص ٨٠ وتفسير أبي الفتح: ج ٤
ص ٢١١ وغيرهما.

ومنها ما روى عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام وقد سُئِلَ عن إيمان أبي طالب فقال: «وا عجباه؟ أتعلمون على أبي طالب أو على رسول الله صلى الله عليه وآله؟ وإن الله تعالى نهى رسول الله أن يقر مسلمة على نكاح كافر في غير آية من القرآن.

وقد كانت فاطمة بنت أسد من المؤمنات السابقات إلى الإسلام ولا يشك أحد في ذلك ولم تزل تحت أبي طالب إلى أن مات»^(١).

ومنها ما روى عن أبي بصير ليث المرادي^(٢)، عن أبي جعفر بن علي الباقر عليه السلام وقد سأله عن إيمان أبي طالب فقال عليه السلام: «لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه على إيمانهم، ثم قال: ألم تعلموا أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يأمره بأن يحج عن عبد الله أبي النبي صلى الله عليه وآله وعن أبيه أبي طالب في حياته، ثم أوصى في وصيته في الحج عنهم بعد مماته»^(٣).

ومنها ما روى عن حماد بن عثمان بن عمرو الفزاري^(٤)، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ما مات أبو طالب حتى أعطى رسول الله من نفسه الرضا^(٥).

وحسب ما عرضناه من بعض الأحاديث والروايات عن النبي وأهل بيته عليهم السلام التي تصرح بإيمان أبي طالب وتشيد بمقاله عند الله ورسول الأئمة الطاهرين عليهم السلام.

(١) الدرجات الرفيعة للسيد عليخان المتوفى سنة ١١٢٠ هـ ص ٥٠ ط النجف، والفدير الأميني: ج ٧ ص ٣٨٩ ط ثانية طهران، ومثني الراغب للعطيسي: ص ٢٩ ط أولى، وإيمان أبي طالب لأبن معد الموسوي: ص ١٢٣ ط النجف.

(٢) ليث بن البختري المرادي الكوفي المكنى بأبي بصير، عده الشيخ الطوسي في رجاله من أصحاب الأئمة الثلاثة: الباقر والصادق والكاظم عليهم السلام، وقد اختلفت الروايات عن أئمة أهل البيت في مدحه وقدمه، وعلى ضوء ذلك وقع اختلاف الرجالين في وثوقه وتضعيفه، والذي يترأى لنا من مجموع ذلك: أنه مقبول الرواية وإن ورد الطعن في دونه.

(٣) الدرجات الرفيعة: ص ٥٠، وإيمان أبي طالب: ص ٨٥، وشرح النهج للحديدي: ج ١٤ ص ٦٤ ورد فيه اشتباه عن علي بن محمد الباقر، والملاحظ أن في بعض المصادر ورد ذكر أم النبي صلى الله عليه وآله، إضافة إلى الاثنين، ولعله أنسب بتصحيح الجمع.

(٤) الراسي، مولاها الكوفي ويلقبه الرجاليون بـ (النايب) أو بذي الناب، ويذكرون له أخوين هما: جعفر، والحسين والأخوة الثلاثة من نقاة الرواة، ويروي حماد هذا، عن الأئمة الثلاثة: الصادق والكاظم والرضا عليهم السلام، وروايته كأخويه عن الإمام الصادق عليه السلام أكثر، مات في الكوفة سنة (١٩٠) هـ.

(٥) ذكر الرواية المذكورة بسنده المعتبر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام ابن معد الموسوي في كتابه (إيمان أبي طالب: ص ١٠٨) ط النجف، وذكرها بالنص ابن أبي الحديد في (شرح النهج ج ١٤ ص ٧١ ط نار إحياء الكتب عن علي عليه السلام).

واما الموضوع الثاني:

فمواقفه الصارمة في الدفاع عن رسول الله والرسالة مما تنم عن مدى ايمانه العميق فكثيرة. وقد بدت منه تلك المواقف المصحرة بالرغم من تطامنه وتخفيه وابقاء لهيبته وسيادته امام المشكرين ليتسنى له من خلال ذلك: مواصلة عمله الدؤوب في سبيل الحفظ على حياة النبي ﷺ ودعم رسالة الاسلام.

واليكم: اليسر من الكثير من تلك المواقف المشرفة اتجاه الرسالة والرسول فنقول: منها موقفه الدفاعي في منعه: ابا سلمة بن عبد اسد المخزومي^(١) واجارته فقد ذكر ارباب السير: ان ابا سلمة حينما بادر الى الاسلام دون ذويه وبني قومه وثب عليه قومه ليعذبه ويفتنوه عن الاسلام ويصدونه عن رسول الله ﷺ فهرب منهم واستجار بابي طالب بحكم صلته الصهرية به حيث ان ام ابي طالب شقيقه: عبد الله والزيبر مخزومية فاجاره ابو طالب من بني مخزوم وحماه ومنعه.

فمشى اليه رجال من بني مخزوم وقالوا له: يا ابا طالب هبك منعت منا: ابن اخيك محمدا فما لك ولصاحبنا تمنعه منا ؟

فانتفض ابو طالب في وجوههم قائلا: انه استجار بي منكم وهو ابن اختي وان انا لم امنع ابن اختي لم امنع ابن اخي؟

ودارت بينه وبينهم مشادات كلامية وارتفعت أصواتهم وأصواته فابتدر أخوه أبو لهب ولم يكن ينصره قبل هذا الحين ولا بعده فصاح بالقوم: يا معشر قريش والله لقد أكثرتم الكلام على هذا الشيخ ولا تزالون تتوثبون عليه في جواره من بين قومه أما والله لتنتهين عنه، أو لنقومن معه فيما قام فيه حتى يبلغ ما يريد.

فتراجعوا عن موقفهم، وقالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة؟

(١) واسمه عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو المخزومي. وقد اشتهر بكنيته دون اسمه، هو زوج ام سلمة قبل النبي ﷺ، وهو ابن عمه النبي ﷺ. أمه: برة بنت عبد المطلب وكان في الطفيلة من السابئين الى الاسلام والمعتدين فيه، ومن المهاجرين الهجريين، إلى الحبشة وإلى المدينة وشهد مع النبي ﷺ بدرًا وأحداً، وتوفي بعد منصرفه من أحد بعدة أشهر (على الاصح) بسبب جرح كان قد أصابه فيها.

ثم قاموا وانصرفوا عن أبي طالب وتركوا أبا سلمة اتقاء من أبي لهب وحفاظاً على ولاته، حيث كان ولياً لهم ومعيناً على رسول الله وأبي طالب^(١).

وبعد أن انصرف القوم خلا أبو طالب بأخيه أبي لهب وطمع في هدايته حتى سمع ما سمع من كلامه مع القوم، وأمل أن يقوم معه في نصرة رسول الله محمد ﷺ وإسلامه فجعل يحثه ويحرضه على نبذ الشرك والإزدلاف إلى الاسلام، وهو يقول:

عجبت لحلم يابن شيبه عازب	وأحلام أقوال لديك سخاف ^(٢)
يقولون: شايح من أراد محمد	بسوء وهم بأمره بخلاف ^(٣)
أضاميم: إما حاسد ذو خيانة	وإما قريب منك غير مصاف ^(٤)
فلا تركب الدهر منه ظلامه	وأنت امرؤه من خير عبد مناف
ولا تركفه ما حبيت لمعظم	وكن رجلاً ذا نجدة وعفاف
يذود العدى عن ذروة هاشمية	ألا فهم في الناس خير إلا ^(٥)
فإن له القربى لديك قريبة	وليس بذئ حلف ولا بعفاف
ولكنه في هاشم في صميمها	إلى أبجر فوق البحور طوافي ^(٦)
وزاجم جميع الناس عنه وكن له	وزيراً على الأعداء غير مجاف
وإن تحببته منه قريش فقل لها	بني عمنّا ما قومنا بضعاف ^(٧)

ومن موقفه لنصرة الإسلام: غضبه لعثمان بن مظعون حينما أخذ هو الآخر يقف في

(١) الدرجات الرفيعة، ص ٤٥ ط النجف

(٢) العلم بالكسر: العقل، والعازب: البعيد والخفي، وسخاف بالكسر: جمع سخيقة وسخيف وهو الضعيف والضيعة.

(٣) شايحه: تابعه واللاه على أمر وفي شرح التهج: (يظلم) بدل (يسوء)

(٤) أضاميم: جمع اضمامه بالكسر، وهي الجماعة، والمصافي: المخلص في الود.

(٥) يذود: يدفع ويطرده، والذروة (بالكسر): أعلى الشيء، واللاه لاف (بالكسر) كالمؤالفة: المعاشرة بالعسنى والمؤانسة.

(٦) في إيمان أبي طالب عجز البيت هكذا: (إلى أنجم فوق النجم ضوافي)

(٧) إيمان أبي طالب لابن معد الموسوي: ص ٣٤٢-٣٤٣ ط النجف، وشرح التهج للمحدثي: ج ١٤ ص ٥٧-٥٨ دار إحياء

الكتب العربية وفيه زيادة ببعض الأبيات، وديوان أبي طالب المطبوع، وفي السيرة لابن هشام: ج ١ ص ٣٧١ ط ثانية ذكر

القصة وأبيات ميمية غير هذه الأبيات لاحظ.

مجاميع قريش وأنديتهم يعظهم ويحثهم على اعتناق الاسلام واتباع الرسول ﷺ وتصديقه، ويحذرهم النار وعذاب الآخرة حتى انهال عليه سفهاؤهم بالسبب والضرب ففقأوا عينه وأجروا دمايته .

فمر أبو طالب ورآه بتلك الحالة من التعذيب فانتفض في وجه القوم وسبهم وفرقهم عنه وأخذ له بحقه^(١)، وقال في ذلك..

أصبحت مكتئباً أبكي لمحزون ^(٢)	أمن تذكر دهر عمير مأمون
يفشون بالظلم من يدعو إلى	أمن تذكر أقولم ذوي سله
ألا يـرون أذل الله جـمعهم	الدين ^(٣)
ونمنع الضيم من يبغي مضامتنا	أنا غضبنا لعثمان بن مظعون
ومرهفات كان الملح خالطها	بكل مطرد في الكف مسنون ^(٤)
حتى نظر الرجال لا حلوم لهم	يشفي بها الداء من حام المجانين
أو يؤمنوا بكتاب منزل عجب	بعد الصعوبة بالإسماع واللين ^(٥)
	على نبي كموسى أو كذي النون ^(٦)

ومواقفه الإسلامية: موقفه الصارم مع ابن الزبير^(٧)، وموجز القصة كما يرويها ابن معد

(١) في بعض المصادر: أخذ أبو طالب منهم دية عينه، وفي بعضها فقأ عين الذي فقأ عينه.

(٢) في شرح النهج للحديدي: (أصبحت مكتئباً تبكي كمحزون) بصيغة الخطاب.

(٣) غشيه وغشاه بكذا، ألم به وغطاه، ويريد من الدين الاسلام.

(٤) الضيم: الظلم والذل، والمطرود بالفتشديد: الطويل المعتدل، والمستون: المركب فيه سنان وهي حديدته، الرمح والمراد: الرمح.

(٥) الحلوم بالضم: جمع الحلم بالكسر وهو العقل.

(٦) شرح ابن أبي الحديد: ج ١٤ ص ٧٣-٧٤ ط دار إحياء الكتب العربية، وإيمان أبي طالب ص ٢٢١-٢٢٢ ط النجف.

والدرجات الزهية للسيد عليخان: ص ٥٣ ط النجف، وديوان شعر أبي طالب المطبوع، والتذير للأهني: ج ٧ ص ٣٥٧ ط ثانية بطهران.

(٧) أبو سعد عبد الله بن الزبير يفتح فكسر بن عدي بن قيس السهمي القرشي، أحد شعراء قريش في الجاهلية، كان شديداً على النبي ﷺ وإسلامه وعلى المسلمين، فكان يهجوهم ويحرض المشركين على قتالهم في واقعة أحد، وهو صاحب القصيدة اللامية المشهورة والذي قالها شحاتة بقتل حمزة في عهد المطلب وجماعة من شهداء أحد، وهي التي تمثل بعض

الموسوي في كتابه عن الاصبغ بن ن^(١) كباته عن امير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: «مرُّ رسول الله ﷺ بنفر من قريش وقد نصرُوا جزوراً وكانوا يسمونها الظهيرة ويذبحونها على النصب^(٢)، فلم يسلم النبي ﷺ عليهم وحسب بوجهه عنهم، فلما انتهى إلى دار الندوة وكانوا مجتمعين فيها قال بعضهم لبعض^(٣)، يمر بنا يتيم أبي طالب فلم يسلم علينا؟ فايكم يأتيه فيفسد عليه صلاته؟ فابتدر ابن الزبير من بينهم، فقال: أنا أفعل ذلك، فأخذ فرساً^(٤) ودماً من موضع الذبح والنحر وانتهى، إلى النبي ﷺ وهو ساجد بأزاء الكعبة فألقى الفرث والدم على ظهره وملأ ثيابه ولطخ به مظاهره ووجهه، فانصرف النبي ﷺ من مصلاه وانطلق إلى عمه أبي طالب بتلك الحالة وكان في منزله، فوقف عليه قائلاً يا عم من أنا؟ قال أبو طالب: ولم يابن أخ؟ فقص عليه النبي ﷺ قصته مع قريش وآثار الفرث والدم تَوَمَّن على ما يقول، فغضب أبو طالب وقال له: يابن الأخ أين تركتهم؟ فقال النبي ﷺ: تركتهم مجتمعين بالأبطح.

→ أبياتها يزيد بن معاوية حينما وضع رأس الحسين أمامه وأضاف إليها بعض الأبيات التي تدل على كثره وإحاده كقوله .
(لمبت هاشم بالملك فلا خير جاء ولا وحي نزل)، كما استحدث عنها رعاية أمره: أنه أظهر القوة والاسلام على يد النبي ﷺ بعد الفتح واعتذر إليه عما صدر منه فقبل النبي ﷺ توبته وعذره وحياه، فجعل ابن الزبير يمدحه بعد ذلك في شعره فأمر له النبي ﷺ بحملة ثمينة، إلى أن مات سنة (١٥) للهجرة، ولنا بعد ذلك عوده إلى ترجمته في بعض الفصول الآتية من الكتاب.

(١) الأصبغ بن نياته بالضم التميمي المجاشعي الكوفي ومن عليه من التابعين ومن خواص امير المؤمنين عليه السلام ومن شرطة الخميس بالكوفة. وكان من أهل الفضل والمعرفة ومن ثقات الرواة، عاش بعد علي عليه السلام وروى عنه: عهده لما لك الأشتر ووصيته لولده محمد بن الحنفية وكيفية موقفه في صفين، وكيفية مقتل ووفاء أمير المؤمنين عليه السلام، وبعض المناقب والأدعية.

(٢) من معاني النصب بضمتين ويضم فسكون: ما عبد من دون الله من التماثيل جمعه أنصاب.

(٣) في بعض المصادر كالفدير: أن القاتل هو أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي. وكان من أشد الناس عداءة للنبي ﷺ وللمسلمين، وكان يثير المشركين إلى النبي ﷺ وأصحابه ولا يتر عن سبهم الفاحش والكيد لهم وايدائهم وصوف الاذى حتى ورد عن النبي ﷺ وللمسلمين، وكان يثير المشركين على النبي ﷺ قوله: (إن أبا جهل أعتى على الله عز وجل) من فرعون، فان فرعون لما أيقن بالهلاك وحده الله ولين هذا لما أيقن بالهلاك دعا باللات والعزى واخباره في هدائه للنبي ﷺ وللمسلمين مفصلة في كتب السير. وعاقبة أمره: أنه كان من طلائع المشركين في واقعة بدر وقتل فيها أو بعدها بأيام سنة (٢) للهجرة.

(٤) الفرث (بالفتح) سرجين الدابة ما دام في الكرش.

وهنا انتقل أبو طالب وخرج من داره مسرعاً وأخذ ينادي بصوت رفيع: يا آل عبد المطلب، يا آل هاشم، يا آل عبد مناف.

فتراكضوا إليه من منازلهم ومجتمعاتهم ملبيين نداءه، واجتمعوا حوله وهم أربعون رجلاً أو أكثر ووقفوا أمامه ينتظرون أمره فيما يريد .

فأمرهم بأخذ السلاح والانطلاق معه، ثم جاء بهم والنبي معه إلى أولئك نفر من قريش. فلما رأوه وقومه أحسوا بالخطر وحاولوا التفرق والفرار

فصاح بهم أبو طالب قائلاً: ورب هذه البنية وأشار إلى الكعبة لا يقوم من منكم أحد إلا جلته بالسيف^(١).

ثم إنه أتى إلى صفاة كبيرة^(٢) كانت بالأبطح فضربها ثلاث ضربات حتى قطعها ثلاث قطع وحمل القطع معه ثم أقبل على القوم والتفت إلى النبي ﷺ قائلاً: أيهم الفاعل بك هذا؟

فأشار النبي إلى ابن الزبير وكان متخفياً بينهم فاستله أبو طالب من بينهم فرجاً أنفه بالحجر^(٣) أو بالسيف حتى أدماها، ثم أمر بالفرت والدم فأمره على الملاء جميعهم فطبخ به وجوههم ولحاهم، وأساء لهم القول وهم صاغرون صامتون

ثم التفت إلى النبي ﷺ وقال له: أرضيت يا بن أخ؟ قال سألتني: من أنا؟ أنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ... وأخذ يسلسل نسبه الشريف إلى آدم عليه السلام.

ثم قال له: أنت والله أشرفهم حسباً وأرفعهم منصباً ثم توجه نحو القوم؟ وقال: يا معشر قريش من شاء منكم أن يتحرك فليفعل؟ أنا الذي تعرفوني؟

وانكفاً راجعاً والنبي معه وآله محدقون به إلى منزله^(٤)، ثم جعل يخاطب النبي ويقول له:

أنت النبي محمد
لعمري وأنت
أنت الذي تعرفوني؟ أنا الذي تعرفوني؟

(١) جلال الشيبه بكذا: صممه وغطاه به.

(٢) وجأ الرجل باليد أو بالسيف ونحوهما: إذا ضربه بذلك في أي موضع من بدنه.

(٣) إيمان أبي طالب لابن عبد الواسطي: ص ٣٤٦ - ٣٤٨ ط النجف، واقتضب القصة الاميني في التذير، ج ٧ ص ٣٥٩ وأوائل

الجزء الثامن منه ط ثانية بطهران.

(٥) القرم بالسكنين: السيد العظيم، والأغر: الكريم الفعال والحسن من كل شيء.

نعم الأرومة أصلها	عمرو الخضم الأوهـد ^(١)
هشم الربيعة في الجفان	وعيش مكة أنكد ^(٢)
فجزت بذلك سنئ	فبها الخبيزة ثرد ^(٣)
أنسى كضام ولم امت	وأننا الفسجاج العريد ^(٤)
وبخو أببك كأنهم	أنسئ العرين نوكد
شم قماقة، غيوث ندى،	بحار تـزبد ^(٥)
ولقد عهدتكم صادقاً في	القول لا تـزيد
ما زلت تنطق بالصواب	وانت طفل أمرد ^(٦)

ومن مواقفه الإسلامية الحاسمة: ما ذكره عامة أهل السير عنه قالوا: لما رأى المشركون من النبي ﷺ: إصراره على إظهار الدعوة إلى الله ومواصلته في مواجهة الشرك والإلحاد، ورأوا من أبي طالب: محاماته عنه وقيامه دونه وحده عليه وامتناعه من تسليمه إليهم، ولما رأوا ذلك كله مشى إليه نفر من وجوه قريش منهم: عتبة، وشيبة ابناربيعة بن عبدشمس، وأبوسفیان صخر بن حرب بن أمية، وأبوالبختري (العاص) بن هشام بن الحارث بن أسد، والأسود بن عبدالمطلب بن أسد، والوليد بن المغيرة بن عبد

(١) الأرومة أو بفتح فضم: أصل الشجرة وجذورها، ويريد به (عمرو) جده: هاشم بن عبد مناف بن قصي، والخضم بالكسر فالتفتح: الكريم، الكثير العطاء.

(٢) الربيعة بالتفتح: الزيدة المغلوطة باللين، أو الطعام المصقول من التمر. والأخط الأسمن، وهو هنا كناية عن الغيز والرق. والجفان بالكسر: جمع الجفنة بفتح فسكون وهي القصعة الكبيرة، والأكد: الصفة من التكدر وهي الثقلة في المال والتظلف في العيش.

(٣) الخبيزة على فحيلة، الخيز يقال: ترد الخيز، إذا فته، وقته في المرق.

(٤) العريد عل فطل في الأصل: حية عظيمة تواتب الفارس وهو على فرسه، وهنا كناية عن الشجاعة والقوة.

(٥) شم بضم فتشديد: جمع اسم وهو السيد ذو الأثقة والكرم، وقماقة (بفتح القاف الأولى وكسر الثانية) كالمقام على مفاعل: جمع لقمام بفتح او ضم فسكون وهو السيد الشريف والكثير العطاء، وغيوث كأغياث: جمع غيث وهو المطر والندى بالفتح والقصر: الكرم والمطر.

(٦) إيمان أبي طالب الموسوي: ص ٢٨١ ط التنجف، والدرجات الرفيعة للسيد عليخان: ص ٥٣، والندى للأميني: ص ٣٣٦، وشرح النهج للحديدي: ج ١٤ ص ٧٢ ط دار إحياء الكتب العربية باختلاف بسيط بينها في كمية الأبيات وكيفيةها.

الله المخزومي، وأبو جهل «عمرو» بن هشام بن المغيرة المخزومي، والعاص بن وائل السهمي، ونبيه بالتصغير ومنبه بضم الميم وفتح الباء ابنا الحجاج (بالتشديد) بن عامر السهمي وأمثالهم من رؤساء قريش .

فلما حضروا عند أبي طالب قالوا له بصوت واحد: «يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلل آراءنا فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه؟» فقال لهم أبو طالب قولاً رفيعاً، وردّهم ردّاً جميلاً فانصرفوا عنه راضين من لطف قوله وجميل رده.

ومضى رسول الله ﷺ على ما كان عليه من إصراره في مواصلة الدعوة إلى الله وإظهار دينه ونبذ عبادة الأوثان، فتضاغت^(١) قلوب قريش عليه واشتد تذرهم من استمراره في إعلان أمره وعدم اكترائه بمعارضتهم

حتى أخذوا يتداولون فيما بينهم ذكره ويحض بعضهم البعض على التنكيل به. ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب (للمرة الثانية) بجمع أكثر وبنحو أشد فقالوا: «يا أبا طالب إن لك سنّاً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استهيناك^(٢) من ابن أخيك فلم تنهه عنا (والله) لا نصبر على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا فإما أن تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك^(٣) حتى يهلك أحد الفريقين»، وأغلظوا له الكلام وأنذروه وانصرفوا عنه «مغضبين».

وهنا عظم على أبي طالب فراق قومه وعداءهم له حفاظاً على منزلته عندهم ليستفيد من وراء ذلك: الحفاظ على النبي ودعوته.

ولكنه في عرض ذلك لم تطب نفسه المؤمنة بإسلام ابن أخيه لهم وخذلانه إياه، فإن معنى ذلك: القضاء على حياته ووأد رسالته في مهدها.

وحديثه نفسه أن يطلب من ابن أخيه: التخفي في دعوته والتخفيف من إصراره ريثما تهدأ فورة قريش وتبرد غلواؤها وشدتها.

فبعث بدوره إلى النبي ﷺ أن يأتيه، وسرعان ما جاء محمد ﷺ ليسمع من عمه

(١) تضاغن القوم: اشتادوا وقابلوا الأحقاد بالأحقاد. (٢) استهيناك: استغفال من النبي، ومعناه: طلبنا منك الإتياء.

(٣) نازله منازلة: نزل إلى مقاتلته ومعارضه.

وكافله ما يريد.

وإذا بأبي طالب يقول لابن أخيه بهدوء وطمأنينة: «يا ابن أخي إن قومك قد جاوزوني فقالوا لي: كذا وكذا».

وطلبوا مني أن أكلمك في تركك توهين الأصنام وتسفيه الأحلام، ثم قال له: فابق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيقه، فقد أذروني وإياك المناجزة إن أنت واصلت إصرارك فيما أنت عليه.

وبعد أن انتهى أبو طالب من كلامه نظر إليه النبي ﷺ وظن أنه قد بدا لعمه في نصرته والقيام دونه، ثم انفجر بقوله غير آبه بحراجة الموقف: «يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه».

ثم أخذته عواطف اليتيم والوحدة ولوح له الشعور بخذلان الناصر فاستعبر باكياً ولم يستطع الوقوف أمام عمه الكريم بتلك الحالة فانصرف راجعاً إلى حيث جاء.

فناداه عمه وهو يتفايض ألماً وعاطفة: أقبل يا بن أخي؟

وألح عليه بالنداء حتى رجع النبي ﷺ ووقف أمام عمه ساكناً ينتظر منه القولة الأخيرة والموقف الحاسم اتجاهاً وتجاه رسالته؟

وإذا بأبي طالب يقف إلى جانب ابن أخيه في موقف الإيمان الصارخ، ويتصلب أمام الحفاظ على حمايته ونصرته كما تصلب هو أمام الإصرار في دعوته وإظهار رسالته، فيقول لابن أخيه ليشليج صدره: إذهب يا بن أخي فقل: ما أحببت؟ فوالله ما أسلمك لشي أبداً^(١).

ثم اندفع أبو طالب في وجه ابن أخيه قائلاً:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غشاضة وابشر بذاك وقر منه عيوننا

(١) شرح التهج للعهدي: ج ١٤ ص ٥٣-٥٤ دار احياء الكتب العربية، والدرجات الرفيعة للسيد عليخان: ص ٤٣-٤٤ ط

التجف، وسيرة ابن هشام: ج ١ ص ٢٦٦-٢٦٧ ط ثانية بمصر. والفدير للأميني: ج ٧ ص ٣٥٩ ط ثانية بطهران، وكامل ابن

الانير: ج ٢ ص ٤٢-٤٣ ط بيروت، ونهاية الأرب للنويري ج ٦ ص ١٩٩-٢٠٠ ط مصر دار الثقافة.

ودعوتني وزعمت إنك ناصحي ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت ديننا قد علمت بأنه من خير أديان البرية ديناً^(١)

قالوا: وانتقل النبي ﷺ عن عمه وقد امتلأت نفسه المطمئنة ثقة عميقة بأن عمه لن يتأخر قيد شعره عن نصرته وحمايته، فجعل يستمر بالإصحار بالدعوة إلى عبادة الله ونبذ عبادة الأوثان غير مبال بإيذاء المشركين ونكاية المنافقين. وكذلك جعل عمه هو الآخر يستمر مع ابن أخيه في الأخذ بعضده والمكافحة عنه وعن اسلامه ومواجهة طغاة قريش وسفهاء العرب.

حتى إذا ضاقت قريش مع إصرار محمد ﷺ في إعلان ما يكرهون ومن إصرار أبي طالب في دفاعه عما يكيدون، واستيقنوا أن أبا طالب لا يغذل ابن أخيه ولا يتخلى عن نصرته ولا يسلمه إليهم .

فعند ذلك كثروا على أبي طالب هذه المرة ولعلها الثالثة أو الأكثر بأسلوب الإغراء والاستعطاف والنفاق المبطن.

فمشوا إليه ومعهم عمارة بن الوليد بن مغيرة المخزومي، وهو يومئذ أجمل فتى وأنداه في قريش، حتى إذا جاؤوه.

قالوا له: «يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد وهو كما تراه أنه فتى في قريش وأجمله فضده إليك فأتخذه ولداً، فهو لك عقله ونصره^(٢) واسلم لنا بدله: ابن أخيك الذي قد خالف دينك ودين آبائك^(٣)، وفرق جماعة قومك وعشيرتك وسفه أحلامهم فخل بيننا وبينه فلنقتله؟ فإنما هو رجل

(١) شرح النهج للمحدي: ج ١٤ ص ٥٥، والقدیر للأميني: ج ٧ ص ٣٣٤ ط النجف، وخزانة الأدب للبغدادي: ج ١ ص ٢٦١ ط مصر لاريني دحلان: ص ١٠ ط مصر، وتفسير الكشاف للزمخشري: ج ١ ص ٤٤٨، وديوان أبي طالب المطبوع وغيرها من المصادر.

وفي بعضها: صدر البيت الثاني هكذا: (فانفذ لأمرك ما عليك مخافة)

وفي بعضها: ثبت صدر البيت الرابع هكذا: (ولقد علمت بأن دين محمد)

وفي بعضها: إضافة بيت خامس للأبيات الأربعة، وفي بعضها نفي نسبته إلى أبي طالب فلاحظ.

(٢) وكان النبي في الجاهلية كالبينة في صلة النسب والأخبار المترتبة عليه.

(٣) ولم يكن دين النبي ﷺ مخالفاً في جوهره دين أبي طالب وآبائه، فلقد كانوا على دين جددهم إبراهيم عليه السلام من العنفية

برجل»

فقال لهم أبو طالب وقد استشاط غضباً: «والله ما أنصفتكموني ولبس ما تسوموني ويلكم؟ أتمعلوني ابتكم: اغذوه لكم وأعطيك ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً».

فبدر من بينهم: المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف وكان صديقاً مضافاً لأبي طالب فقال له: والله يا أبا طالب لقد أنصفتك قومك وجهدوا في التخلص مما تكرهه^(١) فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً؟

فقال أبو طالب: «والله ما أنصفتني القوم ولا أنصفتني أنت ولكنك قد أجمعت على خذلاني ومظاهرة القوم وإعانتهم علي فاصنع الآن ما بدا لك كما يصنعون؟»

فعند ذلك انصرف القوم عن أبي طالب آيسين من نجاح محاولاتهم المتكررة في نهى ابن أخيه عن الاستمرار في دعوته أو تسليمه لهم لينكلوا به، فتنازدا واثارت فيهم الأحقاد وحضّ بعضهم البعض وتذامروا فيما بينهم على من كان في القبائل من المسلمين الذين اتبعوا محمداً ﷺ، فوثبوا عليهم ليعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم فمنع الله تعالى رسوله ورسالته بأبي طالب، فانه لما رأى قريشاً تصنع ما تصنع من التعذيب والتنكيل بالمسلمين من قبائلهم، قام في بني هاشم وبني المطلب فدعاهم إلى ما صمم عليه: من منع المشركين في ذلك، فاجتمعوا إليه وقاموا معه واستجابوا إلى ما دعاهم إليه ولم يتخلف عنه في ذلك إلا أخوه أبو لهب فقد اتحد مع المشركين في مناوأته وعدائه للرسول ﷺ والمسلمين .

فأخذ أبو طالب يؤنبه بشعره طمعاً في أن يحرك حفيظته ويستميله إلى الحق، فكان يقول له «في بعض شعره» الأبيات التي أولها:

حديث عن أبي لهب أتاناً وكأنه على ذاكم رجال

→ البيضاء قبل ظهور الإسلام، وأما بعد ظهوره فدين أبي طالب وعموم بني هاشم باستثناء أبي لهب هو الإسلام.

(١) إنما ينظر الرجل عما ينظري عليه ضميره المنحرف بتخيل أن أبا طالب يكره ما جاء به النبي ﷺ من الإسلام بحكم تخفيه في إيمانه عن المشركين كما أثبتناه.

وغيرها من الآيات مما حواه ديوانه المطبوع^(١)
قال المؤرخون: لما أجاب أبو طالب قريشاً بما أجابهم هذه المرة بالشدة طلبوا إليه أن يرسل إلى ابن أخيه محمد ﷺ ليعطوه النصف فيما يقرحون عليه؟
فجاء النبي ﷺ إلى عمه والجماعة مجتمعون حوله.
فلما حضر النبي ﷺ واستقر به المجلس التفت إليه أبو طالب فقال: يا ابن أخي هؤلاء عمومك وأشرف قومك وقد أرادوا ينصفونك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: قولوا أسمع؟ قالوا: تدعنا وأهتنا وتدعك وأهتك؟
وهنا التفت أبو طالب لابن أخيه وقال: قد أنصفك القوم فاقبل منهم.
وانتنفض النبي ﷺ في وجوههم وقال: «أرايتكم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطي كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم»، فانتقل أبو جهل من بين الحاضرين معترضاً على كلمة النبي ﷺ وقال: إن هذه لكلمة مريضة، نعم وأبيك لنقولها وعشرة أمثالها قال: قولوا: «لا إله إلا الله».

فاشمئز القوم ونفروا وغضبوا وقاموا وهم يقولون: «واصبروا على آلهتكم إن هذا لشي يراد»، وقالوا: إن الذي تكلم بها عقبه بن أبي معيط وقالوا: لا نعود إليه أبداً وما خير من أن نقتل محمد.

فلما كان من تلك الليلة قعد رسول الله ﷺ وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع أبو طالب بدوره فتياناً من بين هاشم وبني عبد المطلب ثم قال: لياخذ كل واحد حديدة صارمة لم ليتبعني إذا دخلت المسجد فليجلس كل فتى منكم إلى عظيم من عظمائهم فيهم ابن الحنظلية يعني أبا جهل، فإنه لم يرغب عن شر إن كان محمد قد قتل.

فقال الفتيان: نفعل، فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال: يا زيد احسست ابن أخي، قال: نعم كنت معه آنفاً، فقال أبو طالب: لا أدخل بيتي أبداً حتى أراه. فخرج زيد مسرعاً حتى أتى رسول الله ﷺ وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه

(١) شرح النهج للحيدري: ج ١٤ ص ٥٦-٥٥، والدرجات الرفيعة: ص ١٤-١٥، وسيرة ابن هشام: ج ١ ص ٢٦٦-٢٦٧، والفدير

للأميني: ج ٧ ص ٣٥٩-٣٦٠، وكامل ابن الأثير: بالمصدر الآنف.

يتحدثون، فأخبره الخبر فجاء رسول الله ﷺ إلى أبي طالب فقال له أبو طالب: يا بني أخي أين كنت؟ أكنت في خير؟

قال: نعم، قال: ادخل بيتك، فدخل رسول الله ﷺ فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي ﷺ فأخذه بيده ووقف على أندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبون فقال: يا معشر قريش هل تدرون ما هممت به؟ قالوا: لا.

فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان اكشفوا عما في أيديكم فكشفوا فإذا كل رجل معه حديدة صارمة، فقال: والله لو قتلتموه ما بقيت منكم أحداً حتى نتفاني نحن وأنتم، قال الراوي: «فانكسر القوم وكان أشدهم انكساراً أبو جهل» عن نهاية الأرب للنويري ج ١٦ ص ٢٠١-٢٠٢ ط مصر.

ثم قال النووي بعد ذلك عن ابن اسحاق وسيرة ابن هشام: ولما أيسر قريش من أبي طالب وأنه لا يخذل رسول الله ﷺ لا يسلمه أبداً تأمروا بينهم على من في القبائل من أصحاب رسول الله ﷺ والذين أسلموا معه فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم.

فقام أبو طالب بدوره حينما رأى قريشاً يصنعون ذلك في بني هاشم وبني عبد المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه: من منع رسول الله ﷺ من قريش والقيام دونه؟ فقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه من المنع والنصرة إلا ما كان من أبي لهب فإنه تمادى على غيئه وكفره إلى أن هلك.

● أبو طالب وصحيفة قريش

ومن مواقفه الإسلامية: ثباته في مواجهة قريش في سبيل حماية النبي ﷺ وقيامه دونه فقد أعياه أمر النبي ﷺ وأمره، فلا محمد بالمترجع عن مواصلة الدعوة إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأوثان ولا أبو طالب بالمترخي عن نصرة ابن أخيه فيما يدعو إليه. فكانت آخر محاولة من قريش: أن اتمرت بعامة بطونها فكتبت صحيفة كبيرة وقعتها ثمانون رجلاً منهم، وتحتوي الصحيفة على بنود مقاطعة أبي طالب وعموم بني هاشم في المبايعات والمناكحات والمجالسات وما إلى ذلك من وشائج الصلات طالما لا

ينتهي محمد ﷺ من استمرار دعوته وأبو طالب من استمرار نصرته.

وكتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي^(١). وكان ذلك بعد مبعث النبي محمد ﷺ بست سنين تقريباً، فتعاقدت قريش على الالتزام بها وعدم نقضها.

فعند ذلك: انحازت بنو هاشم «باستثناء أبي لهب» وبنو المطلب إلى، أبي طالب فدخلوا معه في الشيعب^(٢).

وضيقت قريش الحصار عليه فلا يخرج منهم أحد ولا يدخل إليهم أحد، وخرج أبو لهب إلى قريش وظاهرهم على بني هاشم وبني المطلب، وقطعوا عنهم الميرة والمادة فكانوا لا يخرجون من موسم إلى موسم حتى بلغ منهم الجهد مبلغه وسمعت أصوات صبيانهم من وراء الشعب، فمن قريش من سره ذلك ومنهم من ساء ذلك، وضاق الأمر بأبي طالب وقومه فانفقوا جميع ما عندهم من مال وغذاء حتى بلغ بهم الأمر إلى منتهى الفاقة وعدم القوت، إلا النزر القليل، مما كان يتسرب إليهم من هنا وهناك على خفية من قريش ورقبة عيونهم.

وبقي الأمر على هذا ونحوه من الحصار الاجتماعي والاقتصادي يشتد يوماً بعد آخر إلى مدة ثلاث سنين على الأصح.

فأرسل الله الأرضه^(٣) فأكلت عامة أطراف الصحيفة المشتملة على بنود الظلم

(١) هكذا في عامة المصادر التي ذكرت الصحيفة، وفي بعضها أن اسمه بغيض بن عامر وفي البعض الآخر: أنه طلحة، وفي البعض الآخر: أنه النضر بن الحرث، وفي البعض الآخر: غير ذلك وعلى كل فعادة المصادر تذكر أن كاتب الصحيفة بعد ذلك شلت يده وبقي كذلك إلى أن مات.

(٢) الشيعب بالكسر فالمكون: الطريق في الجبل أو ما انفرج بين الجبلين، وفي مجيئ البلدان للحموي (بمادة شيعب) يسمى ذلك الشيعب بشيعب أبي يوسف، ويقول: هو الشيعب الذي آوى إليه رسول الله ﷺ وبنو هاشم لما تحالفت قريش على بني هاشم وكتبوا الصحيفة وكان لعبد المطلب قسم بين بني هاشم وبين بني هاشم، وكان النبي ﷺ قد أخذ حظ أبيه وكان هو منزل بني هاشم ومسكنهم.

وأقول: وقد عرف ذلك الشعب بعد ذلك بشعب أبي طالب.

(٣) الأرضة بفتح الحين: دويبة صغيرة كنصف المدسة تأكل الخشب ونحوه، ويقال لها (السرلة) بالسين والراء.

والقطيعة وتركتم ما فيها من اسم الله.

فأوحى الله تعالى إلى نبيه الكريم وهو في الشعب على لسان أمينه جبرئيل فأعلم النبي ﷺ: عمه أبا طالب بذلك فتيقن أبو طالب صدق الخبر فخرج من الشعب ومعه بعض فتيان قومه إلى البيت الحرام وكانت قريش جلوساً عنده، فلما بصروا به ومعه بعض بني هاشم من بعيد ظنوا أنهم إنما خرجوا من الشعب لشدة البلاء عليهم فخضعوا لتسليم النبي ﷺ وخذلانه.

فقالوا لأبي طالب: «أيها القوم إنما أتيتكم بأمر نصف بيننا وبينكم: هذا ابن أخي أخبرني: أن الله أرسل الأرضه على صحيفتكم فأكلت ما فيها من ظلم وقطمية رحم وتركتم اسم الله تعالى فأحضروها، فإن رأيتموها كما قال فاعلموا أنكم على باطل في مقاطعتكم لنا، ولا والله لا نسلمه إليكم حتى نموت عن آخرنا، وإن رأيتموها كما هي سالمة علمنا أنكم أصحاب حق في مقاطعتكم لنا ونتخلى عن محمد ونسلمه إليكم»، فتراضوا على ذلك وتعاهدوا عليه.

ثم إن أبا طالب جاء حتى وقف بين أستار الكعبة ورفع وجهه ويده، إلى جهة السماء وجعل يقول: «اللهم انصرننا على من ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل ما يرحم عليه منا»، ثم انصرف بمن معه من بني هاشم، إلى حيث كانوا من الشعب، وتلاوم رجال من قريش، على ما صنعوه ببني هاشم فيهم مطعم بن عدي، وعدي بن قيس، ورفعته بن الأسود، وأبو البختری بن هشام، وزهير بن أبي أمية، ولبسوا السلاح ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب فأمرهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا، وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة من النبوة.

ولقد شاء الله إبطال الصحيفة والإفراج عن أبي طالب وقومه من الضيق الذي كانوا يعانونه طيلة تلك المدة.

فإذا بنفر من علية قريش يتيقظ فيهم ضمير الإنسانية ووازع الرحم فيقومون بدور الإفراج عن بني هاشم أحسن قيام، وكان من احسنهم بلاء في هذا المضمار: هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب من بن عامر بن لؤي، وهو جابر أخي نضلة بن

هاشم بن عبد مناف لأمه^(١)، فهو محسوب على بني هاشم من هذه الجهة، وكان شريف قومه «بني عامر بن لؤي»، وكان من المضطلع باستمرار لا يصال الطعام إلى بني هاشم سراً طيلة هذه المدة.

قالوا: وبعد أن رأى هاشم بن عمرو: طول هذه المدة وضيق الشدة على بني هاشم في الشعب مشى إلى زهير بن أبي أمية «حذيفة» بن المغيرة بن عبد الله المخزومي أخي أم سلمة هند زوج النبي ﷺ، وأُمّها: عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم على المشهور بين النسابين، فزهير على هذه الصلة من المحسوبين على بني هاشم فجعل يثير حفيظة زهير للسعي في الإفراج عن بني هاشم، فكان مما قاله له: «يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتكح النساء؟ وأخوالك حيث قد علمت لا يبتاعون ولا يبتاع إليهم ولا يواصلون ولا يزارون»

فاستجاب له زهير وطلب منه أن يبغى لهم ثالثاً؟

فذهب هاشم على الفور إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، والمطعم هذا محسوب على بني هاشم والمطلب من حيث العمومة^(٢) فكلّمه في الأمر وقال له: أرضيت أن يهلك بطنان^(٣) من عبد مناف جوعاً وجهداً^(٤)، وأنت شاهد ذلك موافق عليه؟

أما والله لئن أمكنتموهم ويقصد أولئك نفر من قريش الذين وقعوا الصحيفة من هذه أي المقاطعة لتجدنهم إلى غيرها منكم أسرع.

فاستجاب له المطعم وطلب منه أن يبغى لهم: رابعاً؟

فانطلق هاشم بدوره إلى أبي البختري «العاص» بن هاشم بن الحرث بن أسد بن عبد العزى فقال له: نحواً ما قاله للمطعم، فاستجاب له وطلب منه خامساً لهم.

فأتى هاشم إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى. فكلّمه بنحو ما

(١) وهي أمية: بالتصغير بنت عدي بن عبد الله كما عليه البقوي في تأريخه ج ١ ص ٢١٥ ط النجف، وسميها صاحب

(المعبر ص ٣٠٦) بيروت (صهال) بالكسر وبمدها من الحبشيات

(٢) حيث إن هاشم والمطلب وعبد شمس أشقاء من أم واحدة. هي عاتكة بنت مرة السلمية، ونوفل أخوهم من أبيهم، وأمه:

واقده بنت عمرو (أو عامر) المازنية. (٣) يقصد بالطنين بني هاشم وبني المطلب (تثقيقه).

(٤) الجهد بالضم أو الفتح فالسكون، ومن معانيه: الطاقة والمشقة.

كلّم القوم، وسمى له الذين استجابوا له وذكره بقرابته من بني هاشم والمطلب فاستجاب له زمعه، ثم اجتمع أولئك نفر الخمسة وتواعدوا عند خطم الحجون ليلاً^(١)، فاجتمعوا هناك وتداولوا الرأي واجتمعوا وتعاهدوا على نقض الصحيفة غداة غد مهما كلّفهم الأمر من تبعات

فلما أصبحوا غدوا إلى أندية قريش وأمامهم زهير ويطلب من جماعته أن يكون هو البادي بالكلام.

فطافوا بالبيت سبعاً ثم أقبلوا على الناس وهم مجتمعون من جانب البيت فتقدم زهير وأخذ يكلم الناس وهو قائم، فقال: «يا أهل مكة أأكل الطعام، ونشرب الشراب ونلبس الثياب؟ وبنو هاشم هلكي لا يبتاعون ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة».

فسمعه أبو جهل «عمرو بن هشام المخزومي» وكان في ناحية من المسجد، فقال: كذبت والله لا تشق الصحيفة.

فرد عليه زمع بن الأسود قائلاً: أنت والله كذبت ما رضينا بالصحيفة حين كتبت. وأعانه أبو اليختری على ذلك، فقال: صدق زمعة لا نرضى بها ولا نقر ما كتب فيها، وأنبرى المطعم بن عدي فقال: مشيراً إلى زمعة وأبي البحتري: لقد صدقا وكذب من قال غير ذلك معرضاً بأبي جهل فاتبعهم هشام بن عمرو وقال بنحو ما قالوا.

فانتفض حقد أبي جهل، هذا أمر قضي ليل، ثم سكت وسكت الحاضرون إذ نادى منهم بالرضا.

وكان أبو طالب قد خرج من الشعب حينما بلغه سعي أولئك نفر في الإفراج عنه وعن قومه، وأخذ جانباً من جانب المسجد وهو يسمع ويرى ولا يقول شيئاً. وتمخضت المشادات والمحاورات بين أولئك نفر الخمسة.

● فك الحصار عن بني هاشم

(١) خطم الحجون بالعاء: موضع بأعلى مكة.

وبنى رجال قريش عن الخضوع للأمر الواقع والموافقة لإبطال مفعول الصحيفة إن كان الأمر كما أخبرهم أبو طالب عن النبي ﷺ: من قصة «الأرضة».

فقام المطعم إلى الصحيفة واجتذبتها من مكانها في الكعبة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها كما أخبر أبو طالب.

فقويت نفس أبي طالب واشتد صوته وأخذ يؤنب قريش على المقاطعة، ودهش القوم ونكسوا رؤوسهم ملياً، ثم تصلبوا إلى عتادهم فقالوا لأبي طالب: إن هذا من سحر ابن أخيك وبهتانه.

وباءت قريش بالفشل وبطل مفعول الصحيفة الظالمة، فانطلق أبو طالب على الفور إلى الشعب وأخرج قومه منه إلى منازلهم^(١)

وأخذ أبو طالب بعد ذلك يؤنب قريشاً على منابذتهم لبني هاشم ويذكر أمر الصحيفة بشعره، فيقول:

أرقت وقد تصوبت النجوم	وبث ولا تسالفك الهموم ^(٢)
لظلم عشيرة ظلموا وعفوا	وغب عقوقهم لهم وخيم ^(٣)
هم انتهبوا المحارم من أخيه	وكل فاعلهم نفس ذميم
وراموا خطية جوراً وظلماً	وبعض القول لو جنت عليم ^(٤)

(١) باقتضاب من: الكامل لابن الأثير: ج ٢ ص ٥٩-٦٠ ط بيروت، وتاريخ الحقوقي: ص ٢٤-٢٥ ط النجف، وشرح التلخيص للحلبي: ج ١ ص ٥٨-٦٠ ط دار إحياء الكتب العربية، وسيرة ابن هشام: ج ١ ص ٣٧٤-٣٧٧ ط ثانية بمصر، والدرجات الرفيعة للسيد عليخان: ص ٤٥-٤٨ ط النجف، وإيمان أبي طالب المعروف بالحجة على المناهب لابن معد الموسوي: ص ١٩٠-١٩١ ط النجف، ونهاية الأرب للنوري: ج ١ ص ٢٥٦-٢٦٢ ط مصر، والتدبير للأمني: ج ٧ ص ٣٦٢-٣٦٣ ط ثانية بطهران وغيرها من المصادر.

(٢) ضبط البيت بصيغة المتكلم وبصيغة الخطاب والأرق: عدم النوم في الليل، وتصوب الشيء بالتعدي: تسفل وتنزل ضد تصعد والتعبير: هنا كثنائي.

(٣) الغب بالكسر: العاقبة، ومن معاني الوخيم: الردي والويي والتفيل.

(٤) الجنت بالتحريك: الجور والمدول والميل عن الحق، والمليم من القول: المكدر المؤنب.

تخرج هاشماً فتكون منها
فمهلاً قومنا لا تتركبونا
فيندم بعضكم ويذل بعض
أرادوا قتل أحمد زاعميه
ويون محمد منا ندي

ويقول أيضاً مشيراً إلى المنابذة والصحيفة:

ألا أبغوا عني على ذات بينها
الم تعلموا أنا وجدنا محمداً
وأن عليه في العباد محبة
وأن الذي رقتكم في كتابكم
أفيقوا أفيقوا قبل أن تحفر الربي
ولا تتبعوا أمر الفواة وتقطعوا
وتستحلوا حرباً عواناً وربما
فلسنا وببيت الله نسلم أحداً
ولما أثبت منا ومنكم سوائف

لؤيساً خصاً من لؤي بني كعب
رسولاً كموسى خط في أول للكتب
ولا حين فيمن خصه الله بالحب
يكون لكم يوماً كراغية السقب^(١)
ويصبح من لم يجن ذنباً كذي ذنب^(٢)
أواصرنا بعد المودة والقرب
أمر على من ذاقه حلب الحرب^(٣)
لعزاء من عض الزمان ولا كرب^(٤)
وأيد أكرت بالمهدة الشهب^(٥)

(١) البلاغ: جمع بلعق، وبلعقة (يفتح فسكون) وهي الأرض القفر.

(٢) في شرح النهج للحمدي: ج ١٤ ص ٦١ ط دار إحياء الكتب العربية، وديوان أبي طالب الطبريز.

(٣) رقت (بالشد) الكتاب: كتبه، والراغية من الرغاء بالضم وهو أصوات الليل، والسقب يتسكين التثاق ولد الناقة وفصيلها.

(٤) خطبت الكلمة بالراء: جمع روبة بالتثنية وهي ما ارتفع قليلاً من الأرض، وضبطت بالزاي: جمع زبة بالضم وهي الحفرة لصيد الأسود، ولعل الثاني أنسب بالمقصود.

(٥) الحرب العوان: التي تواصل القتال فيها: مرة بعد أخرى، ومن معاني الحلب بالتحريك: الحليب واللبن.

(٦) العزاء بالكسر والتشديد: العنة الشديدة وعض الزمان شدته وكماله.

(٧) ثُبُن: تنفصل والسوائف: الصفحات والأعناق، وأثرت مني للمفعول: بمعنى قطعت، والمهدة: السورف القاطعة المطبوعة من حديد الهند والشهب بالضم: جمع الشهاب، والأنشعب اشتقاق من البريق المتولد من النار.

بمعترك ضنك ترى مسراتنا به والضباع العرج تعطف كالشرب^(١)
 أليس أبونا هاشم شد أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب^(٢)
 ومن شعره في أمر الصحيفة وتانيب أصحابها:

ألا من لهم في آخر الليل منصب وشعب العصا من قومك المنشعب^(٣)
 وجري أراها من لوي بن غالب ومتى تزاحمها الصحيفة تجرب
 وقد كان في أمر الصحيفة عبرة متى ما يخبر غائب القوم يعجب
 مح الله منها كفرهم وعقولهم وما نطقوا من ناطق الحق تُعرب
 فأصبح ما قالوا في الأمر باطلاً ومن يخلق ما ليس بالحق يكذب
 وأمسى ابن عبد الله فينا مصدقاً على سخط من قومنا غير متعب
 وما ذنب من يدعو إلى الله وهذه ودين قوم أهله غير مُتَّعِب
 فلا تحسبونا مسلمين محمداً لذي غربة فينا ولا متقرب^(٤)

ومن شعره يمتدح أولئك النفر الذين سعوا في نقض الصحيفة، وهي قصيدة طويلة اقتطفنا منها الأبيات التالية:

ألا هل أتى بحزينا صنع ربنا على نأيهم والله بالناس أروء^(٥)
 فيخبرهم أن الصحيفة مزقت وأن كل ما لم يرضه الله مفسد
 تراوحها إلك وسحر مجمع ولم يُلف سحر آخر للدهر يصعد

(١) الضنك: الضيق، والضباع العرج بكسر الكلمة الأولى وضم الثانية: جمع ضبع أعرج في مشيه، والشرب بالضم: الجماعة من القوم يشربون.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٣٥٢، وشرح النهج للحلي: ج ١ ص ٧٢، والفدير للأمني: ج ٧ ص ٣٢٢، والروض الآنف للسهلي: ج ١ ص ٢٢٠.

(٣) المنصب بالفتح: المنصب، وشعب العصا: كناية عن الفساد في الأمر.

(٤) إيمان أبي طالب لابن معد الموسوي: ص ٢٠٤-٢٠٥، وكامل ابن الأثير: ج ٢ ص ٦٢ ط بيروت، وديوان أبي طالب المطبوع باختلاف بسيط بينهما.

(٥) يريد بالهجري: الذين هاجروا من المسلمين إلى الحبشة من طريق البحر. والتأي: البعد، وأرود: أرفق.

تداعى لها من ليس فيها بفرق
إلى قوله في مدح أولئك نفر:

جزى الله رهطاً بالحجون تبايعوا
قسعوداً لدى خطم الحجون كأنهم
عنان عليها كل صقر كأنه
جري على جلى الخطوب كأنه
من الأكرمين من لؤي بن غالب
إذا سيم خسفاً وجهه بثرید^(١)
على ملاء يهدي لحزم ويُرشد
مقاولة بل هم أعز وأجد^(٢)
إذا مشى في رفوف الدرع احرد^(٣)
شهاب بكفي قابس يتوقد^(٤)
إذا سيم خسفاً وجهه بثرید^(٥)

● إيمان أبي طالب من خلال كلماته وشعره

وبعد هذه الجولة البسيطة في رحاب مواقف أبي طالب الإسلامية مما يحتويه الموضوع الثاني من مظاهر إيمانه.

ننقل الخطوات إلى الموضوع الثالث في ذلك المضمار، فنعرض بعض ما لسيد البطحاء ومؤمن قريش من الكلمات وأشعار ترمي إلى الهدف ذاته، فنقول:

من كلماته: الفقرات الناصعة الإيمان بالله وبالحنيفية البيضاء، دين إبراهيم ﷺ قبل التشريع الإسلامي، من خطبته التي قالها في خطبة «خديجة بنت خويلد» لرسول الله ﷺ أمام أبيها وذويها، فقد وقف أمام الحضور من بني أسد بن عبد العزى وقال:

«الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل^(٦)، وضئضي معد، وغنصر مضر^(٧).

(١) الفرقر على فعلل: الذين السهل ومن لم يكن بالذليل. والمراد بالطائر: الحظ من الشؤون والشئ.

(٢) المقاولة بالفتح: الملوك والأمراء.

(٣) رفرف الدرع: ما فضل منها وأحرد: بطي المشي لثقل الدرع الذي عليه.

(٤) الجلى بالضم من الخطوب: العظيم منها، وفي بعض المصادر (جل الخطوب) أي: معظمها.

(٥) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٣٧٨-٣٧٩ والتدوير للأميني: ج ٧ ص ٣٦٤-٣٦٥، وهامش ص ٦٢ من ج ٢ من كامل ابن الأثير.

والديوان المطبوع لأبي طالب، وأنساب البلاذري: ج ٢ ص ٣٢ ط بيروت.

(٦) ذكر النسابون أثناء استعراضهم نسب النبي ﷺ المساعد من بني هاشم بن إسماعيل عليه السلام هكذا (هاشم بن عبد مناف

(المغيرة) بن قصي زيد بن كلاب حكيم بن مرة (بالضم فالتشديد) بن كعب بفتح فسكون بن لؤي بهمز وغير هزم بن غالب

وجعل لنا بلداً محجوجاً^(٨)، وجعلنا: الحكام على الناس^(٩).

ثم إن محمداً بن عبد الله أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه: براً وفضلاً وحزماً وعقلاً ورأياً ونبلأً، وإن كان في المال مقلأً فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة.

وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك، وما أحببت من الصداق فعلي والله بعد نبا شائع وخطب جليل^(١٠).

ومنها ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنه قال: «قال لي أبي يا بني الزم ابن عمك فانك تسلم به من كل بأس عاجل أو آجل». ثم قال:

إن الوليقة في لزوم محمد فاسد بصحبته علي يدبك^(١١)

ومنها ما روي: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دعا قريشاً أو بني عبد المطلب فقال: «يا بني عبد المطلب لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد بن أخي وما اتبعتم أمره فاطيعوا محمد وصدقوه واتبعوا أمره تفلحوا ترشدوا»^(١٢)

ومنها ما روي أيضاً في وصيته عندما حضرته الوفاة: أنه أجمع إليه وجوه قريش

→ ين فهر بالكسر بن مالك بن النظر قيس بن كنانة بالكسر بن خزيمة بالتصغير بن مدركة عامر أو عمرو بن الهاس بن مضر بن نزار بالكسر بن معد بالفتح بن عدنان بن أد أو أد على الأصح بن مقوم بصيغة اسم الفاعل مع التشديد بن ناحور بن ترح بالفتح بن عيرب بفتح أوله وضم ثالثة بن يشجب كذلك بن ثابت ابن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمان عليه السلام.

(٧) الضنضي كالضوء بكسر فسكون وضم فسكون: الأصل والمعدن والعنصر بضم فسكون: قريب من معناه، والكلمعان غير مثبتين في بعض المصادر.

(٨) أي محجوجاً إليه ومقصوداً إليه من كل فتح عميق، وفي بعض المصادر: محجوباً، من العجب والرعاية من الله تعالى.

(٩) ويعد البقوي في تأريخه: ج ١ ص ٣٣٧ ط التنجف: من حكام العرب في قريش: عبد المطلب بن هاشم والوزير ابنه وكذلك يفعل النسابة البغداد في المحير: ص ١٣٢ ط بيروت ويضيف الهماء: أبا طالب بن عبد المطلب.

(١٠) الدرجات الرفيعة للسيد عليهما: ص ٥١ ط التنجف، ولهمان أبي طالب المسمى بالعجة على المذاهب لاهن معد الموسوي، ص ١٨٥ ط التنجف، وتذكرة السبط: ص ٣٠٢ ط التنجف، وشرح النهج للحدادي: ج ١٤ ص ٧٠ ط دار إحياء الكتب، باختلاف بسيط في بعض كلماتها. (١١) الدرجات الرفيعة: ص ٥٤، وشرح النهج: ج ١٤ ص ٧٥.

(١٢) تذكرة السبط ص ٨ ط التنجف، وأسنى المطالب: ص ١٠، والسيرة الحلبية: ج ١ ص ٣٧٢، والخصائص الكبرى: ج ١

فقال: «يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب فيكم السيد المطاع وفيكم المقدم الشجاع، واعلموا أنكم لن تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أرحزتموه ولا شرفاً إلا أدركتموه، فلکم بذلك على الناس الفضيلة ولكم به إليكم الوسيلة والناس لكم حرب وعلى حربكم إلب».

وإني أوصيكم بتعظيم هذه النية يعني الكعبة، فإن فيها مرضاة للرب وقواماً للجأش^(١)، وثباتاً^(٢) للوطأة، صلوا أرحامكم ولا تقطعوا فان صلة الرحم منساة في الأجل^(٣) وزيادة في العدد، واتركوا البغي والعقوق؟ ففيهما هلكت القرون قبلكم، أجيئوا الداعي واعطوا السائل فان فيهما شرف الحياة والممات، وعليكم بصدق الحديث واداء الأمانة فان فيها محبة في الخاص، ومكرمة في العام^(٤).

واني أوصيكم بمحمد ﷺ خيراً. فانه الأمين في قريش والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به، وقد جاءنا بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مغافة الشنان^(٥) وأيم الله كأنني أنظر الى صعاليك العرب^(٦)، وأهل الوبر والأطراف والمستضعفين من الناس فقد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، فصار رؤساء قريش وصناديدها أذئاباً ودورها خراباً وضعفاؤها أرباباً وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه وابعدهم منه أحفظهم عنده^(٧)، قدمحضته العرب ودادها، وأصفت له فؤادها وأعطته قيادها.

(١) الجأش: القلب والصدر، وفي بعض المصادر: (المعاش) بدل الجأش.

(٢) من معاني الوطأة بالفتح على فملة: موضع القدم. (٣) منسأة بالفتح على فملة، التأخير كالتسي: على فعل.

(٤) الملاحظ: أن هذه المواد الواردة في الوصية: هي من صميم الاسلام المتنبئة من القرآن والسنة كما هو واضح، فلا غرابة إذا اعتبرت هذه الوصية بمجموعها من الدلالات الواضحة على تفهم أي طالب لواقعية الإسلام وتتلل في الإسلام في واقعيته المؤمنة الطامحة على حياته.

(٥) الشنان بالتحريك: البغض والمداوة، والمقصود: مغافة تظاهر المشركين على بغض بني هاشم إن أنا تظاهرت بكلمة الإسلام (فلا استطيع الدفاع عن محمد ﷺ وعن رسالته) بعد ذلك وهذا هو السر الذي دعا بأبي طالب أن يخفي إيمانه حقاً وتوقياً.

(٦) صعاليك على مفاعيل: جمع صعلوك (بالضم) وهو الفقير الضعيف.

(٧) أحفظهم أفضل تفصيل من الحضة وهي المكاينة والمنزلة، وفي بعض المصادر (أقربهم).

دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم كونوا له ولاية ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا سعد، ولا يؤخذ يديه إلا رشد، ولو كان لنفسي مدة ولأجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز^(١) ولدفعت عنه الدواهي^(٢).

ومنها ما ذكره القتال النيسابوري في كتابه: (روضة الواعضين)^(٣) عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: وهو يروي قصة دخول قريش على أبي طالب في حالة احتضاره.

قال عليه السلام: «كان أبو طالب يضرب عن رسول الله ﷺ بسيفه ويقيه بنفسه، فلما حضرته الوفاة وقد قويت دعوة رسول الله ﷺ وعلت كلمته، إلا أن قريش على عداوتها وحشدها إلى أبي طالب ورسول الله عنده فقالوا: نسالك من ابن أخيك النصف؟ قال: وما النصف منه؟ قالوا ليكن عنا ونكف عنه؟ فلا يكلمنا ولا نكلمه ولا يقاتلنا ولا نقاتله؟ لأن هذه الدعوة قد باعدت بين القلوب وزرعت الشحناء وأنبتت البغضاء.

فالتفت أبو طالب إلى النبي ﷺ وقال: يا بن أخي بنو عمك وعشيرتك يسألونك النصف وأن تكف عنهم ويكفوا عنك.

فقال النبي ﷺ: «يا عم لو أنصفتي بنو عمي لأجابوا دعوتي وقبلوا نصيحتي، وإن الله عز وجل أمرني أن أدعوا إلى دينه (الحنيفية) ملة إبراهيم، فمن أجابني فله عند الله الرضوان والخلود في الجنان، ومن عصاني قاتلته حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين»، إلى قوله: فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ خرجوا من عند أبي طالب فقالوا فيما بينهم: ألا ترون محمداً لا يزداد إلا كبراً (أو تكبراً) وما هو إلا ساحر أو مجنون، وتوعده، وتحالفوا، وتعاقدوا لئن مات

(١) الهزاهز: على مغال: الفتن التي تهم الناس وتحركهم وتبعث فيهم الاضطراب.

(٢) الدرجات الرفيعة: ص ٦٠-٦١ ط النجف والدير للأمني: ج ٧ ص ٣٦٦ ط تانية بطهران، والروض الآف للسهلي: ج ١ ص ٢٥٩ مصر، وتاريخ الغميس للديار البكري: ج ١ ص ٣٣٩، وأسنى المطالب لزيني دحلان: ص ٥ ط طهران.

(٣) المعاهد الواضحة لمحمد بن الحسن بن علي بن أحمد القتال النيسابوري، من شيوخ الإمامية وأعلامها في غرة القرن السادس الهجري.

ولد في نيسابور من بلاد إيران، ثم رحل إلى بغداد أيام زعامة السيد المرتضى وانتقل الطوسي إلى النجف، إلى مسقط رأسه (نيسابور) فبقي فيها إلى سنة (٥٠٨ هـ) أو بعدها بقليل، حتى كان استشهاده فيها بأمر أبي المحاسن عبد الرزاق الطوسي ابن أخي أو قريب نظام الملك وزير السلطان السلجوقي في نيسابور، ولا يزال قبره معروفا هناك.

أبو طالب ليجمعن قبائل قريش كلها على قتله ما أمسكت أيديها السياط. وبلغ أبو طالب ذلك، فجمع بينه وبين بني أبيه وأحلافهم من قريش فوصاهم برسول الله ﷺ، قال: إن ابن أخي محمد أنبي كما يقول، بذلك أخبرنا آباؤنا وعلماؤنا، إن ابن أخي محمد أنبي صادق وأمين ناطق، وإن شأنه أعظم شأن ومكانه أعلى مكان من ربه، وإن يومي قد حضر وأنتم الخلفاء النجب فأجيبوا دعوته واجتمعوا على نصرته وارموا عدوه، فانه الشرف الباقي لكم على الدهر، وأنشأ يقول:

أوصي بنصر الأمين الخير مشهده	بعدي علياً وشيخ القوم عباسا
وحزمة الأسد المخشي صولته	وجعفر: أن يذوقوا قبله الباسا
وهاشماً كلها أوصي بنصرته	أن يأخذوا دون حرب القوم أمراسا
كونوا - فدى لكم أمي وما ولدت -	من دون أحمد عند الروع أتراسا
بكل أبيض مصقول عوارضه	تخاله في سواد الليل مقباسا

قال علي بن الحسين رضي الله عنه: فلما سمع النبي ﷺ من عته ذلك الكلام قال: يا عم، كلمة واحدة، تجب بها لك شفاعتي يوم القيامة؟ فقال: يا ابن أخي صدقت، أنت نبي وربك آله الحق، قال له: يا عم إن الله عز وجل وعدني أن قريشاً ستؤمن غدا بما تنكره اليوم، وإن الله تعالى سيفتح علي الأرض ويظهر دينه على جميع الأديان وإنك راحل إلى دار المقامة فقل معي: كلمة تستوجب من الله: رضوانه ورحمته.

قال علي بن الحسين رضي الله عنه: ثم إن أبا طالب حرك بها شفتيه وأشار بإصبعه فسر النبي ﷺ بذلك واستغفر له، الحديث.

● إيمان أبي طالب من خلال شعره

ومن شعره الطافح بالإيمان: القصيدة الميمية التي أولها:

ألا من لهم آخر الليل معتم	طواني وأخرى النجم لنا تلقم
طواني وقد نامت عيون كثيرة	وسامر أخرى قاعد لم يؤنم
لأحلام أقوام أرادوا ممدداً	بظلم ومن لا يتقي البغي يظلم

إلى قوله:

يرجعون منا خطاة دون نيلها
يرجعون أن نسخوا بقتل محمد
كذبتم وببيت الله هتى تطلقوا
إلى قوله:

فيا لبني فهر أفيقوا ولم تُقَم
على ما مضى من بغيكم وعقوقكم
وظلم نبي جاء يدعو إلى الهدى
فلا تحسبونا مسلميه فمظه

ومن ذلك أبياته التي كتبها إلى التجاشي ملك الحبشة يحضه فيها على حسن جوار المسلمين المهاجرين إليه بصحبة ولده المظفر ذي الجناحين جعفر:

ليعلم خيار الناس أن محمداً
أتانا بهدي مثلما أتيا به
وإنكم تفلونه في كتابكم
ومن ذلك قصيدته التي يستهلها بقوله:

لن أربغ أقوين بين القوائم
وقمن بمدحاة الرياح التوائم^(١)

(١) الوشيج: شجر الرمح ويطلق على الرياح نفسها، والمقوم بالفتح: المعتدل.

(٢) التندم: تغل من السلام وهو الهم مع الندم، والغيط مع العزن.

(٣) الدرجات الربعية: ص ٥٢ ط التجف، وشرح النهج للمحدي: ج ١٤ ص ٧١ ط جديد، والفدير للأميني: ج ٧ ص ٣٣٤ ط

طهران، وإيمان أبي طالب الموسوي: ص ١٨٩ ط التجف، ودويان أبي طالب المطبوع.

(٤) في القافية إبطاء ظاهر، ولضما في ضمن تصدئة مكسورة القافية.

(٥) الفدير للأميني: ج ٧ ص ٣٧١، ومستدرك الحاكم: ج ٢ ص ٦٢٣ ولا يبعد أن تكون هذه الأبيات من ضمن القصيدة الميمية

الآتفة الذكر (في الأصل)، وفي بعض المصادر: ثبت المعجز في البيت الأول هكذا: (وزير موسى...) ولكن ما أبتناه أنسب.

(٦) في إيمان أبي طالب لابن معد الموسوي: ثبت البيت هكذا:

لن أربغ أقوين بين القوائم
اقمن بمدحاة الرياح الرئائم

والأربع يضم الباء المواضع التي يرتعون فيها، وأقوين: أقفرن. وخلي من ساكنها.

إلى قوله:

فلا تُسِفُّوا أحلامكم في محمد
تمنيتموا أن تقتلوه وإنما
زعمتم بأننا مسلمون محمداً
من القوم مخاضل أبي على العدى
أمين حبيب في العباد مسؤم
يرى الناس برهاناً عليه وهيبة
نبي أناء الوحي من عند ربه
وقد اشتهر عن المأمون العباسي قوله: أسلم أبو طالب والله بقوله:

نصرت رسول رسول الملك
أدب وأحامي رسول الإله
وما أن أدب لأعدائه
ولكن أزيروا لهم سامياً
وقوله وهو يحرض ولديه: علياً وجعفرأ على ملازمة النبي ﷺ:

ان علياً وجعفرأ لفتي
لا تغذلا وانصرا ابن عمكما
عند ملم الزمان والنوب^(٥)
أخي لأمي من بينهم وأبي^(٦)

(١) الاشاتم: جمع الآثام (بالتفتح) وهو من يأتي بالشؤم.

(٢) الدرجات الرقيقة: ص ٥٢، وشرح التهج: ج ١٤ ص ٧٣، والفدير الاميني: ج ٧ ص ٣٢٢. وإيمان أبي طالب للموسوي: ص ٢٠٠ - ٢٠١، وديوان أبي طالب.

(٣) البكار بالكسر: صغار الإبل، والفنيق: الفحل المكرم على أهله.

(٤) زار الأسد: صات من صدره، والفيل بالكسر: موضع الأسد.

يراجع من الدرجات: ص ٥٤، من شرح التهج ج ١٤ ص ٧٤، ومن الفدير ج ٧ ص ٣٣٧، ومن إيمان أبي طالب: ص ٢٢٧، مع ديوان أبي طالب، واقتصر البلاذري في أنسابه: ج ٢ ص ٣١ ط بيروت على ذكر اليتيم الاولين.

(٥) في بعض المصادر: الخطوب بدل: الزمان، وفي بعضها: الخطوب والكرب.

(٦) في الديوان كما في بعض المصادر: لا تغذلا بدل: (لا تغذلا)

والله لا أخذل النّسبي ولا
وقوله يخاطب حمزه فتى عبد المطلب:

فصبوا - أبا يعلى - على دين أحمد
وخط من أتى بالحق من عند ربه
فقد سرّني إذ قلت: إنك مؤمن
وبإي قريشاً بالذي قد أتيت
ومن شعره الدال على إيمانه قوله:

لقد أكرم الله النّسبي محمداً
وشقى له من إسمه ثبجته
ومن ذلك القصيدة اللامية الجزلة المشهورة التي يستهلها بقوله:

خليلي ما أننسي لأول عسائل
أعوذ برب الناس من كل طاعن
ومن كاشع يسمى لنا بمعيبة
وبالبيت - حق البيت - من بطن مكة
وبالحجر المسود إذ يمسحونه
بصفواء في حق ولا عند باطل^(٤)
علينا بسوء أو ملج بباطل^(٥)
ومن ملحق في الدين مالم نحاول^(٦)
وبالله، إن الله ليس بـغافل
إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل

(١) راجع: من الدرجات: ص ٥٤، ومن شرح النهج: ج ١٤ ص ٧٦، ومن الفدير: ج ٧ ص ٣٥٦، ومن إيمان أبي طالب للموسوي ص ٢٤٩، ومن عمدة الطالب لابن عتبة: ص ٢٣ ط النجف مع الديوان المطبوع.

(٢) الدرجات الرفيعة: ص ٥٤، ومن شرح النهج: ج ١٤ ص ٧٦، ومن الفدير: ج ٧ ص ٣٥٦، ومن إيمان أبي طالب: ص ٢٧٧ واسد الغابة: ج ١ ص ٢٨٧ والاصابة: ج ٤ ص ١١٦ واسنى المطالب: ص ٦ مع الديوان المطبوع.

(٣) شرح النهج: ج ١٤ ص ٧٨، والفدير للأميني: ج ٧ ص ٣٣٥، وتأريخ ابن عساکر: ج ١ ص ٢٧٥، وتأريخ الخميس للديار البكري: ج ١ ص ٢٥٤، والمواهب اللدنية للقسطلاني: ج ١ ص ٥١٨، والاصابة لابن الحبر: ج ٤ ص ١١٥.

(٤) العاذل: اللاتم، وصفا إليه: مال، فهو صاغ، وهي صفاء.

وحامة المصادر كالديوان وخزانة اللفهّادي وعمدة القاريء تسهل القصيدة بهذا البيت.

(٥) حكنا في سيرة ابن هشام، وفي شرح النهج، وفي الديوان المطبوع وفي بعض المصادر الأخر (أعوذ برب البيت)

(٦) هكذا ورد في الديوان وفي حامة المصادر، ومن معاني الكاشع المعادي المتظاهر بعداوتة، وفي بعض المصادر كإيمان أبي

طالب الموسوي: (ومن فاجر يفتانها).

إلى قوله بعد تعداد الإيمان بمشاعر مكة والحجيج:

كذبتم - وبیت الله - تُبْزَى محمدًا
ونسله حتى تُصْرَع حوله
وحتى نرى ذا الردع يركب ردعه
إلى قوله:

وإِذَا - وبیت الله - إِنْ جَدَّ جَدْنَا
بكل فتى مثل الشهاب سميدع
شهوراً وإياماً وحولاً مُجْزَماً
وما ترك قوم لا أبالك سيداً
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
تلوذ به الهلاك من آل هاشم
لنلتبس أسيافاً بالأُمائل^(٣)
أخي ثقة عند الحفيظة بأسل^(٤)
علينا، وتأتي حجة بعد قابل^(٥)
يحوط الذمار غير يكس مواكل^(٦)
ثمأل الينامي عصمة للأرامل^(٧)
فهم عنده في نعمة وفواضل^(٨)

(١) هكذا في كثير من المصادر بصيغة المبني للمفعول، أي: فقلب وتظهر على محمد من قبل أعدائه، ومحمد منصوب بنزع الخافض. وفي بعض المصادر: (يزى محمد) أي يهزم ويغلب هو، كما أن القافية وردت بالصاد المهملة من السقالات بالمناصل. وهي السيوف بالصاد المتقطعة من التضال بالسهم والتبل ولعله الأشهر.

(٢) الردع بالفتح: اللطخ والأثر من الدم، يقال للقتيل: (ركب ردعه): إذا خر لوجهه على دمه، وفي بعض المصادر: كالسيرة: (ذا الضغن...) وهو الحق والعداوة، والأثكب: المائل إلى جهة، والمتعامل: الجائر والظالم.

(٣) الأماثل: أفاضل القوم. وفي بعض المصادر: الأثامل، ويروى المصدر في بعض المصادر: (وإذا لعمر الله إن جد ما نرى)

(٤) السيد: بفتح السين والدال: السيد ومن أسماء الأسد، والحفيظة كالحفاظ: اسم من المحافظين والذب عن المحارم والمنع لها، والباسل: الشجاع، وروى المصدر: (يكف فتى)، كما روى المعجز: عند الحقيقة أو حامي وما انتباه أظهر وأشهر.

(٥) مجزماً بالضم فالتشديد: أي تاماً من جرم شيء: إذا أتمه.

(٦) الظاهر: أن كلمة (ما) هنا استهنامية تجميعية، وجملة (لا أبالك) تستعمل للمدح والذم وكلاهما هنا يحتمل، ويحيط: يحفظ ويتعهد، والذمار بالكسر: ما يلزمك حفظه وحمايته، والتكس بالكسر فالسكون: الجبان والضعيف والاضم: أن لا يستقل الرجل بعد سقطته الأولى حتى تعاوده الثانية، وفي بعض المصادر: (ذرب) بدل (تكس) وهو الفاحش اللسان البذي المنطق، والمواكل بصيغة اسم الفاعل الذي لا تجده خفيفاً عند الحاجة بل هو عاجز إذا انتدب فهو بكل أموره إلى غيره.

(٧) التمال بالكسر: الملبأ، والفيات والعماد والمصمة بالكسر: المنع والحماية.

(٨) في بعض المصادر: (تلوف) بدل (تلوذ) و (رحمة) بدل (نعمه).

وميزان شمر لا يخس شعيرة .. ووزان حق وزنه غير عائل^(١)
الى قوله يخاطب قريشاً ويؤنبهم ويذكر محمداً ويطريه:

الم تعلموا أن ابنتنا لا مكذب .. لدينا ولا يعبأ بقول الأباطل
لعمري لقد كلفنا وجداً بأحمد .. وأصبته حبّ الحبيب المواصل
وجدت بنفسي دونه وحميته .. وداهت عنه بالذرى والكلاكل^(٢)
فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها .. وزيناً لمن والاه ربّ المشاكل
فمن مثله في الناس أي مؤمل .. إذا قاسه الخُمام عند التفاضل
صليم رشيدٌ عادلٌ غير طائفش .. بولاي إلهام ليس عنه بغافل
فأيسده ربّ العباد بنصره .. وأظهر ديناً حقه غير باطل^(٣)

● ختام الجولات في ايمان ابي طالب

إلى هنا ينطوي الحديث عن الجولات السريعة حول رحاب أبي طالب وإسلامه: من العرض المقتضب لتلك المواضيع الثلاثة، فأن لأبي طالب على مسرح التاريخ من الكلمات المصروفة بالإيمان والشعر المصحر بالإسلام والمواقف الراصدة لذلك شواهد

(١) لا يخس يفنح الخاء فالتشديد: أي لا ينتقص الميزان ذلك المقدار، ويقال: عال الميزان فهو عائل: إذا مال، ويروى (له شاهد من نفسه غير عائل).

(٢) الذرى بالضم: جمع ذروة بالكسر والضم: أعلى الشيء، والكلاكل: بكسر ما قبل الآخر جمع كلكل كجملز: بمعنى الصدر وأعلاء.

(٣) نسبة هذه القصيدة إلى أبي طالب لا تقل في الشهرة عن نسبة المعلقات إلى أصحابها، فقد ذكرتها، أو في بعض أبياتها أو معظمها، عامة المصادر التاريخية والأدبية على اختلاف بينها في الكم والكيف، فمن مقل لذكر أبياتها إلى حد الاحاد مكتفياً بها ومشيراً إلى أنها طويلة، ومن مكثر في ذلك إلى ما يناهز المئة أو ينوف عليها بنيف.

راجع: السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص ٢٧٧-٢٨٠ ط ثانية بمصر، وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادي: ج ١ ص ٢٥١ ط مصر، والبداية والنهاية لابن كثير: ج ٣ ص ٥٣-٥٧ ط بيروت، وبلوغ الأرب للالوسي: ج ١ ص ٣٢٦ ط مصر، وأسنن المطالب لزيدي دحلان: ص ١١ والمجموعة النهائية: ج ١ ص ٤٥ ط بيروت، وإرشاد الساري للقسطلاني: ج ٢ ص ٢٢٧، والمواهب اللدنية له: ج ١ ص ٤٨، وعدة القاري للمني: ج ٣ ص ٤٣٤، وشرح النهج للحديدي: ج ١٤ ص ٧٩ ط جديد، والغدير للأخميني: ج ٧ ص ٣٣٨-٣٤٠ ط ثانية، والدربيات الرفيعة: ص ٥٥ ط النجف، وإيمان أبي طالب لابن معد الموسوي: ص ٢٩٦-٣٢٤ ط النجف إلى غيرها من المصادر التي تذكرها أو تذكر أبياتها أو تشير إليها.

كثيرة ودلالات ناصعة وأمارات لامعة وحججاً دامغة وآيات بالغة.
فكلماته وشعره ومواقفه في حماية النبي ﷺ ودينه لم تكن حصيلة القرابة والحمية،
وانما هي نابعة من الواقع المؤمن والعلم البليغ بجلية واقع محمد ﷺ وما يدعو إليه.
فهي تشكل ركيزه هادفة ودعاية قوية في سبيل استمرار رسالة محمد ﷺ ومسيرتها
البناءة على مدى التاريخ.

وبالجملة فإذا كان محمد ﷺ صاحب الدعوة الى الاسلام وإذا كان علي عليه السلام رافع
راية الاسلام فجدير بأبي طالب أن يدعو التاريخ: حادي ركب الإسلام وشارع سفينته
في مسيرته الهادفة الى حيث شاطي الأمن والإيمان واليقين والاطمينان.

وبعد ذلك نقول: لا مبرر لأي إنسان «خلى عن العصية والنفاق الطائفية» أن يشكك في
إيمان وإسلام هذا البطل الإسلامي العظيم، فان من لا يفهم أبا طالب «مؤمن قريش» من
خلال مواقفه المصحرة بالإيمان وكلماته وأشعاره المصححة والملوحة بالإسلام لجدير
أن لا يفهم واقعية الإيمان وحقيقة الإسلام رغم ما يدعيه غير ذلك، والله من وراء ما
أقول شهيد .

● وفاة أبي طالب

وبعد عمر مديد وجهد جهيد سخا بهما هذا السيد العظيم والهاشمي الكريم في سبيل
تدعيم واقعية الدعوة إلى الله تعالى وحماية رسول الله ﷺ والحفاظ على رسالة الإسلام
بوعي وشمول.

ويشاء القدر المحتوم أن يلفظ آخر أنفاسه القدسية المباركة في الأشهر الأواخر من
السنة العاشرة للمبعث النبوي الكريم، أي قبل الهجرة النبوية بثلاث سنين تقريباً^(١)، عن

(١) أما التحديد السنوي لوفاة أبي طالب بأنها كانت في السنة العاشرة للبعثة فهو المتيقن من التحديدات المختلفة المتباينة،
والمجمع عليه بن عامة المؤرخين وأرباب المعاجم ضمن الإشارة الى وفاته أو وفاة خديجة بحكم وحدة السنة وفاتهما في
الجملة.

واما التحديد بالشهر واليوم ففيه خلاف كثير، فالكثير منهم كأبي الفداء في تاريخه أطلقوا تحيين الوفاة في (شوال) من تلك
السنة، ونسب القسطلاني في المواهب اللدنية: ج ١ ص ٧١: تحيين في شوال الى القيل.

عمر ينوف على الثمانين عاماً بنيف من السنين^(١).

والظاهر من عامة أرباب السير والمعاجم أن وفاة «خديجة» أولى ازواج النبي ﷺ وأفضلهن كانت في عام وفاة عمه أبي طالب قبله بشهر أو بأيام أو بعده كذلك^(٢)، فاجتمعت على رسول الله ﷺ يومئذ مصيبتان لفقد نصيره: بالنفس والنفيس فحزن عليهما حزناً شديداً وسمى ذلك العام «عام الحزن».

وقد أثر عنه ﷺ قوله: «اجتمعت على هذه الأمة مصيبتان يعني بهما: فقد عمه أبي طالب وزوجته خديجة، لا أدري بأيهما أنا أشد جزعاً»^(٣)

وقد أخبر ﷺ عن مدى الخسارة التي مني بها بفقده عمه من حيث الأيد والقوة

→ والبيض منهم كابين سعد في الطبقات: ج ١ ص ١٠٦، والبغداد في الخزائن: ج ١ ص ٢٦٦، والسيد عليخان في الدرجات تقيلاً عن الواقدي: ص ٦٦ ط التجف: عنوانها في النصف من شوال.

وارتأى المقرئ في الاتع والمؤانسة: ص ٢٧ أن وفاته كانت في أول ذي القعدة، ونسب تعيين النصف من شوال إلى القيل وردد ابن الأثير في كامله: ج ٢ ص ٦٣ ط بيروت بين شهري: شوال وذو القعدة.

ويرى المحققي في تاريخه: ج ٢ ص ٢٨ ط التجف: أن وفاته ووفاة خديجة أيضاً في شهر رمضان، ويعين الزرقاني في شرح المواهب: ج ١ ص ٢٩١: اليوم الثاني عشر من رمضان.

أما القمي في الكنى والألقاب: ج ١ بعنوان (أبو طالب) فيعين وفاته في يوم ٢٦ رجب من السنة العاشرة للمبعث، وليس ذلك بالبعد عن الصواب، وبعده فالترجيح للنصف من شوال.

(١) ففي عامة كتب التاريخ والمعاجم: أنه مات وهو ابن بضع وثمانين سنة كما عبر بذلك: ابن الأثير في المصدر الآنف من كامله وسيط ابن الجوزي في (ص ٩ من تذكرته) ط التجف والديار بكري في تاريخ الخميس: ج ١ ص ٢٩٩ والبغداد في المصدر الآنف من الخزائن وفي تاريخ المحققي بالمصدر الآنف: (وله ست وثمانون سنة).

(٢) خلاف بين المؤرخين وأرباب المعاجم القبلية والبدئية بينهما في الوفاة وفي مقدار الفرق بين الوفايتين (أيضاً). فالمشهور بينهم ولعله الأشهر: وفاة خديجة قبل أبي طالب (في الجملة)، وعليه ابن الأثير في كامله: ج ٢ ص ٦٣، وابن الأثير في بدايته: ج ٣ ص ١٣٤، والسعودي في مروجه: ج ٧ ص ٢٨٩، والمحققي في تاريخه: ج ٢ ص ٢٨ وابن سعد في طبقاته: ج ١ ص ١٠٦، وابن هشام في سيرته: ج ١ ص ٤١٦، وزيني دحلان في أسنى المطالب: ص ١١ وغيرهم كثير.

وجماعة آخرون يرون وفاة أبي طالب قبل خديجة في الجملة، وعليه ابن عبد البر في الاستيعاب ضمن ترجمة خديجة، وابن قتيبة في المعارف: ص ١٥١ ط دار الكتب وبعض غيرهما.

أما الفرق بين الوفايتين فالأكثر يراه (شهرًا وخمسة أيام) والبيض يراه ثلاثة أيام.

(٣) تاريخ المحققي: ج ٢ ص ٢٩ ط التجف.

والحماية، حيث قال (عند وفاة عمه): «ما زالت قریش كاعة عني حتى مات أبو طالب»^(١) ووقوله عليه السلام: «مانالت قریش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»^(٢).

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنه لما مات أبو طالب جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فأذنه بموته فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وتوجع عليه عظيماً وحزن عليه حزناً شديداً.

ثم قال لعلي عليه السلام: امض فاغسله وكفنه ووارده؟، فاذا رفعته على سريريه فأعلمني ففعل علي عليه السلام ما أمره الرسول صلى الله عليه وآله فاعترضه النبي وهو محمول على رؤوس الرجال فاستوقف حامله وأخذ يؤبنه بحزن وأسف وهو يقول: «وصلتكم رحم (يا عم) جزيت خيراً لقد رببت وكفلت صغيراً ونصرت وأزرت كبيراً»، ثم مشى خلف سريريه وتبعه إلى حفرته وقد أنزلوه فيها، فوقف عليه النبي صلى الله عليه وآله يؤبنه مرة أخرى ويقول: «أما والله لأستغفرن لك ولأشفعن فيك شفاعاً تعجب منها الثقلان»^(٣)، وجعل النبي صلى الله عليه وآله يقول: غفر الله له ورحمه^(٤)، وجعل يستغفر له أياماً وهو لا يخرج من بيته^(٥).

وإنما لم يصل عليه، لأن الصلاة على الجنائز بالنحو المتعارف بعد لم تشرع، ولم يصل النبي صلى الله عليه وآله على زوجته خديجة وقدمات أيام عمه أبي طالب كما ذكرنا، وإنما كان التشيع وتأبين ورقة ودعاء^(٦) وهذه المعاني حصلت من النبي صلى الله عليه وآله لعمه كما حصلت خديجة:

وروي أن علياً عليه السلام قال في رثاء أبيه أبي طالب:

أبا طالب عصمة المستجير	وغيث المحول ونور الظلم
لقد هد لهدك أهل الحفاظ	فصلى عليك ولي النعم

(١) الكشي والأكتاف: ج ١ بعنوان أبو طالب. (٢) المصدران الاتقان: من كامل ابن الأثير، وسيرة ابن هشام.

(٣) الدرجات الرفيعة للسيد عليخان: ص ٦٢-٦١ ط النجف، وشرح النهج للعديدي: ج ١٤ ص ٧٦ ط دار إحياء الكتب العربية بمصر، وتاريخ الخطيب البغدادي: ج ١٣ ص ١٩٦ ط مصر، وتاريخ ابن كثير: ج ٣ ص ١٢٥، والتدوير للأمني: د ٧ ص ٣٧٣ ط ثانية، وتاريخ الهقوبي: ج ٢ ص ٢٨ ط النجف وفيه: (أن النبي صلى الله عليه وآله دخل على أبي طالب لما علم بموته فمسح جبينه الأيمن أربع مرات وجهه الأيسر ثلاث مرات). (٤) طبقات ابن السعد: ج ١ ص ١٠٥ ط مصر.

(٥) تذكرة السبط: ص ٩ ط النجف.

(٦) المصدر الآنف: من الدرجات، وأسنى المطالب: ص ٣٥ وغيرها.

ولقد كنت للطهر من خير عم^(١) ولقد كنت لك رضوانه

● أبناء أبي طالب

انطوى من كتاب العرب عنوانه، ومن مجد بني هاشم عنفوانه، ومن شموخ الإسلام ربّانه، فاذا بالبحر الغضم يفيض فيطلع من لثائه الثمينة: بنين أربعة متدرجين في تأريخ الولادة بين المتقدم وتاليه: سنون عشر كلهم لأم واحدة هي فاطمة بنت أسد بن هاشم. أكبرهم: طالب وبه كان يكنى أبوه، ثم عقيل، ثم جعفر، ثم أمير المؤمنين علي عليه السلام.

● طالب بن أبي طالب

وقد ذكر المؤرخون أن قريشاً أكرهت طالبا كما أكرهت أخاه عقيلاً وعمه العباس وبعض بني هاشم المستضعفين على الخروج إلى غزوة بدر في وجه الإسلام والمسلمين، وقبل أن يباشر القتال جعل يرتجز حيث يسمعه المشركون:

لهم إما يفتزون بطالب في عصبة محالف محارب

في مقنب من هذه المقانِب ليكن المسلوب غير السالب

وليكن المغلوب غير الغالب^(٢)

ثم فقد بعد ذلك ولم يعرف له خبر، ويقال: إنه أقحم فرسه في البحر فغرق^(٣)، ويقال إن قريشاً لما سمعت رجزه وأحسست منه شدة امتناعه ردت به إلى مكة قبل نشوب الحرب فرجع إليها ومات فيها بعد قليل^(٤).

(١) تذكرة البسيط: ص ٨ ط النجف، وإيمان أبي طالب لابن معد الموسوي: ص ١٢٢ ط النجف، والذير للأمني: ج ٧ ص ٣٧٩

ط ثانية بطهران. والكنى واللقاب للقي: ج ١ بعنوان أبو طالب.

(٢) هكذا في سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٦١٩ ط ثانية بمصر، وبعض المصادر الأخرى، وعامة المصادر الآتية تذكر الرجز أشطراً أربعة فقط على اختلاف بينها في التقديم والتأخير في الأشطر والتغيير والتبديل في الكلمات.

ومعنى (محالف محارب) أي متحالفين محاربين، وفي بعض المصادر المخالف المحارب المقنب: بالكسر: الجماعة من الغيل والفرسان تنوف على مأتين تجمع للفاة في الحرب.

(٣) عمدة الطالب للنسابة الحسيني لابن عتبة: ص ٣٠ ط النجف.

(٤) أشار إلى ذلك البلاذري في أنسابه: ج ٢ ص ٤٢ ط بيروت وقد روى الكليني في روضة الكافي: ص ٣٨٥ ط طهران

ويقال: إنه لما انفضت الحرب وانهزم المشركون لم يوجد له أثر لا في القتلى ولا كان في الأسرى ولا فيمن رجع إلى مكة ولا يدري ما حاله^(١).

ويقال: أتى اليمن بعد واقعة بدر فهلك في الطريق، وقال بعضهم: أخرج إلى بدر مكراً فقال: «يارب إما يخرجن بطلب...» فزعموا أنه لم يوجد في القتلى ولا كان في الأسرى ولا مع المسلمين ولا أتى إلى مكة، ولكنه أتى إلى الشام فمات بها أو في طريقها^(٢).

وأشار الكليني في روضته إلى رواية الإمام الصادق عليه السلام تثبت إسلامه قبل الواقعة^(٣). وروى بعض أرباب السير له من الشعر ما يؤيد ذلك أو يدل عليه^(٤).

→ رواية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام مفادها: أن قريباً لما أخرجت طالباً إلى بدر مكراً وسمعت رجاء المذكور: (يا رب إما يخرجن بطلب...) قالت: إن هذا لخلينا فردوه.

(١) تذكره البسيط: ص ١١ ط النجف: ويقول في آخر كلامه: (وليس له عقب).

(٢) المصدر الآنف: من أنصار البلاذري . (٣) المصدر الآنف من الروضة للكليني .

(٤) من ذلك قوله:

إذا قيل من خير هذا الوري	فسيلا واكرمهم أسرهم
انكاف لعبد مناف أب	وفضله هاشم الغرهم
وقد حل مجد بني هاشم	مكان النعائم والزهره
ومحض بني هاشم احمد	رسول الملوك على قدره

نسب الأنبيات: ابن أبي الحديد في شرح النهج: ج ١٤ ص ٧٨ ط جديد في البداية إلى أبي طالب، ثم قال: (ويقال: إنها لطالب بن أبي طالب).

أما السيد عليخان في الدرجات الرفيعة: ص ٦٣ ط النجف فذكر البيتين الآخرين ونسبهما إلى طالب.

وكلمة (على فترة) أشار إلى قوله تعالى آية ١٩ من سورة المائدة: ﴿يا أيها أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل...﴾. ومن ذلك: ما ذكره ابن هشام في سيرته: ج ٢ ص ٢٦ ط ثمانية بمصر: من قصيدته في رثاء بعض شهداء بدر ومدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتي يقول في أولها:

الا عيني انسلخت دمعها سكبا	تبكي على كعب وما ان ترى كعبا
الا ان كعبا في الحروب تخاذلوا	وارادهم ذا الدهر واجترحوا ذنبا
وعامر تبكي للسلطات غدوة	فيا ليت شعري هل ارى لهما قربا

كما ذكر لأبي طالب من البنين: عقيلاً المكنى بأبي يزيد أكبر بنيه الكثيرين وذكروا عنه: ان قريشا اكرهته وبعض بني هاشم للخروج الى بدر لحرب المسلمين فاسر في المعركة هو وعمه العباس ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب فافتدى العباس نفسه كما افتدى ابن أخيه بمال كثير فانضموا إلى جانب النبي ﷺ بعد ذلك.

ثم رجع عقيل، الى مكة بعد إعلان اسلامه وبقي فيها الى أوائل السنة الثامنة من الهجرة فهاجر الى المدينة وشهد غزوة مؤتة مع أخيه جعفر الطيار في جمادى الأولى من تلك السنة، وبعد رجوعه من الغزوة تمرض مدة من الزمن فلم يسمع له ذكر في المغازي والحروب مع النبي ﷺ حتى حروب أخيه علي عليه السلام الثلاثة أيام خلافته..

ولقد كُفَّ بصره في السنوات الأخيرة من حياته^(١)، حتى توفي في المدينة في خلافة معاوية^(٢) سنة (٥٠) للهجرة^(٣) أو سنة (٦٠)^(٤) عن (٩٦) عاماً من العمر^(٥).

وكان عقيل في عصره عارفاً بأنساب العرب ومحاسنها ومساوئها ضليعاً بأخبارها، وكان يفرش له بساط في مسجد النبي ﷺ فيصلي عليه ثم يجلس فيجتمع إليه الناس

فدى لكما لا تبعثوا بيننا حرباً
احاديث فيها كنكم يشتكي النكبا

→ فيما اخوينا عبد شمس ونوفلا
ولا تصبحوا من بعد ود والفا

إلى قوله في مدح النبي ﷺ:

سوى ان جئنا خير من وطأ التربة
كريمنا نكاه لا بخيلا ولا ذربا
يؤمنون بمرأ لا نزوراً ولا صربا

فما ان جئنا في قريش عظيمه
اخا شقة في انسابنا حوزه
يخيف به الصافون يخشون بابيه

والذرب بالكسر: الفاسد المتغير، والتا بالفتح: الحديث عن الرجل حسناً أم قبيحاً ويستعمل في الحسن أكثر.

والنزور: القتل، والصرب بالصاد المهملة: المنقطع.

(١) باقتضاب من: سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ١ ص ١٥٩ ط دار المعارف بصر، وشرح النهج للحديدي: ج ١١ ص ٢٥٠ ط

دار إحياء الكتب العربية، والإصابة لابن حجر برقم (٥٦٢٨) وتذكرة السبط: ص ١١ ط التجف، ومعارف ابن قتيبة: ص

١٥٦ ط دار الكتب، وأنساب البلاذري: ج ٢ ص ٦٩. (٢) بهذا الإطلاق تكاد تطبق عليه عامة كتب السير والمعاجم.

(٣) المصدران الآتيا الذكر: من شرح النهج والتذكرة.

(٤) اعلام الزركلي بترجمته، وهامش ص ٣١ من العدة للنسابة الحسيني: ط التجف.

(٥) المصدر الآنف: من شرح النهج للحديدي.

فيتحدث لهم عن الأنساب والأخبار والأشعار وما يخفى على الكثير من قرنائه من وجوه العرب.

وقد روي عن ابن عباس وغيره: أنهم قالوا: «كان في قريش أربعة أشخاص يتنافر إليهم الناس ويتحاكمون عندهم في علم النسب وأيام قريش وحواث العرب ويرجعون إلى قولهم، وهم: عقيل بن أبي طالب الهاشمي، ومخرمة بن نوفل الزهري، وأبو الجهم حذيفة العدوي، وحويطب بن عبد العزى العامري^(١)».

ولقد رجع إليه اختيار النسب الأصيل والشرف الأثيل: أخوه أمير المؤمنين (عليه السلام) باب مدينة علم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما طلب منه أن يختار له امرأة ولدتها الفحولة من العرب، فاختار له عقيل: أم البنين فاطمة بنت حزام الكلابية كما سنذكر ذلك في موقعه من الكتاب.

وكان عقيل عبقرياً في الجدل وتركيز البديهة وسرعة الجواب خصوصاً فيما يعود إلى الأنساب، فقد ذكر له المؤرخون والنسابون في هذه المجال نوادر وقصص كثيرة: منها ما روي: أنه دخل على معاوية في إحدى سفراته إلى الشام، وكان قد كُفَّ بصره فاستقبله معاوية وأجلسه إلى سريره، ثم التفت إليه وقال: أنتم معشر بني هاشم تصابون في أبصاركم؟

قال عقيل على الفور: وأنتم يا معشر بني أمية تصابون في بصائركم وروى أيضاً: أنه لما دخل عقيل إلى معاوية أكرمه وقربه وقضى عنه دينه، ثم قال له في بعض الأيام: والله إن علياً لم يكن حافظاً لك أن قطع قرابتك وما وصلك وما اصطنعك، فقال له عقيل: والله لقد أجزل العطية وأعظمها، ووصل القرابة وحفظها، وحسن ظنه بالله إذ ساء به منك، وحفظ أمانته وأصلح رعيته إذ خنتهم وأفسدتهم وجرتهم فاكف لا أها لك فانه عما تقول بمعزل.

ودخل على معاوية أيضاً فلما استقر به المجلس التفت معاوية إلى أصحابه مشيراً إلى

(١) أسد الغابة للجزري، والاستيعاب لابن عبد البر، والدرجات الرفعة للمدني في ترجمة عقيل، وشرح النهج للسحدي:

عقيل «هذا عقيل» عمه أبو لهب.

فقال عقيل وأشار إلى معاوية: وهذا معاوية عمته حمالة الحطب.

ثم قال: يا معاوية إذا دخلت النار فاعدل ذات اليسار؟ فانك ستجد عمي أبا لهب مفترساً عمتك حمالة الحطب^(١) فانظر أيهما خير: الفاعل أو المفعول به؟

وقال له معاوية يوماً إن فيكم لخصلة ما تعجبني يا بن هاشم، قال عقيل: وما هي؟ قال معاوية: لين فيكم قال عقيل: لين ماذا؟ قال: هو ذاك.

فغضب عقيل وقال: إيانا تعير يا معاوية؟ أجل والله إن فينا للينا من غير ضعف وعزاً من غير جبروت، وأما أنتم يا بني أمية فان لينكم غدر وعزكم كفر.

قال معاوية: ما كل هذا أردنا يا أبا زيد.

فانطلق عقيل قائلاً:

لذي اللب قبل اليوم ما تفرع العصا وما حُلم الإنسان إلا ليعلم^(٢)

وكان عقيل بعد أن أظهر إسلامه بعد واقعة بدر من أحسن الناس التزاماً بتعاليم الاسلام وآدابه.

فقد روي: أنه تزوج بعد ذلك فخرج الى الناس فقالوا له على عادتهم الجارية في الجاهلية: بالرفاء والبنين، فقال له؟ لا تقولوا ذلك فقد نهانا رسول الله عن هذا القول وقال ﷺ: إذا تزوج احدكم فقولوا له بارك الله لك وبارك عليك^(٣).

وقد ذكر عامة المؤرخين وأرباب المعاجم في ترجمة عقيل أنه كان يقد على معاوية في الشام ويأخذ جوائزه في أيام خلافة أخيه أمير المؤمنين^(٤)، والظاهر أن وفادته على

(١) وهي أم جميل شقيقة أبي سفيان بن حرب بن أمية، من مشاهير البهايا في الجاهلية.

(٢) البغد الفريد للأندلسي: ج ٤ ص ٥٠ الطبعة الثانية. والدرجات الرفيعة للسيد عليخان: ص ١٦٦ ط النجف.

(٣) ذخائر العقبى لمحب الدين الطبري: ٢٢٣ ط القدسي بمصر، وأسد الغابة للجزري بترجمة عقيل.

(٤) ذكر ابن أبي الحديد في شرح التهج: ج ١١ ص ٢٥١: الخلاف في التحاق عقيل بمعاوية: هل كان في حياة أخيه علي عليه السلام

من مكة حين بلغه خذلان أهل الكوفة إياه على أثر غارة الضحاك بن قيس على أطراف الحيرة وجواب علي عليه السلام له وقد

أورد نص الكتابين في (ج ٢ ص ١١٨-١١٩) من المصدر.

معاوية إن صحت كانت بإجازة من أخيه، حيث كان يطلب منه المال الكثير وعلي عليه لا يفضل في العطاء على غيره من المسلمين، فسمح له بأن يفد على معاوية ويأخذ منه المال الذي هو في الحقيقة ماله وقد اغتصبه معاوية.

فقد ذكروا أن عقيلاً لزمه الدين فقدم من المدينة على علي عليه السلام في الكوفة فأمر الإمام ولده الحسن عليه السلام أن ينزله ويكسوه، فلما أمسى عقيل أتى بعشاء فاذا هو خبز وملح وبقل وماء، فقال عقيل: ما هو إلا ما أرى؟ قال علي عليه السلام: نعم، فأكل عقيل ثم هجع.

فلما أصبح غدا على علي عليه السلام فقال له: أفتقضي ديني؟ فقال: وكم دينك؟ قال: أربعون ألفاً، قال عليه السلام: ما عندي ولكن اصبر حتى يخرج عطائي فإنه أربعة آلاف فأدفعها إليك^(١). فقال عقيل بيوت المال بيدك وأنت تستوفي بعبائك؟ وألح عليه فقال علي عليه السلام: أتأمرني أن أدفع إليك أموال المسلمين وقد أئتمنوني عليها^(٢).

فقال عقيل: فاني أتي معاوية؟ فقال علي: أنت وذاك.

فسار عقيل إلى معاوية فأعطاه مائة ألف وقال له: اصعد على المنبر واذكر ما أوليتك؟ فصعد عقيل المنبر وقال: اني أردت علياً على دينه فاخترت دينه علياً وأردت معاوية على دينه فاخترتني على دينه^(٣).

→ ويختم عقيل كتابه بقوله: (فاكتب إلي يابن أبي برابة فإن كنت الموت تريد، تحتلت الهك بني أخيك وولد أبيك فمستنا معك ما عشت ومتنا معك ما مت، فوالله ما أحب أن أبقى في الدنيا بعدك فوقاً وأقسم بالاعز الأجل، أن عيشاً نعيشه بعدك في الحياة لغير هني ولا مري ولا نعيم).

ويختم علي عليه السلام كتابه إليه بقوله: (وأما ما عرضت به من مسيرك إلي ببنيك وبني أبيك فلا حاجة لي في ذلك، فاقم راشداً مهدياً؟ فوالله ما أحب أن تهلكوا معي إن هلكت).

ولكننا بعد ذلك في توقف من وضوح الاستدلال على الاستظهار المذكور.

(١) أسد الغابة للجزري بترجمة، عقيل وشرح النهج: ج ٢ ص ١٢٤

(٢) فقال له علي عليه السلام: انطلق فخذ ما في حوائث الناس؟

فقال عقيل: أتريد أن تتخذني سارقاً؟ قال علي عليه السلام: وأنت تريد أن تتخذني سارقاً وأعطيتك أموال الناس، سر أعلام النبلاء: ج ٣ ص ٦٦ ط دار المعارف بمصر.

(٣) المصدر الآنف من سر أعلام النبلاء وفي شرح النهج: ج ١١ ص ٢٥١، (قال معاوية يوماً وعقيل عنده: هذا أبو زيد لولا علمه أني خير له من أخيه لما أقام عندنا وتركه؟ فقال عقيل: أخي خير لي في ديني وأنت خير لي في دنياي...).

ولنا بعد ذلك في هذا الكتاب: عوده الى الحديث عن عقيل واولاده واحفاده
المستشهدين بين يدي الحسين بن علي عليه السلام

خصوصا عن طليعة الشهداء من اهل البيت: مسلم بن عقيل «سلام الله عليه» كما حظي
التاريخ على امتداد مسيرته بذكر الولد الثالث لأبي طالب الا وهو شهيد مؤته: ابو الفقراء
والمساكين الطيار ذو الجناحين جعفر «رضوان الله عليه»^(١)

وقد ولد قبل الهجرة بزهاء ثلاثين عاما او اكثر من ذلك بنيف واستشهد في غزوة
مؤته^(٢) في اوائل جمادى الاولى من السنة الثامنة للهجرة كما عليه عامة المؤرخين عن
عمر يناهز الاربعين عاما او ينوف عليها بعام على الاصح^(٣) ولقد اتصلت بجاهلية جعفر

(١) كنهه المشهورة على صفحات التاريخ: (أبو عبد الله) باسم أكبر أولاده كما سنذكر. وإنما كناه النبي ﷺ بأبي المساكين
انتزاعاً من سلوكه المعروف مع الفقراء والمساكين من المسلمين. فقد كان يجهم ويحبونه ويطلب عليهم ويلطف بهم
ويطعمهم ويكسوهم وكان يحول بكثير من فقراء المدينة.

وكذلك كان يعرف في بني هاشم، كما كان ولده كذلك لظاهرة كرمه وسخائه.

ولكنه عرف بعد استشهاد في واقعة مؤته بلقب الطيار وذو الجناحين لقبه بهما رسول الله ﷺ: إشارة الى كيفية استشهاد بقطع
يديه في الحرب، فقال ﷺ: في عدة روايات بمضمون: (إن الله تعالى أبدله عن يديه المقطوعتين بجناحين يطير بهما في
الجنة مع الملائكة) كما سنذكر

(٢) مؤته بالضم لم واو مهموزة ساكنة ثم تاء مثناة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام أو على مشارفه. وفيها قبر جعفر بن
أبي طالب. باقتضاب من معجم البلدان للحموي.

(٣) يقول البلاذري في انسابه: ج ٢ ص ٤٣ ط بيروت: (واستشهد جعفر وهو ابن نحو من أربعين سنة)، وفي شذرات الحنبلي
ضمن حوات السنة الثامنة للهجرة: (واستشهد جعفر بن أبي طالب وله إحدى وأربعون سنة). وكذلك يرى النووي في الجزء
الأول من الأسماء واللغات آخر ترجمة جعفر برقم (١٠٥)، ويقول بعد ذلك وقيل غير ذلك، وفي الإصابة لابن حجر: ج ١
ضمن ترجمة جعفر برقم ١١٦٦ فاستوفى أربعين سنة وزاد عليها على الصحيح، وبهاشيه الاستحباب لابن عبد البر آخر
ترجمة جعفر التي هي أول حرف الجيم منه: قوله: (كانت سن جعفر بن أبي طالب يوم القتل إحدى وأربعين سنة)
وهكذا يرى عامة المحققين الذي أرخوا وفاة جعفر واستشهاده يوم مؤته بأن عمره الشريف يومئذ لا يقل عن أربعين عاما، إن
لم يتجاوزها بعام كما أشرنا.

وربما صرح البعض منهم بأن ذلك هو الصحيح إشارة منه الى بطلان غيره وهو الحق، قال أبو الفرج في أوائل كتابه المغاتل
ضمن الحديث عن الشهيد جعفر بعد ذكره لقول علي بن عبد الله بن جعفر بن ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر

واسلامه بواقعية حية ونزاهه ذاتية ونبل الصفات وجنف عن الهنات فحلت فيه روح الاسلام والايمان وهو في زمن الجاهلية قبل أن يصدع النبي ﷺ بالدعوة. وليس ذلك بنشاز على شخصية أشبهت خلق النبي وخلقه وتكونت معه من شجرة واحدة وجُبلت في طينة واحدة، كما ورد ذلك على لسان النبي محمد ﷺ بمضامين مختلفة^(١).

وهل معنى الإطراء والتشبيه من النبي الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى إلا أن جعفرًا من النبي محمد ﷺ روح وآصرة وغصن وشجرة؟ ووجه التشبه بين محمد وجعفر في زمن الجاهلية والاسلام: أن محمدًا في زمن الجاهلية هو الصادق الأمين ثم كان نبي الاسلام، لم تختلف نفسه ولم يطرأ عليها سوى الإعلان بالدعوة بعد تهضمها في نفسه قبل ذلك، وكذلك: إن جعفرًا في زمن الجاهلية هو الشخص المثالي ذو النفس العلوية التي ملئت بالروحية والنزاهه ولم يطرأ عليها بعد ذلك سوى الايمان بما كانت منه على أهبة وقابلية واستعداد.

→ بن أبي طالب، بأنه قيل وهو ابن ثلاث أو أربع وثلاثين سنة، قال: (وهذا عندي شبهه بالوهم، لأنه قتل ستة ثمان من الهجرة وبين ذلك الوقت وبين مبعث النبي ﷺ، إحدى وعشرون سنة وهو اسن من أخيه امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بعشر سنين، وكان لعلي عليه السلام حين اسلم سنون مختلف في عددها، فالمكرر يقول: كانت خمسة عشرة سنة والمقل يقول: سبع سنين، وكان إسلامه أي جعفر في السنة التي بعث فيها الرسول ﷺ لا خلاف في ذلك، وعلى أي الروايات فبس امره أي جعفر علم: أنه كان عند مقتله تجاوز هذا المقدار من السنين، والله العالم.

(١) كقوله عليه السلام: (يا جعفر أشبهت خلقي وخلقتي)، وقوله: (أشبه خلقتي خلقي وأشبه خلقتي خلقتي فانت مني وشجرتي) وقوله: (يا حبيبي أنت أشبه الناس بخلقي وخلقتي وخلقت من الطينة التي خلقت منها) بتحرريك الكلمة الأولى بالفتح والثانية بالضم وقوله: (أشبهني جعفر في خلقي وفي خلقتي) بالفتح والضم.

وكذلك أثر عنه عليه السلام في حق جعفر قوله: (خلق الناس من أشجار شتى وخلقنا من شجرة واحدة، أو قال: من طينة واحدة) الى غيرها من المضامين التي ذكرتها عامة المصادر في هذا الشأن كمقاتل الطالبين لأبي الفرج: ص ١٠ ط النجف، وسير أعلام النبلاء: ج ١ ص ١٥٦ ط دار المعارف بمصر، وذخائر المحب الطبري: ص ٢١٥ ط القدسي بالقاهرة، وتذكرة السبط ص ١٨٥ ط النجف، وشرح التلخيص للحلي: ج ١٥ ص ٧٢ ط دار إحياء الكتب العربية، والاصابة لابن حجر، والاستيعاب لابن عبد البر بترجمة جعفر، وشذرات الذهب للحلي: ج ١ ص ١٢ ط بيروت، وأنساب البلاذري: ج ٢ ص ٤٤ ط بيروت، وربع الأبرار للزمخشري، والدرجات الرفيعة للمدني.

هذا من حيث اصل خلقة جعفر وذاتياته الجبلية، فهو من النبي وإليه في عامة سماته ومواصفاته وذاته وذاتياته

وهناك عامل التربية الذي هو من أهم العوامل الاجتماعية في تطبيع خلق الإنسان خصوصاً أيام طفولته وعنفوان شبابه، وحسب جعفر من هذا العامل الرئيس للتطبيع: أنه أحد خريجي مدرسة أبيه شيخ الأبطح ومؤمن قريش أبي طالب. فإن أبي طالب كما كان مدرسة للتربية الاجتماعية البناءة كان مصدراً للإساعات الروحية الوضاء.

ومن مظاهر جعفر في جاهليته وإسلامه: ما عرف به في تلك الأوساط الإعرابية الجافة: إنه أبو المساكين والفقراء كما كناه بذلك رسول الله ﷺ، فهو أبو الفقراء والبائسين بالبر والعطاء والعطف والرحمة، ومن تلك المداخل يمكن الولوج إلى عامة صفات جعفر النفسية: من الكرم والجود والعدل والإتصاف وحب الخير والعمل به والنبل والشهامة والمؤاسة والإيثار وغيرها.

فكان يشبه النبي بتلك الصفات وما تنبع منه من ذات عالية وما تصب فيه من روافد ثره وما يتفرع عنها من سجايا غُرِّ ونوايا حميدة.

هكذا كان جعفر في زمن جاهليته، وكذلك وأكثر كان في زمن إسلامه، إذ لم يعمل الإسلام في صعيديته المؤمنة غير التعلية والتشييد والإظهار والإعلان.

وإلا فجعفر مسلم مؤمن قبل أن يترجل الإسلام ويتصحر الإيمان إلى واقع البعث الرسالي والدعوة الشاملة.

وكل ما فعله الإسلام في واقع جعفر: هو النضج الفكري في نفسه المترفة والعطاء الثر في ذاته المقدسة ومواصلة الجهاد والدفاع عن رسالة الإسلام.

● الهجرة إلى الحبشة

وكان من مظاهر ذلك النضج الفكري والعطاء الثر في نفس جعفر: أن يوليه النبي محمد ﷺ قيادة المسلمين ورعايتهم، وكان عامتهم من عليّة الصحابة في الهجرة إلى الحبشة قبل الهجرة إلى المدينة بخمسة أعوام أو أكثر بستين على الأصح، حين اشتد

أذى المسلمين خصوصاً على المسلمين بجوهر الاسلام أكثر وفي طبيعتهم: جعفر بن أبي طالب حيث لم يستطع النبي ﷺ منعهم والدفاع عنهم، وإن كان هو في منعة الله تعالى وحماية ناصره وناصر دينه عمه أبي طالب رضوان الله عليه.

فعند ذلك قال النبي ﷺ لأولئك المسلمين المعذبين في إسلامهم: «لو خرجتم الى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحداً وهي أرض صدق؟ حتى يجعل الله لكم فرجاً بما أنتم فيه».

قال المؤرخون: فخرج الكثير من المسلمين ومن عليه أصحاب النبي ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم^(١).

وكان خروجهم إلى الحبشة بدفعتين في سنة واحدة. كانت الدفعة الأولى لا تتجاوز العشر رجال إلا بواحد كما قيل وأربعة نسوة بقيادة الصحابي الجليل عثمان بن مظعون^(٢)، وذلك في النصف من رجب سنة خمسة من النبوة

(١) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٣٢٢ ثانية بمصر، وكامل ابن الأثير: ج ٢ ص ٥١ ط بيروت، ونهاية الأرب للنووي: ج ١٦ ص ٢٣٢ ط مصر.

(٢) عثمان بن مظعون (الغذاء المعجمة) ابن حبيب بن وهب بن حذافة الجمعي القرشي، وكان من حكماء العرب في الجاهلية ومن حرم الخمر على نفسه فيها، وكان يقول: (لا أشرب شراباً يذهب عقلي ويضحك بي من هو أدنى مني ويحملني على أن أنكح كرميتي).

فلما ورد التشريع بحرمه الخمر قيل له في ذلك؟ فقال: (تباً لها لقد كان بصري فيها سابقاً)، وكان من السابقين إلى الاسلام، فقد اتفقت كلمة المؤرخين: أنه أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، ثم هاجر الهجرة الأولى الى الحبشة في الدفعة الأولى على رأس عشرة من المسلمين ومعه ولده السائب وزوجته وذلك في رجب من السنة الخامسة للبعثة النبوية، ثم عادوا في شوال الى مكة كما عرفت، وهاجر الهجرة الثانية الى المدينة هو وولده: السائب وعبد الله وأخوه: عبد الله وقدامة على اثر هجرة النبي ﷺ اليها فآخى النبي ﷺ بينه وبين أبي منبه مالك بن النهران الأنصاري كما آخى بين ولده السائب وبين حارثة بن سراقه المقتول بدير مع النبي ﷺ، وكان من حوارى النبي ﷺ فشهد معه بدر الكبرى ومات بعد رجوعه من الغزوة بأشهر من نفس العام على الأصح والأشهر. فهو أول من مات من المهاجرين في المدينة وأول من دفن منهم في البقيع، كان زاهداً في الحياة منقطعاً الى الله يصوم النهار ويقوم الليل واتخذ في داره بيتاً للتلذذ والعبادة، فجاءه النبي ﷺ يوماً ونهاه عن التلذذ والرهانية وقال له: (يا عثمان ان الله لم يبعثني بالرهانية، وإن خير الدين عند الله الحنيفية السمحة).

وكان النبي ﷺ يحبه ويثني عليه، فقد روي أنه حين مات جاء النبي ﷺ وانكب عليه فقبله وهو ميت ثم رفع رأسه وجعل يحكي

وهي السنة الثانية من اظهار الدعوة فاقاموا هناك شعبان وشهر رمضان وقدموا الى مكة في شوال من تلك السنة^(١).

وكانت الدفعة الثانية بعد ذلك التأريخ بأشهر من نفس السنة وان زعم البعض كالسيد المدني في الدرجات الرفيعة ان الهجرة كانت في السنة الرابعة من الهجرة حيث اقام المسلمون في مكة وهم يُؤذَنون ويعذبون من قبل المشركين فرجعوا مهاجرين الى الحبشة ثانيا وتتابعوا حتى تكاملوا: اثنين وثمانين رجلا بقيادة جعفر بن ابي طالب فخرج معه زوجته: أسماء بنت عميس^(٢)، وكذلك كان مع بعض المسلمين زوجاتهم

→ حتى رُؤيت دموعه تسيل على خدي عثمان، فيكي الحاضرون معه ثم صلى عليه ثم أخذ يؤثنه ويقول: (اذهب علياً يا ابا السائب، فقد خرجت منها (أي الدنيا) لم تلبس منها بشي) ثم وضع حجراً عند قبره من حيث راسه، وقال: هذا قبر فرطنا أو جعل يصاحده قبره بالزيارة والدعاء.

ودفن ولده ليراهم بعد ذلك الى جنب عثمان وابنة بقوله: (ألحق بسلفنا الصالح)، وكذلك فعل بقوله وقال عند دفن ابنته زينب بعد ذلك، بالقتضاب من كتب السمر والمعاجم كالاصابة لابن حجر والاستيعاب، لابن عبد البر، وتهذيب الاسماء واللغات للنووي، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، وسير اعلام النبلاء للذهبي، واسد الغابة للجزي، والطبقات لابن سعد، وسفينة البحار للقي، والاعلام الزركلي وغيرها، ومعجم الشعراء للمرزباني.

(١) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ٥٢ - ٥٣ ط بيروت، ونهاية الأرب للنووي: ج ١٦ ص ٢٣٥ ط مصر، وفيه بعد الخارجين العشرة مع النساء الأربع فيقول: (كان أول من خرج مع المسلمين من بني أمية بن عبد شمس: عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، ومن بني عبد شمس: أبو حذيفة بن عتبة ومعه امرأته سهلة ابنة سهيل، ومن بني أسد بن عبد العزى: الزبير بن العوام، ومن بني عبد الدار: مصعب بن عمير، ومن بني زهرة: عبد الرحمان بن عوف ومن بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد ومعه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، ومن بني جمح: عثمان بن مظعون بن حبيب، ومن بني عدي بن كعب: عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبي حنثة، ومن بني عامر بن لؤي: أبو سبرة بن أبي رهم، ومن بني حارث بن فهر: سهيل بن البيضاء، وهؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين الى أرض الحبشة وكان عليهم عثمان بن مظعون، وزاد الواقدي: حاطب بن عمرو بن عبد شمس فجعلهم أحد عشر رجلاً وأربع نساء.

(٢) أسماء بنت عميس بالتصغير بن معد بالتشديد بن الحارث بن تيم الخصمية، هكذا في جمهرة ابن حزم، وسيرة ابن هشام: عميس بن النعمان بن كعب، ويقول ابن أبي الحديد: هي أخت ميمونة زوجة النبي ﷺ من بني خنم بن أنمار بن أراش من السابقات الى الإسلام، فلقد أسلمت قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم بن الأرقم وتزوجت: جعفر بن أبي طالب ثم هاجرت معه إلى الحبشة فولدت له هناك: عبد الله ومحمداً وعوناً وبعض ولده الآخرين، ثم عادت معه الى المدينة سنة سبع

وأطفالهم^(١)، ولم يهاجر جعفر مع المستضعفين من المسلمين إلى الحبشة لانخراطه معهم في تلك الصفة، فهو من حيث القوة والأيد والمنعة كعلي وحمزة وبعض بني هاشم من المؤمنين الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يكثر بأذى المشركين، بل لا يستطيعون أن يصلوا إليه بأذى مادام محتماً بذاتية نفسه وبمانعية أبيه أبي طالب له، كما كان يمنع أخاه علياً وابن أخيه محمداً عليهما السلام وبعض المسلمين من بني هاشم وغيرهم. ولكنه هاجر إلى الحبشة بأمر من النبي ﷺ حين رأى المستضعفين من المسلمين يفتنون ويعذبون في سبيل الإسلام من قبل المشركين.

فالنبي ﷺ كما أرسل في الدفعة الأولى القليلة العدد: من المسلمين المهاجرين ثقة من عليّة أصحابه: عثمان بن مظعون.

كذلك أراد للدفعة الثانية الوافرة والعدد والعدة من المسلمين المستضعفين مع نسائهم وأطفالهم لساناً ينطق عنهم ويتولى شؤونهم ومحوراً من صميم بيت الدعوة الإسلامية يمثل النبي ﷺ في كل ما يقول ويفعل، ولا بد أن يكون ذلك الرجل يتمتع بكفاءات وافرة من العلم والمعرفة والدين إلى حد كبير.

فلم يجد النبي ﷺ يومئذ أكفاً من جعفر: في سنه وعلمه وواقعيته لتحمل هذه المهمة وذلك التمثيل:

→ للهجرة فولدت له: بقية أولاده السبعة أو الثمانية كما قيل، وبعض المصادر ترى: أن جميع ولده ولدوا بأرض الحبشة كالهقومي في تأريخه: ج ٢ ص ٢٤ ط النجف.

وبعد أن استشهد زوجها جعفر في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة خلف عليها بعد عدة أشهر: أبو بكر فولدت له: محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، ثم خلف عليها بعد وفاة أبي بكر: أمير المؤمنين عليه السلام فولدت له يحيى وعوناً، وعاشت بعد علي عليه السلام مدة ثم توفيت بالمدينة سنة أربعين للهجرة، باقتضاب من: المحبر للنسابة البغدادي، ص ١٠٧ و ٤٤٣ ط بيروت، وجمهرة أنساب العرب للأندلسي بترجمتها ص ٣٧٠ ط دار المعارف بمصر، وسير أعلام النبلاء للذهبي: ج ٢ ص ٢٠٤ برقم (١٠٥) والسيرة بالمصدر التالي، وشرح التهج للحدادي، وسفينة البحار للقمي.

(١) كامل ابن الأثير: ج ٢ ص ٥٣ ط بيروت، وسيرة ابن هشام: ج ١ ص ٣٢٣-٣٣ ط ثانية بمصر وفيه: تفصيل تعدد أسماء المهاجرين وقبائلهم وحيالاتهم، وفي الدرجات الرفيعة للمدني ص ٧١ ط النجف: (أن عدتهم ثلاثة وثلاثين رجلاً سوى النساء والأولاد)، ولكن المشهور بين المؤرخين أن عدتهم ٨٢ أو ٨٣ رجلاً واحد عشر امرأة قرشية وسبع غرائب كما عليه التويري في نهايته: ج ١٦ ص ٢٤١، وقد فصل هناك وعدد الأسماء من الذكور والإناث باستيعابه.

أما أخوه علي وكان صغير السن وكذلك حمزه، فقد أناط النبي ﷺ بهما أعمالاً في داخل صعيدية الدعوة ما لا تقل في بناء الإسلام وترسيخه عن مهمة نشره في الخارج. لذلك كانت هجرة جعفر لجماعه المسلمين بذلك العدد من ضروريات الإسلام وفكرته البعيدة الأهداف.

فكان جعفر هو السفير المفوض عن النبي ينطق عنه ويعمل بما تمليه عليه ظروفه الحاسمة .

وعلى ضوء ثقة النبي ﷺ العالية بلياقة جعفر للسفارة عنه ابتعثه مع المسلمين إلى الحبشة اطميناناً على نفوسهم وصيانتها عن التلوث بمغريات تلك البلاد المسيحية الفارقة بفتن المادة ومغريات الثروة، ليتم لهم من وراء ذلك التبشير بدعوة الاسلام. ولنستمع إلى التاريخ يحدثنا عن هجرة جعفر مع جماعة من المسلمين لنلمس ما لتلك الهجرة البناء من تبشير وتأثير، ولعل الحديث من قم أم المؤمنين «أم سلمة»^(١) أكثر تفصيلاً من الطرق الأخرى، قالت أم سلمة: «لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار: (النجاشي) وأما على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً انتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فيفا: رجلين منهم جلدتين وأن يهدوا للنجاشي: هدايا مما يستطرق من متاع مكة، وكان أعجب ما يأتيه منها الأدم^(٢) فجمعوا له أدماً كثيرة ولم يتركوا من

(١) أم سلمة بالتحريك واسمها: هند بنت أبي أمية (حذيفة) عبد الله المخزومي القرشي، ولدت قبل الهجرة النبوية بسنتين وعشرين عاماً في مكة، وتوفيت في المدينة في أخريات سنة ٦١ هـ على الأصح عن أكثر من ثمانين عاماً من العمر. وكانت قبل ترويحها برسول الله ﷺ عند ابن عمها الرجل الصالح بن عبد الله بن عبد الأسد أو الأسود بن هلال المخزومي فولدت له سلمة فكانت به، ثم هاجر زوجها بها إلى الحبشة في الدفعة الأولى مع عثمان بن مظعون وصحب زوجته معه فولدت له هناك عمر أو عمير وزينب ودرة كما قيل، ثم هاجر إلى المدينة في السنة الثانية للهجرة وحضر بداراً ومات بعد ذلك، وقيل: حضر أهدأ وجرح فرجع إلى المدينة فانتقض جرحه لمات بعد ذلك في جمادي الآخرة سنة ٣ للهجرة.

فتزوج النبي ﷺ أم سلمة بعد موت أبي سلمة بزهاء ستة أشهر أي في أواخر السنة الثالثة من الهجرة، باقتضاب مما كتبه عن أم سلمة في مظانه من أجزاء الكتاب الغالية عند العديد من استخباره قتل الحسين عليه السلام من فوران القارورين دماً عيطاً.

(٢) الأدم بفتحين: جمع الأديم هو الجلد المدبوغ المحسن.

بطارقتة: بطريقاً^(١) إلا أهدوا له هدية.

ثم بعثوا بذلك مع: عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي وعمرو بن العاص السهمي^(٢) فامروهما

(١) الطريق بالفتح والوقف: هو الطريق بالكاف، ومن معانيه: رئيس أساقفة النصارى وعالم اليهود، وجمعه: بطاركة وطاركة.

(٢) هكذا في سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٣٣٤ ط ثانية بمصر (برواية أم سلمة)، وكذلك أورد هاكل من نقل عن السيرة كابن أبي الحديد في شرحه: ج ٦ ص ٣٠٨ دار إحياء الكتب العربية بمصر وغيره، ولكن في تاريخ العقوبي: ج ٢ ص ٢٣ ط النجف، وكذلك في سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ١ ص ١٥١ ط دار المعارف بمصر برواية ابن مسعود، وكذلك في ذخائر المتقى للمحب الطبري: ص ٢٠٨ ط القدسي بالقاهرة، وبعض المصادر الأخرى: تذكر بدل عبد الله المخزومي عمارة بن الوليد المخزومي وتشير الى خديجة بمصر بن العاص في مراودة زوجته ومراودة لزوجة النجاشي، وآخر ما آل اليه امرء: من توحشه في البراري حتى مات، وعلى رواية السيرة موجز ترجمة هذين الرجلين كما يلي:

✽ عبد الله بن أبي ربيعة حذيفة بن المغيرة من بني مخزوم والد الشاعر الغزلي المشهور عمرو بن أبي ربيعة وأخو أبي جهل لأمه، فهو المشهور بنسبته إلى جده لا إلى أبيه.

وكان اسم عبد الله في الجاهلية بجيراً بالتصغير فسماه النبي ﷺ: عبد الله، وكان من التجار الموسرين في الجاهلية وكان متجراً الى اليمن وكانت تلقبه بالمدل بالكسر، لان قريشاً بأجمعها كانت تكسو الكعبة من أموالها ستة يكسوها هو من ماله سنة، فهو عدل لجميع قريش في هذا المضمار.

استعمله رسول الله ﷺ بعد إسلامه على الجند بالتحريك إحدى مدن اليمن، وافرغ ابو بكر فلم يزل كذلك حتى مقتل عمر، فمات بعد ذلك في أيام عثمان.

✽ وعمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي المولود قبل الهجرة بخمسين عاماً أحد دهاة العرب ومناقب قريش في الجاهلية والإسلام، ولدت له أمه قبل الهجرة بخمسين عاماً فادعاه الكثير ممن كان يأتيها قبل العاص كأبي لهب وأمية وأبي سفيان ولكن أمه الحفنة بالعاص لكونه أكثر شياً به وكان شديداً على الإسلام ونبى الإسلام في الجاهلية، هو الذي كان يقول: اني أنشأنا محمد ﷺ فنزلت فيه الآية (ان شاتك هو الأثر) كما ان أباه العاص كان من اشهر المستهزئين برسول الله وبإسلامه فنزل فيه قوله تعالى: (إنا كفناك المستهزئين) وكان من دهاة العرب وفرسانها.

وأظهر عمرو الإسلام ولكنه لم يحسن إسلامه فكان من المناقبين ومن أعداء أمير المؤمنين عليه السلام، ولله النبي ﷺ بعد ما أظهر إسلامه إمرة الجيش في غزوة ذات السلاسل، ثم استعمله علي عمن فلم يزل عليها حتى قبض النبي ﷺ ونصبه عمر أميراً على جيوش الجهاد في الشام فافتتح قنسرين وصالح أهل حلب ومنبج وأنطاكية، وولاه عمر (فلسطين ثم مصر) فافتتحها ثم عزله عثمان بعد ذلك، ثم كانت الحرب بين علي ومعاوية في صفين، فكان مع معاوية لمساومات جرت بينهما فكان صاحب خدعة المصاحف والهدنة بين الفريقين، وهو الذي انتهى حثفه من سيف علي عليه السلام بسوآته وقصته المشهورة، ثم ولاه معاوية على مصر سنة ٣٨ هو أطلق له خراجها ست سنين ولم يزل كذلك الى ان مات بالقاهرة سنة ٤٣ هـ باقتضاب من الإصابة، والاستيعاب ومعارف بن قتيبة، وأعلام الزركلي وغيرها.

بأمره وقالوا لهما: إدعنا إلى كل بطريق هديته قبل أن نكلما النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ثم سلاه أن يسلمهم - أي المسلمين - إليكما قبل أن يكلمهم.

● وشاية رسولنا قريش على المسلمين

قالت أم سلمة: فخرجنا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقتهم بطريق إلا دُعنا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي، وقالوا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى أي لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم لتردهم إليهم فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فاجابهم البطارقة سؤالهما. ثم إنهما قدما: هداياهما إلى النجاشي فقبلها، ثم كلمناه فقالا: «أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين ابتدعاه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم: من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم إليهم؟ فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه».

قالت أم سلمة: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلام المسلمين.

فقال البطارقة من حوله: «صدقا أيها الملك قومهم، أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فيردان إلى بلادهم وقومهم».

قالت أم سلمة: «فغضب النجاشي ثم قال: لا ها الله؟ إذا لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوه، فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم؟ فإن جاؤا وقد دعا أسأفتهم فنشروا مصاحفهم حوله^(١)، ثم سأل المسلمين فقال:

ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: «أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية،

(١) أسأفتهم كاسأفت: جمع الأسف بضم الهمزة والالف وهي مرتبة من مراتب التدرج العلمي والديني المسيحي فوق القيس

نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسول منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ولا نشرك به شيئاً ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان^(١)، وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام وكل ما يُعرف من الأخلاق الحسنة، ونهانا عن الربا والفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وكل ما يُعرف من السيئات.

قالت أم سلمة: فعدد على النجاشي: أمور الإسلام ثم قال: فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا، فدعا علينا قومنا فعذبونا وفتونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحل كل ما نستحل من الخبائث.

فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا وبلغنا ما نكرهه، ولم نقدر على الامتناع، أمرنا نبينا أن نخرج إلى بلادك اختياراً لك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي هل معك مما جاء به من الله: من شيء؟، فقال له جعفر: نعم فقال

(١) إنما يسرد جعفر رضوان الله عليه ما كان عليه أهل الجاهلية بصورة عامة: من عبادة الأصنام وإتيان الموفيات والفواحش والتي ذكر قسمًا منها ويحشر نفسه الزكية معهم من باب التقرير وأحكام الحجية والتركيز على واقع الإسلام وعرض محاسنه مقابل مساوي الجاهلية العمياء، والا فجعفر وكذلك أباه بل عموم بني هاشم وبني عبد المطلب البررة كعبد الله وأبي طالب والزبير والحزوه وغيرهم كانوا على دين الحنيفية البيضاء من دين إسماعيل ذبيح الله وإبراهيم خليل الرحمن لم يسجدوا للصنم ولم يقرئوا الآثام والفواحش والموفيات التي تهبط بالروح وتمس الكرامة.

وقد ورد بالخصوص في حق جعفر عن الإمام الباقر عليه السلام كما في أمالي الصدوق: إنه قال: (أوصى الله عز وجل إلى رسول الله ﷺ إني شكرت لجعفر بن أبي طالب: أربع خصال، فدعاه النبي فأخبره: فقال جعفر: لولا أن الله أخبرك ما أخبرتك: ما شربت خمرًا قط لأني علمت لو شربتها لزال عقلي، وما كذبت قط لأن الكذب ينقص العروءة، وما زنت قط لأني خفت، إذا حملت حُول بي، وما عدت صنمًا قط لأني علمت أنه لا يضر ولا ينفع.

قال الباقر عليه السلام: فطرب النبي يده على عاتقه وقال: حق لله عز وجل أن يجعل لك جناحين تطير بهما مع الملائكة في الجنة).

النجاشي: فأقرأ عليّ منه؟

فأخذ جعفر يقرأ عليه: صدرأ من سورة ﴿كهيعص﴾، قالت أم سلمة: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى اخضلت لحاهم ومصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم جعفر.

ثم قال النجاشي لأساقفته: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة^(١)، ثم التفت إلى رسولي قريش ونهرهما وقال بهما: انطلقا؟ فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون^(٢). قالت: فلما خرجنا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لأتينه غداً عنهم بما أستاذل خضراءهم^(٣).

فقال له عبد الله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل فان لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا.

قال ابن العاص: والله لأخبرن النجاشي: أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد، قالت: ثم غدا ابن العاص عن النجاشي من الغد فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً فسلمهم عما يقولون فيه. فأرسل النجاشي إليهم ليسألهم عنه. قالت أم سلمة: ولم ينزل بنا مثلها قط.

فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه، قالوا: نقول والله ما قاله الله وما جاء به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن.

قالت أم سلمة فلما دخلوا على النجاشي قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ فانبرى جعفر من بينهم وقال: نقول فيه الذي جاء به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

(١) في لسان العرب بمادة مشكاة: وفي حديث النجاشي: إنما يخرج من مشكاة واحدة، المشكاة، الكوة غير النافذة، وقيل هي الحديدة التي يعلق عليها القنديل.

(٢) يكادون بصيغة المبني للمفعول: من الكيد وهو الخديعة وإرادة السوء، أي: لا يتألمهم بسوء وخديعة ما قاموا هنا.

(٣) خضرائهم: شجرتهم التي منها طرعو وانتشروا.

قالت: فضرب النجاشي بيده الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال: ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود^(١)، قالت: فتناخرت بطارقتة^(٢) حوله، حين قال ما قال: فقال: وإن نخرتم والله، ثم التفت إلى جعفر وجماعته وقال: اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي والشيوم الآمنون^(٣)، من سبكم غرم يقولها ثلاثاً ما أحب أن لي دبراً من ذهب وإني آذيت رجلاً منكم^(٤)، ثم التفت إلى حرسه وقال: «ردوا عليهما (أي عمرو وصاحبه) هداياهما: فلا حاجة لي بهما، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فأخذ الرشوة فيه وما طاع الناس في فأطيعهم فيه».

● نجاح جعفر واندحار رسولي قريش

قالت أم سلمة: «فخرج الرسولان من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به. واقمنا عنده بخير دار مع خير جار حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة»^(٥).

(١) العود: منصوب على الظرفية أي: مقدار هذا العود.

(٢) التناخر: التفاعل من التخر وهو مد الصوت والنفس من الإنسان والدابة في الخياشيم مما يدل التأثير والغضب.

(٣) قال السهيلي في الروض الآنف هنا: هنا يحتمل أن تكون اللفظة الحبشية غير مشتقة، ويحتمل أن يكون لها أصل في العربية وإن تكون من شمت السيف أي أغمدته، لأن الأمن مضمد عنه السيف.

(٤) قال ابن هشام هنا: الدبر بالفتح مركب بلسان الحبشة الجبل.

(٥) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٣٣٤ - ٣٣٨ ط ثانية بمصر، وكامل ابن الأثير: ج ٢ ص ٥٤ - ٥٥ ط بيروت، وشرح النهج للحمدي: ج ٥ ص ٣٠٧ - ٣١١ ط دار إحياء الكتب العربية، وذخائر العقبى للمحب الطبري: ص ٢٠٩ - ٢١١ ط القدسي بالقاهرة، وتاريخ المعقبين: ج ٢ ص ٢٣ - ٢٤ ط التجف باختلاف بينهما في الإيجاز والتفصيل، وروى ابن هشام بعد عرض قصة الهجرة إلى الحبشة عن أم سلمة: عسى معنى كلام النجاشي الأخير: (ما أخذ الله مني الرشوة...) ويقتضيه ابن الأثير في المصدر الآنف، وكذلك المحب الطبري في ذخائره قالت: (إن أبا النجاشي كان ملكاً الحبشة ولم يكن له ولد غيره، وكان لعمه: اثنا عشر ولداً أصليه، فقالت الحبشة لو قتلنا أبا النجاشي فإنه لا ولد له غير هذا الغلام وملكنا أخاه فإن له من صلبه اثنا عشر ولداً فتوارثوا ملكه من بعده بهت الحبشة بعده دهرًا فمدوا على أبي النجاشي فقتلوه وملكوا أخاه وملكوا على ذلك حيناً، ونشأ النجاشي مع عمه وكان ليبياً حازماً فقلب على أمر عمه ونزل منه بكل منزلة، ففخفت الحبشة من ذلك: أن يملكه عمه عليهم من بعده فيقتلهم أجمعين انتقاماً لأبيه، فمشوا إلى عمه وخبروه إما أن يقتل الفتى أو يخرج به من بلاد الحبشة؟ فاختار إخراجهم على كره.

فخرجوا به إلى السوق فباعوه إلى رجل من التجار الواردين، إلى الحبشة بستمائة درهم فقتله التاجر في بغيته وانطلق به في

بعد ذلك العرض لقصة هجرة المسلمين إلى الحبشة، نستشف عمق نظرة النبي ﷺ في أمر المسلمين المضطهدين في مكة بالهجرة إلى الحبشة بالخصوص وبقيادة جعفر بن أبي طالب وجعله السفير المفوض عليهم من قبله بالأخص.

ذلك لما تتلمسه من وراء أصل الهجرة وخصوص السفارة، من نجاح جعفر في استثمار الدعوة إلى فكرة الاسلام بأسلوبه الجذاب وخلقه الكريم فكانت حصيلة تلك المحاورة بين جعفر والمسلمين من جهة وبين النجاشي وبطارقته من جهة أخرى: أن يعلن النجاشي على ملائمة قومه إيمانه بمحمد ﷺ وإسلامه على يد سفيره المفوض الذي يشبه محمداً في خلقه وخلقه فيتبعه في ذلك بعض بطارقته وعلية قومه فيحسن إسلامه وتحسن مداراته لجعفر وجماعته ويطرد وشاة المخربين عن بلاده، وهكذا تظل الحبشة بعامة جهاز مملكتها ومجتمعها تعيش فكرة الإسلام وتطبق الكثير من قراراته طيلة بقاء جعفر والمسلمين في كنف النجاشي المسلم، بما لا اسلام من صورته أو إطاره. ففي ذخائر المحب الطبري: إن المسلمين - جعفر وجماعته جاؤا إلى النجاشي بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وظهوره فيها على المشركين فقالوا له: إن صاحبنا قد خرج إلى المدينة وظهر بها وقتل الذين كنا قد حدثناك عنه وقد أردنا الرحيل فزودنا؟

→ البحر. حتى إذا كان العشي من ذلك اليوم هاجمت سحابة من سحائب الغريف فخرج عمه يستمطر تحتها فأصابته صاعقة فقتلته ففرغت الحبشة إلى وليه ليلكوا أحدهم فاذا جميعهم حقاء ليس فيهم خير، فرج أمر الحبشة واختلط عليهم وضاق عليهم ما هم فيه، فقال بعضهم لبعض: والله إن ملككم الذي لا يقم أكرمكم غيره للذي بعث غداة فان كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه.

فخرجوا في طلبه حتى أدركوه فأخذوه من يد التاجر الذي ابتاعه منهم وجاؤا به إلى دار الملكة وعقدوا عليه تاج الملك فملكوه. وجاءهم التاجر وطالبهم بما له فأبوا أن يعطوه، فقال: إنا أكلتم في ذلك، فقالوا له: دونك وإياه فكلمه؟ فجلس التاجر بين يدي النجاشي وقال: لبتت سلاماً من القوم بست مئة درهم حتى إذا سرت بالفلان أدركوني وأخذوه مني ومنعوني دراهمي.

فالتفت النجاشي إليهم وقال: إما أن تعطوه دراهمه وإما أن يضع الفلام يده في يده فليذهبن به حيث شاء. قالوا بل نعطيهم دراهمه فأعطوه المال ومضى التاجر لشأنه.

قالت أم سلمة: فهذا معنى قوله: (ما أخذ الله مني رشوة حين رد علي ملكي فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطع الناس فيه) قالت: وكان ذلك أول ما خبر من صلاته في دينه وعده له في حكمه.)

فحملنا وزودنا، ثم قال لجعفر: أخبر صاحبك بما صنعت إليك، وهذا صاحبي معك وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، وقل له أن يستغفر لي؟

قال جعفر فخرجنا حتى أتينا المدينة فتلقاني رسول الله ﷺ فاعتنقني، ثم قال: ما أدري أفتح خيبر أفرح أم بقدوم جعفر؟

ووافق ذلك فتح خيبر، ثم جلس رسول الله ﷺ فقام رسول النجاشي فقال: هذا جعفر فسأله عما صنع به صاحبنا؟، فقال جعفر: نعم فعل بنا كذا وكذا وحملنا وزودنا وشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله، وقال: قل له: يستغفر لي؟

فقام رسول الله فتوضأ ثم دعا ثلاث مرات، وقال: اللهم اغفر للنجاشي؟ فقال المسلمون: امين.

قال جعفر: فقلت لرسول النجاشي: انطلق وأخبر صاحبك بما قد رأيت من النبي ﷺ^(١).

وفي تذكرة الخواص عن حلية أبي نعيم: «فلما انتهى جعفر وجماعته إلى النجاشي بذُرْمُ من عنده وقالوا: اسجدوا للملك. فقالوا: لا نسجد لغير الله، فقال النجاشي مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، وأنا أشهد أنه الذي بُشِّرَ به عيسى بن مريم ﷺ ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أقتل نعله»^(٢).

وفي سير أعلام النبلاء بعد عرض استجواب النجاشي من جعفر وجماعته رأيهم في عيسى بن مريم، قال النجاشي: «يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ما تريدون؟ ما يسؤني هذا أشهد أنه رسول الله وأنه الذي بشر به عيسى في الإنجيل، والله لولا ما أنا فيه من الملك فأتيته فأنا الذي أحمل نعليه وأوضيه»^(٣).

(١) ذكر ذلك في ذخائر العقبى: ص ٢٠٨ ط القدسي بالقاهرة: بعد عرضه الموجز لمحاورة جعفر مع النجاشي من غير طريق أم سلمة.

وفي المصدر نفسه بعد ذلك ص ٢١٣ أثناء عرضه لقصة دخول جعفر على النجاشي قوله: ثم قال النجاشي لجعفر وجماعته: مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده وأشهد أنه رسول الله وأن الذي بشر به عيسى بن مريم ﷺ. ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أقتل نعله.

(٢) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي: ص ١٨٨ ط النجف.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ١ ص ١٥١ ط دار المعارف بمصر.

وفي سيرة ابن هشام بعد عرض القصة: «قال إسحاق: وحدثني جعفر بن محمد عن أبيه قال: اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشي: إنك قد فارقت ديننا وخرجوا عليه فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهبأ لهم سفناً وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرت فاقبضوا؟، ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى بن مريم عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها على مريم، ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن وخرج إلى الحبشة وصفاً له فقال يامعشر الحبشة ألسنت احق الناس بكم؟، قالوا: بلى، قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟، قالوا: خير سيرة، قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول: هو ابن الله، فقال النجاشي ووضع يده على صدره على قبائه: هو يشهد أن عيسى بن مريم لم يزد على هذا شيئاً، وإنما يعني: ما كتب فرضوا وانصرفوا عنه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فلما مات النجاشي صلى عليه واستغفر له»^(١).

وبعد ما لمسنا نجاح جعفر في سفارته عن النبي ﷺ إلى الحبشة، حيث استطاع إيصال صوت الإسلام وفكرته إلى تلك الرقعة البعيدة عن المجتمع الإسلامي بكل ما للبعد من معنى جغرافي وفكري، فلانستكثر عليه مقارنة النبي ﷺ بين نجاحه في الحبشة وعودته بالظفر منها وبين نجاح أخيه علي عليه السلام وعودته بالظفر في واقعة خيبر، حيث كان جعفر في فترة هجرته إلى الحبشة، (يقول المؤرخون): إن جعفرأ حينما عاد من الحبشة وكان ذلك بعد غزوة خيبر بزهاء شهر أو أكثر، فتلقاه النبي ﷺ وجعل يقبل ما بين عينيه ويقول معلناً أمام الناس عظمة هذين الفتحين على يد هذين الأخوين الداعيين إلى واقع الإسلام وأخذ يظهر شدة فرحه بهذين الفتحين العظيمين، فقال: «أيها الناس ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً بعودة جعفر أم بفتح خيبر»^(٢).

ولقد عاد جعفر من هجرته وسفارته إلى الحبشة فوجد أخاه في النسب الواضح

(١) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٣٤١ الطبعة الثانية بمصر.

(٢) الاصابة لابن حجر، والإستيعاب لابن عبد البر ترجمة جعفر، وشرح النهج للمحدثي: ج ١٥ ص ٧٢ ط دار إحياء الكتب العربية، وتاريخ يعقوبي: ج ٢ ص ٤٦ ط النجف، وسر اعلام النبلاء للذهبي: ج ١ ص ١٥٥ ط دار المعارف بمصر، وتذكرة البسيط: ص ١٨٥ ط النجف، ومقاتل الطالبين لأبي الفرج: ص ٦ ط النجف.

والجهاد المرير وصول ويجول براية الإسلام في الفتح المبين، حيث تم الفتح الخيبري على يده المبارك، فتطمئن نفس جعفر وقد جاء من هجرته وسفارته مكللاً بالفوز والظفر أن فوزه الإسلامي في هجرته لا يقل خطراً عن فوز أخيه علي في غزوته، فكان نصيبه من ذلك الفخار الأبلج صنو نصيب أخيه منه، الأمر الذي دفع النبي ﷺ الذي عين لكل من الأخوين؛ واجبه المقدس في أداء رسالة الاسلام: أن يطري الشقيقين ورسالتيهما وظفريهما: هذا بالغزوة وهذا بالهجرة، بتلك المدحة الخالدة: «إنه لا يدري بأي الأمرين هو أشد فحواً: عودة جعفر أم فتح خيبر».

ولعمري إن ذلك التوقف من الرسول الحديد النظر والفكر في الترجيح والتفاضل بين الحصيلتين إنما يعطي وحدة الهدف بين الرساتين وبين ضخامة الحجم في كل من الظفرين.

● غزوة مؤتة وشهادة جعفر

وظل جعفر بعد ذلك بالرغم من امتلاء نفسه الرحبة بتلك المعادلة بينه وبين أخيه علي ﷺ في الرساتين والظفرين يحاول أن يندفع براية الإسلام اندفاع أخيه في خيبر لينال حظه الأوفر من الفتوحات الاسلامية بما يعلو همته العالية ويسع شأوه البعيد، وهنا بدأ النبي ﷺ بعد فتح خيبر بأشهر يجهز الجيوش لطرق أبواب الروم وضرب حدود قيصر الجبروت في الشام^(١)

وحتى إذا تم للنبي ﷺ ما أراد تجهيزه من جيشه المؤلف من ثلاثة آلاف محارب أو يزيدون. عيّن لقيادة ذلك الجيش العظيم: أبطالاً ثلاثة مرتبين على حسب بقائهم في الحياة، فالقيادة لجعفر أولاً، ثم لزيد بن حارثة^(٢) ثانياً، ثم لعبد الله بن رواحة^(٣) ثالثاً^(٤).

(١) وهنا يذكر عامة أرباب السير ومنهم الحديدي في شرح النهج: ج ١٥ ص ٦١ ط جديد عن بوادر وأسباب الغزوة: هو أن النبي ﷺ كان قد بحث الحارث بن عمر الاودي بكتاب الى ملك بمصرى بالضم والقصر: من بلاد الشام، فلما نزل الرسول أرض مؤتة على مشارف الشام عرض له شرحبيل بن عمرو الفسائي، فلما استخبر مقصده وعرف أنه رسول النبي ﷺ أوقفه كثافاً ثم قدمه فضرب عنقه.

ولما بلغ النبي ﷺ قتل رسوله من قبل الملك غضب واشتد واحد لغزو بلاد الشام والروم...

(٢) الصحابي المعظم أبو أسامة: زيد بن الحارث بن شراحيل أو شرحبيل بن كعب بن عبد العزى بن زيد بن امري القيس بن

→ عامر الكليبي.

سيد الهواري وأسبغهم إلى الاسلام، ومن طلائع المسلمين من الصحابة، وحبيب رسول الله وأبو حبيبه، فقد روي، انه لما اصيب زيد بن حارثة انطلق النبي الى منزله فلما رآته ابتهت أجهشت فانتصب النبي في وجهها فقال له بعض أصحابه: ما هذا يا رسول الله، قال: هذا شوق الحبيب الى الحبيب، وكان يحسه ويؤثره وفي حامة غزواته مبدوءة بغزوة (الفردة) ومنتهى بغزوة (مؤته) التي كان فيها شهادته (رضوان الله عليه).

وقد تنهأ النبي ﷺ قبل الإسلام، فكان يعرف بين الناس بـ(زيد بن محمد) حتى نزل قوله تعالى كما في سورة الأحزاب/٥: ﴿ادعهم لأبنائهم هو اقسط عند الله﴾، فنسب بعد ذلك الى أبيه حارثة، وموجز قصة تنبيهه كما فصلتها كتب السير: أن أمه سعدى بنت ثعلبة بن عامر من بني معين بن طي زارت قومها ومعا ولدها زيد وهو غلام ابن سبع أو ثمان: فأغارت خيل لبني التميم بن جسر في البجاهلية على أبيات ممن فاختطفوا زيداً فأوثقوه الى سوق عكاظ أو سوق حباشه بناحية مكة فعرضوه للبيع فاشتراه حكيم بن حزام لعنته خديجة بنت خويلد بـ(١٠٠ أو ٧٠٠ درهم)، وبقي عندها حتى تزوجت برسول الله ﷺ فوهبته له فأعتقه النبي وتناه.

وعلم أبو حارثة بمكان ولده بمكة فتألم للرفقة وصبر حتى اذا حج الناس من كلب ورأوا زيداً فرفقوه وعزلهم في بعض مشاعر مكة فرجعوا الى أبيه فأعلموه بمكانه فخرج أبوه ومعه عمه كعب بقداده قدموا مكة فسألوا عن النبي ﷺ قيل: هو في المسجد فدخلوا عليه فقالوا له: (يا بن عبد المطلب يا بن سيد قومك أئتم أهل حرم الله فتكون الماني وتطمسون الأسير جنتك ولدنا عبدك فامتن حللنا وأحسن إليه في فداء؟

قال النبي: وما ذاك؟ قال: زيد بن حارثة، قال: فها غر ذلك؟ قالوا: ما هو؟ قال: ادعوه فخيروه؟ فان اختاركم فهو لكم بخير فداء وان اختارني فوائه ما أنا بالذي أختار على من اختارني فداء، قالوا: زدتنا على النصف وأحسن.

فدعاه النبي ﷺ فقال له: هل تعرف هؤلاء؟ قال: نعم هذا أبي وهذا عمي، قال النبي ﷺ: فأنا من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهم؟ فقال له زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكانة الاب والعم، فقال له أبوه وعمه: ويحك يا زيد أنت اختار المبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال: نعم إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار علي أحداً أبداً.

فبعد ذلك أخرجه رسول الله ﷺ الى الحجر من البيت ونادى: (يا من حضر اشهدوا: أن زيداً أبنى يرثني وأرثته)، فلما رأى ذلك أبوه وعمته طابت أنفسهم وانصرفا فدعي من ذلك العهد زيد بن محمد ﷺ، حتى جاء الاسلام وامر بالدعوة الى الالهة، دعي زيد بن حارثة، وكان زيد من طلائع المهاجرين مع الرسول ﷺ الى المدينة وشهد معه بدرأ وأحداً والخندق والحديبية وغيره وأخرها مؤتة التي بها كانت شهادته، وأخى النبي بينه وبين الحمزة عمه أو جعفر ابن عمه (كما قيل).

وروي: أن النبي ﷺ لما تنهى زيداً وزوجه مولاته أم أيمن فولدت له أسامة ثم وزوجه: زينب بنت جحش بن رثاب بنت عمته أمية بن عبد المطلب ثم طلقها وتزوجها النبي ﷺ بعد ذلك. وزوجه: أم كلثوم بن عتبة وأما أروى بنت كرز وأما

→ بيضاء بنت عبد المطلب فولدت له: زيد بن زيد ورقية، ثم طلقها وتزوج (درة) بنت أبي لهب ثم طلقها وتزوج: هند بنت العوام واستشهد رضوان الله عليه مع زميله الآخرين في مؤنة في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة (هـ ٥٥ أو ٥٠ من العمر)، وذكرته عامة كتب السير والمعاجم بالتفصيل كإصابة ابن الجبر، واستيعاب ابن عبد البر، وسير اعلام النبلاء للذهبي، وتهذيب الاسماء واللغات للتويري، وصفوة الصغوة للصفدي وخزانة البخاري، والروض الآنف للسبلي وغيرها الكثير.

(٣) أبو محمد أو أبو عمرو عبد الله بن ربيعة بن ثعلبة بن امرؤ القيس بن عمرو بن امرؤ القيس الأكبر الخزرجي الأنصاري. من السابقين الأولين إلى الاسلام ومن شهد العقبة، (وكان حينئذ) تقيب بني الحارث بن الخزرج ومن طلائع المهاجرين إلى المدينة. وقد آخى النبي بينه وبين المقداد بن عمرو عند ذلك، وشهد مع النبي ﷺ بدرأ وما والاها من عامة مشاهدته وغزواته حتى غزوة مؤتة كانت في جمادى الأولى في السنة الثامنة للهجرة، وفيها كانت شهادته رضوان الله عليه وكان القائد الثالث من قواد الغزوة حسب تعيين النبي ﷺ كما عرفت، وكان في عامة الغزوات والمشاهد أول الخارجين إليها وآخر المائدين منها.

وبعث النبي ﷺ مع ثلاثين راكباً إلى مواجهة أسير بن رزام اليهودي بخيبر وكان محصناً قتلته. وكان من كتاب الأنصار إلى النبي ﷺ، وهو الذي جاء ببشارة فتح بدر إلى المدينة، وكان على درجة عالية من الإيمان والإصلاح والمادة، فقد كان دؤوب الذكر له كثير الصلاة والصوم، فقد روي: إنه كان إذا دخل بيته صلى ركعتين، وإذا خرج منه فعل ذلك.

وورد الثناء عليه وعلى إيمانه من النبي ﷺ، كقوله ﷺ: (رحم الله ابن ربيعة إنه يحب المجالس التي تنباه بها الملائكة). ولصلاة إيمانه ورسخه كان كثيراً ما يبعث النبي ﷺ خارصاً إلى يهود (خيبر)، فرما جمعوا له حلياً من نساءهم وقدموه إليه قبل الخرص وقالوا له: هذا لك وخفف عنا؟ فيقول لهم: يا معشر يهود خيبر إنكم أبغض خلق الله إلي وما هذا بحاملي على أن أجور عليكم والرشوة سحت فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

كان من شجعان الشراء الذين يتأفحون عن الاسلام وعن نبي الاسلام ويهجون المشركين والمنافقين بشعرهم، فقد روي عن الزبير بن العوام قوله: (ما رأيت أجراً مقدماً ولا أسرع شعراً من ابن ربيعة)، وفيه حسان بن ثابت وكعب بن مالك نزل الاستثناء من الآيات، (والشراء يتجهجم التعاون) في قوله بعد ذلك: (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) إلى أواخر سورة الشراء، فمن ذلك: ما روي انه مر يوماً في مسجد رسول الله ﷺ وهو جالس وقد أحاط به جماعة من أصحابه، فلما رآه النبي ناداه فأقبل حتى جلس بين يديه فقال له: كيف تتول الشعر، قلت: انظر في ذلك ثم أقول قال النبي ﷺ: فعليك بالمشركين؟ قال ابن ربيعة: ولم أكن حيات شيئاً فنظرت، ثم أنشدته هذه الآيات:

يا هاشم الخير ان الله فضلكم على البرية فضلاً ما له غير
انني لفرست فيك الخير اعرفه والله يعلم ان ما خافني البصر

يوم الحساب لقد ازرى به القدر
تثبتت موسى ونصرا كالذي نصروا

→ انت النبي ومن يحرم شفاعته
فثبتت الله من لالهك من حسن

فأقبل النبي ﷺ عليه بوجهه سبأ وقال: (ولاله فتيتك الله).

ومن ذلك: ما ذكره المؤرخون: أن المسلمين الذين خرجوا مع النبي ﷺ لتوديع القواد الثلاثة إلى الغزوة فأخذوا يقولون لهم: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلتا صالحين، وجعل عبد الله بن رواحة يقول:

وهضبة ذات فرع تنفذ الزيد

لكنني أسأل الرحمن مغيرة

بحرية تنفذ الاحشاء والكبد

او طعنة سيدي حران مجهزة

يا ارشد الله من غاش وقد رشدا

حتى يقولوا اذا مروا على جدتي

باقتضاب عما كتب عامة السير والمعاجم والنسب والأدب كتاريخ الطبري، وكامل ابن الاثير. ونهاية النوري، وبداية ابن كثير ضمن الحديث عن غزوة مؤتة، والإصابة لابن حجر، والاستيعاب لابن عبد البر، وسير اعلام النبلاء للذهبي وتهذيب الاسماء واللفات للنوري بترجمته، وتهذيب التهذيب لابن حجر، وحلية الاولياء لابن تيمم، وخراتة البغدادي، وجسمرة اشعار العرب وغيرها كثير.

(٤) اختلف المؤرخون في تعيين القيادة الأولى لجعفر أو يزيد بعد اتفاقهم على تخصيص الثالثة لعبد الله بن رواحة.

لعامة المؤرخين ينطون الأولوية لزيد بن حارثة، وبعضهم ينبطها بجعفر ابن أبي طالب، قال المحرقي في تاريخه: ج ٢ ص ٥٤ ط نجف بعد ذكر رواية البعض: تدريجها من زيد الى جعفر الى عبد الله: وقيل (بل كان جعفر هو المقدم ثم زيد بن حارثة ثم عبد الله بن رواحة)، قال العديدي في شرح النهج: ج ١٥ ص ٦٢ ط دار إحياء الكتب العربية: (اتفق المحدثون على أن زيد بن حارثة هو الأمير الأول، وأنكرت الشيعة ذلك وقالوا: كان جعفر ابن أبي طالب هو الأمير الأول ورووا في ذلك روايات، وقد وجدت في الاشعار التي ذكرها محمد بن اسحاق في كتب المفازي ما يشهد لقولهم.

فمن ذلك: ما رواه عن حسان بن ثابت الأنصاري، وهو:

وهم اذا ما نؤم الناس مسير

فأوبني ليل بيثرب اعسر

الى قوله:

بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر

فلا يبعدن الله قتلى تخابوا

جميعا واسياف المنيحة تخطر

وزيد وعبد الله حين تخابوا

(شعوب) وخلفي بعدهم يتأخر

رأيت ضيار المؤمنين تواردوا

الى الموت ميمون للنقيبه ازهر

غداة غدوا بالمؤمنين يقودهم

ابي اذا سيم الظلامة اصغر

اغز كضوء الشمس من آل هاشم

بمعمرك فيه القنا صلتكم

قطاعن حتى مال غير مؤسو

→ فصار مع المستشهدين ثوابه

وكنا نرى في جعفر من محمد

وما زال في الاسلام من آل هاشم

* شعوب بالفتح: من أسماء العنية.

ومنها قول كعب بن مالك الانتصاري من قصيدته، أولها:

نام العيون ودمع عينك يهمل

وجداً على النظر الذين تتابعوا

ساروا أمام المسلمين كأنهم

اذ يعدون بسجف ولوائه

حتى تلوخت الصلوف وجعفر

فتغير للقرم المنير لفسده

قوم علا بنيانهم من هاشم

قوم بهم عصم الله عبادته

جنان وملفت الحدايق اخضر

وقاراً وأمراً حازماً حين يامر

دعاهم صدق لا ترام ومغفر

سبحاً كما وكف الرباب المسبله

قتلى بمؤنة أسندوا لم ينقلوا

منود يقودهم الهزبر الشئبل

وقدام أولهم ونعم الأول

حين اتلى جمع الفواة مجدل

والشمس قد كسفت وكادت تأفل

فرع أشم وسؤد مقاتل

وعليهم نزل الكتاب المفضل

إلى هنا ينتهي الحديدي من كلامه، كما أن ابن هشام يذكر القصيدتين لحسان وكعب بكاملها في السيرة النبوية: ج ١ ص

٣٨٤-٣٨٥ ط ثانية بمصر.

كما أنه يذكر في المصدر نفسه: ص ٢٨٨ أبيات ثلاثة في رثاء القواد الثلاثة لشاعر آخر من المسلمين الذين كانوا قد حضروا

المعركة يتدرج في ذكرهم مما يستشر منه أولية جعفر في القيادة والايات هي:

وزيد وعبد الله في رمس أقبر

وخُصِّفَ للمجلوى مع المتغير

إلى ورد مكروه من الموت أحمر

كفى حزناً اني رجعت وجعفر

قضوا نحبهم لما مضوا لسبيلهم

ثلاثة رهط قُذِمُوا فستلذموا

أقول ولعل هذه الشهادة من الشاعر الأنصاري الثاني أصرح منها من الشاعر الأنصاري الأول في اعتبار جعفر هو القائد الأول

قبل زميله، هذا بالإضافة إلى ما يظهر من الشاعر الثالث بمرض التدرج في الأسماء كما عرفت من الإشارة إلى المتقدم.

ويقول السيد عليخان المدني في الدرجات الرفعة: ص ٧٨ ط التجف بعد أن يذكر تلك الأبيات: (وهذه الأبيات تشهد للشيعة بأن

جعفر هو الأمر الأول، فإن قتل يزيد بن حارثة، فإن قتل عبد الله بن رواحه، لا ما يزعمه عامة المحدثين من أن الأمر

الأول زيد بن حارثة، ثم جعفر، ثم عبد الله)

مما يؤيد ذلك: ما عرف به جعفر عند النبي ﷺ والمجتمع الإسلامي من كفاءته المتفوقة في الشجاعة النفسية والجسمية على

زميله الآخرين.

وانطلق الجيش الإسلامي بعزم وثبات وراء قواده الثلاثة: جعفر وزميليه متوجهاً إلى غزوة مؤته من أرض الشام وفلسطين، فشيّعهم رسول الله ﷺ ومعه بعض أصحابه إلى ثنية الوداع^(١)، فانفصلوا على قلة عددهم بالنسبة إلى جيش الروم بقيادة ملكهم هرقل الذي يتجاوز عدده: المئة ألف مقاتل^(٢)، فالتقى الفريقان بذلك الموضع وصمد جعفر بمن معه ولا هالته تلك الكثرة المتضاعفة من الكفار فما هي غير صرخة من فم جعفر واندفاع إيماني بواقعه إلى المعركة حتى اقتحم المسلمون من ورائه لبحر الروم يخوضونه ليعبروه بعزيمة وصمود إلى حيث معركة الشرف وجعفر بيميناه السيف وبيسراه اللواء حتى إذا توغل المعركة ترجل عن فرسه وعقره ليثير الحماس في صفوف اخوانه المسلمين، كما يثير الرعب في قلوب أعدائه الكافرين الفزعين من صولاته وجولاته، فأخذ يقاتل القوم راجلاً وما كان بأسرع من أن يحيط العدو به فتطيح يده من مرفقيه مقطوعتين بسيف الكفر والاعتداء الأثيم فيبذل الله بهما جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة حيث يشاء على حد تعبير الحديث المأثور عن النبي ﷺ، ثم أخذ الراية ببقية يده اليسرى وأسندها إلى صدره وأخذ يقاتل حتى قتل رضوان الله عليه. وكادت راية الاسلام أن تسقط على الأرض لولا أن يقلها القائد الثاني أو الثالث فيشدها بعزيمة المسلمين، وانحسر الميدان فإذا بجعفر صريع على وجه الأرض شهيد كرامة وكريم شهادة. يقول عبد الله بن عمر وبعض من حضر المعركة على مصرعه:

→ السح: الانصباب الغزير: والوكف السيلان القليل، والرياب المسيل: السحاب المنصب.

فالظاهر من هذا وذاك: أن الأثرية في القهادة لا تعدو جعفر ابن أبي طالب، والله العالم.

(١) ثنية بالفتح والتشديد مضافة إلى الوداع للتعريف والتعيز ومن معانها: طريق العقبة، وثنية الوداع هي المشرفة على

المدينة يصعد منها من يقصد مكة، سميت بذلك لأنها موضع وداع المسافرين من المدينة إلى مكة وهي اسم قديم جاهلي.

(٢) في عامة كتب السير تحديد جيش الروم بقيادة هرقل بمئة ألف مقاتل كما ذكر ذلك التويري في نهاية الأرب: ج ١٧

ص ١٧٩ ط دار الكتب المصرية، وشرح النهج للحديدي: ج ١٥ ص ٦٦ ط دار إحياء الكتب العربية، وفي سيرة ابن هشام:

ج ٢ ص ٣٧٥ ط ثانية بمصر: فبلغ الناس أن هرقل قد نزل (مأب) من أرض البلقاء في مئة ألف من الروم وانضم إليهم من

لحم وجذام بالفتن وبهرام وبلي: (مئة ألف منهم)، ومثله في كامل ابن الأثير: ج ٢ ص ١٥٩ ط بيروت.

وفي تذكرة السبط: ص ١٨٩ ط النجف: (فالتقام هرقل في أربعمائة ألف، منهم: أربعون ألفاً مقرنين).

«وجدنا ما بين صدر جعفر ومنكبيه وما أقبل منه تسعين أو بضعا وتسعين جراحة ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح»^(١).

قالوا: ويبلغ النبي ﷺ مصرع جعفر على بُعد الحدود الفاصلة بينهما فينعا وزميليه القاتدين للمسلمين قبل أن يجي خبرهم من الناس وعيناه تذرفان بالدموع^(٢)
ثم جاء النبي ﷺ ومعه عليّة أصحابه «إلى بيت جعفر» وهو يبكي، وأخذ ينادي: أسماء بنت عميس زوجة جعفر ويقول: يا أسماء أئتيتي ببني جعفر؟ فقالت له: بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم أصيبوا هذا اليوم، فأخذت أسماء تعج وتصيح واجمعت إليها النساء وأخذن يندبن معها: جعفر والنبي بحالة بكاء وحزن.
ثم خرج ﷺ حتى دخل على ابنته فاطمة ؑ فأخبرها باستشهاد ابن عمها جعفر، فصاحت: وا ابن عماء! فبكى النبي ﷺ وقال: «على مثل جعفر فلتبكي البواكي»^(٣).

ومعنى هذه الكلمة من النبي ﷺ: أن مثل جعفر في شدة جهاده وجلاده عن الإسلام جدير أن يبكى عليه ويُدب بحكم حدود الكمال الإنساني الذي اكتنفت نفسه الزكية وانتظمت حياته المقدسة تلك الحدود التي جعلته كما جعلت أخاه علياً وعمه الحمزة

(١) المصادر الآتية: من ذخائر الطبري ص ٢١٨، وتذكرة السبط، وسير أعلام النبلاء، وتهذيب الأسماء للسنوي: ص ١٤٩، وإصابة ابن حجر، والاستيعاب لابن عبد البر ترجمته بعرف الجيم، والتنبيه والأشراف للمسمودي: ص ٢٣١ وغيرها وفي كامل ابن الأثير: ج ٢ ص ١٦٠: (بضع وثمانين)، وفي شرح الحديدي: ج ١٥ ص ٧٢. وكذلك في نهاية النوري المصدر الاتف (٧٢)، وفي البعض (٥٤) وقيل أقل من ذلك، وفي بعض تلك المصادر: عدّ ضربات السيف في مقدمه بـ (٥٤) وعدد الطعنات ببضع وتسعين كما فصل النووي.

(٢) تذكرة السبط: ص ١٨٩ ط النجف، وفي الدرجات الزكية للسيد مدني: ص ٧٦ ط النجف بإسناده عن يحيى بن أبي يعلى قال: (سمعت عبد الله بن جعفر يقول: أنا أحفظ حين دخل النبي ﷺ على أبي فمضى إليها أبي أنظر إليه بمسح على رأسي ورأس أخي وعيناه تهرقان بالدمع حتى قطرت لبعيته ثم قال: (اللهم إني جعفر أقدم أحسن الثواب فأخلفه بذريته بأحسن ما خلقت أحداً من عبادك في ذريته، ثم قال ﷺ: يا أسماء أبشرك، قالت بلى بأبي وأمي فأعلم الناس بذلك؟ فقام رسول الله ﷺ وأخذ يهدي بمسح برأسي حتى رقى العنبر وانزلني امامه في الدرجة السفلى وإن الحزن ليحرف عليه فتكلم فقال: (إن المرء كثير باخبر وابن عمه، إلا أن جعفرًا قد استشهد وقد جعل الله له جناحين يطير بهما في الجنة)).

(٣) شرح النهج للحديدي: ج ١٥ ص ٧١، وأنساب البلاذري: ج ٢ ص ٤٣ ط بيروت.

خير الناس، كما روى ذلك النبي ﷺ^(١) فكتب عامة الفضائل التي كتبت لعلي وحمة في ميادين السبق والجهاد.

● شهادته وقبره

ويتراعى جعفر ابن ابي طالب عن صهوات الحياة فتصعد روحه إلى عليين ويقبر جسده الطاهر حيث مصرعه المشهور من «أرض الشام، كان يدعى بكر»، ويترك لنا وللتأريخ الإسلامي الناصع من البنين ثمانية أكبرهم: ولده الأكبر عبد الله الجواد أبو الأشبال الثلاثة الشهداء في حومة كربلاء بين يدي الحسين بن علي ﷺ إلى هنا ينتهي بنا الحديث بإيجاز عن ثالث أشبال أبي طالب الأربعة المتدرجين بحسب السن: طالب، وعقيل، وجعفر.

أما أصغر أشباله: سنأ وأكبرهم شأنًا فعلي أمير المؤمنين وسيد الوصيين ﷺ، ولئن سمح لنا المقام الاستطرادي بإيجاز الحديث عن أولئك الأشبال الثلاثة على اختلافه من حيث الاقتضاب والعرض فلا يكاد يسمح لنا ذلك المقام بالحديث ولولمحات عن عامة الجوانب من شخصية هذا الشبل الرابع ولا عن بعض منها.

فعلي ﷺ يتميز عن أشقائه الثلاثة بالرغم من عظمة مقام جعفر بل عن أية شخصية من شخصيات بني هاشم بالخصوص أو من شخصيات قريش أو العرب بالعموم بميزات وخصائص نابعة من ذاته القدسية أو طاغية على ذاتياته الإسلامية قد تجتاز تلك المميزات والخصائص: حدود العشرات في الحساب إلى مضمار المئات أمثال: ولادته في الكعبة، وتسميته من قبل الله تعالى، وتقديته من لسان النبي ﷺ وريته ومؤاخاة النبي له، وجعله باب مدينة علمه، وتزويجه ابنته الزهراء ﷺ، وكونه أحب الخلق إلى الله وإلى رسول الله، وكونه وصي النبي ووارثه وقاضي دينه، وكونه من النبي والنبي منه وأن حبه حب الله ورسوله وبغضه بغضهما وأن سلمه سلم النبي ﷺ وحره حربه، وكونه عضد النبي ﷺ ووزيره وخليفته، وكونه ومحمد ﷺ أبوا هذه الأمة واقتداه النبي ﷺ في المبيت على فراشه، وصعوده على منكب النبي ﷺ في تحطيم

(١) الرواية عن ابي سعيد الخدري، قال قال رسول الله ﷺ: (خير الناس: حمزة وجعفر وعلي) شرح النهج للحمددي: ج ١٥

الأصنام على ظهر الكعبة، وأنه أول الناس، إسلاما، وأول من حمل لواء الإسلام بين يدي رسول الله ﷺ وأنه صاحب لواء النبي في الدنيا والاخرة وصاحب لواء الحمد، وأنه أول المسلمين المدافعين عن الاسلام ونبيه، واختصاصه بتبليغ سورة براءة للمنافقين وقسيم الجنة والنار، والساقي على الحوض يوم القيامة، وأنه خير البشر من ولد آدم وسيد العرب، وسيد المسلمين، ويعسوب المؤمنين، وإمام المتقين، وقائد الفر المحجلين، ومحبوب المؤمنين ومبغوض الكافرين، والضارب بالسيفين والطاعن بالرمحين، والمصلي الى القبلتين وأبي السبطين: وأبي الائمة الهداة من قريش، وأن النظر الى وجهه عبادة، وأنه من النبي ﷺ بمنزلة هارون من موسى، وأنه مع القران والقران معه، وأنه مع الحق والحق معه، وأنه كتاب الله الناطق، وأنه اقضى الصحابة وأعلمهم بالدين وأقرأهم للقرآن، وتفرد في حفظه وجمعه ومعرفة معانيه وموارد تنزيله وتأويله، وأنه أفضل هذه الأمة بعد نبيه، وأن حقه على المسلمين كحق الوالد على ولده، وأن إيمانه يرجح على السموات السبع والأرضين السبع، وأن الشمس ردت له مرتين بعد غروبها، وأن دخول الجنة مقرون بولايته والبراءة من أعدائه، وأن حبه عنوان صحيفة المؤمن، وأن بولايته إكمال الدين وإتمام النعمة، واختصاصه بتسعة أعشار الحكمة وآية التبليغ يوم الغدير، وآية الزكاة بالغاتم وغيرهما من الايات^(١)، الى اضعاف تلك المميزات والخصائص التي يستوجب الحديث المشيع عن كل منها: تحبير صفحات وصفحات ذلك مما يخرجنا عن عبور الشوط المستطرد إلى قطع الأشواط الكثيرة.

فالأجدر بنا بعد هذا أن نختم الكلام عن الفصن الثالث من أغصان تلك الزيتون الهاشمية لنصرف زمام الحديث الموجز عن الفصن الرابع منها وهو أسد الله وأسدر سوله وسيد الشهداء الأولين، وعم النبي المفضل أبو يعلي وعمارة: «العمزة فتى عبد عبد المطلب».

(١) ذكرنا: هذه المميزات والخصائص وغيرها لأمر المؤمنين ﷺ في ملأها من كتابنا الكبير المخطوط: (صفحات مشرقة من تاريخ أهل البيت ﷺ) كلها ماخوذة عن الكتاب والسنة بالتصريح والتلميح ومنقولة بالأحاديث والتواتر عن كتب الصحاح والأخبار للفرقين.

الفصل السابع

الحمزة فتي عبد المطلب

واسمه وكنته وألقابه وإظهار إسلامه بعد إخفائه في السنة الثانية للبعثة، هجرته مع النبي ﷺ إلى المدينة في الرعيل الأول من المهاجرين، يعقد النبي ﷺ له راية حمراء بعد إظهار إسلامه، وحضوره مع النبي ﷺ بدرأً وأحدأً، وفيها استشهد، مناقبه كثيرة من خلال الكتاب والسنة، تمتعه بسمات جميله وصفات نبيلة، مواقفه الصارمة في نصره الاسلام قبل إظهار إسلامه، واقعة أحد وشهادته فيها، تمثيل هند بحمزه وبقية الشهداء، شماعة أبي سفيان بشهادة حمزه، النبي ﷺ يغضب للتمثيل بحمزه، النبي يبكي على حمزه ويوصي الأنصار ونسائهم بالبكاء عليه، استحباب زيارة قبره بالبقيع، صفة أخته ترثيه، ويرثيه غيرها من الشعراء.



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

● الحمزة فتي عبد المطلب

هو حمزة بن عبد المطلب الهاشمي القرشي^(١)، عم النبي المفضل^(٢)، وأخوه من الرضاعة^(٣)، وكان اسن منه^(٤)، وقريبه من أمه^(٥).

ولد رضوان الله عليه في مكة قبل الهجرة بأربع وخمسين عاماً واستشهد في واقعة أحد سنة ثلاث للهجرة.

ويكنى بأبي عمار وأبي يعلى باسم ولديه^(٦)، ويلقب بأسد الله وأسد رسوله وسيد

(١) فهد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وهو قرشي وإليه تنسب القبائل القرشية على اختلاف بطونها كما مر ذلك في أوائل الكتاب.

(٢) فأعمام النبي ﷺ من أولاد عبد المطلب عشرة أو أكثر لأمهات عدة كما سبق ذكرهم في أول الكتاب، ولم يرد أي منهم في التناء والإطراء من النبي ﷺ بهذا الشأن فيقول: (خير أعمامي حمزة) مع الاعتذار من حامي محمد ﷺ ودينه وكافله شيخ الأبطح ومؤمن قرش السيد أبي طالب رضوان الله عليه، فإن لكل من هذين العيين العظيمين: الحمزة وأبي طالب مقاماً متميزاً في مسيرة الإسلام والتضادي دونه.

(٣) فقد أرضعتهما وعبد الله بن الأسد (نوبة) مولاة أبي لهب بلبن ابنها مسروح أو أرضعت كلا من حمزة والنبي ﷺ بلبن ولد مستقل من أولادهما كما قيل، وذلك لا ينافي ما هو المشهور المأثور: من استرضع النبي ﷺ في بني سعد بلبن حليلة السعدية، فلمل الرضاع الأول كان لفترة قصيرة ربما يتها لها الرضاع الثاني، والله العالم.

(٤) المشهور بين المؤرخين وعامة من الكتب عن الشهيد حمزة أنه أسن من النبي ﷺ بأربع سنين، وفي بعض المصادر بسنتين، ولعله الأنسب بملاقة الرضاعة بينهما بلبن (مسروح) كما ذكرنا، قال المحب الطبري في ذخائر العقبى: ص ١٧٢ ط القدسي بالقاهرة: وكان أي حمزة أسن من النبي ﷺ بأربع سنين، قال أبو عمر: وهذا يرد ما تقدم ذكره انفا من تعيد رضاع نوبة بلبن ابنها مسروح إذ لا رضاع إلا في حولين ولولا التعيد بذلك لأمكن حمل الرضاع على زمنين مختلفين قلت: ويمكن أن تكون نوبة أرضعت حمزة في آخر سنه في أول رضاع ابنها وأرضعت النبي ﷺ في أول سنه في آخر رضاع ابنها فيكون حمزة أكبر بأربع سنين، وقيل كان أي حمزة أسن من النبي ﷺ بسنتين.

(٥) فإن أم حمزة وشقيقته: المقوم وحجل وشقيقته صبية: هالة بنت وهيب بن عبد المناف بن زهرة، وأم النبي ﷺ: أمية بنت وهب بن عبد المناف بن زهرة فهما بنتا عم.

(٦) ذكرنا في أوائل الكتاب: أن لحمزة ولداً يقال له عمار بالضم، يكنى به أبوه من امرأة أنصارية يقال لها: خولة بنت قيس

الشهداء وخير الشهداء كما جاء ذلك على لسان الرسول محمد ﷺ.

أظهر اسلامه المتطامن في واقعه في مستهل السنة الثانية من بعثة النبي ﷺ على الأصح^(١)، وبقي في مكة يواصل مسيرته الإسلامية حتى هاجر إلى المدينة مع النبي ﷺ في الرعيل الأول من المسلمين المهاجرين، فأخى النبي ﷺ حينئذ بينه وبين زيد بن حارثة الأنصاري.

وعقد له النبي في تلك السنة لواءً وأرسله في أول سرية إلى «سيف البحر» في أرض «جهينة» في ثلاثين راكباً من المهاجرين الأولين لاعتراض عير لقريش واردة من الشام تريد مكة، فلقي أبا جهل بذلك الساحل وهو في ثلاث مئة راكب من أهل فحجر بين الفريقين مجدي بن عمر والجهيني، وكان موافقاً للطرفين فلم يقع السيف بينهما فكانت راية حمزه أول راية عقدها النبي ﷺ لأول سرية في الإسلام بعد الهجرة^(٢) وذلك في أوائل ربيع الأول من سنة اثنتين للهجرة على رواية المدائني^(٣).

ثم حضر مع النبي ﷺ واقعة بدر الكبرى في شهر رمضان من تلك السنة الثانية وأبلى فيها بلاءً حسناً فكان يقاتل المشركين بسيفين حتى قتل من صناديد قريش العدد الكثير بنفسه أو بمعاونته أمير المؤمنين ﷺ، وممن قتله حمزة من المشركين: طعيمة وابن عدي أخ المطعم بن عدي المعروف^(٤).

→ من بني النجار كما عليه المشهور. ويضيف ابن حزم في جمهرته: ص ١٧ ط القدسي بمصر: (أن النبي ﷺ قال: والذي نفسي بيده إنه مكتوب عند الله عز وجل في السماء السابعة: حمزه بن عبد المطلب أسد الله وأسدر سوله)، وفي سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ١ رقم ١٩ (أن النبي ﷺ قال سيد الشهداء حمزه بن عبد المطلب)، وفي المصدر الآنف: من الذخائر، والزركلي في الأعلام وغيرهما من كتب السير.

(١) كما عليه المحب الطبري في المصدر الآنف من الذخائر، والزركلي في الأعلام وغيرهما من كتب السير.

(٢) سيرة ابن هشام: قسم ١ ص ٥٩٥ ط ثانية بمصر، وعن المدائني: (أن أول لواء عقده رسول الله ﷺ كان لحمزه وكان شعار حمزه في الحرب (ريشة نعام بعضها على صدره).)

(٣) هكذا في المصدر الآنف: من الذخائر، وفي نهاية الأرب للثوري ج ١٧ ص ٢ ط دار الكتب المصرية: أن ذلك كان في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة.

(٤) المطعم بصيغة اسم الفاعل بن عدي ونوفل بن عبد مناف القرشي فهو محسوب على بني هاشم، فنوفل وأمه واقدة

وقد عقد النبي ﷺ لحمزه لواءاً من ألوية جيشه كما عقد لأخيه الزبير مثل ذلك، وكان شعار حمزه في الحرب ريشة نعامة كبيرة حمراء يضعها على صدره، كما أن شعار أخيه الزبير في الحرب عمامة صفراء يشد بها رأسه، عن البيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ٣٥٣، وما أن دخلت السنة الثالثة للهجرة حتى شارك في وقعة أحد قائد فيلق وحامل لواء، فاستشهد فيها كما سنذكر.

كما انتشرت مناقب حمزه وفضائله في آيات من الكتاب وأحاديث من السنة نذكر ما توصلنا إليه بهذه الاقتطاف فنقول:

من ذلك: ما رواه الحافظ الحسكاني الحنفي من أعلام القرن الخامس الهجري في كتابه «شواهد التنزيل»^(١) بسند عن الزبير بن عدي عن الضحاك: أن المراد من قوله تعالى

→ المازنية، وهاشم وأمه عاتكة السلمية أخوان لأب واحد.

وكانت لمطعم كما لأخيه طعمية أيضاً زعامة قومهما بني نوفل في الجاهلية. وكان مطعم بالخصوص قائد قومه في حرب الفجار قبل ثلاث وثلاثين سنة قبل الهجرة.

ولزعامة مطعم في قومه ومقامه العظيم لهم. استجار به النبي ﷺ في توجهه من الطائف الى مكة فأجاره وأمنه مع قومه من أذى قريش، وقام هو وأهل بيته بحماية النبي ﷺ حتى أوصلوه الى مكة فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف الى منزله آمناً من أذى المشركين.

كما إنه الذي أجار سعد بن عبادَةَ الأنصاري حين دخل مكة متنزلاً وقد همت قريش بقتله فخلصه من أيديهم حتى سلمه الى اهله وذويه.

كما إنه كان في طلمعة أولئك الرجال الغضة الذين سحوا في تمزيق صحيفة قريش التي كتبها ضد بني هاشم فأبطلها ورفع الحصار عنهم.

كف بصره في أخريات أحواله، ومات قبل واقعة بدر بأشهر من السنة الثانية للهجرة عن بضعة وتسعين عاماً من العمر، وفيه يقول حسان بن ثابت من قصيدته

(فلو كان مجد يخلف الله واحداً من الناس أبقى مجده اليوم مطعماً)

باعتصاب من نسب قريش للزبير، وسيرة ابن هشام، والمحبر للنسابة البغدادي، وإعلام الزركلي والامتناع المؤنسة للمقرزي. وأما أخوه (طعمية) بالتصغير قد حضر بدرأ مع المشركين فقتله حمزه مستقلاً أو بمعاونته علي بن أبي طالب. من كتب السير والنسب كنسب قريش، ومحبر البغدادي وسيرة ابن هشام.

(١) الحافظ عبيد الله بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن حسان المعروف بالحاكم النيسابوري الحنفي، أبو القاسم

كما في سورة التوبة: ١٠٠: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ أَمْتِهَا جَرِيرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾، هم ستة: علي وحزمة وعمار وأبوذر وسلمان والمقداد^(١).

وما رواه أيضاً بسنده عن أبان بن مجاهد: «أن قوله تعالى كما في سورة القصص: ٦١ ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَآتِيهِ كَمْثَنَ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُخْضَرِينَ﴾، نزلت أولها في علي وحزمة وآخرها في أبي جهل».

ويسنده عن أبي صالح عن عبد الله بن عباس: إضافة جعفر إلى علي وحزمة^(٢). وما رواه أيضاً بسنده عن عطاء عن ابن عباس: أن قوله تعالى كما في سورة

→ الحذاه بالتشديد من أعلام القرن الخامس الهجري.

كان حنفي المذهب وبه ميل إلى العدلية اعتزالاً أو تشيعاً.

ولد في نيسابور ونشأ فيها نشأة علم ومعرفة، ثم سافر إلى كثير من البلدان الإسلامية ومنها بغداد حاضرة الفقه والحديث يومئذ لتلقي الحديث وجمعه وتدوينه، فكان له في ذلك عدة كتب ورسائل من أهمها: كتابه المشهور المسمى (شواهد التنزيل لقواعد التفضيل) يستعرض فيه الآيات والأحاديث المحكمة والمؤولة في فضائل أهل البيت عليهم السلام، وقد طبع بجزءين في مجلد واحد في بيروت سنة ١٣٩٢ هـ بتحقيق العلامة المحقق الشيخ محمد باقر المحمودي.

ورد التاء على ضبطه وانتهاه للحديث من قبل عامة الحفاظ وأهل الحديث، فقد ذكره السيوطي في طبقات الحفاظ بالجللة والإطراء فقال عنه: (شيخ محدث متقن ذو عناية تامة بعلم الحديث عمر وعلى أسناده وصنف في الأبواب وجمع إلى قوله: ومات بعد أربع وسبعين).

كما ذكره الذهبي في كتابه (تذكرة الحفاظ) ج ٤ ص ٣٩٠ ط الهند قال (...الحسكاني القاضي المحدث أبو القاسم: عبيد الله بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن حسان القرشي العامري النيسابوري الحنفي الحاكم، ويعرف بأبن الحذاء، شيخ متقن ذو عناية تامة بعلم الحديث وهو من ذرية الأمير عبد الله بن عامر بن كرز الذي انتزع خراسان زمن عثمان، وكان معمرًا عالي الإسناد متفنن وجمع وحديث عن جده، وابن أبي الحسن العلوي، وأبي عبد الله الحاكم وأبي طاهر بن محسن وعبد الله بن يوسف الأصبهاني وأبي الحسن بن عيدان، وابن فضال الدينوري، وأبي الحسن علي بن السقاء، وأبي عبد الله بن باكره واغتصص بصحبة أبي بكر بن الحرث الأصبهاني النحوي وأخذ عنه إلى قوله: وقد توفي بعد سنة تسعين وأربع مائة). باقتضاب من مقدمة كتابه (شواهد التنزيل)، وبعض كتب السير والترجمة.

(١) مراجع من الكتاب: ج ١ ص ٢٥٥ ط بيروت.

(٢) مراجع من الكتاب: ج ١ ص ٤٣٦-٤٣٧ ط بيروت. ويروي المحب الطبري في ذخائر القتيبي: ص ١٧٧ ط القديسي نزول الآية: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ.....﴾ في حمزة وأبي جهل عن السدي من حيث فترتها: الأولى والثانية، وفي نفس الصفحة يروي عن بريدة: نزول قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ...﴾ الآية في حمزة بن عبد المطلب وأنس بن النضر وأصحابه.

الحجرات / ٤٩: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزُنْوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، نزلت في علي بن أبي طالب وحمزه وجعفر الطيار^(١).

ويروي الحسكاني أيضاً: روايتين في نزول قوله تعالى كما في سورة الصنف / ٦١ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بَيْنَانًا مَرْصُومًا﴾: أولهما عن الضحاك عن ابن عباس: «أنها نزلت في حمزه أسد الله ورسوله، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحرث، والمقداد بن الأسود»، والثانية عن أبي صالح عن ابن عباس: «أنها نزلت في علي وحمزه وعبيدة وسهل بن حنيف والحرث بن الصمة وأبي دجاجة»^(٢).

ويروي القمي في كتابه سفينة البحار: نزول قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ...﴾ في حمزه وعلي^(٣).

وكذلك يروي القمي في سفينته أيضاً عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فِي بَيْتٍ أَدْنَى اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمَاءَ﴾^(٤)، الآية، قال آل محمد عليه السلام بيت علي وفاطمة والحسن والحسين وحمزه وجعفر، قال: ثم وصفهم الله عز وجل وقال: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ...﴾^(٥) الآية، قال: هم الرجال لم يخلط معهم غيرهم^(٦).

هذا قليل من كثير من الآيات النازلة أو المؤولة في أهل البيت عليه السلام بالعموم وفي حمزه سيد الشهداء بالخصوص.

وأما الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليه السلام بهذا الشأن فلا يسع المقام إلا

(١) مراجع من شواهد الحسكاني: ج ٢ ص ١٨٦-١٨٧ ط بيروت.

(٢) مراجع من شواهد الحسكاني: المصدر الآنف الذكر. (٣) مراجع من الكتاب: ج ٢ ص ٢٥١-٢٥٢.

(٤) مراجع ج ١ من السفينة حرف الباء ضمن ترجمة حمزه، والآية / ٢٢ من سورة الزمر.

وتكملة الآية: ﴿فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنَ الْقَدَسِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ﴾، يقول السيد عبد الله شير في تفسيره: إن الآية بفقرتها نزلت في علي وحمزه وأبي لهب وولده.

(٥) سورة النور / ٢٦ وتكملة الآية: ﴿يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

(٦) تلو الآية الآتية من سورة النور وتكملتها: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَإِذَا يُرَكِّدُوا يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

لذكر اليسير منها وبه كفاية:

فمن ذلك: ما رواه القمي أيضاً في كتاب السفينة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام): «أنه يدفع يوم القيامة إلى علي: لواء الحمد، وإلى حمزة: لواء التكبير، وإلى جعفر: لواء التسبيح»^(١).

ومن ذلك: ما رواه الطبري في ذخائره عن أنس بن مالك عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): أنه قال: «نحن بنو عبد المطلب سادات أهل الجنة: أنا وحمزه وعلي وجعفر ابن أبي طالب والحسن والحسين والمهدي»^(٢).

ومن ذلك: قوله (عليه السلام): «سادات أهل المعشر سادات أهل الدنيا: أنا وعلي وحسن وحسين وحمزه وجعفر»^(٣).

ومن ذلك: قوله (عليه السلام): «أحب إخواني إلي علي بن أبي طالب وأحب أعمامي إلي حمزه بن عبد المطلب»^(٤).

● سماته وصفاته

إلى أضعاف ما ذكرناه: من آيات وروايات وردت أو أولت في حمزة مما لا يسعنا تفصيله.

وبعد هذا فكان حمزه يتمتع بسمات جسمية باهرة وصفات نفسية نادرة، فهو باذخ الجسم مجدول القوى فارغ القامة ورحب ما بين المنكبين واسع الصدر بهي الطلعة مقتول الساعد يخطر كما يخطر الأسد الخادر.

وهو إلى جانب تلك الصلابة الجسمية، لين الجانب، لا عن ضعف، متطامن النفس لا عن خمول، نزيه عن الكبرياء والتعاضم والخيلاء غير ما يطغى عليه من زهو الفتوة وينطلق عنه من نبض القوة بحكم فتوة شبابه وقوة إهابه إلى شجاعة القلب، وشهامة

(١) المصدر الآنف الذكر من السفينة في نفس الصفحة.

(٢) المصدر الآنف الذكر من السفينة ويذكر بعد ذلك في نفس الصفحة عن فخر المحققين (قدس سره) في الرسالة الفخرية أواخر كتاب الحج قوله: (وتستحب زيارة حمزة (عليه السلام) بأحد وباقي الشهداء لما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله): أنه قال: من زارني ولم يزُر عمي الحمزة (عليه السلام) فقد جفائي)، وفي السفينة الكثير من ذكر مناقب حمزة.

(٣) ذخائر القمي لمحب الدين الطبري: ص ١٥ ط القدسي بالقاهرة.

(٤) شرح النهج للمعديني: ج ٧ ص ٦٤ ط دار إحياء الكتب العربية.

طبع، وطلاقة وجهه، وانبساط كف، وروحية مشرقة في مرآة نفسه الصافية، واستقامه في فهم الحياة وتطلع الى شأوها، وسعة العطف، وشمول لطف على العافين: من الفقراء والمساكين.

الى قوة شكيمة في مضمار الصدق، وشدة عزيمة في ذات الحق، وعرفان متأمل في ركيزة الواقع، ولم يزل في شهوق وشموخ عن الدنيا وما يخل بالكرامة ويهبط بالمروة الى أطراف مترامية في رحاب الخير والفضيلة.

فكان بعد ذلك مجمع السمات والصفات اللتين تميز الرجال في مجالات الفخر والإعتزاز، ولهذا ونحوه كان حمزة منهل اللطف والنعمة ومؤيد الايد بالقوة في صفوف المسلمين يوم إعلان إسلامه أمام المشركين، فكانوا يقولون: «اليوم عزّ محمد وامتنع»^(١). وأخيراً كان أبو عمار في الجاهلية فتى العرب وعنفوان قريش وفخر بني هاشم، كما كان في الإسلام أسد الله وأسدرسوله وسيد الشهداء وخيرهم حينما أصرح بواقعه في طلائع الزحف الإسلامي الظافر، وواكب النبي محمد ﷺ منذ إعلان دعوته في مكة إلى ما بعد هجرته إلى المدينة، فحضر معه بدر الكبرى وغيرها من الغزوات قبل السنة الثالثة للهجرة حتى ودّع حياته التضالية البناء في غزوة أحد منتصف شوال أو السابيع منه من السنة الثالثة للهجرة عن عمر يناهز السنتين عاماً بنيف كما سنذكر.

وكانت لأبي عمار: مواقف صارمة تكشف عن تركيز واقعيته الإسلامية قبل أن يظهر إسلامه الى الناس.

فقد ذكر المؤرخون: أنه كان ذات يوم راجعاً من الصيد وكان كثير المزاوله له وهو في حال فرح وغبطة، وكانت عادته شأن أي زعيم من زعماء قريش يرجع من سفره أو صيده أن يبدأ بالكعبة فيكلم بها ويطوف ثم يشتي بارتياح أندية قريش للتحدث إليهم والاستماع منهم فيما استجد من شؤون الحياة الاجتماعية طيلة مدة غيابه، وبعد ذلك يزدلف إلى منزله وأهله، وكان النبي محمد ﷺ يومئذ في بداية جهرة النبوة واصطدامه بطواغيت قريش، قال المؤرخون: فبينما حمزه راجعاً من صيده إذ يلتقي بمولاه لعبد الله

بن جذعان التيمي فتصرخ الجارية في وجه حمزه قائلة:

يا بن عبد المطلب يا أبا عمارة أيطيب لك صيد ويلذك قنص وتوسع عندك الفلوات
لهذا الصيد ولهذا القنص وابن أخيك منخفض الجانب يتسور عليه السفهاء بالشتم واللعن
والتسفيه^(١) ويلقونه بالسوء والأذى والشر، لقد رأيت أبا جهل «عمرو بن هشام يشتمه
شتماً قبيحاً، وبلغ منه ما يكره».

فاستشاط حمزه من كلامها غضباً ومضى وهو مصمم على قتل أبي جهل، فلقي أبا
جهل في ناديه من بني مخزوم وهم محدقون به في حلقتهم من البيت الحرام، فأسرع
إليه حمزة وضربه بالقوس على رأسه، اذ لم يكن سيفه معه حتى كسر القوس وشج رأسه
شجة منكرة، وهو يقول:

«أتشتم محمداً وأنا على دينه أقول ما يقول؟ اردد علي إن استطعت».

وحاول رجال أبي جهل من بني مخزوم أن يبارزوا حمزه لولا أن يهدأهم أبو جهل
نفسه ويصرفهم عما يريدون تفادياً من غضب حمزه واتقاء فتنة بني هاشم، فقال لهم:
دعوا أبا عمارة فاني سببت ابن أخيه سباً قبيحاً^(٢).

وهذا الموقف الصارم من أبي عمارة مع أبي جهل إنما يدل على قوة إيمان
وصلابة نفس وغيره حفاظ، إذ ليس من السهل ضربه رجلاً له من المنزل المؤتلة من
قومه بني مخزوم كما له كذلك من نفس الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر والمخزومي
المسمى في القرآن بـ«الوحيد» قارون العرب وجبارهم العنيد وسيد بني مخزوم يومئذ.
ولا يمكن أن تأتي هذه الضربة المهينة لهذا الرجل في قومه إلا من قبل رجل كبير في
قومه أيضاً وهو فتى عبد المطلب وأسد الله وأسد رسوله.

ويستكشف من موقف أبي عمارة هذا إيمانه العميق من ذي قبل بإسلام محمد ﷺ،

(١) تسوّر بالتشديد عليه الحائط ونحوه: صعد عليه وهنا كناية عن السيطرة والاستيلاء.

والشتم واللعن متقاربان في معنى السب والامتهان.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ١ ص ١٧٨ ط ثانية بمصر، وذخائر المعقبى للمصنف الطبري: ١٧٣ ط القدسي بالقاهرة، ونهاية الأرب

للنوري: ج ١٦ ص ٢٠٨ ط مصر.

وشدة دفاعه عن الدعوة الإسلامية في وجه أي متحد من المشركين، ويظهر ذلك من قوله له أتشتمه وأنا على دينه.

يقول المؤرخون بعد عرض هذه القصة: إن إسلام محمد ﷺ امتنع باظهار حمزة إسلامه وكف المسلمون عن محمد ﷺ وعن دينه هيبه لحمزة وخوفاً من سطوته. وأخيراً فإن حمزة فتى عبد المطلب عملاق الفتوة العربية كما هو من آيات الفتح المبين بعد ظهور الإسلام.

● واقعة أحد وشهادة حمزة

وتتابعت أشواط التاريخ فاذا بأبي عمار شهيد جهاده وصريع عقيدته أمام طلائع الشهداء في واقعة أحد^(١)، ثانية أو ثالثة الوقائع الإسلامية بعد الهجرة النبوية بثلاثة أعوام تقريباً^(٢).

وكان الذي أثار هذه الواقعة: نصر الإسلام والمسلمين ودحر الكفر والكافرين في واقعة بدر الكبرى قبل هذا التاريخ بزهاء عام^(٣).

قال المؤرخون: باقتضاب منا؛ لما أصيب من أصيب في بدر من المشركين ورجع الكثير منهم: منهزمين منكسرين إلى «مكة» بمن فيهم: قائد الشرك والضلال أبو سفيان بن حرب بن أمية الأكبر بن عبد شمس^(٤).

اجتمع عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وعكرمة بن أبي جهل المخزومي، وصفوان بن أمية الجمحي، وجبير بن مطعم بن عدي القرشي^(٥) وغيرهم من مشركي قريش ممن

(١) أخذ بضمين: الجبل المعروف بأطراف المدينة، سمي بذلك لتوحده، وانقطاعه عن الجبال الأخر هناك وإلى جانبه كانت الواقعة المذكورة.

(٢) وقد اختلف المؤرخون بعد اتفاقهم على وقوعها في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة بين قائل: إنها كانت في النصف منه كما عليه ابن الأثير في كامله وجماعه آخرون وقال: إنها كانت لسبع ليال خلون منه كما عليه التويري وبعض آخرون، والقول الأول أشهر.

(٣) حيث إن واقعة بدر كانت في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة كما عليه عامة المؤرخين.

(٤) وسنفضل الحديث عن أبي سفيان وابنه معاوية وحفيده يزيد في الفصول الآتية ضمن الجزء الثاني من الكتاب.

(٥) أما عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر الغزلي عمر بن ربيعة فقد تحدثنا عنه بإيجاز في الفصل السادس ضمن الحديث عن

اصيب آباؤهم واخوانهم وأبنائهم في بدر .

فكلموا أبو سفيان وبعض رجالات قريش ممن كانت لهم في تلك «الغيرة» التي اعترضها المسلمون في بدر تجارة وأموال في أن يعينوا على حرب النبي ﷺ والمسلمين بالمال، فاستجابوا لهم وتجهزوا بمدتهم وعددهم واجتمعت عامة قريش بأحايشها وأحلافها لحرب رسول الله ﷺ، فأرسلوا أربعة نفر منهم وهم: عمرو بن العاص السهمي، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وعبد الله بن الزبير السهمي، وأبو غرة عمرو بن عبد الله الجمحي^(١) فساروا في القبائل العربية ليستفزونهم فجمعوا جمعاً

→ جعفر بن أبي طالب، وكذلك مر الحديث الموجز عن ابنه الشاعر ضمن الحديث عن عقب بني أمية في أوائل الكتاب في خلال الفصل الأول منه.

وأما عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله المخزومي القرشي فكان كأيبه من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ في الجاهلية وفي بداية الاسلام، ثم أسلم عام الفتح أو بعدة بأشهر، وخرج الى المدينة واستعمله النبي ﷺ على صدقات هوازن قبيل وفاته، ثم وجهه أبو بكر الى بعض الفزوات وكان فيها البطل الصنيد حتى قُتل يوم (مرج الصفر عام ١٣ هـ)، وقيل: في الرموك عن عمر يناهز ٦٢ عاماً وليس له عقب، باقتضاب من الإجابة لابن حجر وتاريخ الاسلام للذهبي، وأعلام الزركلي .

وأما صفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة الجمحي القرشي فكان هو وأبوه من الأشداء على النبي ﷺ، ومن أضراف قريش وصناديدهم، وقد قتل أبوه أمية يوم بدر كافرًا، ثم أسلم صفوان بعد عام الفتح بأشهر فتزوج أممية بنت أبي سفيان شقيقة حبيبة زوج النبي ﷺ، وكان من المؤلفة قلوبهم، وأقام بمكة ولم يهاجر الى المدينة حتى شهد الرموك ومات في مكة بعد مقتل عثمان بأعوام أو بعد مقتل أمير المؤمنين عليه السلام بعام سنة ٤١ هـ أيام معاوية باقتضاب من المحبر للبغدادي، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، وأعلام الزركلي، وتهذيب التهذيب لابن حجر والاحصاء، وتهذيب ابن عساكر.

(١) تقدم الحديث بإيجاز عن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير أثناء ترجمة أبي طالب من هذا الكتاب في الفصل السادس منه

وأما هبيرة بالتصغير فهو ابن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي، عمه المؤرخون والنسابون من أصحاب أبي طالب على ابنته أم هانئ، هند أو فاختة اخت الامام أمير المؤمنين عليه السلام وقد زوجها له في الجاهلية فولدت له: هاتئاً وجعدة ويوسف كما قيل، ثم أسلمت ام هانئ ففرق الاسلام بينها وبين زوجها ولحق بها أولادها، وبقي هبيرة على كفره حتى إذا كان بعد عام الفتح هرب من مكة الى اليمن أو الى نجران فمات هناك، باقتضاب من المحبر للشابة البغدادي وغيره.

غفيراً من تقيف وكنانة وتهامه وغيرها واجتمعوا معهم مائتا فارس للتأهب للحرب. فعند ذلك دعا جبير بن المطعم بن عدي: غلاماً له يدعى «وحشي بن حرب» وكان حبشياً يقذف بالحربة فلا يخطي، فقال له: اخرج مع الناس؟ فان أنت قتلت عم محمد بعمي «يعني طعيمة بن عدي» فأنت عتيق.

فخرجت قريش بحدّها وجدّها وأخرجوا معهم الظعن والهوداج وفيها نساؤهم ثلاثا يفروا وهن خمسة عشرة امرأة.

فخرج أبو سفيان وهو قائد الناس بزوجه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وخرج عكرمة بن أبي جهل بزوجه: أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث هذا بزوجه: فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج صفوان بن أمية بزوجه: بزرة أو برة بنت مسعود بن عمرو والتقيف، وخرج عمرو بن العاص بزوجه: ريطة أو هند بنت منبه بن الحجاج السهمي، وخرج طلحة بن أبي طلحة عبد الله بن العزى بزوجه: سلافة بنت سعد بن شهيد الأوسي، وخرج أبو عريز زارة بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بزوجه خناس بالتشديد بنت مالك بن المطرب بالتشديد، وخرج الحارث بن سفيان بن عبد الأسد بزوجه: رملة بنت طارق بن علقمة الكنانية وخرج كنانة بن علي بن ربيعة بن عبد العزى بزوجه: أم حكيم بنت طارق، وخرج سفيان بن عوف بزوجه: قتيلة بنت عمرو بن هشام بن هلال، وخرج النعمان بن عمرو وأخوه جابر مسك الذئب بأمهما الذغنية، وخرج غراب بن سفيان بن عوف بزوجه: عمرة

→ وأما أبو هزة فهو عمرو بن عبد الله بن عثمان أو عمر الجمحي من شعراء الجاهلية من أهل مكة خرج مع من خرج من قريش إلى بدر فأسره المسلمون وحبسوه به بعد المعركة إلى رسول الله ﷺ فاستطاف النبي ﷺ فمن عليه النبي وأطلق سراحه بلا فداء، فقال فيه شعراً وثنا ثم رجع إلى مكة حتى إذا كانت وقعة أحد في السنة الثالثة للهجرة أغراه صفوان بن أمية فأخرجه إلى الحرب فلم يزل هو وعمرو بن العاص يستنفرون القبائل ويحضونهم على حرب النبي ﷺ وكانت الواقعة وأسره المسلمون ممن أسروا، فطلب من النبي للمرة الثانية أن يمن عليه ويطلق سراحه؟

فقال النبي ﷺ: (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين لا ترجع إلى مكة، تسمح عارضيك، وتقول خدعت محمدًا) ثم أسر به فضربت عنقه ولا عقب له.

باقتضاب من جمهرة انساب العرب لابن حزم، والمحرر للنسابة البغدادي، واعلام اللزركلي وامتناع الموائسة، وعيون الاثر.

بنت الحارث بن علقمة الكنانية.

قالوا: وكان مع النساء اللواتي خرجن الدفوف والطبول يضربن عليها ويسبكين ويندبن قتلى بدر ويحرضن بذلك المشركين على أخذ الثأر.

وكانت هند بنت عتبة كلما مرّت بوحشي أو مرّ عليها في المعركة قالت له: يا أبا دسمة بالضم وهي الغيرة المائلة إلى السواد ويليك إشف واشتف؟

فأقبلوا حتى نزلوا ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة.

وكان نزولهم يوم الأربعاء أو الخميس لخمس مضيّن من شوال، وكانت الواقعة بعد ذلك بثلاث.

وبلغ النبي ﷺ نزول المشركين في ذلك المكان فجمع أصحابه واستشارهم، فأشار عامتهم عليه بالخروج من المدينة وملاقاة القوم حيث نزلوا، إلا عبد الله بن أبي سلول^(١)،

فأشار على النبي ﷺ بالبقاء في المدينة أو يبقوا في مكانهم فيرجعوا عن القتال.

فدخل النبي ﷺ بدوره منزله وخرج إلى أصحابه لابساً لامته وأمر بالخروج بعد صلاة الجمعة إلى حيث يقيم المشركين من أحد بألف مقاتل.

(١) أبو الحباب: عبد الله بن أبي (بالتصغير) بن مالك بن حارث بن عبيد الخزرجي المشهور بأبن سلول، وسلول: جدته لأبيه من بني خزاعة اشتهر بالنسبة إليها.

كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم وأظهر الاسلام خوفاً من سطوته في السنة الثانية للهجرة بعد واقعة بدر الكبرى، فكان رأس المتناقضين في الاسلام من أهل المدينة، ومن الثابتين في المسلمين كلما حلت بهم نازلة من قبل المشركين وله في ذلك أخبار كثيرة ذكرها عامة كتب السير والتفسير والمعاجم.

وكان يحضر مع النبي ﷺ كثيراً من غزواته ليغذّل الناس عنه، ولما نهى النبي ﷺ لوقعة أحد خرج معه إلى خارج المدينة ثم انزل عنه مع ثلاثمائة رجل من المتناقضين فعاد بهم إلى المدينة، وفعل مثل ذلك عند التهيؤ لغزوة تبوك وهو القاتل في غزوة تبوك على الأشهر: «لئن رجعنا إلى المدينة لخرجن الافر منها الأذل»، الآية، فمات بعد ذلك في المدينة في ذي القعدة من السنة التاسعة للهجرة، فطلب ابنه عبد الله الحباب من النبي: الصلاة على جنازته والاستغفار له ففعل النبي ﷺ أو نهياً لذلك فنزل فيه قوله تعالى من سورة التوبة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ...﴾ الآية، فترك باقتضاب من أعلام الزركلي، وتاريخ الخميس للديار البكري، والمحرر للنسابة البغدادي، وطبقات ابن سعد، وجسيرة الأنساب لأبن حزم، وإنتاح الاسماء للمعري.

واستخلف على المدينة: ابن أم مكتوم؛ عبد الله بن قيس^(١) للصلاة بالناس .
ثم سار النبي ﷺ بالجيش فبقي رسول الله ﷺ في سبعمئة ومعهم فرسان .
وكان المشركون ثلاثة آلاف في ضمنهم سبعمئة دارع معهم مائتا فارس .
فأخذ عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة^(٢) ينادي المنخلين ويذكرهم الله ألا
يخذلوا قومهم ونبيهم فلم يعيثوا بكلامه فقال لهم: أبعدكم الله يا أعداء الله فسيقتلني الله
عنكم نبيّه، ثم سار رسول الله ﷺ بالبقية من أصحابه حتى نزل الشعب من إحدى «عدة
الوادي» الى الجبل، ثم عرض المقاتلة فردّ جماعة الى المدينة وأجاز الآخرين
بالإتصاف ثم عبأ أصحابه، وأمر على الرماة وكانوا خمسين رجلاً: عبد الله بن جبير
أخا بني عمرو بن عوف وهو معلم يومئذ بتياب بيض، وأمر على الخيل: الزبير بن
العوام^(٣) ومعه: المقداد بن الأسود^(٤)، وأعطى اللواء: مصعب بن عمير القرشي أخي بني

(١) عبد الله بن قيس من بني عامر بن لؤي وأمه: أم مكتوم عاتكة المخزومية، صحابي مهاجر وكان يؤذن للنبي ﷺ أذان
الإعلام، هاجر من مكة الى المدينة بعد واقعة بدر الكبرى يسيراً، وقد ذهب بصره بعد ذلك فكان النبي ﷺ بعد ذلك
يستخلفه على المدينة بصلي بالناس في عامة غزواته، وشهد القادسية سنة ١٥ هـ مع راية سوداء وعليه درع ثم رجع الى
المدينة فمات فيها بنفس العام، باقتضاب من الكُنى والألقاب للمقي، والعارف لابن قتيبة.

(٢) عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن كعب السلمي الانصاري الخزرجي أبو الصحابي الجليل جابر الأنصاري، كان من
أعظم الصحابة وأحد الثقات الإثني عشر، ومن شهد بيعة العقبة الأولى مع السبعين من الانصار وشهد بدرًا الكبرى،
واستشهد في معركة أحد بين يدي النبي ﷺ سنة ٣ للهجرة، باقتضاب من أعلام الزركاني، والاصابة لابن حجر والمعبر
البغدادي، وصفوة الصفوة.

(٣) أبو عبد الله: الزبير بن العوام بالتشديد بن خويلد بن أسد بن عبد العزى الأسدي القرشي وأمه: صفية بنت عبد المطلب
عمة النبي ﷺ. ولد قبل الهجرة بـ ٢٨ عاماً في مكة واسلم وعمره لم يبلغ الحلم على الاصح وكان في الأوائل من
المسلمين ومن عليه من الصحابة ومن فرسان قريش وساداتها.

هاجر مع من هاجر من المسلمين المضطهدين على إسلامهم الى الحبشة، ثم هاجر الى المدينة في طلائع المهاجرين وحضر مع
النبي ﷺ بدرًا وأحدًا والخندق والحديبية وخيبر والفتح وعامة غزواته وحروبه، وكان يُبلي في ذلك بلاء حسناً، كما كان
له مواقف مشرفة مع أمير المؤمنين عليه السلام يوم السقيفة ويوم الشورى وغيرها.

وكان معدوداً من حوارى الرسول ﷺ ومن موالى أمير المؤمنين عليه السلام لولا موقفه الأخير الذي به كانت خاتمة حياته، فقد خرج
من المدينة مع الخارجيين الى البصرة لحرب الجمل في وجه إمام زمانه أمير المؤمنين عليه السلام، وكان ما كان من تراجعه عن

عبد الدار^(٥)، وبعث حمزه بن عبد المطلب بين يديه في قيادة الجيش^(٦)، وتدرع رسول

→ مواصلة الحرب ناكساً نادماً بعد أن التقى به أمير المؤمنين عليه السلام بين الصفيين فسأره وذكره فترك القتال واتجه الى المدينة فقتله عمرو أو عمر بن جرموز غيلة بوادي السباع خارج البصرة على سبع فراسخ عنها حيث قبره المعروف اليوم، وذلك في جمادى الاولى من سنة ١٢٦ هـ عن ٦٤ سنة من العمر أو أكثر كما قيل، وجاء ابن جرموز بسيفه وخاتمه الى علي بن أبي طالب عليه السلام يطلب جائزه منه فنهز علي وقال (سيف طالما جلى الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله). باقتضاب من أعلام الزركلي، وتهذيب ابن عساكر، وحيلة الأولياء لأبي نعم، وتاريخ الفهمس للدهار البكري، والرياض النضرة للطبري، وخزانة البغداد، وشذرات الحنبلي.

(٤) هو مقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر بن مطرود البهراني الحضري، أبو معبد أو أبو عمرو الصحابي المعظم والشجاع المطرق، وأحد الأوائل الذين أظهروا الاسلام وناقضوا عنه وأبلاوا فيه بلاء حسناً. كان أبوه عمر قد أصاب دماً في قومه فهرب الى حضرموت فحالف كنده، فكان يقال له: الكندي، وتزوج هناك امرأة ولدت له (المقداد) وذلك قبل الهجرة بـ (٣٧)، فلما نشأ المقداد وقع بينه وبين أبي سمر بن حجر الكندي خصام فضرب المقداد رجله بالسيف وهرب الى مكة فحالف الأسود بن عذرة ففوت الزهري فصار يقال له: (مقداد بن الأسود). الى أن نزل قوله تعالى ﴿ادعهم لآبائهم﴾، عاد يتسمى (المقداد بن عمرو) واشتهر بابن الأسود الكندي.

هاجر الهجريين: الى الحبشة والى المدينة مع الطلائع الأولى من المسلمين، وشهد بدرأً وأحداً وغيرهما من عامة غزوات النبي صلى الله عليه وآله وحروبه، وهو في مواقفه تلك على إيمان راسخ وعقيدة صلبة، فقد وردت عنه: أنه قال للنبي صلى الله عليه وآله يوم بدر: (لو أمرت أن نخوض جمر الفضا وهوك الهراس لغضناه معك).

زوجه النبي صلى الله عليه وآله ابنة عمه: ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، وذلك لعظم مقامه عنده ولحسن بلائه في الإسلام، وقد ورد عنه صلى الله عليه وآله: (أن الله عز وجل أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم: علي والمقداد وأبو ذر وسلمان).

وكانت له مع علي مواقف ولاتية حاسمة يوم السقيفة ويوم الشورى وغيرهما، بالإضافة الى مواقفه الاسلامية مع النبي صلى الله عليه وآله من قبل، وقد وردت له أخبار كثيرة في مواقفه الاسلامية والولائية بطول المقام باستعراضها، توفي على مقربة من المدينة فحُمل اليها ودفن فيها وذلك سنة ٣٣ هـ باقتضاب من أعلام الزركلي والأصاغة لأبن حجر وحيلة الأولياء وصفوة الصفة، ومجمع الزوائد للهيتمي، وسفينة بحار القمي، والدرجات الرفعة للسيد المدني.

(٥) أبو عبد الله: مصعب بن عمر بن هاشم بن عبد مناف بن بني عبد الدار القرشي، صحابي جليل وشجاع مقدام ومن السابقين الى الاسلام، فقد أسلم في مكة وكنم اسلامه فعلم به القوم فأوثقوه كئافاً وحسبوه فهرب منهم وهاجر الى الحبشة مع من هاجر اليها من المسلمين المضطهدين، ثم رجع الى مكة وهاجر منها الى المدينة مع المهاجرين الأولين وشهد بدرأً مع النبي صلى الله عليه وآله وحمل اللواء يوم احد فأشهد فيها سنة ٣ هـ رضوان الله عليه، ويقال: فيه نزلت الآية: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾، باقتضاب من أعلام الزركلي، وطبقات ابن سعد، وإصابة ابن حجر، وصفة الصفة، واسد الغابة، وحيلة الأولياء لأبي نعم، وسفينة البحار للقمي، وفي شرح النهج للحدادي: ج ١٤ ص ٢٣٢ ط دار إحياء

الله ﷺ: بدرعين الواحد فوق الآخر.

قالوا: ثم عقد ثلاثة ألوية: فدفع لواء المهاجرين الى علي بن أبي طالب عليه السلام، ودفع لواء الأوس الى أسيد بن حضير الأوسي^(٧)، ودفع لواء الخزرج الى العتّاب بن المنذر الخزرجي^(٨).

→ الكتب العربية نقلت عن الواقدي: «...حتى إذا استوفت الصفوف سأله رسول الله ﷺ: من يحمل لواء المشركين؟ قليل، عبد الدار قال: نحن أحق بالوفاء منهم، أين مصعب بن عمير؟ قال: ها أنا ذا. قال خذ اللواء، فأخذه مصعب فتقدم بين يدي رسول الله ﷺ».

(٦) وكان حمزة يقول: والذي أنزل عليه الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالهم بسيفي خارجاً من المدينة، وكان يقال: كان حمزة يوم الجمعة صائماً يوم السبت فلاقاهم وهو صائم، عن ابن أبي الحديد في شرح التهج: ج ١٤ ص ٢٢٣ ط دار إحياء الكتب العربية بمصر.

(٧) أسيد بن حضير: كلاهما بالنصفر، بن سمالك بن عتيك بن رافع بن أمري القيس بن زيد بن عبد الأشهل... الأوسي الأنصاري أبو يحيى. صحابي مقدّم وسيد قومه في الجاهلية والإسلام في المدينة، ومن الممدودين في الجاهلية من عقلاء العرب وذوي الرأي منهم، وكان لذلك يدعى به (الكامل)، كان من طلائع المسلمين في مكة، ولقد آخى النبي ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة فيها. وشهد العقبة الثانية مع سبعين من الأنصار. وكان أحد التقاء الاثني عشر، وشهد مع النبي ﷺ أسداً وجرح فيها عدة جراحات. وثبت مع من ثبت مع النبي ﷺ حين انكشف عامة الصحابة عنه بعد انهزام المشركين للنهب والسلب حتى أدى الامر الى التفاف المشركين على المسلمين بالقتل والجرح كما هو مذكور في اقتاريخ، كما شهد الخندق والمشاهد كلها. توفي بعد ذلك في المدينة أيام عمر بن الخطاب سنة (٢٠ هـ) باقتضاب من اعلام الزركلي، وطبقات ابن سعد. وتهذيب التهذيب، وصحوة الصفوة.

(٨) أبو عمرو: العتّاب بالضم بن المنذر بن الجموح بالفتح بن زيد بن حرام بن كعب الأنصاري الخزرجي ثم السلمي. صحابي شجاع وشاعر مجيد وذو رأي صائب، وهو صاحب المشورة على النبي ﷺ يوم بدر حينما نزل النبي في مكان قبل مكان الواقعة. فقال له العتّاب: يا رسول الله هذا منزل أنزلك الله ليس لنا أن نتداه أم هو الرأي والحرب؟ فقال النبي: بل هو الرأي والحرب: فقال عتّاب: كلا ليس هذا منزل الى اخر القصة التي ذكرها المؤرخون، وهو الذي قال عند بيعة أبي بكر يوم السقيفة: (أنا جديها المحكك وغذيها الرجيب) فأخذت كلمته مثلاً، بعد ذلك سات أيام عمر بن الخطاب سنة ٢٠ هـ من أكثر من خمسين عاماً من العمر.

ومن شعره في مدح النبي يوم بدر:

ومسا للناس الا لكمة وبصير
اسود لها في العالمين زفير

الم تسمعا لله در ابليكما
باننا واهداه النبي محمد

ثم أخذ سيفاً فهزه وقال لأصحابه: من يأخذ هذا السيف يعطيه حقه؟ فابتدر إليه أبو دجانة الأنصاري فقال: يا رسول الله أنا أعطيه حقه، فأعطاه النبي إياه وكان أبو دجانة: سماك بن خرشة بالتحريك شجاعاً مطرقاً يختال عند الحرب ولا يردُّ وجهه أحد^(١). وعبأت قريش وعلى رأسهم أبو سفيان جيشهم المؤلف من ثلاثة آلاف فجعلوا على الميمنة: خالد بن الوليد المخزومي، وعلى الميسرة: عكرمة بن أبي جهل المخزومي، وأعطوا اللواء إلى بني عبد الدار^(٢)، وجعلوا على الخيل: صفوان بن أمية أو عمرو بن العاص، وعلى الرماة وكان عددهم مائة رام: عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، فوقف أبو سفيان في قلب الجيش تخف به صناديد قريش وجعل يحرض بني عبد الدار على مواصلة القتال بعد أن تسلموا اللواء الجيش ويقول لهم: «يا بني عبد الدار إنكم قد وليتم لواثنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا فإما أن نكفونا

→ نصير وأويننا النبي وماله سوانا من اهل الملكتين نصير

بأقتضاب من الإصابة وأعلام الزركلي

(١) سماك بالكسر بن خرشة بالتحريك: أو ابن أوس بن خرشة بن لوفان بن عبد ود بن زيد بن تلبية الخزرجي الأنصاري المعروف بأبي دجانة.

صحابي معظم وفارس شجاع، له مواقف جليلة في نصرة الاسلام وتبني الاسلام، وكان من السابقين الى الاسلام والهجرة، وشهد بدرًا وأهلى في ذلك بلاء حسنًا وثبت مع من ثبت من أصحاب النبي وأهل بيته مع النبي ﷺ يوم أحد حينما انكشف عنه عامة المسلمين للنهب والسلب حتى أصابته جراحات كثيرة، ولشجاعته وبسالته كان يدعى به (ذي المشهرة) وهي الدرع التي يلبسها في الحرب، كما كان يعرف بذئ السيفين لقتاله يوم أحد بسيفه وسيف رسول الله ﷺ، استشهد في غزوة البصرة سنة ١١ أو ١٢ هـ بأقتضاب من أعلام الزركلي، والإصابة لابن حجر، والمحرر للنسابة البغداد، وإرشاد المفيد، والكنى والألقاب للقمي.

(٢) عبد الدار: أخو عبد المناف وعبد العزى: أولاد قصي بن كلاب بن مرة .. إلى آخر سلسلة النسب القرشي الصاعد إلى عدنان.

وبنو عبد الدار الذين قتل معظم منهم سيف علي بن أبي طالب وحمره بن عبد المطلب عشرة مع غلامهم الحبشي وهم: طلحة بن أبي طلحة - عبد الله - بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار وأخوه: أبو سعد (أو سعيد بن أبي طلحة) وعثمان بن أبي طلحة وأبناؤ: مسافع بن طلحة والجلاس بن طلحة وكناب بن طلحة والحارث بن طلحة ثم أوطاة بن عبد شريحيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وأبو زيد حمير بن هاشم والقاسط بن شرح أوب بالعكس بن هشام...

وأخيراً: حادي عشرهم: غلامهم الحبشي والذي أخذ الراية بعد مواليه قتل عليها.

لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه؟ فنكفيهموه؟ فقالوا له وقد هموا به نحن لا نسلم إليك لواءنا وستعلم غداً إذا التقينا: كيف نصنع.

والتقى الفريقان من الغد فأقبل خالد وعكرمه بالميمنة والميسرة على ميمنة المسلمين ومسيرتهم فشد عليهما الزبير والمقداد بمن معهما من الخيل حتى هزما المشركين.

وخرج طلحة بن عثمان من بني عبد الدار صاحب لواء المشركين فجعل يخاطب المسلمين ويطلب المبارزة ويقول ساخراً: من منكم يعجله سيفي إلى الجنة أو يعجلني سيفه إلى النار؟ فبرز إليه علي بن أبي طالب عليه السلام فضربه على رجله فقطعهما فسقط عن فرسه على قفاه فانكشفت عورته فناشد علياً: الله والرحم أن يكف عنه؟ فتركه علي عليه السلام ورجع إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال له النبي صلى الله عليه وآله: ما منعك أن تجهز عليه؟ قال ناشدني الله والرحم حين انكشفت عورته أن أكف عنه؟ فاستحييت منه وتركته .

قالوا: ولما التقى الناس وتدانى الفريقان إذا بنسوة المشركين اللواتي خرجن معهم أمام الجيش وفي خلاله تقدمهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ^(١) يضربن بالدحوف وينشدن ويحرضن الرجال على الحرب، فقالت هند فيما قالت.

نحن بنات طسارق	نمشي على النمارق
مشي القضا البوارق	والمسك في المفارق
والدر في المخانق	إن تسبقوا نعانق
ونفرض النمارق	أو تدبروا نمارق

فراق غير وامق

وقالت أيضاً:

ويهاً بسني عبد الدار ويهاً حماة الأديار

ضرباً بكل بقتار

(١) وفي بعض المصادر التاريخية: هند من دون نسبة. وفي عامة المصادر (هند بنت عتبة). وفي بعضها الآخر كما في المتن تصريح بأنها هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان أم معاوية.

وهنا يقول ابن أبي الحديد في المصدر الآف من شرحه: (حتى قُتلَ (أي علي) بني سفيان بن عوف الأربعة وتماث العشرة منها).

قالوا: واقتتل الناس قتالاً شديداً حتى حميت الحرب وأمن في القتال أكثر: حمزة وعلي وأبو دجانة في رجال من المسلمين وأنزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده وكانت الهزيمة وهربت النساء «هند وصويحاتها» مصعدات على الجبل.

ودخل بعض ضمعة المسلمين إلى المعسكر يهبون ويسلبون، وثبتت طائفة منهم مع رسول الله ﷺ وفي مقدمتهم علي وحمزة من أهل بيته والزبير وأبو دجانة ومن غيرهم. فبينما هم كذلك إذ تراجع المشركون على المسلمين ومناديهم يصرخ: ألا إن محمداً قد قتل، وكان أصحاب لواء المشركين من بني عبد الدار وقد قتل معظمهم بسيف علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب، فبقي لوائهم مطروحاً على الأرض حتى تناوله عبد حبشي لبني عبد الدار فقتل عليه أيضاً.

قال الطبري وابن الأثير وغيرهما ضمن حوادث سنة ٣ هـ بعنوان غزوة أحد: لما رجع علي بن أبي طالب ﷺ إلى النبي ﷺ وكان قد قتل أصحاب الأكوية من بني عبد الدار، فأبصر النبي ﷺ جماعة آخرين من مشركي قريش فقال لعلي: إحمل عليهم؟ واكفني هذه الكتيبة؟ وإنها تقارب الخمسين فارساً وعلي ﷺ راجلاً.

فحمل علي عليهم. ففرقهم وقتل منهم شيبه بن مالك أحد بني عامر بن لؤي^(١) فقال جبرئيل: يا رسول الله هذه المواساة فقال رسول الله ﷺ: انه مني وانا منه فقال جبرئيل: وأنا منكما.

وفي هذه الحال سمعوا صوتاً من السماء يقول:

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي^(٢)

(١) هو عامر بن لؤي بن غالب بن فهر جد القبائل القرشية المنتهي نسبه إلى هذنان، وعمار هذا أحد ولدي لؤي الصريحين. وتاهما كعب بن لؤي ولكل من الأخوين نسب وولد كما هو مفصل في كتب الأنساب، والظاهر: أن شيبه المذكور من أبناء عبدو بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر لا من سلسلة أخيه معيص بن عامر.... والله العالم.

(٢) شرح النهج للحمدي: ج ١٤ ص ٢٥١ ط جديد وفيه: (فشنل رسول الله ﷺ) عن صاحب ذلك الصوت فقال ﷺ: هذا جبرئيل

وقد ذكرت هذه المتفة للأمام أمير المؤمنين ﷺ عامة كتب السمر والمناقب والأخبار والصالح عن الفريقين في هذا الباب فلا حاجة إلى العرض والتفصيل.

قالوا: وكان المسلمون لما كُرَّ عليهم المشركون: أثلاثاً بين قتيل وجريح ومهزوم، حتى خلص العدو إلى رسول الله ﷺ فاعتوروا عليه: فكسروا ريارعيته السفلى^(١)، وشقوا شفته العليا وكلما وجنته وجبهته^(٢)، وكسروا البيضة على رأسه^(٣) وشجوا رأسه وأصابوا شقه الأيمن وأبلغوا في جراحاته فجعل يسيل الدم على وجهه وصدره وهو يمسه ويقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله؟، فجعل يستغيث ويقول: من يشري نفسه لنا»^(٤)، وقاتل دونه مصعب بن عمير ومعه لواءه حتى قتله ابن قمئة الليثي وهو يظن أنه رسول الله ﷺ فرجع إلى قريش وقال: قتلت محمداً، فجعل الناس يقولون: قتل محمد، قتل محمد.

● مصرع حمزه بحربة وحشي

قالوا: فلما قتل مصعب بن عمير أعطى النبي ﷺ الراية إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فشد على القوم ومعه حمزة بن عبد المطلب فجعل حمزه يقاتل المشركين تحت لواء أمير المؤمنين عليه السلام حتى قتل ممن قتل: أوطاة بن عبد شريحيل بن هاشم بن هبذ مناف بن عبد الدار، وكان أحد حملة لواء المشركين يومئذ، ثم مر به سباع بن عبد العزى الغبشاني وكان يُكنى بأبي نهار فدعاه حمزه إلى المبارزة؟

فلما التقيا ضربه حمزه على رأسه ضربه منكرة فقتله.

قال وحشي غلام جبير بن مطعم: والله إني لأنظر إلى حمزه وهو يهذُّ الناس بسيفه هذا^(٥) ما يلقي أحد يمر به إلا قتله، فهزئت حربتي^(٦) حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه

(١) الرابعة بالضم: السن الذي بين الثنية والتاب. (٢) كلمه كلياً: بالتخفيف: إذا جرحه وأدماه.

(٣) من معاني البيضة: الخوذة توضع على رأس المقاتل لوقايتها من الضربات.

وفي شرح الحديد: ج ١ ص ٥٤-٥٥ جديد: أن الذي كسر ريارعته النبي ﷺ وأدمى شفته هو عتبة بن أبي الوقاص والذي أدمى وجنتيه حتى غيب الحلق فيها هو عمرو بن قمئة، والذي شج رأسه وجبهته هو عبد الله بن شهاب الزهري.

(٤) يطلق الشراء بنحو الحقيقة على البيع والابتاع: والمراد هنا الأول.

(٥) هذه بهذه هنا بالتشديد: إذا قطعته وفصله سريماً.

(٦) الحربة بالفتح: آلة للحرب متغذة من الحديد قصيرة محددة دون الرمح

فوقعت في ثنته^(١) حتى خرجت من بين رجله وأقبل نحوي فقلّب فوق فاهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتي ثم تنحيت إلى^(٢) العسكر.

قالوا: ووقفت هند بنت عتبة وصويحباتها اللواتي خرجن معها على القتلى من أصحاب الرسول ﷺ يمثلن بهن أشنع تمثيل^(٣) يجدعن الأذان والأثوف^(٤)، واتخذت هند من آذان الرجال وأنافهم: خلاخيل وقلائد^(٥)، وأعطت خلاخيلها وقلائدها وقرطتها^(٦) وحشياً قاتل حمزه، وبقرت بطن حمزه، واستخرجت كبده فلاكتها فلم تستطع أن تستسيخها فلفظتها وجذعت أنفه وصلمت أذنه^(٧)، ثم إنها علت على صخرة مشرقة على الناس واخذت تصيح بأعلى صوتها شماتة بقتل حمزه وتقول:

نحن جزييناكم بيوم بدر	والحرب بعد الحرب ذات سحر
ما كان عن عتبة لي من صبر	وابي وعمي وشقيق بكري ^(٨)
شليت نفسي والضيبت وثري	شليت وحشي غليل صدري ^(٩)

(١) هكذا ذكر عامة أرباب السير بالضم والتشديد: موضع العانة فسا فوقها من الرجل، وذكرها الطبري وبعض آخر لته واللبة بالفتح والتشديد موضع القلادة من الصدور، وفي شرح النهج للحدادي: ج ١٥ ص ١٢ ط جديد (ضربت بها في خاضته حتى خرجت من مثانته).

(٢) تاريخ الطبري وكامل ابن الأثير ونهاية النوري، وبداية ابن كثير، وتاريخ العقوبي وعامة كتب السير ضمن الحديث عن غزوة أحد من السنة الثالثة للهجرة، وكذلك سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٧٢ ط ثانية بمصر، وشرح النهج للحدادي أوآخر الجزء الرابع عشر وأوائل الجزء الخامس عشر من الطبع الجديد.

(٣) مثل بالتشديد بالفتيل: تمثيلاً ومثله: إذا نكل به وظهرت آثار فعله على جسده بالجعد والتقطع ونحو ذلك.

(٤) الجعد: قطع الأنف من أعلاه وقص جميع الأذن وما شاكل ذلك.

(٥) الخلاخيل: جمع الخلال بالفتح: حلقة تلبس في الرجل كالسوار في اليد، والقلائد جمع القلادة بالفتح والكسر وهي ما يلبس في العنق من العلي.

(٦) قرطه بكسر الفتح: أحد جموع القرط بالضم وهو ما يعلق في شحمة الأذن من درة ونحوها وهو من أنواع العلي.

(٧) صلم الأذن: كجعد الأنف معناها: القطع من الأصل.

(٨) في عامة المصادر كالسيرة ونهاية وشرح النهج حجز البيت هكذا:

ولا أخني وعمه وبكري، ولعل ما ذكرناه كما في الإصابة أنسب في المقام، فإنها تصد أباها عتبة وعمها شيبة وأخاها الوليد الذين قتلوا فيس قتلوا بيوم بدر سيف عبيدة بن الحارث وحمزه فتي عبد المطلب وعلي بن أبي طالب عليهما السلام.

(٩) في الإصابة: تقديم وتأخير في صدر البيت وحجزه.

فشكر وحشي علي عمري حتى نُزِم اضلعي في القبري^(١)
فأجابتها هند بنت أئانة بن عباد بن المطلب^(٢) فقالت:

حُزيت لسي بدر وغير بدر يا بنت وقاع عظيم الكفري^(٣)
صنّحك الله غداة الفجر بالهاشميين الطوال الزهري^(٤)
بكل قطاع حسام يفرى حمزة ليثي وعلي صفري^(٥)
إذ رام شبيب وأبوك غدري ففضبتنا منه ضواحي النحر^(٦)

قالوا: ثم أقبل أبو سفيان حتى أشرف على المسلمين وجعل ينادي أفي القوم محمد؟
ثلاثاً، فقال النبي ﷺ لأصحابه: لا تجيبوه؟، فأخذ ينادي في قومه: «اعل هبل، اعل هبل»^(٧)

(١) معنى ترمّ بالتشديد: ثبلى وفتت، وهذا البت ليس في الإصابة ولم يثبت إلا الثلاثة الأول، ولكن عامة المصادر الأخر تذكرها أربعة.

(٢) الصحيح: كما ورد في المتن: هند بنت أئانة بهمز فتاء وإن ضبطتها بعض المصادر التاريخية: أبانة أو ابان بالهمز والباء وهي أخت الصحابي البدري الأحمدي: عوف بن أئانة الملقب بسطح (بالتشديد): الذي مات سنة ٣٤ هـ في أخريات خلافة عثمان، وقيل بقي إلى سنة ٣٧ وحضر مع علي عليه السلام واقعة صفين. وهي شاعرة قرشية اشتهرت بالجاهلية، وأسلمت بعد واقعة بدر في السنة الثانية للهجرة وقالت الشعر في الاسلام وبني الاسلام، ماتت نحو من سنة ٦٠ هـ

وأئانة أبوها ابن عتّاد بالتشديد بن عبد المطلب بن مناف بن قصي بن كلاب بن مرة إلى آخر النسب القرشي العدناني، وفي شرح النهج (أئانة بنت المطلب).

والمطلب هذا أخو هاشم وعبد شمس ونوفل أبناء عبد مناف بن قصي وإن التيس علي بعض المؤرخين والنسابة فتخيل: إن عباداً هذا ابن عبد المطلب بن هاشم.

(٣) الوقاع بالتشديد للمبالغة: الكثير الوقوع والانهماك في الدنيا، وفي شرح النهج: ج ١٥ ص ١٤ ط جديد: (غدار) بدل (وقاع).

(٤) وفي المصدر الألف من شرح النهج (أفعمك الله) بدل (صبرك الله)، الزهر بالضم فالسكون: البهض الوجوه والانسحاب والاحساب الواحد: أزهري.

(٥) القطاع (بالتشديد) السيف الكثير القطع، وفري يفري: من القطع والير.

(٦) قصد: شيبة وعنته ابني ربيعة: عم هند وأبيها المقتولين بسيفي حمزة وعلي في بدر وضواحي النحر: ما ظهر من الصدر والثرائب.

(٧) هبل بالضم فالفتح: صنم عظيم من أصنام قريش كان معلقاً داخل الكعبة.

فقال النبي لأصحابه: أجيئوه وقولوا له: «الله اعلى واجل» فقال أبو سفيان: «إلا لنا العزى ولا عزى لكم»^(١)، فقال رسول الله: قولوا له: «الله مولانا ولا مولى لكم».

ثم قال أبو سفيان شامتا: هذا يوم بيوم بدر والحرب سجال^(٢)، أما إنكم ستجدون في قتلاكم مثلاً^(٣) ما رضىت ولا سخطت ولا نهيت ولا أمرت.

قالوا: ومربأيي سفيان: الحليس بن زيان^(٤) أخو بني الحارث بن عبدمناة، وهو يومئذ سيد الأحابيش فرآه يضرب في شدة حمزه بزع الرمح^(٥) وهو يقول: «ذُقْ عُقُقْ»^(٦)، فقال الحليس: يا بني كنانة هذا سيد قريش يصنع باهن عمه كما ترون لحما^(٧) فقال له أبو سفيان: ويحك اكتمها عني فانها كانت زلة.

(١) العزى بالضم فالتشديد فألف القصر كالات بالتشديد، ومناة بالفتح: أصنام ثلاثة كانت مقدسة عند عرب الجاهلية في الحجاز لها سدة وحجاب وسعار وبهاء ويهدى لها كما يهدى للكعبة.

فالمرى بنخله ما بين مكة والطائف، واللات بالطائف، ومناة بالمشلل بين مكة والمدينة، راجع في تفصيل ذلك كتب التفسير في تفسير الآية: «واللات والعزى ومنات الثالثة الأخرى»، من سورة النجم.

(٢) الحرب يبتنا أو بينهم سجال بالكسر أي: سجل منها هؤلاء وأخر على هؤلاء يعني أنها مرة لهم وأخرى عليهم، والعبارة مثل سائر.

(٣) المثل بالضم فالفتح: من جموع المثلة بفتح فسكون وهي التكيل بالقتل.

(٤) الحليس بالتصغير بن الزيان بالتشديد هكذا ذكرته السيرة والطبري وابن الأثير والتويري وغيرها، غير أن ابن حزم في جمهرة أنسابه: ص ١٨٨ ط دار المعارف بالقاهرة تحت عنوان: (بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة) قال: (وهم من بني عوف بن الحارث بن عبد مناة ومنهم الشماخ وتم هنا عامر بن عوف إلى قوله والحليس بن علقمة بن عمرو بن الأوقع بن عامر بن حذيفة رئيس الأحابيش يوم أحد)، وذكر مثله الزركلي في إبعاده: ج ٢ حرف الهاء: فقال: (الحليس بن علقمة الحارثي سيد الأحابيش يوم أحد)، وكان مع مشركي قريش، وتقل عن الزبيدي قوله: (إن الأحابيش هم بنو المصطلق من خزاعة وبنو الهون بن خزيمة اجتمعوا عند جبل (حُبشي) بأسفل مكة وحالفوا قريش وسموا أحابيش قريش باسم الجبل)

(٥) الشدق بالكسر والفتح فالسكون: زاوية الفم من باطن الخدين، والرج بالضم فالتشديد: الحديدة التي أسفل الرمح السنان وهي نصله.

(٦) عقق بضم ففتح: معدول عن عاق للمبالغة كقدر من غادر والمعنى: ذق جزءا فطعم يا عاق، وفي سفيان البحار للقسي: ج ١ بترجمة حمزه: أن أبا سفيان حينما قال هذه الكلمات الواقعة عند قبر الحمزة كان الحليس بن الزيان الآنف الذكر إلى جنبه فانكر عليه ما قاله، فقال له: أبو سفيان: (اكتمها علي فانها كانت زلة)

(٧) لحماً أي: ميتاً دون روح.

ثم انصرف أبو سفيان ومن معه راجعاً إلى مكة وهو يقول: ان موعدكم بدراً للعام المقبل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه قل: نعم هي بيننا وبينك موعد.

ثم إن النبي ﷺ جعل يسأل أصحابه عن قتلى المسلمين ويتفقدهم ويؤنبهم ويترحم عليهم، وخرج بنفسه على ما به من ألم الجراح إلى جهة المعركة يلتمس عمه حمزة فوجده بطن الوادي وقد بقر بطنه عن كبده ومثّل به أقطع تمثيل فجذع أنفه وأذناه وحين رآه رسول الله ﷺ بتلك الشناعة استشاط غضباً وقال: «لولا أن تحزن صفية^(١) وتكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمتنّ ثلاثين رجلاً منهم، وقال المسلمون لما رأوا حزن رسول الله وغيضه على ما فعل بعمه: لئن أظهرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمتنن بهم مثله لم يُمثلها أحد من العرب. فأنزل الله قوله: ﴿وَإِنْ هَاقَبْتُمْ فَمَا قَبِلُوا بِمِثْلِ مَا حَوْقَبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِمَّنْ يَخْتَرُونَ﴾^(٢) فعفا رسول الله وصبر ونهى عن المثلة.

قال رسول الله ﷺ وهو واقف على مصرع عمه الحمزة مؤبناً: «لن أصاب بملك أبداً وما وقفت موقفاً قط أغيظ الي من هذا الموقف» ثم قال: «جائني جبرئيل ﷺ فأخبرني: أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسود رسوله»^(٣). وقال النبي ﷺ وقد ألقى على عمه نظرات الوداع: «رحمك الله يا عم لقد كنت وصولاً للرحم فعولاً للخيرات»^(٤).

قالوا: وأقبلت صفية بنت عبد المطلب شقيقة حمزة نحو مصرعه من المعركة فأمر رسول الله ﷺ: ابنها الزبير بن العوام أن يردّها لثلاث ترى ما بأخيها «حمزة» من المثله

(١) صفية بنت عبد المطلب بن هاشم شقيقة حمزة والمقوم من أمهم هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة بنت عم آمنة بنت وهب بن عبد مناف أم النبي ﷺ فجداً حمزه والنبي الأميان اخوان كما ذكرنا ذلك قريباً.

(٢) أخريات سورة النحل.

(٣) نهاية الأرب للتوحيدي: ج ١٧ ص ١٠٣ ط القاهرة، وذخائر المحب للطبري: ص ١٨٤ ط القاهرة، وشرح التهج للحدادي: ج ١٥ ص ١٧ ط جديد.

(٤) دائرة المعارف للبيهقي والاستيعاب لأبن عبد البر (بترجمته)

فلقبها الزبير فأعلمها بأمر النبي ﷺ فقالت إنه بلغني أنه مُثِّلَ بأخي وذلك في الله قليل فما أرضانا بما كان من ذلك لأحسبين ولأصبرن إن شاء الله، فأعلم الزبير النبي ﷺ باحتساب «صفية» وصبرها؟ فقال له: خل سبيلها؟ فجاءت الى مصرع أخيها ونظرت اليه وصلت له واسترجعت واستغفرت له^(١).

ثم أمر النبي ﷺ فُسْجِي حمزة نحو القبلة وغطاه بردائه ثم صلى عليه وكثير سبع تكبيرات^(٢).

ثم أتى بالشهداء يوضعون إلى جنب حمزة فصلى عليهم وعليه معهم حتى صلى عليه اثنتين وسبعين صلاة^(٣).

قالوا ثم أمر النبي ﷺ فدخل ودفن معه في قبره: ابن أخته: عبد الله بن جحش^(٤)، لقربته معه وشدة شبهه في المثلة بجسده، إلا أنه لم يقر بطنه كما فعل ب حمزة.

(١) سيرة ابن هشام قسم ٢ ص ٩٧ ط الثانية بالقاهرة بعنوان غزوة أُحُد وتاريخ الطبري: ج ٢ ص ٥٢٩ ط دار المعارف بالقاهرة وكامل ابن الأثير ج ٢ ص ١٢٢ ط بيروت ضمن الحديث عن غزوة أُحُد والمصدر الاتف الذكر من نهاية التوحيدي.
(٢) في المصدر الاتف من شرح التهج: ص ٣٨ ج ١٥ ويقال أنه كثر عليه: خمسا وسبعاً وتسعاً والظاهر أن هذه خصائص النبي ﷺ بخصوص الصلاة على حمزة. لأن الصلاة على الميت لا تتجاوز الخمس تكبيرات كما هو مفصل في تجهيزات الميت من كتب الفقه.

(٣) سيرة ابن هشام قسم ٢ ص ٩٧ ط ثانية في القاهرة ونهاية الارب للنويري: ج ١٧ ص ١٠٣ و ذخائر العقبى للمحب الطبري: ص ١٨٤ ط القاهرة وفي المصدر الاتف من شرح التهج: (حتى صلى عليه سبعين مرة لأن الشهداء سبعون) وفي تاريخ المغوي: ج ٢ ص ٣٩ ط النجف (وكبر عليه خمسا وسبعين تكبيره) وبعد ذلك كيف يؤل قول الذهبي في: (سير اعلام النبلاء: ج ١ ص ١٣٠) ط دار المعارف بالقاهرة (بان النبي ﷺ لم يصل على احد من الشهداء وقال: انا شهيد عليكم).

(٤) عبد الله بن جحش بن رثاب بن عمر بن صبرة بن مرة الاسدي وامه: اميمة بالتصغير بنت عبد المطلب الهاشمي شقيقة عبد الله بن ابي طالب والزبير من امهم: فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية كما ذكرنا ذلك في اوائل الكتاب.
ثم هو صهر النبي ﷺ اخو زوجته زينب بنت جحش كما هو مذكور في بابها وكان من المتقدمين في اسلامه وصحبته للنبي ﷺ فقد هاجر الهجرة من الى الحبشة ثم الى المدينة وكان من امراء السرايا فقد بعثه النبي ﷺ في سرية فيها وجوه الصحابة وقال في اطرائه لأصحابه (لأبعثن عليكم رجلا اصبركم على الجوع والعطش) وحضر مع النبي ﷺ عامة حروبه وغزواته وكان يوم احد يدعو الله ان يرزقه الشهادة فقاتل حتى قتل بسيف ابي الحكم الاخفش بن شريق احد فرسان المشركين يوم احد وكان عمره يوم قتل نيفاً واربعين عاماً ودفن مع الحمزة في قبر واحد اقتضاب من اعلام الزركلي واصابة ابن حجر وحلية الاولياء لأبي نعم والمعبر للنسابة البغدادي واحتاج الاسماع وجمهرة ابن حزم.

وقد احتمل بعض المسلمين قتلهم الى المدينة فدفنهم فيها، ثم نهى النبي ﷺ عن ذلك وقال: «ادفنوهم حيث صرعو»، وأمر النبي ﷺ أن يدفن الاثنان والثلاثة في القبر الواحد، وأن يقدم الى القبلة أكثرهم قرأناً أي جمعاً للقرآن بعد أن صلى عليهم وترحم عليهم ونزل علي والزبير في قبر حمزة وجلس رسول الله على حفرة يؤبنه وترحم عليه^(١).

قالوا: فلما انتهى رسول الله ﷺ من دفن عمه حمزة وباقي الشهداء من المسلمين وكانوا زهاء السبعين شهيداً في ذلك المكان من أخذ ورجع مع بقية أصحابه الى المدينة ومر في طريقه بدار من دور الأنصار من بني عبد الأشعث وظفر^(٢) فسمع البكاء والنواح داخل الدار على قتلهم فذرفت عيناه بالبكاء وقال يتوجع: ولكن حمزة لا هواكي له . فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير^(٣) الى دار بني عبد الأشهل أمر نسايتهم أن يتخمرن ويذهبن فيبكين على حمزة.

فلما سمع النبي بكائهن ونواحيهن على حمزة خرج عليهن وهن على باب مسجده يبكين وينحن فقال: «رحم الله الأنصار فان المواساة منهم ما عنت لقديمة وأمرهن

(١) المصادر المتفة: من سيرة ابن هشام ونهاية التويري وكامل ابن الاثير وذخائر المعجب الطبري.

(٢) عبد الاشهل بن جشم بالضم فالفتح من الخزرج بن عمرو بن مالك بن اوس بن حارثة اوس ظفر كعب بن الخزرج الى اخر النسب المزبور.

(٣) سعد بن معاذ بالضم بن النعمان بن امرئ القيس الاوسي الانصاري صحابي جليل من ابطال الصحابة ومن اهل المدينة وكانت له سيادة الاوس وكان حامل لوائهم يوم بدر وشهد أحداً مع النبي فكان من التابطين الراشقين فيها وشهد الخندق بعد ذلك فرمي بسهم فمات من اثر جراحه ودفن بالقيع وذلك في السنة الخامسة للهجرة وعمره يومئذ سبع وثلاثون سنة فعزن عليه النبي حزناً شديداً (بأقتضاب من اعلام الزركلي وصفوة الصفوة وطبقات ابن سعد والاصابة لأبن حجر).

واسيد بالصغير بن المضير بالتصغير ايضا بن سالك بن عقيل الاوسي الانصاري صحابي مقدم شريف قومه في الجاهلية والاسلام مقدما في قبيلته من اهل المدينة وكان بعد عقلاء العرب وذوي الرأي فيهم فكان يعرف لذلك بالكامل شهد العقبة الثانية مع السبعين من الانصار وكان احد فقهاء الاثني عشر وشهد لأمداً مع النبي ﷺ فبُرح عدة جراحات عميقة ولكنه لم يمض منها وثبت مع من ثبت مع النبي ﷺ حين انكشف الناس عنه ثم شهد الخندق بعد ذلك والمشاهد كلها حتى توفي في المدينة سنة ٢٠ هـ بأقتضاب من اعلام الزركلي وطبقات ابن سعد وتهذيب التهذيب لأبن حجر وصفوة الصفوة وغيرها من كتب السير والمعاجم.

المحققين ابن العلامة الحلبي قدس سرهما في الرسالة الفخرية النية^(١)، انه قال: «وتستحب زيارة حمزة بأحد وباقي الشهداء، لما روي عن النبي ﷺ أنه قال: من زارني ولم يزِرْ عمي حمزة فقد جفاني»^(٢)

● رثاء وتأبين

قبل أن نختم الحديث عن شخصية أسد الله وأسدرسوله نذكر ما كان لمقتله الفضيعة من صدى وحزن عميقين في قلب ومشاعر معاصريه: من الشعراء الذين حضروا تلك الواقعة وساهموا في دعمها بجهازي: الفكر والسلاح فدونت لهم السيرة النبوية لابن

(١) هو الشيخ أبو طالب محمد بن الحسن بن يوسف المطهر نجل العلامة الحلبي الشهير بفخر المحققين ولد في الحلة ليلة الاثنين ٢٠ جمادي الأولى سنة ٦٨٢ هـ

كان وحيد عصره وفريد مصره في عامة العلوم الإسلامية وخصوصاً حقلتي: الفقه والاحول وكان التلميذ المفضل لوالده العلامة الحلبي قدس سرهما كما كان خليفته في رئاسة الطائفة ونبوغته وعبقريته فقد ذكر المترجمون انه كأبيه قد بلغ درجة الاجتهاد في الفقه وهو على مدرجة الثانية عشرة من عمره واطراء واثى على نبوغه العلمي كثير من علماء عصره ومن بعدهم وحسبه من الاطراء والثناء ما نوه به والده (العلامة) في مقدمات عدة كتب كالتذكرة والارشاد والقواعد والالفين وغيرها.

ايزت عنه عدة مؤلفات في الفقه والاحول والعقائد وغيرها من العلوم الإسلامية طبع البعض منها كايضاح الفوائد في اربعة اجزاء وهو شرح قواعد ابيه العلامة والباقي لا يزال من نفائس المخطوطات ومن ذلك: كتابه المشار اليه (الرسالة الفخرية في النية)

توفي ليلة الجمعة ٢٥ جمادي الاخرة سنة ٧٧١ هـ في بلدة قم المشرفة ودفن فيها.

باقتضاب من تاريخ الحلة ليوستف كركوش والكنى والالفاظ للقمي ومعجم المؤلفين لعبد رضا كحالة واعلام الشيعة لأغا يزرك الطهراني واهيان الشيعة للمحسن العاملي وروضات الجنات للخوانساري وتنقيح المقال للمقاماني.

(٢) لقد اورد ابن قولويه القمي المتوفى سنة ٣٦٧ هـ في كتابه كامل الزيارات باب روايات مختصرة عن ائمة اهل البيت عليهم السلام تنص على استحباب زيارة حمزة وشهداء أُخْد ويذكر ما يقول الزائر: من السلام عليه وعليهم في زيارته وما يقوم به عند قبره وقبورهم: من الصلاة والدعاء بعد ذلك فراجع؟

وقد استعرض الشيخ الاميني (قدس سره) في (غديره: ج ٥ ص ١٦٠-١٦٦) ط طهران بعنوان (زيارة شهداء أُخْد) نصوصاً كثيرة من كتب اعلام العامة وحفاظهم كالنوروي والفاخوري والحزواوي والسهمودي وابن جبير وغيرهم في استحباب زيارة قبر حمزة وقبور شهداء أُخْد والتوسل بهم الى الله تعالى في بلوغ الامال والتبرك بتراب قبورهم فراجع

هشام^(١) وغيرها في بعض كتب السير والأدب والمعاجم: قصائد رثائية حزينة لا زالت شجية العواطف.

نذكر منها: ما قالت صفية بنت عبد المطلب^(٢)، فقد وقفت على مصرع أخيها الحمزة وأخذت تبكي وتقول:

أسائلة أصحاب أحد مخالفة	بنات أبي: من أعجم وخبير ^(٣)
لقال الخبير: إن حمزة قد لوى	وزير رسول الله خير وزير
دهاء إله الحق ذو العرش دهوة	للى الجنة يحيى بها وسرور
لذلك ما كنا نرجى ونرتجي	لحمزة يوم الحشر خير مصير
فوالله لا أنساك ما هبت الصبا	بكاءاً وحزناً محضري ومسيري ^(٤)

(١) فقد استعرض ابن هشام في سيرته: قسم ٢ ص ١٦٨-١٦٩ ط ثانية في القاهرة بعنوان (ما قبل من الشعر في يوم أُحُد) قصائد وأبيات وارجيز لكثير من الشعراء والشاعرات اخبرنا من بين ذلك بعض ما قيل في رثاء حمزه بالفصوص كما يلي:

(٢) السيدة صفية بنت عبد المطلب بنت هاشم الهاشمية القرشية والشاعرة الباسلة والمرأة المسلمة والمتافحة عن الاسلام وعن نبي الاسلام خصوصاً في واقعة أُحُد وهي عمه النبي ﷺ وشقيقة حمزة فتى عبد المطلب من امها هالة بنت وهيب الزهرية ومن طلائع النساء المسلمات قبل الهجرة بسنوات ولقد هاجرت مع النبي ﷺ الى المدينة وحضرت معه ومع اخيها حمزه واقعة أُحُد وأبليت في البسالة والدفاع عن النبي ﷺ وموقفه الاسلامي: بلاء حسناً من حيث الفكر والجهاد ولها مواقف ومشاهد في ذلك اليوم تذهل منها البصائر ومن ذلك موقفها الایماني الصائد على مصرع اخيها (حمزه) وهي حمزه والمقوم: اشقاء من امهم هالة بنت وهيب بن عبد مناف بنت عم امته بنت وهب ام النبي ﷺ كما ذكرنا ومن مواقفها الشجاعة والمشفرة انها حين رأت المسلمين يتراجعون عن النبي ﷺ يوم أحد تقدمت ويدها رمح تضرب في وجوه الناس المنهزمين وهي تنادي: انهزمتم عن رسول الله ﷺ فانصار النبي ﷺ الى الزبير بن العوام ان يبدها عن مصرع اخيها الحمزة فناداها الزبير وحاول صرفها فامتنعت عليه واقبلت حتى وقفت على المصرع الفظيخ فاخذت ترثيه بأشعارها الرقيقة كما هو مذكور، باقتضاب من اعلام الزركلي والاصابة والحساسية للتريزي وطبقات ابن سعد وسط الأكن: ولها بالاضافة الى مراتبها لأخيها حمزه مرات كثيرة في وفاة النبي ﷺ وذكرتها عامة كتب السير والمعاجم.

تزوجت بالعوام بن خويلد فولدت له: الزبير والسائب توفيت في المدينة فدفنت فيها سنة ٢٠ للهجرة.

(٣) الاعجم الذي لا يفصح عن مراده ضد الغبير.

(٤) الصبا بالفتح: ريح شرقية باردة عكس الدبور ومسيري: هياهي.

- على أسد الله الذي كان بديرهأ يسئود عن الإسلام كل كفور^(١)
 فيا ليت شلوي عند ذاك وأعظمي لدى إهضبع تعقائني ونسور^(٢)
 أقول وقد أعلى النعي عشميرتي جزى الله خيراً من أخ ونصير^(٣)
 ومما قاله كمب بن مالك الأثصاري^(٤) يهكي حمزة ويرثيه:
 طرقت همومك فلرقاد مسهد وجزعث أن سلخ للشباب الأغيد^(٥)
 ودعت فؤادك للهوى ضمرية فهاوك غوري وصحوك منجد^(٦)
 لدع الحمادي في الغواية سادراً قد كنت في طلب الغواية تفند^(٧)

(١) العدر بالكسر فسكون ففتح: الذي يدفع عن قومه، ويؤدو: يمتنع.

(٢) الشلو: القطعة المبانة من اللحم وتعتادني: تتهمني.

(٣) النعي بتشديد الهاء: هو الناعي الذي يأتي بخبر الميت وينعاه ويهيكه.

(٤) ابو عبد الله كمب بن مالك بن ابي كمب أو عمرو بن القين السلمي الخزرجي الاتصاري صحابي من المتقدمين في اسلامهم ومن اكابر شعراء الجاهلية والاسلام من اهل المدينة وحاد السجين الذين شهدوا العقبة وبايعوا بها.
 وتختلف عن بدر وشهد أهدأ وما بعدها من غزوات النبي ﷺ غير تبوله كان يعد كحسان بن ثابت من شعراء النبي ﷺ وأهل بيته من المنافعين عن الاسلام.

وقد ذكر له المرزباني مجمع: ص ٢٢٩- ٢٣٠ ط دار احياء الكتب العربية بمصر: شعراً في ذلك ولكن ساءت عاقبته بعد ذلك فكان من اصحاب عثمان يوم الشورى ومن منجديه يوم الثورة عليه ومن محرضي الانتصار على نصرته ومن تخلف عن بيعة علي عليه السلام بعد مقتل عثمان ومن الذاهبين الى مظلومية عثمان ومن المتهمين علياً في دهم الثورة عليه شأنه في ذلك شأن حسان بن ثابت والنعمان بن بشير من الانتصار فقد ذكر ابو الفرج في الاغانى: ان هؤلاء الثلاثة دخلوا على علي عليه السلام بعد مقتل عثمان فناظروه في شأن مقتله وانشد كمب امام علي شعراً في رثاء عثمان ثم خرجوا من عنده فتوجهوا الى معاوية فأكرمهم ورحب بهم، اعوذ بالله من سوء المقلب.

ذهب بصره في اعوامه فمات بعد قتل علي عليه السلام او في سنة ٥٠ للهجرة او بعد ذلك بنيف من السنين عن ٧٧ سنة من العمر انتفض من اعلام الزركلي واصابة ابن حجر ومصعب شعراء المرزباني وغزاة اليفغادي.

(٥) مسهد بصيغة المفعول والتشديد: قليل النوم والتعبير مجازي وسلخ بصيغة المفعول بمعنى: ازيل والاغيد: على افضل: اللين الناعم منه.

(٦) ضمرية: نسبة الى ضمرة من قبائل العرب وغوري: نسبة الى الغور وهو المنخفض من الارض عكس المنجد وهو المشرف المرتفع منها.

(٧) الغواية بالفتح: الضلال والتمادي فيه: المداومة واللجاج، والسادر: الذاهب غير المثنى وغير المبالي بالمواقف، وتفند بصيغة

- ولقد أتى لك أن تنهائي طائعا
ولقد مُدِّدْتُ لفلان حمزة هدة
ولو أنه فجعت حراء مطه
فلم تمكن في ذؤابة هاشم
والعاقب الكوم الجلال إذا غدت
والناركة القرن الكمي مجدلاً
وتراه يرفل في الحديد كأنه
عم النبي محمد وصفيه
وأتى المنية معلماً في أسرة
ومما قاله حسان بن ثابت بن منذر الأنصاري^(١٠) في رثائه:
- أو تستفيق إذا نهك المرشد^(١)
فلت بنات الجوف منها ترعد^(٢)
لرايت رأسي صخرها يتبدد^(٣)
حيث النبوة والندى والسؤدد^(٤)
ريح يكاد الماء منها يجمد^(٥)
يوم الكرية واللقنا نتقصد^(٦)
ذو لبدة شئن البرائن أريد^(٧)
ورد الحمام قطاب ذلك المورد^(٨)
نصروا النبي ومنهم المستشهد^(٩)

→ المجهول: تلام وتكذب.

(١) أتى بمعنى: حان، وتناهى: مخفف تنهائي أي تنزجر.

(٢) هددت بصيغة المجهول بمعنى: وجئت وضمعت وإنهارت قواي، ويقصد بنات الجوف: قلبه وكبدته وما يتصل بهما من أحشاء داخل جوفه.

(٣) حراء بالكسر: جبل عال من جبال مكة وهو الذي كان يعتمد عليه النبي ﷺ قبل البعثة، وجاء تأنيته هنا حملاً على البقعة، والرأسي الراسخ الثابت، والتبدد: التفرق.

(٤) القرم بالفتح فالسكون: السيد الشريف الشجاع وذؤابة كل شيء أعاليه.

(٥) الكوم بالضم: جمع الاكوم على أفضل وهو البحر الضخم السنام ومؤنته: كوماه على فعلاء والجلاد: جمع الجليلد وهو القوي الشديد.

(٦) القرن بالكسر: الكفوء والكمي: الشجاع ومجدلاً: صريعاً على الأرض.

والكريبة كناية عن الحرب الضروس والقنا وهي الرمح أو عوده وتقصد: تتكسر.

(٧) ذو اللبدة بالكسر كناية عن الأسد، واللبدية: الضرع الذي على كتفي الأسد.

وشئن يفتح فسكون: خليط والبرائن للسباع بمنزلة الاصابيح للناس والاريد: الاخير بسواد.

(٨) الحمام بالكسر: الموت.

(٩) معلماً بالكسر والفتح: مبني للفاعل أو للمفعول: من الاعلام ومن الاشهار بعلامة يعرف بها في الحرب، واسرة شخص: رهطه وأقربائه.

(١٠) ابو الوليد: حسان بن الشهيد بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد بن مناة الانصاري الخزرجي وامه: الفريفة بنت

- أُتُعرف الدار عفا رسمها
بعذك صوب المسبل الهاطل^(١)
سائلُها عن ذلك فاستعجمت
لم تدرك ما مرجوعة السائل^(٢)
دع عمتك داراً قد عفا رسمها
وابك على حمزة ذي النائل^(٣)
المالي الشيزي إذا أعصفت
غبراء في ذي الشيم الماحل^(٤)
والتاركة للقرن لدى لبدة
يعثر في ذي الخرص النابل^(٥)

→ حبيش بن لوزان الخزرجية.

ولد في المدينة قبل ولادة النبي ﷺ بثمان سنين وعاش كما قيل: (١٢٠ عام) نصفها بالجاهلية ونصفها في الاسلام.
كان صحابياً مقدماً في الاسلام ولكنه لم يشهد مع النبي ﷺ: أي مشهد من مشاهد حروبه لبيته فقد كان معروفاً بالجين في جاهليته واسلامه وكان من الشراء المجيد في الحظين خصوصاً في حقل التناء والهجاء.
ولمسه في الهجاء اتعر منه في التناء وقد اشتهر بمداحه للفسانيين وملوك الحيرة في الجاهلية كما اشتهر بمداحه للنبي ﷺ وأهل بيته وهجاء المشركين في الاسلام حتى عرف بين شعراء عصره: انه شاعر النبي ﷺ فكان يوضع له منبر في مسجد رسول الله ﷺ يقوم عليه ويمدح النبي ﷺ ويهجو اعدائه وقال فيه النبي ﷺ يوماً: ان روح القدس مع حسان ما دام يتافع عن رسول الله كما ان له في امير المؤمنين ﷺ ومناقبه مدائح كثيرة ولكنه سرعان ما انحرف عن خطه الولائي في عهد عثمان الى ان مات علي ذلك الانحراف كما اشرنا الى ذلك انفا في المدينة بعد ان كف بهره كما كلفت بصيرته سنة ٥٠ او اقل من ذلك او اكثر بنيف والمختار عندنا ان وفاته كانت سنة ٤٥ هـ

كُتبت عنه بعض الرسائل بالاضافة الى ترجمته في كثير من كتب السيرة المعاجم والادب وطبع له ديوانه الكبير عدة طبعات بشروح وتعليقات.

بأقتضاب من اعلام الزركاني والاصابة وتهذيب التهذيب لأبن حجر وخزائن البغدادى والشعر والشعراء لأبي قتبية وتهذيب ابن عساكر والاغانى لأبي فرج وسفينة البحار للقي.

(١) عفا يعطو: درس وتغير، والرسم الاثر الباقي من الشيء المتدثر، والصوب: يفتح فسكون: المطر المنصب المسبل الهاطل: السائل كثير السيلان والانصباب.
(٢) استعجمت: لم ترد جواباً ومرجوعة السائل: رجع الجواب.

(٣) النائل: العطاء والفضل.

(٤) الشيزي: جفان كبيرة من الخشب كانت تعد للضيقات عند العرب، وأعصفت: اشتدت.
والغبراء: الريح الشديدة التي تثير الغبار والشمم يفتح فكسر: الماء البارد ويقصد بذى الشيم: زمن اشتداد البرد، والتعط والماحل: من المحل وهو الجذب.

(٥) القرن بالكسر: الشجاع المنازل في الحرب، واللدة بالكسر والضم: الشعر المجتمع بين كفتي الاسد وذو الخرص بالضم: الريم والخرص: سنانه، والذابل: الرقيق.

واللابس الخليل إذا أحجمت	كاليث في غابته الباسل ^(١)
أبيض في ثروة من أشم	لم تمر دون الحق بالباطل ^(٢)
مال شهيداً بين أسياكم	شلت يداً (وحشي) من قاتل ^(٣)
أي امري غادر آلة	مطروية مارنة العامل ^(٤)
أظلمت الأرض لفقدانه	واسود نور القمر الناصل ^(٥)
صلى عليه الله في جنة	عالية مكرمة الداخل
كنا نرى حمزة حرزاً لنا	في كل أمر نابنا نازل ^(٦)
وكان في الاسلام ذا ثدراً	يكفيك لقد القاعد الخادل ^(٧)
ومما قاله عبد الله بن رواحه ^(٨) في رثائه:	
بكت عيني وجق لها بكاها	وما يغني البكاء ولا العويل
على أسد الإله غداة قالوا	أحمزة ذاكم الرجل القليل
أصيب المسلمون به جميعاً	هناك وقد أصيب به الرسول

- (١) لابس الخيل: المثير لها وملاحقتها ومخالطها واجمعت واجمعت بالتأخير: بمعنى واحد وهو الكف والتوقف والباسل: صفة الليث جاءت متأخرة للغاية
- (٢) الذروة بالضم والكسر: العلو والرفعة ولم يمر: من المراء وهو الجدل الفارغ.
- (٣) مال أي صرع ووحشي ذلك العبد الذي قتل حمزة بهرته.
- (٤) غادره: تركه، والته: حرية وحشي ذات ستان طويل، والمطروية: المحددة.
- (٥) يقال: نصل القمر من السحاب فهو ناصل: إذا خرج منه.
- (٦) حرز: من الوقاية الاحتراز، ونازل: صفة متأخرة للامر ونابنا: اصابنا.
- (٧) تدا تدرأ بصيغة المجهول أي: ذا مدافعه.
- (٨) عبد الله بن رواحه بن ثعلبة الخزرجي الانصاري أحد القواد الثلاثة الذين استشهدوا في غزوة مؤتة في جمادي الاولى من السنة الثالثة للهجرة وقد تحدثنا عنه وعن زميله: زيد بن حارثة ضمن الحديث عن زميله القائد الاول: جعفر بن ابي طالب عليه السلام واستمرضنا: كهيئة شهادة الثلاثة في المعركة وفي ثنايا الفصل السابع من هذا الكتاب فراجع.
- والملاحظ ان ابن هشام في سيرته: قسم ٢ ص ١٦٢ ط ثانية في القاهرة بعد ان يروي نسبة هذه الابيات لعبد الله بن رواحه عن ابن اسحاق يقول: (نشد فيها ابو زيد الانصاري لكعب بن مالك)

أبا يعلى لك الأركان هدت وأنت الماجد البر الوصول^(١)
 عليك سلام ربك في جنان مخالطها نعيم لا يزول
 ألا يا هاشم الأخبار صبرا لكل هاتكم حسن جميل^(٢)
 رسول الله مصطبر كريم بأمر الله ينطق إذ يقول^(٣)
 وأخيراً لقد حظيت بشرف رثاء وإطراء أسد الله وأسد رسوله فقلت من قصيدة^(٤):
 أبا نفس فيضني أسنى وانسجي ويا عين سُقي دما واسكبي
 لقد فل من هاشم غضبها واردى الحمام فتى يحرب^(٥)
 وقد صرع الدهر بالأسى فتى مثله الدهر لم ينجب
 وألوى بسحمة وهو للكمي فخر عن السابِق الأشهب^(٦)
 إلى حيث تُسرُّ الظبي والقنا تناهيه وهو لم يرغب^(٧)
 يسروع الوغى وهو فوق الثرى صريعاً - بواقعه المرهب
 وفل يثائب جيش العدى بعزم صؤول فلم يغلّب
 إلى أن أنصحت له حربة من البعد مسنونة المضرب^(٨)

(١) أبو يعلى: إحدى كنيته حمزة بأحد ولديه وكنية أخرى: أبو عماره بولده الآخر. والماجد البر الوصول: صفات من المجد والشرف والبر والصلة.

(٢) خطاب إلى بني هاشم المصابين بهذه الفادحة ونصير لهم عما ناهم بالتأسي بالنبي ﷺ وصبره على مصاب حبه.

(٣) للآيات: أبيات آخر تركناها اكتفاء بما ذكرنا.

(٤) المقطع الأول: من قصيدة لنا ذات مقاطع ثلاثة في رثاء سيد الشهداء في أحد حمزة فتى عبدالمطلب طبع البعض منها في كتاب الأستاذ الشيخ عبد الزهراء الصغير رحمه الله عن حمزة قبل أكثر من ثلاثين عاماً من هذا الحين أدرجت القصيدة كاملة في الجزء الأول ضمن القافية بالياء من ديواننا للمخطوط: زورق النبال.

(٥) قل المضرب وهو السيف القاطع صيغة المجهول: إذا انتلم حده فلم يقطع والحمام بالكسر: الموت، ويعرب: أحد الاجداد الاعالي لبني هاشم.

(٦) ألوى به: إذا أماله ونكسه، والكمي: الشجاع الفارس والسابق الأشهب: الفرس السريع العدو.

(٧) شره بالنظم فسكون: جمع شره يفتح فكسر وهو شديد الحرص والجوع.

(٨) إشارة إلى مقتل حمزة بحربة وحشي عبد جبير بن المطعم القرشي، ومسنونة: محددة.

ففاضت مع الموت أنفاسه	كأن لها الموت في مرقب ^(١)
والحد تحت ظلال السيوف	ولحد السيوف شعار الأبى

(١) مرقب: هو المرصد كلاهما بالفتح: من الرقابة والارصاد.

الفصل الثامن

عم النبي ﷺ: العباس بن عبدالمطلب

نسبه، تاريخ ولادته، سماته وصفاته ومميزاته، كتمان إسلامه في مكة، موافقه الإسلامية في الدفاع عن النبي ﷺ والمسلمين في مكة وعرض الشواهد على ذلك، حضوره العقبة وتأكده من بيعه الأنصار، إخراج المشركين إياه وابني أخويه عقيل ونوفل قهراً (في واقعة بدر) واسر مع ابني أخيه من قبل المسلمين ويأمره النبي أن يفندي نفسه وابني أخويه حتى أطلق من الأسر فأظهر إسلامه بعد ذلك، موقفه الإسلامي الصامد في واقعة أحد وفرحه بفتح خيبر وموقفه الصامد في واقعة حنين، مدحه النبي بكلماته وأشعاره، تعظيم مقامه من قبل النبي ﷺ وعلي ﷺ وولده عبد الله وعامة المسلمين، موقفه المشرف يوم السقيفة إلى جانب أمير المؤمنين ﷺ وتخلفه عن بيعة أبي بكر واحتجاجة عليه بالرغم من إغرائه بنصابه من الخلافة واستسقاؤه أيام عمر وبعد ذلك وفاته وذكر أبنائه وتخصيص المعقبين منهم.



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

● العباس بن عبد المطلب

الى هنا ننهي الحديث عن الفصن الرابع للزيتونة الهاشمية المباركة: من أبناء عبد المطلب الأخذاذ.

لنواصل الحديث بإيجاز عن الفصن الخامس لتلك الزيتونة، وهو آخر ما تعرضه عن أغصانها الخمسة المتفرعة عن تلك الشجرة الباسقة بكل ما للفضيلة والخير من معنى شامل معطاء.

ألا هو رابع أعمام النبي المفضلين، وإن كان عامة أعمامه باستثناء أبي لهب لا يخلون من الفضل .

إنه أبو الفضل: العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن مناف الهاشمي القرشي^(١) وأمه وام شقيقه: ضرار وقثم: ثثة أو ثثيلة بنت جناب النمرية^(٢)، وهي أول امرأة عربية كست الكعبة بالحرير والديباج وأصناف الكسوة، ذلك حينما ضاع ابنها العباس وهو صبي فنذرت أمه: إن وجدته حياً تكسو الكعبة فوجدته فوفت بنذرها.

كانت ولادة العباس بمكة قبل عام الفيل بثلاث سنين على الأكثر بل الأصح وإن قيل كما في الإصابة والإستيعاب: إنها كانت قبل عام الفيل بسنتين.

فالعباس أسن من ابن أخيه النبي ﷺ بثلاث سنين كما إنه أسن من أخيه الحمزة بسنة واحدة.

وقد أثر عنه في هذا الباب تعبيره الأدبي في جواب من سأله أيكما أكبر: أنت أم

(١) واتصال سلسلة نسب هاشم التصاعدي بجمته الأعلى فهو الذي هو الجد الأعلى لمعوم قبائل قریش، معلوم مما سبق منا ذكره.

(٢) ثثيلة بنت جناب بن كلب بن مالك بن عمرو بن عامر بن تميم الله بن النمر بن قاسط إحدى قبائل ربيعة بن نزار كما في جمهرة ابن حزم.

رسول الله؟ فقال العباس: رسول الله أكبر مني وأنا ولدت قبله^(١).

● سماته وصفاته

ذكرت عامة كتب السير والمعاجم للعباس: سمات جميلة وصفات نبيلة، ينشد المترجم من خلال تلك وهذه إلى نياط الشرف الهاشمي والمنعة القرشية والمجد العربي والروح الإسلامية.

قال المحدثون عن سماته: إنه يتميز عن أفراد قبيلته المعاصرين بسناء الباهر وجماله الساحر وبياض جسمه البض واعتدال قامته الطويلة، بل كان أطول رجال عصره، وبصدر واسع رحب ومنكبين عريضين تتدلى عليهما ضفيرتان من وفرة ته المتهدلة وبأطلال وجهه المشرق تتكشف أساريره الضاحكة عن نفس ثرية بمعناها، طيبة بمغزاها، مجنحة بهواها، وبصوت جهوري بعيد المدى، فرما كان يسمع على بعد فراسخ من منطقته.

وقالوا في عرض سماته: إنه كان يتميز بشرف ومجد رفيعين وهيبة مهيمنة وسؤدد شامخ وحلم وافر وخلق باهر وشأن وخطر كبيرين في الجاهلية وبعد الإسلام. فقد تلقى زعامة قريش وريادة بني هاشم وسيادتهم وسقاية الحاج من زمزم ورفادة الحجيج وإطعامهم عن أخويه: أبي طالب مؤمن قريش وسيد الشهداء: الحمزة فتي عبد المطلب بعد وفاتها.

واضاف له الإسلام الى منازلته تلك: عمارة المسجد الحرام أي: تنزيهه عن قول الهجر والتشبيب بالشعر وعن كل ما يشين كرامته: من فعل الباطل وقوله. فقد كان العباس يضطلع بتلك المناصب الموروثة والأخرى المضافة له أحسن اضطلاع^(٢).

وكان يتمتع الى جانب ذلك بأريحية وسخاء وبر ووفاء وطلاقة يدور عناية رحم كما شهد له بذلك النبي الصادق الأمين حيث قال عنه: «إنه أجود قريش كفافاً وأوصلهما رحماً».

(١) ذخائر العقبى للمحب الطبري: ص ١٨٦ ط القدسي بمصر وسير اعلام النبلاء، ج ٢ برقم ١١١ ط دار المعارف بمصر

والدرجات الرفيعة للسيد المدني: ص ٧٩ ط النجف. (٢) اضطلع بالشي الفلاني: نهض به وقوي على عمله.

وكان للعباس كما يروى: ثوب لعاري بني هاشم وجفنة لجائعهم وأناة لجاهلهم وكان يمنع الجار ويبذل المال ويعطي في النوائب ويحسن إلى القوم، أليس هو الكافل: ابن أخيه جعفر أسنة عسر أخيه أبي طالب. بعد ذلك أليس هو الذي اقتدى يوم بدر ابني أخويه: عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفاً لهما من بني فهر؟ وكان مولعاً بشراء العبيد وتحريرهم، فقد روي عنه: أنه اشترى سبعين عبداً فأعتقهم، وإنه تبرع بداره لمسجد النبي ﷺ حينما طلب منه عمر ذلك لتوسيعه.

ولقد كان بالإضافة إلى تلك المميزات ونحوها: ذا رأي أصيل وقوة نفس مع ترف عاطفة، فقد كان ينشق رأيه الصائب من صميم المحنة ومن حنايا المشاكل انشقاق عمود الفجر عن غيب الليل، وكان للمزيج من قوة نفسه مع ترف عاطفته انعكاس خير يظني على سلوكه الاجتماعي، وواقعه الإسلامي^(١).

● كتمان إسلامه في مكة

وتنعكس مميزات العباس وصفاته النفسية العالية أيام الجاهلية على سلوكه أيام الإسلام.

فما أن صدع النبي ﷺ برسالة السماء حتى آمن به العباس سرّاً وإن تأخر إسلامه علانية، شأنه في ذلك شأن أخيه الأكبر أبي طالب، فقد كان هذان الأخوان عن حكمة وروية يكتتمان إيمانهما في بداية الإسلام حفاظاً على ابن أخيهما محمد ﷺ ومواكبة لدعوته عن كثب وإن تميز أبو طالب عن أخيه العباس ببعض الفوارق في هذا المضمار؛ من حيث القوة والإصرار والدفاع المتواصل عن محمد ﷺ وعن رسالته كما أسلفنا ذكره.

فقد ذكر بعض من كتب عن العباس: أن إسلامه الواقعي كان قبل الهجرة بسنوات،

(١) استقينا: عامة تلك المضامين في عرض سمات العباس وصفاته من عامة المصادر التي كتبت عنه كأصالة ابن حجر، واستنباط عبد البر في ترجمته، ومحبر النسابة للبغدادي، وسر أعلام النبلاء للذهبي: ج ٢ برقم (١١١)، وتذهيب الأسماء واللغات للنووي: ج ١ برقم (٢٨١)، وذخائر المحب الطبري: ص ١٨٦ و ٢٠٤ وغيرها من كتب السير والمعاجم والمناقب، والدرجات الرفيعة للسيد المدني.

وكان يكتنم لإسلامه امام قريش حتى إذا كانت الهجرة وأراد العباس أن يهاجر مع من هاجر من طلائع المسلمين كتب إليه النبي ﷺ من المدينة: «بقاؤك في مكة خير أو خير لك».

فكان يكتب أخبار المشركين في مكة إلى رسول الله ﷺ، وكان المسلمون في مكة يتقون به ويطمئنون إليه في أسرارهم.

ومواقف العباس الإسلامية في مكة قبل إظهار إسلامه ليست بأقل وأخف بكثير من موقف أخيه أبي طالب في مكة أيضاً لو استثنينا مع الاعتذار من هذا الاستثناء بعض ما للأخ الأكبر من مميزات كما أشرنا.

فقد كان للعباس هو الآخر مواقف دفاعية في مكة عن النبي ﷺ والمسلمين المستضعفين ليست بالقليلة العدد ولا بالضئيلة الخطر.

فمن الشواهد على ذلك: نقرأ ما كتبه المؤرخون عن قصة إسلام الصحابي المعظم والفدائي الصلب عن الإسلام ومبادئه أبي ذر الغفاري جندب بن جنادة رضوان الله عليه. قالوا: باقتضاب منا: إن أبا ذر خرج من بلد قبيلته «غفار» يريد مكة حينما بلغته دعوة النبي ﷺ فيها ليسلم على يده، فما أن ورد مكة ودخل المسجد حتى التقى بعلي بن أبي طالب ﷺ فأخذه علي ﷺ إلى منزله ولم يسأل عن مراده إلا بعد ثلاثة أيام وسأل بعد ذلك عن مقصده، فكشف له أبو ذر عن مكنون سره فرحب به وأسلم على يده، فأمره النبي ﷺ بهكتمان أمره حتى يظهره الله؟ وأمره بالرجوع إلى قومه.

فيندفع أبو ذر وقد كهرته واقعية النبي ﷺ وجاذبية الإسلام قائلاً: «يا رسول الله والذي بعثك بالحق نبياً لأحرضن بها (أي بكلمة الشهادة) بين أظهر المشركين».

ثم يفتتل أبو ذر على الفور حتى يقف على باب المسجد الحرام وقريش محتشدون فيه، فينادي بأعلى صوته: «يا معشر قريش إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» فقاموا إليه فضربوه ضرباً مبرحاً حتى كاد يموت، وبينما هو وهم كذلك إذ طلع عليهم العباس بن المطلب.

فأكب على أبي ذر والتفت إلى القوم ونهرهم قائلاً: أقتلون رجلاً من غفار ومتجرمكم

ومركم على غفار؟، فخلصه من بين أيديهم وأقلعوا عنه حتى لحق يقومه^(١)، ومن المعلوم كما عليه عامة أرباب السير والمعاجم: أن أبا ذر قديم الإسلام في مكة ولعله كان رابع أو خامس المسلمين، ومن مواقف العباس الجلية في مكة مبادرته في الحضور إلى العقبة^(٢) وحذه مع النبي ﷺ يبايع له على الأنصار ويشترط عليهم ويتثبت من صدق بيعتهم على النصر والحماية.

فلنستمع إلى أرباب السير والمعاجم يروون لنا: حديثهم المفصل عن ذلك الموقف المشرف؟

قالوا باقتضاب منا: لقد خرج بعض المسلمين من عليّة الأنصار إلى مكة أيام الموسم والتقوا برسول الله ﷺ في المسجد الحرام قبيل أداء فريضة الحج وتواعدوا معه على الموافاة عند العقبة في أواسط أيام التشريق من ذلك الشهر بعد الانتهاء من أداء المناسك وكان بعضهم من أصحاب بيعة العقبة الأولى.

فلما كان الليل من ذلك الوقت حضر والميعاد رسول الله ﷺ متسللين مستخفين عن أعين المشركين، فاجتمعوا في الشعب^(٣) عند أسفل العقبة وكانوا سبعين رجلاً يزيدون واحداً أو اثنين ومعهم امرأتان من نسايتهم نسبية (بالتصغير) بنت كعب «أم عمارة» إحدى نساء بني النجار والثانية «أسماء بنت عمرو» أم منيع إحدى نساء بني سلمة.

فبينما هم مجتمعون في الشعب ينتظرون مجي النبي ﷺ إذ طلع عليهم وليس معه من بين قومه إلا عمه العباس، وهو يومئذ على دين قومه الظاهر إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويساعده ويتوثق له من بيعة الأنصار وثباتهم ويتولى إحكام الأمر له مع الانصار.

فلما جلس النبي ﷺ كان أول من تكلم عمه العباس فالتفت إلى الحاضرين وقال: «يا

(١) الذخائر: ص ٢٠١، والإصابة: ج ٤ ص ٦٢ برقم ٣٨٤، والإستيعاب في هامش الصفحة المذكورة من الإصابة.

(٢) المقصود: هي العقبة الثانية بعد الأولى وكانت في إحدى ليلالي التشريق من ذي الحجة من تلك السنة التي تليها سنة الهجرة النبوية.

(٣) الشعب بكسر فسكون: الطريق إلى الجبل وما انفج بين الجبلين، كما أن العقبة بالتحريك: الطريق إلى أعلى الجبل والمرقى الصعب منه.

معشر الخزرج كانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار خزرجهم وأوسهم: «الخزرج انكم دعوتهم محمد الى ما دعوتموه إليه: من البيعة والنصرة والمنعة وأن محمداً منا حيث قد علمتم من أعز الناس في عشيرته يمنعه والله منا: من كان على قوله ومن لم يكن فهو في عزة قومه ومنه بلده، وانه قد أبى إلا الانقطاع اليكم وللحق بكم فان كنتم أهل قوة وجلد ويصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة فارتؤا رأيكم وأمركم ولا تفتروا إلا عن ملأ منكم واجتماع فان أصدق الحديث أصدق، فان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن، فدعوه؟ فانه في عزة ومنعه من قومه وبلده .

فسكت الحاضرون، وبدرهم عبد الله بن عمرو بن حرام بالكلام فقال: «نحن والله أهل العرب عُذينا بها ومزنا عليها وورثناها عن آبائنا كابراً عن كابر، نرمي بالنبل حتى تقنى، ثم نطاعن بالرمح حتى تكسر، نمشي بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الأعجل منا أو من عدونا»، وقال البراء بن معرور: قد سمعنا ما قلت، إنا والله لو كان في أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه، ولكننا نريد الوفاء والصدق ويذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ.

فهب الحاضرون من الأنصار وأجابوا العباس بصوت واحد قائلين: قد سمعنا ما قلت واثنا نبايع على النصرة والجهاد.

ثم التفتوا إلى النبي ﷺ قائلين له: تكلم يا رسول الله؟ وخذ لنفسك وربك: ما أحببت؟

فتكلم النبي ﷺ وتلا القرآن ودعا الى الله ورغب في الاسلام ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم...» الى آخر الحديث.

قالوا: فقام إليه الحاضرون من الأنصار وبايعوا على ذلك عن آخرهم: الواحد تلو الآخر وكان العباس آخذاً بيد النبي ﷺ^(١).

(١) ذخائر المقيي للمحب الطبري: ص ١٨٨-١٨٩ ط القدسي بمصر، وسر اعلام النبلاء للذهبي: ج ٢ برقم ١١١، وسيرة ابن هشام: قسم ٢ ص ٤٤٠-٤٤٢ ط ثمانية بمصر، وتاريخ الطبري: ج ٢ ص ٣٦١-٣٦٥ ط دار المعارف بمصر، وكامل ابن الأثير

لعمرى وإن هذا الموقف المتحمس من العباس رضوان الله عليه تجاه النبي ﷺ ورسالته من أنصع المؤيدات، بل الدلالات على رسوخ قدمه ويُعَدُّ قَدَمِهِ في علاقته بالنبي ﷺ من حيث العاطفة والفكر غير مفترقتين.

● إظهار إسلامه في المدينة

قال المؤرخون في عرض حديثهم عن واقعة بدر، وبعد أن كانت الهجرة النبوية إلى المدينة وتآزمت المواقف المحرجة بين محمد ﷺ وأصحابه وبين مشركي قريش تنادى الفريقان للتجهيز والتعبئة والتنفير إلى أول الحروب والغزوات بينهما.

وهي غزوة بدر الكبرى، وكانت في أواسط شهر رمضان من السنة الثانية بعد الهجرة. فجنَّدت قريش كل قواها الكافرة لحرب النبي ﷺ وإسلامه وأصحابه المسلمين فأكرهت، تغطيةً على ضلالها بعض رجال بني هاشم الذين كانوا في المدينة على الخرج معهم لتلك الغزوة، وكان على رأسهم شيخ بني هاشم الذين كانوا في المدينة على الخروج معهم لتلك الغزوة، وكان على رأسهم شيخ بني هاشم العباس بن عبد المطلب مع ابني أخويه: عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث وبعض آخرين. واستسلم العباس لمجاراة المشركين في إكراههم، وما يدرينا لعله إنما انصاع واستسلم وحضر الواقعة ليقف منها عن كذب فيكون عيناً على المشركين ويزود النبي ﷺ تحت الخفاء بنقاط الضعف من جيش المشركين.

ولقد صرح النبي ﷺ بحكم اطلاعه المسبق بواقعة عمه واستكراهه من قبل المشركين على حضوره الواقعة معهم، فأمر مناديه قبل التحام الحرب أن ينادي في المسلمين: «ألا من لقي العباس فلا يقتله فإنه خرج مستكراً»^(١).

→ ج ٢ ص ٦٨-٦٩ ط بيروت بعنوان (ذكر بيعة العقبة الثانية)، ونهاية الأرب للنويزي: ج ١٦ ص ٣١٣-٣١٥ ط القاهرة مع اختلاف بسيط بينهما في العرض .

وفي النهاية بعد ذلك (فقال العباس لهم وهو أخذ بيد رسول الله أخفوا جرسكم؟ فإن علينا عيوناً، وقدموا ذوي أسنانكم فيكونون هم الذين يلون كلامنا منكم؟ هانا نخاف قومكم عليكم؟ إذا باعتم فخرقوا إلى محالكم...).

(١) ذخائر المحب الطبري: ص ١٩١ ط القدس بمصر، واستيعاب ابن عبد البر ترجمته، والدرجات الرفيعة للمدني: ص ٨٠

ودارت رحى الحرب الضروس بين محمد ﷺ والمسلمين من جهة وبين أبي سفيان والمشركين من جهة أخرى، ولكن العباس كغيره من بني هاشم المتكرهين على الخروج كان يتمنى بل يترقب النصر النهائي لمحمد ﷺ وأصحابه على أبي سفيان وأصحابه حتى لو أدى الأمر كما كان فعلاً أن يقع أسيراً في أيدي المسلمين.

فكانت نتيجة الصولات والجولات بين الفريقين: تحقق ما تمناه وتوقعه ابن عبد المطلب، فسرعان ما دار الأمر ودارت دائرة السوء على المشركين فتوزع جيشهم المكثف المؤلف بين: قتلى وصرعى في المعركة ومنهزمين على وجوههم الى جهة المدينة وأسارى في أيدي المسلمين المنتصرين.

وكان العباس وابنا أخويه: عقيل ونوفل من جملة أولئك الأسرى، فأخذه بعض المسلمين وشد وثاقه فجعل العباس ين طيلة تلك الليلة من وثاقه، فسمع النبي ﷺ أنينه فسهرت عينه تألماً وتوجعاً له وهو يعلم أنه مستكره على بداية هذه النهاية الأليمة فيسأل بعض اصحابه عند الغداة عن سبب سهره تلك الليلة فيجيبه النبي ﷺ فيقول: «إنما أسهرني أنين عمي العباس»، ثم يأمر النبي ﷺ بفك وثاقه ووثاق جميع الأسرى من بني هاشم وغيرهم كرامة لعمه وكرامة للأسلام.

وبعد ذلك أمره النبي ﷺ بافتداء نفسه، وابني أخيه بذهب كثير، فعل العباس ما أمره به ابن أخيه محمد ﷺ، انصاعاً لواقعيته المؤمنة وتنفيذاً لقانون الاسلام بهذا الخصوص^(١).

وروي: أن العباس اعترض على حكم النبي عليه بالافتداء: باسلامه المسبق واستكراهه الخروج، فأجابته النبي بوجوب تطبيق الحكم الظاهري على موقفه الظاهري: من قانون الأسر^(٢).

(١) تراجع: عامة كتب التاريخ كتاريخ الطبري، وكامل ابن الأثير، ونهاية النوري، وبداية ابن كثير، وتاريخ العقوبي وغيرها

ضمن حوادث السنة الثانية للهجرة بخصوص واقعة بدر الكبرى وغيرها من معاجم الترجمة للعباس (رضي الله عنه).

(٢) في معارف ابن قتيبة: ص ١٥٦ ط دار الكتب وبعض كتب السير: (فقال له رسول الله ﷺ: الله أعلم بأسلامك أن يكن

ما تقول حقاً فإله يجزيك به، وأما ظاهر امرك فقد كان علينا)، ومثل ذلك في الدرجات الرفيعة للمدني ص ٨٦ ط النجف.

وهنا يختلف أرباب السير والمعاجم في وقت إظهاره الاسلام في المدينة بعد اتفاقهم على عدم تظاهره في مكة: بين القائل إنه كان ذلك يوم بدر على اثر اقتدائه نفسه وابني أخيه في الأسر فأظهر الجميع لإسلامهم حينئذ بين قائل: إنه كان ذلك بعد رجوعه من الوقعة إلى مكة ثم انتقاله منها إلى المدينة مهاجراً في أخريات ذلك العام أو بعد أعوام قبل فتح خيبر أو عند فتح مكة، ثم شهد: «حنينا والطائف وتبوك» أقوال كثيرة.

وإن كان المشهور بين المؤرخين وهو الظاهر المعتبر عندنا: أن إظهار إسلام العباس كان بعد عام الهجرة وفي يوم بدر وعلى صعيد المعركة على أثر اقتدائه بعد الأسر، ثم إنه رجع بعد ذلك بأيام إلى مكة وهاجر منها إلى المدينة في أخريات ذلك العام أو بعده بأعوام، والله العالم^(١).

● من أعماله الإسلامية عند واقعة أحد

ذكر بعض المؤرخين: أنه لما اجتمعت قريش بعد رجوعها من بدر واستعدت لطلب ثأرها يوم بدر من محمد وأصحابه، واستعانت بالمال الذي قَدِمَ به أبو سفيان على ذلك، مصممة على أن لا تتفق شيئاً إلا في حرب محمد ﷺ أخذاً بالثار وغسلاً للعار.

ويطلع العباس بن عبد المطلب على اجتماعهم واستعداداتهم وتصميمهم على حرب النبي ﷺ من جديد فيكتب إلى النبي ﷺ من مكة وكان يومئذ فيها قبل أن يهاجر إلى المدينة بخبر قريش وما صمموا عليه، ويبعث بالكتاب مع رجل من جهينة ويأمره بالإسراع بإيصاله إلى النبي ﷺ قبل أن يفاجئه الأمر.

فلما استخبر النبي ﷺ بذلك النبأ من كتاب العباس ورسوله أطلع خُلَصَّ أصحابه وأهل بيته على الأمر واستعد للحرب وجند لذلك ألف مقاتل، وسرعان ما زحف المشركون إلى المدينة بجيش كثيف عدده ثلاثة آلاف مقاتل فالتقى الفريقان ودارت الحرب في جبل أحد في شوال بعد واقعة بدر الكبرى بسنة أي في السنة الثالثة للهجرة كما مر تفصيله آنفاً عند الحديث عن حمزه فتنى عبد المطلب^(٢).

ويُسْتَشَفُّ من خلال هذا الخبر البسيط: مدى تحسس العباس بعواطفه وأفكاره تجاه

(٢) تاريخ العقوي: ج ٢ ص ٣٨ ط النجف باقتضاب.

(١) المصدران الآتان: من الذخائر والاستيعاب.

عواطف النبي ﷺ وأفكاره ومدى رقبته وحفاظه على حوزة الإسلام عن أن تمس بسوء من قبل أعدائه.

وإنها لاحدى المواقف الإسلامية للعباس بعد إظهار إسلامه أضيفت الى سجله الحافل بأمثالها من المواقف قبل ذلك التاريخ.

● فرح العباس بفتح خيبر

ومن ظواهره الايمانية، ومواقفه الإسلامية التي تفسر لنا عمق تحسسه بايمانه، وسعة استثماره لإسلامه: انطلاق فرحته وانفتاح استبشاره بفتح «خيبر» وظفر المسلمين فيها، وكانت «واقعة خيبر» في أوائل أو أواسط شهر المحرم من السنة السابعة للهجرة، حيث خرج رسول الله ﷺ بجيش المسلمين، وكان يعد أكثر من ألف بمات من المدينة، وأقبل جيشه حتى نزل بوادٍ يقال له «الرجيع» عن المدينة بمراحل، بين أهل خيبر وغطفان، ليمنع أهل غطفان عن أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ، فلما سمعت «غطفان» بمنزول النبي ﷺ من «خيبر» جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا يهود خيبر عليه، وحتى إذا صاروا عن منازلهم بمرحلة، تحسسوا وترهبوا من خروجهم، وتخوفوا على أموالهم وأهلهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أموالهم وأهلهم، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين «خيبر».

فلما نظر اليهود إلى جيش المسلمين، خذلهم الله، فولوا هاربين وتحصنوا بحصونهم الكثيرة المنيعة، وخرج من بين تلك الحصون: المرحب بن حارث قائد اليهود، وصاحب حصونهم، وهو مدجج بالسلاح الثقيل، فأخذ يرتجز ويطلب المبارز من المسلمين، فبرز إليه علي بن أبي طالب عليه السلام، فما كانت إلا جولة، وصوله، حتى قُتِلَ المرحب «قائد اليهود» بسيف علي بن أبي طالب «قائد الاسلام» ففر اليهود إلى حصونهم، وتحصنوا بها، ففتحها المسلمون عليهم بقيادة علي بن أبي طالب، ولما أيقن اليهود بالهلكة سألوا النبي ﷺ: «حقن الدماء، ومصالحتهم على الأموال والعقائد، فكانت «خيبر» فيناً للمسلمين، أصابوا منهم سباياً كثيرات، كانت من بينهم: صفية بنت حيي (بياء أو يائين مع التصغير) بن أخطب بن سعد بن ثعلبة «من زعماء الخزرج من اليهود» اصطفاها

رسول الله ﷺ لنفسه، وقسم بقية السبا يا والغنائم بين المسلمين والقصة مفصلة في كتب التاريخ ضمن حوادث السنة السابعة للهجرة، بعنوان «فتح خيبر».

قالوا: وبعد أن تم فتح «خيبر» وانتصر المسلمون على اليهود، أقبل الحجاج بن علاط السلمي^(١)، وكان من المشركين، فأسلم في خيبر، وأقبل إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله، قد أسلمت وإن لي بمكة مالا متفرقا في تجار أهلها أفتأذن لي أن أقول فيك شيئا يطمثون إليه لعلّي آخذ منهم مالي؟، فإذن له النبي ﷺ أن يقول: أي شيء أراد بلسانه، مادام قلبه مطمئنا بالإيمان.

فخرج الحجاج من «خيبر» حتى إذا قدم مكة، استقبله رجال قريش إلى الحدود، ليستمعوا منه خبر «الغزوة» ويتعرفوا على نتيجتها ورحبوا بمقدمه، ولم يعلموا إسلامه، فسألوه أن يفصل لهم ما شاهده من المعركة، وما آلت إليه؟ فقال لهم: نعم، عندي من الخبر ما يسركم، إني ما جئت من خيبر: حتى هزم اليهود محمداً وأصحابه شر هزيمة وقتلوا أصحاب محمد شر قتله وأسروا محمداً ولم يقتلوه وسيأتون به إلى مكة فيقتلونه بين أظهرهم بدل ما أصاب رجالهم أمتال «حبي بن أخطب».

فعند ذلك أخذوا ينادون في أزقة مكة مستبشرين: يا أهل مكة قد جاءكم الخبر بخذلان محمد وأصحابه في خيبر وقد أسر محمد فانظروا أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم؟

ثم إن الحجاج بدوره طلب منهم أن يعينوه في جمع ماله من تجار مكة لقاء ما أخبرهم به فاعانوه على جمع ماله «على الفور»

ويبلغ العباس بن عبد المطلب وكان إذ في مكة ذلك الخبر، ويسمع منادي قريش وإرجافهم بمحمد وأصحابه فيجزع ويحزن وينطلق على الفور إلى حيث رأى الحجاج واقفاً مع القوم وهم يعينونه في جمع ماله من تجار مكة، فيندفع قائلاً له: ما هذا

(١) الحجاج بالتشديد بن علاط بالكسر والتخفيف، بن ثور بالتصغير بن هلال بن عبيد بالتصغير، بن ظفر بن سعد السلمي النهري. قدم على النبي وهو بخير فجاءه وأسلم على يده واشترك في الغزوة، ثم سكن المدينة وأخطأ بها داراً ومسجداً وتوفي فيها قبل سنة ٣٠ هـ بعدها بسنوات، اقتضاب عن الإصابة برقم ١٦٢٢.

الذي جئت به وماذا تقول؟ فما وعد الله خير مما جئت به^(١)

فأشار إليه الحجاج أن يتأخر عنه ليراه بعيداً عن قريش ريثما يجمع أمواله؟ فتحنى العباس عن الحجاج وما كان بأسرع من أن جمعت له قريش أمواله من تجارها فأخذها وانقتل بدوره إلى حيث العباس ومعه بعض خواصه، فيخبره الحجاج بجلية الواقع الذي شاهده: من نصر النبي وأصحابه على يهود «خبيرو» واغتنامه أموالهم وصفاياهم واصطفائه بالخصوص: صفية بنت حي بن أخطب^(٢).

فعند ذلك طار العباس فرحاً واستبشراً وانفتحت أسارير وجهه وفؤاده لهذه البشارة التفصيلية عن شاهد عيان وان كان منتظراً عنده بنحو الإجمال من ذي قبل، وأعطى الحجاج على بشارته مالا وذهباً.

ثم جاء العباس إلى منزله والسرور يملأ أطرافه فدخل البيت ولبس حلته القشبية وتخلق وتطيب وأخذ عصاه^(٣)، ثم خرج حتى أتى المسجد الحرام حيث اجتمع فيه مشركوا قريش فطاف بالبيت، فلما رأوه بتلك الهيئة من الفرح أقبلوا عليه وفي طليعتهم رأس الشرك أبو سفيان بن حرب فقالوا له شامتين وساخرين: يا أبا الفضل هذا والله التجلد لحر المصيبة.

فقال: لهم كلا والذي حلفتكم به، لقد افتتح محمد خبيراً وترك عروساً على ابنة ملكهم:

(١) ولعل العباس استقى هذا الوعد بالنصر في هذه الواقعة الذي هو من الفييات من النبي ﷺ قبل هذا الوقت، وأن ذلك الكلام كان منه من باب التفاوض المؤمن والإيمان بالله تعالى أنه لا بد من نصره الاسلام على الشرك من حيث العموم وعلى كلا الاحتمالين في تأويل هذا الكلام من العباس فإنه من الشواهد الناصحة على ترف روحه الإسلامية وشدة غيرته على الإسلام.

(٢) صفية بنت حي: بالتصغير بن أخطب من الخزرج كانت في الجاهلية من ذوات الشرف والحفاظ والمنمة، تزوجها في البداية سلام بن مشكم القرظي ثم فارقها فخلف عليها كنانة بن الربيع النضري وقتل عنها يوم خيبر واسلمت فتزوجها النبي ﷺ كما عرضت ذلك قصة الواقعة المذكورة، وبقيت بعد وفاة النبي ﷺ حتى توفيت بالمدينة سنة ٥٠ هـ اقتضاب من أعلام الزركلي، وإصابة ابن حجر، وطبقات ابن سعد، وحلية ابن النسيم، والدر المنثور للمسوطي وغيرها.

(٣) ولعل العباس يهدف من وراء خروجه بهذه الهيئة الجمالية والجلالية لإظهار الفرح والسرور بهذا الفتح المبين على النبي ﷺ والمسلمين لموت الكفار بغيضهم.

صفية بنت حيي بن أخطب وأحرز أموالهم وسباياهم فقسمت بين المسلمين. وأخذ يسرد عليهم كلما أخبره به الحجاج من نتائج الواقعة وتهافت مسلموا مكة على العباس يستمعون الى حديثه عكس مما كانوا قد سمعوا من الحجاج في البداية فسر العباس والمسلمون بذلك سروراً عميقاً، واستشاط أبو سفيان والمشركون غضباً من ذلك وماتوا بغيبضهم وحنقهم^(١).

● موقفه الصامد يوم حنين

ولا يزال قلم التاريخ يواصل مواكبته لمواقف العباس الايجابية المشرقة بعد إظهار إسلامه والجهر بواقعه المكتوم.

فما أن أنهى القلم الرصاص عرضه الموجز لقصة «فتح خيبر» وسجل للعباس من خلالها ظاهرة الفرحة والاستبشار لذلك الفتح المبين والمسلمين بنحو ينم عن عمق إيمانه بالنبي ﷺ وبدعوته.

حتى بدأ يكتب بعد استراحة قصيرة من الزمن لا تتجاوز الثمانية أشهر إلا بأيام للعباس موقفاً إسلامياً صامداً وثباتاً واقعياً رائداً يبراع من سنان وحبر من دم. فالعباس لم يمر بحكم حجمه الاجتماعي الكبير في بني هاشم لواقعية إسلامه بعد أن أظهرها كبير جهاد وكثير جهود بالنسبة الى الصف الاسلامي المرصوص دون أن ينقل تلك الواقعية من الوجود الفكري الصامت إلى صعيدية التجسيد الناطق

فينخرط في صفوف المسلمين المجاهدين من بني هاشم وغيرهم حيال نبي الإسلام فيحضر واقعة حنين^(٢) ويبلي مع المسلمين المقاتلين أحسن البلاء، حتى إذا انكشف عامة المسلمين عن نيتهم في أخرج ساعة وأضيق فُرجة، كان العباس أحد ستة أو سبعة

(١) اقتضينا ذلك من عامة كتب السير والمعاجم كتاريخ الطبري: أوائل الجزء الثالث منه بعنوان (غزوة خيبر) ط دار المعارف بالقاهرة، وكامل ابن الأثير: ج ٢ ص ١٤٧-١٥١ بذلك العنوان: ط بيروت، ونهاية الأرب للنوري: ج ١٧ ص ٢٤٨-٢٦٨: ط دار الكتب بمصر، وتاريخ الخفوي: ج ٢ ص ٤٦-٤٧ ط النجف، والسريرة النبوية لابن هشام: قسم ٢ ص ٣٢٨-٣٤٧ ط ثانية بمصر، وذخائر المحب الطبري: ص ١٩٠ ط القدسي بالقاهرة.

(٢) حنين بالتصغير واد بهراجل من جهة مكة، وقيل، بجانب ذي المجاز بينه وبين مكة ثلاث ليال أو بضعة عشر بيلا من المعجم العموي.

من بني هاشم ثبتوا في مراكز الفداء والذود عن بيضة الإسلام وعن نبي المسلمين.
فلنقرأ لتوضيح ذلك الموقف المشرف للعباس: ما كتبه المؤرخون باقتضاب منا في
هذا المضمار:

قالوا: لما تم فتح مكة لعشرة بقين من رمضان سنة ثمان للهجرة أقام النبي ﷺ بعد ذلك أياماً تزيد على الأسبوعين أو تنقص عنهما يوماً أو يومين، فما كان أوائل شوال من تلك السنة حتى سمعت هوازن وثقيف وبعض أحلافهما بما فتح الله على رسوله والمسلمين فأشفقوا أن يغزوهم النبي ﷺ بعد فتح مكة^(١)، فاجتمعت هوازن وثقيف بقيادة قارب بن الأسود بن مسعود سيد الأحلاف ومن بني حلف بضم فسكون بن خشعم بن أنمار وبعض آخرين من زعماء القبيلتين فتشاوروا فيما بينهم واتفقوا على أن يغزوا النبي ﷺ قبل أن يغزوهم، فخرجوا ومعهم النساء والأطفال والأموال حتى نزلوا وادي حنين واستعدوا وتهماً وأوتعباً واللموا جهة.

ولما بلغ النبي ﷺ نزولهم في ذلك المكان واستعدادهم لحربه أجمع المسير إليهم بجيش كثيف من المسلمين عدته اثنا عشر ألفاً، وخلف على مكة: عتاب بن أسيد القرشي^(٢).

فلما وصل النبي ﷺ بجيشه إلى ذلك المكان من الوادي إذ به كتائب المشركين المؤلفة شدوا على جيش المسلمين شدة رجل واحد، فانهزم الناس وانكشفوا عن النبي ﷺ ولم يثبت معه إلا سبعة أو ثمانية من بني هاشم ولداتهم وهم: علي والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان «المغيرة» بن الحارث وابنه: جعفر وأخوه: ربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد بن

(١) أشفق عليه ومنه: حاذر وخاف وحرص

(٢) أبو عبد الرحمن: عقاب بالتشديد بن أسيد بالفتح بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس الأموي القرشي، ولد قبل الهجرة بـ ١٣ سنة في مكة وأسلم يوم الفتح فكان من صلحاء الصحابة وشجعانهم وعقلائهم ومن أشرف العرب في صدر الإسلام. واستمسه النبي ﷺ على مكة عند مغربيته إلى حنين وكان عمره حينذاك لا يتجاوز العشرين سنة إلا بنيف، وبقي في مكة إلى أن مات فيها في أخريات سنة ١٣ هـ وقيل: في أخريات سنة ٢٢ هـ باقتضاب من أعلام الزركلي، والاحصاء لابن حجر. وتاريخ الإسلام للذهبي، وشدرات ابن عماد.

حارثة وأيمن بن عبيد وهو أيمن بن أم أيمن^(١).

قالوا وانحاز النبي ﷺ ذات اليمين عن المعركة وهو يهيب بالمنهزمين من أصحابه ويقول: «إلى أين أيها الناس هلموا إلي؟ أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله»

وكان العباس بن عبد المطلب حينئذ أخذاً يزمام ناقة النبي أو بغلته والنبي راكب عليها فقال النبي ﷺ لعبد العباس: اصرخ بالناس: يا معشر الأنصار يا أصحاب السِّرة^(٢) فنادى العباس كما أمره النبي ﷺ وكان صيتاً جهورياً فأجابه الكثير من المنهزمين وهم يقولون: لبيك لبيك وهرعوا على مد صوته البعيد متراجعين حتى اجتمع على رسول الله منهم مئة رجل، فاستقبل النبي بهم المشركين وقتلهم أشد قتال، وهو يقول:

أنا النسبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ووقف من حوله أولئك نفر السبعة يتقدمهم علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب يفرقون عنه المشركين ويجلون الكرب عن وجهه بضرب دراك وطعن وصال،

(١) وعد بعض المؤرخين: الشخين: أبي بكر وعمر مع السبعة المذكورين وحذف بعضهم: جعفر بن أبي سفيان والبعض الآخر: أسامة بن زيد في عداد التابعين.

أما اليقيني في تاريخه: ج ٧ ص ٥٢ ط النجف فقدم تسعة أو عشرة هكذا: علي والعباس وأبو سفيان ونوفل وريسة أبناء الحارث بن عبد المطلب وعتبة ومعتب أنا أبي لهب والفضل بن العباس وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب، وقيل: أيمن بن أم أيمن.

واتفقوا على عد العباس من طلائع التابعين مع رسول الله ﷺ، وكان أخذاً يزمام بغلته أو ناقته، والملاحظ: أن عامة المؤرخين حينما ذكروا أيمن في عداد التابعين يعرفونه بأنه: ابن عبيد بن مالك أخو أسامة بن زيد بن حارثة من أمهما أم أيمن دابة النبي ﷺ، غير أن ابن حزم قال في جهرته: ص ٣٥٥ ط دار المعارف بمصر (وقال ابن اسحاق يعني محمد بن اسحاق المدني صاحب السيرة النبوية المتوفي سنة ١٥١ هـ) وأيمن بن عبيد هذا ليس هو أيمن بن أم أيمن ذلك: أيمن بن عبيد كان أبوه من الحبشة... إلى قوله (والذي قال ابن اسحاق هو الصحيح الذي لا يجوز غيره لأن أيمن ابن أم أيمن قُتل يوم حنين وكان أسن من أسامة ومن المحال الممتنع أن تُكفح أم أيمن بالمدينة فتلد ولداً يقتل في حنين) ولا يغلو هذا التحقيق من الصواب.

(٢) السرة بفتح فـضم: اسم شجرة الطلح التي كانت عندها بيعة الرضوان قبل ذلك التاريخ عام الحديبية.

والنبي يشجعهم ويقول: «الآن حمي الوطيس»^(١)، وهو أول من قال هذه الكلمة من العرب. ثم اتاخ النبي ﷺ راحلته وتناول من الأرض حفنة من حصى وقيل إنه قال لعمه العباس: ناولني حصيات من الارض فرمى بتلك الحصيات في وجوه المشركين وهو يقول: «شاهت الوجوه»^(٢)

وسرعان ما درات على المشركين دائرة سوء وهُزموا هزيمة منكرة، فما رجعوا إلا وأسارهم في الحبال مربقون أمام رسول الله ﷺ ينظرون مصيرهم العادل: من الرحمة أو الانتقام.

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها أسفرت الجولة السريعة عن زهاء مئة قتيل وجرحى كثيرين من المشركين وعدد وافر من الأسرى والسبايا وغنائم جمّة، من عتاد وأموال.

ولم يقتل من المسلمين إلا آحاد لا يبلغون الثمانية^(٣)، قالوا: وبعد أن انكشفت الغمامة المشتركة عن أفق الاسلام وأشرق وجه النبي ﷺ بالفتح المبين، صعد العباس بن عبد المطلب على نشز من ارض المعركة وأرسل صوته الجهوري المدوي في تلك الأودية والوهاد حيث يسمعه عموم الحشود المتشظية في ذلك المكان المتسع: من المسلمين والمشركين وأخذ يقول مفتخراً بموقفه الفدائي المشرف دون النبي وإسلامه:

الا هل أتى عرسي مكزي ومقدمي	بوادى حنين والأسنة تشرع
وقولي إنا ما لنفس جاشت لها قري	وهام تدهده بالسيوف وأذرع
وكيف رددت الخيل وهي صغيرة	بزوراء تعطي في اليدين وتمنع
نصرتنا رسول الله في العرب سبعة	وقد فر من قدر عنقه وأقشعوا

(١) الوطيس: الثنور الذي يخبز به حال اشتعال الحطب وهو الحجارة كانت العرب ترقد تحتها النار يشرون فيها اللحم.

(٢) شاهت الوجوه: قبحت.

(٣) اقتضاب من الاستيعاب لابن عبد البر يترجمته وسفينة البحار للقمي ج ٢ بمادة عبس، ومعارف ابن قتيبة: ص ١٦٤ ط دار الكتب المصرية، وسيرة ابن هشام: ج ٢ ص ٤٤٩-٤٣٧ ط ثانية بمصر. وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٧٠-٨٧ ط دار المعارف بالقاهرة، وكامل ابن الأثير: ج ٢ ص ١٧٧-١٨٠ ط بيروت، ونهاية النوري: ج ١٧ ص ٣٢٣-٣٣٤ ط مصر، وتاريخ المعقبي: ج ٢ ص ٥١-٥٢ ط النجف وغيرها من المصادر التي تتحدث عن واقعة حنين.

ولما نننا لآلى الحمام بسيفه بما مسه في الله لا يتوجع^(١)

● مدحه النبي ﷺ بشعره

وتؤشر أبيات العباس المذكورة الى كونه من طلائع الشعراء الإسلاميين المقلين، وتلك من جلاله ومميزاته التي اشرنا الى بعضها من قبل.
لقد أتحفتنا بعض المصادر المعنية بترجمته بسبعة أبيات أخر قالها في ميلاد النبي ﷺ ونشأته المباركة هي:

من قبلها طبت في الللال وفي	مستودع حيث يخصف الورق ^(٢)
ثم هبطت البلاد لا بشر	أنت ولا مـخـفة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد	أنجم نسراً وأمله الغرق ^(٣)
تنقل من صائب إلى رحم	إذا مضى عالم بدا طبق ^(٤)
حتى احتوى بيتك للمهمين من	خندق علياء تحتها النطق ^(٥)
وانت لما ولدت أشرقت الأرض	وضياء بسنورك الأفق
فحن في ذلك الضياء وفي النور	وسبل الرشاد نسفرك ^(٦)

فقال رسول الله لما سمعها: «لا يُفضض الله فاك»^(٧)

(١) الاستيعاب بترجمته في هامش الاصابة: ج ٣ ص ٩٦ الطبعة الأولى بمصر وعقب به ذكر الأبيات الخمسة بقوله: (وقال ابن اسحاق: السبعة: علي، والعباس والفضل بن العباس وأبو سفيان بن الحرث وأسامة بن زيد والثامن: أيمن بن عبيد وجعل غير ابن اسحاق في موضع أبي سفيان: عمر بن الخطاب والصحيح: أن أبا سفيان بن الحرث كان يومئذ معه (أي مع النبي) لم يختلف فيه واختلف في عمر.

واقصر ابن قتبية في معارفه في المصدر الآنف على ذكر البيتين الآخرين.

(٢) من قبلها أي: من قبل ولادته وتزولك في الأرض. (٣) السفين: سفينة نوح ونسر: صنم لقوم نوح.

(٤) الصائب: الصلب والطبق: القرن من الناس.

(٥) المهمين: الشاهد بفضلك والتطيق بضمتين: جمع نطاق وهي أعراض من جبال وبعضها فوق بعض أي: نواح وأواسط منها.

(٦) الاختراق: المرور على الشيء ومخترق الرياح مهبها.

(٧) أي لا يسقط الله استبان هيك حذف الضفاف للدلالة عليه.

يراجع في ذكر الأبيات المذكورة سفينة البحار للقمي: ج ٢ حرف العين بمادة (همس)، وفي الدرجات الرفيعة للمدني: ص ٨٣ ط

ولقد كان العباس قبل أن يجاهر بإسلامه يتآلف بسياسته المرنّة طواغيت المشركين وأعلام الخصوم لمحمد ﷺ حفاظاً على فكرة الإسلام من أن تواد في مهدها وعلى مسيرة ابن أخيه في الدعوة من أن تصد قبل أن تقطع اشواطها البعيدة فلا تبلغ الهدف، فكان بتلك السياسة المرنّة معظم الجانِب مسموع الكلمة من قبل أولئك الطواغيت الخصوم.

وهكذا عاش العباس بتلك السعة: من تعظيم الجانِب وسماع الكلمة في الإسلام كما كان أيام الجاهلية.

فقد أثر عن النبي ﷺ تعظيمه وتكريمه واللفظ به في مقدمات عديدة، منها ما روي: «أنه ﷺ كان ليحل عمه العباس محل الوالد والوالدة خاصةً خُص بها العباس من بين الناس». وما روي: «أنه ﷺ بينما كان يجهز بعثاً في موضع بسوق النحاسين في مجمع الناس إذ طلع العباس فقال للنبي ﷺ للناس: العباس عم نبيكم أجود قريش وأوصلها رحماً». وما روي عنه ﷺ: «أنه قال وقد بلغه إيذاء عمه العباس من قبل بعض المهاجرين: العباس عمي وصنو أبي ومن آذاه فقد آذاني»

وقوله ﷺ: «أيها الناس احفظوني في عمي العباس فإنه بقية آبائي». وقوله ﷺ: «خير إخواني علي وخير أعمامي: الحمزة والعباس صنو أبي» ومن تكريم النبي ﷺ لعمه العباس: ما روي عن ابن عباس: «أن العباس جاء يعود النبي ﷺ في مرضه فرفق النبي وأجلسه في مجلسه على السرير وقال: رحمك الله يا عم». ومن عطف النبي ﷺ على عمه العباس: «إنه كان يحته ويقول له: يا عم رسول الله سل الله: العفو والمعاونة في الدنيا والآخرة»، إلى أمثال تلك الأحاديث الواردة في هذا الباب^(١).

→ النيف ثبت صدر البيت الثالث هكذا: (من صلب طاهر إلى رحم) ونضيف للآيات السبعة المذكورة بيتاً ثامناً هكذا:

تجول فيها وليس تحرق

وخلفت نار الخليل مكنما

ويذكر كلام النبي ﷺ لعمه العباس هكذا: (يا هم جزاك الله خيراً ومكافأته على الله)، ثم قال ﷺ: معاشر الناس احفظوني في عمي العباس: وانصروه ولا تخذلوه، وكذلك ذكرها الداهلي في إرشاد القلوب.

(١) ذخائر المحب الطبري: ص ١٩٢-١٩٣، وسير اعلام النبلاء: ج ٢ رقم ١١١، والإصابة لابن حجر، والاستبصار لابن عبد

البر بترجمته ضمن حرف العين.

كما أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يعظم ويحترم عمه العباس ويعطيه من البر والعطف ما يعطي الولد لأبيه، فقد روي عن ابن عباس أنه قال: اعتل أبي العباس فعاده علي فوجدني أضبط رجليه أي: أمرغهما وأعصرهما، فأخذهما من يدي وجلس موضعي وقال: أنا أحق بعمي منك إن كان الله عز وجل قد توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وعمي الحمزة وأخي جعفر أفقد أبقى لي العباس، وعم الرجل صنو أبيه وبزء به كثيره لأبيه ثم قال: «اللهم هب لعمي عافيته وارفع له درجه واجعله عندك في عليين»^(١)

ومن مظاهر احترام أمير المؤمنين عليه السلام وتقديره لعمه العباس: ما روي من قصة الميزاب وموجزها: أن النبي صلى الله عليه وآله لما أمر بسد الأبواب المؤدية الى المسجد طلب منه العباس بدل الباب ان يجعل له ميزاباً مطلاً على المسجد تكريماً لمقامه فأجابہ النبي صلى الله عليه وآله الى ذلك ونصب له ميزاباً من سطح داره الى المسجد وقال صلى الله عليه وآله في مقام التنويه بمنزلة عمه بين المسلمين: «معاشر المسلمين إن الله تعالى قد شرف عمي، العباس بهذا الميزاب فلا تؤذوني في عمي فإنه بقية الآباء والأجداد فلعن الله من آذاني في عمي، بخسه حقه أو اعان عليه».

فلم يزل الميزاب على حاله الى أيام عمر، فلما كان في بعض الايام وعك العباس ومرض مرضاً شديداً وصعدت الجارية تغسل قميصه فجرى الماء من الميزاب الى صحن المسجد فنال بعض رشاش الماء ثوب الرجل، فغضب غضباً شديداً وأمر بقلع الميزاب ورميه في سطح العباس، وقال: والله لأن رده أحد إلى مكانه لأضربن عنقه، فشق ذلك على العباس فنهض من فراشه متوكئاً على ولديه: عبد الله وعبيد الله وهو يرتعد من شدة المرض حتى جاء ودخل على ابن أخيه أمير المؤمنين عليه السلام فلما نظر اليه عليه السلام انزعج لذلك وقال: يا عم ما جاء بك وأنت على هذه الحالة؟، فقص عليه العباس: قصة الميزاب ثم قال له: «يا ابن أخي إنه كان لي عينان أنظر بهما فمضت إحداهما وهي رسول الله صلى الله عليه وآله وبقيت الأخرى وهي أنت لي يا علي، وما أظن أن اظلم ويزول ما شرفني به رسول الله صلى الله عليه وآله وأنت لي فانظر في أمري؟»، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «يا عم ارجع الى بيتك فستري

مني ما يسرك، إن شاء الله تعالى».

ثم نادى علي عليه السلام: يا قنبر علي بذى الفقار؟ فتقلده ثم خرج إلى المسجد والناس حوله وقال: يا قنبر اصعد فرد الميزاب إلى مكانه فصعد قنبر إلى موضعه.

قال عليه السلام: وحق صاحب هذا القبر والمنبر لئن قلعه قالع لأضربن عنقه وعنق الأمر بذلك ولأصلبنيهما في الشمس حتى يتقدوا، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فنهض ودخل المسجد فنظر إلى الميزاب منصوباً في مكانه فقال: «لا يُغضب أحد أباه الحسن فيما فعله، ونكفر عن اليمين»، فلما كان من الغداة مضى أمير المؤمنين إلى عمه العباس فقال له: كيف أصبحت يا عم؟ فقال العباس: بأفضل النعم ما دمت لي يا ابن أخي، فقال له علي عليه السلام: يا عم طيب نفساً وقر عيناً؟ فوالله لو خاصمني أهل الأرض في الميزاب لخصمتهم ثم لقتلتهم بحول الله وقوته ولا ينالك ضيم يا عم؟

فقام العباس إلى أمير المؤمنين عليه السلام: فقبل ما بين عينيه وقال: يا ابن أخي ما خاب من أنت ناصرته (١) القصة (١).

كما إنه كان معظم القدر مهيب المنزلة لدى عامة أصحاب النبي صلى الله عليه وآله من المهاجرين والأنصار، فقد كانوا يعرفون فضله ويقدمونه ويشاورونه ويأخذون برأيه ويستسقون بدعائه عند الجذب، وكان إذا مر عليه أبناء المهاجرين والأنصار راكبين يترجلون احتراماً له وتعظيماً لمقامه (٢).

● ثناء ولده عليه

وقد أثنى عليه ولده الأكبر حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله حينما سئل عنه فقال: وما عسيت أن أقول فيه رحمة الله على أبي الفضل عم رسول الله صلى الله عليه وآله وقرّة عين نبي الله وسيد الأعمام، حوى أخلاق آبائه الأجواد، وخلا مع أجداده مهذب الإمداد يتبع رأيه كل مهذب صنيديد ويتجنب رأيه كل مخالف عنيد... إلى آخر كلامه (٣).

لقد واكب العباس عامة الوقائع والأحداث الاجتماعية والقبلية أيام الجاهلية وبعد

(١) سفينة البحار: ج ٢، حرف العين: ص ١٤٩ ط حبر. (٢) الإستهباب ضمن ترجمته من حرف العين.

(٣) ذخائر المحب الطبري: ص ٢٠٣ ط القدسي بالقاهرة.

الاسلام، حيث كان ممن يُستهدى بآرائه ويؤخذ بأقواله في كثير من المناسبات، لقد أعطته تلك المواكبة المديدة خبرة واسعة وتمرساً واعياً في قراءة واستكشاف نتائج الاحداث وعواقب الأمور قبل وقوعها، هذا بالإضافة الى ما في جبلته العربية وحسبه الهاشمي من مميزات الذكاء والفطنة والعبقرية.

فليس ناشراً عليه^(١) ما رواه عامة المؤرخين عن تفرسه بعواقب الأمور وانقلاب ظهر^(٢) المعلن لأمير المؤمنين (خاصة) وأهل بيت النبي ﷺ عامة بعد وفاة النبي ﷺ والنبي في أخريات حياته، فقد رواوا عن ابن عباس: أنه قال: خرج علي بن أبي طالب ﷺ من عند رسول الله ﷺ في مرضه الذي توفي فيه يوماً، فسأله الناس وقالوا: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله؟ فقال أصبح بحمد الله بارئاً، فأخذ بيده العباس وكان داخلًا على النبي قبل علي وقال له: يا علي انك بعد ثلاث عبدُ العصا^(٣)، وإنني أرى رسول الله سيتوفى في مرضه هذا، وقد عرفت الموت في وجهه كما كنت اعرفه في وجوه بني عبد المطلب، فاذهب إلى رسول الله فسله فيمكن أن يكون هذا الأمر^(٤)، فان كان فينا علمنا ذلك وإن كان في غيرنا أمرناه، فأوصى به الناس؟ قال علي: والله لئن سألتها رسول الله فمنعناها لا يعطينها الناس أبداً، والله لا أسأله رسول الله أبداً، قال ابن عباس: فما اشتد الضحى من ذلك اليوم حتى توفي رسول الله ﷺ وكان الأمر بعد وفاته

(١) الناشز بالفتح: المكان المرتفع الممتنع البعيد ويكنى به عن كل ممتنع بعيد.

(٢) المعلن بالكسر فالفتح: كل ما وفي به من السلاح كالترس ونحوه، يقال: قلب له ظهر المجن إذا تحول بسرعة من الصداقة إلى العداوة.

(٣) قولهم الناس عبيد العصا أي: انما يهابون من آذاهم، أقرب الموارد.

(٤) يعني بالأمر: تولى الخلافة الإسلامية في الظاهر لا في واقع الأمر، بقرينة ما بعده وإلا فان العباس مؤمن بأن الخلافة واقعية لا تعد، وعليها ﷺ شأنه في ذلك شأن عامة بني هاشم وجماعة كثيرون من عليه المهاجرون والأنصار، ولذلك لم يبايع هو ولا أحد من أولئك أبداً بكر: يوم السقيفة اتباعاً لأمر المؤمنين ﷺ.

فالظاهر والله العالم من كلام العباس هذا: أنه يريد من علي ﷺ أن يستقم من النبي ﷺ عن أمر غيبي، وهو ما يؤول إليه منصب الخلافة بعد وفاة النبي ﷺ، وعلى ضوء هذا التأويل ونحوه يوجه جواب أمير المؤمنين ﷺ لعمه العباس برفضه السؤال من النبي ﷺ عن ذلك الأمر.

كما تفرس به العباس^(١).

● اختصاصه بتجهيز النبي ﷺ

وبحكم شدة علاقة العباس بالنبي ﷺ لا من حيث وشيجة الرحم^(٢) فحسب، بل ومن حيث وشيجة الإيمان بقدسية النبي ﷺ وواقعية الإسلام أيضاً فقد أهلت تلك الصلة على سعة مفهومها وعمق واقعها بالنبي ﷺ وإسلامه: أن يكون أحد ثلاثة أو أربعة من أهل بيت النبي ﷺ اضطلعوا بتجهيزه بعد وفاته، والملاحظ: أن تلك الخصوصية من التأهيل جاءت بوصية مؤشرة من النبي ﷺ حين احتضاره^(٣)

وإن عامة المؤرخين لا يتجاوزون في تعداد أولئك الثلاثة أو الأربعة: علياً والعباس وولديه: الفضل والأثمم إلا إلى أسامة بن زيد وشقران أو صالح مولى رسول الله ﷺ^(٤)

● موقفه الصارم يوم السقيفة

وهكذا استمر العباس بن عبد المطلب بعد إظهار إسلامه يواصل مسيرته الطويلة بمواقفه الثابتة وأقواله النابضة وآرائه الهادفة كل ذلك في رحاب الواقع الإسلامي.

(١) تاريخ الطبري: ج ٣ ص ١٩٣-١٩٤ ط دار المعارف بالقاهرة، وكامل ابن الأثير: ج ٢ ص ٢١٧ ط بيروت، ودياة ابن كثير: ج ٥ ص ٢٢٧ ط ثانية بيروت.

(٢) الوشيجة كالواشجة: القرابة المتصلة المشتبكة.

(٣) فقد ذكر الطبري في تاريخه: ج ٣ ضمن حوادث السنة ١١ ص ١٩٢: أنه ﷺ سئل من يغسله فأجاب: (رجال من أهل بيتي الأديني)، وعن من يصلي عليه: قال: (وليبدأ بالصلاة علي رجال أهل بيتي)، وعن من يدخله قبره فأجاب: (أهلي مع ملائكة كثيرين)، ومثله ذكر ابن كثير في بدايته وغيره من المؤرخين.

(٤) وذكر الطبري فيما بين ص ٢١١-٢١٣ من تاريخه: أن الذين تولوا غسل النبي ﷺ هم علي والعباس وابناه: الفضل وقثم وأسامة بن زيد وشقران بصان الماء عليه، وإن الذي أدرجه في أكفانه علي عليه السلام، وإن الذي أنزله في قبره: علي والفضل وقثم وشقران. وبمنفس المضمون ذكر ابن الأثير في كامله ج ٢ نص ٢١٧-٢٢٥ ومثله ذكر ابن الأثير في بدايته: ج ٥ ص ٢٦٠ فما بعدها، إلا أنه أبدل اسم شقران بصالح، وفي ص ٢٦٩ منه ذكر: أن الذي دخل في حفرته علي والعباس وقثم وشقران.

وفي سيرة ابن هشام قسم ٢ ص ٦٦٢ إلى آخر الكتاب مثل ما في الطبري تقريباً وذكر التويري في نهايته: ج ١٨ ص ٣٨٩: أن الذين تولوا غسله من أهل بيته: أولئك الأربعة وصالح أو شقران وكذلك هم الذين كفنوه. وفي ٣٩٤: أن الذين نزلوا في قبره هم أولئك وفي ص ٣٩٢ قال: أول من صلى عليه: العباس بن عبد المطلب ثم بنو هاشم وفي تاريخ المقوي: ج ٢ ص ١٠٤: إن الذي نزل في قبره: علي والعباس والفضل وشقران.

ومن ذلك وقوفه الصارم إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام يوم السقيفة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله. فقد تخلف هو الآخر مع من تخلف من عموم بني هاشم وبعض عليّة الصحابة من المهاجرين والأنصار عن بيعة أبي بكر حيث بايعه عامة الناس بالوعد والوعيد والخطب والتهريج^(١).

فقال العباس: «قد سمعنا قولكم فلا لقلّة نستعين بكم، ولا لقلّة نترك آراءكم فأملونا، نراجع الفكر فإن يكن لنا من الإثم مخرج^(٢) يصّر بنا وبهم ألحق صرير الجذد^(٣)، ونبسط إلى المجد أكفأ لا نقبضها أو نبليغ المدى وإن تكن^(٤) الأخرى، فلا لقلّة في العدد ولا لو هن في الأيد^(٥) والله لولا أن الإسلام قيد الفتك^(٦) لتدكدكت جنادل صخر^(٧) ليسمع اصطكاكهما من المحلّ العلي^(٨)، فعند ذلك حل علي عليه السلام حبوته^(٩) وقال: الصبر حلم والتقوى دين، والحجة محمد صلى الله عليه وآله والطريق: الصراط^(١٠)».

(١) وعده الأمر أو بالأمر: وعداً بالرجاء ونيل الخير ووعيداً بالشر والتهديد، والخطب بالليل أو بطلق الظلام: السر بغير هدى والتهريج: تفعليل من الفتنة والاختلاط.

(٢) الظاهر: إنه يقصد: بالهزيمة المسلحة في وجه ذلك الانحراف.

(٣) صر الشئ بالتشديد: صريراً: إذا صوت بشدة، والجديد بالضم: دويبة صغيرة على خلقة صفار الجراد وهو صرار ومصوت في الليل جمعه، جداجد على مفاعل وضمير بهم يعود إلى أولئك المتطاولين على الخلافة الواقعية: أبو بكر وعمر وحزبهما.

(٤) أي فيما إذا كان الوقوف المسلح في وجه السلطة الظاهرية من الإثم أو ترك المقتضي.

(٥) الأيد بفتح فسكون: القوة والتمعة.

(٦) إنه لسان الحديث النبوي مروي بطرق مختلفة، وفي بعضها: تبديل كلمة الاسلام بـ (الإيمان) تقرأ كلمة قيد بالتشديد بصيغة الماضي وبالتخفيف في صيغة المصدر معناها على القرائين: أن الاسلام أو الإيمان يحدد المسلم أو المؤمن عن أن يفتك بغيره من دون سابقة اعتداء منه عليه.

(٧) تدكدكت الجبال أو الصخور العظيمة: تحطمت وتصدعت، وجنادل: جمع جندلة على فمللة وهي الصخرة العظيمة الصلب، واسم الجنس منها (جندل) على فملل.

(٨) المحلل الملي: البهيم الأوج والأطراف، ويكتفي بذلك عن قوة معنوية.

(٩) الحبوّة بفتح أو بضم أو سكون: ما يحتسى به الرجل عند جلوسه، وهو ما يجمع بين ظهره وساقه: من عمامة أو ثوب ونحوهما مما يحترّم به ويشتمل عليه. (١٠) ولعله يريد بالصراط: بالكسر: هنا الطريق المستقيم منه.

ثم انفجر عن واقعه المكلوم فقال: «أيها الناس شقوا أمواج الفن بسفن النجاة»^(١)، ورجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفارقة^(٢)، افلح من نهض بجناح واستسلم فأراح^(٣)، هذا ماء آجن^(٤)، ولقمة يفص بها أكلها ومجنتي الثمرة لغير وقت إيناعها^(٥) كالزراع بغير أرضه، فإن أقل يقولوا: حرص على الملك، وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت^(٦)... إلى آخر الخطبة^(٧). قالوا: وبويع أبو بكر في سقيفة بني ساعدة من قبل عامة المهاجرين والأنصار والنبوي ﷺ بعد لم يدرج أكفانه، فانطلق البراء بن عازب^(٨)، وقد شاهد الموقف يشتر حتى انتهى إلى بني هاشم وهم مجتمعون في دار علي ﷺ، فدخل عليهم وفاجئهم بخبر البيعة لأبي بكر، فقال بعضهم: ما كان المسلمون يحدثون حدثاً نغيب عنه ونحن أولى بمحمد ﷺ.

(١) أي كونوا عند تلاطم الفتن ومنها فتنة الخلافة المرتجلة معنا نحن أهل البيت ﷺ فانتا سفن النجاة، وقد ورد عن النبي ﷺ بطرق مختلفة وكما روتها عامة الصحاح: «مثل أهل بيتي كسفينة نوح ومن ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهو».

(٢) أي: انصرفوا عن طريق المنافرة والمفارقة بلا جدوى إلى طريق الواقع المجدي.

(٣) أي: أفلح ونجح في سماء من نهض بجناح من أعوان وإن لم يجد ذلك النجاح فلا بد له من الاستسلام والدعة لا راحة نفسه وذويه، وفي ذلك إشارة إلى معزيتة في عدم موافقته الإيجابية ومطالبته الثورية في موضوع الخلافة المنهوبة.

(٤) الماء الآجن: بالماء المتغير الفاسد يريد: اللغظ والهرج بلا جدوى.

(٥) إيناع الثمرة: إدراكها ونضجها.

(٦) إشارة إلى موقفه وهو أعزل الأحرار من الخلافة المنقصة منه.

(٧) الخطبة كاملة في نهج البلاغة وشرحها، وذكر مناسبتها ابن أبي الحديد في شرحه: ج ١ ص ٢١٢-٢١٩ من الطبع الجديد.

(٨) البراء بالفصح من عازب الحارث الخزرجي الأنصاري القائد الصحابي الجليل من أصحاب الفتح بين يدي الإسلام.

ولد في المدينة وأسلم وهو صغير لم يراهق، وكان من المتقدمين في الإسلام فحضر مع النبي ﷺ أربع عشرة غزوة أو خمس عشرة وروى عنه أحاديث كثيرة، وكان من حوارى أمير المؤمنين الذين تخلفوا معه عن بيعة أبي بكر يوم السقيفة، وكان من رواية بيعة التقدير بعد ذلك جعله عثمان أمير جيوشه الفاتحة على الري بفارس وما والاها ففتح كثيراً من بلدانها وكان من السبادرين لبيعة علي ﷺ بعد مقتل عثمان، وحضر معه حروبه الثلاثة كما قيل واعتزل الحياة بعد مقتل علي ﷺ. فسكن الكوفة وتوفي بها سنة ٧١ هـ أيام مصعب بن الزبير، توجد ترجمته في عامة المعاجم البائدة عن الصحابة كالإصابة، والاستيعاب، وطبقات ابن سعد، وشذرات ابن الصاد، ونكت الهميان، وتاريخ الإسلام، وصفوة الصفوة وغيرها وأعلام الزركلي.

وقال العباس: فعلوها ورب الكعبة، ثم التفت إلى بني هاشم وقال: تربت أيديكم إلى آخر الدهر..^(١)

قالوا: ثم خرج بنو هاشم إلى دار علي عليه السلام، فأخذ الفضل بن العباس وكان لسان قريش يقول: «يا معشر قريش، إنه ما حلت لكم الخلافة بالتبويه ونحن أهلها دونكم وصاحبنا أولى بها منكم».

وأخذ عتبة بن أبي لهب يقول في مجمع الناس:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف	عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن
عن أول الناس إيماناً وسابقة	واعلم للناس بالقرآن والشأن
وأخر الناس عهداً بالنبي ومن	جبريل عوناً له بالأسل والكن
من فيه ما فيهم لا يمترون به	وليس في القوم ما فيه من الحسن ^(٢)

قالوا: وبلغ أبا بكر وعمر تخلف بني هاشم وعلى رأسهم العباس بن عبد المطلب عن البيعة بالإضافة إلى تخلف جماعة كثيرة من المهاجرين والأنصار.

كالزبير بن العوام، وخالد بن سعيد، والمقداد الكندي، وسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وعبادة بن الصامت، وأبي الهيثم بن التيهان، وحذيفة بن اليمان، وأبي بن كعب، والبراء بن عازب فشق عليهما ذلك التخلف عن الجماعة وأدركا خطورة الموقف وخشياً تصدع أمرهم إن بقي جانب علي عليه السلام معتضداً بقومه وعلية أصحابه.

فارسلا على الفور خلف أبي عبيدة بن الجراح الكناني والمغيرة بن شعبة الثقفي أن يحضرا لإيداء رأيهما في حسم الخلاف.

ولما حضرا سألهما رأيهما في ذلك؟، فقالالمغيرة: الرأي أن تلقوا العباس بن عبد المطلب فتجعلوا له ولولده هذا الأمر^(٣) نصيباً فتقطعوا بذلك ناحية علي بن أبي طالب

(١) ترب الرجل أو تربت يده: افتقر وكأنه لصق بالتراب فلم يزل شيئاً. وراجع: شرح النهج للحلي ج ١ ص ٢١٩ ط دار

إحياء الكتب العربية بمصر. (٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١١٤ ط النجف.

(٣) يعني: السلطة والخلافة.

وتكون لكم الحجة على علي عليه السلام وبني هاشم.

فأخذ الجماعة برأيه وانطلق الأربعة حتى دخلوا على العباس ليلاً، وذلك في الليلة الثانية بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ^(١).

فلما حضروا عنده تكلم أبو بكر فقال بعد حمد الله والثناء عليه: إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله نبياً وللمؤمنين ولياً فمن الله عليهم بكونه بين ظهرانيهم ^(٢) حتى اختار له الله ما عنده فخلى على الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم في مصلحتهم متفقين غير مختلفين فاختاروني عليهم والياً ولأمرهم راعياً، فتوليت ذلك وما أخاف بعون الله وتسديده وهناً ولا حيرة ولا جبناً، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وما اتفك يبلغني عن طاعن يقول بخلاف قول عامة المسلمين ويتخذكم لجاجاً فتكونوا حصنه المنيع وخطبه البديع ^(٣).

فلما دخلتم فيما دخل فيه الناس أو صرفتموه عما مالوا إليه وقد جئناك يا أبا الفضل ونحن نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيباً، ويكون لك ولعقبك من بعدك، إذ كنت عم رسول الله صلى الله عليه وآله وإن كان الناس قد رأوا مكانك ومكان أهلِكَ من رسول الله صلى الله عليه وآله ثم عدلوا بهذا الأمر عنكم، على رسلكم يا بني عبد المطلب فان رسول الله صلى الله عليه وآله منا ومنكم؟

وهنا اعترض عمر كلام أبي بكر، وقفى عليه بشدة وخشونة قائلاً: «أي والله وأخرى: إننا لم نأتكم بحاجة منا إليكم ولكن كرهنا أن يكون الطعن منكم فيما اجتمع عليه المسلمون فيتفاقم الخطب بكم وبهم ^(٤)، فانظروا لأنفسكم ولعامة المسلمين»، ثم سكت.

● انتفاضته في وجه الشيوخين

فعند ذلك انتفض العباس في وجه أبي بكر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «إن الله ابعث محمداً صلى الله عليه وآله كما وصفت نبياً وللمؤمنين ولياً، فمن الله به على أمته حتى اختار له ما عنده

(١) المصدر الآنف: من شرح النهج: ص ٢٢٠

(٢) يقال: إنه نازل بين ظهرانيهم بالثنية وبين أظهرهم بالجمع أي: وفي وسطهم في معظمهم، وكل ما كان في وسطه شيء، ومعظمه فهو بين ظهره وظهرانيه وأظهره.

(٣) الخطب بالتمكين: الشأن أو الأمر المهم المكروه والبديع: المبتدع الجديد.

(٤) غلام الأمر: عظم واتسع ولم يجر على استواء.

فخل على الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم^(١) مصييين الحق لا مائلين عنه بزيغ الهوى^(٢).
 فان كنت يا أبا بكر برسول الله ﷺ طلبت^(٣) فحقنا أخذت، وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم
 متقدمون فيهم.
 فان كان هذا الأمر وإنما وجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنا كارهين وما أبعد قولك: انهم
 طعنوا... من قولك: إنهم مالوا إليك^(٤).
 وأما ما بذلت لنا: فان يكن حقاً أعطيتناه فأمسكه عليك؟ فلا حاجة لنا فيه، وإن يك حق
 المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه، وإن يكن حقاً لم نرض لك ببعضه دون بعض؟ وما أقول هذا
 لأروم صرفك عما دخلت فيه ولكن للحجة نصيبها من البيان.
 وأما قولك: ان رسول الله ﷺ منا ومنكم، فان رسول الله كان من شجرة نحن أغصانها وأنتم
 جيرانها^(٥).

ثم إن العباس التفت إلى عمر قال: وأما قولك: إنك تخاف الناس علينا^(٦).
 فهذا الذي قدمتموه اول ذلك^(٧)، والله المستعان^(٨)
 قالوا: ثم سكنت العباس فقاموا من عنده بخيبة الأمل وخسران الصفقة، وكان للعباس

- (١) أعاد كلام أبي بكر بالنص لجاريه ثم يثني عليه بالحجة لتكون أبلغ.
- (٢) الزيع: الميل عن الحق وهذا حجة على أبي بكر وتصريح بالاختيار الذي تم ليحبه كما أشار.
- (٣) من هذا التردد الثلاثي من العباس يتحكم الاعتراض على أبي بكر والحجة على يمين المرتجلة.
- (٤) إشارة إلى ما في الفقرتين الآتيتين من كلام أبي بكر: من التناقض والتهاوت، وفي تاريخ العقوبي هنا: (وما أبعد سمعتك
 خليفة رسول الله من قولك: غلي على الناس أمورهم ليختاروا فاخترارك)، حيث لم يكن باختيار رسول الله ﷺ.
- (٥) حيث ان رسول الله ﷺ وعلياً والعباس أغصان من شجرة عبد المطلب بن هاشم، وهو يتصل حسب تسلسل نسبه
 التصاعدي بـ (مرة بنت كعب بن لؤي)، وأبو بكر من شجرة تيم بن مرة بن كعب، وعمر: من شجرة عدي بن كعب فهما إنما
 يتصلان بالنسب الهاشمي من أعاليه وأطرافه لا من صلبه وأكنافه.
- (٦) إشارة إلى قول عمر: (ولكن كرهنا أن يكون الظن منكم.. فيتألم الخطب بكم).
- (٧) يريد أن هذا الإغراء المادي الذي قدمتموه لنا في سبيل استمالتنا أول ما نخافه سن سخط الناس علينا أن يقولوا
 استمالتهم الأطماع فلفضوا عن حقهم وزاغوا إلى الباطل.
- (٨) شرح التهج للحدادي: ج ١ ص ٢٢٠-٢٢١ ط دار إحياء الكتب بمصر. والإمامة والسياسة لابن فقيهة: ج ١ ص ١٦٥-١٦٦ ط
 ثانية بمصر. وتاريخ العقوبي: ج ٢ ص ١١٥-١١٦ ط النجف.

(رضوان الله عليه): من ترف الروحية وصفاء النية: ما أهلاه لأن يُعرف بين الناس باستجابة الدعوة واستسقاء الغمام واستدفاع الجذب، شأنه في ذلك شأن أخيه أبي طالب وأبيهما عبد المطلب من قبل.

فلنسمع الى ابن عبد البر وبعض آخرين يروون لنا قصة ذلك:
قالوا: أصاب المدينة وحواليها عام الرمادة^(١) قحط شديد أجديت فيه الأرض وجفت موارد الرزق.

فلاذ الناس بمن فيهم عمر بن الخطاب وهو يومئذ خليفة المسلمين بالعباس بن عبد المطلب يتوسلون به الى الله تعالى: أن يدفع عنهم هذه النازلة الشديدة.
فيستجيب لهم العباس ويتوجه بقلبه ولسانه إلى الله تعالى بالدعاء رافعاً يديه المرتعدين الى السماء فأخذ يقول بعد حمد الله والثناء عليه:

«اللهم إن عندك سحاباً وعندك ماءً فانشط السحاب، ثم أنزل الماء منه علينا واشدد به الأصل وأطل به الفرع وأدر به الضرر، اللهم إنك لم تنزل بلاءً إلا بذنب^(٢) ولم تكشفه الا بتوبته، وقد توجه القوم به إليك، فشكعنا اللهم في أنفسنا واهلينا وشفعنا فيما لا ينطق من بهائمنا وأنعامنا، اللهم اسقنا سقياً وادعاً نافعاً طبقاً سحاً عاماً، اللهم إنا لا نرجوا ولا ندعو اغثرك ولا نرغب الا اليك، اللهم إليك نشكو جوع كل جائع وعري كل عار وخوف كل خائف وضعف كل ضعيف...» في دعاء طويل بروايات مختلفة من حيث الإيجاز والتطويل^(٣).

قالوا: وما أتم العباس دعاءه الذي استنزل به رحمة الله حتى أرخت السماء

(١) ولعله انما سمي بذلك لأن الجذب صير ألوان الناس أو الأرض كلون الرماد من المدم والفاقة.

وكانت سنة ١٧ هـ كما في الاستيعاب والنهاية وغيرهما.

(٢) وليست تلك قاعدة مطردة، ولعله يقصد بالبلاء: خصوص الانتقام منه، فذلك يأتي على أثر الذنب العظيم كما هو واضح.

(٣) ففي ذخائر القبي: ص ١٩٩: إن هذه الألفاظ من الدعاء لم تجي في حديث واحد، وانما جاءت في أصاديت متفرقة

جمعت واختصرت ومثل ذلك في الاستيعاب، وجاءت جميل الدعاء في الدرجات الربيعية: ص ٩٧ بهذا العرض (اللهم أنت

الراحي فلا تحمل الضالة ولا تدع الكسير يدار مضيقه، فقد تضرع الصغير وركب الكبر وارتفعت الشكوى وأنت تعلم السر

الغني، اللهم أغثهم بغياهم من قبل أن يقتلوا فيهلكوا، انه لا يباس من رحمة الله الا القوم الكافرون).

عزاليها^(١) فجاءت بأمثال الجبال حتى استوت الحفر والآكام^(٢)، فاخصبت الأرض بعد جذب وأعيدت الحياة الرخية إلى الناس^(٣).

وفي ذلك يقول حسان بن ثابت شاعر النبي ﷺ:

سأل الإمام وقد تتابع جدبنا	فسقى الغمام بوفرة العباس
عم النبي وصنو والده الذي	ورث النبي بذلك دون الناس ^(٤)
أحى إليه به البلاد فأصبحت	مخضرة الأجانب بعد الياس ^(٥)

وتصاعد بالعباس عمره حتى تجاوز الثمانين بما يناهز العشرة، فأخذ بصره الحديد يكف قليلاً قليلاً حتى أظلم وأخذ جسمه المعتدل القويم يتضائل ويحنى، ولكنه لم يزل حاد البصيرة قوي الإيمان مستقيم الرأي ثاقب الفكر لم تؤثر شيخوخته على معنوياته أيما تأثير.

حتى إذا تدانى أجله وتوغل في المرض وهو على نكس من الجسم، لفظ أنفاسه الأخيرة في المدينة يوم الجمعة يوم الثاني عشر أو الرابع عشر من شهر رجب أو من شهر رمضان سنة ٣٢ أو ٣٣، وقيل: ٣٤ هـ له من العمر (٨٧-٨٨)، وقيل: ٨٦-٨٩ سنة ودفن في البقيع في قبره الخاص به^(٦)، وترك لنا وللتاريخ من البنين تسعة أو أكثر ومن

(١) العزالي والعزالي بالياء والقصر: جمع العزلاء مؤنث الاعزل وهو مصب الماء من القرية ونحوها، والتصير كثنائي واضح.

(٢) آكام بالمد أحد جموع الأكم بالفتح والأكمات وهما جمعا أكمة بالتحريك ومعناه التل الصغير كالروة.

(٣) ذخائر العقبى للمحب الطبري: ص ١٩٩ ط القدسي بالقاهرة، والاستيعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة ج ٣ ص ٩٨ ط أولى بمصر، وأشار إلى ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء: ج ٢ ترجمته رقم ١١١، كما أشار إلى الاستسقاء: التويري في نهايته. ج ١٨ ص ٢١٨ ط دار الكتب بالقاهرة.

(٤) يقصد إرث النبي ﷺ من حيث الاستسقاء واستجابة الدعاء لا على الإطلاق بحكم الإشارة إلى المناسبة.

(٥) المصدر الأنثى من الاستيعاب ونهاية التويري.

(٦) أما وفاته في المدينة وكونها يوم الجمعة وكذلك دفنه بالبقيع فبأجماع المؤرخين وأرباب السر والمعاجم وما سوى ذلك من التعيينات المشار إليها فمحل خلاف بينهم.

وفي ذخائر العقبى للطبري: ص ٢٠٦: (إنه توفي لا تتبي عشرة خلت من رجب، وقيل، لأربعة عشرة خلت منه، وقيل: من شهر رمضان سنة: ٣٢ هـ وقيل: ٣٣ وهو ابن ٨٨ وقيل: ٨٧ سنة)

البنات ثلاثاً أو أكثر.

فالفضل وهو أكبر البنين وبه كانت كنيته وعبد الله الحبر وعبيد وعبد الرحمن وقثم وام حبيبة امهم جميعاً: لبابة بنت الحارث الهلالية^(١) وتقام بالتشديد وكثير لأم ولد والحارث وامه: الهذلية^(٢) وامينة وام كلثوم وصفية لأمهات اولاد^(٣).

ثم ان عقب العباس في ثلاثة من ولده: عبد الله وعبيد الله ومعبد فعقب عبد الله في ولده الصغير «علي» جد ملوك بني العباس وعقب عبيد الله في ولده العباس وعقب معبد في ولده عبد الله^(٤).

→ وفي الاسماء واللغات للتووي: ج ١ ص ٢٥٨: (لا تني عشرة خلت من رجب، وقيل: من رمضان سنة ٣٢، وقيل: ٣٤ وهو ابن نحو ٨٨ سنة، وفي شذرات ابن عماد الضبي ج ١ ضمن حوادث سنة ٣٢: وفيها: (توفي العباس بن عبد المطلب إلى قوله: وكان موته أول رمضان من ٨٦ سنة.

وفي تاريخ الطبري ج ٤ ضمن حوادث سنة ٣٢: (وفيها توفي العباس إلى قوله: عن ٨٨ سنة من العمر) ومثله في كامل ابن الأثير: ج ٣ في أخريات حوادث سنة ٨٣٢ هـ، وفي نهاية الأرب للتووي: ج ١ ص ٢١٩: (توفي العباس إلى قوله لا تني عشرة ليلة خلت من رجب، وقيل من شهر رمضان سنة ٣٢ هـ وهو ابن ٨٨ وقيل: ٨٩ سنة، وقال خليفة بن خياط: كانت وفاة العباس سنة ٣٢ هـ وفي الدرجات الرغبة للمدني ص ٩ ط النجف لا تني عشرة وقيل: لأربعة عشرة خلون من رجب، وقيل من رمضان سنة ٣٢، وقيل ٣٣ هـ وهو ابن ٨٧ سنة).

وفي أوائل القسم الثاني من محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية لمحمد الخضري: (أن وفاته كانت أربعة عشرة رجب وهو ابن ٨٨ سنة، ولعل ذلك هو الأصح).

إلى أمثالها من المصادر التي لا يكاد يتفق منها اثنان في جميع تلك التمهينات من الوفاة.)

(١) من بني هلال بن عامر كما في نهاية التووي: ٢١٩/١٨، ومحبر البغداد: ص ٢٥٥، وتذهب التووي: ج ١ ص ٢٥٨، وجمهرة ابن حزم: ص ١٨-١٩، والمصدر الآنف من الذخائر والمحاضرات الخضري.

(٢) في المصدر الآنف من الذخائر (هزلية) والصحيح أنها (هذلية) بالذال المعجمة من هذيل، وأسماها الخضري في المصدر الآنف من تاريخ الأمم الإسلامية جملة بنت جذب بن هذيل..

(٣) في المصدر الآنف من السماء التووي: من أسماء التووي: آمنة بدل أمينة، في المصدر الآنف: من محاضرات الخضري أميمة بالصغير.

والملاحظ: أن التووي في المصدر الآنف يضيف إلى البنين التسعة: عاشراً يسميه عوف، كما أن المحب الطبري المصدر الآنف يضيف إلى البنين (صبيح ومسر) برواية هشام بن الكلبي، كما يضيف إلى البنات: لبابة برواية إبراهيم المازني.

(٤) يراجع في تفصيل عقب العباس من اولاده الثلاثة: المصدر الآنف من جمهرة ابن حزم وغيره من كتب النسب.

● ختام المطاف

وحسبنا مما عرضناه في الفصول الثمانية: من مآثر هاشمية نبيلة دلالة وافيه على رجحان الفضيلة والكرامة على الرذيلة، والأمة من كفتي الميزان: هاشم وأمية . فتلك - لعمرُ الواقع - بعض محاسن الأغصان النظرة الباسقة للزيتونة الأحمدية الهاشمية، وقد استأثرت بها «الفصول الثمانية من الكتاب» التي احتواها الجزء الأول منه. فنكون بعد ذلك قد أتينا على نهاية ما بدأناه: من مدخل الحديث عن جذور الثورة الحسينية، وفي مؤشرات واضحة للصراع بين خطي القبيليتين: الهاشمية والأموية الى الفصل التاسع من الجزء الثاني من الكتاب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحسين بن القلي بن الحسن آل بحر العلوم

النجف الاشرف / العراق لسنة ١٤٠٩ هـ



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الجزء التالي

يفتص بـ «عبد شمس» والمبرز من أبنائه «أمية الأكبر»
الجد الأعلى للبيت الأموي، وأغصان شجرته المقترعة عنه



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ وعلى آله الطيبين الطاهرين. وتعقيباً على ما ذكرنا في مقدمة الجزء الأول من الكتاب: من ابتدائه على فصول عديدة، من حيث سعة حجم «الثورة الحسينية» وعرض واقعتها وشموليتها لكثير من الأحداث الأساسية التي اكتنفتها من جهة، ومن حيث انطلاقها من أسبابها الطبيعية، وتفرعها عن جذورها التاريخية، ومكوناتها الموروثة من جهة ثانية، ومن حيث ما صدرته «الثورة البناءة»: من انتفاضات وثورات ومعطيات وحصائل وأحداث وما إلى ذلك ونحوه من ثمرات فكرية، ونماءات سياسية وروافد اجتماعية وما إلى ذلك ونحوه مما يستمطر من الثورة، ولو بقطرات يسيرة من جهة ثالثة لذلك، فقد استأثرت الفصول الثمانية بجميع صفحات الجزء الأول للكتاب، حيث تضمن فيما تضمن: حديثاً مشبعاً وبحثاً موسعاً عن جذور «الثورة» وأسبابها ومنطلقاتها الواسعة العريضة، بذكر مدخل للصراع والخلاف بين بني هاشم وبني أمية تحدرأ من قممه إلى سفوحه، وعرض مفصل عن التأريخ المشرق لعناد البيت الهاشمي الرفيع «هاشم بن عبد مناف» فخر العرب وزهو قريش، ولأكبر أبنائه الأربعة: كبرياء المجد وشيبة الحمد «عبد المطلب»، ولبعض اللامعين في سماء الفخر والمجد من أبنائه الأمثال في مناطي: النسب، والحسب، كل ذلك، انطلاقاً من خلال الظواهر الطيبة، والمآثر النبيلة والاندياحات الفسيحة على ضوء الخير والفضيلة والنضج الفكري المجتج.

كما استستأثرت هذه الفصول السبعة أو الأكثر بجميع صفحات الجزء الثاني للكتاب، فيتضمن فيما يتضمن مواصلة للبحث عن جذور «الثورة» وأسبابها ومنطلقاتها: بعض ما لعبد شمس رأس البيت الأموي ولابنه المتميز «أمية الأكبر» من سمات وصفات ذاتية وموروثة على غرار الضلالة والشر والحقد، ثم عرض المقارنة المتوازية بين خطي القبلتين الهاشمية والأموية من حيث تصاعد الفضيلة والخير إلى القمة، وتهاوي الرذيلة

والشر إلى الحضيض، وبعد ذلك إلقاء بعض الأضواء الكاشفة على ما لبعض أبناء «أمية» وأحفادهم: من ذاتيات داعرة وظواهر فاجرة في كلا دوري جاهليتهم ولسلامهم الظاهري خصوصاً: ظاهرة العداة الخبيث للنبي محمد ﷺ وللإمام علي ﷺ وآلهما وذويهما على مدى المسيرة المنحدرة من قمم الآباء إلى سفوح الأبناء والأحفاد والأسباط والتابعين لهم بإحسان.

وبعد ذلك، تخصيص «أبي سفيان بن حرب» من بين أبناء «أمية» بتفصيل الحديث وعرضه أكثر عن دوري «جاهليته وإسلامه الشكلي» اللذين لا يختلفان ولا يتميزان بوضوح من حيث المراوغة والعداء الصارخ للنبي ﷺ وإسلامه، ولعموم أهل بيته باستعراض مواقفه في ذلك.

وبالتالي: تخصيص العرض بتفصيل وتحقيق عن أخبث أبنائه الفجرة ذاتاً وأوغلهم عداً للإسلام، والمسلمين وللنبي محمد ﷺ وللإمام علي ﷺ ولشيعة ومواليه، ذلك هو الذنب الماكر: «معاوية بن أبي سفيان»، ومن ثم استعراض شواهد من أقواله وأفعاله على شدة عداته لأمر المؤمنين ﷺ ومحاربتة بشكل مسلح وغير مسلح من الداخل ومن الخارج خصوصاً ما كان منه في «حرب صفين».

وبالتالي: عرض ملاحقاته لعلي ﷺ وشيعته بعد حرب صفين إلى حين وفاة الإمام ﷺ بشن الغارات تلو الغارات على أصقاع علي ﷺ وآفاق خلافتة: من العراق والحجاز واليمن وما والاها، وكذلك نستعرض ملاحقات «معاوية» لعلي ﷺ وأهل بيته وشيعته بعد وفاته ﷺ.

ومن الله العلي القدير نستمد العون والتوفيق لإكمال فصول الكتاب، إنه نعم المستعان وولي التوفيق.

كما وأسأله تعالى بلطفه الخفي: أن يقبل مني هذا المجهود المتواضع، وأن يجعله ذخراً لي ليتفني ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ إنه سميع مجيب وعباده رؤوف رحيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فإلى عرض فصول الكتاب:

الحسين بن التقي آل بحر العلوم

النجف الأشرف - العراق / الأول من شهر رجب / سنة ١٤٠٩ هـ

الفصل الأول

عرض مفصل استمراً للبحث عن جذور الثورة الحسينية
لعبد شمس: رأس البيت الأموي، وبيان عداوته لأخيه
هاشم وأسبابها، والمقارنة بين الأخوين على غرار
الفضيلة ومضاداتها.



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

● عرض موجز لأبناء عبد مناف الأربعة

لقد ذكر أرباب التاريخ والنسب لعبد مناف بن قصي القرشي: أبناء أربعة: هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفل، وأم الثلاثة الأوائل: عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان السلمية، وأم نوفل: واقدة من بني مازن بن صعصعة السلمية، فسادوا جميعهم بعد أبيهم، وكان يقال لهم المجبرون بالتشديد^(١).

وقال النسابة البغدادي (في المحبر: ص ١٦٢ - ١٦٣) طبع بيروت: عن هؤلاء الأربعة: إنهم من أصحاب الإيلاف الذين رفع الله بهم قريشاً، ونفث فقراءها: هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل بنو عبد مناف، فكان متجر هاشم إلى الشام فهلك بغزة وهي مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، إلى قوله: وكان متجر عبد شمس إلى الحبشة فمات بمكة، وكان متجر المطلب إلى اليمن فمات بموضع يقال له: (ردمان) موضع في اليمن، وكان متجر نوفل إلى العراق، فمات بموضع يقال له: (سلمان) - ماء قديم جاهلي - فهؤلاء سادة قريش وناعشوهم.

قال مطرود بن كعب الخزاعي يمدحهم:

يا أيها الرجل المحول رهله	هلا نزلت بال عبد مناف
هبتك أمك لو هملت إليهم	ضمنوك من جوع ومن تطوال
الأخذون العهد من أفاها	والراحلون برحلة الإيلاف
والمفضلون إذا المحول تراءت	والقائلون: هلم للأضياف

وفي معجم البلدان للحموي (بمادة ردمان): وقال مطرود بن كعب الخزاعي يمدح بني عبد مناف من قصيدة:

أخلصهم عبد مناف فهم ممن يؤم من لام بسمنجة

(١) جهمرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي: ص ١٤ ط دار المعارف بمصر، وأضاف ابن قتيبة في المعارف: ص ٧٢ مطبعة دار الكتب: خامساً، أسماء (عمرواً) وقال عنه: إنه لا عقب له.

قَبْرُ بَرْدَمَانَ وَقَبْرُ بِسْلَمَانَ وَقَبْرُ عِنْدَ نَكْرَاتٍ
وَمِيتَ مَاتَ قَرِيباً مِنَ الْحَجُونِ مِنْ شَرْقِ الْبَنِيَّاتِ

فالذي بردمان: المطلب بن عبد مناف، والذي بسلامان: نوفل بن عبد مناف. والقبر الذي عند غزة: هاشم بن عبد مناف، والذي بقرب الحجون: عبد شمس بن عبد مناف». كما ذكر أرباب التاريخ والنسب لعبد شمس من البنين ثمانية أو أكثر: أمية الأكبر وأمية الأصغر وعبد أمية وحبيب وبه كان يكنى، ونوفل وعبد العزى وربيعه وعبد الله لا عقب له^(١).

● المقارنة بين هاشم وعبد شمس من حيث السمات والصفات

لقد ذكرنا في طليعة الفصل الثاني من الجزء الأول من هذا الكتاب أثناء عرض ما لهاشم من سمات جسمية باهرة، وصفات نفسية ساحرة.

أَنَّ مِنْ سَمَاتِهِ: أَنَّهُ كَانَ غَضُّ الشَّيْبَابِ وَرِيقُ الْعَمْرِ، طَلَبُ النَّشْرِ، بِاسْمِ الثَّغْرِ، نُضِيرُ الْغَصَنِ، وَأَغْزُ الْجَبِينِ، أَنْفُ الْعَرْنَيْنِ، صَبِيحُ الْوَجْهِ، مَبَارَكُ الطَّلَعِ، رَشِيقُ الْقَوَامِ مَتَرَفُ الْهِنْدَامِ.

وَأَنَّ مِنْ صِفَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ: إِنَّهُ كَانَ يَتَمَتَّعُ بِسَعَةِ الصَّدْرِ، وَسَمَاحَةِ الطَّبَعِ، وَلِينِ الْجَانِبِ، وَرَفَّةِ الشِّمَائِلِ، وَكِبَرِيَاءِ النَّبْلِ، وَبَذَخِ الشَّرَفِ، وَقُوَّةِ النَّفْسِ، وَتَقَهُمِ الْأَحْدَاثِ وَوَضْعِ الْحُلُولِ الْمُنَاسِبَةِ لَهَا، وَكَانَ عَلَى رِيعَانِ شَبَابِهِ يَتَصَرَّفُ بِرِزَانَةِ الْكُهُولِ وَوَقَارِ الشَّبُوحِ، وَكَانَ يَتَعَرَّضُ لِلْكُرَيْمَاتِ مِنَ الْخِصَالِ، فَيَمْلَأُهَا غِذَاءً وَرَوَاءً، وَكَانَ يَمْتَازُ بِالصَّدْقِ فِي إِيمَانِهِ وَكَلَامِهِ، وَبِالْيَقِينِ فِي أَحْكَامِهِ وَإِحْكَامِهِ، يَصِلُ الْأَرْحَامَ، وَيَطْعُمُ الْجَانِعَ، وَيَكْسُو الْعَرِيَانَ، وَيَنْتَصِفُ إِلَى الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ، وَيَجْبِرُ الْكَسِيرَ، وَيَمْنَعُ الْمُسْتَجِيرَ .. إِلَى نَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا كَتَبَ عَنْهُ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ سَمَاتٍ وَصِفَاتٍ مَجْنَحَتَيْنِ بِالنَّبْلِ وَالشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ.

أما أخوه عبد شمس، فبالرغم من كونه أَسَنَ من هاشم أو توأمه كما قيل فلم يكن يتمتع ببعض تلك السمات الجميلة، والصفات النبيلة، لو لم نقل: إنه كان يتميز بأضدادها. وهذا الأمر هو الذي أهاب بقبائل قريش بعد وفاة عبد مناف أن تنيط تلك الزعامات

(١) المصدر الآنف من الجمهرة ص ٧٤، وأهل ابن قتيبة في (معارفه ص ٧٢) ط دار الكتب بمصر (سفيان) مكان عبد الله.

التي كان يتولاها، من النداء والحجابه والسقاية والرفادة واللواء، بولده هاشم، دون بقية إخوته بمن فيهم عبد شمس، هكذا قلنا على غرار ما ذكره أرباب التاريخ والنسب. وقال ابن أبي الحديد في شرح النهج ج ١٥ ص ١٩٨ ط دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ضمن عنوان: (فضل بني هاشم على بني عبد شمس)، نقلاً عن أبي عثمان الجاحظ^(١): «إن شيخنا أبا عثمان قال: إن أشرف خصال قریش في الجاهلية اللواء والسقاية

(١) مرت ترجمة ابن أبي الحديد في هاشم ص ١١٢ من الجزء الأول من الثورة الحسينية. وأما أبو عثمان الجاحظ، فهو عمرو بن بحر بن محبوب الكتاني بالولاء، اللبني البصري بالولادة، المعتزلي بالمذهب، الشهير بالجاحظ لجحوظ عينيه وبروز حفتيهما. ولد في البصرة سنة ١٦٣ هـ قبل سنة ١٥٠ هـ وفيها نشأ وفيها درس وطار صيته. قال عنه عامة من كتب عنه: إنه كان عظيماً بذاكرته الأسطورية وبفكره الذي جمع فأوعى، وبجد له واحتجاجاته، وبتنظيمه وفوضاه، وبهجوه وامتناعه، وبهزله وجدته، وبفلسفته وسفسطته.

وكان عيناً ساهرة، لا تنفخ إلا على كتاب ولا تضيئ إلا على كتاب حتى اجتمعت له من العلم والمعرفة والأدب وغيرها من الفنون طرائف وبهائم. فكان أشهر من أن يذكر: في تمتعه بموهبة الذكاء والفطنة والحفظ، والتوحي والتهماك في مطالعة الكتب والتأليف والتصنيف في عامة الفنون والمعارف.

وقال عنه البلخي: «إن الجاحظ له من الذكاء وسرعة الحاطر والحفظ بحيث شاع ذكره، وعلا قدره واستغنى عن الوصف». وقال ابن دهقان: «لم أَر قط، ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ». وقال الحموي في معجم الأدباء: «كان الجاحظ من أصحاب النظام وكان واسع العلم بالكلام، كثير التبحر فيه شديد الضبط لحدوده، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدنيا والدين .. وكان عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور».

وقال ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث: «إن الجاحظ آخر المتكلمين وأحسنهم للمحنة حتى إنه ليحطم الصخر ويصفر المظلم».

وقال الشهرستاني في الملل والنحل: «إن الجاحظ طالع كثير من كتب الفلاسفة وخلق وبهياتة البليغة وبراعته اللطيفة، وكان أكثر ميله إلى الفلاسفة الطبيعيين فجاءت مطبوعة بفلسفتهم».

وقال عنه المبرد في الكامل: «ما رأيت أحرص على العلم من ثلاثة: الجاحظ، والفتح بن خاقان، وإسماعيل بن إسحاق القاضي». كان مشوّه الخلقة يشع المنظر بنحو يخرب به المتل في التشويه واليشاعة، روي عنه: إنه قال: «ذكرت للمتوكل لأعلم أولاده، فلما استحضرتني استبشع منظري، فأمر لي بعشرة آلاف دينار وصرفتي».

سمع من أبي عبدة الأصمعي وأبي زيد الأنصاري، وأخذ النحو عن أبي الحسن الأنغش، وأخذ الكلام عن أبي إسحاق النظام، وأخذ الفقه والحديث عن القاضي أبي يوسف، وتنسب إليه الفرقة الجاحظية من المعتزلة.

والرفادة وزمزم والحجابه، وهذه الخصال مقسومة في الجاهلية لبني هاشم وعبد الدار وعبد الغزي دون بني عبد شمس ...، قال شيخنا أبو عثمان: وكان اسم هاشم عمرواً وهاشم لقب .. فقلب هذا اللقب على اسمه حتى صار لا يُعرف إلا به، وليس لعبد شمس لقب كريم، ولا اشتق له من صالح أعماله إسمٌ شريف، ولم يكن لعبد شمس ابنٌ يأخذ بضبعه، ويرفع من قدره ويزيد في ذكره، ولهاشم: عبد المطلب سيّد الوادي غير مدافع، أجمل الناس جمالاً، وأظهرهم جوداً وأكملهم كمالاً، وهو صاحب الفيل والطير الأبايل، وصاحب زمزم وساقى الحجيج. وولد عبد شمس: أمية، - وأمّية في نفسه - ليس هناك. وإنما ذكر بأولاده ولا لقب له، ولعبد المطلب لقبٌ شهير واسمٌ شريف (شعبة الحمد)، وإنما شرف عبد شمس بأبيه عبد مناف بن قصي، وبني ابنه أمية بن عبد شمس، وهاشم شرف بنفسه وبأبيه عبد مناف وبابنه عبد المطلب. ويختتم الجاحظ كلامه بعد عرض موارد تفضيل بني هاشم على بني أمية بقوله: وشرف هاشم متصلٌ من حيث عددت كان الشرف معك كابرأ عن كابر، وليس بنو عبد شمس كذلك».

→ له تصانيف ورسائل كثيرة توفي على الخمسين، أو تناهز المئة كما قيل منها العشمانية التي تنقص عليها الإسكافي والمفيد وابن طاروس، ومنها كتاب الحيوان، والبيان والتبيين، والتاج، والبخلاء، والمحاسن والأضداد، والريح والغريف، والعنبر إلى الأوطان، ومسائل القرآن، وصياغة الكلام، وتفضيل الهاشميين على الأمويين. وهو الذي أشار إليه ابن أبي الحديد والفتصب منه، وغيرها كثير من الكتب والرسائل.

نَزَحَ من البصرة وأقام مدة من عمره في بغداد، ثم رجع إلى البصرة في أخريات سنّيه بعد شيخوخته وتوغّل المرض فيه. روى الخطيب البغدادي عن المترّد قال: «دخلتُ على الجاحظ في آخر أيامه وهو عليل فقلت له: كيف أنت؟ فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج ولو نثر بالسناشير ما حشّ به، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقره لأمله، والآفة في جميع هذا أني قد جزت التسعين، ثم أنشد:

كما قد كنت أيام الشباب

أترجو أن تكون وأنت شيخ

دريس كالجديد عن الشباب

لقد كذبك نفسك ليس ثوب

توفي في البصرة سنة ٢٥٥ على التحقيق. وكان سبب وفاته وقوع مجلدات من العلم في مكتبته عليه وهو ضعيف وليس معه أحد، فمات تحت المجلدات فاستخرجوه من تحتها وهو ميّت. باقتضاب من أحلام الزركلي، ومجمع المؤلفين لرضا كحالة، ومجمع الأدباء للحموي، والشذرات لابن الصاء، وتاريخ بغداد للخطيب، والوفيات لابن خلكان، ومروج الذهب للمسعودي، واللباب لابن الأثير، والبداية لابن كثير، ونغمة الوعاة للسيوطي، ومرآة الجنان للهاشمي، وروضات الجنات للبخاريساري، وكشف الظنون لحاجي خليفة، ودائرة المعارف الإسلامية، والكنى والألقاب للقمي، والكامل لابن الأثير، ولسان الميزان لابن حجر، ومقدمة البيان والتبيين للمحقق المحامي فوزي عطوي.

● الخلاف بين عبد شمس وأخيه هاشم

سبق أن أشرنا خلال الفصل الأول من الجزء الأول للكتاب، إلى وحدة النسب والآصرة بين الشجرتين: الهاشمية والأموية على ما بينهما من مميزات ذاتية وعرضية من حيث الخير والشر، والطهارة والخبث.

وأشرنا إلى أن هاشماً توأم أخيه عبد شمس من أبيهما عبد مناف بن قصي، وأنهما سقطا من بطن أمهما ملتصقين، ففرّق الحاضرون بينهما بالسيف فسال الدم على الأرض، فتشام الناس من ذلك، وقالوا: سوف يقع بينهما وبين أبنائهما السيف والدم إلى الأبد، كما ذكر ذلك الطبري في تاريخه ج ٢ ص ٢٥٢ ط دار المعارف بمصر.

وفعلًا كان الذي تشاء موامنه، فقد بدأ الخلاف بنحو بسيط بين الأخوين نفسيهما، بعد أن نشنا وشبّا، فكان هاشم طويلّ الباع بعيدَ النظرات مطلق الكفّ، عاليّ الهمة، حتى طَبّق صيته الآفاق العربية، وكان أخوه بعكسه في عامة تلك المميزات المعنوية، فكان خاملَ الهمة، قصيرَ النظرة، شحيح الكف، مقلّاً في المال، وكان أخوه هاشم يعول به، ذلك الهبوط والخمول في نفس عبد شمس ونفسيته أو غر صدره وأجج نار حقه على أخيه هاشم، فحاول أن يطير إلى شاؤه بغير جناح أو بجناح متكسر، ثم اشتد الخلاف والصراع والحقْد في بنيه أكثرَ على بني هاشم على طول الخط بين القبيلتين، حتى وصل إلى أشده بين حسين الحق، ويزيد الباطل.

يروي ابن أبي الحديد المعتزلي في (شرح النهج) عن جعفر بن مكي الحاجب فيما سأل هو الآخر محمد بن سليمان حاجب الحجاب، فقال: «قال جعفر: سألت عثاً عنده في أمر علي وعثمان؟ فقال: هذه عداوة قديمةُ النسب بين بني عبد شمس وبني هاشم، وقد كان حربٌ بن أمية نافزٌ عبد المطلب بن هاشم، وكان أبو سفيان يحسد محمدًا ﷺ وحاربه، ولم تزل الثنتان - أي القبيلتان - متباغضتين، وإن جمعتهما المنافقة، أي وحدة الأبوة في عبد مناف بن قصي»^(١).

(١) يراجع تفصيل الموضوع: من شرح النهج: ج ٩ ص ٢٤ ط دار إحياء الكتب العربية بمصر بعنوان «أسباب المنافسة بين

ثم إننا بعد ما أشرنا خلال الفصول الثمانية من الجزء الأول، إلى بعض الظواهر والملاحح الحسنة، والمآثر النبيلة التي تميز بها هاشم الفخر وابنه شبيهة الحمد، وبعض أغصان شجرته الطيبة الباسقة بالخير والكرامة والخلق الإنساني الرفيع.

كان لا بد لنا إكمالاً لطرفي البحث عن جذرية الخلاف بين الهاشميين، والأمويين أن نتعرض ولو بإيجاز إلى بعض ما لعبد شمس، وبني أمية: من الظواهر والملاحح السيئة، والهتات الوخيمة والسلوك اللاإنساني أيام الجاهلية وبعد الإسلام.

وحيث أن التاريخ لم يسجل لعبد شمس معيلاً يذكر، وظاهرة تعرف غير ما أثر عنه: من حقه وشأنه على أخيه هاشم، منذ ولادته إلى حين وفاته، ولعلّ مرد ذلك إلى ما تميّز به عكس أخيه: من قلّة ذات يده، وأياديه، وخموله في حياته، وتجافيه، ولهته وكذّه في اللقوق بشأ وأخيه، وإخفاقه عن بلوغ غباره، فضلاً عن توسط مضماره، الأمر الذي جسّد منه أن يكون منطلق الحق واليقض والعداوة لأخيه، فتوارث عنه بنوه تلك العداوة وذلك الحق والشنآن، وزادوا عليها، بحكم توغلهم أكثر في الالتواءات النفسية، والانهرافات الاجتماعية والهبوط الإنساني، فأصحروا عن نواياهم الخبيثة، وجسدوا ما في قلوبهم من ختل ودغل إلى صعيدية اللسان الفاضح والسنان الجارح في كل فرصة ومجال على طول المسيرة وامتداد التاريخ.

فلنصرف الحديث إلى الجد الأعلى للأمويين ونعطيه عنوان: الفصل الثاني

→ علي وعثمان.

وفي هذا الباب من أسباب الصراع بين القبيلتين يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن في الجزء الأول من كتابه (تاريخ الإسلام) ص ٣٧٥ الطبعة التاسعة: «كان العدا بينهم أي بين بني هاشم وبين بني أمية قديماً منذ الجاهلية ولم يزد الإسلام إلا شدة، فبنو حرب لم ينسوا ما كان من حمزة وما كان من علي يوم بدر كما أن بني هاشم لم ينسوا ما كان من هند يوم أحد».

الفصل الثاني

حديث مفصل عن أمية بن عبد شمس ووقاحته في منافرة
عمه هاشم عبد مناف ومنافرة ابن عمه عبد المطلب
وخسارة صفقته في المنافرتين، وعرض التشكيك في
بنوته لعبد شمس، وعرض سماته وصفاته غير المولف
بهما بالنسبة إلى بني هاشم، وعرض موبقاته أيام
الجاهلية، وموارد حسده وحقدّه على عموم بني هاشم،
ونحو ذلك من مواقفه المصحرة في ذلك المجال، ثم
عرض سريع لبعض أبناء أمية الذين ماتوا على الكفر
والنفاق والعداء لبني هاشم بالعموم، وللنبي محمد ﷺ
وعلي ﷺ بالخصوص.



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

● ملامح التشكيك في بنوة أمية لعبد شمس

ذكرنا في طلائع الفصل الأول من الجزء الأول من الكتاب: أن لعبد شمس من البنين زهاء عشرة، والمعقبون منهم سبعة، في طليعتهم أمية الأكبر، كما ذكرنا لأمية هذا من البنين عشرة أو يزيدون، والمعقبون منهم خمسة: حرب وأبو عمرو والعاصي وأبو العاصي وأبو العيص، كما ذكرنا هناك موجزاً عن نسب وعقب الأمويين المنحدرين عن جدتهم الأعلى «أمية»، فلنتحدث عنه الآن وعن بعض أغصان شجرته الخبيثة النابتة في الضلال، والمفرعة في الفساد، فنقول:

أمية الأكبر

يذكر المؤرخون والنسابون: أن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي كان من سادات قريش في الجاهلية، والظاهر: أن شخصية «أمية» هذه مجهولة الصلة بالواقع الصريح، فلم يزل يحوم حولها برينة وشك من حيث بنوته الشرعية لعبد شمس. ففي بعض المصادر التاريخية والأدبية: «إنه كان عبداً رومياً لعبد شمس، فلما ألفاه كيساً، فطلبوا، أعتقه، وتبناه، فقيل: أمية بن عبد شمس».

ومعلوم أن صلة التبني في الجاهلية كصلة البنوة في إلحاق الولد بأبيه النسبي في ترتيب الأبناء^(١).

ويمكن انتزاع هذا التشكيك النسبي في بنوة «أمية» لعبد شمس من المكاتبة التي

(١) ذكر ذلك القمي في سفينة البحار، والميرد في الكامل، وأبو الفرج في الأغاني، وأبو القاسم علي بن أحمد بن موسى في كتابه «الاستغاثة»، وأخبار إليه ابن أبي الحديد في شرح التهجج ج ١٥، وآخر: الأستاذ البهاتة السيد صدر الدين شرف الدين في كتابه (هاشم وأمّية) ففيه عرض مفصل في ذلك الموضوع.

دارت بين علي ومعاوية قبيل حرب صفين^(١).

فقد كتب معاوية فيما كتب إلى علي عليه السلام، متطاولاً ومتنمراً: قوله: «... ونحن بنو عبد مناف، ليس لبعضنا على بعض فضل، الأفضل واحد - ويقصد النبوة - لا يُستدل به عزيز، ولا يُسترق به حر ...».

فأجابه علي عليه السلام بكتاب جاء فيه: «... وأما قولك: إننا بنو عبد مناف فكذلك نحن، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا المهاجر كالطليق، ولا الصريح كاللصيق، ولا المحق كالمبطل، ولا المؤمن كالمذغل، ولبنس الخلف خلف يتبع سلفاً. هوى في نار جهنم، وفي الدنيا

بعد: فضل النبوة التي أذللتنا بها العزيز، ونمشتنا بها الذليل، ولما أدخل الله العرب في دينه أقواجا، وأسلمت له هذه الأمة طوعاً وكرهاً كنتم ممن دخل في الدين: إما رغبة وإما رهبة على حين فاز أهل السبق بسبقهم، وذهب المهاجرون الأولون بفضلهم، فلا تجعلن للشيطان فيك

(١) صفين بالكسر فالتشديد: موضع يقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي.

وموجز الوقعة، اقتضاباً من عامة كتب التاريخ المفصلة في ضمن حوادث سنة ٣٧ هـ إن علياً عليه السلام بعد الانتهاء من حرب الجمل واستقراره في الكوفة، بدأ يتحرك على مواقفه معاوية ومنازلته فبدأت الرسالة الحادة بينهما والمكاتبة المتندرة بالحرب حتى سار علي عليه السلام بهيئته الجرار الذي بعد المائة والعشرين ألفاً من الكوفة وعامتهم من خيرة الصحابة والتابعين والصلحاء، وجاء معاوية بهيئته المكثف الذي يناهز المائة ألف على الأصح، من الشام وعامتهم من أهل الغتل والفدر ومردة النفاق، والقي الفريقان في صحراء ذات (كدي وأكمات) في مكان يدعى (باصلين). وكان ذلك في أوائل شهر صفر من تلك السنة.

وبعد الرسل والمكاتبات بين علي ومعاوية استمر القتال واستدام أكثر من مئة يوم، وعُدت الحملات والوقعات بين الفريقين بتسعين أو سبعين حملة في كل يوم أو بين يوم وآخر.

وهكذا تنامت الحملات أثر الحملات حتى ضاق بمعاوية أمره، وكاد عسكره أن يتراجع عنه فاستنجد بمعرو بن العاص (الخب البغيث) بعد أن مثأ كل ما أراد من المال والجماء، فأشار على معاوية برفع المصاحف على الرماح، والدعوة والتحاكم إلى كتاب الله، فتهاون الفريقان في ضوء السرحية النكراء، وتم التحاكم إلى جعل معقلين من قبل كل من الفريقين، فكان ممثل معاوية عمرو بن العاص، وممثل علي المفروض عليه أبا موسى الأشعري، فتقدم الأشعري، وخلع علماً عن الخلافة وتلاه ابن العاص فأثبت معاوية للخلافة، وانطلق الواقع على كثير من طناب الناس من الفريقين وطوي الفتح واستبجح الرحيل، فرجع علي مع بقية جيشه إلى الكوفة بحسرة وظلامه، ورجع معاوية إلى الشام ببقية جيشه بقدرة والتفاف، وستتحدث عن تفصيل الوقعة في آخر فصول هذا الجزء الثاني من الكتاب إن شاء الله.

نصيباً ولا على نفسك سبيلاً، والسلام»^(١).

ولو مررنا بعد ذلك مروراً سريعاً على فقرات كتاب أمير المؤمنين عليه السلام المتتالية، حتى ننتهي إلى قوله: «ولا الصريح كاللصيق» لرأيناها واردة في عرض المقابلة، والتمايز بين أفراد القبيلتين، المنحدرتين من أب واحد، ولرأيناها منصبة أكثر في خصوص التمايز بين هاشم وأمية باعتبارهما المنطلقين الشاخصين لكلتا الأسرتين من حيث الفخر والفضيلة، والخزي والرديلة.

فلو ألقينا بعض الضوء الكاشف على جملة: «ولا صريح كاللصيق» لاستنتجنا منه بعض التلميح على الأمل إلى ذلك التشكيك المشار إليه في صحة نسب أمية، ووضوح انتمائه إلى قريش.

بالرغم من صرف ابن أبي الحديد بعد الإشارة إلى التشكيك المذكور لصفتي الصراحة واللصوق عن معناه الظاهر إلى الواقعية، والشكلية في تبني الإسلام والدخول فيه، فيقول تعقياً على شرح فقرات الكتاب: «الصريح فيه: من أسلم اعتقاداً وإخلاصاً. واللصيق فيه: من أسلم تحت السيف أو رغبة في الدنيا».

أقول: ليس ذلك التخريج والتأويل لتلك الجملة بالبعيد الناشز عن الحقيقة بحكم توسطها بين الجمل المتتالية، التي قد تساعد عليه، غير أنه تخريج سواء قصده ابن أبي الحديد أم لم يقصده. أنقل على كاهل الأمويين، ومن والاهم من ذلك التشكيك النسبي، حيث أن هذا التخريج يؤول بالنتيجة إلى التشكيك في إسلام أبي سفيان والكثير ممن أظهروه من منافقي بني أمية.

وبالتالي، فإن ابن أبي الحديد بتخريجه هذا أراد مماراة الأمويين، فهو إلى حضيض المباغضة لهم، فتأمل جيداً؟

وعلى الجملة، فأمية شخصية مجهولة النسبة إلى عبد شمس، فإذا قيل: إنه عيشي

(١) نهج البلاغة، وشرح النهج للحديدي: ج ١٥ ص ١١٧ ط دار إحياء الكتب العربية، وكتاب صفين لنصر بن مزاحم: ص

١١٧ ط دار إحياء الكتب العربية، وكتاب صفين لنصر بن مزاحم: ص ٥٣٨ ط مصر، والإمامة والسياسة لابن قتيبة: ج ١

ص ١١٨ ط مصر، ومروج الذهب للمسعودي: ج ٢ ص ٦١ ط مصر، وربع الأبرار للزمخشري، باب ٦٦.

اللحمة، فهو قول لا يستند إلى القطع، وإن عرقه التاريخ بذلك، لأسباب، يطول شرحها. ومهما يكن من شيء، فإن عبد شمس تبنى أمية، وامتد الزمن، وأمие يدعو مولاه أباً. وعبد شمس يدعو: ابناً، حتى ألف الناس تلك الأبوة، وهذه البتوة التنزيليتين وأخذوا ينظرون إلى أمية: أنه من قريش، وأنه ابن عبد شمس، وما يدرينا لعل نظرهم إليه كذلك، تبعاً للعرف الذي تبناوا به الرباب والعبيد، على نحو التنزيل أو لعل نظرهم إليه كذلك على نحو المجاز بعلاقة الولاء؟

وإن كان نظر العلية من القرشيين خصوصاً أهل مكة، وهم أدري بشعابها كما قيل إلى أمية: أنه ابن عبد شمس بتحفظ وغمز، كما كانت نظرهم إلى عبده «ذكان» الذي كناه أمية، حين تبناه، فسماه: أباً عمرو، فكان يسمى عند أمية وبني أمية ومواليهم: «أبا عمرو»، وعند العلية من قريش وعموم الناس: «ذكان العبد»، كما يروي ذلك «دغل» النسابة^(١).

فقد روى ابن أبي الحديد عن أغاني الأصفهاني: «أن معاوية قال لدغل النسابة أرايت عبد المطلب؟ قال: نعم، قال: كيف رأيت؟ رجلاً نبيلاً وضيئاً، كان على وجهه نور النبوة، وعز الملك، قال معاوية: أرايت أمية؟ قال: نعم، قال: كيف رأيت؟ قال رأيت رجلاً ضئيلاً نحيف الجسم منحني القامة أعمى يقوده عبده ذكان»، فقال معاوية: ذلك ابنه «أبو عمرو»، قال دغل: أنتم تقولون ذلك، فأما قريش فلم تكن تعرف إلا أنه عبده^(٢).

(١) دغل بالفتح كجعفر، ابن حنظلة بن زيد بن عبدة بن عبد الله الذهلي الشيباني السدوسي نسابة العرب، يضرب به المثل في معرفة الأنساب والآداب، قال الجاحظ عنه في (البيان والبيان) «لم يدرك الناس مثله: لساناً وعلماً وحفظاً»، وعن محمد بن سيرين: «كان دغل رجلاً عالماً ولكن اغتلبته النسبة».

ويروي: (إن معاوية أرسل إليه، فسأله عن العربية، وأنساب العرب، وعلم النجوم؟ فإذا هو رجل عالم، فقال له معاوية: من أين حفظت هذا؟ قال حفظت هنا بقلبي عقول ولسان مؤول، وإن غائلة العلم النسيان» وجعله معاوية مطعم ولده يزيد. أدرك النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً.

قبل: إنه غرق يوم دولا (أو دولات) بفارس في وقعة الأزارقة من الخوارج سنة ٧٠ هـ كما في الإصابة. ولعل الأصح: إنها كانت سنة ٦٥ هـ اقتضاب من الإصابة لابن حجر. والاستيعاب لابن عبد البر. والأحلام للزركلي. والمصحبر للنسابة البغدادي. والمعارف لابن قتيبة. (٢) المصدر الآنف من شرح الحديدي: ص ٢٣٣.

وشهادة أخرى من شيخ الأبطح، ومؤمن قريش أبي طالب «رضوان الله عليه» على عبودية «أمية» نضمها إلى شهادة ابنه أمير المؤمنين عليه السلام الآتفة الذكر.

قال أبو طالب من أبيات يشير بها إلى تظاهر بني عبد شمس ونوفل، عليه وعلى رسول الله عليه السلام على أثر الدعوة الإسلامية وهي:

توالى علينا موليانا كلاهما	إذا سئلا قالوا إلى غيرنا الأمر
بلى لهما أمرٌ ولكن ترجما	كما لرتجت من رأس ذي اللقح الصخر
أخص خصوصاً عبدُ شمس ونوفلاً	هما نجدنا مثلما نبذ الصخر
هما أبغضا للقوم في أهوبهما	لقد أصبحت أيديهما وهما صخر
قديماً «أبوهم» كان عبداً لجندا	بني أمة شهلاء جاش بها البحر ^(١)

فعلي عليه السلام يلمح بكلمة «الصيق» الآتفة، إلى عبودية «أمية» والتشكيك في بنوته لعبد شمس، وأبوه أبو طالب يُصرّح من قبل بذلك المعنى.

ففي البيت الأخير من أبياته، تصريح بعبوديتين لأمية: الأولى: مجازية وهي ما تضمنها صدر البيت المذكور، إشارة إلى قصة استعباد عبد المطلب لأمية عشر سنين، على أثر رهان ومباهلة بينهما كما سنذكر، ويقصد بكلمتي: «أبوهم» و«جدنا» الجدين الأعلىين لأسرتي أمية وهاشم.

والثانية: حقيقية، وهي ما تضمنه عجز البيت المذكور، فالمقصود: بنو أمية، الذي هو شيء قذفه البحر إلى الحجاز، ضمن التجارات الواردة إليه من الروم وغيرها، وتأنيت «أمية» للتحقير.

ولعل في وصف «الأمة» بدشلاء، مما يؤيد المعنى المقصود، حيث أن الشهل: وهو الزرقة المشابة بالسواد في العين كانت معروفة يومئذ في العيون الرومية أكثر.

وبالتالي، فهاتان شهادتان مجملتان ومبيّنة من رجلين برين تقيين - علي وأبيه - لا

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد: ج ١٥ ص ٢٣١ ط دار إحياء الكتب العربية، وسبائك الذهب، وسط الثاني، وفي (معارف ابن قتيبة: ص ٣١٨) ط دار الكتب: «وكان أبو عمرو عبداً، يسمى «ذكوان» فاستلحقه أمية، وكناه «أبا عمرو» فخلع على امرأة (أمية) وهي آمن بنت أبان أم الأعمى».

يطلقان القول جزافاً، وبلا علم، ولا بهجوان أحداً، رجماً بالنسيب، فعلي مع الحق والحق مع علي، وأبو طالب مؤمن قريش، رغم أنف الحقد والشنآن.

وآخر المطاف: أن نقول: لئن تضاع الاستدلال التاريخي على عبودية «أمية» الحقيقية من حيث النسب، فلا يتضاعف الاستدلال على عبوديته المجازية من حيث السبب للاتفاق التاريخي عليها كما سنذكر.

● سمات أمية وصفاته

ولم يكن أمية سواء قلنا بعبوديته الحقيقية أم المجازية: شيئاً يذكر في نفسه، وإنما كان كذلك بينه أخيراً، حيث تنعروا على أكتاف التاريخ بوقاحة وصلف، فوافاهم الحظ الأهوج حتى قرنهم التاريخ ببني هاشم، فكانوا خصوصاً ألداء لهاشم وبنيه على طول خط المسيرة، وتلك لعمري من قاصصات الظهر وشطحات الدهر.

والأفاني لأمية وبنيه مهما كان نسبه الحقيقي أم التقديري صلة بالكمال والجلال والجمال من حيث السمات والصفات والآثار مالهاشم وبنيه: من وفر، وغمر في تلك الجهات الثلاث كما أشرنا إلى اليسير منها فيما سبق من الجزء الأول.

فلنوجز فيما يلي: بعض ملامح أمية: من سمات دميمة، وصفات ذميمة وأثار وخيمة لتشدّه كل أولئك إلى العبودية أكثر مما تشده إلى الحرية، فنقول:

لقد عرفه لنا التاريخ: بأنه كان جهم المنظر آدم السحنة قصير القامة دميم الصورة، سىء الطالع ضئيل الجسم منحني الظهر أشبه بالمحدودب أعمى بتشويه في أخريات عمره، فكان يقوده عبده «ذكوان» الذي تبتّاه هو الآخر فسماه عمرواً كما ذكرنا^(١).

(١) تجمع من مصادر مختلفة: أشرنا إلى بعضها فيما سبق من شرح التهج، وفي ص ٢٣٣ منه: «وروى الوليد بن هشام بن قحزم قال: عثمان يوماً: وددت إنّي رأيت رجلاً، قد أدرك الملوك، يحدثني صامضاً؟ فذكر له رجل يحضرموت فيبت إليه، فحدثه حديثاً طويلاً، تركنا ذكره إلى أن قال له عثمان: أرايت عبد المطلب بن هاشم؟ قال: نعم رأيت رجلاً قدأ بكسر فسكون بمعنى حسن الهيئة، أبيض، طويلاً مقرون الحاجبين بين عينيه غرة يقال: إن فيها بركة وإن فيه بركة. قال: أرايت أمية بن عبد شمس؟ قال نعم: رأيت رجلاً آدم دميماً قصيراً أعمى يقال: إنه تكدر وإن فيه نكداً. فقال عثمان: «يكنيك من شر سماعه» وأمر بإخراج الرجل من مجلسه».

● موبقات أمية وتمزده على الأعراف العربية

كما روي: أنه اعترض امرأة من بني زهرة بن كلاب بريبة، فأخبرت المرأة بعض أعمامها من بني زهرة.

فخرج إليه الزهري حينما بلغه الأمر واختارطه بالسيف وأراد قتله، فهرب منه «أمية»، وانتحى بقومه، فنهض الأمويون وعزموا على إجلاء الزهريين عن ربوع مكة، لولا أن قيساً بن عدي السهمي، وكان منيع الجانب، شديد العارضة حمي الأنف، وكان بنو زهرة من أخواله اعترض هو الآخر الأمويين، وكبح جماحهم، وصرفهم عن عزمهم، فأخذ يصرخ وينادي في قریش: «أصبح ليل» فلتوت صرخته في أجواء مكة، فذهبت مثلاً، ثم غضب لأخواله الزهريين وأخذ ينادي متحدياً بني أمية وأحلافهم: «ألا إن الظاعن مقيم» فأرشد الأمويون مندحرين عما كانوا عزموا عليه: من إجلاء بني زهرة.

وهناك أنشأ وهب بن عبد مناف بن زهرة جد النبي ﷺ لأمة قائلاً:

مهلاً أمي فإنّ البغي مهلكة لا يكسبك يوم شـزه نـكـر
تسبو كواكبـه والشمس طلعة يُصبّ في الكأس منه الصاب والمقر^(١)

وكان أمية، خباً، لثيماً، حسوداً إلى أبعد الحدود، وكان ذا كثرة في الولد والعصبة، وذا وفرة في المال والتجارة، وكان لتلك الكثرة، وهاتيك الوفرة في المجتمع الجاهلي بل في كل مجتمع متخلف في الحضارة، الأثر الفعال في مجال الفخر والسيادة وكانا من دواعي التميز والتناول على عامة أفراد المجتمع.

وبهاتين الكترتين والوفرتين المشار إليهما، بالإضافة إلى ما كان عليه أمية: من الهبوط الخلقي والانحراف الاجتماعي والحسد لهاشم، أخذ يحاول وهو في غرور

→ والملاحظ أن كلمة عثمان الأخيرة مثل مشهور لفظه، كما في مجمع الأمثال للميداني، حرف العاء: «حسيك من شر سماعه»، وأول من قاله: أم الربيع بن زياد الجبلي ومناه: يكفك سماع الشر عن الوقوع.

(١) المصدران الآتقان: من (النزاع والتخاصم)، وشرح النهج للحديدي، والبيتان: كما ذكرنا هما في شرح النهج. وعجز البيت الأول في «النزاع والتخاصم» هكذا: «لا يكسبك ثوباً...».

والصاب: حجر مركب المذاق كالعلقم، والمقر يفتح فكسر ككتف: نبات مرّ المذاق أيضاً هو الصبر أو شبهه به في المارة، ولعل المطف بين الكلمتين من باب عطف البيان والتفسير.

الشباب مباراة عمه هاشم، فخر قريش وطفراء العرب تجسيدا لما كان عليه أبوه عبد شمس من البغض الدفين لأخيه، غير أنه لم يستطع التظاهر به بين الناس لضعف نفسه وخموله وقلة ما في يده، فلما ظهر ولده أمية للوجود بشبابه وتنمره وماله وولده أخذ يتعالى، ويتطامح إلى أن يكون ندأ لهاشم، فكان إذا نظر إلى هاشم في ألقه الباهر، وعرفه العاطر، وخلقه الساحر، تأكلت لبه وعقله نار الحقد والضروس، وعز في نفسه الملتوية: أنه لا ينال من المجتمع العربي إلا النظرات الشؤر، ولا يسمع منه إلا الشتيمة والنبز. فتخيل من خرقه: إن صهوات الفخر والسيادة التي امتطأها هاشم كانت حصيلة البذل للطعام فحسب.

فبلغ الغرور به لكثرة ماله وعصبته ولنار حقه وحسده لهاشم أن يتطبع على غير طبع الصحيح، فيتكلف صفة البذل والعطاء ليبترز منصب هاشم ومقامه في المجتمع أو أن يباريه ويوازيه على الأقل، فتحدوا بمدحه الركبان وترجز بثنائه الشعراء كما كانت تفعل بالنسبة إلى هاشم فخر عدنان، وفتى قريش وغاب عن فكر أمية أو تغابي على الأصح: أن سيادة المجتمع العربي وأعنة قريش بالخصوص لم تكن يومئذ وقفاً على بذل الطعام وهشم الثريد، ولو حصل عن تكلف والتواء.

وإنما الكرم والبذل لو حصلا عن طبيعة وذاتية، كانا من بعض دواعي السيادة الاجتماعية، فإذا انضم إليهما طهارة المولد ونزاهة المحتد، وألق العفاف، وعبقريّة الخلق وقوة الإرادة وسعة الصدر وما إلى غيرها: من صفات الرجولة المتميزة في الإنسان الكريم، استطاع أن يتسّم مراقي المجد والسيادة، فتعوله الرقاب، وتفتح له الأبواب ويشمخ به الفخر، وأميه كما عرّفه لنا التاريخ صفراً من تلك الصفات النبيلة والسمات الأهيلة المشار إليها.

ولكنه مع صلف وتنمر أخذ يبارى هاشماً في سد السُغبة عن الناس في بعض السنين العجاف، ويحتذى مثاله للتعرض للعفاة الجائعين والفقراء المعوزين واليتامى المهملين. وسرعان ما فشل عن مباراته لهاشم واحتذائه بظلاله بخصوص هذه الصفة من كرائم الصفات التي كان هاشم يتمتع بعليانها وأعاليتها، فنكص عن استمراره في المباراة

والاحتذاء ولو بنحو التطبع، فلحاه اللاحون وشمته به ناس من قريش، فاتقدت فيه نار الحقد وسورة الحسد وزين له شيطانه الأهوج أن يحتمل هاشماً تبعات إخفاقه في المباراة والمحاذاة، فذهب لينافر هاشماً وبخاصه^(١).

ولكن هاشماً في البداية تأبى، وهو الرفيع الشأن، عن أن يسف إلى منازل ومنافرة رجل كأمية تمتور بشخصه وشخصيته عوامل كثيرة من صفات وخلفيات وهنات. غير أن قريشاً ولعلها كانت تقصد النكاية بأمية، ألحت على هاشم أن يتنازل فيجيب إلى داعية المنافرة لئلا يفسر أحجامه بغير معنى الرفعة، فاضطر هاشم عند إذ يحكم حفيظته المرة إلى قبول المنافرة، ولكنه إباء منه عن هذه المنازلة الرخيصة اشترط لها شروطاً ثقيلة على كاهل رجل مثل أمية من ذوي الشح والدناء لعله يرعوي ويكف عن منازلته، فنافره على خمسين ناقة سود الحديق، تنحر في مكة أيام الموسم، وجلاء عشر سنين عن مكة، وعلى المغلوب من أيتها أن يزرع تحت هذين الشرطين الثقيلين، فقبل أمية من حمقه وغروره، بالشرطين المذكورين، وجعل الحكم بينهما: الكاهن الخزاعي جد عمرو بن الحقيق الخزاعي^(٢) وكان منزله بـ «عسفان»^(٣).

فخرج أمية ومعه أبوهممة: عمرو بن عبد العزى بن عامرة بن عميرة الفهري^(٤). جد حرب بن أمية لأمه وكان شريف قومه.

وخرج هاشم وحده، حتى أتيا إلى الكاهن الخزاعي.

وما أن جلسا عنده، حتى أخذ يطيل النظر إلى هاشم ويسجع بكلامه ويقول: «والقمر

(١) نافر الرجل: الرجل منافر: حاكمه وخاصمه، وكانت في الأصل بمعنى المباهلة بين المتنافرين في أن أيهما أعز نفراً. ثم استعملت في مطلق المحاكمة والمخاصمة.

(٢) الصحابي المعظم عمرو بن الحقيق ككف بن كاهل (أو كاهن) بن حبيب بن عمرو بن التين الكمي الخزاعي من خلص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، قتله معاوية سنة (٥١ هـ)، وسوف تفصل قصة استشهاد والحدث عنه في بعض الهوامش من بعض فصول الكتاب الآتية.

(٣) عسفان بضم فسكون: منهلة من مناهل الطريق بين الجعفة ومكة، وإلى مكة أقرب.

(٤) هكذا عند النسابة الكلبي في نسب قريش ص ٤٤٣، وابن حزم في جمهرته: ص ١٧٦، وفي رسالة القرظي: أبوهممة: حبيب بن عامر بن عميرة.

الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما امتدى بعلم مسافر: من منجد وغائر. لقد سبق هاشم أمية إلى العائر أول منه وآخر وأبو همهمة بذلك خابر».

فأسقط ما في يد أمية ساعة ثم انفتل من مجلس الكاهن: خاسر الصفقة منكسف النظر، ودفع إلى هاشم: الخمسين ناقة بأوصافها، فأخذها هاشم منه، ونحراها في مكة وأطعم لحمها كل من حضر أيام الموسم.

ثم جلا هاشم: أمية يحكم الشرط الثاني للرهان والمنافرة عن مكة إلى الشام فأقام أمية فيها المدة المفروضة: عشر سنين.

ثم يعلّق المؤرخون على هذه الحادثة بعد عرضها فيقولون: إنها أول عداوة بين قبيلتي: هاشم وأمية^(١).

● المنافرة بين عبد المطلب وأمие

ولقد أزعج قلب أمية رجل الذحل، وشبت به نار الحقد على هاشم وابنه مرة أخرى، فعاد بعد انقضاء جلته الذي فرضه عليه هاشم في منافرة معه من الشام إلى مكة ممثلاً صلفاً ولؤماً وحقدًا، فوجد هاشماً قد مات في غيابه، وخلفه من ولده من لا يقل عنه شأنًا ومقاماً وهو شيبه الحمد وفتى هاشم عبد المطلب.

فظن أمية ولسوء حظه العائر أنه إن كان قد أخفق في منافرة مع الأب، فسينجح فيها مع الابن ليسترد ولو بعض الشيء ما خسره في الصفقة الأولى: من المال والكرامة. فأخذ يفاخر عبد المطلب، ويباريه بكل ما يعمل، ويتظاهر بمميزاتة، وحضر بعد مطاولة ومزاولة دارت بينه وبين عبد المطلب، أن يراهنه ويباهله عبد المطلب على

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٢٥٣ ط دار المعارف بمصر، والنزاع والتخاصم للمقرئ ص ١٢ ط التنبف.

وأشار العلامة الأستاذ السيد صدر الدين شرف الدين رحمته الله في طبعته كتابه (هاشم وأمие) إلى هذه المنافرة. ثم عتبها بالتشكيك في صدقها، من جهات أهمها: عدم قابلية عمر أمية حين المنافرة إذا اعتبرناه: ابن عبد شمس، فعبد شمس مات في العشرين أو بإضافة خمسة إليها، فأقصى ما تنصرونه: إنه ابن عشر سنين. وتلك السن لا تؤهله للرجولة والمنازلة والمطاولة، خصوصاً مع رجل واسع الأفق كهاشم. ونحن نستمتع الأستاذ حفراً في تصديق أصل المنافرة كما عليه كثير من المصادر لتستنجع من وراء ذلك: كونها من المؤبدات للتشكيك في بنية أمية لعبد شمس، وأنه غلامه الكبير المدلل الذي يتناول بحكم عيودته على مقام الأحرار والله العالم.

سياق فرسين لكل منهما فرس، وفرضت هذه المراهنة على المغلوب منهما: مائة ناقة وعشرة عبيد ومثلها من الإماء، مع إجلاء سنة كاملة، وجزّ الناصية.

فتمّ الموعد وانعقد المحضر من عموم قريش وحلفائها، وتبارى الفرسان يطويان الأرض، فتعالى الصياح من الحاضرين، ولم يلبثوا طويلاً حتى رأوا جواد عبد المطلب يطوي المسافة ويقف على مركز الهدف قبل أن يصل إليه فرس مناؤه أمية.

فتمّ الربح لعبد المطلب ورضخ أمية لتلك الشروط الثقيلة عليه، فأخذ عبد المطلب التوقّ ووزعها على قريش، وهكذا فعل بالعبيد والإماء.

وأراد عبد المطلب أن يجرّ ناصية أمية تطبيقاً لكمال الشروط، ولكن أمية اقتدى جرّ ناصيته بأن يستعبده عبد المطلب: عشر سنين، وقبل عبد المطلب ذلك الفداء من أمية لعله يتذكر أو يخشى^(١).

وأشار إلى تلك العبودية المذكورة: أبو طالب «مؤمن قريش» بقوله من أبياته الآتفة الذكر:

قسيماً أبوهم كان عبداً لجدينا بني أمية شهلاء جاش بها البحر
ويقصد بكلمة «أبوهم»: أمية، وبكلمة «جدنا» هاشم بن عبد مناف.

كما أشار إليها بعد ذلك بزمنٍ حفيده الجواد: عبد الله بن جعفر وهو يفاخر يزيد بن معاوية بحضور أبيه في حديث جاء فيه قوله ليزيد: «بأي أبائك تفاخرنى أجرب الذي أجربناه أم بأمية الذي ملكناه، أم بعبد شمس الذي كفلناه».

فقال معاوية: لحرب بن أمية يقال هذا؟ ما كنت أحسب أن أحداً في عصر حرب يزعم أنه أشرف من حرب، فقال عبد الله: بلى أشرف منه من كفا إناؤه عليه وجلله بردائه ..

أما الفقرة الأولى من كلامه، فستفصلها فيما يلي، وأما الفقرة الثالثة فقد مرّ الحديث عنها آنفاً حيث ذكرنا كفالة هاشم لأخيه عبد شمس لقلّة ذات يده. وموضع الشاهد لنا في الفقرة الثانية الصريحة في العبودية المذكورة.

(١) شرح التهج: ج ١٥ ص ٢٣٦ ط جديد. ويختم ابن أبي الحديد هذا الكلام بقوله: «فكان أمية بعد حشم عبد المطلب وعضارطه عشر سنين، والعضارط جمع عضروط وهو الرجل الذي يخدم بطعام بطنه».

وهنا يلتفت معاوية إلى يزيد بعد ما أنهى عبد الله كلامه فيقول له ولعله من باب الحلم والسياسة والاستمالة: «يا بني إياك ومنازعة بني هاشم؟ فإنهم لا يجهلون ما علموا، ولا يجد ميفضهم لهم سباً»^(١).

وحقاً، إذا قيل: إن هذه الحادثة من سلسلة الحوادث التي يأخذ بعضها برقاب بعض، إلى أن وصلت إلى مرحلة النزاع والخلاف بين حسين ويزيد، وإن لم تقف إلى ذلك الحد

● منافرة حرب لعبد المطلب

وتوارث بنو أمية عن أبيهم المضعوف: صلفه، ووقاحته وغروره وتنمره وعامة صفاته الذميمة.

فقد روي: أن حرب بن أمية وريث أبيه في غروره نافر عبد المطلب، شبيهة الحمد، وذوابة المجد، من أجل يهودي كان في جوار عبد المطلب، قُتل وأخذت أمواله في قصة طويلة.

فأدت الخصومة بين الشخصين إلى حضورهما أمام نفيل (بالتصغير) بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب جد عمر بن الخطاب وكان الرجل معروفاً بالكهانة والعراقة والنسب، ومن حكام قريش قبل الإسلام.

فلما بصر بهما الرجل مقبلين عليه أصابته الدهشة، واستغرب أن يتأفر رجل بمنتهى السقوط كحرب بن أمية: رجلاً بمنتهى العظمة كعبد المطلب بن هاشم.

وظلّ يرمقهما ببصره، حتى إذا حضر أمامه، التفت إلى حرب: قائلاً بلفظ السجع والكهانة: «يا أبا عمرو، أتنافر رجلاً هو أطول منك قاماً وأعظم منك هاماً وأوسم منك وسامةً وأقل منك لامةً وأكثر منك ولداً، وأجزل منك صفداً وأطول منك مذوداً»^(٢).

(١) المصدر الآنف: من شرح النهج: ص ٢٣٠.

(٢) مجمع الأمثال للميداني: ج ١ ص ٤٥ ط السعادة بمصر، والمعبر للنسابة البغدادي ص ١٧٣ ط بيروت، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٥٤ ط دار المعارف بمصر، وفيه بعد ذلك: إن حرباً غضب على الحكم وقال له: «إن من انتكاث الزمان أن جعلناك حكماً».

ومعنى «اللامة»: فعل الرجل ما يلام عليه، والصفا بفتح فسكون: المطاء والكرم.

والمذود بكسر فسكون ففتح: أداة الدفاع في المقارعة والحرب.

ثم أخذ الكاهن ينفر حرب بن أمية ويشير إلى عبد المطلب، ويقول:

أبوك معاهر، وأبوه عُفْ
وذاك لفيل عن بلد حرام^(١)

و «معاهر» اسم فاعل: من المعاهرة وهي مزاولة الفجور وعمل المنكر، و «العف» بالفتح كالغفيف: الأبِّي الممتنع عن مقاربة الفجور والمنكر، وأما مدلول عجز البيت فقد مرّ شرحه في الحديث عن موقف عبد المطلب مع «إبرمة» وتهديده إياه فيما دخل عليه بقوله: «إن للبيت رباً يحميه».

● نوارث العداوة بين القبيلتين

لقد ورثت بنو أمية على اختلاف طبقاتهم: العداوة والبغضاء لبني هاشم على اختلاف طبقاتهم أيضاً من آبائهم وأجدادهم: صعوداً إلى عبد شمس، فلم يزالوا كذلك حتى جاء دور سيد البشر وخيرة العرب وفخر قريش وعميد الهاشميين رسول الله محمد ﷺ، فما أن صدع برسالة الإسلام حتى كان بنو أمية في طليعة من انتدب لمنافرته ومنافرة مناصريه، من الهاشميين وغيرهم، وتألّيب كفار قريش وسفهاء الأعراب عليه وعلى مناصريه أيضاً، على طول المسيرة حتى إذا كانت غزوة «بدر الكبرى»، أولى غزوات النبي ﷺ ضدّ كفار قريش ومشركي العرب، إذا ببني أمية في الرعيل الأول من الخارجين لحربه وحرب إسلامه، وما انحسرت الحرب إلا عن قتل جماعة منهم، وهم مشركون وأسر جماعة آخرين، وأظهر الإسلام بعضُهم خوفاً من سقوطه وطمعاً في معطيائه كما سنفصله في الفصول الآتية.

● أبناء أمية الأكبر

ثم إنّنا ذكرنا في أوائل الفصل الأول من الجزء الأول من الكتاب موجز نسب وعقب بني عبد شمس السبعة: أمية الأكبر والأصغر وعبد أمية وحبيب ونوفل وعبد العزى، ورببعة. كما أشرنا هناك إلى أن المتبادر من إطلاق كلمة «الأمويين» أو «بني أمية» هم أبناء «أمية الأكبر» وأحفاده، وأن عامة أولئك على ما يظهر من عرض تواريخهم، كانوا من أشدّ أبناء «عبد شمس» عداوةً وبغضاً ومنافرةً لهاشم بالخصوص، وللهاشميين على

العموم.

وعلى هذا القرار سنقصر الحديث على عرض مناوأة الأمويين من أبناء «أمية الأكبر» بالخصوص وهم: العاصي، وأبو العاصي، وأبو العيص^(١)، وحرب، وعدد يسير من أبنائهم وأحفادهم من الذوات التي عرفها التاريخ بعداوتها وحقدتها على الهاشميين وأشياءهم، وسيكون التركيز في الحديث على «حرب» وأبنائه وأحفاده أكثر لتوغلهم في صلب الموضوع الذي تجذرت الثورة الحسينية من خلاله، ولأن ابنه أبو سفيان رأس الكفر والنفاق، في دوري جاهليته وإسلامه، ولأن حفيده «معاوية بن أبي سفيان» رأس الدولة الأموية، وباني أسسها هو بالذات رأس الحربة التي طعنت الإسلام في الصميم، ومنطلق الردة والضلال والنفاق إلى يوم القيامة.

(١) وأشرنا في طلائع الفصل الأول من الجزء الأول من الكتاب: أنه يقال لهؤلاء الثلاثة وأبنائهم مع أخيهما الرابع: «العيص» الذي لا عقب له: «الأعصا» اشتقاقاً من أسمائهم.

الفصل الثالث

العاصي بن أمية وأبناؤه وأحفاده
كفر العاصي بن أمية، وابنه سعيد، وحفيديه العاصي بن
سعيد وعبيدة بن سعيد، وتوغلهم في الشرك والضلال،
وعداؤهم لمحمد ﷺ وأهل بيته وللإسلام إلى آخر حياتهم
في دوري الجاهلية والإسلام.



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

● كفر العاصي وابنه سعيد وحفيديه

إن العاصي بن أمية، وكذلك ابنه سعيد بن العاصي المكنى بأبي أحيحة، والمعروف بذي العمامة أو العصابة، والد عمرو بن سعيد الأشدق الأنبي ذكره في بعض أجزاء الكتاب كانا من كبراء الجاهلية، ومن طلائع المشركين، ومن أشد الناصبين العداوة والشنآن للنبي محمد ﷺ ولدينه، ومن أبرز المتظاهرين عليه وعلى إسلامه بأيديهما وبألسنتهما حتى ماتا في «مكة» كافرين على ضلال الجاهلية: الأول قبل الهجرة النبوية بنيف من السنين، والثاني: في السنة الأولى أو الثانية للهجرة (١).

● حفيدا العاصي بن أمية

وكذلك كان حفيدا العاصي بن أمية هذا وهما: العاصي بن سعيد أبي أحيحة بن العاصي بن أمية، وأخوه عبيدة بن سعيد، من أشد قريش في الجاهلية والضلالة ومن ألد خصوم النبي ﷺ في الإسلام، ومن طلائع المشركين الخارجين يوم بدر الكبرى، لحرب النبي ﷺ وأصحابه المسلمين، حتى قتل كافرين بسيف علي بن أبي طالب (٢). وقيل: إن العاصي قتل بسيف علي عليه السلام، وعبيدة قتل بسيف غيره (٣).

(١) في سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١ ص ١٨٨ ط دار المعارف بمصر: «مات قبل غزوة بدر مشركاً».

وفي ج ٣ ص ٢٩٤ منه: «قتل يوم بدر مشركاً»، وفي رسالة النزاع والتخاصم للمقرئ: ص ١٣ ط التجف، أثناء عرض تعداد بني أمية المخاصمين لبني هاشم قوله: «و منهم أبو أحيحة بالتصغير سعيد بن العاص بن أمية، حتى هلك على كفره بالله في أول سنة من الهجرة أو في سنة اثنتين منها، وهو يحاذي الله ورسوله».

وفي (أعلام الزركلي باسمه): «هاش إلى ما بعد ظهور الإسلام، ومات على دين الجاهلية». ومثل ذلك في (تهذيب ابن عساکر: ج ٦ ص ١٣١). أما جمهرة الأنساب لابن حزم في ص ٨٠ ط دار المعارف بمصر، وكذلك أمثال الميداني: ج ١ ص ١٢٧ ط مصر، وكذلك غيرهما من كتب التاريخ والنسب، فطلق القول بأن سعيداً أبا أحيحة مات كافراً.

(٢) المصدر الألف: من جمهرة ابن حزم، وسير أعلام النبلاء للذهبي ج ١ ص ١٢٥ ط دار المعارف بمصر.

(٣) في معارف ابن قتيبة ص ١٥٦ - ١٥٧ مطبعة دار الكتب: «وقتل علي بن أبي طالب يومئذ العاص بن سعيد بن العاص،

ولهما أخ ثالث، إسمه «أبان بن سعيد» من تجار «مكة» المثرين، كان في بداية أمره كأخويه شديداً الوطأة على النبي وإسلامه وعلى المسلمين، حتى شهد «بدرًا» مع أخويه، فقتل أخواه على الشرك ونجا هو من القتل، ولم يظهر الإسلام إلا بعد واقعة «خيبر» أو عام الفتح على الأصح وولاه النبي ﷺ تأليفاً له ناحية الخط من بلاد البحرين سنة ٩ أو ١٠ هو قتل بعد ذلك هو وأخوه خالد بن سعيد في وقعة «أجنادين» يوم ١٨ من جمادي الأولى سنة ١٣ للهجرة قبيل وفاة أبي بكر بشهر تقريباً^(١).

وابن العاصي هذا: سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية والد عمر والأشديق

→ وقيل الزبير بن العوام: هبذة بن سعيد بن العاص. وفي (المحبر) للنسابة البغدادي ص ١٧٥ ط بيروت بعنوان (التدما من قريش): «وكان العاص بن سعيد بن العاص بن أمية تديماً للعاص بن هشام بن المغيرة، وكانا يدعيان (أحملي قريش)، قتل علي بن أبي طالب ﷺ العاص بن سعيد، وقتل عمر بن الخطاب العاص بن هشام يوم بدر».

وفي (أعلام الزركلي ج ٤ باسم العاصي بن سعيد: «واختلفوا في قاتله، فقول: قتله سعد ابن أبي وقاص وأخذ سيفه، وقيل عن عمر بن الخطاب: رأيت العاصي يبعث في التراب كأنه ثور، فصدرت عنه، وحمل عليه علي فقتله»، ولعل ما في المعارف هو الأصح، فإن العاصي وعبدة لا يجرأ على قتلهما إلا القرم من شجيمان قريش كعلي والزبير، وراجع في ذلك: سير أعلام النبلاء للذهبي بالمصدر الآنف.

(١) أجنادين بفتح الهمزة والدال، وبصيغة التثنية على الأصح: موضع بين الرملة وبيت جبرين بالفتح، من أرض فلسطين كما عليه عامة المؤرخين. وفي (معجم البلدان للحموي) بمادة أجنادين هكذا: «شهد يوم أجنادين مائة ألف من الروم كان أكثرهم من بعة «هرقل» ملك الروم، والباقي تجمعوا من النواحي، و«هرقل» يومئذ يحمص، قاتلوا المسلمين قتالاً شديداً ثم إن الله هزمهم وفرقهم، وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً، واستشهد من المسلمين طائفة إلى قوله: وانتهى خبر الواقعة إلى «هرقل» فغضب قلبه، وملي رعباً، فهرب من حمص إلى أنطاكية. وكانت الواقعة لا تنتهي عشرة من جمادي الأولى سنة ثلاث عشرة للهجرة قبل وفاة أبي بكر بنحو شهر. فقال في ذلك الشاعر زياد بن حنظلة:

وفنحن نسركتنا أرطجون مطرداً	إلى المسجد الأقصى وفيه حسور
عشية أجنادين لما حثابعوا	وقامت عليهم بالهراء نسور
عطفنا له تحت المعاج بطعنة	لها نشج شائى الشهيق غزير
فطمنا به الروم المريضة بعده	عن الشام أدنى ما هناك شطير
تولت جموع الروم تلجج آثره	تكاد من الذعر الشديد تطير
وفودر صرعى في المعرك كثيره	وعاد إليه الفلّ وهو حسين

وأبنائه السبعة، ولم يكن لأبيه العاصي بن سعيد ابن غيره^(١).

كان يوم قتل أبوه العاصي في بدر طفلاً صغيراً، وله يوم وفاة النبي ﷺ نحو من سنوات عشر، وقد اكتنفه ورباه عمر بن الخطاب، واستعمله أواخر سنه على السواد^(٢) وهو مراهق لم يبلغ العشرين من العمر^(٣)، وأقره عثمان بعد استخلافه، ثم سرعان ما ولاه على الكوفة وهو لم يزل في نزق الشباب وغرور الحياة^(٤) بعد عزله الوليد بن عتبة بن أبي معيط، على أثر اقترافه شرب الخمر، وصلاته بالناس وهو ثمل، صلاة الغداة أكثر من ركعتين، في قصة مشهورة سنشير إليها قريباً.

فاستقبل أهل الكوفة وأشرفهم سعيداً بالكراهية والجفوة، لأنه كان شاباً نزقاً، لا يتخرج من الإثم، ولا يتورع من اقتراف الموبقات، وقد أضرت سياسته الرعناء بعامة أهل الكوفة ضرراً، ما استطاعوا تحمله، فكتبوا إلى عثمان كتاباً، يطلبون فيه عزله عن ولاية الكوفة، ومما جاء في كتابهم: «لا حاجة لنا في وليدك ولا في سعيدك».

وولى مكانه أبا موسى الأشعري^(٥).

ومن شراسة سعيد هذا وتتمره: إنه كان يُسي الصنيع إلى كثر من عليه الصحابة والتابعين، المواليين لأمر المؤمنين ﷺ، فقد روى ابن سعد في (طبقاته): إن سعيداً طلب في فطر شهر رمضان إلى الناس أن يشهد من رأى الهلال، فقام هاشم المرقال^(٦)، وقال:

(١) قال عنه ابن حجر في الإصابة برقم ٣٧٦٤: «وقتل أبو العاص يوم بدر مشركاً ومات جده سعيد بن العاص قبل بدر مشركاً».

(٢) المراد: سواد العراق، وهي القرى والأرياف بين البصرة والكوفة، سميت بذلك لكثرة نخيلها وأشجارها ومزارعها.

(٣) تأمل شدة رعاية خليفة المسلمين بأمرهم وشؤونهم حيث أمر عليهم من هو أقل من عانتهم سناً ورشداً ولعل هذه من نظرائه الصائبة لصلاحتهم من حيث لا يشعرون، «وعلى هذه نفس ما سواها».

(٤) ومع ذلك، فإن عثمان يكتب في حقه إلى أهل الكوفة كتاب تعظيم لعقامه، فيقول في آخره: «وقد وليت عليكم أشرف ما علمت فأحسنوا إليه»، ذكر الكتاب بكامله ابن أئتم الكوفي في (فتوحه: ج ٢ ص ١٦٨) ط حيدر آباد، ولا غرابة في ذلك فإن ثالث الخلفاء ينسج على نول ثائهم في الحنكة في النظرة والمصلحة وبهد النظر في العناية بأمر المسلمين وإدارة شؤونهم من قبل هذا الشاب النزق الشرس.

(٥) سنتحدث عن هذا الشيخ الخرف في خلال الهوامش الآتية من هذا الفصل.

(٦) هاشم بن عتبة بالضم فالتسكين بن أبي وقاص مالك بن أهيب الزهري، فهو ابن أخي سعد بن أبي وقاص، ويسلق

«أنا رأيته».

● ترجمة مالك الاشتر ومقتله بالسهم

فنهزه سعيد قائلاً: «بعينك هذه العوراء رأيته من بين الناس؟» فأجابه هاشم على الفور بقوله: «أتعيرني بعيني، وقد فُتِحت في سبيل الله؟» وكانت عينه قد أصيبت يوم اليرموك في جيش المسلمين، فتسامع الناس بشهادة هاشم بؤية الهلال فأفطر الكثير منهم لإفطاره، فبلغ ذلك سعيداً، فأرسل عليه، فأنبه وضربه ونكّل به، وأحرق داره، فكان ذلك مما أثار سخط الناس على سعيد.

وقال سعيد يوماً على ملاء من الناس: «إنما سوائك الكوفة بستان لقریش، فما نشاء منه أخذنا، وما نشاء تركنا...»، فقام إليه الأشتر النخعي^(١) وجابهه

→ بالمرقال بالكسر لأنه كان يرقل ويُسرع في الحرب.

أدرك النبي ﷺ وصحبه وروى عنه، حيث أسلم يوم الفتح أو قبل ذلك بقليل، وكان من أفاضل الصحابة، ومن أخيارهم. وأبطلهم المشار إليه، نزل بعد الفتح بلاد الشام، وأرسله (عمر) مع جماعة من جند الشام مدداً لعمه سعد بن أبي وقاص في العراق. ثم شهد حرب القادسية، واليرموك. فأصيبت إحدى عينيه فيها، فقليل له: «الأحور» وشهد فتح «جلولاء» وعضى الفتوحات الإسلامية أيام عمر وعثمان، ثم شهد «الجمل» و«صفين» مع أمير المؤمنين عليه السلام. وكان ممن علمه أصحابه والمواهب له، وخاطبه يوماً فقال له فيما قال: «والله يا أمير المؤمنين، ما أحب أن لي ما على الأرض مما أقلت، وما تحت السماء مما أظننت، وإني واليت عدوأك، أو عاديك ولأأك» فدها له علي عليه السلام وقال: «اللهم ارزقه الشهادة في سبيلك، والمرافقة لنبيك».

حضر مع أمير المؤمنين عامة حروبه، وكان صاحب رأيته العظيم في «صفين»، وتولى قيادة الرجالة على مسيرة الجيش فيها، فقاتل قتالاً شديداً مقبلاً غير مدير، حتى استشهد في أخريات أيامها بطعنة الحرث بن المنذر التنوخسي في قلبه، حتى سقط إلى الأرض قتلاً وسقطت رأيته، فخلعها رجل من بكر ابن وائل، فقتل هو الآخر أيضاً بعد ذلك، وذلك في سنة ٣٧ هـ في الأوائل من شهر ربيع الأول. ولما قتل هاشم جزع الناس عليه جزعاً شديداً، وقتلت معه عصابة من (أسلم) من أهل القرى، فمر عليهم علي عليه السلام وهم قتلوا حوله أصحابه الذين قتلوا معه، فأخذ بهم منهم، قائلاً:

جزى الله خيراً عصابة أسلمية صبايح وجوه صُرعوا حول هاشم

إلى آخر أبياته الثلاثة. اقتضاب ما ذكرته عامة المصادر التاريخية والنسبية من الفريقين وعامة من كتب عن الصحابة في الرجال، كالإصابة لابن حجر والاستيعاب لابن عبد البر، وطبقات ابن سعد، ومرآة الجنان للهاشمي، والأعلام للزركلي، والشذرات للحنبلي، وسفينة البحار للقمي، ومستدرک المعرزا النوري، والدرجات الرفيعة للمدني، وغيرها كثير.

(١) بطل الإسلام وسيف الإيمان: أبو إبراهيم: مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن سلمة بن ربيعة .. النخعي، المعروف بالأشتر.

→ بسبب ضربه على رأسه، وسيلان الدم والقيح على عنقه، حتى شترت في واقعة الرمولة والشت: انقلاب جفن العين الأسفل أو استرخاؤه، كان من الأمراء العظام، ومن الشجعان الأجواد ومن العلماء الفصحاء، وعدة النسابة البغدادي (في المعبر: ص ٢٢٣) في عداد طوال الأجسام من الشجعان، ومن إذا ركبوا الفرس الجسام تحفظ لهما ماء الأرض.

وكان من رؤساء قومه في الجاهلية، وبعد الإسلام، فكان ممن أدركه النبي ﷺ فأسلم على يديه، وأحب أهل بيته، وتفانى في ولائه لأمر المؤمنين عليه السلام فكان من أجلاء الصحابة على أصح الأحوال، ومن عليه التابعتين بإجماع المؤرخين، وكان في الطليعة ممن ألّب الناس على عثمان من الصحابة، والتابعين، حتى حاصروه، فقتلوه، حين انتكث عليه قتله، وكبت به بطنته، وأجهز عليه عمله، وكانت له في فتوحات الشام مواقف مشهورة، ومآثر مذكورة، وكان من الشعراء المجيدين المقلين، كما ذكر له الرزياني بعض الأبيات في كتابه معجم الشعراء، وقد أثنى عليه كثير ممن عرفوا قدره من معاصريه، ومن تأخر عن زمانه، وحسبنا من ذلك: أن نذكر بعض ما ورد فيه عن أمير المؤمنين عليه السلام مما يدل على وثاقته وتبات قدمه وصرامة إيمانه، في عدة مواطن من نهج البلاغة ونسروحه من ذلك: كتابه إليه لما أراد استعصامه على مصر، مكن محمد بن أبي بكر، الذي استولاه حليها هو الآخر على أثر عزله؛ قيس بن سعد بن عبادة عنها يقول فيه: «أما بعد، فإنيك ممن أستظهر به على إقامة الدين، وأقمع به نخوة الأئمة، وأشد به الثغر المخوف...».

وكان مالك حينئذ بنصيبين بالفتح، وهي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة بين الموصل والشام وعلى مقربة من حلب فاستقدمه منها، وبعثه إلى مصر، وكتب معه كتاباً إلى أهلها، جاء فيه: «أما بعد، فإني قد بعثت إليكم عبداً من عباد الله، لا ينأى أيام الخوف، ولا يتكل عن الأعداء، حذار الدوائر، من أشد عباد الله بأساً وأكرمهم حسباً، أخضرت على الفجار من حريق النار، وأهدت الناس من دنس أو عار، حسام صارم، لاتباع الضريبة، ولا كليل الحد، حلیم في السلم، رزين في الحرب، ذو رأي أصيل وصبر جميل...» إلى آخر الكتاب، كما في شرح النهج للحدادي: ج ٦ ص ٧٥ ط جديد، قال أرباب التأريخ: فخرج الأشتر بعد أن وصله كتاب علي من نصيبين إلى الكوفة، وتجهأ إلى الخروج إلى مصر، وأخبرت معاوية عيونه بذلك، فعظم الأمر عليه، وكان قد طمع في مصر، وعلم أن الأشتر إن قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر، فبعث إلى المقدم على أهل الخراج بـ «القلزم» بالضم خارج مصر بثلاثة أيام، وأمره أن يقيم بها، حتى يلتقي بالأشتر، ويحتال عليه بما يمد له، وقال له فيما قال: «إن الأشتر قد خرج من العراق إلى مصر، فإن أنت كفيته لم آخذ منك خراجاً ما بقيت وقيت».

فخرج ذلك الرجل من مصر، حتى أتى «القلزم» وأقام به، وخرج الأشتر من العراق متوجهاً إلى مصر مع جماعة حتى إذا انتهى إلى ذلك الموضع، استقبله ذلك الرجل «الدعقان» بالكسر وهو رئيس الإقليم، بحفاوة وعرض عليه النزول عنده، فاستجاب الأشتر لطلبه، فأتاه بطعام، فطعم ثم أتاه بشربة من عسل مسموم فما أن شرهاه الأشتر حتى مات لغوره، فدفنه أصحابه في مكانه، وأقبل الدعقان إلى معاوية فيشره بموت الأشتر، فقام معاوية في أهل الشام خطيباً وقال: «أما بعد، فإني كنت لعلي بن أبي طالب يميناً، قطعت إحداهما يوم صلين يعني: عمار بن ياسر، وقطعت الأخرى اليوم يعني مالك الأشتر».

وبلغ علياً عليه السلام موت مالك، فأخذ يتأسف عليه، ويقول: «للدين وللهم».

بقوله: «يا سعيد أتريد أن تجعل مراكز رماحنا، وما أفاء الله علينا بأسيا فانا بستاناً لك ولقومك؟ والله، لورامه أحد لقرع قرعاً، يُتصاها منه»^(١).

وكان مالك الأشتر مع رعييل من أصحابه المؤمنين في مجلس سعيد، فانضم إليه أولئك نفر، وأيدوا مقاتله بصوت واحد، فكان ذلك الموقف مما أغضب صاحب شرطته عبد الرحمان بن خنيس الأسدي، فرد عليهم بغليظ الكلام.

فقاموا إليه، وضربوه ضرباً مبرحاً حتى أغمى عليه، فهرب سعيد من بينهم حتى دخل منزله، وأنطلقوا في أزقة الكوفة، وهم يشتمون «عثمان» ويستعرضون سيئاته وجرائم بني أمية على العموم، ويلعنون الساعة التي فرضت عليهم إمرة هذا الأموي الشديد الجافي.

عثمان يعزل سعيداً عن الكوفة ويجعله من بطانته في المدينة

فكتب سعيدٌ على الفور إلى عثمان، يخبره بخبر هؤلاء المعارضين، فيجيبه عثمان بكتاب، يأمره فيه: أن يُسيرهم إلى الشام، وفي نفس الوقت يكتب إلى معاوية: أن يستصلحهم أو ينكل بهم، ويغلظ لهم الصنيع، وفعلاً، امتثل سعيد ما أمره عثمان في شأن هؤلاء الأبرار الأخيار: مالك الأشتر، وأصحابه الذين وثبوا معه، وأيدوا موقفه الصارم، أمثال: زيد، وصعصة ابني صوحان، وكميل بن زياد، وعمرو بن الحمق والحارث الهمداني، فأخرجهم من وطنهم «الكوفة» بالعنف والقسوة، وسيرهم إلى الشام، فتلقاهم معاوية باللقاء الجاف، فأنزلهم في «كنيسة مريم» وجعل يناظرهم كل يوم ليستصلحهم بما يشاء ويهوى، ولكنه: عبثاً حاول، فقد كانت حجتهم في النقد دامغة، ودارت بينهم وبين معاوية مشادات، ولما يئس من إقناعهم غالظهم في الكلام ثم حبسهم أياماً، وكتب إلى عثمان، يستعفيه من إقائهم عنده، خشية أن يفسدوا عليه الشام كما أفسدوا

→ ثم أخذ يندبهم، ويقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين، مالك وما مالك؟ وهل موجود مثل مالك، لو كان من حديد لكان قيداً، أو من حجر لكان صلداً، على مثله فلتيك البواكي»، ثم قال: «اللهم، إني أحسبه عندك، فإن موته من مصائب الدهر»، عن تاريخ الطبري، كامل ابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير ضمن حوادث سنة ٣٨ هـ وكذلك في شرح النهج للحدادي: ج ٦ ص ٧٦ - ٧٧ ط جديد.

(١) تصاصاً يتصاصاً من الشيء الثلاثي: خاف منه، وذلل له، وقضاه أمامه.

الكوفة على سعيد.

فأعفاء عثمان، وأمره بإرجاعهم إلى الكوفة، فعادوا إلى الكوفة غير متراجعين عما كانوا عليه: من مواجهة سياسة عثمان، وسياسة عميليه في الكوفة والشام^(١). ثم إن سعيداً عاود الكتابة إلى عثمان يطلب منه إصدار أمره: بإبعاد القوم عن الكوفة ثانية، فأمره عثمان هذه المرة بإعادهم إلى حمص والجزيرة - حران والرقعة - فتفاهم سعيد إلى «حمص»، فنزلوا الساحل، فقابلهم عبد الرحمان بن خالد بن الوليد عامل معاوية هناك بعنف اللقاء، وشدة المواجهة، وأخذ يسومهم سوء العذاب، فكان يركب ويأمرهم أن يمشوا على أرجلهم خلفه ليظهر للعامة هوانهم ويغري الناس بانتقاصهم. فطاموا أمام ذلك العذاب الأليم، ورضخوا للطاعة، وحسن السلوك، فكتب بدوره إلى عثمان في حقهم، يسترضيه فيهم ويسأله العفو عنهم؟ فأجابه عثمان إلى ذلك، فردّهم عيد الرحمان إلى الكوفة.

وبعد استمرار هذه الحوادث القاسية طيلة أكثر من سنوات خمس، رفع هؤلاء القوم وهم من عليّة أهل الكوفة إلى عثمان: عدة مذكرات في عزل سعيد عن الكوفة المنسوب بعد الوليد جاء في بعضها عبارة «لا خير لنا في وليدك، ولا في سعيدك»، ولما رأوا عدم جدوى تلك المذكرات، خرجوا بأنفسهم إلى المدينة، فقابلوا «عثمان» وجهاً لوجه، وأوقفوه على تصرفات سعيد، وشدته في ولايته خصوصاً: على أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، فلم يعرهم عثمان أذنأ صاغية، بل بالعكس أصرّ على استمرار سعيد على ولايته، وكان سعيد حينئذ قد خرج من الكوفة إلى عثمان، فصادف القوم خارجين منه وهم يشكونه إليه، ويطلبون عزله فقفّل القوم راجعين إلى الكوفة وقد أقسموا أن لا

(١) في كتاب فتوح ابن أعمى الكوفي: ج ٢ ص ١٦٩ - ١٧٨ تفصيل قصة مالك وأصحابه مع سعيد وتسيرهم من الكوفة إلى الشام وإرجاعهم إلى الكوفة، وكذلك تاريخ الطبري: ج ٤ ص ٣١٨ - ٣٢٦ ط دار المعارف بمصر، ضمن حوادث سنة ٣٢ هـ وكامل ابن الأثير: ج ٣ ص ٦٩ - ٧٢ ط بيروت، ضمن حوادث تلك السنة أيضاً، والبداهة والنهاية لابن كثير: ج ٧ ص ١٦٥ - ١٦٦ ط بيروت، ضمن تلك الحوادث أيضاً، وكذلك تاريخ أبي الفداء، وابن خلدون وغيرهما، ضمن تلك الحوادث المذكورة، وكذلك يذكره ابن حجر في الإصابة، وابن عبد البر في الاستيعاب، وذاقرة المعارف الإسلامية، وأعلام الزركلي، والميد محمد تقي الحكيم في كتاب خاص بعياته.

يدعوا سعيداً يدخلها، وفعلواً كان الذي صمموا عليه، فقد وصلوا إلى الكوفة قبله، واحتلوا المصر مجردين الصوارم بقيادة الأشتر، حتى إذا بلغوا «الجرعة» خارج الكوفة فانتظروا سعيداً حتى إذا أقبل نحو الكوفة، صدّوه عن دخولها، وأجبروا عثمان عملياً على عزله، فرضخ عثمان للأمر الواقع، فعزل سعيداً عن الكوفة، واستدعاه إلى المدينة، وجعله من بطانته وجلساء بلاطه الأموي، وأقام مكانه على الكوفة برهة من الزمن الشيخ الخرف أبا موسى الأشعري^(١).

فأقام سعيداً في المدينة، محسوباً من بطانته المقربين من بني أمية، وأحلافهم إلى أن اندلعت الثورة على عثمان، يوم الدار، فأجهد سعيد في الدفاع عن ابن عمه حتى إذا قتل «عثمان» خرج سعيد من المدينة، غاضباً لابن عمه، فأقام في مكة إلى أن قتل علي عليه السلام وسيطر معاوية على دست الخلافة في الشام، عهد إليه بولاية المدينة بعد عزله: مروان بن الحكم عنها، وجعل معاوية بعد ذلك يراوح بينه وبين مروان في ولاية المدينة. حتى كان آخر عزله عنها وتولية مروان عليها سنة ٥٧ هـ وظل سعيد كذلك معزولاً عن الحكم

(١) عبد الله بن قيس بن سليم بن حصار بن حرب بن عامر، المشهور بالأشعري من بني الأشعر التتبطاني وقد اشتهر بكنيته بأكر أولاده وينسبه المشهورة.

ولد في إحدى نواحي اليمن قبل الهجرة بنيف وعشرين عاماً، وكان قد سكن «الرملة» بعد ذلك وحالف سعيد بن العاصي في الجاهلية، ثم أسلم بعد ظهور الإسلام وقدم «مكة»، ثم رجع إلى أرض قومه «زبد وعدن» في اليمن، والبأ على تلك النواحي من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم استعمله عمر بن الخطاب على البصرة سنة ١٧ هـ على أثر عزله عنها: المغيرة بن شعبة، وأقره عثمان بن عفان في بداية خلافته ثم عزله عنها، وولى عليها بدله: عبد الله بن عامر، فانتقل أبو موسى إلى الكوفة، ثم طلب أهلها من عثمان أن يوليها، وبذل سعيد بن العاصي، فرضخ لطلبهم، وبعد مقتل عثمان أقره علي عليه السلام على الكوفة برهة ثم عزله عنها، وولى مكانه: قرقلة بن كعب الأنصاري، حيث لمس منه انحرافاً عن الحق بتخذيذه الناس عن نصرة أمير المؤمنين عليه السلام واللحاق به جيشه يوم الجمل.

فأقام بعد عزله في الكوفة، إلى أن كانت مهزلة التحكيم المزوق بعد واقعة صفين، فكان أحد الحكّمين فيها، مفروضاً على أمير المؤمنين عليه السلام، حتى بدأ، فخلع عليه، ومعاوية لاختار المسلمون من يشاؤون على طريقة الشورى وتبى الحكم الثاني من جانب معاوية: المراءوغ المناقف عمرو بن العاص، فثبت صاحبه والقصة معروفة فارتد أبو موسى إلى الكوفة، ملاماً على لسان التاريخ. ولسان أمير المؤمنين عليه السلام إلى أن توفي فيها سنة ٤٤ هـ على الأصح عن نيف وستين عاماً. وكان أبو موسى خفيف الجسم، قصيراً تظاً أي لا لحم له كما يصفه ابن قتيبة في المعارف ص ٢٦٦، ط دار الكتب في مصر.

إلى أن مات في قصره عن المدينة بثلاثة أيام بعد هذا التاريخ بأشهر. وقيل سنة ٥٩ هـ^(١). ثم إن لسعيد هذا عدة أبناء، منهم الفاتك الجبار: عمرو بن سعيد بن العاصي ابن سعيد بن العاصي بن أمية، الملقب بالأنشدق، لا عوجاج فمه من الجانب الآخر، وقد أصيب بذلك، لإغراقه في شتم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، أيام ولايته على مكة والمدينة في أخريات خلافة معاوية وأوليات استخلاف يزيد^(٢).

ولد قبل الهجرة بثلاث سنين وكان من عتاة بني أمية وطغاتهم، ومن ألد أعداء بني هاشم.

ومن مظاهر عدائه وحقده: ما أظهره من الشماتة والفرح بقتل الحسين بن علي عليه السلام حينما بلغه ذلك كما سنذكر، ومن ذلك: أنه أمر صاحب شرطته، وهو يومئذ عمرو بن الزبير بن العوام، بعد قتل الحسين عليه السلام بهدم دور بني هاشم في مكة، ففعل ابن الزبير ما أمره به ابن سعيد، وبلغ منهم كل ميلغ^(٣).

ولي الحرمين: مكة والمدينة لمعاوية، وأقره يزيد بعد موت أبيه على ولاية مكة، ثم عزله عنها، واستقدمه إلى دمشق فكان من ندمائه وستار بلاطه الأموي.

وبعد وفاة يزيد سنة ٦٤ هـ بايع مروان بن الحكم فجعل له مروان: ولاية العهد من بعد ابنه عبد الملك، وبعد وفاة مروان، واستخلاف ابنه عبد الملك سنة ٦٥ هـ استخلفه على دمشق، لما سار ليملك العراق، فتمرد وتوثب عمرو وبغيا ب عبد الملك عن دمشق، فبايعه عامة أهلها، فلما رجع عبد الملك من العراق، بعد توطنها له، وقتل مصعب بن الزبير، إلى دمشق، حاصر عمرواً، ثم أعطاه الأمان، ثم غدر به فقتله، وذلك في سنة ٧٠ هـ في

(١) باقتضاب من الإصابة لابن حجر برقم «٣٢٦١»، والاستيعاب لابن عبد البر بترجمته من حرف السين، وجمهرة ابن حزم: ص ٨١ ط دار المعارف بمصر، وسير أعلام النبلاء للذهبي: ج ٣ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ ط دار المعارف بمصر، وطبقات ابن سعد: ج ٥ ص ٢١ ط مصر، وانبساب البلاذري: ج ٥ ص ٣٩ - ٤٣ ط بيروت، وتاريخ ابن عساكر، وتاريخ أبي الفدا وعامة كتب التاريخ والسير، ضمن هذه العقبة من التاريخ، والمعارف لابن قتيبة.

(٢) ذكر ذلك العزباني في معجم الشعراء: ص ٥١ ط دار إحياء الكتب العربية بمصر، رواية عن المدائني.

(٣) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني: ج ٤ ص ١٥٥ ط الساسي.

حديث مفصل^(١).

ولنا بعد هذا عودة لترجمته، وترجمة أبيه في بعض الفصول الآتية من الكتاب ونقف عند هذا العرض المتسلسل من ذكر العنصر الأول لبني أمية «العاصي بن أمية» وبعض أبنائه وأحفاده: أعداء الإسلام ونبي الإسلام محمد ﷺ وخصوص دعاة الميامين من أهل بيته البررة من آل طه وياسين ﷺ.

لنتقل العرض بعد ذلك بإيجاز إلى العنصر الثاني لبني أمية، وبعض أبنائه وأحفاده دعاة الجاهلية وخصوم الإسلام، ألا هو «أبو العاصي بن أمية».

فإلى الفصل الرابع من هذا الجزء:

(١) سمر أعلام النبلاء للذهبي: ج ٣ ص ٢٩٧ ط دار المعارف بمصر. والإصابة لابن حجر. والاستيعاب لابن عبد البر بترجمته ضمن حرف العين، وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ص ٩ ط الهند، وأعلام الزركلي ضمن ترجمته من حرف العين.

الفصل الرابع

عرض مفصل عن (أبي العاصي بن أمية) وعن أبنائه
الثلثة: المغيرة والحكم وعقّان، ومواقفهم العدائية
للنبي ﷺ وإسلامه وعموم أهل بيته ﺍﻟﻤﺴﺎﻟﻤﺔ والمناحية
للأعراف العربية والاجتماعية.



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

● أبو العاصي بن أمية وأبنائه

من أبنائه: المغيرة، والحكم بالتحريك وأمهما: رقية بنت الحارث بن كعب بن عُبيد بن عمر بن مخزوم كما في جمهرة ابن حزم، وعفان بالتشديد وعثمان وعوف وعفيف وأهمهم أمّنة بنت عبد العزيز بن حريثان بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب، وليس لهؤلاء عقب متسلسل إلا من «عفان» كما في الجمهرة أيضاً.

أما المغيرة هذا فمن أبنائه: معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية طريد رسول الله ﷺ، وهو الذي جدّع أنف حمزة بن عبد المطلب يوم أحد، وهو قتيل بدفع من هند أخت معاوية بن أبي سفيان، ومثّل به أشنع تمثيل، فهدر النبي ﷺ دمه.

فأنهزم متلذداً على وجهه، فبات قريباً من المدينة، فلما أصبح دخل المدينة، فأتى منزل «عثمان بن عفان» ابن عمّه، وكان هو الآخر عند رسول الله ﷺ.

فخرجت إليه زوجته، فقال لها: ابعثي إليه؟ فبعثت إليه، فلما جاء وأخبره الخبر قال له: أهلكتنى ونفسك، ما جاء بك؟ قال معاوية: يا بن عم، لم يكن أحداً أقرب إليّ، ولا أمتس رَحماً بي منك، فجئتُك لتجيرني؟

فأدخله عثمان داره، وصيّره في ناحية منها، وأجاره، ثم خرج إلى النبي ﷺ يطلب له أماناً، فسمع رسول الله ﷺ يقول: «إن معاوية في المدينة، وقد أصبح بها، فاطلبوه»، فسكت عثمان، ولم يطلب الأمان، فطلبه القوم، وفتشوا عنه، فإذا هو في دار عثمان، فاستخرجوه من تحت «حماره» لهم^(١)، فانطلقوا به إلى النبي ﷺ.

فلما رآه عثمان، قال له: والذي بعثك بالحق نبياً، ما جئتُ إلا لأطلبَ له الأمان، فهبه لي؟ فوهبه له، وأجلّه ثلاثاً وأقسم، لئن وجده بعدها يمشي في المدينة، وحواليها،

(١) من معاني العمارة بالكسر: الأمان والصخرة العظيمة، وخشية اليهود.

ليقتلنه.

فأمره عثمان بالارتحال عن المدينة، فخرج معاوية في اليوم الرابع إلى شوارع المدينة، يتسقط أخبار النبي ﷺ ويفشي بها إلى قريش، والمشركون.

فعلم النبي ﷺ به، فقال: «إن معاوية أصبح قريباً لم ينفذ فاطموبه» فلحقه الطلب، فأدركه زيد بن حارثة، وعمار بن ياسر ب «الجماء»^(١) فضرباه بالسيف، ورمياه بالسهم فقتلاه، وقيل: بل الذي لحقه، وقتله علي بن أبي طالب عليه السلام^(٢).

ومعاوية هذا: أبو عائشة أم عبد الملك بن مروان، فعبد الملك على هذا عريق الكفر والضلال والعداء لبني هاشم من أبويه^(٣).

وأما الحكم بن أبي العاص، عمّ عثمان، ووالد مروان رأس الدولة مروانية وطريد رسول الله ﷺ.

فكان من ألد أعداء النبي ﷺ، ومن المحاربين للإسلام ولنبي الإسلام، حتى بعد إظهاره كلمتي الشهادة يوم الفتح أو بعده بلسانه، وقلبه منطوٍ على الكفر والضلال، وسكن المدينة فكان يفشي بأسرار النبي ودعوته إلى المشركون.

وكان يحرض الناس على إيذاء النبي ﷺ ويصرفهم عنه، وعن اعتناق دينه. وكان جاراً له في الجاهلية بمكة، ومن أشد كالمشركين إيذاءً له، وعداوةً له ولدينه. وكان يمنع الناس عن الاعتراف بدينه^(٤).

فهذا ابن كثير يروي لنا في قصة إسلام حُوَيْطِب العامري^(٥) فيقول: «إنه قدم المدينة من

(١) الجماء بالفتح والتشديد والمد: موضع على ثلاثة أميال عن المدينة من جهة مكة.

(٢) شرح النهج للحديدي: ج ١٥ ص ٤٦ - ٤٧ و ٥٤، و ١٩٩ ط دار إحياء الكتب العربية، وأشار إلى ذلك: ابن حزم الأندلسي في جمهرة أنسابه: ص ٨٣ ط دار المعارف بمصر.

(٣) رسالة النزاع والتخاصم للمقرئزي: ص ٨ ط النجف، باقتضاب.

(٤) سيرة ابن هشام: ج ٢ ص ٢٥ ط مصر.

(٥) الصحابي حوَيْطِب بالتصغير بن عبد المزي بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل العامري القرشي. أسلم عام الفتح ولهذا جعله عمر أيام خلافته في النفر الذين جددوا أنصاب الحرم، وكان قد شهد «بدر» مع المشركون، ورأى

مكة بعد إسلامه عام الفتح فزلزلها، وله فيها دار، وبقي في المدينة، حتى إذا قدم عليها مروان بن الحكم، والياً من قبل معاوية سنة ٥٤ هـ فجاهه حويطب ومعه جماعة من الصحابة فسأله مروان عن مقدار عمره؟ فأخبره حويطب عما سأل؟

فقال له مروان: تأخر إسلامك - أيها الشيخ - حتى سبقك الأحداث، فقال له حويطب: والله، لقد هممت بالإسلام غير مرة، كل ذلك يعوقني أبوك، تضع شرفك، وتدع دين آبائك لدين محدث، وتصير تابعاً.

فأسكت مروان، وندم على ما كان قال له^(١).

وكان الحكم بعد إظهار إسلامه عاراً في الإسلام، كما كان كذلك في الجاهلية. فقد كان يعيب النبي ﷺ ويسخر به، ويحاكي مشيته ويتميل ويتفكك فيها، حكاية له، وجلباً للسخرية المشركين به، وكان يختلج بأنفه، ويدلع لسانه بتهكم، ويحرك شفثيه وفكيه في كلامه، ويغمز بعينيه، وحاجبيه، ويتهافت عليه، وإذا قام النبي ﷺ إلى الصلاة، أشار بأصابعه، وحركها من خلفه، ليضحك المشركين ويجلب السخرية على النبي ﷺ وعلى المؤمنين الذين يصلون معه.

فالتفت النبي ﷺ مرة إليه وهو يفعل ذلك من خلفه، فقال له: كن كذلك؟ فظل يختلج بأنفه وفمه وأصابعه ويرتعش: بقية عمره إلى أن هلك^(٢).

→ الملائكة يؤمنون بين السماء والأرض تعرف لنصر النبي ﷺ والمسلمين، ثم أسلم بعد ذلك عام الفتح وشهد الحديبية ومن سعى في الصلح، فلما كانت عمرة القضاء كان هو وشهيل من الذين أشاروا على النبي ﷺ بالخروج من مكة، فأخذ النبي ﷺ بمشورته، وأمر بلالاً أن ينادي: بالخروج من مكة قبل غروب الشمس. وكان يومئذ في بداية ظهور الإسلام بمكة أن يسلم، فيمنعه الحكم ويعوقه عن ذلك كما ذكر، وكان من أهل مكة، فانتقل إلى المدينة ومات بها سنة ٥٤ هـ عن شيوخه وهرم من العمر.

(١) البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي: ج ٨ ص ٦٩ ط بيروت، وفي آخر القصة المفضلة، يقول ابن كثير نقلاً عن الواقي: «عاش حويطب في الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام ستين سنة، ومات حويطب في هذه السنة أي ٥٤ هـ في المدينة، وله مئة وعشرون سنة».

ويقول ابن حزم في (جمهوره) أنسابه آخر ص ١٦٨: «ومات حويطب في آخر زمن معاوية وله عترون ومائة سنة».

(٢) رسالة المقرئ في النزاع والتخاصم: ص ١٤ ط النجف، وأنساب الأشراف للبلاذري: ج ٥ ص ٢٧ ط بيروت، وشرح

فكان عبد الرحمان بن حسان بن ثابت الأنصاري^(١) يعير ابنه: عبد الرحمان بن الحكم^(٢) ويهجو به بذلك، فيقول:

إِنَّ اللّٰعِينَ أَبُوكَ فَارَمَ عَظَامَهُ إِنَّ تَرَمَ تَرَمَ مَطْلَجًا مَجْنُونًا
بِمَشْيِ خُمَيْصِ الْبَطْنِ مِنْ عَمَلِ التَّلَاقِ وَيُظَالُ مِنْ عَمَلِ الْخَبِيثِ بَطِينًا^(٣)
ولقد لعنه رسول الله ﷺ في عدة مواطن:

→ النهج للحديدي: ج ٤ ص ٧١ و ج ٦ ص ١٥٠ ط جديد، والإصابة لابن حجر، حرف الحاء من القسم الأول.

وفي غريب الحديث لابن الأثير الجزري: ج ١ ص ٣٤٥ ط القاهرة بمادة خلع: نقلًا عن عبد الرحمان بن أبي بكر: «لبن الحكم بن أبي العاص بن أمة أبا مروان، كان يجلس خلف النبي ﷺ فإذا تكلم اختلج بروجه، فرآه النبي ﷺ فقال له: كن كذلك؟ فلم يزل يختلج حتى مات أي كان يحرك شفتيه وذقنه، استهزاء وحكاية لفعل النبي ﷺ، فبقي يرتعد ويضطرب إلى أن مات».

(١) أبو سعيد: عبد الرحمان بن حسان بن ثابت الأنصاري الموزجي، شاعرًا بن شاعر وأبو شاعر، وقد ترجمنا لأبيه حسان في أخريات الجزء الأول من الكتاب.

وأمة: سيرين القبطية أخت مارية القبطية أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ، زوجها النبي ﷺ لحسان، جبراً لخطره على أثر حادثة بينه وبين صفوان بن المطلب، ذكرها الذهبي في كتابه (سير أعلام النبلاء: ضمن ترجمة صفوان).

ولد عبد الرحمان في زمن النبي ﷺ سنة ٦٦ هـ فهو معدود من صفاء الصحابة، ومن كبار التابعين، وكان من الشعراء المجيدين المقلين في الشعر. وقد عرف بقوله الشعر في زمن أبيه حسان، وذكروا لأبيه حسان أو لغيره من شعراء عصره هذا البيت:

فمن للقواهي بعد حسان وابنه ومن للمعاني بعد زيد بن ثابت

وفي كتاب القدير للأمني: ج ٣ ص ٦٢ ط ثانية ضمن ترجمة حسان: رواية عن المرزباني في معجم الشعراء قوله: «قال دعبل والميرد: أعرق الناس كانوا في الشعر آل حسان، فمنهم يعدون ستة في نسق، كلهم شاعر، سعيد بن عبد الرحمان بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام...». توفي عبد الرحمان بالمدينة وكان مقيمًا فيها سنة ١٠٤ هـ عن نف وتسمين من العمر، وإن اختلفوا في تحديد سنة وفاته عن تهذيب التهذيب، والإصابة، وأعلام الزركلي، والقدير للأمني، وأعيان الأميين، ومعجم الشعراء للمرزباني، ومعجم الأدباء للحموي.

(٢) هو أحد أبناء الحكم الكاهن، ولعله من أكثرهم تعاطفًا مع بني هاشم، وقد ذكره الإمام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ﷺ في عداد الشيعة في أوائل كتابه المشهور: «أصل الشيعة وأصولها»، وهو أو أخوه يحيى على الخلاف صاحب الموقف المشرق والشعر الولاقي في وجه يزيد بن معاوية حينما جعل ينكت شفتي الحسين بن علي عليه السلام بالموود، وهو يتننى وينشد أبيات ابن الزبير كما سنذكر ذلك في بعض فصول الكتاب الآتية.

(٣) الإستيعاب لابن عبد البر يهاشم الإصابة لابن حجر: ج ١ ص ٣١٨ ضمن حرف الحاء، وشرح النهج للحديدي: ج ٦ ص ١٥٠ ط جديد، وأسد الغابة: ج ٢ ص ٣٤.

□ منها أنه استأذن في الدخول عليه، فعرف النبي ﷺ صوته، فقال: «إءذنوا له؟ لعنة الله عليه، وعلى من يخرج من صلبه - إلا المؤمنين - وقليل ما هم. ذروا مكر وخديعة، يُعطون الدنيا، ومالهم في الآخرة من خلق»^(١).

□ ومنها ما رواه عبد الله بن عمر: «إن علياً عليه السلام دخل على النبي ﷺ يوماً فجعل يسأره، إذ رفع النبي ﷺ رأسه، فإذا الحكم على الباب، يسترق السر، فقال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: اذهب، فقد هلك كما تقاد النشاة إلى حالبها؟، فقاده علي عليه السلام: آخذاً بأذنه، حتى أوقفه بين يدي النبي ﷺ فلعنه النبي ثلاثاً ثم قال لعلي: أحله ناحية؟ حتى راح إليه قوم من المهاجرين والأنصار، ثم دعا به ثانية فلعنه ثم قال: «إن هذا سيخالف كتاب الله، وسنة نبيه، وستخرج من صلبه فتنة، يبلغ بخانها السماء». فقال ناس من القوم: هو أقل وأذل من أن يكون هذا منه، قال النبي ﷺ: «بلى وبعضكم يومئذ شيعته»^(٢).

ومنها حديث نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: «كنا مع النبي ﷺ، فمر الحكم بن أبي العاصي، فقال النبي ﷺ: ويل لأمتي مما في صلب هذا»^(٣).

□ ومنها ما رواه ابن عساكر عن عبد الله بن الزبير: أنه قال: وهو على المنبر وفي لفظ: وهو يطوف بالكعبة: «ورب هذا البيت، أو هذه البنية: إن الحكم بن أبي العاص وولده ملعونون على لسان النبي محمد ﷺ»^(٤).

□ ومنها ما أخرجه ابن مردويه عن عائشة: أنها قالت لمروان يوماً: «سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدك أبي العاص بن أمية: إنكم الشجرة الملعونة في القرآن»^(٥).

(١) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٣٣٧ ط مصر، وذكره الدميري في حياة الحيوان ج ٢ ص ٢٦٩، وابن حجر في الصواعق ص ١٠٨، والسيوطي في جمع الجوامع ج ٦ ص ٩٠ تقرأ عن أبي يعلى والطبراني والحاكم والبيهقي وابن عساكر، والخلاف بالفتح: الصيب الوافر من الغمر.

(٢) المقرئ في رسالة التخاصم: ص ١٤، وإصابة ابن حجر بترجمته ضمن حرف الحاء.

(٣) كنز العمال للمنتقى: ج ٦ ص ٩٠، وسر أعلام النبلاء للذهبي: ج ٢ ص ٨٠.

(٤) الدر المنثور للسيوطي: ج ٤ ص ١٩١، والسيرة الحلبية: ج ١ ص ٣٣٧، وسيرة زيني دحلان بهامش السيرة. وفي الاستيعاب بهامش الإصابة باسم الحكم: «فأما قول عبد الرحمن «إن اللعين أبوك...» فروي عن عائشة من طرق ذكرها ابن

وكان الحكم جارا لرسول الله ﷺ فأطلَّ يوماً على دار النبي ﷺ وهو جالس في حجرة مع بعض نسائه، فأخذ الحكم يسترق السمع والبصر، ليفشي ما يسمع وما يرى من أسرار النبي ﷺ إلى المشركين، فرآه النبي ﷺ فخرج إليه ويده عنزة^(١) يركض خلفه، وهو يقول: من عذيري من هذه الوزغة، لو أدركته لفقأت عينه؟، ثم قال: لا يساكنني هذا في المدينة؟ ولعنه وما ولد، وجلاه، وطرده عن المدينة إلى الطائف، ومعه ولده مروان، فلم يزل الحكم وأولاده في الطائف إلى أن استخلف عثمان، فكتب إليه، وردّه إلى المدينة هو وأولاده فكانت تلك المبادرة من عثمان مما تقم عليه المسلمون^(٢). فقدم الحكم هو وأولاده من الطائف إلى المدينة، وكان عليه وعلى أولاده ثياب رثة خلقة، يقول الراوي: وهو يسوق تيساً حتى جاء ودخل دار عثمان، والناس ينظرون إلى رثة ثيابه، وسوء حاله، وحال من معه، ثم خرج من دار عثمان، وعليه جبة خرة، وعليلسان^(٣). وأوصله عثمان بمئة ألف درهم^(٤).

وروى البلاذري في أنسابه عن ابن عباس: أن عثمان ولي الحكم بن أبي العاصي بعد أن استقدمه المدينة صدقات «قضاة» (حي من اليمن) فبلغت ثلاثمائة ألف درهم، فوهبها له، حين أتاه بها^(٥).

ثم أن الحكم حينما مات سنة «٣١ أو ٣٢ هـ» في أخريات أعوام عثمان ضرب على

→ أبي خيثمة وغيره: إنها قالت لمروان إذ قال في أخيه عبد الرحمن ما قال: «أما أنت يا مروان، فأشهد أن رسول الله ﷺ لمن أبالك وأنت في صلبه».

وتفسير الشوكاني: ج ٣ ص ٢٣١. وتفسير الأوسى: ج ١٥ ص ١٠٧ وغيرها من عامة كتب التفسير.

(١) العزة بالتحريك، شبيهة العكازة لها زوج من أسفلها.

(٢) أنساب البلاذري: ج ٥ ص ٢٧، والإصابة لابن حجر، والاستيعاب لابن عبد البر بترجمته ضمن حرف الحاء، وأسد الغابة

للجزري: ج ٢ ص ٣٤، والسيرة الحليمية: ج ١ ص ٣٣٧.

(٣) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٤ ط التجف وفي نفس الصفحة قبل هذا يقول اليعقوبي: «وكتب عثمان إلى الحكم بن أبي العاصي أن يقدم عليه، وكان طريد رسول الله، وكان عثمان لما ولي أبو بكر اجتمع هو ولقوم من بني أمية إلى أبي بكر فسألوه في الحكم فلم يأذن له، فلما ولي عمر فعلوا ذلك فلم يأذن له، فأفكر الناس إذن عثمان له».

(٤) المعارف لابن قتيبة: ص ١٩٤ ط دار الكتب، وسر أعلام النبلاء للذهبي ج ٢ ص ٧٩.

(٥) أنساب الأشراف للبلاذري: ج ٥ ص ٢٨ ط بيروت.

قبره فسطاطاً في يوم صائف، وأظهر الحزن عليه بين الناس، فكانت تلك الفعلة من عثمان مما أثارت السخط عليه^(١).

وخلف الحكم هذا من البنين: عشرين أو واحداً وعشرين كما في معارف ابن قتيبة ص ٣٥٣ ط دار الكتب، ورث عايتهم: خبث الطباع، وعنف العداء للإسلام والمسلمين، ولبنى هاشم وشيعتهم، وكان أشدهم وطأة وأعنفهم حقداً في ذلك: الوزغ ابن الوزغ:

● مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية

وأمه: آمنه بنت علقمة بن صفوان الكناني، ولد في السنة الثانية للهجرة، تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم ج ٢ ص ١٣٨، وهو أول من ملك من بني الحكم بن أبي العاص، وإليه ينسب بنو مروان ودولتهم «المروانية»، ولد في مكة، ونشأ في الطائف وسكن المدينة، أعلام الزركلي باسمه.

قد لعنه رسول الله ﷺ وهو في صلب أبيه كما خاطبه بذلك: الإمام الحسن ابن علي عليه السلام في مجلس جمعه وإياه في حديث مفصل^(٢).

وكذلك لعنه رسول الله ﷺ حين ولادته بعد الهجرة بستين، كما في معارف ابن قتيبة ص ٣٥٣ وقد أدخل عليه فقال ﷺ برواية عبد الرحمان بن عوف: «هو الوزغ ابن الوزغ، الملعون ابن الملعون»^(٣)، وكان من ألد أعداء أمير المؤمنين ولديه الحسن والحسين عليه السلام كما كان أبوه الحكم من ألد أعداء رسول الله ﷺ. وحينما تخلف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بعد مقتل عثمان، وبايعه عامة الناس بمن فيهم مروان، ولكنه نكث عن البيعة، وخرج على الإمام عليه السلام مع من خرج عليه «بقيادة عائشة» يوم الجمل، والحديث مفصل في كتب السير والتاريخ.

وبعد انتهاء الحرب بنصر أمير المؤمنين عليه السلام وقتل الكثير من الخارجيين، وأسر آخرين

(١) المصدر الآف من أنساب البلاذري، والإصابة لابن حجر ترجمته برقم «١٧٨١» والاستيعاب بها مشها بترجمته ضمن حرف الحاء.

(٢) مجمع الزوائد للهيتمي: ج ١ ص ٧٢ ط ثانية في لبنان، وسر أعلام النبلاء للذهبي ج ٣ ص ٣١٥ ط دار المعارف.

(٣) مستدرک الحاكم النيسابوري: ج ٤ ص ٤٧٩ ط حيدر آباد دکن، ويقب عليه الحاكم فيقول: «هذا حديث صحيح الإسناد».

منهم، كان «مروان هذا» ممن أخذ أسيراً إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأراد علي عليه السلام قتله، فتشفع فيه الحسن والحسين عليهما السلام وكلما أباهما في العفو عنه، وتخلية سبيله، وقال له: إنه يبإيعك - الآن - يا أمير المؤمنين؟.

فقال عليه السلام: «أو لم يبإيعني بعد قتل عثمان؟ لا حاجة لي في بيعته؟ إنها كف يهودية، لو بايعني بيده، لغدر بسببته، أما أن له امرأة كلعة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة، وستلقى الأمة منه ومن ولده يوماً أحمر»^(١).

(١) نهج البلاغة برقم المخطبة ٧٢ وشروحه، ومنها: شرح ابن أبي الحديد ج ٦ ص ١٤٦ ط جديد.

ثم يأتي على شرح فقرات المخطبة، فيقول باقتضاب منا: «قوله عليه السلام:» «أو لم يبإيعني بعد قتل عثمان؟ أي: وقد غدر، وهكذا لو بايعني الآن، ومعنى قوله عليه السلام: «إنها كف يهودية» أي: غادرة، واليهود تسب إلى الغدر والخبت، والسب بالفتح والتشديد: الأست ومعنى الكلام محمول على وجهين: أحدهما: أن يكون ذكر (السب) إهانة له وغلظة عليه، والعرب تسلك مثل ذلك في خطبها وكلامها، الوجه الثاني: أن يريد بالكلام حقيقة، لا مجازاً، وذلك لأن الغادر من العرب كان إذا عزم على الغدر بعد عهد قد عاهد أو عقد قد عقد، حيق أي: أخرج الریح استهزاء بما كان قد أظهره من اليمين والمهد، والإمرة بالكسر: الولاية. وقوله «كلعة الكلب أنفه» يريد: قصر المدة.

وكذلك كانت مدة خلافة مروان، فإنه ولي تسعة أشهر أو عشرة كما في معارف ابن قتيبة ص ٣٥٤ ط دار الكتب. والأكبش الأربعة: بنو عبد الملك: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام. ولم يل الخلافة من بني أمية ولا من غيرهم أربعة أخوة إلا هؤلاء، ثم قال: وعندي: أنه يجوز أن يعني بهم بني مروان لصلبه وهم: عبد الملك، وعبد العزيز وبشر ومحمد، أما عبد الملك فولى الخلافة، وأما عبد العزيز فولى مصر، وأما بشر فولى العراق، وأما محمد فولى الجزيرة ولكل منهم آثار مشهورة. ويريد عليه السلام من كلمة «يوماً أحمر» الكناية عن شدة سفك الدماء ويستعرض ابن قتيبة في معارفه ص ٣٥٩ - ٣٦٥ من الطبعة الآخرة وغيره من المصادر: موجزاً بتولي الأخوة الأربعة من أبناء عبد الملك، فيقول باقتضاب منا:

«وأما الوليد بن عبد الملك (٤٨ - ٩٦) فكان يكنى أبا العباس، وولي الخلافة بعد أبيه سنة (٨٦) هـ وكان خبيث الولاية إلى قوله: وتوفي بدمشق سنة ٩٦ هـ وقد بلغ من العمر ٤٨ سنة، وكانت ولايته تسع سنين وثمانية أشهر، ثم بيع بعد الوليد لأخيه سليمان بن عبد الملك (٥٤ - ٩٩) وكنى (أبا أيوب)، وكانت ولايته سنة ٧٦ يوم وفاة أخيه الوليد، وتوفي سليمان بداهي سنة ٩٨ أو ٩٩ هـ وهو ابن خمس وأربعين سنة.

وبيع يزيد بن عبد الملك (٧١ - ١٠٥) بعد وفاة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ هـ وكنى (أبا خالد)، وكان صاحب لهر ولذات، وكان صاحب حباية وسلامة، وكانت ولايته أربع سنين وشهراً، وقد بلغ من العمر (٥٦ سنة) وكانت ولايته عشرين سنة إلا شهراً.. وخرج عليه زيد بن علي بن الحسين بالكوفة سنة ١٢٦ هـ بقصة مفصلة.. قد تعرض لها في بعض فصول الكتاب من أبرزاته الأواخر.

→ وهشام هذا هو صاحب القصة المعروفة مع الإمام زين العابدين عليه السلام والفرزدق وكان أبوه عبد الملك أو أخوه الوليد قد بعته أميراً على الحاج من الشام، نزوها بالنص من الكشي أبي عمرو في رجاله، قال ضمن ترجمة الفرزدق: جاء هشام ضاف بالبيت، فأراد أن يستلم الحجر فلم يقدر عليه من الزحام، فنصب له منبر فجلس عليه، وأطاف به أهل الشام، فهينما هو كذلك إذ أقبل علي بن الحسين عليه السلام وعليه أزار ورداء من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم رائحة بين عينيه سجادة كأنها ركية عفر، فجلس يطوف بالبيت، فإذا بلغ موضع الحجر تنحى الناس عنه حتى يستلمه هبةً له وإجلالاً، ففاض ذلك هشاماً، فقال رجل من أهل الشام لهشام: من هذا الذي قد هانت الناس هذه الهبة وأفرجوا له عن الحجر؟ فقال هشام: لا أعرفه ثلثا يرغب فيه أهل الشام، فقال الفرزدق وكان حاضراً: لكتي أعرفه، فقال الشامي: من هذا يا أبا فراس؟ فقال مرتجلاً:

والبيت يعرفه والحل والعمر

هذا التقي النقي الطاهر العلم

أمنت بنور هدهد تهدي الظلم

إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

عن مثله عرب الإسلام والعجم

ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

فلا يكلم إلا حين يبسم

كالشمس تنجاب من إشراقها الظلم

من كف أروع في عرشه شمم

طابت عناصره والخيم والشمم

صلو السمائل فلو عنده النعم

بجده أنبياء الله قد حُتموا

الغرب تعرف من أكرت والعجم

جري بذاك له في لوحه القلم

وفضل أمته دانت له الأمم

عنها العماية والإسلاق والعدم

يستو كلفان ولا يعرفهما عدم

تزيينه الخصلتان الخلق والكرم

كفر وقربهم منجي ومعتصم

ويسترب به الإحسان والنعم

←

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

هذا ابن خير عباد الله كلم

هذا علي رسول الله والده

إذا رآته فريش قال قاتلها

يُنمى إلى نزوة العز التي قصرت

يكاد يمسكه عرفان راحته

يغضي هياء ويغضي من مهابته

ينطق نور الدجى عن صبح عزته

بكله خير زمان ريمها عبق

مشقة من رسول الله نبعته

حقال أقال أقوام إذا تُدحوا

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله

وليس قولك من هذا بضائره

الله فضله قداماً وشرفه

من جده دان فضل الأنبياء له

عم البرية بالإحسان وانقضت

كلتا يديه غياث عم نفعهما

سهل الخليقة لا تخشى بؤاده

من معشر هبهم دين وبغضهم

تستدفع السوء والبلوى بحبهم

ونظر إليه علي عليه السلام يوماً فقال له: «ويل لك وويل لأمة محمد منك، ومن بنيك، إذا شاب صدغاك»^(١).

وكان مروان من أشد بني أمية عداوة لبني هاشم، وارتطاماً في الضلال والنفاق، وكان قصير القامة، قصير العنق، دقيقه، وكان يلقب بذلك ولضلاله وانغماسه في الباطل: «خط باطل»، كما قال عنه الشاعر (أو أخوه) عبد الرحمان:

لعمرك ما أدري وإنني لسائل حليمة مضروب اللقا كيف يصنع

→ مقدم بعد ذكر الله ذكرهم	في كل يوم ومختوم به الكلم
إن عد أهل التلى كانوا أنتمهم	أو قيل: من خير أهل الأرض قيل: هم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم	ولا يدانسيهم قوم وإن كرموا
هم الخيوط إذا ما أزمه أزمتم	والأسد أسد الشرى والناس محتتم
يأبى لهم أن يحل الذم ساحتهم	خيم كريم وأيد بالندى همم
لا ينقص العسر سطاً من أكتفهم	سجان ذلك أن أسروا وإن هدموا
أي الخلائق ليست في رقابهم	لأولياء هذا أوله نعم
من يعرف الله يعرف أولية نأ	فالدن من بيت هذا ناله الأمم
ما قال لا قط إلا في تشهده	لو لا التشهد كانت لأوه نعم

قال الراوي: فضرب هشام، وأمر بحبس الفرزدق، فحبس بمسنان بين مكة والمدينة، فبلغ ذلك علي بن الحسين عليه السلام فبعث إليه باتبى عشرين ألف درهم، وقال للرسول: قل له أعذرنا يا أبا فراس فلو كان عندنا أكثر من هذا لوصلناك به، فردها الفرزدق وقال للرسول: قل له: يا بن رسول الله، ما قلت الذي قلت إلا غضاً لله ولرسوله وما كنت لأزراً عليه شيئاً، فردها الإمام عليه وقال للرسول قل له: بعثي عليك لما قبلتها، فقد رأى الله مكانك وعلم نيتك ونحن أهل البيت لا يعود إلينا ما خرج منا، فقبلها الفرزدق، ثم جعل يهجو هشاماً في الحبس، فكان مما هجا به قوله:

أيحيى في بين المدينة والتي	إليها قلوب الناس يهوى منيها
بقلب رأساً لم يكن رأس سبيد	وعيناً له حواء بناء عيوبها

فأضطر هشام فأخرجه من الحبس وأطلق سراحه، الفصة وهي منفصلة في عامة كتب السير ضمن الحديث عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام، وذكرها بخصفها سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص.

(١) المصدر الآنف من شرح النهج للحددي: ص ١٥٦ تلاً عن الاستحباب، والصدغان بالضم، تنبيه الصدغ، وهو ما بين العين والأذن من أعلى الوجه، وذلك فإن مروان ولي الخلافة في الشام بعد موت يزيد وعمره ٦٥ عاماً.

لحس الله قوماً أكرهوا خبط باطل على الناس يعطي ما يشاء ويمنع^(١) وكما تفاعل وأخير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه الآف عن مروان، فقد خرج عليه مع الناكثين الخارجين يوم الجمل، وبعد الانتهاء من الحرب، توارى مروان عن الناس، وهرب إلى معاوية في الشام، ثم حضر معه «وقعة صفين» مع القاسطين، في قتال أمير المؤمنين عليه السلام.

وبعد ذلك التاريخ، كان هو الذي حمل «عائشة» وبني أمية على الخروج يوم البغل، لمنع زيارة جنازة الإمام الحسن بن علي عليه السلام إلى قبر جده رسول الله صلى الله عليه وآله. وكان هو الذي حرص عائشة لما رأى إصرار بني هاشم على الدفن أو الزيارة، فأمرت برمي جنازة سبط الرسول صلى الله عليه وآله بالسككهم، حتى استل منها سبعون سهماً^(٢).

إلى هنا نختم عرض الحديث عن الحكم وابنه، ولنا بعد ذلك عودة أخرى إلى الحديث عنهما في أحد فصول الكتاب الآتية.

لنتحدث بإيجاز عن ثالث أبناء العنصر الثاني لبني أمية، وهو: «عفان بن أبي العاص بن أمية» والد عثمان، المستخلف الثالث بعد الشيخين في ضوء مسرحية الشورى. وليس لعفان هذا شيء يذكر في التاريخ، وإنما عُرف وذكر بابنه عثمان.

ولم يكن عثمان بن عفان هو الآخر، بأقل وطأة عن أعمامه، وبني أعمامه من بني أمية، في إصهاره قولاً وفعلاً بمنأواته لبني هاشم عامة، ولعلي عليه السلام خاصة.

فقد حذا حذو ابن عمه أبي سفيان بن حرب، الشيخ الضال المضل، وترسم خطاه في عدائه لبني هاشم، وانصياعه لأقربائه وذويه في السلوكية.

قال المؤرخون: دخل أبو سفيان يوماً على عثمان، بعد ما آلت الخلافة إليه، بفذلكة الشورى الظالمة، فقال له: «يا عثمان، قد صارت الخلافة إليك - بعد تيم وعدي - فأدرها

(١) المصدر الآف: من شرح النهج للحديدي، وأسد الغابة للجزري ج ٤ ص ٣٤٨.

(٢) قال ابن عساکر في (تاريخه: ج ٤ ص ٢٢٧) ط مصر: «أبى مروان أن يدفن الحسن عليه السلام في حجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: ما كنت لأدع ابن أبي تراب يدفن مع رسول الله، وقد دفن عثمان بالبيع، ومروان يومئذ معزول، يريد أن يرخص معاوية بذلك، فلم يزل يهدأ لبني هاشم حتى مات».

كالكرة؟ واجعل أوتادها بني أمية؟ فإنما هو الملك، ولا أدري: ما جنة، ولا نار؟^(١).
 ودخل عليه أيضاً بعد ما فقد بصره، فقال وهو يرفع بصره إلى السماء: «اللهم اجعل
 الأمر: أمر جاهلية؟ والملك: ملك غاصبيه؟ واجعل أوتاد الأرض لبني أمية؟^(٢).
 فطبق عثمان بدوره وصية ابن عمه - شيخ بني أمية يومئذ - أولاً، كما آمن على دعائه أخيراً
 فجدير بنا أن نعقد له فصلاً مستقلاً به، وهو خامس الفصول فإلى هناك:

(١) رسالة المقرئ في النزاع والتخاصم بين أمية وهاشم، والاستيعاب لابن عبد البر ج ٤ باب الكنى.

(٢) تاريخ ابن عساکر: ج ٦ ص ٤٠٧ ط مصر.

الفصل الخامس

عثمان بن عفان بن أبي العاص (رض)

ولادته، إظهار إسلامه، كيفية استخلافه في مسرحية الشورى، إثارة أقربائه وذويه الطغاة في مناصب الدولة، كالوليد وسعيد وابن كرين، وابن أبي سرح، ثم إثارةهم بأموال المسلمين أمثال أبي سفيان، وعمه الحكم وابنيه مروان والحارث وإضرابهم من الأمويين والمحسوبيين عليهم بصلة أو ولاء، ثم عرض إثراء الخليفة نفسه من بيت المال، وأخيراً تأميم علي عليه السلام جميع هباته واقطاعاته لما آلت الخلافة إليه. ثم عرض شدة الخليفة وتنكيله بعلية الصحابة والتابعين من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام أمثال عمار وأبي ذر وابن مسعود وأضرابهم.

وبالتالي تطاول الخليفة الأموي على مقام أمير المؤمنين عليه السلام بالكلام الخشن والسلوكية الصادة، ونحو ذلك من المواقف التي أوجبت نفقة المسلمين عليه حتى هجموا عليه فحاصروه ثم قتلوه.



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

● عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس

وأمه: أروى بنت كرز بالتصغير، بن ربيعة بن عبد شمس، وُلد بمكة قبل الهجرة بـ (٤٥ سنة) وأسلم بعد البعثة النبوية بقليل على يد أبي بكر (رض).

وبعد وفاة الرسول ﷺ في الثامن والعشرين من صفر على الأشهر عند الشيعة، في السنة الحادية عشرة للهجرة بإجماع المؤرخين، واستخلاف أبي بكر بعده، بالإجماع المرتجل المعبر عنه بـ «الفتنة» على لسان الخليفة الثاني (رض) كان عثمان أمينه وكاتبه، ومستشاره في عامة أموره، وكذلك كان لعمر بعد وفاة أبي بكر واستخلافه بوصية منه، وعهد إليه، كما يذكر ذلك عامة المؤرخين كالطبري وابن الأثير والنويري وابن كثير، وابن أبي الحديد وغيرهم خلال الحديث عن خلافة عمر.

فقد ذكر و باختلاف بسيط في المرض: إن طلحة بن عبيد الله دخل على أبي بكر في أخريات أيامه فقال له: «استخلفت على الناس (عمر) وقد رأيت ما يلقي الناس منه وأنت معه، وكيف به إذا خلا بهم؟ وأنت لاقِ ربك، فسألك عن رعيته؟ فقال أبو بكر لمن حوله: أجلسوني؟ فأجلسوه، فقال لطلحة: أيا الله تخوفني؟ إذا لقيت ربِّي فسألني، قلت: استخلفتُ على أهلك خير أهلك».

ثم إن أبا بكر (رض) أحضر عثمان بن عفان خالياً ليكتب عهد «عمر» فقال له: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين، أما بعد، ثم أغمي عليه، فكتب عثمان: أما بعد، فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، ولم ألكم خيراً - ثم أفاق أبو بكر - فقال لعثمان: اقرأ عليّ، فقرأ عليه، فكَبَّر أبو بكر، وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن مت في غشيتي؟ قال: نعم، قال أبو بكر: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله».

فلما كتب العهد أمر به أبو بكر أن يقرأ على الناس، فجمعهم وأرسل الكتاب مع مولى

له ومعه عمر، فكان عمر يقول للناس: أنصتوا، واسمعوا الخليفة رسول الله ﷺ؟ فإنه لم يألكم نصحاً؟ فسكن الناس، فلما قرأ عليهم الكتاب سمعوا وأطاعوا.

وكان أبو بكر أشرف على الناس، وقال: أترضون بمن استخلفت عليكم؟ فإني ما استخلفت عليكم ذا قرابة، وإني قد استخلفت عليكم «عمر» فاسمعوا له وأطيعوا؟ فإني والله ما ألوتُ من جهد الرأي، فقالوا: سمعنا وأطعنا.

● الشورى وكيفية استخلاف عثمان

قال أرباب التاريخ باقتضاب منا: لما طعن عمر وأحسّ بالموت في أخريات ذي الحجة من سنة ٣٤ هـ طلب إليه المسلمون أن يعهد إلى خليفة من بعده؟ فقال: «عليكم أن تختاروا أحد الرهط الذين قال عنهم رسول الله ﷺ: إنهم من أهل الجنة وهم ستة: علي، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله.

ثم دعا وهو على فراش الموت أولئك الرهط؟ فاجتمعوا عنده، وقال لهم: «إني نظرت، فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر - يعني الخلافة - إلا فيكم، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راضٍ، إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم، ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم، فيختلف الناس».

ثم إن عمر (رض) عين للناس، وللمرشحين الستة: الأجل الذي يتم فيه الانتخاب وهو ثلاثة أيام من بعد موته، ثم دعا بأبي طلحة الأنصاري، وقال له: «أنظريا أبا طلحة إن الله طالما أعزّ بكم الإسلام، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم، وقم على رؤوسهم: فإن اجتمع خمسة منهم، ورضوا رجلاً، وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم، وأبى اثنان، فاضرب رأسيهما؟ فإن رضي ثلاثة رجلاً، وثلاثة رجلاً، فحكموا عبد الله بن عمر؟ فأبى الفريقين حكم له، فليختاروا رجلاً منهم؟ فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف؟ واقتلوا الباقين، إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس!!» وينسب بعض المؤرخين توجيه هذا الخطاب إلى صهيب الرومي.

قال أرباب التأريخ: ثم إن عمر قال للمقداد بن الأسود: «إذا وضعتوني في حفرتي،

فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم» ثم قال لصهيب الرومي: «صل بالناس ثلاثة أيام، وأدخل هؤلاء الرهط بيتاً وقم على رؤوسهم حتى يختاروا رجلاً منهم؟» قال أرباب التاريخ: فلما دفن عمر اجتمع الناس ومعهم المرشحون الستة في دار المسور بن مخرمة أو في بيت عائشة كما قيل فالتفت عبد الرحمان عبد عوف إلى المرشحين الخمسة غيره وقال: أيكم يخرج نفسه منها - أي الخلافة - فلم يجبه أحد منهم، فقال: أنا أنخلع منها، فقال له عثمان: فأنا أول راض بها، ثم تتابع الباكون على الرضا، وعليه عليه السلام ساكت، فقال له عبد الرحمان: ما تقول يا أبا الحسن؟

قال: «أعطني موثقاً، لتوثق الحق، ولا تتبع الهوى، ولا تخض ذا رحم، ولا تألوا الأمة؟» فقال عبد الرحمان للمرشحين: أعطوني موثيقكم على أن تكونوا معي على من يدل وغير، وأن ترضوا من اخترت لكم، وعليّ ميثاق الله أن لا أخصّ ذا رحم لرحمه، ولا ألوا المسلمين؟ فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله، وبذلك صار أمر الخلافة في عنق عبد الرحمان، فدار هو الآخر ليلاليه الثلاث، يلتقي أصحاب رسول الله ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد، وأشرف الناس يشاورهم في الأمر حتى إذا كانت الليلة الأخيرة التي يستكمل في صبيحتها الأجل المضروب من قبل عمر، أتى منزل المسور بن مخرمة، وأمره أن يدعو إليه الزبير وسعداً؟ فدعاهما في مؤخر المسجد، فقال له: خلّ ابني عبد مناف وهذا الأمر؟ فقال الزبير: نصيب لي عليّ.

وقال لسعد: «أنا وأنت كلاله، فاجعل نصيبك لي، فأختار؟ قال سعد: إن اخترت نفسك، فنعم، وإن اخترت عثمان فعليّ أحب إليّ». ثم انصرف الزبير وسعد.

وأرسل المسور إلى علي عليه السلام فجاء، فناجاه المسور طويلاً، ثم أرسل إلى عثمان، فجاء، فناجاه طويلاً، حتى فزق بينهما الصبح.

فلما صلا الصبح، جمع المسور رجال الشورى الستة، وبعث إلى من حضر في المدينة من المهاجرين والأنصار، والأمراء حتى التجّ المسجد بأهله.

ثم إن المسور خطب الجمع فقال: أيها الناس، إن الناس أجمعوا أن يلحق أهل الأمصار بمصارهم وقد علموا من أميرهم؟ فأشيروا عليّ؟ فتكلم الناس من جوانب

المسجد مبددين آراءهم في الاختيار، فاختار عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وبعض غيرهما: علياً عليه السلام، واختار ابن أبي سرح وعبد الله بن أبي ربيعة وبعض غيرهما: عثمان. وهنا التفت سعد إلى عبد الرحمان، فقال: يا عبد الرحمان، أفرغ قبل أن يفتتن الناس. فقال عبد الرحمان: إني قد نظرت وشاورت، فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً؟ ودعا علياً، فقال له: عليك عهد الله وميثاقه لتعلمن بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده؟، قال علي: «أرجوا أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي».

ودعا «عثمان» فقال له مثل ما قال لعلي، فقال عثمان: نعم، نعم، فصفق عبد الرحمان على يد «عثمان» وبايعه بالخلافة.

وهنا التفت علي عليه السلام لعموم الحاضرين وعلى رأسهم عبد الرحمان وقال: «ليس هذا أول يوم تظاهرت فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون»، ثم تأخر وهو يقول: «سبيلن الكتاب أجل».

والتفت المغيرة بن شعبة لعبد الرحمان وقال: «يا أبا محمد، قد أصبت أن بايعت عثمان»، وتمت البيعة لعثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ هـ فاستقبل بخلافته المحرم لسنة ٢٤ هـ اقتضاب من تاريخ الطبري، وكامل ابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير، ونهاية النويري، وشرح النهج للحديدي، وتاريخ يعقوبي، وأعلام الزركلي، وحلية الأولياء لأبي نعيم، وتاريخ الخميس للديار بكري، والمحبر للنسابة البغدادي، وجمهرة ابن حزم، وتاريخ الأمم الإسلامية للخضري، ومعارف ابن قتيبة، وتاريخ الخلفاء للسيوطي وغيرها.

وكان أول أعمال الخليفة التي نجم عليه الناس، وأثارت حفاظهم عليه: توظيفه أقرباءه وذويه في مختلف جهاز الدولة، داخل المدينة وخارجها: من عموم الأقطار والأمصار، وتمكينهم من مال المسلمين، بالرغم من حاجة المسلمين إلى القوات، ومواجهته القاسية لعلي عليه السلام وشيعته بشتى صنوف المواجهة.

قال ابن أبي الحديد في (شرح النهج): «بايعه الناس بعد انقضاء الشورى واستقرار الأمر

له، وصحّت فيه فراسة (عمر) فيه^(١)، فإنه أوطأ بني أمية: رقاب الناس، وولاهم الولايات، وأقطعهم القطائع، وافتتحت (أفريقية) في أيامه، فأخذ الخمس كله، فوهبه لمروان^(٢)..

وقال أيضاً: «إن عثمان قد أحدث أحداثاً مشهورة، نقمها الناس عليه: من تأمير بني أمية ولا سيما الفساق منهم، وأرباب السفه، وقلة الدين، وإخراج مال الفياء إليهم، وما جرى في أمر عمار وأبي ذرّ وعبد الله بن مسعود وغير ذلك من الأمور التي جرت في أواخر خلافته»^(٣)..

فلنتحدث بإيجاز عن الأمور التي أشار إليها ابن أبي الحديد وعامة أرباب السير: من تخصيصه أقرباءه وذويه خصوصاً المناوئين منهم لعلي عليه السلام وأهل بيته بمناصب الدولة، وإيثاره إياهم باقطاعاته من أموال المسلمين، ومناوئته لعلي عليه السلام ولشيعة الأبرار وغيرها من الأمور المنافية لمقامه كخليفة لعامة المسلمين كما هو المفروض فنقول:

تولية الخليفة أقرباءه وذويه على رقاب المسلمين

أ - ولاية الخليفة - من الأمويين وذويهم:

☐ منهم الوليد بن عقبة بضم فسكون، بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية، وهو ممن أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه من أهل النار، كما يقول المسعودي في مروجه: فقد عيّنه عثمان والياً على الكوفة على أثر عزله سعد بن أبي وقاص عنها سنة ٢٥ هـ فأقام فيها زهاء خمس سنوات، ثم عزله عنها بعد اقترافه شرب الخمر، واستهتاره بالفجور.

فقد كان منهمكاً بالفسق والمعجون إلى حدّ الاستهتار بالقيم الإنسانية، فضلاً عن القيم الإسلامية، وستحدث عنه قريباً مع الحديث عن أبيه عقبة.

☐ ومنهم سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية.

فقد عيّنه عثمان والياً على الكوفة على أثر عزله: الوليد بن عقبة عنها سنة ٢٩ هـ بعد الضغوط عليه بعزله، لاشتهاره بشرب الخمر واقتراف المآثم الدينية والخلقية

(١) وكان مما قاله له عمر بن الخطاب أيام مرضه من طمئنته، وهو يرشحه للخلافة بمسرحية الضوري المدبرة ليل: «إذا ولت

هذا الأمر فلا تسلط بني أبي معيط على رقاب الناس» شرح النهج للحديدي: ج ٣ ص ١١ ط دار إحياء الكتب.

(٢) شرح النهج للحديدي: ج ١ ص ١٩٨ - ١٩٩، الطبعة الجديدة.

(٣) المصدر نفسه: ج ٢ ص ١٢٩ منه.

والاجتماعية كما سنذكر، وقد تحدثنا عن سعيد هذا وعن أبيه العاصي وابنه عمرو ضمن الحديث عن العنصر الأول من عناصر الشجرة الأموية الملعونة في القرآن، وعلى لسان النبي ﷺ.

□ ومنهم عبد الله بن عامر بن كُرَيْز بالتصغير، بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، ابن خال عثمان، حيث أن أروى أم عثمان بنت كُرَيْز المذكور، ونصبه الخليفة والياً على البصرة، على أثر عزله لأبي موسى الأشعري، وهو شاب نَزَق، لم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين^(١).

فلما بلغ أبا موسى عزله واستبدأه بذلك الشاب المتفطرس، صعد المنبر في جامع البصرة، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ ثم قال: «يأتكم غلام خراج ولاج (بالتشديد) كريم الجذات والخالات والعمات يجمع له الجنان»^(٢).

ثم ضم إليه: «فارس» بعد عزله عثمان بن أبي العاص الثقفي عنها فافتتح كثيراً من بلدانها، حتى رجع إلى البصرة، فاستقرّ فيها إلى أن قتل عثمان وبويع علي عليه السلام فهرب بأموال البصرة إلى مكة، ثم جاء مع عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة، فشهد معهم «وقعة الجمل».

وحارب أمير المؤمنين عليه السلام، ثم ولّاه بعد ذلك معاوية على البصرة، فبقي فيها ثلاث سنين، ثم عزله عنها، فرجع إلى المدينة، فأقام فيها إلى أن مات سنة ٥٨ أو ٥٩ على الخلاف قبيل وفاة معاوية.

□ ومنهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث العامري أخو عثمان من الرضاة.

فقد ولّاه الخليفة إمارة مصر بعد عزله لعمرو بن العاص عنها، وكان عليها من قبل

(١) هذا مما لا خلاف فيه بين أرباب السمر، وإن اختلفوا في أن عمره يومئذ ٢٤ أو ٢٥ عاماً كما يظهر الأول من ابن عبد البر في الاستيعاب وجماعة آخرين، والثاني من ابن حجر في الإصابة وجماعة آخرين أيضاً.

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٤٩ ضمن حوادث سنة ٢٦ هـ، وفي تاريخ العقوبي ج ٢ ص ١٥٦ ط نجف: «كثير المقات والحوالات والجدات في قرينش. يفيض عليكم المال فيضاً»، وفيه أنه يومئذ ابن خمس وعشرين سنة.

عمر بن الخطاب، ووفر له كلّ صلاحيات الإمارة في القضاء والخراج، والتصرف في أموال المسلمين، فلقد أعطاه من غنائم أقر يقية بالمغرب خمس الخمس وكان مائة ألف دينار، كما قاله ابن كثير في البداية والنهاية، وأبو الفداء في تاريخه وابن أبي الحديد في شرحه للنهج، وفي أنساب البلاذري ج ٥ ص ٢٦: «كان عثمان كثيراً ما يولي من بني أمية من لم تكن له مع النبي ﷺ صحبة، فكان يجي من أمراك ما ينكره أصحاب محمد ﷺ وكان يُستعقب فيهم، فلا يعزلهم فلما كان في الست الأواخر استأثر ببني عمه فولاهم ..»

بالرغم من أن تاريخ الرجل ملوث بالكفر والآنم، والعداء للنبي ﷺ فقد ارتدّ عن الإسلام بعد إظهاره قبل الفتح، ثم ارتد مشركاً وصار إلى قريش بمكة، يسخر بالنبي ﷺ وبإسلامه، ويحرف ويبدل في كتابة الوحي، وكان يقول لهم: «إني أصرف محمداً حيث أريد»، فأهدر النبي ﷺ دمه يوم الفتح وأمر بقتله، وإن وجد متعلقاً بأستار الكعبة.

فهرب لما بلغه ذلك إلى عثمان، مستجيراً به بحكم صلة الرضاة بينهما فقيّبه عثمان في داره مدة ثم أتى إلى النبي ﷺ يطلب منه الأمان له وكان النبي ﷺ بمحضر من أصحابه فصمت النبي ﷺ طويلاً ثم آمنه، وعفا عنه.

من ولاية الخليفة عبد الله بن سعد بن أبي سرح
فلما انصرف عثمان ومعه الرجل، قال النبي ﷺ لأصحابه: ما صمت إلا ليقوم إليهم بعضكم، فيضرب عنقه، فقال له رجل من الأنصار: هلا أو مأت إلي يا رسول الله؟
فقال النبي ﷺ: إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة الأعين^(١).

(١) تفسير القرطبي: ج ٧ ص ٤٠، وتفسير الشوكاني: ج ٢ ص ١٣٤، وسنن أبي داود: ج ٢ ص ٢٢٠ ط مصر ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٠٠، والاستيعاب ج ١ ص ٣٨١، والإصابة بترجمته، وأسد الغابة: ج ٣ ص ١٧٣، والقدیر للأمني ج ٨ ص ١٨٠ ط ثانية، وفيه بعد ذلك «ونزل القرآن بكفروه» في قوله تعالى: «ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً»، أو قال «أوحى إلي ولم يوح إليه شيء» ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﷻ، الآية سورة الأنعام / ٩٣.

لقد أطبق المفسرون على أن المراد بقوله: «سأنزل مثل ما أنزل الله ﷻ»، هو عبد الله بن أبي سرح. وسبب ذلك فيما ذكره: إنه لما نزلت الآية التي في المؤمنين: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين»، دعاه النبي ﷺ فأملأها عليه، فلما انتهى إلى قوله تعالى: «ثم أنشأنا خلقاً آخر»، عجب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان، فقال: تبارك

وبالجملة، فقد استطالت مدة ولايته على «مصر» وكلف المصريين شططاً بسوء تصرفاته وعنف سلوكه اعتماداً منه على صلتة الآفة الذكر بعثمان -خليفة المسلمين - فسلم الناس، وتبرموا منه، ومن ولايته الجافية، فبعث صلحاؤهم رسالة إلى الخليفة يشكون فيها: قساوة سلوك واليهم المدلل، ويطلبون إليه استبداله بغيره من الولاة، فما كان من أمر الخليفة على أثر وصول الكتاب إليه، إلا أن يكتب كتاباً إلى واليه، يؤنبه فيه، ويهدده بالعزل إن هو لم يثب إلى رشده.

ولكن الوالي المتفطرس بذاته وذاتياته، لم يتغير من سلوكه شيئاً، بل أخذ ينكل بأولئك الذين كتبوا رسالة الشكوى إلى الخليفة ويكل من يمت لهم بأدنى صلة، وحيث لم تجد رسالة الشكوى من قبل صلحاء المصريين: أي نفع أوردع .. خف منهم «٧٠٠ رجل» إلى المدينة، فنزلوا «الجامع» وأخذوا يشكون أمر الوالي إلى بعض الصحابة من بطانة الخليفة.

فدخل عليه بعضهم وكلمه في ذلك الشأن بكلام شديد، ثم دخل عليه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فأنتبه بكلام غليظ، ومما قال له: «إنما يسألك القوم: رجلاً مكان رجل، وقد ادعوا قبله دماً فاعزله عنهم؟ واقض بينهم، فإن وجب عليه حق فأنصهم منه» فعند ذلك خضع الخليفة للأمر الواقع، واستجاب للقوم، وقال لهم: «اختاروا رجلاً، أوليته عليكم مكانه؟» فأشار الناس عليه بمحمد بن أبي بكر، فكتب إليه عهده إلى مصر، ووجهه معه جماعة من المهاجرين والأنصار، ينظرون فيما بين القوم وبين ابن أبي سرح^(١).

فرحل الوفد المصري مع واليهم الجديد بصحبة جماعة من الصحابة من المدينة، متوجهين إلى مصر، فلما بلغوا المحل المعروف بخمس خارج المدينة بأميال وإذا هم بقادم من المدينة، يرقل به بعيره، فتأملوه، فإذا هو «ورش» -غلام الخليفة - يحاول أن يسبق القوم إلى مصر، ففتشوه، فإذا هو يخفي كتاباً من عثمان إلى ابن أبي سرح، يأمره

→ الله أحسن الخالقين، فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت علي». فبكى عبد الله حينئذ وقال، لئن كان محمد صادقاً لقد أوحى إلي كما أوحى إلي، وإن كان كاذباً لقد قلت كما قال، فارتد عن الإسلام ولحق بالمفركين.

(١) أنساب البلاذري: ج ٥ ص ٢٦ ط بيروت.

فيه بالتنكيل بهؤلاء القوم، وباغتيال الوالي الجديد، وتأملوا الكتاب، فإذا هو بأملاء وخط مروان بن الحكم، وعليه خاتم عثمان، فقفل القوم بدورهم راجعين إلى المدينة ومعهم الغلام والكتاب، حتى جمعوا جماعة من عليّة المهاجرين والأنصار، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب عليه السلام وسلموا الغلام لهم، وطرحوا الكتاب بين أيديهم. فنهض أولئك الجماعة والكتاب بيد علي بن أبي طالب، ودخلوا على عثمان واستجوبوه عن الكتاب؟ فاعترف بأن البعير بعيره، والغلام غلامه، والخاتم خاتمه. ولكنه أنكر أن يكون هو الذي كتب الكتاب، بل اتهم فيه: كاتبه، ومروان، وفي رواية: أنه اتهم به علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال علي لعثمان: فمن اتهم؟ قال عثمان: أتهمك وأتهم كاتبني، فخرج أمير المؤمنين عليه السلام منه مغضباً وهو يقول: بل هو بأمرك. وخرج الجماعة منه وهم مصممون على خلع عثمان أو قتله، فكانت تلك الدسيسة من عثمان مما أثار نقمة المسلمين والمصريين منهم بالخصوص عليه، حتى جرى ما جرى مما هو مذكور ^(١).

ومنهم بل من طواغيت ولاية الخليفة من الأمويين: معاوية بن أبي سفيان (صخر) بن حرب بن أمية، فقد كان أكثر ولاية عثمان، حظاً عنده، ومن أوفرهم نفوذاً لديه، فقد ولّاه عثمان على قصبة الشام بنواحيها، بمعنى أنه أقر ولايته عليها من قبل عمر بن الخطاب، ووسّع له رقعة سلطانه ومهّد له نقل الخلافة الإسلامية، وتحويلها ملكاً بيد آل أبي سفيان، وسنّفصل الحديث عنه، وعن تصرفاته الناشئة عن القيم الإنسانية والإسلامية وعن مظاهر حقه وعدائه لبني هاشم ولعلي عليه السلام وشيعته بالخصوص في

(١) شرح النهج للحديث: ج ٣ ص ٢٢ ط جديد، ويعقب ابن أبي الحديد على اتهام عثمان علماً بكتابة الكتاب فيقول: «وأعجب الأمور قوله لأمر المؤمنين عليه السلام «إني أتهمك»، وتظاهره بذلك وتلقيه إياه في وجهه بهذا القول، مع بعده من التهمة والظن في كل شيء، وفي أمره خاصة، فإن القوم في الدفعة الأولى أرادوا أن يحملوا له ما أخذوه حتى قام أمير المؤمنين عليه السلام بأمره وتوسطه وأصلحه، وأشار عليه بأن يقرأهم ويمنهم، حتى انصرفوا عنه، وهذا فعل التصح المشرق العذب المتحنن، ولو كان عليه السلام، وحوشي من ذلك متهماً عليه لما كان للتهمة عليه مجال في أمر الكتاب خاصة، لأن الكتاب بخط عدوه مروان، وفي يد غلام عثمان، ومحمول على بعيره، ومختوم بهاتمه، فأبي ظن تعلق بأمر المؤمنين عليه السلام في هذا المكان لولا مداوة وقلة الشكر للنعمة...».

آخرى هذا الجزء..

وقبل أن نختم الحديث عن ولاية الخليفة من أهل بيته نذكر كلام البلاذري في هذا الشأن، حيث يقول في أنسابه ج ٥ ص ٢٦: «كان عثمان كثيراً ما يولي من بني أمية، من لم تكن له مع النبي ﷺ صحبة، فكان يجي من أمراك ما ينكره أصحاب محمد ﷺ وكان يستعقب فيهم فلا يعزلهم، فلما كان في الست الأواخر استأثر ببني عمه، فولاهم...».

إيثار الخليفة أقرباءه وذويه بأموال المسلمين

ب - إيثاره أقرباءه بأموال المسلمين:

إن من الواجب على خليفة المسلمين: التصرف في الأمور المالية بمقتضيات شرعية عادلة، بعيدة كل البعد عن العواطف الشخصية والأمشاج القبلية والدواعي الجانية الأخرى مهما كان مصدرها.

غير أن الخليفة عثمان أسمى من أن يلتزم بذلك الواجب بقليل أو كثير، لا زال يتقمص الخلافة الشرعية بحكم مسرحية الشورى.

فقد سيطر قبل كل شيء على خزانة الدولة، يهب أموال المسلمين بسخاء وتفريط إلى المناوئين لبني هاشم عامة ولأمير المؤمنين ﷺ خاصة من بني أمية وذويهم، فكانت هباته وإقطاعاته لهؤلاء ونظرائهم بلا هوادة.

فكان أول المحظوظين بهبات الخليفة وإقطاعاته: هو مرشده الأول في سياسة خلافته، والذي أوصاه بعد وضع قدمه في الركاب أن يُديرها كالكرة، ويجعل أوتادها بني أمية كما مر آنفاً وهو أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية شيخ المضلّين، ورأس المشركين، وطلیعة الحاقدين على النبي ﷺ وعلى عموم بني هاشم والموالين لأمير المؤمنين ﷺ بالرغم من إظهاره لبسامة بلسانه يوم الفتح، وقلبه مطمئن بالكفر، وستحدث عنه في آخريات هذا الكتاب بما يثبت أنه من أشدّ بني أمية حرباً على الإسلام والمسلمين.

□ قالوا: فأول ما وهبه عثمان من بيت مال المسلمين: «ماشي ألف» في اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال على أثر تزويجه ابنته «أم أبان»

إياه^(١).

□ ووصل عمّه الحكم بن أبي العاصي لعين رسول الله وطريده كما ذكرنا آنفاً بعد أن استدعاه من الطائف إلى المدينة بـ «١٠٠ ألف درهم»^(٢)

كما ولّاه على صدقات «قضاة» أكبر حي باليمن فبلغت «٢٠٠ ألف درهم» فوهبها له^(٣).

□ كما سلّط الخليفة: ابن عمه: الوزغ ابن الوزغ: مروان بن الحكم على بيت مال المسلمين، يتصرف فيه ما يشاء.

فأعطاه «مائة ألف دينار» بعد أن زوجه ابنته أم أبان كما ذكرنا^(٤).

كما منحه أيضاً مائة ألف وخمسين أوقية من الذهب أو من الفضة^(٥).

كما وهبه: خمس غنائم «أفريقية» وقد بلغت «٥٠٠ ألف دينار»^(٦)، كما أقطعته «فدكا»

(١) المصدر الآف من الأساب، والإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لعبد الفتاح: ج ٢ ص ٢٠ ط مصر.

(٢) شرح النهج للمحدي: ج ١ ص ١٩٨ ط جديد. والمعارف لابن قتيبة: ص ١٩٤ ط ثانية بالقاهرة، والعقد الفريد للأندلسي: ج ٤ ص ٢٨٣ ط ثانية بالقاهرة.

(٣) أساب البلاذري: ج ٥ ص ٢٨، ومعارف ابن قتيبة: ص ٣٥٣ ط دار الكتب، وفي شرح المحدي: ج ٣ ص ٣٥ ط جديد: «وروي أيضاً: إنه ولي الحكم بن أبي العاصي: صدقات قضاة، فبلغت ثلثمائة ألف ألف، فوهبها له حين أتاه بها».

وفي تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٥٨ ط التجف برواية عبد الرحمن بن يسار: «قال: رأيت عامل صدقات المسلمين على سوق المدينة إذا أمسى أتاه عثمان فقال له: ادفعها إلى الحكم بن أبي العاصي؟ وكان عثمان إذا أجاز أحداً من أهل بيته بجائزة جعلها فرساً من بيت المال.

فجعل يدافعه ويقول له: يكون فتطيك إن شاء الله فألح عليه، فقال عثمان: إنما أنت خازن لنا فإذا أعطيناك فخذ، وإذا سكتنا عنك فأسكت، فقال: كذبت والله ما أنا بخازن لك ولا لأهل بيتك، إنما أنا خازن للمسلمين، وجاء بالفتح يوم الجمعة وعثمان يخطب فقال: أيها الناس، زعم عثمان إني خازن له ولأهل بيته، وإنما كنت خازناً للمسلمين، وهذه مفاتيح بيت مالكم ورمي بها فأخذها عثمان ودفعها إلى زيد بن ثابت».

(٤) شرح النهج للمحدي: ج ٣ ص ٣٣ ط جديد، وفيه: «إنه دفع إلى أربعة أنفس من قريش زوجهم بناته. أربعمائة ألف دينار...».

(٥) السيرة الحلبية: ج ٢ ص ٨٧، وتاريخ أبي الفدا: ج ١ ص ١٦٨، وقال الحلبي في السيرة: «وكان من جملة ما انتقم به على عثمان أنه أعطى ابن عمه مروان بن الحكم مائة ألف وخمسين أوقية».

(٦) كامل ابن الأثير: ج ٣ ص ٤٦ بيروت، وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٥ ط التجف، ومعارف ابن قتيبة: ص ١٩٥ ط ثانية

ووهب خراجها له، وقد كانت فاطمة الزهراء عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها النبي صلى الله عليه وآله من أبي بكر تارة بالميراث وتارة بالنحلة، فنفعت عنها^(١).

□ وأغدق الخليفة بالعطاء الثر من بيت المال على الحارث بن الحكم أخي مروان فوهب له: «٢٠٠ ألف درهم» حينما زوجه ابنته عائشة^(٢)، ووردت إبل الصدقة إلى المدينة على عثمان فوهبها له أيضاً^(٣)، وأقطعه سوقاً في المدينة، يُعرف بـ «تهورره» أو مهزور موضع سوق في المدينة، بعد أن تصدق به رسول الله صلى الله عليه وآله على جميع المسلمين^(٤).

□ وطلب من الخليفة: عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص: صلة، فأعطاه: ٤٠٠

→ بصري، وشرح النهج للحديدي: ج ١ ص ١٩٨ ط جديد، وفي ج ٣ ص ٣٧ منه برواية أبي مخنف، «إن مروان ابتاع خمس أفرقية بمائتي ألف درهم، ومائتي ألف دينار، فكلّم عثمان، فوهبها له، فأفكر الناس ذلك على عثمان» وأضاف ابن قتيبة في المصدر الآف قوله: «فقال عبد الرحمن ابن حنبل الجمعي وكان عثمان سيّره، وكان شاهراً:

وأحلف بالله رب الأنعام ما تسرك الله شيئاً سُدي
ولكن خلقت لنا فتنة لكي نخطي بك أو نخطي

إلى قوله:

وأعطيت مروان خمس للعباد فبهيات شأه من سعي»

(١) تاريخ أبي الفدا: ج ١ ص ١٦٨، ومعارف ابن قتيبة: ص ١٩٥ ط ثانية، وشرح الحديدي: ج ١ ص ١٩٨ ط جديد، والمقد الفريد للأندلسي: ج ٤ ص ٢٨٣ ط ثانية.

وفدك بالتحريك قرية بالحجاز، بينها وبين المدينة يومان، أفاءها الله على رسوله في سنة سبع للهجرة صلحاً، وذلك: أن النبي صلى الله عليه وآله لما نزل خيبر، وفتح حصونها، ولم يبق إلا ثلاث، واشتد بهم الحصار، وأرسلوا رسول الله صلى الله عليه وآله يسألونه أن ينزلهم على الجلاء؟ وفعل النبي صلى الله عليه وآله ذلك بهم، وبلغ ذلك أهل فدك، فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يصلحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم؟ فأجابهم النبي لذلك، فهي مما لم يوجب عليه بغل ولا ركاب، فكانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وآله. اقتضاب من مصحح البلدان للحموي.

(٢) أنساب البلاذري: ج ٥ ص ٥٢، وشرح الحديدي: ج ١ ص ١٩٩ ط جديد.

(٣) المصدر الآف من الأنساب: ص ٢٨، وشرح النهج: ج ٣ ص ٣٥ طبع جديد.

(٤) المصدر الآف: من شرح الحديدي: ص ٣٤، ومعارف ابن قتيبة: ص ١٩٥، ومحاضرات الزاغبي: ج ٢ ص ٢١٢، والمقد الفريد: ج ٤ ص ٢٨٣ ط ثانية.

ألف درهم^(١) بعد ما زوجه ابنته.

وفي تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٥٨ ط النجف: «أمر له بستمئة ألف درهم» وكتب إلى عبد الله بن عامر أن يدفعها إليه من بيت مال البصرة».

□ وأما الوليد بن عقبة أخو عثمان لأمه، وستحدث عنه قريباً فقد ولّاه عثمان الكوفة على أثر عزله سعد بن أبي وقاص عنها، فاستقرض من عبد الله بن مسعود خازن بيت المال يومئذ أموالاً طائلة؟ فأقرضه ابن مسعود وطالبه بعد ذلك بالوفاء، فكتب الوليد بدوره إلى عثمان بالأمر، فأرسل عثمان إلى ابن مسعود رسالةً يؤنبه فيها بالحق على مطالبة الوليد جاء فيها «إنما أنت خازن لنا، فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال»، فطرح ابن مسعود المفتاح، وقال: كنت أظن إني خازن للمسلمين، فأما إذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك^(٢).

□ ووهب الخليفة لعبد الله بن سعد بن أبي سرح أخيه من الرضاة جميع ما أفاء الله به: من فتح «أفريقية» بالمغرب وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة، ولم يشرك في عطائه أحداً من المسلمين غيره^(٣).

□ كما أنه أعطى: سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي (١٠٠ ألف درهم) وهو من فسقة بني أمية كما مرّ ذكره وكلم جماعة من عليّة المهاجرين والأنصار ومنهم الإمام علي عليه السلام الخليفة في ذلك، فقال: إن له قرابة ورحماً بي^(٤).

□ وقال ابن أبي الحديد: «وأنه أبو موسى الأشعري بأموال من العراق جليّة، فقسّمها كلها في بني أمية»^(٥).

وقال أيضاً: «وروي عنه أي الواقدي: «إنه كان بحضرة عثمان زياتاً بن عبيد مولى

(١) المصدر الآنف: من المعارف، والعقد الفريد، وشرح النهج للحديدي: ج ١ ص ١٩٨، وفي ج ٣ ص ٣٥ منه: «إن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص قدم على عثمان من مكة، ومعه ناس، فأمر لعبد الله بثلثمائة ألف، ولكل واحد من القوم بمائة ألف...».

(٢) أنساب البلاذري: ج ٥ ص ٣٠.

(٣) شرح النهج للحديدي: ج ١ ص ١٩٩ ط جديد، وأنساب البلاذري: ج ٥ ص ٢٧.

(٤) شرح النهج للحديدي: ج ٣ ص ٣٥ ط جديد، وأنساب: ج ٥ ص ٢٨.

(٥) شرح النهج: ج ١ ص ١٩٩ ط جديد.

الحارث بن كلدة الثقفي وقد بعث إليه أبو موسى بمالٍ عظيم من البصرة، فجعل عثمان يقسّمه بين ولده وأهله بالصخاف، فبكى زياد، فقال له عثمان: لا تيك؟ فإن عمر كان يمنع أهله وذوي قرابته، ابتغاء وجه الله، وأنا أعطي أهلي وولدي وقرابتي، ابتغاء وجه الله^(١).

وقال أرباب السير: إن عثمان كان يحمي المراعي حول المدينة من الشرف، والزبدة، وغيرهما لإياله، وكانت ألف بعير، ولأيل عمه الحكم وكانت نحو ذلك ولعموم بني أمية، ويمنع إبل الصدقة ومواشي المسلمين أن ترعى فيها^(٢).

«وكان أهل الجاهلية يحمي الشريف منهم ما يروى من قطع الأرض لمواشيه وإبله خاصة فلا يشاركه فيه أحد، وإن شاركهم هو في مراتعهم وكانت هذه الظاهرة من مظاهر التجبر الجاهلي، فحين جاء الإسلام نسف هذه الظاهرة كما نسف كثيراً من عادات الطواغيت وتقاليد الجبابرة فأعلن النبي ﷺ بيانه الصارم في وجه هذه الظاهرة، فقال: «لاحمى إلا الله ولسوله»، باقتضاب من الأموال لأبي عبيد ص ٢٩٤، وكتاب الأم للشافعي ج ٣ ص ٢٠٧.

ولم يقتصر تفريط الخليفة بأموال المسلمين على إثارة ذوي قرابته وأصحابه، بل تعدى ذلك إلى الأصدقاء والمقرّبين والأتباع.

فقد وصل: الزبير بن العوام بستمائة ألف، كما وصل: طلحة بن عبيد الله بمائة ألف ونزل عن دين كان له عنده.

كما وصل: عبد الرحمن بن عوف بنحو ذلك^(٣).

(١) شرح النهج: ج ٣ ص ٣٥ ط جديد.

(٢) باقتضاب من: أنساب البلاذري: ج ٥ ص ٣٧، والسير الحلبية: ج ٢ ص ٨٢، وشرح النهج للحديدي: ج ١ ص ١٩٩ و ج ٣ ص ٣٩ ط جديد.

(٣) الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين: ص ٧٧ ط مصر، ويقول المسعودي في (مروجه: ج ٢ ص ٣٤٢) ط ثانية بمصر: «وفي أيام عثمان اقتضى جماعة من الصحابة: الضياع والدور، منهم الزبير بن العوام .. إلى قوله: وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار. وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وألف أمة ..». ويستعرض ابن العماد الحنبلي في شذراته ج ١ ص ٤٣ جمع تركة الزبير، فبنهها إلى زهاء ستين مليون درهماً، وكذلك بعد ابن سعد في طبقاته: ج ٣ ص ٧٧ ط ليدن نزوة الزبير ليقول:

□ أما إثم الخليفة - نفسه - وتملكه من الأموال والدور، والضياع والنعم، وغيرها من بيت مال المسلمين، فقد تجاوز حد الإحصاء، والحديث عن ذلك، وإن لم يكن في صميم ما نحن بصدده: من إثم مردته، وذوي قرابته، إلا أن الإشارة إليه ولو استطراداً مما يسلط الأضواء من الداخل على مدى تسبب السياسة الخارجية في عهد المبارك، الأمر الذي أدى به (رض) وبالخلافة الإسلامية من بعده إلى ريب وشكوك، وهياج واضطراب وفتن إلى حيث ينسرح التاريخ الهش مع العواطف الشخصية والأهواء المرتجلة والضغائن القبلية وما إلى ذلك: من هنات وهنات لا تقف عند حد. فلنستجّل بعد ذلك على الخليفة: بعض ما أحصاه مؤرخوه من ثرواته وممتلكاته: يقول ابن حجر في (صواعقه: ص ٦٨) ط مصر، والحلي في (سيرته: ج ٢ ص ٨٧) ط مصر: «وجاء أبو موسى الأشعري بحلية ذهب وفضة، فقسمها بين نسائه وبناته وأنفق أكثر بيت المال في عمارة ضياعه ودوره».

→ «كان للزبير بمصر خطط، وبالإسكندرية خطط، وبالكوفة خطط، وبالبصرة دور، وكانت له غلات تقدم عليه من أغراض المدينة». ويقول البلاذري في أنسابه: ج ٥ ص ٧: «إن عثمان أعطى طلحة في خلافته: مائتي ألف دينار». ويشرح السعدي في المصدر الآنف: الدور التي شيدها طلحة بالكوفة والمدينة، ثم يقول: «وكان غلته من العراق كل يوم ألف دينار وكيل أكثر من ذلك...». ويقول عن إثم عبد الرحمن بن عوف في عهد عثمان في نفس الصفحة: «لبنى داره ووسعها وكان على مرطه مائة فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف شاة من النعم وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله: أربعة وثمانين ألفاً». باقتضاب من تاريخ العقوي ج ٢ ص ١٤٦، وصفوة الصفوة لابن الجوزي ج ١ ص ١٢٨، والرياض النضرة لمحب الطبري ج ٢ ص ٢٩١.

ونضيف إلى أولئك المقربين إلى الخليفة أسماء آخر أعقد الخليفة عليهم من بيت مال المسلمين حيث كان يرى أنه سلكه الخاص يتصرف فيه كيف يشاء: منهم سعد بن أبي وقاص، فقد قال ابن سعد في طبقاته: ج ٣ ص ١٠٥، ومروج الذهب ج ١ ص ٤٣٢: «لأنه ترك يوم مات مائتي ألف وخمسين ألف درهم، وبني قصره بالمقبي فرفع سمكها ووسع لهاها وجعل أهلها شرفات ومات فيه».

ومنهم يحيى بن منه، فقد خلف خمسمائة ألف دينار وديوناً على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة ألف دينار كما في مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٤.

ومنهم زيد بن ثابت المدافع الصلب عن عثمان يوم الثوري ويوم الدار فقد قال السعدي في مروج: ج ١ ص ٤٣٤ «لأنه خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالقنوس غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار».

ثم يختم السعدي كلامه بقوله «وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال في أيام عثمان».

ويقول ابن سعد في (طبقاته: ج ٣ ص ٥٣) ط ليدن: «كان لعثمان عند خازنه يوم قتل ثلاثون ألف ألف درهم، وخمسمائة ألف درهم، وخمسون ومائة ألف دينار فانتهبت وذبحت، وترك ألف بعير بالربذة، وصداقات ببرداس وخيبر ووادي القرى قيمته مائتي ألف دينار».

ويقول الذهبي في (دول الإسلام: ج ١ ص ١٢) ط مصر: «كان قد صار له أموال عظيمة رضي الله عنه) وله ألف مملوك».

ويقول المسعودي في (مروجه: ج ٢ ص ٣٤١) ط ثانية بمصر: «وبنى داره في المدينة، وشيدها بالحجر والكلس، وجعل أبوابها من الساج والمرمر، واقتنى أموالاً وجناناً وهيئاً بالمدينة إلى قوله: وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما: مائة ألف دينار، وخلف خيلاً كثيراً، وإبلًا»، إلى نحو ذلك مما أحصاه المؤرخون، هذا والذي ذكرناه قليل من كثير: من تصرفات الخليفة العواطفية، وقطائمه وعطاياه التي أقطعها ومنحها لذويه ومقربيه من أهل بيته وغيرهم بلا هوادة من صلاح، ولا يجوز من شرع ولا مبرر من عُرف، وكذلك ثرواته الواسعة من بيت مال المسلمين.

عرض موجز باثراء الخليفة من بيت مال المسلمين

● تأميم علي عليه السلام قطائع عثمان

تأميم علي عليه السلام اقتطاعات عثمان ثم عرض لمظاهر شدة الخليفة مع الصلحاء الأمر الذي دعا بأمر المؤمنين عليه السلام فور تسلمه الخلافة الإسلامية بعد مقتل عثمان يوم أن يُحرى جميع تلك التصرفات والاقتطاعات الشخصية والعامة عن لبوس الشرع والحق، فيرميها بقوس واحد ويقول من خطبة له، ذكرها الكلبي مرفوعة إلى ابن عباس: «ألا إن كل قطعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال، فإن الحق القديم لا يبطله شيء، ولو وجدته وقد تزوج به النساء وفرق في البلدان - لرددته إلى حاله، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عنه الحق، فالجور عليه أضيق»^(١).

ويستمر الكلبي في روايته فيقول: «ثم أمر عليه السلام بكل سلاح وجد لعثمان في داره، مما تقوى به على المسلمين، فقبض، وأمر بقبض نجائب كانت في داره من إبل الصدقة، فقبضت، وأمر

بقيض سيفه ودرعه، إلى قوله: وأمر أن ترجع الأموال التي أجاز بها عثمان، حيث أصيبت أو أصيب بها أصحابها.

فبلغ ذلك عمرو بن العاص، وكان بأيلة من أرض الشام، أتاها حيث وثب الناس على عثمان فنزلها، فكتب إلى معاوية: «ما كنت صانعاً فأصنع، إذ قشرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه، كما تقشر عن العصا لحاها»^(١).

وقال الوليد بن عقبة أخو عثمان من أمه يندبه، ويذكر قبض علي عليه السلام على عامة سلاحه وأمواله ونجاتيه:

بني هاشم ردوا سلاح ابن أهلكم	ولا تنهيوه لا تحل مناهبه
بني هاشم كيف للهواة بيننا	وعند علي درعه ونجائبه ^(٢)
بني هاشم كيف التودد منكم	وسيف ابن أروى عندكم وهرايبه ^(٣)
بني هاشم ألا تردوا فإفنا	سواء علينا قتلاه وسالبه ^(٤)
قتلتكم أضي كيما تكونوا مكائه	كما غدرت يوماً بكسرى قرايبه ^(٥)

قال ابن أبي الحديد: فأجابه عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بأبيات طويلة، من جملتها:

فلا تسألونا سيفكم؟ إن سيفكم	أضيع وألقاه لدى الروح صاحبه
وتسببته بكسرى وقد كان مثله	شبيهاً بكسرى هديه وهرايبه ^(٦)

(١) اللحاء بالكسر والمد، وقصر: قشر العود أو الشجر.

(٢) من معاني الهواة: اللين والرفق، وما يرجى به الإصلاح بين المتخاصمين والتجائب: من جموع النسيج، وهو الفرس الأصل.

(٣) ويقصد: عثمان، فإن أمه: أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس.

(٤) يذكر الميداني في أمثاله برقم (١٧٩٤) صدر هذا العجز هكذا: «فمر أعلى حكلي تقض لبانه» ويقول: تمثل به معاوية في قتله عثمان. ثم يذكر بعد ذلك عن شرح الإصحاح للفارسي الأبيات المذكورة للوليد بن عقبة ..

(٥) صدر هذا البيت عند المسعودي في (مروجه): ج ٢ ص ٣٥٦ هكذا «غدرتم به ..». والمراذب على مفاهل؛ جمع المرزبان بضم الزاء وهو الرئيس، والوزير في لغة الفرس.

(٦) هكذا في شرح التهجج للحديدي: ج ١ ص ٧٠ - ٧١، ط جديد، ويذكر المسعودي في مروجه: الأتف: أبيات ستة بدل

ج - بعد ما أوجزنا عرضَه:

● ترجمة عمار بن ياسر، أبي ذر الغفاري، عبد الله بن مسعود

من استئثار الخليفة الأموي بأموال المسلمين، وإيثاره أهل بيته، وذويه ومقربيه بها، وتسليطهم على مناصب دولته، ومناصب إقطاعاته.

نواصل الحديث بإيجاز أيضاً عن الظاهرة الثالثة، التي أشار إليها ابن أبي الحديد وهي: غلظة خلقه، وشدة معاملته مع كبار الصحابة، وشيعة أمير المؤمنين عليه السلام الذين أنكروا سياسته وسياسة عمّاله، التي تخالف الحكم الشرعي، والأعراف الاجتماعية، أمثال: عمار بن ياسر^(١)، وأبي ذر الغفاري^(٢)، وعبد الله بن مسعود^(٣) وغيرهم.

→ البتين. وينسبها إلى الفضل بن المباس بن عتبة بن أبي لهب. وذكر منها قوله:

سلوا أهل مصر عن سلاح ابن

الختنا

وكان ولي العهد بعد محمد

علي ولي الله أظهر دينه

وأنت امرؤ من أهل صيفور

مارع

وقد أنزل الرحمان: إنك فاسق

فهم سلبوه سيفه وحرائبه

علي وفي كل المواطن صاحبه

وأنت مع الأتلفين فيما تحاربه

فمالك فينا من حميم تعاتبه

فمالك في الإسلام سهم تطالبه

(١) إنه الصحابي الجليل: أبو اليقظان: عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس ... التميمي، التقطاني. مولى بني مخزوم وحليفهم، حيث إن أمّه: سمية بالتصغير، بنت خياط كانت مولاة أبي حذيفة المخزومي، فزوجها لأبيه ياسر، فولدت عماراً في حي بني مخزوم من مكة، فأعتقه أبو حذيفة، ونشأ في حبه، وكفّهم وولاتهم وذلك قبل الهجرة النبوية بزهاء أربعين عاماً، وفي أعلام الأزركلي: إن ولادة عمار كانت قبل الهجرة بسبعة وخمسين عاماً، وكذلك ولدت سمية لياسر ولداً آخر اسمه: عبيد الله. وكان عمار وأخوه وأبواهما من المتقدمين في الإسلام، فقد أسلموا كما روي قبل انتقال النبي ﷺ إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم، كما كانوا من المعزين في الله، ومن المضطهدين على حساب إيمانهم الراشخ، فقد كان المشركون وفي طلبهم بنو مخزوم يخرجون بهمار وأخيه وأبويه وكانوا أهل بيت إسلام، إذا حمت الظهيرة، فيعذبونهم برمضاء مكة بأنواع التعذيب، فيمر عليهم رسول الله ﷺ في بداية الدعوة وهم يمدّون، فيشدّ على قلوبهم ويقول: «صراً يا آل ياسر» أو أبشروا إن موعدكم الجنة أو إن مصيركم إلى الجنة» برواية عثمان، أو جابر وإخراج ابن هشام في سيرته، وأبي نصم في

→ حليته، والهيئتي في مجعته، والذهبي في سير أعلام النبلاء، وابن عساكر، كما في كنز العمال للمفتي، ومسند أحمد بن حنبل، وغيرهم كثير.

وقد قتل المشركون أبوه: (باسر وسمية) من جراء التعذيب القاسي، حيث خيروهما بين البرائة من محمد ﷺ وإسلامه، أو انتقل تحت التعذيب، فاختاراً أشرف الأمرين، فصمداً على الإيمان، فكانا أول قتيلين في سبيل الإسلام.

أما عمار فشير هو الآخر كما شُهر أبواه فأعطاهم مكرهاً بلسانه ما أرادوا: من كلمة الكفر، وقلبه مطمئن بالإيمان، فسلم من القتل، فجاء بعض المسلمين على الفور إلى النبي ﷺ فأخبره بأن عماراً كفر دون أبوه، فقال ﷺ: «كلا، إن عماراً ملي إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه». وجاء عمار إلى النبي ﷺ وهو يبكي من فعله فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه، ثم قال له «إني عبادوا لك فعد لهم بما قلت»، فأنزل الله تعالى في ذلك قوله: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ (التحل ١٠٦) ذكر ذلك عامة المفسرين من الفريقين والمؤرخين وأرباب الحديث. ونزل فيه قوله تعالى: ﴿أئن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة﴾ (الزمر ٩)، فقد ذكر ابن سعد في (الطبقات ٣ / ١٧٨ ط لين) نزولها في عمار بالخصوص، وكذلك ذكر القرطبي في تفسيره ج ١ ص ٣٣٩، وأخرج ابن عبد البر في الاستيعاب بترجيته ج ٢ ص ٤٣٥ وعامة المفسرين من طريق ابن عباس نزول قوله تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه، وجعلنا له نوراً يحشي به في الناس﴾، في خصوص عمار.

وكان عمار في طلبه المهاجرين مع النبي ﷺ إلى المدينة، وشهد معه عامة عزواته وحروبته ضد المشركين، وأبلى فيها بلاءً حسناً، ولقد حظي عمار بأوسمة الثناء والإطراء الجميلين من النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، فقد رويت عنه كثير من الأحاديث في ذلك المضمار: من ذلك ما لقبه بالطيب المطيب، فقد روي عن علي عليه السلام: أن عماراً دخل على النبي ﷺ فقال: مرحباً بالطيب المطيب، ستن ابن ماجة، وحلية الأولياء، والإصابة لابن حجر، وسير أعلام النبلاء للذهبي ومن ذلك ما روي عنه ﷺ من طريق علي عليه السلام: قوله «دم عمار ولحمه وعظمه حرام على النار أن تطعمه» كما في مجمع الزوائد، وكنت العمال، وسير أعلام النبلاء ومن ذلك، قوله ﷺ برواية عائشة: «لقد ملئ عماراً إيماناً من قرنه إلى مشافهه أو إلى أخمص قدميه كما في مجمع الزوائد، وكنت العمال، واستيعاب ابن عبد البر.

ومن ذلك قوله ﷺ مرفوعاً: «إني عماراً مع الحق والحق معه، يدور عمار مع الحق أينما دار، وقاتل عمار في النار»، وقوله ﷺ: «إذا اختلف الناس كان ابن شمية مع الحق» كما في طبقات ابن سعد، وجامع السويعي، وابن كثير في تاريخه ج (٧) وقوله ﷺ كما في الاستيعاب من طريق حذيفة: «عليكم يا بن شمية؟ فإنه لن يفارق الحق حتى يموت»، وقوله ﷺ من طريق عائشة: «ما شُهر عمار بين أمرين إلا اختار الأرشد منهما» كما في مسند أحمد، وسنن ابن ماجة، ومصابيح البلوي، وكنت العمال، والإصابة وغيرها.

وقوله ﷺ من طريق خالد بن الوليد، وقد دارت بينه وبين عمار مشادة كلامية بلغت النبي ﷺ: «من عادى عماراً فقد عاداه الله، ومن أبغضه أبغضه الله. كما في مستدرک الحاكم، وأسد الغابة، والإصابة، وكنت العمال، ومسند أحمد، والاستيعاب،

→ وغيرها. وكان أحد الاثنين اللذين لا يمان أن يمسى الله طرفه عين، ولا يخالفان الحق قيد شعرة؛ هو ومحمد بن أبي بكر على حدّ تصير عبد الله بن جعفر كما أخرج ذلك الطبراني في مجمع الزوائد للهيتمي: ج ٩ ص ٢٩٢.

وكان أحد الثلاثة أو الأربعة الذين اشتاقت الجنة إليهم، وفي طليحهم: إمامهم علي بن أبي طالب عليه السلام جاء ذلك بمدة طرق رواية أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله كما في مستدرک الحاكم، وحلية أبي نعم، ومجمع الهيتمي، واستحباب أبي عمرو وعامة كتب السير. إلى غيرها من كلمات التناء والإطراء التي حفلت بها عامة كتب الحديث والسير، وهو أول من بنى مسجداً لله تعالى في الإسلام، بنى مسجد قبا، وكان الناس في بناء المسجد النبوي ينقلون لبنه لبنه، وصار ينقل لبنتين لبنتين، ففشي عليه، فأناه النبي صلى الله عليه وآله فجعل يمسح التراب من وجهه، ويقول: ويحك يا بن سمية، الناس ينقلون لبنه لبنه، وأنت تنقل لبنتين لبنتين، رغبة في الآخرة؟ الدرجات الرفيعة للسيد عليخان: ص ٢٦٠ ط النجف، وسر أعلام النبلاء للذهبي: ج ١ ص ٢٩٩ وفي رواية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي وعمار يعملون مسجداً، فرز عثمان في بزة له يخطر، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أربز به؟ فقال عمار:

لا يستوي من يعمر المساجدا يسفل فسيها راكعاً وساجدا
ومن تراء عانداً معانداً عن الفجار لا يزال هاندا

فغضب عثمان، وجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وقال: «ما أسلمنا لنشتم أهراسنا وأظلسنا، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: أتحبب أن يقال بذلك، فنزل آيتان: «يمنون عليك أن أسلموا، قل لا تتوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين» (الحجرات / ١٧)، ثم قال النبي صلى الله عليه وآله لعلي: أكتب هذا في صاحبك؟ ثم قال النبي صلى الله عليه وآله لعلي: أكتب هذه الآية: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...» إلى آخر آية ٦٢ من سورة التور، رجال الكشي: ص ٣٤ ط النجف.

وكان عمار أحمد حوارى أمير المؤمنين عليه السلام وخاصته، وله موقف إيماني صارم يوم السقيفة في وجه أبي بكر، فقد كان أحد الاثنى عشر الذين احتجوا على بيعة الناس أبا بكر، وتركوا علي بن أبي طالب عليه السلام فاستجازوا علياً أن يقفوا في وجه الخلافة المرتجلة الصبر عنها بالفتنة على لسان عمر، فكان مما قاله عمار وهو مخاطب المسلمين وأبو بكر يخطب على المنبر: «يا معاشر قريش، وبيا معاشر المسلمين، إن كنتم علمتم، وإلا فأعلموا: إن أهل بيت نبيكم أولى به، وأحق بإرثه، وأقوم بأمر الدين وآمن على المؤمنين، وأحفظ لمأثته، وأنصح لأئمة، فمروا صاحبكم، فليرد الحق إلى أهله قبل أن يضطرب حملكم، ويضعف أمركم، ويظهر شتاتكم، وتظم الفتنة بكم، وتختلفون فيما بينكم، ويقطع فيكم هدوكم، فقد علمتم أن بني هاشم أولى بهذا الأمر منكم، وعلي من بينهم وليكم بهد الله ورسوله». إلى آخر كلامه الذي ذكره، وذكر كلمات جماعته الأحد عشر: الطبرسي في (احتجاجه: ج ١ ص ٩٧ - ١٠٤) ط النجف.

وهكذا ظل عمار مكرهاً على مسaire أبي بكر، ومبايعته، حتى إذا استخلف عمر وبايعه جمهور المسلمين كان عمار على كره ممن أظهروا البيعة له، فولاء عمر في بداية أمره على الكوفة، فلم يجد عمار يوماً إلا يقول الولاية، ولكن عمر سرعان ما

→ عزله عنها على أثر وشاية عليه: أنه ممن لا يرى أحقية الخلافة لإلهي بن أبي طالب عليه السلام. ولما قتل عمر، وكان قد ضم الخلافة شوري بين المسلمين على ما هو مفصل في بابها، كان عمار من أشد الناقسين على ذلك اللف والدوران من قبل عمر في سبيل حصر الخلافة بثمان.

وكان يهيب بأولئك المجتمعين في مجلس «التوري المرصودة»، وينادي بين الناس ويقول: «أيها الناس، إن الله أكرمنا بنينا، وأعزنا دينه، فأنتي تصرفون هذا الأمر - يعني الخلافة - عن بيت نبيكم»، القند الفريد: ج ٤ ص ٢٧٩ ط ثانية.

الأمر الذي أدى به إلى الضرب والتككيل والتوهين من قبل مؤيدي عثمان، وبني أمية، وبعد مقتل عثمان كان عمار في طليعة الداهين المحسمين إلى بيعة أمير المؤمنين عليه السلام وكانت له مواقف صارمة، ومناظرات حاسمة في وجه المتطلفين عن بيعته، كعبد الله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، وأخراهم من المنحرفين عن جادة الصواب، وكان بعد ذلك بعدة أشهر من أخف شعبة علي ومواليه نهوضاً لحرب الناكثين أصحاب الجمل.

ولقد بعته علي عليه السلام قبل تحركه إلى الكوفة مع ابنه الحسن الزكي عليه السلام ومعهما رجال من أهل الفكر والمنطق والدين، لفرض استنهاض الناس إلى اللحق بجيش علي في البصرة.

فكان له في ظلال الإجماع الحسن عليه السلام حينئذ مواقف وخطب ودعوات في هذا الشأن.

حتى إذا تمت رسالته من تنفير أهل الكوفة للحرب، التحق أمامهم بجيش أمير المؤمنين عليه السلام.

وأبلى في حرب الناكثين - أتباع المرأة - أشد بلاء كما هو مفصل في كتب السير.

ثم كان له الموقف الجهادي المرير يوم صفين في حرب القاسطين من أهل الشام، وكانت رايته يحملها زميله في الجهاد الصحابي البطل هاشم الرقال وكان على الرجالة.

فكان عمار يشجع هاشماً، ويشده إلى التقدم، ويقول له: تقدم فدالك أبي وأمي.

وكان عمار في ذلك اليوم علماً لأصحاب محمد عليه السلام يتبعونه في ساحة الهجاء، لمعلمهم أنه على الحق، وأن قاتله من الفئة الهاكية على حد تبصير النبي صلى الله عليه وآله وإخباره عن ذلك.

وعمار ينادي في وسط المعركة: «ولله لو قاتلونا، وهزمونا حتى يبلغوا بنا سمفات هجر، لعرفت أنا على الحق، وأنهم على الباطل». ثم يتوغل في القتال، وهو يقول:

اليوم أنقضى الأهبة محمداً وحزبه

ثم يقول مخاطباً أهل الشام من أصحاب معاوية،

نحن فسر بناكم على تنزيلة واليوم نضربكم على تأويله

ضرباً يزيل الهام عن مقبله ويرجع الخليل عن خليله

أو يرجع الحق إلى سبيله

وهكذا ظل عمار يواصل الكفاح ليل نهار حتى إذا كانت ليلة الهمير عطش عطشاً شديداً، فطلب ماء لينظر به، وكان ذلك اليوم

→ صائماً فجي إليه بلبن، فبسم عمار قبل أن يشره ابتسامة أشرفت فيها نفسه المطمئنة، ثم قال «قال لي حمبي رسول الله ﷺ آخر زادك من الدنيا ضيق من لبن»، ثم شرب اللبن، وكثر على القوم، وسرعا ما أهوى على رأسه سيئ أبيي الغامية الجهني، وكان هو الآخر يترصد من أيام عثمان، فقتل رضوان الله عليه، وذلك في شهر ربيع الآخر من سنة ٣٧ هـ. فصرى عليه أمير المؤمنين (عليه السلام) ودفنه ببيابه المغضبة بدم الشهادة، ولم يتسلمه، وحزن عليه حزناً شديداً ورثاه بقوله:

ألا أيها الموت الذي هو لاصدي أرحني فقد أفنيت كل خليل
أراك بصيصاً بالذين أحبهم كأنك كنتم نحوهم بهدليل

وكان عمره يومئذ قد تجاوز التسعين بنيف، والأشهر بين المؤرخين: إنه كان: ابن ثلاث وتسعين عاماً عن عامة كتب السير والمعاجم التي تذكر الصحابة والتابعين كأعلام الزركلي، والإصابة، والاستيعاب، والمحرر للبهنباري، وتاريخ الطبري وعامة كتب السير ضمن حوادث سنة ٣٧ هـ وحلية الأولياء لأبي نعيم، وصفة الصفوة، وخلاصة تهذيب الكمال، ورجال الكشي، وسلسلة البحار للقمي، واحتجاج الطبرسي، وسير أعلام النبلاء للذهبي، والدرجات الرفيعة للمدني، ومستدرک الحاكم، ومجمع الزوائد للهيتمي، وكنز العمال للمتقي، وطبقات ابن سعد، وجامع السيوطي، ومصابيح البغوي وغيرها كثير مما ذكره في هرص ترجمته.

(٢) إنه الصحابي النائر للحق أبو ذر: جندب بن جنادة كلثامها بالضم، بن شفيان على الأصح بن عبيد بن حرام بن غفار بالكسر، وغفار، بطن من مليل بالتصغير، بن ضمرة بفتح فسكون، بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة. لقد توارت الأخبار عنه: إنه كان يتعهد ويصلي إلى الله قبل ظهور الإسلام بمكة بعدة سنين كما روى ذلك ابن سعد في طبقاته، وأبو نعيم في حليته، وابن الجوزي في صفوته، وابن عساكر في تاريخه وغيرهم.

وقد ذكر المؤرخون من الفريقين: قصة هدايته للإسلام وكيفية مجيئه من «غفار» إلى مكة حينما بلغه خبر الرسالة واتصاله بأمر المؤمنين (عليه السلام) وإدخال علي إياه على رسول الله ﷺ وإظهار الإسلام على يده، ورجوعه إلى أهله بأمر النبي ﷺ. ثم عوده إلى النبي ﷺ وهو في المدينة بعد واقعة بدر إلى آخر ما ذكر هناك بتفصيل يقفنا عن تكراره هنا، فكان بعد ذلك من أعظم الصحابة العارفين، المتفانين في إعلاء كلمة التوحيد وإرساء قواعد الرسالة، وكان أحد أركان الإسلام الأربعة، ومن حوار ي علي أمير المؤمنين (عليه السلام).

وكان من المتقدمين في إسلامه، فقد روي عنه: إنه كان ثالث أو رابع أو خامس المسلمين كما ذكر ذلك ابن سعد في طبقاته: ج ٤ ص ١٦١، ومستدرک الحاكم ج ٣ ص ٣٤٢، والإصابة لابن حجر: ج ٤ ص ٦٣، والاستيعاب لابن عبد البر بترجمته. كما روي عنه: إنه كان أول من حبى رسول الله ﷺ بتحية الإسلام من المسلمين فقال: السلام عليك يا رسول الله. فقال النبي ﷺ له: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. ذكر ذلك مسلم في مناقبه ج ٧ ص ١٥٤، وأبو نعيم في حليته: ج ١ ص ١٥٩، وابن عبد البر في استيعابه ضمن ترجمته.

وقد ورد الثناء عليه في علمه وصدقته، وزهده وإيمانه وفضله على أئمة كثير من الحفاظ وأهل الحديث، يروون ذلك عنه وعن

→ النبي ﷺ وعن علي عليه السلام وعن بعض الصحابة الآخرين. ففي إصابة ابن حجر ج ٤ «كان أبو ذر يوازي ابن مسعود في العلم». وفي حلية أبي نعيم: ج ١ ص ١٦٩: «... سأل أبو ذر رسول الله ﷺ عن الأصول والفروع، وسأله عن الإيمان والإحسان، وسأله عن رؤية ربه تعالى، وسأله عن أحسن الكلام إلى الله تعالى، وسأله عن ليلة القدر: أترفع مع الأنبياء أم تبقى، وسأله عن كل شيء، حتى مشى العصى في الصلاة...».

وفي مستند أحمد، ج ٥ ص ١٦٣: «عن أبي ذر قال: سألت النبي ﷺ عن كل شيء حتى سألته عن مسح العصى، فقال: واحدة أودع». وفي عامة كتب الحديث، والأخبار بطرق وألسنة مختلفة عن النبي ﷺ قوله: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر».

وفي طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٧٠: «مثل علي عن أبي ذر؟ فقال: كان شحيحاً حريصاً على دينه، حريصاً على العلم، وكان يكثر السؤال فيعطى ويمتنع، أما إنه قد ملني له في وعائه حتى امتلأ».

وفي استيعاب أبي عمرو ضمن ترجمته: «كان من أوعية العلم المثرزين في الزهد والورع والقول بالحق: سئل علي عن أبي ذر؟ فقال: ذلك رجل وعى علماً عجز عنه الناس، ثم أوكأ عليه أو فيه فلم يخرج شيئاً منه».

وقد تواتر النقل عن رسول الله ﷺ في بيان زهده وإيمانه قوله ﷺ «من سره أن ينظر إلى تواضع عيسى بن مريم وزهده، فلينظر إلى أبي ذر»، وفي لفظ آخر: «من سره أن ينظر إلى شبه عيسى بن مريم خلقاً وخلقاً فلينظر إلى أبي ذر» كما في مجمع الزوائد للهيتمي: ج ٩ ص ٣٣٠.

وفي لفظ آخر: «إن أبا ذر ليعارى عيسى بن مريم في عبادته»، كنز العمال للمتقي ج ٦ ص ١٦٩.

وقد أخرج الترمذي في صحيحه: ج ٢ ص ٢١٣، وابن ماجه في سننه ج ١ ص ٦٦، والحاكم في مستدركه: ج ٢ ص ١٧٠، وغيرهم عن النبي ﷺ برواية بريدة قوله ﷺ: «إن الله عز وجل أمرني بحب أربعة، وأخيرني أنه يحبهم: علي وأبو ذر والمقداد وسلمان». وفي مجمع الهيتمي ج ٩ ص ٣٣٠ من طريق أنس: «إن الجنة تشاق إلى ثلاثة: علي وهمار وأبي ذر». وفيه أيضاً من طريق الحسين بن علي عليه السلام: «قال أنس جبريل النبي ﷺ فقال: يا محمد، إن الله يحب من أصحابك ثلاثة فأحبهم؟ علي بن أبي طالب وأبو ذر والمقداد، إلى نحوها من الأحاديث الكثيرة الواردة في حقه من طرق مختلفة.

ومن مظاهر زهد أبي ذر: إن عمر بن الخطاب طلب منه أن يظهفه؟ فقال أبو ذر «أرض بالموت، وخف بالقوت، واجعل صومك الدنيا، ولطرك الموت أو الآخرة» عن سفينة البحار للقمي.

وفيه أيضاً: «أن عثمان أرسل إليه يوماً كساً فيه دراهم كثيرة مع عبد له، وقال له: إن قبلها أبو ذر فأنت حر، فأتى الغلام بالكيس إلى أبي ذر، وألح عليه في قبوله، فامتنع أبو ذر من قبوله، فقال له الغلام: اقبله، فإن فيه عتقي، فقال له أبو ذر: نعم ولكن فيه رقي». وفي رواية موسى بن بكر عن أبي الحسن عليه السلام: أنه قال: «إن أبا ذر بكى من خشية الله، حتى اشتكى عينه، فخافوا عليها، فقتل له، يا أبا ذر، لو دهمت الله في عينك فقال لبي هاتهما لمشغول، وما عثاني أكثر، فليل له: وما شغلك منهما؟ قال: المظلمتان الجنة والنار»، الدرجات الرفيعة للسيد عليخان: ص ٢٣٥ ط النجف.

→ وكثيراً ما كان النبي ﷺ يخبر من زهده في حياته وقصة وفاته: غريباً عن مسقط رأسه، وموطن هجرته، ومجمع أحبته، فيقول: «يرحم الله أبو ذر: يعيش وحده، ويموت وحده، ويحضر وحده، ويدخل الجنة وحده». رجال الكشي أبي عمرو: ص ٣٠ ط التجف، وسأله رسول الله ﷺ يوماً عن كلمات كان يدعو بها أبو ذر كل يوم إذا أصبح؟ فقال: يا رسول الله، أقول إذا أصبحت: «اللهم إني أسألك الإيمان بك، والتصدق بنبيك، والعافية من جميع البلاء، والشكر على العافية، والغنى عن شرار الناس»، الدرجات الرفعة ص ٢٣٥ ط التجف.

وفي رجال الكشي أيضاً رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن عثمان أرسل إليه يوماً مولى له، ومعهما مائتا دينار. وقال لهما: انطلقا إلى أبي ذر، فقولا له: إن عثمان يقرؤك السلام، ويقول لك: هذه مائتا دينار، استعن بها على ما ناله؟ فجاء الرسولان إلى أبي ذر، وأدبا رسالة عثمان، فقال أبو ذر لهما: هل أعطى أحداً من المسلمين مثل ما أعطاني؟ فقالا: لا. فقال أبو ذر: فإنما أنا رجل من المسلمين، يسعني ما يسع المسلمين، قال الرسولان: إن عثمان يقول: هذا من صلب مالي، وبالله الذي لا إله إلا هو، ما خالطها حرام، ولا يمت بها إليك إلا من حلال، فقال أبو ذر: لا حاجة فيها، وقد أصبحت يومي هذا وأنا من أغنى الناس.

فقالا له: عافاك الله وأصلحك! ما نرى في بيتك: قليلاً ولا كثيراً مما تمتنع به؟

قال: بلى: تحت هذا الأكاف بالكسر والفتح: قطعة رقيقة من النسيج توضع تحت رجل الدابة الذي ترون رغيفاً صغير، قد أتى عليها أهام، فما أصنع بهذه الدنانير؟ لا والله حتى يعلم إني لا أقدر على قليل ولا كثير، وقد أصبحت غنياً بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام وعترته الهادين المهديين، الراضين المرضيين، الذين يهدون بالحق ويه يدلون، وكذلك سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه لتصبح بالشيخ أن يكون كذاباً.

ثم قال للرسولين: فرقاها على عثمان، وأعلماء، أنه لا حاجة لي فيها، ولا فيما عنده، حتى ألقى الله ربي فيكون هو الحاكم فيما بيني وبينه». وكان أبو ذر من طلبة الصحابة الذين وقفوا مع الحق إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام فلم يبايع أباه بكر يوم السقيفة أسوة بعلي عليه السلام وحموم أهل بيته وأصحابه المؤمنين، وكان له موقف صلب، واحتجاج مفصل مع جماعته الأحد عشر الذين حاجبوا أباه بكر في تمصده خلافة المسلمين دون علي عليه السلام، فقد استأذنوا علياً عليه السلام في أن يأثوا أباه بكر ويحاجبوه؟ فأذن علي عليه السلام لهم، فوردوا المسجد وكان أبو بكر على المنبر يخطب يوم الجماعة فأخذوا يحاجبونه: الواحد تلو الآخر وكان أبو ذر من بينهم.

فقام وقال: «يا معشر قريش، أصبحت قباحة، وتركتم قرابة، والله ليردن جماعة من العرب، ولتشكن في هذا الدين، ولو جعلتم الأمر في أهل بيت نبيكم، ما اختلف عليكم سفهان، والله لقد صارت أي الخلافة لمن غلب، ولتطمعن إليها من ليس من أهلها وليستكن في طلبها دماء كثيرة .. ثم قال: لقد علمتم وعلم غياركم: إن رسول الله ﷺ قال: «الامر يهدي لملئ، ثم لا يني: الحسن والحسين، ثم للطاهرين من ذريتي». فاطرحتم قول نبيكم، وتناستمت ما عهد به إليكم، فأطعتم الدنيا الغائبة ونسيت الآخرة الباقية التي لا يهرم شأنها، ولا يزول نعيمها، ولا يحزن أهلها، ولا يموت سكانها بالحقير التأفه الثاني الزائل.

→ فكذاك الأمم من قبلكم كبرت بعد أنبيائها، ونكست على أعقابها، وغُيرت وبدلت، واختلفت، فساوتهم حذو النمل بالحل. والقذة بالقذة، وعما قليل تذوقون وبال أركم، وتجزون بما قدمت أيديكم، وما الله بظلام للعبيد». احتجاج الطبرسي ج ١ ص ١٠٠ ط النجف.

ويقي أبو ذر مغاضباً استتار الشيخين بالخلافة الإسلامية دون صاحبها الشرعي المنصوب بأمر الله ورسوله: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. حتى إذا قتل عمر بن الخطاب، ولعبت مهزلة «التوري» المدبرة لبيل لبعثها واستخلف عثمان بن عفان أول خليفة أموي واستحوذ هو وبنو أمية ومواليهم على مناصب الدولة داخل المدينة وخارجها كما استأثروا بأموال المسلمين والفراء.

اشتد نكير أبي ذر على ذلك الوضع المنحرف عن سنن الشرع والعرف، فلاحقته السلطة الأسوية، المتمثلة يومئذ بحضمان وجلاوزته ومرترقيه وعماله الأمويين خصوصاً؛ ذبهم الضب الماكر معاوية بن أبي سفيان. فكانت عاقبة هذا التائر الإسلامي المصلاقي أن يلفظ آخر أنفاسه الطاهرة منتفياً عن المدينة إلى الريزة، فيتم تجهيزه ودفنه هناك من قبل جماعة من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام بقيادة مالك بن الحارث الأشتر كما سنذكر ذلك في سنة ٢٢ هـ على الأشهر بين المؤرخين.

(٣) هو أبو عبد الرحمان: عبد الله بن مسعود بن الحارث بن غافل بن جندب بالضم، الهذلي بالضم فالفتح: نسبة إلى قبيلة هذيل بن مدركة أكبر قبيلة عربية تسكن وادي نخلة بجوار مكة وكان حليف بني زهرة بمكة، وأمه: أم عبد بنت عبد ود بن سواة بن قديم بن صاهلة الهذلية أيضاً. كان رضوان الله عليه من أكابر الصحابة: فضلاً وعلماً وعقلاً وصدقاً وقرباً من رسول الله صلى الله عليه وآله. وحفيلاً لحديثه، وكان من طلائع السابقين الأولين إلى الإسلام، قيل: إنه سادس رجل من المسلمين، وكان ممن هاجر الهجرة من وصلى إلى القبلتين، وأول مسلم صحابي جهر بقرآته القرآن بمكة، وكان خادماً رسول الله صلى الله عليه وآله وصاحب سزّه من بين أصحابه ورفيقه في حله وترحاله، وشهد معه بعد الهجرة بدرأ، وعموم غزواته وحروبه بعدها، وكان من القراء الأربعة للقرآن، المتميزين في ذلك.

وقد أخى النبي صلى الله عليه وآله بينه وبين الزبير بن العوام في مكة، وبينه وبين سعد بن معاذ في المدينة. وقيل: أخى بعد ذلك بينه وبين أنس بن مالك، وقد نزل فيه، من أي الذكر الحكيم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لَهِ، وَالرَّسُولِ، مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران / ١٣٢)، قالوا: نزلت الآية في جماعة من الصحابة كان من عليهم عبد الله بن مسعود، ذكر ذلك كل من ابن سعد في طبقاته، ج ٣ ص ١٠٨، وابن كثير في تفسيره، ج ١ ص ٤٢٩، والخازن في تفسيره، ج ٢ ص ١٨ من طريق عبد الله بن مسعود كما نزل فيه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَاتِماً يُعَذِّرُ الْآخِرَةَ، وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر / ٩) فقد ذكر نزولها في ثلاثة من عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ابن مسعود وعمار وسلمان: الخازن في تفسيره، ج ٣ ص ٥٣، والشريني في تفسيره، ج ٣ ص ٤١٠، أما الأوسمي في تفسيره، ج ٢٣ ص ٤٤٧، وكذلك السيوطي في الدر المنثور، فقد ذكر ←

→ نزولها في عمار وابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة، كما نزل فيه مع خمسة من علية أصحاب النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي. يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء. فسقط عنهم فتكون من الظالمين﴾ (الأشعاع / ٥٢) عن الطبري في تفسيره، والحاكم في المستدرک، وابن عساكر في تاريخه وعامة التفسير: للقرطبي، وابن كثير، والخازن، والشوكاني، والدر المنثور وغيرهم.

وقد ورد في مقام وعيه للقرآن، وصحة قرائته قول النبي ﷺ: «من سره أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم سعد» يعني ابن مسعود أخرجه أبو عبيد في فضائله، وأحمد في مسنده، وابن ماجه في سننه: ١ / ٦٣، وأبو نعيم في حليته: ج ١ ص ١٢٤، والحاكم في مستدرکه: ٣ / ٣١٨، والهيتمي في مجمعہ: ج ٩ ص ٢٨٧، والمتقي في كنز العمال: ج ٦ ص ١٨١، وابن حجر في إصابته، وابن عبد البر في استيعابه، والكشي في رجاله ضمن ترجمته، كما ورد في مقام الثناء على عقله وهديه ودينه قوله ﷺ: «لو كنت مؤمراً أحداً بغير مشورة لأمرت ابن أم عبد»، وقوله ﷺ: «اعتدوا بهدي عمار وتسلخوا بهدي ابن أم عبد»، وفي رواية «تسلخوا بهدي عمار، وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه» مسند أحمد: ج ٥ ص ٣٨٥، وحلية أبي نعيم: ج ١ ص ١٢٨، وكنز العمال: ج ٧ ص ٥٥، وإصابة ابن حجر ضمن ترجمته، وقوله ﷺ: «رضيت لأمتي ما رضي الله عنها وابن أم عبد، وسخطت لأمتي ما سخط الله لها وابن أم عبد» مجمع الزوائد للهيتمي: ج ٩ ص ٢٩٠، ومستدرک الحاكم: ج ٣ ص ٣١٧، وكنز العمال للمتقي: ج ٦ ص ١٨١، والاستيعاب ضمن ترجمته، كما ورد عن علي عليه السلام في الثناء عليه، وقد سئل عن جراحة من الصحابة، بمن فهم ابن مسعود قوله: «أما ابن مسعود فقرأ القرآن أو علم القرآن وعلم السنة، وكفى بذلك مستدرک الحاكم: ج ٣ ص ٣١٧، وحلية أبي نعيم: ج ١ ص ١٢٧، وكنز العمال: ج ٦ ص ١٨٠، والإصابة والاستيعاب ضمن ترجمته منهما، وقد روى أبو غليان عن ابن عباس قال: «قال لي عبد الله بن عباس: أي القرائتين تقرأ؟ قلت: القرائة الأولى قرائة ابن أم عبد يعني ابن مسعود فقال: أجل، هي الأخيرة، إن رسول الله ﷺ كان يعرض القرآن على جبرئيل في كل عام مرة، فلما كان العام الذي قبض فيه رسول الله ﷺ عرض عليه مرتين، فحضر ذلك عبد الله بن مسعود، فعلم ما نسخ من ذلك وما بدل»، الاستيعاب بترجمته، وقد ورد عن ابن مسعود نفسه: إنه قال: «أخذت سبعين سورة من القرآن من في رسول الله ﷺ وبقية من علي بن أبي طالب عليه السلام. سفينة البحار، والكنى والألقاب للقمي ضمن ترجمته باسمه وكنيته.

وكان ابن مسعود بارعاً في الفصاحة والبلاغة وصياغة الكلام، وقد أورد له الجاحظ في كتابه: (البيان والتبيين) كثيراً من خطبه وكلماته، ولتميزه في الفصاحة والبلاغة وصياغة التعبير، اختاره النبي ﷺ مع من اختاره من أصحابه المتميزين بذلك الصفات لرد على المشركين «المعتسمين» وهم سبعة عشر رجلاً من قریش، بينهم الوليد بن المغيرة المخزومي أيام الموسم فاقسموا عقاب مكة، ولجباها، يصون الناس عن النبي ﷺ وعن الإيمان برسائله ويرمونه بالجنون أو السحر أو الشر أو الكهانة ونحوها من كلمات الشتم والسب، وإنما سموا بالمعتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق في مكة للقيام بما أمروا به، فأما منهم الله شر معة.

الحديث عن التنكيل بعمار بن ياسر وتعذيبه

أما التنكيل بعمار بن ياسر وتعذيبه، فنقتضيه مما فصلته كتب السير، فنقول: لما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان بحكم الشورى وطفق يؤثر أهل بيته، ومقربيه بمناصب الدولة، ويسلطهم على أموال المسلمين بلا هوادة، ويقصي وجوه الصحابة وأخيارهم خصوصاً الموالين منهم لعلي عليه السلام وأهل بيته عن ذلك المضمار، أخذ عمار وهو مدار الحق وعنوانه يشتد في معارضة الخليفة وينكر عليه تصرفاته وسلوكيته بين الفئتين والأخرى، متحماً منه أنواعاً من التنكيل والتعذيب والتوهين في عدة مناسبات: منها

→ وهم سبعة من بني مخزوم: أبو جهل، والماص، وأبو قيس بن الوليد، وقيس بن الفاكه، وزهير بن أبي أمية، والأسود بن عبد الأسد، وصيفي بن السائب، وثلاثة من عبد شمس: عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، وحنظلة بن أبي سفيان بن حرب، واثنان من بني أسد بن عبد العزى: أبو الهيثري بن هاشم ورفعة بن الأسد، واثنان من بني سهم: منبه ونبيه ابنا الصجاج، واثنان من جُرُح: أمية بن خلف وأوس بن معمر بكسر أوله وفتح تائه، وواحد من بني عبد الدار، وهو النضر بن الحارث بن كلفة، وقد نزلت فيهم آية: «كما أنزلنا على المقتسمين» (الحجر / ٩٠) المحتر للنسابة البغدادي بحنوان «المقتسمون». وكان ابن مسعود بعد وفاة النبي عليه السلام إلى جانب المعتنقين عن بيعة أبي بكر، ومن الذين أنكروا عليه توليه للخلافة، ومن حضر مع أمير المؤمنين عليه السلام من حواريه وبني هاشم جنازة الزهراء عليها السلام ودفنها سرّاً والصلاة عليها كما ذكر ذلك: أبو الصلاح في التريب ثم بعد ذلك أظهر البيعة لأبي بكر، أسوة بعلي عليه السلام والمضطهدين من أصحابه فولاه أبو بكر بيت مال المسلمين.

وحينما استخلف عمر بن الخطاب بعد وفاة أبي بكر، وولي عمار بن ياسر الكوفة، بحث معه: ابن مسعود معلماً ووزيراً ولخازناً لبيت المال، وكتب في حقهما كتاباً إلى أهل الكوفة، يثني عليهما ويأمر أهل الكوفة بالانقياد لهما ويقول في آخره عن ابن مسعود: «وقد أترتكُم عبد الله بن مسعود على نفسي».

لكنه سرعان ما عزله عن الكوفة، كما عزل عماراً عنها لوشاية عليهما: بأنهما كانا يتظاهران بولاية علي عليه السلام ويريان أحقيته للخلافة، فرجع إلى المدينة كما رجع عمار إليها. وبقي ابن مسعود بعد ذلك في المدينة مع علي وأصحابه وبني هاشم، حتى إذا قتل عمر، وكانت مهزلة الشورى المبينة لاستخلاف عثمان، كانت في البداية من أشد المعارضين لبيته، ومن المنكرين على من يابعه، ثم رضى بعد ذلك للبيعة، أسوة بعلي وأصحابه وبني هاشم. فأمره عثمان على الكوفة، ثم عزله عنها، وأمره بالرجوع إلى المدينة لوشاية كانت بينه وبين عثمان أيضاً، فرجع إلى المدينة معارضاً سياسة عثمان وتصرفاته في أموال المسلمين وإيثاره أهل بيته ومقربيه عليها، وظل يتحمل الإهانة والتنكيل من قبل عثمان وجلالته إلى أن توفي سنة ٣٢ على الأصح في المدينة بعد وفاة أبي ذر في الرذة فلقى عليه الزبير بن العوام بوصية منه ودفن بالقيع وكان له يومئذ من العمر: نيف وستون عاماً، وقيل: ٦٤ عن سفينة البحار للقمي، وشذرات الذهب للحنبلي ج ١.

حينما استأثر «الخليفة» بسقط الجوهر والحلي الذي كان من ضمن أموال الفيء في بيت مال المدينة، فأخذ منه ما حلّى به بعض أهله ونسائه.

فأنكر عليه جماعة من عليه الصحابة، كان في طليعتهم علي بن أبي طالب عليه السلام. وكان عمار في طليعة أصحابه المنكرين معه، الأمر الذي أغضب الخليفة، فخطب الناس وقال: «لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقول».

فنهض علي عليه السلام وقال: «إذا تمتع من ذلك، ويحال بينك وبينه» وانبرى عمار قائلاً: «أشهد الله: إن أنفي أول راغم من ذلك»، وهنا يلتفت الخليفة إلى عمار متغاضياً عن كلام علي عليه السلام وينهره بفاحش القول قائلاً: «أعلي - يا بن المتكاء - تجتري خذوه»^(١)

وأمر جلاوزته أن يسحبوه ويخرجوه من المجلس، فجروه وأخرجوه، ونزل عن المنبر وجلس على دست الخلافة، ثم أمر، فأدخلوه عليه، فأخذ يشتمه بفاحش القول: ويضربه بالعصا، ويدوسه برجليه، حتى غشي عليه وهو يومئذ شيخ كبير، قد أخذ الضعف منه مأخذه.

ثم حُمل من بين يدي عثمان بتلك الحالة إلى دار السيدة أم سلمة زوج الرسول عليها السلام ولم يفق من شدة الضرب والدوس، حتى فاتته صلاة الظهر والعصر والمغرب. فلما أفاق بعد ذلك توضأ، وصلى وقال: «الحمد لله، ليس هذا أول يوم أودينا في الله تعالى»^(٢).

● استقرار في التكنيل بعمار بأمر الخليفة الأموي

وهنا انبرى هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان عمار حليفاً له بني مخزوم وقال: يا عثمان، أما علي فاتقته وبني أبيه، وأما نحن فاجترأت علينا وضربت أخانا، حتى أشفيت به على التلف، أما والله لئن مات، لأقتلن به رجلاً من بني أمية عظيم الشأن، فقال عثمان: وإنك لها هنا يا بن القسرية؟ قال هشام: فإنهما قسريتان وكانت أم هشام وجدته قسريتين من بجيلة فشتمه عثمان وأمر به فأخرج من المجلس، وجاء إلى دار

(١) لتكاء بالكسر والمد: العظيمة البطن، والبطر، والمفضاة التي لا تمسك البول. وفي شرح التهج للحدادي، ج ٣ ص ٤٩ ط جديد «أعلي يا بن يأسر».

(٢) إشارة إلى تعذيبه. في مكة مع أبويه من قبل مشركي قريش بصنوف التعذيب. حتى قتل أبواه من جرأ التعذيب كما ذكرنا

«أم سلمة» للتطلع على مصير عمار عندها، فإذا بأأم سلمة قد غضبت لعمار^(١)، وأخذ بنو مخزوم وغيرهم من المسلمين يزدهمون على باب «أم سلمة» للتعرف على ما آل إليه أمر عمار بعد ما ناله من عثمان ما ناله من الضرب وبلغ الخليفة ذلك التجمع الخطير حول دار «أم سلمة» وعلم بغضبها لعمار، فأرسل إليها منكرأ عليها ذلك التجمع حول دارها، فأرسلت إليه تقول: «دع ذا عنك - يا عثمان - ولا تعمل الناس في أمرك على ما يكرهون»^(٢). وبلغ عاتشة ما صنع عثمان بعمار، فغضبت هي الأخرى أيضاً، وأخرجت شعراً من شعر رسول الله ﷺ ونعلاً من نعاله، وثوباً من ثيابه، ثم أخذت تقول: «ما أسرع ما تركتم سنّة نبيكم، وهذا شعره وثوبه ونعاله لم يبل بعد وقد بدلتم وغنّوتم»، فغضب عثمان ولم يدر ما يقول^(٣).

□ ومنها أن جماعة من أصحاب الرسول من المهاجرين والأنصار^(٤) ومنهم عمار والمقداد اجتمعوا فيما بينهم، وتذاكروا محدثات الخليفة وتصرفاته المخالفة لسنة رسول الله ﷺ وسيرة صاحبيه، فكتبوا في ذلك كتاب نصّحوا احتجاج، ضمّته تلك المخالفات: من إغداقه على مروان بن الحكم، وعامة بني أمية من أموال المسلمين ومنهم ذوالقربي واليتامي والمساكين وما أفشاء من العمل بالولايات لأهل بيته وبني عمومته: من الأحداث والغلمة^(٥) الذين لاصحبة لهم من الرسول ﷺ ولا تجربة عندهم بالأموار، وما كان من الوليد بن عقبة حين ولاه الكوفة إذ صلى بالناس وهو سكران صلاة الغداة أربع ركعات ثم قال لهم، إن شئتم أن أزيد ركعة زدتكم. وتعطيله إقامة الحد عليه، وتأخير ذلك عنه، وتركه وهجره ذوي العقل والدين: من المهاجرين والأنصار من أصحاب الرسول ﷺ لا يستعملهم في ولاية، ولا يستشيرهم في رأي، واستغنى برأيه عنهم، وما

(١) الدرجات الرفيعة للسيد عليخان: ص ٢٦٢ ط النجف، وأنساب البلاذري: ج ٥ ص ٤٨ ط مصر، والعقد الفريد ج ٤.

(٢) المصدر الآنف: من أنساب البلاذري.

(٣) شرح النهج للحديدني: ج ٣ ص ٤٩، والدرجات الرفيعة ص ٢٦٢.

(٤) على اختلاف بين المصادر في التعبير عن أولئك الجماعة بالعدة أو الخمسين أو العشرة كما هو الأكثر.

(٥) أحداث: أحد جمعي (حدث) بالتحريك، وهو الرجل الشاب، وتانها حدثان بضم فسكون، وغلمة بكسر فسكون، أحد جموع غلام وهو الشاب الطار الشارب، وكذلك أغلمة وغلمان بالكسر: جمعان آخران له.

كان من الحمى الذي حماه حول المدينة له ولأهل بيته، وما كان من إداره القطاع والأزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي ﷺ، ولا مسكة من دين لا يغزون ولا يذبون، وأنه أول من ضرب - من الخلفاء - ظهور الناس بالسياط، إلى غيرها من البدع والمخالفات التي أدرجوها في الكتاب.

ثم تعاهدوا أن يدفعوا الكتاب إلى الخليفة وأن يناجزوه إن هو لم يشب إلى صوابه. وكان ممن حضر الكتاب عمار والمقداد، وكانوا عشرة، ثم دفعوا الكتاب إلى عمار ليوصله بيده، فلما خرجوا بالكتاب، جعلوا يتسللون عن عمار قبل أن يصلوا إلى عثمان حتى بقي وحده، فلم يضعف ذلك من عزيمته، بل جاء تواء إلى دار الخليفة فاستأذن بالدخول عليه، فأذن له في يوم شات .. فدخل عليه، فوجد عنده نديمه وصهره ومستشاره من أهل بيته: مروان بن الحكم، وبعض خاصته، وذويه من بني أمية.

فدفع عمار الكتاب إلى عثمان، فأخذه عثمان وقرأه، فالتفت إلى عمار قائلاً بغضب: أنت كتبت هذا الكتاب؟ قال عمار: نعم. قال عثمان: ومن كان معك؟ قال عمار: كان معي نفر تفرقوا فرقاً منك^(١)، قال: من هم؟

قال عمار: لا أخبرك بهم.

فاستشاط عثمان غضباً وحنقاً، وقال له: فلم اجتأأت علي من بينهم يا عمار؟ قال عمار: أنا أنصحهم لك، قال عثمان كذبت يا بن سمية قال عمار: أنا والله ابن سمية وابن ياسر^(٢).

وهنا التفت مروان إلى عثمان قائلاً: «يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود قد جراً عليك الناس، وإنك، إن قتلته نكلت به من وراءه».

وأمر عثمان غلمانه فطرحوه على الأرض، ومددوا يديه ورجليه وضربوه ضرباً

(١) الفرق بالتحريك: الفرع والخوف.

(٢) أراد عثمان انتقاص عمار بنسبه إلى أمه سمية، باعتبارها أمة فأدرك عمار ما أراد عثمان فأجابه بأنه ابن ياسر أيضاً وياسر حر، والولد يلحق بأبيه لا بأمته في النسب ثم إنه يشير بجوابه هذا إلى أنهما كانا من طلائع الشهداء في الإسلام والمعتدين في الله حيث قتلوا بغير حق.

ميرحاً، وأخذ عثمان يدوس على بطنه، وعلى مذاكيره برجليه حتى فتقوا بطنه، وكان شيخاً ضعيفاً، فغشي عليه، فجرّوه من المجلس حتى طرحوه على باب الدار، فأمرت به أم سلمة زوج النبي ﷺ فأدخلوه منزلها.

ثم خرج عثمان من الدار إلى المسجد فإذا هو بعلي عليه السلام وهو شاكٍ معصوب الرأس فقال له عثمان: والله يا أبا الحسن، ما أدري: أشتهي موتك، أم أشتهي حياتك؟ فوالله، لئن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك، لأنني لا أجد منك خلفاً، ولئن بقيت لا أعدم طاعياً، يتخذك سُلماً وعُضداً، ويعدك كهفاً وملجأ، لا يمنعني منه إلا مكانه منك ومكانك منه^(١)، فأنا منك كالابن العاق من أبيه: إن مات فجعه، وإن عاش عقه، فإما سلم فتسالم، وإما حرب فتحارب، فلا تجعلني بين السماء والأرض؟ فإنك إن قتلتنني لا تجد مني خلفاً، ولئن قتلتك لا أجد منك خلفاً ولن يلي هذا الأمر بادي فتنة^(٢).

فقال علي عليه السلام: إن فيما تكلمت به لجواباً، ولكنني عن جوابك مشغول بوجعي. فأنا أقول كما قال العبد الصالح: «فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون»^(٣).

فقال مروان: إنا والله إذاً لنكسرَنَّ رماحنا ولنقطعن سيوفنا ولا يكون في هذا الأمر خير لمن بعدنا.

فقال له عثمان: اسكت، ما أنت وهذا؟^(٤)

(١) يقصد عماراً، وجماعته الذين وجهوا إليه ذلك الكتاب.

(٢) يظهر من هذا الكلام مدى حقد الخليفة الأموي على أمير المؤمنين عليه السلام بالعصوص وبني هاشم عامة بالرغم من تغطيته بالإنفاق المصول والمؤاربة المفضوحة.

(٣) سورة يوسف / ١٨. «وبدا الآية ﴿.. قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ وهي على لسان النبي يعقوب عليه السلام حينما جاءه أبناءه بقتل الذئب أخاهم يوسف، وفي استشهاد علي عليه السلام بهذه الآية في مقام الجواب عن كلام عثمان المبطن، ما فيه من بلاغة التلميح أو التصريح عن سوء السريرة، ومحاولة القدر.

(٤) الإمامة والسياسة لابن قتيبة، ج ١ ص ٣٢ - ٣٣ ط ثانية بمصر، وأنساب البلاذري: ج ٥ ص ٤٨ ط مصر. واختصره الحديدي في شرح النهج: ج ٣ ص ٥٠ ط جديد، وابن أئتم الكوفي في كتاب الفتوح: ج ٢ ص ١٥٣ - ١٥٤ ط أولى بحيدر آباد، وفي العقد الفريد لابن عبد ربه: ج ٤ ص ٢٠٩ ط ثانية بمصر عرض القصة بقرين مما ذكر.

ومنها أن عثمان لما بلغه خبر وفاة أبي ذر بالريذة^(١).

استمرار في التنكيل بعمار بأمر الخليفة ومباشرة

أخذ يتظاهر بالتأسف والترحم عليه، ويقول: «رحم الله أبا ذر».

فيندفع عمار وكان من الحاضرين في ذلك المجلس قائلاً: «نعم، رحم الله أبا ذر، من كل انفسنا» تعريضاً بعثمان.. فانتفخت أوداج عثمان غيظاً على عمار وكان قد بلغه عنه فيه بعض الكلام الناقد فأفرغ دخيلة نفسه في وجه عمار بأفحش القول وأقبحه، فقال يخاطبه: «يا عاض أير أبيه، أتراني ندمت على تسييره؟» ودفع عماراً في قفاه، ثم أمر غلمانه أن يخرجوه من المجلس، وأصدر أمره بنفيه إلى الريذة، مكان أبي ذر.

ولكن بني مخزوم وعمار حليفهم كما ذكرنا، حالت دون تنفيذ هذا القرار. فأجمعت وأقبلت إلى علي بن أبي طالب عليه السلام وسألته أن يكلم «عثمان» في إعادتهم على صرف نظره عن قرارهن فأجابهم علي عليه السلام وقال: «لا تدع عثمان ورايه»، وأقبل إلى عثمان وبنو مخزوم من خلفه وقال له بتأثر وغضب: «إتق الله يا عثمان؟ فإنك سيرت رجلاً صالحاً، فهلك في تسييرك^(٢)، وأنت الآن تريد أن تنفي نظيره؟»

وجرى بينهما كلام شديد، مما أغضب عثمان، فأظهر حقهده على علي عليه السلام وعداءه الكامن له، فقال له بكل صلف: «أنت - يا علي - أحق بالنفي منه».

فانتفض الإمام عليه السلام في وجه عثمان وقال: «رُم - إن شئت ذلك»، ثم خرج من المجلس مغضباً، ومتحدياً.

فاجتمع المهاجرون على عثمان بعد خروج علي عليه السلام بتلك الحالة وقالوا له: «إن كنت، كلما كلمك رجل سيرته ونفите فإن هذا شيء لا يسوغ».

وبلغ عثمان غضب بني مخزوم لحليفهم وما رأى وسمع من علي عليه السلام من حالات وكلمات التأثير، وما سمعه من تأنيب المهاجرين له، عندئذ عفا عن عمار، وكف عنه،

(١) الريذة بالتحريك من قرى المدينة الفاحلة على ثلاثة أميال، قريبة من ذات مرق على طريق مكة، بها قبر أبي ذر الغفاري.

وقد كان خرج إليها مفاجئاً لعثمان بن عفان، فأقام بها إلى أن مات سنة ٣٢ هـ بالتضارب عن معجم البلدان للحموي.

(٢) يشير عليه السلام بذلك إلى أبي ذر الغفاري حيث نفاه عثمان إلى الريذة، فمات فيها.

وأمسك عن تسييره^(١).

❏ ومنها أن عبد الله بن مسعود لما توفي مغاضباً لعثمان، وصلى عليه عمار بن ياسر وكان عثمان غائباً، فستر عمار أمره، فلما انصرف عثمان، رأى القبر، فقال: قبر من هذا؟ فقيل: قبر عبد الله بن مسعود، قال: فكيف دفن قبل أن أعلم؟ فقالوا: ولي أمره عمار بن ياسر، وذكر أنه أوصى أن لا يخبر به، ولم يلبث إلا يسيراً، حتى مات المقداد بن عمرو الكندي^(٢)، فصلى عليه عمار أيضاً وكان قد أوصى إليه ولم يؤذن عثمان به، فاشتد غضب عثمان على عمار، وقال: ويلي على ابن السوداء، أما لقد كنتُ به عليمًا^(٣).

● وأما بالنسبة إلى التنكيل بأبي ذر ونفيه

فموجز قصته كما فصلته كتب السير والمعاجم:

أن عثمان لما استقل بالخلافة الإسلامية واستولى مع أهل بيته، وأصحابه ومقريه على مناصب الدولة، وبيوت أموال المسلمين، فكنز والكنوز وشيد القصور، واحتوا الضياع، وحمو الحمى والمراعي مع حرمان عامة المسلمين من المهاجرين والأنصار من نيل حقوقهم المفروضة لهم بحكم الإسلام.

عند ذلك أخذ أبو ذر وهو داعية الحق ولسان الفقراء يجاهر بإنكاره على تلك التصرفات المتطاوله على حقوق الفقراء المحرومين من عموم المسلمين، فجعل يجوب شوارع المدينة وطرقاتها، مندداً بعثمان ومترفيه من بني أمية وغيرهم من بطائنه وهو يجهر بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، (سورة التوبة / ٣٤).

بدأ القرص عن قصة التنكيل بأبي ذر ونفيه إلى الريدة

فرفع ذلك إلى عثمان، مروان بن الحكم، وكان صهره، ومستشاره وعثمان ساكت.

(١) أنساب البلاذري: ج ٥ ص ٥٤ ط مصر. وتاريخ العقوي: ج ٢ ص ١٦٣ ط النجف باختلاف بينهما في إجمال العرض وتفصيله.

(٢) تحدثنا عنه بإيجاز في أغريبات الفصل السابع من الجزء الأول من كتابنا هذا ضمن الحديث عن حمزة فني عبد المطلب، وذكرنا هناك: أن وفاته كانت في المدينة سنة ٣٣ هـ (٣) تاريخ العقوي: ج ٢ ص ١٦٠ ط النجف.

حتى إذا تكرر ذلك الإتيار من أبي ذر، أرسل عثمان إليه نائلاً -مولاه- ينهائه عن مواصلة إنكاره، ويهدده بالتنكيل به إن هو استمر على فعله.

ولكن أبا ذر بحكم ما يمليه إيمانه عليه: من استمراره على الوقوف في وجه الظلم والظالمين، لم يكثر ث بنهي عثمان، وتهديده، وأخذ يقول أمام الناس: «أيناني عثمان عن قرأنة كتاب الله، وعيب من ترك أمر الله، فوالله لئن أرضي الله بسخط عثمان أحب إلي وخير لي من أن أسخط الله برضا عثمان»، فأغضب هذا الكلام عثمان، فتصاير، وتماسك.

حتى إذا قال عثمان يوماً والناس حوله بمن فيهم أبو ذر: «يجوز للإمام أن يأخذ من المال شيئاً، فإذا أيسر قضى؟ فقال كعب الأحبار^(١): لا بأس بذلك.

فانبرى له أبو ذر قائلاً: يا ابن اليهوديين، أتعلمننا ديننا^(٢)، فقال عثمان: يا أبا ذر، ما أكثر أذاك لي، وأولئك بأصحابي؟ الحق بمكتبك وكان مكتبه بالشام، بعد أن استأذن عثمان في هجرته من المدينة إلى الشام نهاية الأرب للنوري ج ١٩ ص ٣٤٣ ط القاهرة. وبلغ عثمان: أن أبا ذر يقع فيه، ويذكر ما غيّر وبدل من سنن رسول الله ﷺ، وسنن أبي بكر وعمر ..

ويلغه أيضاً: أن أبا ذر يقعد في مسجد رسول الله ﷺ ويجتمع إليه الناس، فيحدث بما فيه الطعن عليه.

(١) أبو إسحاق كعب بن ماته بالتاء المتأخرة على الأصح بن ذي هجن.. المصري، المعروف بكعب الأحبار، من آل ذي حين، أو من ذي الكلاع، فقد كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، قد قرأ التوراة، وكتب الأنبياء، ثم أدرك الإسلام، ولم يسلم إلا في أيام عمر على الأصح فيحتر من التابعين، وسكن المدينة، وكان المسلمون يسألونه عن الملاحم والفتن التي تظهر آخر الزمان وهو يخبرهم عنها، وكثيراً ما كان يكذب في أخباره خصوصاً في الإسرائيليات وكان علي عليه السلام يقول عنه: إنه الكذاب، وكان عثمان الهوى بعد إسلامه وبعد تولي عثمان الخلافة ثم خرج إلى الشام فسكن (حصن) إلى أن توفي فيها سنة ٣٢ هـ على الأصح عن «مائة سنة» ونيف من العمر.

(٢) هكذا في عامة المصادر، وفي مروج المسموع: ج ٢ ص ٣٤٩ ط ثانية، كيفية السؤال والجواب وموقف أبي ذر كما يلي: «أترون بأساً أن نأخذ مالا من بيت مال المسلمين، فننقذ فيما يتوينا من أمورنا، ونعطيكوه؟ فقال كعب: لا بأس بذلك، فرجع أبو ذر النصا، فدفع بها في صدر كعب، وقال: يا بن اليهودي، ما أجراك على القول في ديننا؟»

وفي سنية البحار ج ٢: «يا بن اليهودية الكافرة، ما أنت والنظر في أحكام المسلمين...». وفي نهاية الأرب للنوري: ج ١٩ ص ٤٤٣، ط القاهرة «يا ابن اليهوديين».

وأنه وقف بباب مسجد رسول الله ﷺ يوماً فقال: «أيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني، فأنا أبو ذر الغفاري، أنا جندب بن جنادة الربذي^(١)، ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ * ذُرِّيَّةً بِخَافِئَةٍ مِّنْ بَعْضِ وَاللَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران / ٣٣ - ٣٤)، محمد: الصفة من نوح، فالأول من إبراهيم والسلالة من إسماعيل، والفترة الهادية من محمد ﷺ إنه شرف شريفهم، واستحقوا الفضل في قوم هم فينا كالسماء المرفوعة والكمأة المستورة، أو كالقبة المنصوبة أو كالشمس الضاحية، أو كالقمر الساري أو كالنجوم الهادية، أو كالشجرة الزيقونية، أضاء زيقها، وبورك زندها - وهو العود الذي يقدح به النار - ومحمد وارث علم آدم، وما فضلت به النبيون، وعلي بن أبي طالب وصي محمد ووارث علمه.

أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها، أما لو قدّمتم من قدّم الله، وأخّرتم من أخّر الله، وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم ولما عال ولي الله، ولا طاش سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله إلا وجدتم علم ذلك عندهم من كتاب الله وسنة نبيه، فأما إذا فعلتم ما فعلتم فذوقوا وبال أمركم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(٢).

● تسيير الخليفة أبا ذر إلى الشام

وضاق بعثمان أمره من استمرار أبي ذر على التشهير به وبسياسته المالية، وتصرفاته الشاذة عن سنن الدين الإسلامي والعرف الاجتماعي خصوصاً في سنته الأخيرة فوجد عليه، وأمر بنفيه ولبعاده عن المدينة إلى الشام، حيث كتب إلى معاوية أن يكفيه أمره، ويسكت صوته.

فرحل أبو ذر من المدينة إلى الشام منفياً، مطروداً من قبل السلطة الأموية الجائرة. فما أن حل أرض الشام، ورأى وسمع منكرات معاوية والوالي المدلل من قبل عثمان

(١) يظهر من هذه النسبة: أن هذا المواقف والكلام من أبي ذر كان بعد نفيه إلى الريزة، ويكون قد زار قبر النبي ﷺ في خلال

بقائه هناك متخفياً عن رقابة عثمان.

(٢) تاريخ الحقوقي: ج ٢ ص ١٦٦، ط النجف، وكتاب سليم بن قيس الهلالي.

وبدعه في الإسلام وبذخه بأموال المسلمين حتى أخذ يجاهر بإنكاره على معاوية بين الناس، وينتدب سياسته وسياسة عثمان وبني أمية، في تتمهم وسيطرتهم على رقاب المسلمين، فمن ذلك: أن معاوية بعث إليه يوماً بثلاثمائة دينار، محاولاً بذلك وإهماً لِسَكَاتِ صوته.

فقال أبو ذر للرسول: إن كانت هذه الأموال من عطائي الذي حرمتونه عامي هذا قبلتها، وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها، وردّها عليه، وبني معاوية داره الخضراء بدمشق، فقال أبو ذر: يا معاوية، إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة وإن كانت من مالك فهي الإسراف فسكت معاوية، وكان أبو ذر يقول: «والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه، والله إنني لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيا وصادقاً مكتباً وأثرة بغير تقى^(١).

وكان يقف على باب دمشق إذا صلى صلاة الصبح فيقول: «جاءت القطار تحمل النار، لعن الله الأميين بالمعروف التاركين له، ولعن الله الناهيين عن المنكر الآتين له»^(٢).

«وروى أبو عثمان الجاحظ في كتاب السفينانية^(٣) عن جلام بن جندب الغفاري. قال: كنت عاملاً لمعاوية على «قنسرين» والعواصم في خلافة عثمان، فبجشت يوماً أسأله عن حال عملي إذ سمعت صارخاً على باب داره يقول: أتتكم القطار تحمل النار، اللهم العن الأميين بالمعروف التاركين له، اللهم العن الناهيين عن المنكر المرتكبين له. فارتاب معاوية، وتغير لونه، وقال: يا جلام، أتعرف الصارخ، فقلت: اللهم لا، قال: من عذيري من جندب بن جنادة، يأتيننا كل يوم، فيصرخ على باب قصرنا بما سمعت، ثم قال: أدخلوه علي؟ فجي بأبي ذر بين قوم يقودونه حتى وقف بين يديه، فقال له معاوية: يا عدو الله، وعدو رسوله، تأتيننا في كل يوم، فتصنع ما تصنع؟ أما إنني لو كنتُ قاتل رجل من أصحاب محمد من غير إذن أمير المؤمنين عثمان لقتلتك، ولكن استأذن

(١) أنساب الأشراف للبلاذري: ج ١٩ ص ٤٤٣، ط القاهرة.

(٢) تاريخ الخلفاء: ج ٢ ص ١٦٦، ط النجف.

(٣) مرت ترجمة الجاحظ وعرض مؤلفاته، ومنها الكتاب المشار إليه في هوامش طليعة الفصل الأول من هذا الجزء للكتاب.

فيك؟

قال جلام: فأقبل أبو ذر على معاوية، وقال: ما أنا بعد والله ولا رسوله، بل أنت وأبوك عدوان لله ولرسوله، أظهرتما الإسلام، وأبطنتما الكفر، ولقد لعنك رسول الله ﷺ ودعا عليك أن لا تشيع: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ولي الأمة الأعين الواسع البلعوم الذي يأكل ولا يشبع، فلتأخذ الأمة حذرهما منه»، فقال معاوية: ما أنا ذلك الرجل، قال أبو ذر: بل أنت ذلك الرجل، أخبرني بذلك رسول الله ﷺ سمعته يقول وقد مررت به: «اللهم العنه، ولا تشبعه إلا بالتراب»..^(١) وضائق السبل على معاوية، فلم يستطع إسكات ذلك الصوت المدوي بالحق في أرجاء الشام وربوعها، فاستشار بعض أخصائه في كيفية التخلص من هذا المأزق؟ فقال له حبيب بن مسلمة الفهري^(٢): «إن أبا ذر مفسد عليك الشام، فتدارك أهله، إن كانت لكم به حاجة»^(٣).

معاوية يكتب الى عثمان في حمل أبي ذر من الشام الى المدينة

(١) الدرجات الرفيعة للسيد عليخان المدني: ص ٢٤٣ ط النجف.

(٢) أبو عبيد الرحمن: حبيب بن مسلمة بالفتح، بن مالك الفهري القرشي، من القواد القاتحين في بداية العهد الأموي. ولد بمكة قبل الهجرة بستين ورأى النبي ﷺ وأسلم على يده وهو صغير وخرج من مكة إلى الشام أيام أبي بكر فشهد «اليرموك» أمراً، ودخل دمشق مع أبي عبيدة بن الجراح، فولاه أبو عبيدة على أنطاكية. ثم أمره عمر بن الخطاب في أوائل أيامه بإعداد سراقه بن عمرو، فسار حبيب وتوغل في أرمينية، واشتهرت أعماله وشجاعته فيها ثم قصد المدينة حاجاً فأكرمه عمر. ثم عاد إلى الشام، وولاه بعد ذلك على الجزيرة، وضم إليه أرمينية وآذربيجان، ثم عزله عنها. وبقي في الشام معزولاً عن الولايات إلى أن استخلف عثمان فبعثه هو وسلمان بن ربيعة بن يزيد الباهلي ومعهما جماعة لإخضاع جيم غفر من المتعديين على عثمان في آذربيجان، فسيطرا على إخضاعهم وأخذوا تمردهم وقتل سلمان في هذا الحال فاستقل حبيب بإمارة الجيش العراقي والتامي، وسار إلى البلاد «أرمينية» فافتتحها وذلك سنة ٣٢ هـ. ثم عزله عثمان عنها، وولى مكانه: حذيفة بن اليمان، وسرعان ما عزله أيضاً، وولى مكانه: المغيرة بن شعبة وسرعان ما عزله أيضاً وولى مكانه: الأشعث بن قيس، وكان حبيب في خلال تلك المدة مستشار معاوية في كثير من شؤون ولايته، وكان على مسيرة جمشه يوم (صفين).

ولما استقل معاوية بالملك بعد مقتل عثمان، وبعد يوم صفين ولأه على أرمينية وآذربيجان، وعزل الأشعث عنها، وبقي حبيب والياً من قبل معاوية إلى أن توفي هناك سنة ٤٢ هـ على الأصح، بالقتضاب من تاريخ ابن عساکر، وفتح ابن أعمم وغيرهما من كتب السير والتراجم. هكذا في أنساب البلاذري ج ١٩ ص ٤٤٣، ط القاهرة.

فكتب معاوية على الفور كتاباً يخبره بخطر أبي ذر على السياسة الأموية في الشام، جاء فيه «إن أبا ذر تجتمع إليه الجموع، ولا آمن أن يفسدهم عليك، فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك»^(١).

فأجابه عثمان بكتاب، جاء فيه «أن احمل جندباً إليّ على أغلظ مركب، وأوعره، وابعث معه دليلاً، يسير به الليل والنهار»^(٢).

فلما ورد كتاب عثمان على معاوية دعا بأبي ذر، فأرسله مع جماعة شداد غلاظ، وحمله على شارف من الإبل^(٣)، ليس عليها إلا قتب يابس بغير وطاء^(٤)، وبعث معه خمسة رجال من الصقالبة^(٥) يطيطون به ليلاً ونهاراً حتى تسلخت وتهرأت بواطن فخذيه من الجهد وخشونة المركب ومواصلة السير، ووعورة الطريق، وبعد المسافة، وكاد أن يموت قبل أن يصل إلى المدينة.

ترجمة عبد الرحمن بن عوف والتصدق بأمواله

ثم وصلوا به إلى المدينة، فبقي أياماً، ثم أدخلوه على عثمان، فروي كما يقول الواقدي وابن أعثم وغيرهما: أنه لما أدخل على عثمان، ونظر إليه، قال له: لا أنعم الله بك عينا يا جنيد، فقال أبو ذر: أنا جندب، وسفاني رسول الله ﷺ، عبد الله، فقال عثمان: أنت الذي تزعم بأننا نقول: إن يد الله مغلولة وأن الله فقير، ونحن أغنياء. فقال أبو ذر: لو كنتم لا تقولون ذلك، لأنفقتم مال الله على عباده المؤمنين، إني لم أقل

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٣٤٩، ط ثانية، وفي فتوح ابن أعثم، ج ٢ ص ١٥٥، ط أولى. صورة الكتاب هكذا: «أما بعد، فإني أخبرك - يا أمير المؤمنين - بأن أبا ذر قد أفسد عليك الشام إلى قوله: وإني أكره أن يكون مثله في الشام أو بمصر أو بالعراق، لأنهم قوم سراع إلى الفتن، وأحب الأمور إليهم الشبهات وليسوا بأهل طاعة ولا جماعة».

(٢) المصدر الأنف: من الفتوح، ص ١٥٦، وفي تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٦٦، ط النجف «فكتب إليه أن احمله على قتب بغير وطاء فقدم به إلى المدينة وقد ذهب لحم فخذيه». (٣) الشارف بالكسر: من النوق: المسنة الهرمة، جمعها شوارف.

(٤) القتب بالتحريك: الرجل الذي يوضع على سنام البعير، كالسرج بالنسبة إلى الدابة، وغالباً ما يتخذ من الخشب، والوطاء بالكسر والفتح مع المد، ما يفترض من النسيج ونحوه، خلاف الفطاء.

(٥) هكذا في مروج المسعودي، والصقالبة: جمع الصقلب بالفتح على فمّل، والصقلبي والصقلاحي بالفتح أيضاً وهم قوم كانت بلادهم تتاخم بلاد الخزر، ثم انتشروا منها إلى سواها من بلاد أوريا وأطرافها.

ذلك، ولكنني أشهد: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً، جعلوا مال الله دُولاً، وعباد الله خولاً، ودين الله دخلاً»^(١)، قال عثمان لمن حضر: أسمعتم هذا الحديث من رسول الله؟ قالوا: لا.

فقال عثمان لأبي ذر: ويلك يا أبا ذر أتكذب على رسول الله؟
فالتفت أبو ذر للجماعة وقال: أظنون أنني كذبت ولم أصدق بهذا الحديث؟
قالوا: والله، ما ندرى؟

فقال عثمان لمن حوله: ادعوا لي علياً، فلما جاء علي عليه السلام قال عثمان لأبي ذر: اقصص عليه: حديثك في بني أبي العاص؟
فأعاده أبو ذر على علي عليه السلام، فقال عثمان لعلي: يا أبا الحسن أسمعتم هذا من رسول الله؟ قال علي: «لا، وقد صدق أبو ذر».

قال عثمان: وبما ذا صدقته؟ فقال علي عليه السلام: «لأنني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر».
فقال جميع من حضر من أصحاب رسول الله ﷺ: أما هذا، فقد سمعناه كلنا من رسول الله ﷺ، وقد صدق أبو ذر.

وهنا يلتفت أبو ذر للحاضرين في ذلك المجلس ويقول بفضب: أحدثكم إنني سمعت هذا من رسول الله ﷺ ثم تتهموني؟ ما كنت أظن أنني أعيش حتى أسمع هذا من أصحاب محمد ﷺ^(٢).

(١) هكذا في عامة كتب السير والأخبار، ولكن الفترة في تاريخ العقوبي ج ٢ ص ١٦٢، ط التجف، «إذا كملت بنو أمية...» وفيه «بلاد الله، بدل مال الله»، ودول بضم ففتح: جمع دول كذلك وهي ما يتداول بين الناس، فيكون مرة لهذا، ومرة لذلك فتطلق على المال والغلبة، ونحوهما، والخول بالتحريك: العبد والإماء جمع غولي.

ومن معاني الدخول بالتحريك: الخديعة والتفاني، ويروي «دغل» كما عند العقوبي بنفس المعنى، وفي فتوح ابن أحم ج ٢ ص ١٥٧ تكملة الحديث هكذا: «ثم يريح الله العباد منهم».

(٢) شرح النهج للحديدري ج ٣ ص ٥٦ ط، جديد، وفتوح ابن أحم ج ٢ ص ١٥٧ ط حيدر آباد، والدرجات الرفيعة: ص ٢٤٥، ط التجف، وتاريخ العقوبي بالمصدر الآتف بهذا المضمون.

وصادف في ذلك المجلس أن يؤتى «عثمان» بتركة عبد الرحمان بن عوف^(١) من

(١) أبو محمد: عبد الرحمان بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحرث بن زهرة بن كلاب .. الزهري، القرشي، وأمه زهرية أيضاً يقال لها: الصفاء أو الصفاء بنت عوف بن عبد ..

ولد في مكة قبل عام الفيل بعشر سنين، أي زهاء ٤٤ سنة قبل الهجرة. وكان من أكابر الصحابة المتقدمين في إسلامهم، فقبل: إنه أسلم في مكة قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم.

وكان اسمه في الجاهلية: عبد الكعبة، أو عبد عمرو، فستاه النبي حينما أسلم عبد الرحمن، وأخى النبي ﷺ بعد إسلامه في مكة بينه وبين عثمان بن عفان، وفي المدينة: بينه وبين سعد بن الربيع، وربما رويت بعض الأحاديث النبوية في الثناء عليه، كقوله ﷺ «إن عبد الرحمان بن عوف سيد من سادات المسلمين».

وحضر بعد ما أسلم: بدرًا، وأحدًا، وبيعة الرضوان، وعامة المشاهد والغزوات مع النبي ﷺ وجرح في واقعة «أحُد» عدة جراحات، منها في رجله فكان يرج منها إلى أن مات، ومنها أسقطت له ثنيته أيضاً، وكان ممن حُرِّم الخمر على نفسه في الجاهلية قبل أن يرد النبي عنها.

وكان في الجاهلية وبعد الإسلام من تجار قريش المترين في الجزيرة العربية، وقد اجتمعت عنده لذلك ثروة عظيمة، وكان يعد من الأجواد القلاء خير المبذرين بأموالهم في غير مواضعها.

وبعثه النبي ﷺ إلى «دومة الجندل» أمراً لحرب بني كلب، وأذن له أن يتزوج بأبنة ملكهم أو شريفيهم «تماضر» أم ابنه أبي سلمة، وهي إحدى نساء الأربع.

وكان أحد الخمسة المبادرين لبيعة أبي بكر يوم السقيفة، ثم استخلفه عمر بن الخطاب على الحج بالناس في أول سنة خلافته، وكان أحد الستة أصحاب الشورى الذين رشحهم عمر للخلافة بعد موته وأخبر عن النبي ﷺ، أنه توفي وهو راض عنهم كما كان أول من بايع عثمان، وعيَّنه من بين أصحاب الشورى للخلافة المسلمين، وكان من خلص أصحابه ومستشاريه، واستخلفه على الحج بالناس في أول سنة خلافته ثم تفرَّغ عليه بعد ذلك لما رأى من تصرفات عثمان: ما لا يمت إلى الدين بصلته، فروي: أنه ضج الناس يوماً حين صلوا الفجر في خلافة عثمان، فتنادوا بعد الرحمن بن عوف، فعول وجهه إليهم واستدبر القبلة ثم خلع قميصه من جيبه، فقال يا معشر أصحاب محمد يا معشر المسلمين أشهد الله وأشهدكم إنِّي قد خلعت عثمان من الخلافة كما خلعت سربالي هذا، فأجابه مجيب من الصف الأول: الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين، فنظروا من الرجل؟ فإذا هو علي بن أبي طالب عليه السلام.

وكان كثير التصديق على الفقراء، كما كان مولماً بشراء العبيد وعتقهم، فقد روى: أنه تصدق على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله: أربعة آلاف وتصدق بعد ذلك بأربعين ألفه وبخمسة فرس، ومثلها راحلة، وتصدق كما روي بقافلة فيها «٧٠٠ راحلة» تحمل الحنطة والدقيق والطعام، كما روى: أنه أحق في يوم واحد ثلاثين هيداً.

ولما حضرته الوفاة، أوصى من ماله لكل من شهد بدرًا بأربعمائة دينار، فعُدالموجودون منهم، فكانوا مائة رجل، فسُلِّمت إليهم الأموال بعد وفاته، كما أوصى لأهبات المؤمنين بمدينة من ماله، بيعت بعد وفاته بأربعمائة ألف درهم، كما أوصى بألف

المال، فنترت الهدر^(١) حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم. فقال عثمان: إني لأرجو لعبد الله خيراً، لأنه كان يتصدق، ويقرى الضيف، وترك ما ترون». فقال كعب الأحبار: صدقت - يا أمير المؤمنين.

فشال أبو ذر العصا، فضرب بها رأس كعب، ولم يشغله ما كان فيه من الألم، وقال: يا ابن اليهودي، تقول لرجل مات، وترك هذا المال: إن الله أعطاه خير الدنيا والآخرة، وتقطع على الله بذلك؟ وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما يسرنى أن أموت، وأدع ما يزن قبراً طاً».

فقال له عثمان: مغضباً: «وارعني وجهك...»^(٢).

وأخيراً، فلم يجد عثمان مناصاً لإسكات ذلك الصوت الإسلامي المدوي بالحق في وجه الباطل، إلا أن يُضيق الخناق على أبي ذر بالتنكيل به، بشتى الأساليب، فكان آخر ما أظهره من جعبة حقهده على أمير المؤمنين ﷺ وأصحابه المخلصين البررة: إنه جمع أصحابه ومستشاريه من بني أمية وأحلافهم فاستشارهم في كيفية التخلص من أبي ذر وإخماد شرره؟ قائلًا: أشهر واعلي في هذا الشيخ الكذاب، فقد فرّق جماعة المسلمين؟ وهنا ينبري الإمام علي بن أبي طالب ﷺ من بين الحاضرين فيقول: أما أنا، فأشير عليك بما قاله مؤمن آل فرعون: «وإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يُصحبكم بعض الذي يعدكم، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب»^(٣).

→ فرس وبشلها راحلة، وبخمسین ألف ديناراً، تلقى في سبيل الله.

وقد خلف من غير ما أوصى به: ألف بعير وثلاثة آلاف شاة، ومائة فرس ترعى بالبيع، وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً. وروى: أنه قسم لكل امرأة من نسائه الأربع بعد موته مائة ألف دينار، كما خلف مالاً عظيماً من الذهب يقطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منها. عاش نيفاً وسبعين عاماً، وقيل ٧٥ وتوفي بالمدينة وصلى عليه عثمان، وقيل: الزبير بن العوام، ودفن بالبيع. وذلك سنة ٣٢ هـ باقتضاب من صفه الصفوة، وحلية الأولياء، وتاريخ الخميس، والبده والتاريخ، والرياض النضرة، وأسد الغابة، والإصابة، والاستيعاب، وسنة البحار، وشذرات الحنبلي.

(١) البذر بكسر الفتح: جمع بذر ففتح فسكون، وهي قدر عشرة دراهم من المال، والكمية الكثيرة من الموضوعه في كيس ونحوه.

(٢)

مروج الذهب للمسعودي: ج ٢ ص ٢٤٩ - ٢٥٠، ط ثانية.

(٣) سورة طه / ٢٨.

فأجابه عثمان بجواب غليظ، وردّ عليه بمثله نظوي الصفع عن ذكرهما^(١)، فخرج علي عليه السلام على أثر ذلك من مجلس عثمان مغضباً.

غضب الخليفة على أبي ذر وأمره بتسييره إلى الريزة فلم تعمل تلك الكلمات التائبية في واقعية الخليفة الأموي؛ شيئاً، بل أصرّ على رأيه في النكاية بأبي ذر، فحظر على الناس: أن يجالسوه أو يكالموه، أو يسايره في طريق، فمكث كذلك أياماً.

ثم إنه أمر أن يؤتى به؟ فلما أتى به، ووقف بين يديه، أخذ أبو ذر يقول لعثمان غير هتّاب ولا وجل: ويحك يا عثمان أما رأيت رسول الله ﷺ؟ ورأيت أبا بكر وعمر؟ هل رأيت هذا هديهم؟ إنك لتبطش بي بطش جبار؟

فقال عثمان: أخرج من بلادنا؟

قال أبو ذر: ما أبغض إلي جوارك، ولكن إلى أين أخرج؟

قال: أخرج حيث شئت؟

قال أبو ذر: أخرجني من حرم رسول الله؟ فهو إذاً التعرب بعد الهجرة.

قال عثمان: نعم وأنفك راغم.

قال أبو ذر مستدرجاً في استفهامه: أخرج إلى مكة؟

قال عثمان: لا والله.

قال أبو ذر: أتمنعني من بيت ربي، أعبد فيه حتى أموت؟ إذاً أخرج إلى الشام، فإنها أرض الجهاد؟

قال عثمان: لا والله إني إنما جلبتك منها لما أفسدتها علي، فأردك إليها؟

قال أبو ذر: أخرج إلى العراق: البصرة، أو الكوفة؟

(١) في نهاية الأرب للثورى: ج ١٩ ص ٤٤٤، ط القاهرة: «وذكر البلاذري فيما حكاه كلاماً كثيراً وقع فيما بين عثمان بن

عفان وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنهما) بسبب ذلك، أغضبتنا عن ذكره». وفي ص ١٥٨ من ج ٢ من كتاب فتوح ابن أئتم تصريح بها دار بينهما من المشادة الكلامية، ومبادرة عثمان بذلك الأمر الذي يكشف عن عدلته المورثة عن آباءه لبني هاشم.

قال عثمان: لا والله لأنك تقدم على قوم ذوي شبهة وطعن على الأئمة والولاة.
قال أبو ذر: أخرج إلى مصر؟ قال: لا والله.

فسكت أبو ذر ملياً وقد أدرك مقصد عثمان من طرده عن البلدان الإسلامية المأهولة بالسكان، لئلا يفسد عليه أهلها، ثم انتفض في وجه عثمان، ليفهمه أنه لن يترك أداء رسالته الدينية أينما يكون، فقال: «اعلم - يا عثمان - إني حيث كنت، فلا بد لي من قول الحق، فألى أين تحب أن أخرج بعد هذا؟»

قال عثمان: إلى بلد، هو أبغض إليك؟

قال: فأخرج إلى بادية نجد؟ قال: بل إلى الشرف الأبعد^(١)، أقصى، فأقصى.

امض على وجهك هذا؟ ولا تعدون «الريذة» حتى تموت فيها^(٢).

فقال أبو ذر: الله أكبر، صدق رسول الله ﷺ قد أخبرني بكل ما أنا لاق.

قال عثمان: وما قال لك؟

قال أبو ذر: «أخبرني بأني أمنع عن مكة، والمدينة وأموت بالريذة، ويتولى موارثي نفر ممن يردون من العراق نحو الحجاز»^(٣).

مشايعة علي عليه السلام وولديه وعقيل وابن جعفر وعمار أبا ذر عند خروجه

وهنا تذكر أبو ذر قول النبي ﷺ له أيضاً: «تعيش وحدك وتموت وحدك»، كما أدرك غرض عثمان من إبعاده عن يثرب حاضرة العالم الإسلامي إلى تلك الرقعة الضيقة من الأرض، النائية عن الوسط الاجتماعي.

فقط من لهذا الأمر القاسي من خليفة المسلمين، ثم خرج من مجلس عثمان ليودّع حرم رسول الله ﷺ ويلقي النظرات الأخيرة على قبره الشريف، وعزم على رحيله إلى حيث وجهه عثمان فبعث إلى جمل له، حمل عليه امرأته (أو ابنته) على الأشهر وخرج

(١) الشرف بالتحريك: المكان المرتفع من الأرض.

(٢) شرح النهج للحديدي ج ٣ ص ٥٧، ومروج الذهب للمسعودي: ج ٢ ص ٣٥٠، وفتوح ابن أحم الكوفي ج ٢ ص ١٥٨،

والدرجات الرابعة للسيد عليخان: ص ٢٤٦، وتاريخ الهقبوي: ج ٢ ص ١٦٢، ط التجف.

(٣) المصدر الأنف: من المروج.

من المدينة وحده.

وهنا صدر أمر الخليفة أمره الصارم إلى ابن عمه، وصهره ومستشاره: مروان بن الحكم على ملأ من الناس بتنفيذ أمره بإخراج أبي ذر على الفور وبخو مهين، ومنع عامة الناس عن مشايعته وتوديعه.

فتعاس الناس بحكم ضعفهم وتضاعفهم أمام السلطة الحاكمة عن الخروج لتوديع أبي ذر صاحب رسول الله ولسان الحق لما سمعوا بذلك البلاغ والتهديد من عثمان على لسان مروان.

ولم يقتحم ذلك القرار والتهديد غير جماعة قليلة، لا يعدّهم التاريخ أكثر من ستة نفر، وهم: علي وأخوه عقيل، وابناه: الحسن والحسين، وابن أخيه عبد الله بن جعفر ومعهم عتار بن ياسر كما روي^(١)، فخرج هؤلاء النفر النزر خارج المدينة لتوديع منفيها أبي ذر على مرءى ومسمع من مروان وجماعته المكلفين بتطبيق أوامر الخليفة بهذا الخصوص، فلما رأهم مروان، التفت إلى أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: «يا علي ألا تعلم إن أمير المؤمنين عثمان قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر، ويكلموه في مسيره وتشيعه، فإن كنت لا تعلم فقد أعلمتك»^(٢).

فحمل عليه علي عليه السلام وضرب أذني راحلته بالسوط ونهره، وصاح به: «تنتح نحاك الله إلى النار»^(٣).

فولى مروان منهزماً إلى عثمان، وشكا إليه ما فعله علي به وما سمعه منه، فأضرها

(١) هكذا في المروج، وفي عامة المصادر التاريخية، غير أن العقوبي في تاريخه: ج ٢ ص ١٦٢ يستنتي عقلاً من الجماعة وابن أئتم في فتوحه: ج ٢ ص ١٥٩ يقول: «وتبعه جماعة من الناس يشعونه ويحزنون لحزنه، منهم: علي بن أبي طالب، والحسن والحسين، والمقداد بن الأسود، وعبيدة بن عباس».

(٢) عامة المصادر التاريخية تذكر هذا الكلام ونحوه من مروان موجهاً إلى علي عليه السلام، غير أن السيد عليخان في (درجاته: ص ٢٤٨) يذكره موجهاً إلى الحسن عليه السلام، وكذلك فعل الحديدي في شرحه: ج ٨ ص ٢٥٣ ط جديد.

(٣) في بعض المصادر (لحاك الله) باللام ولحا الشجرة: إذا قشرها، وفي فتوح ابن أئتم: ج ٢ ص ١٥٩: «فليكن عنا يا بن الزرقاء، أمثلك يحترض علينا في الذي نصنع؟».

ولعل ما في المتن أصح وأنسب ببلاغة الجملة من الزجر والأمر بالتعني عن الاعتراض.

عثمان في نفسه إلى حين.

● توديع أبي ذر من قبل علي عليه السلام وأصحابه

ثم إن علياً عليه السلام تقدم إلى أبي ذر: يودعه ويلقي عليه كلمات من التصبر والتسلي والموعظة، فقال: «يا أبا ذر، إنك غضبت لله تعالى، فارح من غضبت له؟ إن القوم خافوك على دنياهم، وخفتهم على دينك، فامتحنوك بالقلبي، ونفوك إلى الفلا والله لو كانت السماوات والأرض على عبد رتقا ثم اتقى الله لجعل له منها مخرجاً، يا أبا ذر، لا يؤنسك إلا الحق ولا يوحشك إلا الباطل».

ثم قال لأصحابه: ودعوا عمكم؟ وقال لعقيل: ودع أخاك؟ فتقدم عقيل إليه وقال: «ما عسى أن نقول - يا أبا ذر - وأنت تعلم أنا نحبك وأنت تحبنا. فاتق الله؟

فإن التقوى نجاة، واصبر فإن الصبر كرم، واعلم أن استقلالك الصبر من الجزع، واستبطاءك العافية من اليأس، فدع اليأس والجزع»، ثم تكلم الحسن عليه السلام وقال: «يا عمّاه لولا أنه لا ينبغي للمودع أن يسكت والمشيع أن ينصرف لقصر الكلام وإن طال الأسف، وقد أتى القوم إليك ما ترى فضع عنك الدنيا بتذكر فراقها، وشدة ما اشتد منها برجاء ما بعدها، واصبر حتى تلقى نبيك ﷺ وهو عنك راضٍ».

ثم تكلم الحسين عليه السلام فقال: «يا عمّاه، إن الله تعالى - قادر أن يغيّر ما قد ترى، والله كل يوم هو في شأن، وقد منعك القوم دنياهم، ومنعتهم دينك، فما أغناك عما منعوك، وما أحوجهم إلى ما منعتهم، فاسأل الله الصبر والنصر، واستعذ به من الجزع والهمس؟ فإن الصبر من الدين والكرم، وإن الجشع لا يقدم رزقاً والجزع لا يؤخر أجلاً».

ثم تكلم عمار عليه السلام مغضباً فقال: «لا أنس الله من أوحشك، ولا آمن من أخافك، أما والله لو أردت دنياهم لأمنوك، ولو رضيت أعمالهم لأحبوك».

وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلا الرضا بالدنيا، والجزع من الموت، ومالوا إلى ما مال إليهم سلطان جماعتهم، والملك لمن غلب، فوهبوا لهم دينهم، ومنحهم القوم دنياهم، فخسروا الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين».

ثم تقدم عبد الله بن جعفر، فتكلم بهذا ونحوه من كلمات وعظات، وهنا انفجر أبو ذر

بالبكاء وكان شيخاً كبيراً حتى أخذت دموعه تتقاطر على لحيته البيضاء، ثم قال: «رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة إذا رأيتمكم ذكرت بكم رسول الله ﷺ مالي بالمدينة سكن ولا شجن غيركم»^(١)، إني ثقّلت على عثمان بالحجاز، ثم ثقّلت على معاوية بالشام، وكره أن أجاور أخاه وابن خاله بالمصريين^(٢)، فأفسد الناس عليهما، فسيّرني إلى بلد، ليس لي به ناصر ولا دافع إلا الله، والله، ما أريد إلا الله صاحباً، وما أخشى مع الله وحشة»^(٣).

وانصرف علي عليه السلام وجماعته إلى المدينة، ومضى أبو ذر مطروداً عن حرم رسول الله ﷺ إلى حيث إقامته المفروضة عليه من قبل عثمان في فلاة بعيدة عن المدينة، خالية من الأتيس والجليس، وليس معه إلا إيمانه الصلب، وامراته أو ابنته كما قيل، ولكن اليعقوبي في تاريخه وبعض المؤرخين غيره يقول هنا: فأخرجه مروان بأمر عثمان ومعه امرأته وابنته.

وكان مروان قد شكاً إلى عثمان ما فعل به علي بن أبي طالب من الزجر والمجابهة، فقال عثمان وقد بلغ منه الغضب مبلغه: «يا معشر المسلمين من يعذرني من علي بن أبي طالب؟ فقد ردّ رسولي عما وجهته له، وفعل كذا وكذا، والله لنعطينه حقه».

فلما رجع علي إلى المدينة من توديع أبي ذر، استقبله الناس، وقالوا له: إن أمير المؤمنين عثمان غضبان عليك، لتشييعك أبا ذر، فقال علي عليه السلام: «غضب الخيل على اللجم»^(٤).

فلما كان من العشي، جاء إلى عثمان، فبدره عثمان مغضباً بقوله: «يا علي، ما حملك على ردّ رسولي»^(٥) وتصغير أمري»^(٦).

(١) كلتا الكلمتين بالتحريك، ومعنى الأولى: الأهل والقرابة ومعنى الثانية: من يحبه ويهواه من ذويه وأخوانه.

(٢) إشارة إلى أخي عثمان بالرعاية: عبد الله بن سعد بن أبي سرح واليه على مصر يوشذ وإلى ابن خاله: عبد الله بن عامر بن كريب واليه يومئذ على البصرة.

(٣) شرح النهج للحديدي: ج ٨ ص ٢٥٣ - ٢٥٤، ط جديد، والدرجات للسيد عليخان: ص ٢٤٨ - ٢٤٩، ط التجف.

(٤) مروج الذهب للمسعودي: ج ٢ ص ٢٥٠، ط ثانية بمصر.

والمثل المذكور يضرب لمن يتخطب غضباً لا جدوى فيه، ولا يؤثر أثره.

(٥) يقصد برسوله: مروان الذي أرسله مع أبي ذر لتطبيق أمره في عدم تشييعه وتكليمه من الناس.

قال علي: «أما رسولك، فإنه استقبلي، وأراد أن يرد وجهي فرددته، وأما أمرك فلم أصغره ولم أرد»^(٧).

قال عثمان: أو ما بلغك نهي الناس عن كلام أبي ذر وتشيعه؟

قال علي: أو كلما أمرت بأمر فيه معصية لله، أظعنك فيه؟

قال عثمان: أقد مروان من نفسك؟^(٨)

قال علي: وممّ أقيده؟

قال عثمان: من شتمه، وجذب راحلته، فقد شتمته، وضربت بين أذني راحلته؟

قال علي: أما راحلته، فراحتلي بها، فإن أراد أن يضربها كما ضربتها فليفعل؟ وأما

أنا، فوالله، لئن شتمني شمة لأشتمنك إذا شتمته، كأنك خير منه؟^(٩)

فانتفض علي عليه السلام في وجه عثمان مغضباً وقال: «الذي تقول هذا القول؟ وبمروان تعدلني؟

فأنا والله أفضل منك، وأبي أفضل من أبيك، وأمي أفضل من أمك»^(١٠)، وهذه نبلي قد نثلتها، وهلم

فانثل نبلك»^(١١).

فغضب عثمان، وأحمرَّ وجهه، فقام ودخل داره، فاجتمع إليه أهل بيته، ورجال من

المهاجرين والأنصار، فلما كان من الغد، أرسل عثمان إلى وجوه المهاجرين

والأنصار^(١٢)، وإلى بني أمية، فشكا إليهم علماً وقال: أنه يعينني ويظاهر من يعينني^(١٣).

(٦) صفه بالتشديد: إذا حقره واستهان به.

(٧) يقصد: أصل أمره بنفي أبي ذر، يعني: لم أمتعه من الرحيل إلى الربرة.

(٨) أقاده بالقتيل: إذا قتله به قوداً وبدلاً عنه، والقود بالتحريك، القصاص من القاتل بقتله بدل القتل، واستعمال الكلمة هنا

حيث لم يكن قتل في البين، مجازي.

(٩) في مروج المسمودي: تكلمة هذا الكلام هكذا: «فوالله ما أنت عندي بأفضل منه».

تأمل كيف يظهر الحقد الأموي الدفين على فلتات لسان الخليفة الأموي؟

(١٠) إنما ضرب الإمام علي عليه السلام الصفع عن ذكر مروان إلى عثمان، لأنه يرى أن مروان إنما كان شيئاً يذكر بعثمان، لا بنفسه.

فلا يستحق أن يطرحه على لسانه بالمفاضلة. (١١) نثل كنانة النبل: استخرج ما فيها من نبال، فترها.

(١٢) مروج الذهب للمسمودي: ج ٢ ص ٣٥١ ط ثانية.

(١٣) يقصد: حمارين يأسر، وأبا ذر، وغيرهما من حوار علي عليه السلام الناقمين على عثمان.

فدخل الناس بينهما بالإصلاح، فأرسل عثمان إلى علي عليه السلام ليسترضيه، فأتاه علي عليه السلام ومعه بنو هاشم، فتكلم عليه السلام فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال فيما قال: «أما ما وجدت علي فيه^(١)؛ من كلام أبي ذر ووداعه، فوالله، ما أردت مساءك ولا الخلاف عليك، ولكن أردت قضاء حقه، ووجه الله تعالى.

وأما مروان فإنه اعترض يريد ردي عن قضاء الله عز وجل فرددته، ردّة مثلي مثله، وأما ما كان مني إليك، فإنك أغضبتني، فأخرج الغضب مني ما لم أردّه».

فتكلم عثمان وقال فيما قال: «أما ما كان منك إلي، فقد وهبته لك، وأما ما كان منك إلى مروان فقد عفا الله عنك، وأما ما حلفت عليه فأنت البر الصادق، فاذن يدك؟ فأخذ عثمان يد علي عليه السلام فضمها إلى صدره»^(٢).

ويقضي أبو ذر في منفاه بالربذة سنتين أو أكثر بأشهر طريداً عن دار هجرته «يثرب» مضطهداً، فقيراً، لا يملك في دنياه غير غنيمات يسيرة، يقتات بشطف على نتائجها وألبانها، فتعاورته أمراض الكبر، وعوارض الفقر، فحضرته الوفاة، فوجهته زوجته أو ابنته كما في تاريخ اليعقوبي ونهاية الأرب وبعض المصادر نحو القبلة، وجلست عند رأسه تمرّضه وهي تبكي.

فقال لها وهو يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة: ما يبكيك يا أم ذر؟ أو يابنية، على الأشهر. قالت: أبكي لضيعتك هاهنا وأنت تموت في أرض غربة، وأنا امرأة ضعيفة، وأخاف أن أعجز عن أمرك؟

فقال لها: «لا تبكي - يا أم ذر أو يابنية - فإن رسول الله ﷺ أخبرني أنني أموت في أرض غربة، ويلي أمري ودفني والصلاة علي رجال من أمتي صالحون.

ولكن انظري إذا أنا مت، فأذبحي شاة من غنمي؟ فاصنعينها، فإذا هي نضجت، ألزمني قارعة الطريق؟ فإذا مر بك أول ركب، قل لي لهم: يا عباد الله المسلمين، هذا أبو ذر صاحب رسول الله، قد

(١) من معاني (وجد عليه) بالفتح: إذا غضب عليه.

(٢) المصدر الآنف: من مروج المسعودي، وشرح النهج للحديدي، ج ٨ ص ٢٥٥، والدرجات الرفيعة للسيد عليخان: ص ٢٥٠ ط التجف.

قضى نحبه، ولقي ربه، فأعينوني على أمره وحكم الله؟ فإنهم سيلون أمري، فإذا فرغوا من أمري فاطعمهم الشاة، ثم انصرفي إلى المدينة، فكوني بها حتى يأتيك الموت، كما أتاني». وما إن أنهى وصيته إلى ابنته، حتى قضى نحبه وانقطع نفسه^(١)، فلزمت الطريق العام، فإذا هي برهط قد أقبلوا من بيت الله الحرام وقد قضوا حاجتهم، قاصدين العراق^(٢)، وهم يعذون عشرة أو أكثر بنيف^(٣) كان من بينهم: مالك بن الحارث الأشتر النخعي^(٤)، فنظروا من بعيد إلى امرأة جالسة على قارعة الطريق، فلما دنوا منها، وثبت في وجوههم، وقالت: يا هؤلاء، هذا أبو ذر صاحب رسول الله قد قضى نحبه، ولقي ربه، وقد عجزت عن أمره فأعينوني عليه؟

● يموت أبو ذر في الربرة، ويدفن فيها

فلما سمع القوم كلامها ضجوا بالبكاء والنحيب، وترحموا على أبي ذر، وصلّوا على روحه، وفدوه بأيّائهم وأمهاتهم، ثم نزلوا عن رواحلهم وأخذوا في غسله، ثم تنافسوا في كفنه حتى جعلوه من جماعتهم، وقيل اختص به أحد منهم، وكان من الأنصار، وأخرج بعضهم حنوطاً كان معه، فحنطوه ثم كفّوه ثم صلّوا عليه جميعاً مؤتمنين بمالك^(٥)، ثم حفروا له حفيرة وألحدوه فيها.

(١) في بعض المصادر التاريخية: أن زوجته أو ابنته، تركته مسجى قبل أن يموت، ولزمت الطريق، فإذا هي بأولئك نفر من المسلمين، فاندبتهم لأمره فجاءوا معها، وأدركوه وفيه رمق فأخذ يحذّتهم بما سمعه من رسول الله ﷺ من نهاية مصره وقصة موته ومن يلي أمره، ولكن ما ذكرناه أنسب بوصيته المذكورة.

(٢) وبعض المصادر التاريخية تذكر أن القوم خرجوا من الكوفة إلى الحجاز ومن بينهم عبد الله بن مسعود فالتقوا بامرأة أبي ذر أو بنته في ذلك المكان، فالتفتوا لها وقاموا بتجهيزه وصلى عليه ابن مسعود مع الجماعة. ولكن ما ذكرناه أنسب بما تذكره بعض المصادر من أن موته كان في أغربيات ذي الحجة كما عليه الطبري في تاريخه ضمن حوادث سنة ٣٢ هـ حيث إن هذا الوقت يناسب رجوع الحجاج المراقبين إلى بلادهم والله العالم.

(٣) فربما روي: أنهم أربعة عشر شخصاً، واختلفت المصادر في تشخيصهم كاختلافها في عددهم غير أن عامتها لا تعدو ذكر مالك الأشتر، وإن اختلفت في أنه أو ابن مسعود كان إمام القوم في الصلاة على جنازة أبي ذر، وعامة المؤرخين من العامة ترى أنه ابن مسعود، وهما متهم من الشيعة يرون أنه مالك.

(٤) ذكرنا قبل صفحات من هذا الجزء من كتابنا يسيراً من ترجمة هذا الرجل الصحابي الجليل.

(٥) إن بعض المصادر خصوصاً: الشيعة منها كرجال الكشي ضمن ترجمة مالك يرون بأن القوم قدموا مالكاً للصلاة على

فلما سووا عليه التراب، قام مالك الأثرثر على قبره، فحمد الله، وأثنى عليه، وذكر النبي، فصلى عليه، ثم قال: «اللهم، هذا أبو ذر جندب بن جنادة - صاحب رسولك محمد ﷺ: عبدك في العابدين، واتباع ما أنزلت من آياتك، وجاهد في سبيلك المشركين، ولم يفتّر ولم يبدل، ولكن رأى منكراً، فأنكره بلسانه وقلبه، حتى جفي، ونفي، وحُرّم حتى افترق واحتقر، وضيع حتى مات وحيداً غريباً في أرض غربة، اللهم، فأعطه من الجنة حتى يرضى وأقصم من طرده، وحرمه، ونفاه من مهاجرة حرم رسولك محمد ﷺ»، فرفع القوم أيديهم وأمنوا على دعائه، ثم أقاموا يومهم ذلك عند قبره، فلما كان العشي، عرضت عليهم المرأة: الطعام فأكلوا ثم سلموا وأرتحلوا^(١).

● قصة تنكيل الخليفة بعبد الله بن مسعود

وأما بالنسبة إلى تنكيله بعبد الله بن مسعود، فقد ذكر المؤرخون: أنه كان أوائل أيام عمر بن الخطاب خازناً لبيت المال بالكوفة ضمن ولاية عمار بن ياسر عليها وكان معلماً أهل الكوفة قراءة القرآن وعلومه وداعياً إلى ولاية أهل البيت ﷺ، ثم سرعان ما عزله وعزل عماراً عن الكوفة، لو شأية كانت بينهما وبين عمر فيما يخص أحقية علي عليه السلام بالخلافة الإسلامية.

فرجع ابن مسعود كما رجع عمار إلى المدينة، وبقي فيها إلى أن قتل عمر، وكانت مهزلة الشورى المعذرة لتعيين عثمان للخلافة كما هو مفصل في محله، فكان ابن مسعود

→ جنازة أبي ذر، وبعض المصادر كفتوح ابن أئثم، ج ٢ ص ١٦٢، واليعقوبي ج ٢ ص ١٦٣ ط، نجف وغيرهما تذكر مالكاً مع النفر الذين حضروا وفاة أبي ذر، وتطلق القول بأنهم صلوا عليه، وعامة المصادر خصوصاً العامة منها تعين ابن مسعود للصلاة عليه مع القوم وعلى أساس ورودهم من العراق إلى الحجاز، والتفاهم مصادفة بقصة وفاة أبي ذر، على أن الكثير منهم بعد مالكاً من أولئك النفر، والذي نختاره: أن مالكاً هو الذي صلى بالقوم على جنازة أبي ذر وهو صاحب الخطبة والتأيين والدعاء بعد الانتهاء من الصلاة كما عليه عامة المصادر الشيعية والله العالم.

(١) رجال أبي عمرو الكشي ضمن ترجمة مالك، والدرجات الرفيعة للسيد عليخان ضمن ترجمة أبي ذر، وفتوح ابن أعثم الكوفي: ج ٢ ص ١٦٢، ويرى الطبري في تاريخه ضمن حوادث سنة ٣٢ أثناء عرضه لقصة تسيير أبي ذر وموته بالريذة: إن القوم الذين حضروا جنازته ودفنه حملوا عياله معهم حتى أوصلوهم إلى المدينة، وفي تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٣، ط النجف «ثم حملوا بنته حتى صاروا بها إلى المدينة».

في البداية من المعارضين للشورى ولخلافة عثمان، ثم رضى أخيراً أسوة بغيره من شيعة علي عليه السلام وأهل بيته فبايع.

فبعثه عثمان أوائل خلافته والياً على الكوفة ثم عزله عنها، لسعاية كانت عليه: أنه ممن ينقد سياسة الخليفة في الرعية وتنكيله بصحابة النبي صلى الله عليه وآله ^(١).

وأمره بالرجوع إلى المدينة، وبعث مكانه: الوليد بن عقبة، وفي تلك الفترة كانت المشادة الكلامية بينه وبين الوليد فيما يخص التصرفات المالية من قبل عثمان حتى جاء ابن مسعود بمفاتيح بيت المال وألقاها إلى الوليد، ثم أخذ يقول كل يوم جمعة: «من غير، غير الله ما به، ومن بذل أسخط الله عليه، وما أرى صاحبكم - يعني عثمان - إلا وقد غير وبدل».

إن أصدق القول كتاب الله، وأحسن الهدي هدى محمد صلى الله عليه وآله، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدث بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار».

حتى غضب الوليد من مواصلة تعريض ابن مسعود به وبعثمان، ونهاه، وهدده عدة مرات فلم يعبأ ابن مسعود بتهيه وتهديده، فكتب الوليد إلى عثمان فيه: كتاباً، قال فيه: «إنه يعيبك ويمطعن عليك».

فكتب عثمان إلى الوليد حين بلغه كتابه: أن يشخصه إلى المدينة ليكون تحت رقابته، وأمام عيونه.

فأخرجه الوليد من الكوفة فخرج الناس معه يشيعونه وهم يهتفون: «أقم هنا ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء تكرهه، فامتنع ابن مسعود وقال: «سيكون أمر أو فتنة ولا أحب أن أكون أول من فتحه» ^(٢).

(١) في الدرجات الرفيعة للسيد عليخان: ص ٢٥٠ ط النجف: «وروي: أن عبد الله بن مسعود، لما بلغه خبر نفي أبي ذر إلى الريدة وهو إذ ذاك بالكوفة قال في خطبة يسلم من أهل الكوفة: «فهل سمعتم قول الله تعالى: ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم» يعرض بذلك بعثمان، فكتب الوليد بذلك لعثمان، فأشخصه من الكوفة، فلما دخل مسجد النبي صلى الله عليه وآله أمر عثمان غلاماً له أسود، فدفع ابن مسعود وأخرجه من المسجد ورمى به الأرض، وأمر بإحراق مصحفه، وجعل منزله حبه وحبس عنه عطاءه أربع سنين إلى أن مات».

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم: ج ١ ص ١٣٨ ط مصر، وشرح النهج ج ٣ ص ٤٢، ط جديد، والاستيعاب بترجمته من حرف

ثم إنه أوصاهم بتقوى الله، ولزوم القرآن، فودعوه بحزن وأسف وهم يقولون: «جزيت عنا خيراً، فلقد علمت جاهلنا، وثبت عالمنا، واقرأتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، فنعم آخر الإسلام أنت، ونعم الخليل».

ثم انصرفوا عنه راجعين، ومضى ابن مسعود متوجهاً نحو المدينة، فلما دخلها، ووقف على باب المسجد وصادف حينئذ عثمان يخطب على منبر رسول الله ﷺ خطبة يوم الجمعة، فلما رآه قطع خطبته وقال يخاطب المسلمين: «ألا أنه قدمت عليكم دويبة سوء^(١) من يمشي على طعامه بقي ويسلم»^(٢).

فرد عليه ابن مسعود على الفور قائلاً: «لست كذلك - يا عثمان - ولكني صاحب رسول الله ﷺ يوم بدر، ويوم بيعة الرضوان وصاحبه يوم الخندق وصاحبه يوم حنين».

ونادت عائشة وكانت حاضرة في المسجد: أي عثمان، أتقول هذا لصاحب رسول الله؟ فقال لها: اسكتي؟

ثم أمر عثمان به أن يخرج من المسجد إخراجاً عنيفاً، فأخذه عبد الله بن زمعة، فاحتمله حتى جاء به إلى باب المسجد، فضرب به الأرض، فكسر ضلعاً من أضلاعه فقال ابن مسعود: قتلني ابن زمعة الكافر بأمر عثمان، وقيل: بل احتمله «يصوم» غلام عثمان ورجلاه تختلفان على عنق الغلام، حتى ضرب به الأرض، فدق عظمه.

وهنا انتفض علي عليه السلام للحق في وجه عثمان وقال: «يا عثمان أتفعل هذا بصاحب رسول الله ﷺ بقول الوليد بن عقبة؟»

فقال عثمان: ما بقول الوليد فعلت هذا به، ولكنني وجهت زبيد بن الصلت الكندي إلى الكوفة، فقال ابن مسعود إن دم عثمان حلال.

فقال علي عليه السلام: «أحلت علي زبيد على غير ثقة».

ثم إن علياً قام بأمر ابن مسعود حتى أتى به منزله، فأقام ابن مسعود بالمدينة لا يأذن

له عثمان في الخروج منها إلى ناحية من النواحي، وأراد حين بريد الغزو والخروج إلى الشام مع المسلمين فمنعه عثمان من ذلك بإيعاز من صهره ومستشاره مروان بن الحكم، فقد قال له: «إن ابن مسعود أسد عليك العراق، أفتريد أن يفسد عليك الشام؟ فلم يبرح المدينة حتى توفي قبل مقتل عثمان بسنتين، وكان مقيماً بالمدينة ثلاث سنين»^(١).

قالوا: ولما مرض ابن مسعود مرضه الذي توفي فيه على أثر تعذيبه والتنكيل به أتاها عثمان عائداً، فلما جلس قال له: ما تشتكي يا بن مسعود فقال: ذنوبي.

قال عثمان: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي.

قال عثمان: ألا أدعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني.

قصة موت ابن مسعود بتنكيل الخليفة

قال عثمان: أفلا آمر لك بهطائك؟^(٢) قال: منعني وأنا محتاج إليه، وتعطينيه، وأنا

مستغن عنه؟

قال عثمان: يكون لولدك أو بناتك، قال: رزقهم على الله تعالى^(٣).

قال عثمان: استغفر لي يا أبا عبد الرحمن؟ قال ابن مسعود: أسأل الله أن يأخذ لي

منك حقي، فأنصرف عثمان مغضباً.

وتقل مرض ابن مسعود، وحضرته الوفاة، فاجتمع عنده خلص أصحابه من عليه

أصحاب رسول الله ﷺ، فقال لهم: من يتقبل مني وصية أوصيه بها على ما فيها؟

فسكت القوم، وعرفوا الذي يريد، فأعاد كلامه عليهم، فأنبرى عمار بن ياسر من

بينهم وقال: أنا أقبلها.

فقال ابن مسعود: وصيتي: ألا يصلي عليَّ عثمان؟ قال عمار ذلك لك.

ثم لفظ أنفاسه الأخيرة، فجهزه أصحابه، وصلى عليه عمار بن ياسر^(٤) ثم دفنوه

(١) أنساب البلاذري: ج ٥ ص ٣٦ ط مصر.

(٢) قال ابن كثير في البداية والنهاية: ج ٧ ص ١٦٣، ط بيروت: «كان قد قطعه عنه سلتين».

(٣) في المصدر الآنف: من بداية ابن كثير، جواب ابن مسعود هكذا: «أتمشى على بناتي الففر؟ إني أمرت بناتي أن يقرأن كل

ليلة سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً».

(٤) هكذا في عامة المصادر التاريخية، وإن ذكر البعض أن الذي صلى عليه: الزبير بن العوام.

بالقيع وكان عمره يوم مات ستين ونيفاً من السنين^(١).

ويقال: إنه لما دفن جاء عثمان إلى موضع قبره منكراً ذلك، فقال له قائل: إن عماراً ولي الأمر، فقال لعمار: ما حملك على أن لم تؤذني؟

قال عمار: عهد إلي أن لا أؤذئك، فغضب عثمان وجاء حتى وقف على قبره وأثنى عليه، ثم انصرف وهو يقول:

«رفعتم - والله أيدىكم عن خير من بقي»، فتمثل الزبير بن العوام بقول الشاعر:

لا ألفينك بعد الصوت تسدبني وفي هباتي ما زودتني زلاي^(٢)

وبعد هذا، نقول: إن تشكيل عثمان، وعماله الأمويين بالمسلمين لا يقف عند عدد، ولا ينتهي إلى أمد، ولا يصده عرف اجتماعي، أو حاجز شرعي، خصوصاً ما كان منه في سنواته الأخيرة التي أدت بالنتيجة إلى ما أدت من الثورة عليه، وقتله على أيدي صلحاء الصحابة، وأخيار التابعين.

ولقد ذكرنا آنفاً، ضمن الحديث عن سعيد بن العاص أمير الكوفة من قبل عثمان ما فعله هذا الشاب النزق بقراء الكوفة، وصلاحاتها أمثال: مالك الأشتر النخعي، وهاشم المرقال، والحارث الهمداني، وعمر بن الحمق الخزاعي، وكميل بن زياد وغيرهم من الأخيار المؤمنين، وأصحاب أمير المؤمنين عليه السلام حيث نفاهم بأمر عثمان من الكوفة إلى الشام، حيث ساءهم معاوية ومردته كعبد الرحمان بن خالد سوء العذاب حتى أرجعهم بعد ذلك إلى الكوفة مظلومين مضطهدين، وليس لهم جرم سوى: إنهم لا يقرون عثمان على مبتدعاته وتجاوزاته غير المحدود على أموال المسلمين، وكراماتهم.

(١) في المصدر الآنف: من بداية ابن كثير: «يضع وستون سنة».

(٢) شرح النهج للحديدي: ج ٣ ص ٤٣، والبيت من قصيدة لعبد بن الأبرص كما في ديوانه المطبوع وهو عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم بن عامر بن مالك الأسدي الحضري.

كان من شعراء الجاهلية، ودعاتها وحكامها وشجعانها. عاصر أمري القيس الشاعر الفحل، وله معه مناظرات ومطارحات ومناقضات، أخباره منفصلة في هامة كتب الأدب والمعاجم كالشعر والشعراء للمرزباني، وأخاني أبي الفرج، وجمهرة أعلام العرب، وشرح الضواهد، وخزانة البندادي، وسمط اللتالي، وإعلام الزركلي وغيرها.

عمر طويلاً حتى إذا وفد على النعمان بن المنذر في يوم يؤسه، فقتله، وذلك قبل الهجرة بـ ٢٥ سنة تقريباً.

● اضطهاد الخليفة وعمله الأمويين اصحاب الرسول من قراء الكوفة

ولنذكر الآن قصة أخرى من قصص اضطهاد الخليفة الأموي وعمله الأمويين لصحابة الرسول ﷺ وقراء أهل الكوفة من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام:

قال المؤرخون باقتضاب منا: لقد اجتمع نفر من قراء أهل الكوفة، وأخيارهم، منهم: يزيد بن قيس الأرحبي، ومالك بن حبيب التميمي، وحجر بن عدي الكندي، وعمر بن الحمق الخزاعي، وسليمان بن صرد الخزاعي، والمسيب بن نجبة الفزاري، وزباد بن النضر الحارثي، ومعل بن قيس الرياحي، وزيد بن حصن الطائي، وكعب بن عبدة النهدي، وأضرابهم من أهل الفضل والدين، ومن شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، فكتبوا إلى عثمان بن عفان: كتاباً، يشكون فيه: وإليه على الكوفة، سعيد بن العاصي، وغلظته وشدته على أهل الفضل والدين والعفاف: من الصحابة والتابعين، وينذرونه مغبة غضة، واسترساله في اتخاذ بطانته، وعمله من الطلقاء وأبناء الطلقاء من بني أمية^(١).

ولم يصرح أحد منهم باسمه ونسبته في الكتاب، ودفعوا الكتاب إلى رجل من «عزة»^(٢) يكنى «أبا ربيعة» ليوصله إلى عثمان.

وكتب كعب بن عبدة النهدي^(٣) وحده كتاباً خاصاً وقع به باسمه واسم أبيه، ضمته نفس مضامين كتاب أصحابه، وأضاف عليها كلمات تهديد وإنذار لعثمان من سخط الله، إن هو بقي على تحيزه القبلي: من تسليط آل أبي معيط على رقاب المسلمين^(٤).

وأخذ الفتى العنزي: الكتابين، ورحل من الكوفة، يحد السير، حتى وصل إلى المدينة، فدخل على عثمان وكان عنده جماعة من أهل المدينة وبني أمية فناولوا الكتاب الأول الذي كتبه الجماعة فلما قرأه عثمان أربد وجهه، وتغير لونه، فالتفت إلى العنزي، وسأله عن أسماء القوم الذين كتبوا الكتاب؟ فلم يخبره بأسمائهم، وإنما قال له: «كتب

(١) يذكر الكتاب نصه: ابن أعثم في فتوحه: ج ٢ ص ١٨٠ - ١٨١.

(٢) عزة بالتحريك بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان.

(٣) نسبة إلى نهد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بضم اللام، بن الحارثي بن لضاغة.

(٤) في المصدر الأقف من فتوح ابن أعثم: ص ١٨٢ نص كتاب كعب.

إليك ناس كثير من صلحاء أهل الكوفة، وقرائها، وأهل الدين والفضل».

فقال له عثمان: كذبت، إنما كتبه السفهاء وأهل البغي والحسد، فأخبرني: من هم؟ فقال العنزي: ما أنا بفاعل.

فقال عثمان: إذا والله أوجع جنبك، وأطيل حبسك.

فقال العنزي: والله لقد جئت، وأنا أعلم أنني لا أسلم منك، فصاح عثمان بغلمانته: جردوه؟ فقال العنزي: وهذا كتاب آخر، فاقرأه قبل أن تجردني، وناولته كتاب الهندي. فقرأه عثمان، ثم قال له: من كعب بن عبيدة هذا؟ قال العنزي: قد نسب لك نفسه.

قال عثمان: فمن أي قبيل هو؟ فأبى العنزي أن يخبره عنه بشي.

فالتفت عثمان إلى كثير بن شهاب الحارثي وسأله عن كعب؟ فقال له: نعم يا أمير المؤمنين - هو رجل من «نهد».

وأمر عثمان بالعنزي أن يجردوه من ثيابه، ويضربوه؟

وهنا انتصر علي عليه السلام للحق المضطهد برأى ومسمع من صحابة الرسول وعموم أهل المدينة، فقال لعثمان: لماذا يضرب هذا الرجل؟ إنما هو رسول جاء بكتاب، وأبلغك رسالة حملها، فلم يجب عليه في هذا ضرب.

فقال عثمان: أفترى أن أحبسه؟

قال علي: لا، ولا يجب عليه الحبس.

فخلى عثمان سبيل العنزي، فانصرف راجعاً إلى الكوفة، فاجتمع عليه أصحابه ومن كان على رأيه فأخبرهم بقصته مع عثمان وموقف علي عليه السلام في الدفاع عنه، فدعوا لعلي عليه السلام بخير، وشكروه على فعله.

وكتب عثمان بدوره إلى سعيد في أشخاص كعب إليه على مركب صعب، مع سائق عنيف.

فلما وصل كتاب عثمان إلى سعيد، أرسل إلى كعب ووجه به إلى عثمان بالنحو الذي أمر، فأرسله مع أعرابي فظ غليظ، فلما صار في بعض الطريق، جعل الأعرابي ينظر إلى

صلاة كعب؟ وطول تهجده وعبادته وذكره ونسكه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، بعثت مع هذا الرجل هدية إلى القتل والعقوبة الشديدة أو الحبس الطويل.

ثم قدم به إلى عثمان، فلما رآه قال: «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه»^(١)، وكان كعب شامهاً، حدث السن نحيف الجسم، ثم أقبل عليه عثمان، فقال: «أأنت تعلمني الحق، وقد قرأت القرآن، وأنت في صلب رجل مشرك؟

فقال كعب: على رسلك - يا بن عفان - إن كتاب الله، لو كان للأول دون الآخر لم يبق للأخر منه شيء، ولكنه لمن بلغه وقراه، وقد شركناك في قراءته، ومتى لم يعمل القاريء بما فيه كان حجة عليه.

قال عثمان: والله ما أظنك تدري: أين ربك؟

فقال كعب: بلى - يا عثمان - هو لي ولك بالمرصاد.

● تنكيل الخليفة بكعب بن نهد بعد المشادة بينهما

وهنا التفت مروان بن الحكم جليس عثمان ومستشاره من أهل بيته إلى عثمان، وقال: حلمك على مثل هذا وأصحابه أطمع فيك الناس، وجراهم عليك.

فقال كعب: يا عثمان، إن مثل هذا - وأشار إلى مروان - أغروك، وأغرونا بك.

ثم أمر الخليفة جلاوزته، فجردوا كعباً من ثيابه، وضربوه عشرين سوطاً، ثم كتب فيه إلى سعيد بن العاص أن يُسيره إلى «دماوند»^(٢)، ويقال: إلى بعض الجبال هناك يسمى «جبل الدخان».

فلما ورد كعب على سعيد، وتسلم كتاب الخليفة فيه، حمّله مع بكير بن حمران الأحمر، فخرج به هذا الرجل الجافي على الفور حتى جعله في مكانه الذي أمر به الخليفة.

(١) المعيني: بالضم: تصغير معدي بالفتح والتشديد نسبة إلى معد جد العرب الأعلى وخفناً استقلالاً للتشديد مع ياء النسبة، و«تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» مثل يضرب للرجل له حيث ذكر في الناس، فإذا رأته ازدريت مرآته، فسماعك به خير من أن تراه عن أقرب الموارد.

(٢) دماوند بضم الدال وفتح الميم ويقال: «دماوند» كذلك ودماوند بفتح الدال والواو وبالميم بدل الهمزة: كورة كبيرة من كور الري، تبعد عنها بأميال، ولا تزال هي من مصائف (طهران) إذ رأيناها وبقينا فيها أياماً مصمتة قبل أكثر من أربعين سنة.

فلما رآه «الدهقان» الذي ورد عليه كعب سأل بكيراً: لم فعل بهذا الرجل ما أرى؟ قال بكير: لأنه شرير، فقال الدهقان: إن قوماً هذا من شرارهم لخيار.

ثم إن طلحة بن عبد الله، والزبير بن العوام، لما بلغهما تسيير الخليفة ذلك الرجل ونظراءه من صلحاء الصحابة، دخلوا عليه، وأتياه على فعله، وحذّراه مغبة أمره، ثم خرجا من عنده مغضبين.

فكتب عثمان بدوره إلى سعيد بن العاصي: أن يسترجع كعباً من منفاه في الري إلى الكوفة، ثم يعجل بحمله إليه؟

فلما ورد الكتاب على سعيد، دعا بكير بن حمران الأحمر، وأنفذه إلى كعب، فأشخصه إليه، ثم وجه به إلى المدينة.

فلما أدخل على عثمان، سلم عليه، فرد عثمان عليه السلام، ثم أدنى مجلسه، ثم عاتبه على شدة كتابه الذي كتبه إليه، ثم نزع عثمان قميصه، ودعا بالسوط ودفعه إلى كعب، وطلب منه أن يقتص منه كما ضربه؟ فقال كعب: لا أفعل ذلك، بل أدعه لله تعالى ثم خرج من مجلس عثمان، ورجع إلى الكوفة^(١).

● تنكيه بعامر التميمي

ولم يزل الخليفة خصوصاً في أخريات سنواته ينكل بالصحابة الأخيار، والتابعين الأبرار، والموالين لأمر المؤمنين عليهم السلام.

فمن أولئك أيضاً التابعي المعظم، مثال النسك والورع والإيمان: عامر بن عبد قيس العنبري التميمي^(٢).

(١) فتوح ابن أعمش الكوفي: ج ٢ ص ١٧٦ - ١٨٨، ط حيدر آباد، وأنساب البلاذري ج ٥ ص ٤١ - ٤٣، ط مصر، والرياض النضرة للمحب الطبري: ج ٢ ص ١٤٠ - ١٤٩، ط مصر، وشرح النهج للحديدي ج ١ ص ١٦٨، ط مصر قديم، وعدّ العلبي في السيرة: ج ٢ ص ٨٧ من جملة ما انتقم المسلمون به على عثمان: ضربه كعب بن عبيدة عشرين سوطاً، ونفاه إلى بعض الجبال.

(٢) هو عامر بن عبد قيس بن ناشب أو ثابت بن أسامة بن جذيمة بن معاوية بن الجون بن كعب بن العنبر بن عمرو بن تميم كما في معبر النشأة للبغداد، وعن أبي نعيم في الحلية: أنه أول من عُرف بالنسك من حباه التابعين بالبصرة، وهو من

قد جلبه الخليفة مرة إليه من البصرة، وأزعجه حين كتب إليه حمران بن أبان مولاة من البصرة: أن عامراً ينكر عليه أمره، وينتقد سيرته.

فكتب عثمان على أثر ذلك إلى عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة العبشمي عامله يومئذ على البصرة، في حمل عامر إليه بنحو مهين.

فلما قدم عامر على عثمان، ورآه، وقد أعظم الناس إشغاصه ولزعاجه عن بلده إلى المدينة، لعبادته وزهده وورعه، عند إذ أكرمه عثمان، ولطف به، وردّه إلى البصرة^(١). وبعد هذه الحادثة بقليل، وشي بعامر هذا إلى عثمان: أنه لا يزال ينكر عليه سيرته، وتصرفاته غير المحدودة في أموال المسلمين وكراماتهم.

فأمر عثمان: عامله في البصرة أن يسيره إلى الشام على قتب بلا وطاء، ففعل به ما أمره الخليفة، فأرسله إلى معاوية في الشام.

فأنزله معاوية داره «الخضراء» وبعث إليه بجارية، تعلمه بحاله؟ فكانت تراه يقوم الليل كله، ويخرج من السحر، فلا يعود إلا بعد العتمة، ولا يتناول من طعام معاوية شيئاً، بل كان يأتي معه بكسر من الخبز، يجعلها في ماء، فيأكلها ويشرب من ذلك الماء.

فكانت الجارية تعلم معاوية بخبره كل يوم، فكتب معاوية إلى عثمان بحاله، فكتب إليه عثمان بأن يصله ويدينه، فكتب إليه معاوية: أن لا أرب لي في ذلك، وخلى سبيله^(٢).

● تنكيل الخليفة بعبد الرحمان بن حنبل الجمحي

→ أقران أويس القرني وأبي مسلم الغولاني في التنسك والتصد والانصراف إلى الآخرة، وقد عرفته بهذا ونحوه من كلمات الإطراء على نسكه وعبادته عامة المصادر التي ترجمت له، من كتب السير والمعاجم والنسب، توفي رحمه الله في بيت المقدس سنة ٥٥ هـ وقبره هناك معروف كما في الإصابة لابن حجر.

(١) أنساب الأشراف للبلاذري: ج ٥ ص ٥٧، ط مصر.

(٢) الإصابة لابن حجر ضمن ترجمته برقم ٦٢٨٤ من الجزء الثالث، وعذ ابن قتيبة في (معارفه: ص ١٩٥)، ط دار الكتب المصرية من الأمور التي تقوم بها الناس على عثمان: تسيره عامر بن عبد القيس من البصرة إلى الشام، وكذلك فعل الراغب الأصفهاني في (محاضراته: ج ٢ ص ٢١٢) ط مصر، وكذلك ذكرت عامة المصادر التاريخية التي استعرضت الأمور التي تقيم بها على عثمان، فأدت إلى حصاره وقتله.

ومن الذين شملهم تنكيل الخليفة: عبد الرحمان بن حنبل الجمحي^(١).
فقد كان شديد الوطأة على عثمان، وتصرفاته الناشئة عن الشرع والعرف بإيثاره
بني أمية على مناصب الدولة، وأموال المسلمين، وكراماتهم، فكان يهجو بشعره، فمن
ذلك قوله: يخاطبه:

وأحسك بالله جهذ اليمين	ما ترك الله أمراً شدي
ولكن لجعلت لنا حفنة	لكي نبتلي بك أو نسيبتلي
فإن الأميين قد بيئنا	مناز الطريق عليه الهدى
فما أخذنا درهماً غيلة	وما جعلنا درهماً في الهوى
دعوت «الطريد» فابنيته	خلفاً لنا سنه المصطفى
ووليت قرباك أمر العباد	خلفاً لسنة من قد مضى
وأعطيت مروان خمس الغنيمة	آثرته، وحملت الصمى
وما لأتاك به «الأشعري»	من الفسي أعطيقه من دنا ^(٢)

وبلغت أبياته الخليفة، فأمر بنفيه إلى «القموس» أو القموس بالعين أو بالقاف، من
خيبر، وسجنه هناك وغلّ يديه، ولما ساءت حاله في السجن، أخذ يقول:
إلى الله أشكو لا إلى الناس ما عدا
أيا حسن: غلاً شديداً أكابذه^(٣)

(١) نسبة إلى (جمع) يضم ففتح واسمه تيم بن عمرو بن حصيص بن كعب، هو أخو كلدة بن حنبل على فعلل، وكان أبوهما
من أهل اليمن، فاستوطن مكة وذلك قبل البعثة النبوية بستين، فولد له فيها أبناء: كلدة وعبد الرحمان، وكان عبد الرحمان
من الصحابة الإجلال ومن الشعراء المجيدين ومن الشيعة الموالين لأمير المؤمنين عليه السلام شهد فتح دمشق أيام أبي بكر وعنه
خالد بن الوليد إلى أبي بكر، يشره يوم (أجنادين)، وكان من الناقسين على عمر في عملية الشورى المعينة عثمان للخلافة
بلف ودوران، واشتدت ثقته على عثمان وتصرفاته الناشئة عن الشرع والعرف بإيثاره، بني أمية على المناصب والأموال
والكرامات، فأخذ يهجو كما ذكرنا فحسبه عثمان، وتفاء إلى القموس بالعين أو بالقاف بخير، فتدفع فيه علي عليه السلام فأطلقه
عثمان، وبقي في المدينة إلى أن استخلف علي عليه السلام بعد مقتل عثمان فحضر معه صفين سنة ٣٧ هـ فقتل فيها رحمه الله.

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر ضمن ترجمته من حرف العين، والمعارف لابن قتيبة: ص ١٩٥ ط دار الكتب وغيرهما من
المصادر التاريخية والنسبية باختلاف بسيط في بعض كلمات الأبيات، وللأبيات تبع وهي واضحة المعنى من حيث الإشارة
إلى ما ذكرناه آنفاً ما نلم به على عثمان.

(٣) يقصد من كلمة (أيا حسن): علي بن أبي طالب عليه السلام، ومعنى قوله: إني لا أشكو إلى أحد من الناس ما أنا فيه من بلاء إلا

خبير في قعر «القموس» كأنها
ابن قلت حقاً أو نشئت أمانة
وكتب إلى علي عليه السلام وعمار من الحبس قوله:

أبلغ علياً وعماراً فإنهما
لا تتركاً جاهلاً حتى يوقره
لم يبق لي منه إلا السيف إذ علقت
بعلم بأنني مظلوم إذا ذكرت

ولم يزل أمير المؤمنين عليه السلام يكلم الخليفة في إطلاق عبد الرحمان من سجنه،
وإرجاعه إلى المدينة، حتى عفا عنه وأطلق سراحه بشرط أن لا يساكنه بالمدينة، فسيّره
إلى «خبير» فأنزله قلعة بها تسمى «القموس»، فلم يزل بها حتى ناهض المسلمون عثمان
فحاصروه، فقال عبد الرحمان:

لولا علي فإني لكانت أنفقتني
لما رجوت لدى شئ بحامضة
نفسى فداء علي إذ يخلصني

فرجع إلى المدينة، حتى إذا قتل عثمان واستخلف علي عليه السلام كان في الطليعة من
ملازميه، وحضر معه «صفين» ولم يزل يكرّر على القوم، وهو يقول:

→ إلى أبي الحسن عليه السلام، وربما قيل: بأنه بعث الأبيات إليه كالأبيات الأخرى الآتية الذكر.

(١) القدير للأميني: ج ٩ ص ٥٩، ط طهران نقلًا عن معجم المزياني، وعد البقوي في تاريخه: ج ٢ ص ١٦٣، ط نجف مما
تقم به على عثمان: نفى عبد الرحمان بن حنبل إلى القموس من خبير. فقال مما قال: «وتقم الناس على عثمان بعد ولايته
بست سنين وتكلم فيه من تكلم وقالوا: أثر القري، وحسب الحمى وبني الدار واخذ الضياع والأموال بمال الله والمسلمين،
ونفى أبا ذر صاحب رسول الله وعبد الرحمان بن حنبل، وأوى الحكم بن أبي العاص وعبد الله بن سعد بن أبي سرح
طريدي رسول الله ﷺ، وأهدر دم الهرمزان ولم يقتل عبيد الله بن عمر وولي الوليد بن عقبة الكوفة، فأحدث في الصلاة ما
أحدث فلم يمتعه ذلك من إيماءته إياه» إلى آخر كلامه.

(٢) يمرض عثمان ينتهي بعلي وعمار أن يبقيا في وجه تماديه في سلوكه ويهدده.

(٣) المصدر الآنف: من غدير الأميني.

إن يقتلوني فأنا ابنُ حنبل أنا الذي قد قلت فيكم نعلل

● قتل الخليفة الأموي من قبل المسلمين

ولم يزل يواصل القتال، حتى قتل ﷺ وذلك سنة ٣٧ هـ^(١)

وقد أوجز المؤرخون حديثهم عن آخر مصير الخليفة الأموي، فقالوا: لقد تقم عليه المسلمون: اختصاصه أقاربه وأصحاره من بني أمية وغيرهم بالولايات والأعمال والعطايا والهبات، فجاءته الوفود من الكوفة والبصرة ومصر، فطلبوا منه عزل أقاربه عن الولايات والمناصب، فأبى وامتنع من ذلك.

فحاصروه في داره أربعين يوماً يطالبونه في خلع نفسه عن الخلافة، فلم يفعل فتسوروا عليه الجدار، وقتلوه صبيحة عيد الأضحى في المدينة سنة ٣٥ هـ وهو ابن ٨٨ سنة، وقيل ٨٦ وضاع دمه بين المسلمين، وبقي ثلاثاً لم يدفنه أحد جهاراً حتى تسلل إليه أحدُ مرده ليلاً فدفنه في موضع من نواحي البقيع يقال له «حش كوكب» كان مدفناً لليهود من قبل، وصلى عليه أحد أربعة: حكيم بن حرام أو جبير بن مطعم، أو حويط بن عبد العزى أو ابنه عمرو، وقيل: دفن من دون صلاة والله العالم.

خلف من البنين سبعة: عمرو وعمر وخالد وأبان والوليد وسعيد وعبد الملك. وقبل أن نختم الحديث عن الرجل يحسن بنا أن نسجل بعض الجمل من الخطبة الشقشقية كما في نهج البلاغة وشرحه لتعطينا بعض الصور الواضحة عن أسباب قتله، ومغبة مصيره. قال ﷺ: «... إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين ثثله - وهو الروث - ومعتله - موضع العلف - وقام معه بنو أبيه، يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكت عليه فتة - أي انتقض - وأجهز، عليه عمله، وكبت به بطنته ..».

الفصل السادس

عرض ملصّل عن ضلال أبي العيص بن أمية، وإخوته
الأعياص الثلاثة: العاصي وأبي العاصي وأبي العيص،
ولمحات يسيرة عن شواهد ضلالهم وتفاقمهم في دوري
جاهليتهم وإظهار إسلامهم، وبيان شدة عداوتهم
للنبي ﷺ ولعلي عليه السلام ولأصحابهما المؤمنين والتابعين لهم
بإحسان.

وفي الختام: عرض المناظرة بين الإمام الحسن بن
علي عليه السلام وبين جماعة من قريش في مجلس معاوية.



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

● ضلال أبي العيص بن أمية وأبنائه بالرغم من إظهار إسلامهم وبعد هذا العرض المفصل عن تطرفات عثمان من حيث جهاته الثلاث أو الأكثر الناشئة عن سنن الشرع والعرف، وهي: تسليطه بني أمية وأحلافهم على مناصب الدولة، وإيثارهم المفرط بأموال المسلمين، وإثراؤه بالذات على حساب المسلمين، وتنكيله بالكرام البررة: من الصحابة والتابعين، خصوصاً: الموالين منهم لعلي أمير المؤمنين عليه السلام، عند ذلك نكون قد أشبعنا الحديث عن العنصر الثاني من عناصر بني أمية، لنوجز الحديث بعد هذا عن العنصر الثالث من تلك العناصر الأموية الخبيثة، ألا وهو: أبو العيص بن أمية بن عبد شمس^(١)

فمن أبناء أبي العيص: أسيد بالفتح على فعيل، ومن أبناء أسيد: عتاب بالتشديد، وخالد، وقد أسلما يوم الفتح كما عليه ابن قتيبة في المعارف: ص ٢٨٣، ط دار الكتب. أما عتاب، فمن أبنائه: عبد الرحمان، الذي قُتل في البصرة يوم الجمل مع عائشة ومع الناكثين المحاربين لأمير المؤمنين عليه السلام، ومن أحفاده: عتاب بن عتاب بن سعيد، المعروف بـ «خيلان» المعني الخليل، والماجن البصري، حتى مات.

وأما خالد بن أسيد، فبعده النسابة البغدادي في (المحبر) من المؤلفات قلوبهم من قريش على شاكلة قرينه المنافق أبي سفيان، وابنه معاوية، ونظراتهم من الزائفين عن سنن الرشاد، بالرغم من إظهارهم كلمة الإسلام^(٢).

(١) ويطلق عليه وعلى إخوته الثلاثة: العاصي وأبي العاصي، والعيص وعلى أبنائهم أيضاً: الأعماص، انتزاعاً من أسمائهم كما ذكر ذلك عامة المؤرخين والنسابة.

(٢) اقتضاب من جمهرة الأسماء لابن حزم، والمحبر للنسابة البغدادي، والإصابة لابن حجر، والمعارف لابن قتيبة، وهامة كتب السير والأسماء.

وبعد ذلك، فقد جاء الدور للقلم أن يبرز لنا بإيجاز بعض صفات وهنات العنصر الرابع من عناصر أمية، وهو: عمرو بن أمية، المعروف بذكوان، وبعض أبنائه، وأحفاده، ونسبه إلى أمية، كما ننسب أمية إلى عبد شمس بالرغم من تشكيكنا في صحة بنوة الاثنين لأبيهما كما أشرنا إلى ذلك من قبل^(١) وسواء صححنا بنوه عمرو وأمياً أم شككنا فيها، فأبو عمرو من حيث هو ليس شيئاً يذكر في التاريخ، سوى ما ورثه من السقوط الخلقي والاجتماعي من أبيه المزعوم أمية.

وليس أدلّ على ما نقول من قصة بنائه بزوجة أبيه في حياته، حتى تكون من ذلك السفاح حتى في العرف الجاهلي ولذّه: أبان، المعروف بأبي معيط^(٢). وأبو معيط هذا أيضاً ليس شيئاً يذكر، وإنما الذي سود وجهه التاريخ بكفره ونفاقه هو ابنه:

● عقبة بن أبي معيط^(٣) (أبان) المكّي بأبي الوليد

فقد ذكروا في عداوته للنبي ﷺ وللمسلمين خصوصاً: بني هاشم: إنه كان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ وإيذاء له، فقد كان جار أبي لهب ونديمه، وكلاهما من جوار النبي ﷺ، وكانا يتفقان ويتباريان في كيفية إيذاء النبي ﷺ بشتى صنوف الأذى، حتى كانا يطرحان الأرواث والفرث على باب بيته، وفي طريقه كما تروي ذلك عائشة

(١) راجع: ما ذكرناه في أوائل الفصل الثاني من هذا الجزء عند الحديث عن أمية، ويقول ابن أبي الحديد في شرحه: ج ٢ ص ١١٦، ط جديد أثناء حديثه عن الوليد وأخيه عمار: «إن الوليد هو ابن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو واسمه ذكوان بن أمية بن عبد شمس، وقد ذكر جماعة من المسلمين: أن ذكوان كان مولى لأمية بن عبد شمس، فخبناه وكناه: أباه عمرو، فبنوه موالى، وليسوا من بني أمية لصلبه». وفي مطالب السؤل لابن طلحة الشافعي: ج ١ ص ٥٨، ط النجف إشارة إلى ذلك، وفي (معارف ابن قتيبة: ص ٣١٩) بعنوان الوليد: «وقال ابن الكلبي: كان أمية بن عبد شمس قد خرج إلى الشام، فأقام بها عشر سنين، فوقع على أمة لـ (الغم) يهودية من أهل صفورية يقال لها (فرنا) وكان لها زوج من أهل صفورية يهودي، فولدت له «ذكوان» فادعاه (أمية) واستلحقه وكناه «أباه عمرو»، ثم قدم به (مكة) فلذلك قال النبي ﷺ لعقبة يوم أمر بمقتله، إنما أنت يهودي من أهل صفورية ..».

(٢) راجع ما ذكرناه قبل هذا في أوائل الفصل الثاني من هذا الجزء عند الحديث عن أمية الأكبر، وترديه الخلقي.

(٣) حقة بالضم فالسكون، ومعيط بالضم فالكسر وأبان بالضم.

عن النبي ﷺ.

وكان عقبة، وأبو لهب، وأبو جهل، والحكم بن أبي العاص جيران النبي ﷺ وكانوا من أشد خصوم النبي، وأصحابه^(١).

ويُدرجه النسابة البغدادي في عداد المؤذنين للنبي ﷺ من قريش ومن زنادقتهم^(٢). ويعد المقرئ: جماعة من قريش ممن كانوا يؤذون النبي ﷺ ويعادونه، ثم يقول: «إن عقبة بن أبي معيط كان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ وأذى إليه»^(٣). ويقول ابن أبي الحديد: «إن عقبة بن أبي معيط هو العدو الأزرق بمكة، والذي كان يؤذي رسول الله ﷺ في نفسه وأهله»^(٤).

ويستعرض التويري في (نهايته): أسماء جماعة من قريش كانوا من أشد الناس عداوة ومبادئة لرسول الله ﷺ، وأصحابه، ثم يقول: «والذين كانت تنتهي عداوة رسول الله ﷺ إليهم: أبو جهل، وأبو لهب، وعقبة بن أبي معيط»^(٥).

وكذلك يعد ابن الأثير في (كامله) بعنوان المستهزئين بالنبي ﷺ ومن أشد الناس عداوة له: جماعة من قريش كأبي جهل، وأبي لهب، والوليد بن المغيرة وغيرهم ثم يخص بالذكر من بينهم: عقبة بن أبي معيط، ويقول: «كان من أشد الناس أذى لرسول الله ﷺ وعداوة له، وللمسلمين، فقد عمد يوماً إلى مكل فجعل فيه عذرة، وجعله على باب رسول الله ﷺ، فبصر به طليب بن عُمير بن وهب بن عبد مناف بن قصي وأمه أروى بنت عبد المطلب فأخذ المكل بن عقبة، وضرب به رأسه، وأخذ بأذنيه، فشكاه عقبة إلى أمه، فقال: قد صار ابنك ينصر محمداً، فقالت: ومن أولى به منا؟ أموالنا وأنفسنا دون محمد»^(٦).

ويعد ابن هشام في (سيرته): جماعة من قريش، كانوا يؤذون النبي ﷺ في بيته كأبي

(١) طبقات ابن سعد: ج ١ ص ١٨٥، ط مصر.

(٢) المحرر للنسابة البغدادي: ص ١٥٧ و ١٦١، ط بيروت ضمن عنواني: «المؤذون النبي من قريش» و«زنادقة قريش».

(٣) النزاع والتخاصم بين أمة وهاعم للمقرئ: ص ١٢، ط النجف.

(٤) شرح النهج للحديدي: ج ٤ ص ٨١ ط دار إحياء الكتب العربية.

(٥) نهاية الأرب للتويري: ج ١٦ ص ١٩٨، ط دار الكتب المصرية.

(٦) الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري: ج ٢ ص ٥٠، ط بيروت.

لهب، وأبي جهل، والحكم بن أبي العاص، وأبي بن خلف بن وهب الجمحي، وعقبة بن أبي معيط، ثم يروي لنا بعد ذلك: قصة أبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، فيقول: «إنهما كانا متصافيين، حسناً ما بينهما، فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه، فبلغ ذلك أبا، فأتى عقبة، فقال له: ألم يبلغني أنك جالست محمداً وسمعت منه؟ وجهي من وجهك حرام أن أكلك واستغفل من اليمين إن أنت جلست إليه أو سمعت منه، أو لم تأت، فنتفل في وجهه؟

ففعل ذلك عدو الله عقبة بن أبي معيط، فأنزل الله تعالى فيهما قوله: «ويوم يعص الظالم على يديه يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً، يا ويلنا، ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً. لقد أضلني عن الذكر، بعد إذ جاءني، وكان الشيطان للإنسان خذولاً»^(١).

وقد أخرج عامة المفسرين: أن المراد بالظالم الذي يعص علي يديه: هو عقبة بن أبي معيط، والمراد بفلان الخليل: هو أبي بن خلف، قال المؤرخون: ولم يزل «عقبة» يواصل عداؤه وإيذاءه للنبي ﷺ وللمسلمين، حتى إذا كانت وقعة «بدر الكبرى»، أول وقعة دارت بين المسلمين والمشركين في السنة الثانية للهجرة، خرج عدو الله وعدو رسوله في طليعة الخارجين من كفار قريش، لحرب النبي ﷺ وإسلامه، ودارت الحرب بين الفريقين، فقتل من قتل من المشركين، وأسر من أسر منهم^(٢)، ثم وضعت الحرب أوزارها بعد نصر الإسلام والمسلمين على الكفر والكافرين، وإذا بعقبة هذا يقع أسيراً بأيدي المسلمين.

ويتوقف النبي ﷺ بركا به الظافر خارج حدود «بدر» في مكان، يسمى: «عرق الضبية» فيؤتى بعقبة إليه، أسيراً مغلاً، حتى أوقفوه بين يديه مع جماعة الأسرى فينظر إليه النبي ﷺ نظر تأمل ورجعة إلى ما قبل هذا التأريخ بقليل، حيث تذكر ما كان يتجرعه من هذا العدو اللدود من صنوف الأذى، والإمتهان، فيأمر بضرب عنقه بالخصوص ولم يقبل

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ قسم ص ٣٦١، ط ثانية بمصر والآبجان: (٢٨ - ٢٩) من سورة الفرقان.

(٢) يقول الطبري في (تاريخه، ضمن حديثه عن واقعة بدر): إن عدد القتلى كان «٤٤» وعدد الأسرى مثله، وقيل: أكثر من ذلك من الطرفين، ففي سيرة ابن هشام ج ١ قسم ٢ ص ٧١٤، ط مصر «إن قتلى بدر من المشركين كانوا سبعين رجلاً، والأسرى كذلك».

منه أي فداء.

فأخذ عدو الله يكي ويتضرع أمام النبي ﷺ ويلتفت إليه تارة وإلى المسلمين أخرى ويقول: يا ويلتي؟ علام أقتل من بين هؤلاء الأسرى؟ أما لي أسوة بهم؟ فيجيبه النبي ﷺ وهو يذكره بجرائمه التي صنمها به وبالمسلمين قاتلاً: نعم، تقتل لعداوتك لله ولرسوله، ولما بزقت في وجهي^(١). فقال: يا محمد من للصيبة؟ قال: النار^(٢).

وقيل: إن رسول الله ﷺ قال له والله: لأقتلنك، فقيل: أقتله من بين قريش؟ قال: نعم، إنه وطأ على عنقي وأنا ساجد فما رفعت رأسي حتى ظننت أن عيني قد سقطتا، وجاء يوماً وأنا ساجد بسلى شاة، فألقاه على رأسي، فأنا قاتله^(٣). ثم أنه ﷺ أمر، فضربت عنقه^(٤).

الوليد بن عقبة ورث أبيه في موافقته للنبي ﷺ وللإسلام

● الوليد بن عقبة

وقد ورث «عقبة» هذا في عامة ذاته وذاتياته، الزائفة عن سنن الرشاد: ابنه الوليد الشقي، والمنافق الساخر، والماجن الداعر، أخو «عثمان» لأمه، من أمهما: أروى بنت كرز بن ربيعة بن عبد شمس.

(١) إشارة إلى القصة التي ذكرها ابن هشام في سيرته آنفاً.

(٢) تاريخ الطبري، وكامل ابن الأثير، وديلة ابن كثير، وعامة كتب السير ضمن الحديث عن واقعة بدر وشرح النهج للحديدي: ج ٢ ص ٨١، ومعتبر النسابة: ص ١٥٨، والإصابة لابن حجر بترجمة الوليد ابنه.

(٣) رسالة النزاع والتخاصم للمقريزي: ص ١٤، ط الجف.

(٤) في تاريخ الطبري، وابن الأثير، وابن كثير وعامة المؤرخين ضمن الحديث عن الواقعة: أن الذي ضرب عنقه: عاصم بن ثابت بن أبي الأتخيل الأنصاري، وكذلك سيرة ابن هشام، وفي جمهرة ابن حزم ص ٣٣٣: هو عامر بن ثابت أخو حمي الدهر، وفي بعض المصادر: أنه علي بن أبي طالب عليه السلام. وهنا يقول المقريزي في المصدر الآنف: «إن النبي ﷺ أمر به بعد ذلك فسلب، فكان أول مصلوب في الإسلام»، وفي شرح النهج للحديدي ج ١٤ ص ١٨٠، ط جديد «... فقدمه عاصم فحضر عنقه، فقال النبي ﷺ: ينس الرجل كنت والله ما علمت كافراً بالله ورسوله ويكتابه مؤذياً لنبيه، فأحمد الله الذي قتلك، وأقر هيني منك».

لقد أظهر الإسلام بلسانه يوم الفتح وكان شايأً، فبعته رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق من «خزاعة» وكانوا قد أسلموا وبنا المساجد ليطالبهم بتأدية الصدقات. فلما سمعوا بقدمه عليهم خرجوا خارج بلدهم راكبين يتلقونه بالجزور والغنم، فرحاً بمقدمه، ومنذ أن بصر بهم من بعيد على تلك الهيئة من السلاح والعدة، هابهم، وجبن عن الإقدام عليهم، فلم يقربهم، ليطلع على حقيقتهم بل ولى راجعاً إلى النبي ﷺ فكذب عليه، وغشه، وأخبره أن القوم ارتدوا عن إسلامهم، وتلقوه بالسلاح، وهموا بقتله، وحالوا بينه وبين دفع الصدقات.

فغضب النبي ﷺ وكاد أن يبعث إليهم من يغزوهم، وسرعان ما قدم القوم على النبي ﷺ لما بلغهم غضبه عليهم، وكذب الوليد عليه، فأخبروه بجلية الواقع، وقالوا له: يا رسول الله، سمعنا برسولك إلينا، فخرجنا لنكرمه، ونؤدي إليه صدقاتنا، فانشمر راجعاً إليك، وبلغنا أنه زعم لك أننا خرجنا إليه لنقتله، والله ما جئنا لذلك.

فصدقه النبي ﷺ وأتب الوليد على كذبه واقراره، فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (١).

فقرأ رسول الله ﷺ القرآن على الناس، وبعث مع القوم عباد بن بشر، لأخذ صدقات أموالهم، وتعليمهم شرائع الإسلام، وإقراءهم القرآن ففعل «بشر» ما أمره به رسول الله ﷺ وأقام عندهم عشرة أيام ثم انصرف إلى المدينة (٢).

ولقد خالف النبي ﷺ وعصاه في قصة إجارة النبي ﷺ امرأته. وموجز القصة: إن امرأة الوليد جاءت إلى النبي ﷺ تشكو زوجها بأنه يضربها ضرباً مبرحاً، فقال لها النبي ﷺ: ارجعي إليه، وقولي له: إن رسول الله ﷺ قد أجازني،

(١) سيرة ابن هشام: قسم ص ٢٩٧، ط ثانية بمصر، ويذكر ابن أبي الحديد في (شرح: ج ١٧ ص ٢٣٨) ط جديد: قصة كذبه

على النبي ﷺ ويقول: إن النبي ﷺ بعث عند ذلك خالد بن الوليد لاستكشاف جليلة الواقع، فمضى خالد إلى القوم ورجع إلى النبي ﷺ فأخبره بأنهم لا يزالون متمسكين بإسلامهم ودينهم، فنزلت عندئذ آية النبا المذكورة.

(٢) نهاية الأرب للنوري: ج ١٧ ص ٣٥٠، ط دار الكتب المصرية.

فانطلقت المرأة، فمكثت ساعة، ثم عادت إلى النبي ﷺ وقالت له: إنه ما أقلع عني في ضربه، فقطع النبي ﷺ هُدبة من ثوبه، وقال: اذهبي إليه؟ وقولي له: إن رسول الله ﷺ قد أجارني، فانطلقت المرأة، فمكثت ساعة، ثم رجعت، فقالت: يا رسول الله، ما زادني إلا ضرباً؟ فعند ذلك غضب رسول الله ﷺ ورفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم عليك بالوليد؟ كررها مرتين أو ثلاثاً»

وقد أستعمله عمر بن الخطاب على عرب «الجزيرة» وأقره عثمان في أيامه عليها مدة من الزمن، ثم ولّاه الكوفة بعد عزله سعد بن أبي وقاص^(١) عنها في السنة الثانية من

شرح النهج للحديدي: ج ١٧ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ط جديد.

(١) أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص (مالك) بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري، وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس، ولد قبل الهجرة بـ «٢٣ سنة». وأسلم وعمره يناهز العشرين عاماً، فكان من طلابه المسلمين، ومن عبود الصحابة، وهاجر إلى المدينة، وحضر «بدره» وبعض غزوات النبي ﷺ وحروبه، وكان أحد فرسان العرب والمسلمين من قريش وأحد الأئمة الفاتحين في الإسلام. وأحد أصحاب الثغور الستة الذين أهلهم عمر للخلافة بعده، وهو الذي فتح القادسية، والمدائن وعامة أرض العراق، وتولى بأمر عمر قتال الفرس، ومصر الكوفة بعد ذلك وخططها خططاً لقتال العرب، وخطط مسجدها، وبني الدور حوله.

وولّاه عمر عندئذ على الكوفة، ثم عزله عنها، وولى مكانه: عمار بن ياسر، ثم سرعان ما عزل عماراً، وأعاد سعداً إليها، ثم عزله، وولى مكانه: المغيرة بن شعبة.

وبعد مقتل عمر، واستخلاف عثمان، أمره على الكوفة مدة، ثم عزله عنها، واستخلف مكانه: الوليد بن عتبة كما ذكرنا فماد سعد إلى المدينة، فأقام فيها مدة ثم كف بصره، وظل يحدث الناس بفضائل علي بن أبي طالب عليه السلام وناقشه حتى إذا قتل عثمان، احتزل الناس وجلس في بيته، ولم يبايع أمير المؤمنين عليه السلام قطع فيه معاوية، فكتب إليه، يستنصه لأخذ ثار عثمان فأجابته سعد بقوله:

معاوي داؤك الداء العيأ	وليس لِمَا تجي به دواء
أيدعوني أبو حسن علي	فلم أردد عليه ما يشاء
واقلت له: اعطني سيفاً بصيراً	تميز به العداوة والولاء
فإن الشر أصفره كثير	وإن الفلهر ثقله الدماء
أقطع في الذي أعطى علياً	على ما قد طمعت به العفاء
ليوم منه خير منك حياً	ومسيقاً أنت للمرء الفداء

خلافته، أي في سنة ٢٥ هـ

الوليد يتولى على الكوفة بأمر عثمان على أثر عزل سعد بن أبي وقاص عنها وذلك لخلاف وقع بين سعد وابن سعود خازن بيت المال يومئذ فبلغ ذلك عثمان فعزل سعداً عن ولايته وأقر ابن مسعود على بيت المال.

وقد قدم الوليد إلى الكوفة والياً من قبل عثمان، ولما رآه سعد وعلم بولايته قال له بتأثر: أكست بعدنا أم حمقنا بعدك؟^(١) فأجابه الوليد على الفور وقال: لا تجزعن يا أبا إسحاق كل ذلك لم يكن وإنما هو الملك، يتغذاه قوم، ويتعشاه آخرون.

الوليد يقن الخمر في المحراب ويصلي الصبح أربع ركعات فقال له سعد: أراكم والله جعلتموها ملكاً يشير إلى بني أمية، والخلافة^(٢).

وبقي الوليد في الكوفة زهاء خمس سنين، فأساء السلوك مع الرعية، وعاث في البلاد، وأكثر فيها الفساد، وسار في ولايته سيرة مجنون وخلاعة، وشراب ودعارة، فكان يشرب مع ندمانه ومغنييه من أول الليل إلى الصباح، حتى إذا أذن المؤذنون للصلاة، خرج متفضلاً في غلاته، وتقدم إلى المحراب في صلاة الصبح وهو مخمور لا يدري ما يقول فصلى بالناس أربعاً، والتفت إلى ورائه، وقال: أتريدون أن أزيدكم؟ فقال له بعض من كان في الصف الأول^(٣): ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم فما تزيد؟ لا زادك

→ قاما امر عثمان فدعه فإن انراي أذهب به البلاد

وظل هكذا، إلى أن مات في قصره بالمعيق على عشرة أميال من المدينة وحمل إليها على رقاب الرجال ودفن بالبيع وذلك سنة ٥٥ أو ٥٦ أو ٥٨ على الخلاف، عن بضع وسبعين عاماً من العمر، ذكرت ترجمته في عامة كتب السير والمعاجم والفتوحات، كالرباض النضرة، وتاريخ الخفس، والبدع والتأريخ، وصفة الصفوة، وحلقة الأولياء، وتهذيب ابن عساكر. ونكت الهميان، والكنى والأسماء، وأعلام الزركلي، وطبقات ابن سعد، وإصابة ابن حجر، والاستيعاب.

(١) كلتا الجملتين بصيغة الماضي: الأولى من الكيس بالفتح فالسكون وهو العقل والفطنة وضبط النفس، خلاف الحمق بالضم فالسكون.

(٢) شرح التهجج للحديدي: ج ١٧ ص ٢٢٩، ط جديد.

(٣) خلاف بين أهل السير والمعاجم في تعيين القاتل، فعمانهم كابن الأثير في كامله، والحلي في سيرته، وابن عبد البر في استيعابه، وابن أبي الحديد في شرحه يرون أنه عبد الله بن مسعود، والمسعودي في مروجيه، وبعض آخرون يرون: أنه صتاب بن غيلان أو هلال أحد بني عوالة بن سعد.

الله من الخير، والله لا أعجب إلا ممن بعثك إلينا والياً، وعلينا أميراً^(١).

وقيل: أطلال في سجوده، وهو يقول: إشرِب، واسقني؟

وقرأ بهم في الصلاة وهو رافع صوته:

بعد ما شابت وشابا^(٢)

علق القلب الزبابا

وفي ذلك يقول الحطيئة الشاعر^(٣):

أن الوليد أحق بالغدر

شهد الحطيئة يوم يلقي ربه

الزيدكم - ثملأ - ولا يدري

نادى وقد تمت صلاتهم

لقرنت بسين الشفع والوتر

فأبوا - أبا وهب - ولو قبلوا

تركوا عنانك لم تزل تجري^(٤)

حبسوا عنانك إذ جريت ولو

(١) مروج الذهب للمسعودي: ج ٢ ص ٣٤٤، ط السعادة بمصر.

(٢) الأغاني لأبي الفرج: ج ٤ ص ١٧٨، ط الساسي، وشرح الحديدي: ج ١٧ ص ٢٣٠، ط جديد.

(٣) هو جرول بكسر فسكون ففتح بن أوس بن مالك البسي، أبو ملكية المعروف بالحطيئة بالتصغير.

كان من الشراء المخضمين، الذين أدركوا البهالية والإسلام، وكان كثير الشعر وله ديوان مطبوع، وأكثر شعره الهجاء، فكان هجاء عنيفاً بحيث لم يكذب يسلم من لسانه أحد، حتى أنه هجا أباه وأمه ونفسه أيضاً.

وهجا الزبرقان بن بدر القمي السعدي المتوفي سنة ٤٥ هـ وكان من رؤساء قومه بقوله:

وأقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

دع المكارم لا تنهض لبغيتها

فاستعدى الزبرقان عليه: عمر بن الخطاب أيام خلافته فجنته عمر، فكتب إليه الحطيئة من السجن قوله:

زغب الحواصل، لا ماء ولا شجر

ماذا تقول بأفراخ بذي مرج

فأرحم هذاك ملكة الناس يا عمر

غادرت كاسيهم في قعر مظلمة

بين الأباطح يخشاهم بها الغر

وأمن على صبيبة بالرمل مستخفم

من عرض راوية يسعى بها الضبر

نفسى فداؤك كم بيني وبينهم

فبكى عمر لما سمع شعره، وتنفع فيه أيضاً عمرو بن العاص فأطلقه من السجن بعد أن أخذ عليه اليهود على أن لا يعود إلى هجاء الناس، فقال إذا تموت صالي جوعاً، عاش إلى أيام معاوية، ومات بعد سنة ٤٥ هـ بنيف من السنين أو الأكثر.

بانتضاب من فوات الوفيات، والأغاني لأبي الفرج، وشرح الشواهد، والشعر والشراء لابن تقي، وخزانة البغدادي، وأعلام الزركلي، وكشف الظنون لحاجي خليفة، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة.

(٤) كامل ابن الأثير: ج ٣ ص ٥٣، ط بيروت ضمن حوادث سنة ٣٠ هـ وفي مطالب السؤل لابن طلحة: ج ١ ص ٥٨، ط

النجف: هجر البيت الأول هكذا: «إن الوليد معاقب الخمر».

وقال في ذلك أيضاً:

تكلّم في الصلاة وزاد فيها	علانية وجاهر بالنفاق
ومخّ الخمر عن سنن المصلي	ونسأى والجميع إلى السراق
أزيدكم عسى أن تحمدوني	فمالك ومالي من خلقي ^(١)

وأشاع الناس نبأه في الكوفة، فهجم عليه جماعة من المسجد، منهم: أبو زينب بن عوف الأزدي، وأبو مورع جندب بن زهير الأزدي، وغيرهما من أهل الكوفة، فوجدوه سكران، مضطجماً على سريره، لا يعقل، فأيقظوه من رقدته، فلم يستيقظ ثم أخذ يتقيأ عليهم ما شرب من الخمر، فانتزعوا خاتمه من يده وهو لا يدري فخرجوا من فورهم إلى المدينة، فأتوا عثمان ليلاً، فشهدوا عنده على الوليد: أنه شرب الخمر، وتقيأها، فنهروهم عثمان في البداية وقال لهم: وما يدريكم أنه شرب الخمر؟

فقالوا له: هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية، ثم أخرجوا له خاتم الوليد، ودفعوه إليه، فزجرهم عثمان ودفع في صدر الشاهدين الأزديين، وقال لهما: تنحيا عني؟ أكلما غضب رجل منكم على أمير رماه بالباطل، لئن أصبحت لكم لأتكلن بكم^(٢).

فخرج القوم من عثمان وأتوا: علي بن أبي طالب عليه السلام، وأخبروه بالقصة، فقام معهم وجاء إلى عثمان، فقال له بغضب: دفعت الشهود، وأبطلت الحدود؟

فقال له عثمان: فما ترى؟ قال عليه السلام: أرى أن تبعث إلى صاحبك، فتحضره، فإن أقام الشاهدان عليه الشهادة في وجهه ولم يدرأ عن نفسه بحجة، أقمت عليه الحد.

فكتب عثمان بدوره إلى الوليد أن يأتيه، فلما حضر عنده الوليد، دعا عثمان بالشاهدين مع جماعتهما: من أهل الكوفة فأقاما الشهادة عليه، فقال أحدهما: رأيته يشربها، وقال الآخر: رأيته يتقيأها، فقال عثمان: لم يتقيأها حتى شربها، ولم يدرأ الوليد

(١) المصدران الآفان: من الأغاني، وشرح النهج. وذكر ابن عبد البر في الإستيعاب: القطعتين من الأبيات ضمن ترجمته من حرف الواو، ثم قال: «وخبر صلاته بهم وهو سكران وقوله: أزيدكم بعد أن صلى الصبح أربماً مشهور من رواية القفاة من نقل أهل الحديث، وأهل الأخبار».

(٢) الأغاني لأبي الفرج: ج ٤ ص ١٨٠ برواية المدائني، وشرح النهج للحدادي: ج ١٧ ص ٢٣٢.

عن نفسه بحجة، وشهد آخرون عليه بنحو تلك الشهادة.

فعند ذلك، ألقى عثمان السوط إلى علي عليه السلام وقال له: يا أبا الحسن، أقم عليه الحد؟ فقال علي عليه السلام لابنه الحسن: قم يا بني فأقم عليه ما أوجب الله عليه؟ فقال الحسن: يكفني به بعض من ترى؟^(١) فأخذ علي عليه السلام السوط ودنا من الوليد. فلما أقبل نحوه سبه الوليد وقال له: يا صاحب مكس؟ فقال عقيل بن أبي طالب وكان ممن حضر: إنك لتتكلم يا ابن أبي معيط كأنك لا تدري من أنت؟ وأنت عالج من أهل صفورية^(٢).

فأقبل الوليد يروغ بين يدي علي عليه السلام فاجتذبه علي، فضرب به الأرض، وعلاه بالسوط، حتى أقام عليه الحد.

فقال عثمان لعلي: ليس لك أن تفعل به هذا؟

فقال علي: بل وشرأ من هذا، إذ فسق، ومنع حق الله تعالى أن يؤخذ منه.

قال المسعودي: وولي الكوفة بعده سعيد بن العاص، فلما دخل سعيد الكوفة والياً أبى أن يصعد المنبر، حتى يتغسل وأمر بغسله، وقال: إن الوليد كان نجساً رجساً^(٣).

قالوا: ثم إن الوليد بعد عزله عن الكوفة سكن المدينة مدة ثم نزل الكوفة، وبنى بها داراً، فلما قتل عثمان، نزل البصرة، ثم خرج إلى الرقة^(٤) فنزلها واعتزل عليها ومعاوية.

الوليد يحرض معاوية على أخذ الثأر من علي عليه السلام وأصحابه بدم عثمان ولكنه بالرغم من اعتزاله كان يحرض معاوية على قتال علي عليه السلام في صفين ويغريه به، فمن ذلك قوله يخاطب معاوية:

لنهار، ولم يثأر بعثمان شائر

فوالله ما همد بأمك أن مضى

ولم تفتكوه ليت أمك عاشر

أبقتل عبد القوم سيد أهله

(١) وهنا يقول ابن أبي الحديد في المصدر الآنف: فقال علي لعبد الله بن جعفر: قم، فاضربه، فضربه عبد الله الحد.

(٢) من معاني العالج بالكسر: الرجل الضخم من كفار المعجم، وصفورية بالتشديد: قرية بين عكا واللجون من أعمال الأردن من بلاد طبرية كان ذكر أن أباه كان يهودياً منها. (٣) مروج الذهب للمسعودي: ج ٢ ص ٣٤٥، ط السعادة بمصر.

(٤) الرقة بالفتح فالتشديد: مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام معدودة في بلاد الجزيرة، لأنها من جانب الفرات الشرقي معجم البلدان للحموي.

وإنما متى نفلتهم لا يقد بهم مقيباً وقد دارت عليه الدوائر^(١)
ومن ذلك: ما بعث به إلى معاوية لما بلغه أن معاوية كاتب علياً بواسطة رسوله: جرير
بن عبد الله البجلي في أن يخلي له جباية الشام ومصر، فيسلم له الأمر فقال الوليد، يؤنب
معاوية على كتابه لعلي عليه السلام ويحرضه على قتاله:

معاوي، إن للشام شامك فاعتصم	بشامك لا تُدخل عليك الأهاعيا
وحام عليها بالصوارم والقنا	ولا تله موهون الذراهمين وانيا
وإن علياً ناظر ما تجيبه	فأهد له حرباً تشيب النواصيا
وإلا فسلم إن في السلم راحة	لن لا يريد الحرب، فاختر معاويا
وإن كتاباً - يا بن حرب - كتبته	على طمع يزجي إليك الدواهي

إلى آخر أبياته ..

وكتب الوليد أيضاً إلى معاوية يوقظه ويشير عليه بالحرب ويقطع مكاتبتة علياً
بواسطة جرير فيقول من قصيدة

معاوي، إن الملك قد جب غاربه	وانت - بما في تلك اليوم - صاحبه
اتاك كتاب من علي بخطه	هي الفصل فاختر سلمه، أو تحاربه
فلا تسرّج عند الواترين مودة	ولا تأمن - اليوم - الذي أنت راهبه
وحاربه إن حاربت حرب ابن حرة	وإلا فسلم لا تسب عقاربه
فإن علياً غير صاحب ذيله	على كدعة ما سوغ العاء شاربه ^(٢)

ومن ذلك: ما كتبه إلى معاوية، يستبطنه في الطلب بدم عثمان، ويحرضه على حرب
علي عليه السلام وينهاه عن قتل الوقت بالمكاتبات الفارغة، فيقول:

إلا أبلغ معاوية بن حرب فإنيك من أخي ثقة سليم^(٣)

(١) الاستعجاب لابن عبد البر ضمن ترجمته من حرف الواو.

(٢) شرح النهج للحديدي ج ٣ ص ٨٤ - ٨٥ ط جديد.

(٣) المليم بالضم: اسم فاهل من قولهم: ألام الرجل: إذا أتى من الأمر ما يلام عليه.

قطعت الدهر كالسندم المعنى	تهذر في دمشق فما تريم ^(١)
وايك والكتاب إلى علي	كدافعة، وقد حلم الأديم ^(٢)
يمنىك الإمارة كل ركب	لأنقاض العراق بها رسيم ^(٣)
وليس أخو القراش بمن توائى	ولكن طائب الثورة الغشوم ^(٤)
ولو كنت القليل وكان حياً	لجرد، لا ألف ولا سؤوم ^(٥)
ولا نكل عن الأوتار حتى	يسبي بها، ولا برم جثوم ^(٦)
وقومه بالمدينة قد أبيعروا	فهم صرعى كأنهم الهشيم ^(٧)

ختم الحديث عن موبات الوليد في الاسلام والمعداء لعلي عليه السلام وبالجملة، فقد كان الوليد من ألد أعداء أمير المؤمنين عليه السلام كما كان أبوه «عقبة» هو الآخر من ألد أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان الوليد يفيض علماً، ويشتمه على ملا من الناس.

وقد لاحاه، ونابه في الكلام، في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودارت بينهما مشادة كلامية عنيفة.

فقال الوليد لعلي بعد ذلك: اسكت؟ فإنك صبي، وأنا شيخ، والله إنني أبسط منك لساناً،

(١) السدم يفتح فكسر: صفة للفعل غير الكريم الأصل، الذي يكره أهله أن يضرب في أهلهم، فيقتد إذا حاج، ولا يرعى مع الأهل، فهو يصول، ويهدد، فيجعل له حجام في فمه.

(٢) العلم بالتحريك أن يفسد الجلد في العمل، فتحدث فيه حلمة، وهي دودة تأكله، فإذا دبغ بقي رقيقاً غير صالح للعمل، ومعنى البيت: يا معاوية أنت تسعى في إصلاح أمر قد تم فساد، كهذه المرأة التي تدبغ الأديم الذي وقعت فيه الحلمة، فأفسدت، فلا يفيد الدبغ.

(٣) رسم: فعل، من: رسم الهمير: إذا أثر وضع خفة في الأرض عند السير.

(٤) الترة بالكسر: الوتر، وأخذ النار، والغشوم كالفاسم هو الظالم.

(٥) ألف: أفضل تفضيل أو صفة من اللث والدوران، والسؤوم: ذو الملل المتواصل.

(٦) نكل على فعل هو التاكل عن الشيء، والأوتار: جمع وتر، وهو التأر، والبرم يفتح فكسر: صفة من البرم بالتحريك وهو السأم، والجثوم بالفتح المتعدد بالأرض.

(٧) أبيعروا: مني للمفعول من: أباه إذا أهلكه، والهشيم: التفت الهاس المتكسر.

راجع في ذلك: تاريخ الطبري: ج ٤ ص ٥٦٤، ط دار المعارف بمصر ضمن حوادث سنة ٣٦ هـ

وأخذ منك سنناً، وأشجع منك جناناً، وأملأ منك حشواً في الكتبية.

فنفّر علي في وجهه قائلاً: اسكت؟ فإنك فاسق.

فأنزل الله تعالى فيهما تصديقاً لعلي عليه السلام قوله: ﴿أَلَمْ يَكُنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾، (السجدة / ١٨).

فسمي الوليد على أثر ذلك بين الناس بالفاسق في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكان لا يعرف إلا بالوليد الفاسق^(١).

قال ابن أبي الحديد بعد روايته لتلك الآية، وآية النبأ، وذكره سبب نزولها: «وكان الوليد مذموماً معيباً عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويشنؤه ويعرض عنه، وكان الوليد يبغض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً ويشنؤه، وأبوه «عقبة» هو العدو الأزرق بمكة، والذي يؤذي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نفسه وأهله إلى قوله: وورث ابنه الوليد: الشنآن والبغضة لمحمد وأهله، فلم يزل عليهما إلى أن مات».

المناظرة بين الحسن بن علي عليه السلام وبين جماعة من قريش بحضور معاوية

ثم قال بعد ذلك: «وروى الشيخ أبو القاسم البلخي أيضاً عن جرير بن عبد الحميد عن مغيرة الضبي، قال: مرّ ناس بالحسن بن علي عليه السلام وهم يريدون عيادة الوليد بن عقبة وهو في علة له شديدة فأتاه الحسن عليه السلام معهم عائداً، فقال الوليد للحسن: أتوب إلى الله تعالى مما كان بيني وبين جميع الناس إلا ما كان بيني وبين أبيك، فإني لا أتوب منه»^(٢).

ونختم الحديث بالمفاخرة الكلامية التي جرت بين الإمام الحسن بن علي عليه السلام وبين بعض رجالات قريش بحضور معاوية في الشام ذكرها ابن أبي الحديد في (شرح النهج) برواية الزبير بن بكار.

قال: «اجتمع عند معاوية: عمرو بن العاص، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، وعقبة بن أبي

(١) شرح النهج للحديدي: ج ٤ ص ٨٠، وج ١٧ ص ٢٣٨، ط جديد، وشواهد التنزيل للحسكاني: ج ١ ص ٤٤٥، ط مصر.

ومناقب المغازلي: ص ٣٢٤، ط مصر، وعامة المفسرين لهذه الآية، ومطالب السؤل لابن طلحة الشافعي: ج ١ ص ٥٨، ط

النجف.

(٢) شرح النهج للحديدي: ج ٤ ص ٨١ - ٨٢ ط دار إحياء الكتب العربية بمصر.

سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة، وقد كان بلغهم عن الحسن بن علي عليه السلام قوارص، وبلغه عنهم مثل ذلك.

فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن الحسن قد أحيا أباه، وذكره، وقال فضدق، وأمر فأطيع، وخلفت له النعال، وإن ذلك لرافعه إلى ما هو أعظم منه، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوءنا.

قال معاوية: فما تريدون؟ قالوا: ابعث عليه، فليحضر لنسبته، ونسب أباه، ونعيره، ونوبخه، ونخبره أن أباه قتل عثماناً، ونقرره بذلك ولا يستطيع أن يغير علينا شيئاً من ذلك؟

قال معاوية: إني لا أرى ذلك، ولا أفعله.

قالوا: عزمنا عليك - يا أمير المؤمنين - لتفعلن.

فقال: ويحكم؟ لا تفعلوا: فوالله، ما رأيته قط جالساً عندي إلا خفت مقامه، وعيبي لي.

قالوا: ابعث إليه على كل حال؟ قال: إن بعثت إليه لأنصفه منكم؟

فقال عمرو بن العاص: أتخشى أن يأتي باطله على حقنا، أو يُربي قوله على قولنا؟

قال معاوية: أما أني، إن بعثت إليه لأمره أن يتكلم بلسانه كله. قالوا: مرةً بذلك؟

قال معاوية: أما إذ عصيتُموني، وبعثتُم إليه، وأبيتم إلا ذلك، فلا تمرضوا له في القول أي: لا

تجعلوا قولكم مريضاً أمامه. واعلموا أنه من أهل بيت لا يُعيبهم العائب، ولا يُلصق بهم العار، ولكن ائذفوه بحجره؟ تقولون له: إن أباك قتل عثماناً، وكره خلافة الخلفاء من قبله.

فبعث إليه معاوية، فجاءه رسوله. فقال: إن أمير المؤمنين يدعوك.

قال الحسن عليه السلام للرسول: من عنده؟ فسأهم له.

فقال الحسن: ما لهم؟ خرّ عليهم السقف من فوقهم، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، ثم

قال: يا جارية، ابغيني ثيابي؟ اللهم إني أعوذ بك من شرورهم، وأندأ بك في نحورهم، وأستمعين

بك عليهم، فاكفنيهم، كيف شئت؟ وأنتى شئت؟ بحول منك وقوة، يا أرحم الراحمين؟

ثم قام، وخرج، فلما دخل على معاوية، أعظمه معاوية، وأكرمه وأجلسه إلى جانبه، وقد ارتاد

القوم، وخطروا خطران الفحول^(١)، بغياً في أنفسهم، وعلواً.

(١) الارتداد: الذهاب والمجي في المكان، والخطران بالتمرير: للرجل: رفع يديه ووضعهما، واهتز في مشيه، وتبخر كما يخطر الفعل بذنه، يضرب به يمناً وشمالاً.

فالتفت معاوية إلى الحسن عليه السلام وقال: يا أبا محمد، إن هؤلاء بعثوا إليك، وعصوني.
 فقال الحسن عليه السلام: سبحان الله، الدار دارك والإذن فيها إليك، والله، إن كنت أجبتهم إلى ما
 أرادوا، وما في أنفسهم، إني لأستحي لك من العُش، وإن كانوا غلبوك على رأيك، إني لأستحي
 لك من الضعف، فأيهما تقرر؟ وأيهما تنكر؟ أما إني لو علمت بمكانهم، جئت معي بمثلهم من بني
 عبد المطلب، وما لي أن أكون مستوحشاً منك، ولا منهم، إن وليي الله وهو يتولى الصالحين.
 فقال معاوية: يا هذا، إني كرهت أن أدعوك، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراحتي له،
 وإن لك منهم النصف ومني، وإنما دهنوك لتفترق: أن عثمان قُتل مظلوماً، وأن أباك قتله،
 فاستمع منهم، ثم أجيبهم؟ ولا تمنعك وحدتك واجتماعهم: أن تتكلم بكل لسانك؟
 قال ابن أبي الحديد: فتكلم عمرو بن العاص، فحمد الله، وصلى على رسوله، ثم ذكر علياً،
 فلم يترك شيئاً يعيبه به إلا قاله، وقال: إنه شتم أبا بكر وكره خلافته وامتنع من بيعته ثم بايعه
 مكرهاً، وشرك في دم عمر، وقتل عثمان ظلماً، وادعى من الخلافة ما ليس له، إلى قوله فيما
 نحن بصدد:

ثم تكلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فقال: «يا بني هاشم، إنكم كنتم أحوال عثمان، فنعم
 الولد كان لكم، نعرف حقكم، وكنتم أصهاره، فنعم الصهر كان لكم، يكرمكم، فكنتم أول من
 حسده، فقتله أبوك، ظلماً، لا عذر له ولا حجة.

فكيف ترون الله طلب بدمه، وأنزلكم منزلتكم، والله، إن بني أمية خير لبني هاشم من بني
 هاشم لبني أمية، وإن معاوية خير لك من نفسك».

ثم تكلم عتبة بن أبي سفيان، فقال: «يا حسن، كان أبوك شر قريش لقريش، أسفكها
 لدمائها، وأقطعها لأرحامها، طويل السيف واللسان، يقتل الحي، ويعيب الميت، إلى قوله: وإنكم يا
 بني هاشم قتلتم عثمان، وإن في الحق إن نقتلك وأخاك به، فأما أبوك فقد كفانا الله أمره وأقاد
 منه، وأما أنت، فوالله، ما علينا لو قتلناك بعثمان إنم ولا عدوان»^(١).

(١) أُرِيت: كيف طُفعت شحنة العداوة الأموي الموروثة لبني هاشم على لسان هذا الأموي العاقد المناق. وليس ذلك
 بغريب على ابن «صخر» وأخي معاوية، الكافرين في الباطن وإن أظهر أكلمتي الإسلام: طمعاً وخوفاً، وسنعت هذا الرجل
 ضمن الحديث عن أولاد أبي سفيان من المناقطين.

استمرار في مناظرة الامام الحسن عليه السلام مع أعداء الاسلام في محضر معاوية
ثم تكلم المغيرة بن شعبة، فشتم علياً، وقال: «والله، ما أعيبه في قضية يخون، ولا في
حكم يميل، ولكنه قتل عثمان».

قال: ثم سكتوا. فتكلم الحسن بن علي عليه السلام، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على
النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: «أما بعد، يا معاوية، فما هؤلاء شتموني ولكنتك شتمتني، فحشاً ألفه وسوء
رأى عرفت به وخلقاً سيئاً ثبت عليه، وبغياً علينا؛ عداوة منك لمحمد وأهله.

ولكن اسمع يا معاوية - واسمعوا، فلأقولن فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم: أنشدكم الله أيها
الرهط أنعلمون أن الذي شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين كلتيهما^(١) وأنت يا معاوية - بهما كافر
تراها ضلالة، وتعد اللات والعزى غواية^(٢).

وأنشدكم الله؟ هل تعلمون: أنه بايع البيعتين كلتيهما: بيعة الفتح، وبيعة الرضوان^(٣)، وأنت يا
معاوية بإحداهما كافر، وبالأخرى ناكث.

وأنشدكم الله؟ هل تعلمون: أنه أول الناس إيماناً؟ وأنت يا معاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم،
تسزون الكفر، وتظهرون الإسلام، وتُستمالون بالأموال.

وأنشدكم الله، ألسنتم تعلمون: أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر، وإن راية
المشركين كانت مع معاوية، ومع أبيه؟^(٤) ثم لفيكم يوم أحد، ويوم الأحزاب، ومع راية رسول

(١) كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستقبل الكعبة في صلاته وهو بمكة فلما هاجر إلى المدينة أمره الله باستقبال بيت المقدس، تألفاً لليهود،
فصلى كذلك سنة أو سبعة عشر شهراً حتى أمره الله تعالى بالتحويل إلى القبلة الأولى كما وردت قصة ذلك في القرآن
الكريم.

(٢) اللات: صنم تعبد بالطائف، والعزى: أكبر صنم لقرين بطن نخلة.

(٣) روى المؤرخون ضمن حوادث سنة ٨ هـ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حينما ورد مكة فاتحاً، وقف على باب الكعبة، وخطب الناس، ثم
جلس على الصفا للبيعة فبايعه الناس رجالاً ونساء ومن أظهرها البيعة له: معاوية، وأبوه صخر وأمه هند، فسُميت «بيعة
الفتح». وأما بيعة الرضوان، فكانت قبل ذلك بستين في غزوة الحديبية، حينما دعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين للبيعة على
الموت، فبايعوه على ذلك تحت شجرة هناك سُميت بعد ذلك بشجرة الرضوان ونسبت البيعة إليها، ولم يكن معاوية ولا أبوه
منهم فيقتصد الإمام الحسن عليه السلام بإحداهما هذه وبالأخرى: بيعة عام الفتح حيث لم يكن هو ولا أبوه من أهل بيعة الرضوان
وكان بعد بيعته مع أبيه عام الفتح من الناكثين المناقضين كما سنذكر تصرّحات أبي سفيان وابنه بكلمات الكفر والتناق.

(٤) كانت وقعة بدر الكبرى في رمضان من السنة الثانية للهجرة، وكان لأبي سفيان وبنه الدور المحيز في إسمائها، وله فيها

الله ﷺ ومعك يا معاوية ومع أبيك راية الشرك؟ وفي كل ذلك يفتح الله له، ويطلع حجته، وينصر دعوته، ويصدق حديثه، ورسول الله ﷺ في تلك المواطن كلها عنه راضٍ، وعليك وعلى أبيك ساخط.

وأنتدك الله يا معاوية أتذكر يوماً، جاء أبوك على جمل أحمر، وأنت تسوقه وأخوك عتبة هذا يقوده، فأركم رسول الله ﷺ فقال: «اللهم العن الزاكب، والقائد والسائق»، أتُنسى يا معاوية: الشعر الذي كتبتَه إلى أبيك لما همَّ أن يسلم تنهاه عن ذلك، فنقول:

يا صفراً، لا تُسَلَمَنَّ - يوماً - فتفضحنا	بعد الذين ببدر أصبحوا مرقاً ^(١)
خالِي وعمي، وعم الأم ثالثهم	وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرقاً ^(٢)
لا تُرَكِّبَنَّ إلى أمر تكلفنا	والراحمات به في مكة الخرقاً ^(٣)
فالموت أمون من قول العداة للعد	حاد لبن حرب عن الغزى إذا فرقاً ^(٤)

والله يا معاوية لما أخفيتُ من أمرِك أكبر مما أبديت.

من كلام الامام الحسن عليه السلام أن النبي ﷺ لعن أبا سفيان في سبعة مواطن وأنشدكم الله أيها الرهط أتعلمون أن علياً حَزَمَ الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله ﷺ فأنزل فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرُّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ...﴾^(٥)، وأن رسول الله ﷺ بعث أكابر أصحابه إلى بني قريظة، فنزلوا من حصنهم فهزموها، فبعث علياً بالراية، فاستنزلهم على حكم الله، وحكم رسوله، وفعل في (خبيز) مثلاً.

ثم قال ﷺ: يا معاوية، أظنك لا تعلم: أني أعلم ما دعا به عليك رسول الله ﷺ لما أراد أن

→ ابنان: مقتول، ومأسور: الأول حنظلة والثاني عمرو.

- (١) المرق بكسر ففتح: جمع مرقة بكسر فسكون وهي القطعة من القوب وغيره، وفي بعض النسخ (فرقا).
- (٢) ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج: ج ١٤ ص ٢٠٨، ط جديد عن الواقدي أن المقتولين يوم بدر من بني عبد شمس اثنا عشر رجلاً منهم: حنظلة بن أبي سفيان، وعبيدة والعاص ابننا سعيد بن العاص، وعتبة بن أبي معيط، وعتبة بن ربيعة، وابنه الوليد أخو هند أم معاوية وأخوه: شيبه بن ربيعة، وغيرهم.
- (٣) الخرق بالتحريك الصيق، وعدم حسن التصرف في الأمور.
- (٤) فرق بفتح فكسر: خاف وفرغ.
- (٥) سورة المائدة / ٨٧

يكتب كتاباً إلى بني جذيمة^(١)، فبعث إليك، فوجدك تاكل، ثم بعث إليك مرة أخرى فوجدك تاكل، فدعا عليك، ونهك إلى أن تموت؟^(٢)

وأنتم أيها الرهط نشدتكم الله؟ ألا تعلمون أن رسول الله ﷺ لعن أبا سفيان في سبعة مواطن، لا تستطيعون ردّها:

أولها - يوم لقي رسول الله ﷺ خارجاً من مكة إلى الطائف، يدعو «ثقيفاً» إلى الدين، فوقع به، وسبّه، وسفّه، وشتمه، وكذبه، وتوعده، وهم أن يبطش به، فلعنه الله، ورسوله، وصُرف عنه.

والثانية - يوم العير، إذ عرض لها رسول الله ﷺ وهي جاثية من الشام، فطردها أبو سفيان، وساحل بها^(٣) فلم يظفر المسلمون بها، ولعنه رسول الله ﷺ ودعا عليه، فكانت وقعة (بدر) لأجلها.

والثالثة - يوم أحد، حيث وقف تحت الجبل، ورسول الله ﷺ في أعلاه، وهو ينادي: أعلّ، مُبل؟ - مراراً^(٤) فلعنه رسول الله عشر مرات ولعنه المسلمون.

والرابعة - يوم جاء بالأحزاب، وغطفان، واليهود، فلعنه رسول الله ﷺ وابتهل.

والخامسة - يوم جاء أبو سفيان في قريش، فصدّوا: رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام، والهدي معكوفاً أن يبلغ محله، ذلك يوم (الحديبية) فلعن رسول الله ﷺ أبا سفيان، ولعن القادة، والأتباع، وقال «ملعونون كلهم وليس فيهم من يؤمن»، فقل يا رسول الله، أما يُرجى الإسلام

(١) وهم بنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، وقد بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد حين افتتح مكة داعياً، لا مقاتلاً، فلما أقبل عليهم أخذوا السلاح في وجهه، فقال: ضعوا سلاحكم، فإن الناس قد أسلموا، فلما وضعوا سلاحهم، أمر بهم خالد، فكتفوا، ثم عرضهم على السيف، فقتل من قتل منهم، وأسر من أسر والقصة مفصلة في صفحات الأربع وانتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ فرفع يده إلى السماء وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»، ثم دعا بهلياً ﷺ فقال: يا علي، اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، واجعل أسر الجاهلية تحت قدميك؟ فخرج علي حتى جاءهم، ومعه أموال قد بعث بها رسول الله ﷺ إليهم ليدي دماهم، ويعرض أموالهم، حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال، إلا وداه وعوضه، ثم رجع إلى النبي ﷺ وأخبره الخبر، فقال: أصبت وأحسن، ثم استقبل القبلة قائماً شاهراً يده، وهو يقول: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد» ثلاث مرات. (٢) يريد: إنه دعا عليك بالنهم، وعدم الشج.

(٣) ساحل بها: أتى بها ساحل البحر.

(٤) أعلّ، أي: أتصر يا هبل وهو بالضم والفتح من أصنام قريش المعلقة في الكعبة.

لأحد منهم، فيكف باللعنة؟

فقال: «لا تصيب اللعنة أحداً من الأتباع، وأما القادة فلا يفلح منهم أحد».

والسادسة - يوم الجمل الأحمر.

والسابعة - يوم وقفوا لرسول الله ﷺ في العتبة ليستفتروا ناقتهم، وكانوا اثني عشر رجلاً، منهم أبو سفيان، فهذا لك - يا معاوية -

وأما أنت - يا بن العاص - فإن أمرك مشترك، وضعتك أمك مجهولاً من عُهر، وسفاح، فتحاكم فيك أربعة من قريش، فغلب عليك جزأها، الأهم حسباً، وأخبرتهم منصياً^(١)، ثم قام أبوك، فقال: أنا شاني محمد الأبتري، فأنزل الله فيك ما أنزل .. وأما ما ذكرت من أمر عثمان، فأنت سمرت عليه الدنيا ناراً، ثم لحقت بفلسطين، فلما أتاك قتله، قلت: أنا أبو عبد الله، إذا نكأت فرجة أو ميتها ثم حبست نفسك إلى معاوية، ويعت دينك بدنياه، فلسنا نلومك على بغض، ولا نعاتبك على ود، وبالله، ما نصرت عثمان حياً، ولا عقبك له مقتولاً.

وأما أنت يا وليد هو الله، ما ألومك على بغض علي، وقد جلدك ثمانين في الخمر^(٢)، وقتل أباك بين يدي رسول الله ﷺ صبراً^(٣)، وأنت الذي سمّاه الله الفاسق وسمى علياً (المؤمن) حيث تفاخرتما، فقلت له: اسكت يا علي، فأنا أشجع منك جنناً وأطول منك لساناً، فقال لك علي: اسكت يا وليد، فأنا مؤمن وأنت فاسق، فأنزل الله تعالى في موافقة قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾، ثم أنزل فيه على موافقة قوله أيضاً: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا...﴾^(٤).

(١) ذكروا أن النابتة أم عمرو بن العاص كانت أمة رجل من عزة، فسبغت فاشتراها عبد الله بن جدهان التيمي بمكة، فكانت بغيّاً، ثم أعطاها، فوقع عليها: أبو لهب بن عبد المطلب، وأمية بن خلف الجمحي، وهشام بن الصغيرة المخزومي، وأبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل السهلي في طهر واحد فولدت عمرواً، فادعاه كل منهم فحكموا أنه فيه حكمك للعاص، لأنه كان ينفق عليها دونهم قالوا: وكان أشبه بأبي سفيان.

(٢) ذكرنا ذلك آنفاً في حديث شربه الخمر وزيادته في صلاة الغداة، وذكرنا هنالك أن الأكثر على أن علياً أمر عبد الله بن جعفر بجلده، وقيل: بإشره بنفسه.

(٣) ذكرنا ذلك في بداية الحديث عن عقبة بن أبي معيط قبل صفحات.

(٤) تقدم آنفاً نزول الآية الأولى في الوليد، والثانية في أبيه عقبة.

ويحك يا وليد: مهما نسيت، فلا تنس قول الشاعر فيك وفيه^(١)

أنزل الله والكتاب عزيز في علي وفي الوليد قرأنا
فتبوا الوليد إذ ذاك فاسقاً وعلي ميبوا إيماناً
ليس من كان مؤمناً (عمره الله) كمن كان فاسقاً خواناً
سوف يدعى الوليد بعد قليل وعلي إلى حساب عياناً
لعلي يجزى بذاك جناناً ووليد يجزى بذاك هواناً

وما أنت، وقرين؟ إنما أنت علج بن أهل صفورية بالفتح فالتشديد بلدة من نواحي الأردن، وأقسم بالله لأنت أكبر في البلاد، وأسن ممن تدعى إليه ..».

وأما أنت يا عتبة فوالله ما أنت بحصيف فأجيبك، ولا عاقل فأحاورك، وأعاتبك، وما عندك خير يرجي، ولا شر يتقى، وما عقلك وعقل أمتك إلا سواء، وما يضر علياً لو سببته على رؤوس الأشهاد، وأما وعيدك إياي، فهلا قتلت اللحياني إذ وجدته على فراشه، أما تستحي من قول نصر بن حجاج فيك:

يا للرجال وحادث الأزمان وسببة تخزي أبا سفيان
نبئت عتبة ضائه في عرسه حبس لنسيم الأصل من لحيان

وبعد هذا ما أربأ بنفسي عن ذكره لفحشه، فيكيف يخان أحد سيفك، ولم تقتل فاضحك؟ وكيف ألومك على بغض علي، وقد قتل خالك الوليد مبارزة يوم (بدر) وشرك حمزة في قتل جدك عتبة، وأوحذك من أخيك حنظلة في مقام واحد.

وأما أنت يا مغيرة فلم تكن بخليق أن تقع في هذا وشبهه، وإنما ملكك مثل العيوضة إذ قالت للنخلة: استمسكي، فإني طائفة عنك؟ فقالت النخلة: وهل علمت بك واقعة علي، فأعلم بك طائفة عني؟

والله، ما نشعر بعداوتك إيانا، ولا أغتبتها إذ علمنا بها، ولا يشق علينا كلامك، وإن حد الله في الزنا لغابت عليك ولقد درأ عمر عنك حقاً الله سائله عنه.

ثم قام الحسن عليه السلام فنفض ثوبه، وانصرف، فالتقت معاوية إلى الجماعة، وقال: قد أنبأتكم أنه

(١) هو حسان بن ثابت الأنصاري، وقد ترجمنا له في أخريات الجزء الأول من الكتاب ضمن هوامش الفصل السابع.

ممن لا تطلق عارضته ونهيتكم أن تسبوه فعصيتُموني، والله، ما قام حتى أظلم علي البيت.
قوموا عني، فلقد فضحككم الله وأخزاكم بترككم الحزم، وعدولكم عن رأي الناصح المشفق،
والله المستعان^(١).

(١) راجع: تفصيل المفاخرة المذكورة في (شرح النهج) ج ٦ ص ٢٨٥ - ٢٩٤ دار إحياء الكتب العربية بمصر. والذي يظهر من
ثبت هذه المفاخرة: أنها كانت في الشام؛ وكان الإمام الحسن عليه السلام بعد الصلح والمهادنة بينه وبين معاوية بزيارة خاصة
للشام بدعوة ملحة من معاوية والله العالم.

الفصل السابع

أبو سفيان بن حرب بن أمية، كفره وضلاله ولعنه وجميع
أبنائه الفجرة في القرآن العظيم وعلى لسان النبي
العظيم ﷺ وتحريضه المشركين على قتل النبي ليلة مبيت
علي في فراشه. وقيادته المشركين على حرب النبي ﷺ
في واقعة بدر الكبرى، وواقعة أحد، وتظاهره في حقه
على أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب وشماتته
بقتله وتمثيل زوجته هند أم معاوية بحمزة بأشنع صورة،
وحثه المشركين على حرب النبي ﷺ - يوم الخندق -
وبيان اندحاره مع مشركي قريش في تلك الواقعة،
ومحاولته قتل النبي ﷺ - بعد وقعة الخندق - ثم عرض
مواقفه المناهضة بعد إظهار إسلامه يوم الفتح - في عدة
مواطن إلى حين وفاته.



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

● أبو سفيان ولعن القرآن إياه في عدة آيات

ولنحول سير الحديث بعد ذلك إلى حيث العنصر الخامس من عناصر الشجرة الأموية الخبيثة؟ وهو: حرب بن أمية، وأولاده:

أما حرب، فليس في ذاته وذاتياته شيء يمكن أن يسجله له التاريخ، سوى حقه الموروث عن أبيه على بني هاشم، وعداوته لهم، وحسبنا شاهداً على ذلك: ما ذكرناه في أوائل الفصل الثاني من هذا الجزء: من قصة منافرة تم ومخاصمته: شيخ بني هاشم في وقته شيبة الحمد، وفتى المجد عبد المطلب بن هاشم، ووقوفه بصلف أمام الكاهن الجاهلي العدوي: نفيل بن عبد العزى، متطاولاً على مقام عبد المطلب الشامخ، فلم يكن من الكاهن المذكور إلا استغرابه من تطاول «حرب» وتواضع عبد المطلب، حتى وقفا جنباً إلى جنب أمام المنافرة والمخاصمة بالرغم مما بين الشخصيتين من النشاز، هذا من حيث شموخ العليا، وذلك من حيث هبوط الحضيض.

وسرعان ما ينفره الكاهن، وينظر إليه بشزر، ويخاطبه، وينسبه، مشيراً إلى علياء عبد المطلب، ونسبه، فيقول:

أبوك معاهز، وأبوه غف وزاد الفيل عن بلد حرام

وجملة القول: أن ليس لحرب هذا بعد الظاهرة التي أشرنا إليها أي أثر في التاريخ، لولا نبوغ ابنه، وظهوره المخزي على مسرح المهدين: الجاهلي، والإسلامي. ذلك، هو رأس المشركين، المحاربين لله ولرسوله في الجاهلية وشيخ المنافقين: من زنادقة قریش في الإسلام.

● أبو سفيان (صخر) بن حرب بن أمية

المولود قبل عام الفيل بعشرة أعوام أو قبل الهجرة بـ ٥٧ عاماً على التحقيق وأمه:

صفية بنت حرب الهلالية عمة ميمونة زوجة النبي ﷺ.

ذكره القرآن الكريم بكلمة الكفر في عدة آيات:

منها قوله تعالى كما في سورة التوبة / ١٢: ﴿فَقَاتِلُوا آلَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَأَبْنَاءُ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وأبو سفيان في طليعة أولئك^(١).

ومنها: قوله تعالى كما في سورة الأنفال / ٣٦: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَفَّسُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾^(٢).

ومنها قوله تعالى كما في سورة الأنفال أيضاً بعدها: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّقُوا يَتَّقُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُوا﴾^(٣).

كما أن رسول الله ﷺ لعنه في عدة مواطن، ولا يلعن النبي ﷺ إلا الكافر والمنافق. فقد ذكروا: أن رسول الله ﷺ قال في قنوت صلاة الصبح: «اللهم العن أبا سفيان، وصطفوان بن أمية، والحارث بن هشام»^(٤).

وأنه ﷺ قال حينما رآه، ومعه ابنته معاوية: «اللهم العن التابع والمتبوع، اللهم عليك بالأقيس» يعني: معاوية.

ونظر النبي ﷺ إليه وهو راكب، ومعه ابناء: معاوية وعتبة، أحدهما قائد والآخر سائق فقال: «اللهم العن القائد والسائق والراكب»^(٥).

(١) ذكر ذلك الطبري في تفسيره: ج ١٠ ص ٢٦٢، وابن جرير في تفسيره: ج ٢ ص ٧١، والغازن في تفسيره: ج ٢ ص ٢١٨، والأوسي في تفسيره: ج ١٠ ص ٥٩، والسيوطي في تفسيره، وغيرها من عامة كتب التفسير.

وأول الآية هكذا: ﴿وَإِنْ نَكُتُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ، وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ﴾.

(٢) وكان أبو سفيان على رأس أولئك المنافقين أموالهم لحرب الله ورسوله، كما ذكر تفسير الطبري: ج ٩ ص ١٥٩، والكشاف: ج ٢ ص ١٣، وتفسير الرازي: ج ٤ ص ٣٧٩، وتفسير ابن كثير: ج ٤ ص ٣٧، وتفسير الشوكاني: ج ٢ ص ٢٩٣، وتفسير الغازن: ج ٢ ص ١٩٢، وتفسير الأوسي: ج ٩ ص ٢٠٤.

وآخر الآية: ﴿فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلِبُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

(٣) والمعنيون بذلك: أبو سفيان وأصحابه من المشركين كما ذكر ذلك: الأوسي: ج ٩ ص ٢٠٩، والنسفي، هامش تفسير الغازن: ج ٢ ص ١٣٩.

(٤) ذكر ذلك: الطبري في تفسيره: ج ٤ ص ٥٨ وأخرجه الترمذي في جامعه ما في نيل الأوطار للشوكاني: ج ٢ ص ٣٩٨.

(٥) كتاب نصر بن مزاحم في حرب صفين: ص ٢٤٤ و١٤٨.

كما أن رسول الله ﷺ لعنه أيضاً في المواطن السبعة التي ذكرها الإمام الحسن عليه السلام أمام معاوية في المفارقة التي جرت بينه وبين جماعة من منافقي قريش. وقد ذكرناها آنفاً في أخريات الفصل السادس عن ابن أبي الحديد في شرحه. وكان من رؤساء المشركين في حرب النبي ﷺ وإسلامه عند ظهوره كما عليه عامة المؤرخين.

وبالجملة، فلأبي سفيان في كلا دوري جاهليته وإسلامه تاريخ مصحر بالكفر، والعداء للنبي ﷺ وإسلامه، وموغل بالحق والحق له ولأهل بيته.

أما في دور جاهليته فقد كان ومعه ابنا عمه: شيبه وعتبة ابنا ربيعة بن عبدشمس من النفر الذين جاءوا إلى أبي طالب عن النبي ﷺ قائلين له: إن ابن أخيك محمداً قد سب آلهم، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل أراءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه. فردهم أبو طالب رداً جميلاً فانصرفوا عنه^(١).

وكذلك كان ومعه ابنا عمه: عتبة وشيبة أيضاً من النفر الذين اتهموا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فبعثوا إلى النبي ﷺ ليكلموه ويخاصموه في أمر دينه. أبو سفيان وتجاهره بالكفر في دور جاهليته

فجاءهم النبي حتى جلس إليهم، فقالوا له فيما قالوا: بكلام واحد: يا محمد لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهمت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك.

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فإنا، فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا إلى آخر كلامهم.

فقال لهم النبي ﷺ بكل إصرار: «ما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً

(١) ذكرنا ذلك تفصيلاً في غضون الفصل السادس من الجزء الأول للكتاب أثناء الحديث عن مواقف أبي طالب الإسلامية.

ونذيراً» إلى آخر كلامه الصامد^(١).

وكذلك، جاء أبو سفيان ومعه ابنا عمه: عتبة وشيبة مع أبي جهل ونفر من أشراف قريش إلى أبي طالب عائدين له حينما ثقلت حاله فقالوا له فيما قالوا: «يا أبا طالب، قد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه، فخذ له منا، وخذلنا منه؟ ليكف عنا، ونكف عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه؟»

فبعث أبو طالب إلى النبي ﷺ فجاءه، فقال له: (يا ابن أخي) هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك، ليُعطوك، وليأخذوا منك؟ فقال رسول الله ﷺ لهم: «نعم، كلمة واحدة، تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم، تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه».

فقالوا له وفي مقدمتهم أبو جهل وأبو سفيان: «أتريد - يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجب ..» ثم تفرقوا^(٢).

وكذلك كان أبو سفيان ومعه ابنا عمه أيضاً من نفر الذين اجتمعوا في «دار الندوة» - غدوة للتداول في كيفية التخلص من محمد ﷺ، فكان آخر ما خلصوا إليه في ذلك الشأن قول أبي جهل بأن يعمد من كل قبيلة من قريش فتى جليل نسيب، ويعطى كل منهم سيفاً صارماً، فيهمجوا على محمد ويضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فيستريحون منه.

ثم افترقوا على أن ينفذوا الخطة، مساء ذلك اليوم، فينزل جبرئيل على النبي ﷺ ويخبره بما تأمر عليه القوم، وينهاه عن أن يبيت تلك الليلة على فراشه.

ولما كانت العتمة من الليل، توافد القوم مجتمعين على باب دار النبي ﷺ يتقدمهم أبو جهل وأبو سفيان، وهم يرصدون نومة محمد حتى يشبوا عليه.

وهنا، أمر النبي ﷺ علياً^(٣) أن ينام في فراشه ويتردى بهر دته، ثم خرج من بين القوم وقد أخذ حفنة من التراب، فرماها في وجوههم، فأخذ الله تعالى على أبصارهم، فما رأوه حينما خرج ومضى هزيع من الليل، والقوم يترصدون نومة محمد إذا هم برجلي

(١) سيرة ابن هشام: ج ١ قسم ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٦، ط ثانية بمصر.

(٢) المصدر الألف: من السيرة: ص ٤١٧.

ليس منهم، قال لهم ما تنتظرون ها هنا فأخبره بعضهم، فقال لهم: خيبتكم الله، فقد خرج محمد عليكم، من حيث لا تشعرون.

فجعلوا يطلون، ويتطلعون في فراش محمد، فلم يجدوا غير علي بن أبي طالب عليه السلام نائماً فيه، مسجى ببردة النبي صلى الله عليه وآله الخضراء.

ومع ذلك، فلم يبرحوا مكانهم إلى الصباح مترقبين فإذا هم بعلي عليه السلام يشور في وجوههم كالأسد الغضبان، فيفرون هارين، وقد فشل مخططهم، وباءوا بآثمهم، فأُنزل الله عند ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَنْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِشْيَاكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُفْرِجُوكَ وَيَنْكُرُونَ وَيَنْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَاكِرِينَ﴾، (الأنفال / ٣٠).
فأذن الله عند ذلك لنبيه بالهجرة إلى المدينة^(١).

مواقفك دون أحمد جاوزت	بمقامك التعريف والتجديدا
فعلى الفراش مبيت ليك والعدى	تهدي إليك بوارقاً ورعدوا
فرقدت مثلج الفؤاد كأنما	يهدي القراع لسمعك للتفريدا
فكفيت ليلته وقمت معارضاً	بالنفس لا فئسلاً ولا رعدبدا
واستصحبوا فرأوا ذوي مرادهم	جسبلاً أشم وفارساً صنديدا
رصدوا الصباح لينطلقوا كنز الهدى	أو ما دروا كنز الهدى مرصودا

مقطع من قصيدة عصماء جزلة للشاعر الكبير الجزل الحاج هاشم بن الحاج حردان الكعبي رحمته الله ^(٢) المتوفى سنة ١٢٣١ هـ مطلعها كما في ديوانه المطبوع:

(١) باقتضاب من المصدر الآنف: من السيرة: ص ٤٨٠ - ٤٨٤، ونصب الراية للزليحي: ج ٢ ص ١٢٩ ط مصر، وأخرجه البخاري في المغازي: ج ٢ ص ٢٨٢ وكثير من المؤرخين وأرباب السير في باب هجرة النبي صلى الله عليه وآله.

(٢) ولد في (الدورق) مسكن عشائر كمب في الأهواز ورجل يمد نشاطه إلى التجف وكربلاء، فحضر على العلماء والفقهاء والأدباء في بلدي علي والحسين عليهما السلام، حتى عد من العلماء المرموقين، ومن الشعراء المجهدين المبدعين، له ديوان شعر مطبوع بحوري كثيراً من فنون الشعر. وأكثره في مدائح الأئمة الطاهرين ومراثيمهم عليهم السلام، وفيه زهاء عشرين قصيدة من روائع الشعر في رثاء الحسين عليه السلام بالخصوص. من ذلك قصيدته الدالية الأثمة التي تناهز أبياتها ١٥٠ بيتاً يبدؤها في مدح أمير المؤمنين عليه السلام وعرض مواقفه المشهودة في نصرته النبي صلى الله عليه وآله ودعم إسلامه، ويختتمها في رثاء سيد الشهداء الحسين

أرأيت كيف تحملك القودا من كان منا المظل المجبودا



وكذلك كان أبو سفيان ضمن دوره الجاهلي رأس المحرّضين وسانن الحرب، وثقابة نارالمشركين، ومنطلق عسكر قريش في «غزوة بدر الكبرى» في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة.

فقد ذكرها المؤرخون باقتضاب منافقوا: إنه خرجت غير لقريش من مكة، تريد الشام للتجارة، بحماية وقيادة أبي سفيان ومعه زهاء أربعين أو سبعين رجلاً من رجالات قريش فوصلوا الشام، فباعوا فيها، وابتاعوا منها، ثم فصلت العير، محملة من بضائع الشام تريد مكة.

وعلم رسول الله ﷺ بعودة العير إلى مكة، وبقصد إضعاف قوى الشرك بإضعاف اقتصادياته، ندب إلى إعاقة العير، ومصادرة الأموال: أصحابه، فخف إلى نديته: «٢١٣» أو ١٤ رجلاً من المهاجرين والأنصار، وكانت غالبيتهم من الأنصار، وكان صاحب راية رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام وليس عندهم غير فرسين وسبعين بعيراً.

وكان أبو سفيان حين قرب من مكة يسير بركبه سير محترس خائف من رصد محمد ﷺ حينما أعلم أنه استنفر أصحابه من المدينة لإعاقة العير، فاستأجر بدوره رجلاً من «غفار» اسمه: ضمضم بن عمرو، يذهب إلى مكة، ليستنفر قريشاً إلى حفظ أموالهم المهددة من قبل محمد ﷺ وأصحابه.

فجاء ذلك الرجل الغفاري توأ إلى مكة، ووقف حيث مجتمع الناس وأخذ ينادي وقد

→ بن علي عليه السلام ومنها قوله:

له مطروح حوت منه الشرى	نفس العلى والسؤدد المفلوقدا
ومجرح ما غيرت منه القنا	حسنأ ولا أمطلق منه جديدا
قد كان بدراً فاعلدى شمس	مذ أليسسه يد الدماء لبودا
الضمضى	

وتخلطه شجر القنا حتى أبت إرسال هاجرة إليه بويدا

إلى آخر القصيدة الرائعة ذكر الكثير من أبحاثها المنفور له العطيط السيد جواد شير في ج ٦ من موسوعته (أدب الطف).

جدع أنف بعيره، وحول رحله، وشق قميصه وقال: «يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد، وأصحابه لا أدري: أن تدركوها؟ الغوث؟ الغوث». وما أن تسامعت قريش ذلك النداء المهيج، حتى هرعت بعددها وعدتها وكانوا ٩٥٠ رجلاً أو ألفاً ومعهم مائة فرس وسبعمئة بعير، فتزولوا بالمدوة القصوى من «وادي بدر». وخرج محمد ﷺ وأصحابه من المدينة، ووصلوا إلى قريب من ذلك المكان من الوادي، واستطلعوا خبر أبي سفيان، وعيره، فأخبروا بأنه أخذ جانب الساحل، ونجا بالبعير إلى مكة، وأن قريشاً وراء الوادي مجتمعون، مصممون على الحرب.

حتى إذا ترائى الجمعان في صبيحة يوم الجمعة، السابع عشر من رمضان لم يكن بدء من مزاولة الحرب، فكانت المباراة الفردية بين الفريقين في البداية ثم كان الهجوم المتواصل بينهما في النهاية وحمي الوطيس، فأسفرت النتيجة عن نصر المسلمين على المشركين، فقتل منهم سبعون، وأسر نحو ذلك^(١)، وانهزم الباقون منكسرين راجعين إلى مكة^(٢).

وكان الانتهاء من «واقعة بدر» برجوع معظم المسلمين إلى المدينة منتصرين ورجوع فلول المشركين إلى مكة مندحرين في أوائل شوال من تلك السنة الثانية للهجرة كما عليه عامة المؤرخين.

قال الواقدي في مغازيه: «وبلغ نوفل بن معاوية الديلي وهو في أهله، وقد كان شهد معهم بدرًا: أن قريشاً بكت على قتلاها، فقدم مكة، فقال: يا معشر قريش، لقد خُفَّتْ أحلامكم، وسفَه رأيكم، وأطعتم نساءكم، أمثل قتلاكم يبكي عليهم؟ هم أجل من البكاء، مع أن ذلك يذهب غيظكم عن عداوة محمد وأصحابه، فلا ينبغي أن يذهب الغيظ عنكم، إلا أن تدركوا ثاركم من عدوكم؟

(١) بعد ابن أبي الحديد في (شرح: ج ١٤ ص ٢٠٨)، ط جديد نقلًا عن الواقدي، اتى عشر قتلاً من بني عبد شمس من بينهم: حنظلة بن أبي سفيان، وعبيدة، والعاص ابن سعيد بن العاص، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة. كما بعد ص ١٩٩ أيضاً نقلًا عن الواقدي من بين أسارى عبد شمس: ثمانية. منهم: عتبة بن أبي معيط، المقتول صرًا بعد الواقعة والعارث بن أبي وجرة بن أبي عمرو بن أمية، وهمرو بن أبي سفيان، وأبو العاص بن نوفل، وأبو العاص بن الربيع.

(٢) راجع: تفصيل واقعة بدر من كتب السير كتاريخ الطبري، وكامل ابن الأثير، ودياة ابن كثير، ونهاية النوري، وغيرها ضمن حوادث السنة الثانية للهجرة.

فسمع أبو سفيان كلامه، فقال: «يا أبا معاوية، غلبت والله، ما ناحت امرأة من بني عبد شمس على قتيل لها إلى اليوم ولا بكاهم شاعرٌ إلا نهينتهُ، حتى ندرك ثأرنا من محمد وأصحابه؟ وإنني لأنا الموتور الثائر، قتل ابني حنظلة، وسادة أهل هذا الوادي، أصبح هذا الوادي مقشعراً للقدم»^(١).

قالوا: وكان أبو سفيان حين رجعت فلول قريش منهزمين من بدر إلى مكة يتميز من الغيظ والحقد، فنذر: أن لا يمسه رأسه ماءً من جنابة، حتى يغزو محمداً. فخرج بعد ذلك من مكة في مثني راكب من قريش، ليبري يمينه وكان خروجه ذلك في شهر ذي القعدة من تلك السنة فأخذ يحفز أصحابه لأخذ الثأر، ويجهزهم للحرب وهو في طريقه إلى المدينة فجعل يقول:

كزوا على يثرب وجمعهم	فإن ما جمعوا لكم نفل
إن يك يوم القلب كان لهم	فإن ما بعده لكم ذول
أليت لا أقرب النساء ولا	يمس رأسي وجلدي الغسل
حتى تبروا قبائل الأوس والخزرج	إن للوؤاد مشتعلاً

وأخذ يسير بأصحابه حتى طرق المدينة ليلاً واجتمع بسلام (بالفتح) بن مشكم بالكسر سيد بني النضير يومئذ فأعلمه أبو سفيان بخبر الناس في «بدر» ثم خرج في عقب ليلته تلك فبعث رجالاً من أصحابه إلى ناحية من نواحي المدينة، يقال له «العريض» بالتصغير، فحرقوا في نخلها، ووجدوا رجلاً من مسلمي الأنصار يقال له: «معبدين عمرو» وحليفاً له، فقتلوهما في حرث لهما، ثم انصرفوا راجعين إلى أبي سفيان، فأخبروه بذلك، فرأى أنه قد برّ يمينه.

وجاء الصريخ إلى محمد، وأصحابه بمقتل الأنصارين، فركب النبي ﷺ وأصحابه في طلب أبي سفيان وأصحابه، ففاتهم أبو سفيان، فنجأ بأصحابه ورجعوا إلى مكة، وكانوا حينئذ قد غلبهم الفزع، فجعلوا يطرحون مزاول «السويق» في الحرث، يتخفون منه للتجاء بأنفسهم وكان ذلك عامة زادهم، فأخذها المسلمون، فلذلك سميت: «غزوة

السويق».

ورجع النبي ﷺ بأصحابه إلى المدينة وأخبرهم بغزوة أخرى للمشركين^(١). وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع أن نقول: إن الأمويين وفي طليعتهم أبو سفيان قد أصيبوا بنكسة مريعة في «بدر» فتحركت حفاظهم، وأثيرت ضغائنهم القديمة وأحقادهم الجديدة، فالتبوا من جديد كفار قريش، وآلبهم الكفار على حرب النبي ﷺ وأصحابه المسلمين، وكان أبو سفيان رأس المؤلبيين والحاقدين، وقد هباً كفار قريش وهيتوه لإعلان حرب جديدة على النبي ﷺ والمسلمين، وتجهز الناس لواقعة «أحد» منذ أواخر ذلك العام^(٢).

وقد كانت لأبي سفيان في دور جاهليته أيضاً بوادر ومظاهر عدائية مصحرة للنبي ﷺ ولإسلامه وللمسلمين في واقعة أحد التي كانت في السابع أو النصف من شوال للسنة الثالثة من الهجرة.

● خروج المشركين بقيادة أبي سفيان الى أحد

وقد تحدثنا عن «الواقعة» في خلال الفصل السابع من الجزء الأول من كتابنا هذا ضمن الحديث عن شهادة حمزة فتي عبد المطلب.

ونقتضب ما كتبناه هناك مع ما سنضيفه هنا من المؤشرات الواضحة على كفر أبي سفيان ونفاقه، ومدى عدائه للنبي ﷺ وأهل بيته، وللإسلام وللمسلمين في تلك الواقعة فنقول:

ولما تراجعت فلول قريش منهزمة منكسرة من «بدر» وقتل من قتل، وأسر من أسر منهم، اجتمعوا بقائد الكفر والضلال أبي سفيان، وكلموه في أن يجمع أموالهم التي جلبوها من الشام، وكانت لا تزال مجموعة في دار الندوة ليجهز بها جيشاً إلى حرب

(١) المصادر الآتفة: وغيرها: من كتب السير ضمن أخبارات حوادث السنة الثانية للهجرة، وكذلك: نهاية الأرب للنفري: ج ١٧ ص ٧١، ط دار الكتب المصرية.

(٢) علي ومناوئوه للدكتور نوري جعفر: ص ٩٠ ط القاهرة، وقال النسابة البغدادي في المحرر ص ٢٤٦ ط بيروت: «وقاد أبو سفيان قريشاً وكثانة يوم أحد ويوم الخندق لحرب رسول الله».

محمد ﷺ، أخذاً بثار من قتل من آبائهم وأبنائهم وعشائرتهم يوم بدر فبدرهم أبو سفيان قائلاً: «أنا أول من يجيب إلى ذلك، فأنا والله الموتور والثائر، وقد قتل ابني حفظة وأشراف قومي».

ثم عمد أبو سفيان إلى أموالهم التي كانت مجموعة في دار الندوة فصيرها ذهباً، ثم أخذ يتجهز لإعداد الحرب من جديد.

وفيه وفي أصحابه نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْقَهُونَ أَمْوَالَهُمْ لَيْصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْقَهُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ...﴾، (الأنفال / ٣٦).

فأمر بدوره جماعةً من قريش، يستنفرون القبائل العربية؟ فجمعوا منهم، ومن الأحابيش ومن أطاعهم من الأحلاف: جيشاً كثيفاً، عدده «ثلاثة آلاف» وعدته من الخيل: مائتا فرس، ومن الإبل: ثلاثة آلاف بعير، وكان فيهم سبعمائة دارع.

وكتب العباس بن عبد المطلب وكان في مكة يومئذ إلى رسول الله ﷺ يخبره بخروج قريش بعددها وعدتها من مكة إلى حربه.

فعند ذلك خرج النبي ﷺ بزهاء ألف رجل من المدينة، وسرعان ما أنخزل عنه المنافق ابن أبي سلول بثلاثمائة، وقد تحدثنا عنه في أثناء هوامش الفصل السابع من الجزء الأول من الكتاب، فبقي مع النبي ﷺ سبعمائة رجل، وليس معهم إلا فرسان، وكان فيهم: مائة دارع.

ثم أمر أبو سفيان وهو قائد المشركين: قريشاً أن يخرجوا مع نساءهم وأطفالهم لغرض أن يشتبوا عند القراع؟ فخرجوا كما أمرهم أبو سفيان، فكان الظعن خمس عشرة امرأة، أو أكثر.

وخرج هو وزوجته: هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أم معاوية. وكان مع النساء اللواتي خرجن مع أزواجهن الدفوف والطبول، يضربن بها، ويحرّضن الرجال، ويذكرنهم في كل منزل في الطريق قتلى «بدر»، ويشجعنهم على أخذ الثأر.

ومرّ الجيش بالأبواء في طريقه إلى أحد فأراد أبو سفيان أن ينبش قبر أمته أم

النبي ﷺ هناك، فقد أُمِنَ على رسول الله ﷺ، فاستشار أهل الرأي من قریش؟ فنهوه عن ذلك، وقالوا له: لا تذكر من هذا شيئاً؟ فلو فعلنا نبشت بنو بكر، وخزاعة، موتانا^(١)، ثم أقبل أبو سفيان بأصحابه، واستدبروا المدينة في الوادي، واستقبلوا «أحداً».

وأقبل رسول الله ﷺ بأصحابه، واستقبلوا المدينة وجعلوا «أحداً» خلف ظهورهم. ثم إن رسول الله ﷺ خطب الناس قبل الواقعة بيوم خطبة، حثهم فيها على العمل بالفرائض والتناهي عن المحارم وحضهم على مواصلة الجهاد في سبيل الله، والاستغفار من الذنوب^(٢).

ووعدهم الأجر والثواب عند الله تعالى، وغير ذلك من جوامع التبشير والتحذير. قالوا: وجعلت هند بنت عتبة صويحباتها من نساء قریش يضرهن الطبول والدفوف، وهن يجعلن بين صفوف المشركين، يذكرنهم قتلى بدر، ويشجعن أصحاب الألوية من بني عبد الدار على الإقدام، ويرقصن، وينشدن الأشعار، وهند أمامهن ترقص، وتنشد، وتخطب أصحاب الألوية، وتقول:

نحن بنات طسارق نمشي على النمارق
إن تقبلوا نعانق أو تدبروا نلارق
لراق غير وارق

وتقول أيضاً:

ويهاً بني عبد الدار ويهاً حُمَمة الأدبار
ضرباً بكل بئار^(٣)

والتحم القتال بين الفريقين، وتساقطت أصحاب ألوية المشركين من بني عبد الدار قتلى، وصرعى بأسياف أبطال المسلمين وفي مقدمتهم: علي بن أبي طالب، وحمزة بن

(١) شرح النهج للحديدي، ج ١٤ ص ٢١٩، ط جديد.

(٢) في المصدر الآتف: من شرح الحديدي، ص ٢٣٢ - ٢٣٣: نص الخطبة.

(٣) تاريخ الطبري، وكامل ابن الأثير، وبداية ابن كثير، وغيرها من كتب السير ضمن الحديث عن واقعة أحد ونهاية النوري: ج ١٧ ص ٩٠، ط دار الكتب المصرية، وسيرة ابن هشام: ج ٢ ص ٢٩٢، ط مصر، والمصدر الآتف: من شرح النهج، (وعلي ومناوؤه) لنوري جعفر، ط القاهرة باختلاف بسيط في بعض كلمات الأشودتين.

عبد المطلب، وأبو دجانة الأنصاري، ومصعب بن عميرة، وأضرابهم من المتفانين في الجهاد المرير دون الإسلام، ونبي الإسلام.

● شماعة أبي سفيان بحمزة وأصحابه من شهداء أهد

وكاد أن يفتح الله على المسلمين بالظفر الحاسم، لولا أن المشركين قد أتوا على جيش المسلمين من خلف وكان معظمهم قد نزلوا عن مراكزهم للنهب والسلب فأصيبوا بانتكاسة مفاجأة، وانتهى المطاف بالمسلمين، وهم: بين قتيل وجريح ومهزوم.

وكان من بين القتلى: حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وقد قتل بحربة «وحشي» غلام جبير بن مطعم بن عدي كما ذكرنا.

وصاح صائح المشركين بين الصّفين: ألا إن محمداً قد قتل، فانهارت معنويات البقية الباقية من المسلمين، وجعل أبو سفيان يطوف في المعركة ليرى بين قتلى المسلمين محمداً على ما سمع

وسرعان ما استعلم من أصحابه بأن محمداً لم يقتل، فأقبل مع بعض أصحابه، حتى أشرف على المعركة، بحيث يسمعه المسلمون وهو ينادي برفيع صوته: «أنعمت فعال، إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر، أعلُّ هُبُل؟ وحنظلة حنظلة»^(١).

(١) أنعمت بثناء التأنيث والمراد بها الأصنام، قالوا في تفسير هذه الجملة: كان الرجل من قريش في أيام الجاهلية إذا أراد فعل أمر، حمد إلى سهمين، فكتب على أحدهما «نعم» وكتب على الآخر: «لا»، ثم يتقدم أمام الصنم، ويهيل سهامه، ويقرع بينها، فإن خرج سهم (نعم) أقدم، وإن خرج سهم (لا) أحجم، وكان أبو سفيان جرماً على ذلك استفتى «هُبُل» في خروجه إلى (أحد) بإجالة السهمين، فخرج له سهم الأعمام بالخروج، فذلك معنى (أنعمت فعال) أي: أجابت الآلهة بنعم. والسجل بالسكنين والسجل بالكسر: الصب والأنصباب، ومعنى الجملة، أي أن الحرب سجل منها على هؤلاء، وآخر على هؤلاء، يعني مرة لهم وأخرى عليهم، ومعنى يوم بيوم بدر، أي: يوم أحد الذي انتصرنا فيه بدل يوم بدر الذي اندحرنا فيه ثم يقول: (أعلُّ يا هُبُل)، وهو صنم قريش الذي كانت تستقسم في أزلامها هنده، وتنحر قرايبها بين يديه، وهو الذي استفاد أبو سفيان كما ذكرنا ويشير بحنظلة الأول في الجملة الأخيرة إلى حنظلة بن أبي هاجر غسيل الملائكة وحنظلة الثاني إلى ابنه حنظلة بن أبي سفيان، المقتول يوم بدر مع المشركين.

قال المؤرخون: وكان حنظلة بن أبي هاجر يوم أحد قد شدَّ على أبي سفيان فضرب عرقوب فرسه، يُريد قتله، فنفرت به الفرس. وألقته على الأرض، فجعل يصيح: أنا أبو سفيان بن حرب، فلم يلتفت إليه أحد من الهزيمة، حتى إذا هانته شدة ابن

→ الأسود المعروف بأبن شعوب بالفتح حمل على حنظلة بالرمح، فقتله، فأخذها سفيان منه، فكان أبو سفيان بعد ذلك يذكر صبره ذلك اليوم، ومعاونة ابن شعوب إياه على حنظلة، وخليصه من الموت على يده، فيقول:

ولو شئت نجتني كميت طمرة	ولم أحمل للنعماء لابن شعوب
فما زال مهري مزجر الكلب منهم	لدى غدوة حتى بنت لشعوب
أقائلهم وأدعى بال غائب	وأدفعهم عني بركن صليب
فبقي ولا شرعي مقالة عادل	ولا تسامي من عبدة ونصيب
أبالله وإخواناً له قد تتابعوا	وحق لهم من عبدة بنصيب
وسلى الذي قد كان في النفس إنني	قتلت من «النجار» كل نهيب
ومن هاشم قرماً نجيباً ومصعباً	فكان لدى الهيجا غير هسيوب
ولو أنني لم أشف منهم قرونتي	لكانت شجي في القلب ذات ندوب
فأبوا وقد أودى الصلائب منهم	لهم خدع من معبط وكثيب
أصابهم من لم يكن لدمائهم	كفياً ولا فسي لحظة بضرب

تاريخ الطبري، وكامل ابن الأثير، وبداية ابن كثير في عرض واقعة أحد ضمن حوادث السنة الثالثة للهجرة، وشرح الحديدي: ج ١٤ ص ٢٧٠، ط جديد، وسيرة ابن هشام: قسم ٢ ص ٧٥، ط ثانية بمصر.

وليك: معاني مفردات الأبيات بألحاج:

أما البيت الأول، فمعنى الكميت بالتصغير: الفرس الذي خالط لون حمرة سواد.

والطمرة بكسر أوله وتشديده وكسر ثانية، وفتح ثالثة مع التشديد: الفرس الخفيفة العدو والثوب، وابن شعوب بالفتح: هو الرجل الذي حاول أبا سفيان حلي حنظلة، فقتله كما ذكرنا.

وأما البيت الثاني، فمن معاني المهر بالضم: الفرس الشابة القوية، ويريد بمزجر الكلب أنه لم يهد منهم إلا بمقدار الموضع الذي يزجر الكلب فيه، والضمير في «دنت لفروب» راجع إلى الشمس، والخطاب في كلمة «هكي» إلى آخر البيت إلى زوجته هند بنت عتبة أم معاوية ويشير في البيت الخامس إلى أبيها عتبة وعمها شيبة، وغيرهما من بني عبد شمس المقتولين يوم بدر بسيف علي وحزمة وعبيدة بن الحارث من علي بن هاشم.

وفي البيت السادس: إشارة إلى المستشهدين يوم أحد من بني النجار بن عمرو بن الخزرج من الأنصار. وفي البيت السابع: إشارة إلى المستشهدين العظمين يوم أحد: حمزة بن عبد المطلب الهاشمي عم النبي ﷺ ومصعب بن عمير من بني عبد الدار صاحب لواء المسلمين في (أحد)، ويريد بالقرونة في البيت الثامن: النفس، والشجا: الحزن، والتدوب: آثار الجروح، والمراد بالحلائب بالهملزة أو المعجمة: الجماعات، أو أنصار الرجل من بني عمه.

والغذب بالتحريك: الظن التألف إلى الجوف، والمعبط: المتشعط يده، والكثيب: الحزين، وفي بعض المصادر «منبط» بالمعجمة

ثم جعل يخاطب النبي ﷺ وأصحابه، ويقول: «لنا العزى ولا عُزَى لَكُمْ»^(١). فقال النبي ﷺ لبعض أصحابه: أجيئوه، وقولوا له: «الله مولانا، ولا مولى لَكُمْ»^(٢). ومرّ أبو سفيان على المعركة بعد الانتهاء من الحرب فوقف على جثمان حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسدر رسول له وقد مثلت به هند بنت عتبة زوجته: أشنع تمثيل وأفظعه، فأخذ يضرب في شدقه بزج الرمح^(٣) عدة ضربات وهو يقول: «ذق علق»^(٤). ثم انصرف أبو سفيان ومن معه من مشركي قريش عن المعركة وهو ينادي: محمداً، وأصحابه «إنّ موعدكم (بدر) للعام المقبل»، فقال النبي ﷺ لرجل من أصحابه: قل له: «نعم» هي بيننا وبينك موعد»^(٥).

عرض واقعة أحد واستشهاد حمزة، والتمثيل به من قبل هند وكانت هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان أول من مثل بأصحاب النبي ﷺ الذين استشهدوا في المعركة، فأمرت النساء بالمثل، ويجدع الأنوف والأذان، فلم تبق امرأة إلا عليها معضدان، ومسكتان، وخدمتان^(٦).

ووقفت هند ومعها النسوة على جثمان حمزة بعد الانتهاء من المعركة فشقت بطنه، وأخرجت كبده، فلاكتها في فمها، فما استطاعت أن تسيغها، فلفظتها وصلمت أذنيه،

→ وفي بعضها «المعطب».

وأخيراً فالمراد من الغطة في البيت الأخير: الخصلة الرفيعة، والضرب: القهقهة.

(١) العزى بالضم أعظم احتنام قريش بمكة.

(٢) عامة المصادر الآتفة الذكر: من تاريخ الطبري، وكامل ابن الأثير، وبداية ابن كثير ونهاية التويري، وسيرة ابن هشام، وغيرها ضمن عرض واقعة أحد.

(٣) المراد بزج الرمح بالضم فالتشديد: حديثه التي تكون في أسفله.

(٤) علقى، بضم ففتح: مهالقة في العاق، والمراد: ذق جزاء فعلك يا عاق؟

(٥) المصادر الآتفة الذكر، وغيرها: من كتب السير ضمن الحديث عن واقعة أحد، ونهاية التويري: ج ١٧ ص ٩٩ و ١٠٢، وسيرة ابن هشام قسم ٢ ص ٩٣ - ٩٤، ط ثانية.

(٦) شرح التهجيج للحدادي: ج ١٤ ص ٢١٧، ط جديد.

وهذه الكلمات الثلاث: تأنيث: معطد بكسر فسكون وهو الدمليج من الحلي الذي يلبس في المعصم، ومسك بالتحريك وهو السوار المتخذ من القرون والعاج، وخدمة بالتحريك أيضاً وهو الخلخال في الرجل.

وجدعت أنفه، كما قطعت يديه، ورجليه، ومثلت به أقطع تمثيل.
 واتخذت من عامة تلك الأعضاء: خرساناً، وأسورة ومعاضد وخلاخيل لبستها،
 وجعلت تجول بين العسكر: حقدًا وشماتةً بمحمد ﷺ وأهل بيته، وثأراً لأبيها عتبة،
 وأخيها الوليد، وعمّها شيبه.
 ثم أعطت «وحشياً» لقاء قتله حمزة قاتل أبيها يوم بدر أموالاً كثيرة، وحلياً كان
 عليها: من قلائد وقرط وخواتيم، ثم انفلتت من المعركة، وصعدت على
 صخرة عالية مشرفة على النبي ﷺ وأصحابه، وأخذت تخاطبهم وتقول:
 نسحن جزيفناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات شمر
 إلى آخر أبياتها الأربعة^(١).

● اصرار أبي سفيان على مواصلة الكرة لأخذ الثانية

ثم إن رسول الله ﷺ رجع على أثر الانتهاء من غزوة أحد بأيام إلى المدينة، فبقي
 أياماً فيها، ثم أذن مؤذنه في الناس بالخروج في طلب أبي سفيان وأصحابه المشركين،
 تصلباً أمامهم، لئلا يشمتوا به فخرج بأصحابه، حتى انتهى إلى مكان يدعى «حمراء
 الأسد» على ثمانية أميال من المدينة.

وما أن علم أبو سفيان وأصحابه بخروج النبي وأصحابه من المدينة، حتى خرج
 بجمع كثير من مكة، مجمعين رأيهم على الرجوع إلى حرب النبي في «أحد» أيضاً.
 حتى إذا وصلوا إلى مكان يدعى بالروحاء على مقربة من المدينة، التقى أبو سفيان
 وأصحابه بمعبد بن أبي معبد الخزاعي وكان قد شهد أحداً مع النبي ﷺ فسأله أبو سفيان
 عتاً وراءه؟ فأخبره معبد قائلاً: إن محمداً قد خرج بأصحابه يطلبونكم في جمع كثير لم
 أر مثله قط وهم متحفزون إليكم، متحرقون عليكم.

فقال له أبو سفيان: ويلك، ما تقول؟ وهانحن قد أجمعنا الكرة على محمد وأصحابه،
 لنستأصل البقية منهم، وقد أصبنا جلهم وقادتهم وأشرافهم في «أحد»، فنهاه «معبد» عن

(١) نهاية الإرب للتوحيدي، ج ١٧ ص ١٠١، ط دار الكتب بالقاهرة، والسيرة النبوية لابن هشام: قسم ٢ ص ٩١، ط ثانية في

مقصده، وخوفه مغبة المصير.

وبينما أبو سفيان بهذا ونحوه من المفاجأة والتحير إذ مرّ به ركب من «عبد القيس» قاصدين المدينة فقال لهم أبو سفيان: بلغوا محمداً عني رسالة، وقولاً له إذا بقيتموه إنا قد أجمعنا المسير إليه، وإلى أصحابه، لنستأصل بقيتهم الباقية من «أحد»، ثم قفل راجعاً بأصحابه إلى مكة.

ومرّ الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فبلغوه رسالة أبي سفيان، فقال ﷺ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْفَوْكِلُ﴾، ثم رجع بأصحابه إلى المدينة، وكان ذلك في أخريات السنة الثالثة للهجرة^(١).

ولكن إخفاق أبي سفيان في مؤامراته المسلحة لو أد الإسلام والمسلمين بقتل محمد في «أحد» وكذلك في حمراء الأسد لم يثنه عن مواصلة الكفاح المرير لإثارة وقائع أخرى، ضدّ النبي ﷺ وإسلامه، فكان يتحين كل فرصة بعد ذلك للإجهاز على محمد وعلى الدين الحنيف^(٢).

قال أرباب التاريخ: ولما رجع النبي ﷺ من غزوة: «ذات الرقاع» موضع على ثلاثة أيام من المدينة في أوائل جمادى الأولى من السنة الرابعة للهجرة إلى المدينة أقام بها بقية جمادى الأولى وشهري جمادى الآخرة ورجب، ثم خرج في شعبان^(٣) إلى بدر «الثانية» لميعاد أبي سفيان الذي نادى به رسول الله ﷺ غب الانتهاء من وقعة أحد، فأجابه النبي ﷺ إلى ذلك كما ذكرنا آنفاً.

فلما وصل إلى ذلك المكان، نزل فيه، وأقام ثمان ليال ينتظر موعد أبي سفيان. وكان قد خرج معه من المسلمين (١٥٠٠) رجل، ومعهم البضائع والتجارات لهم. وخرج أبو سفيان من مكة ومعه من قریش ألفا رجل حتى انتهوا إلى «ممر الظهران»

(١) راجع عامة كتب السير. كتاريخ الطبري، وكامل ابن الأثير، وبداية ابن كثير. ونهاية النوري وغيرها ضمن الحديث عن تالي وقعة أحد.

(٢) هكذا في عامة كتب السير، ولكن في (نهاية النوري، ج ١٧ ص ١٥٤): إنها كانت في هلال ذي القعدة. قال بعد ذلك بصحفة: «.. وكانت بدر الصغرى مجتمعاً، مجتمع فيه العرب، وسوقاً تقوم لهلال ذي القعدة إلى ثمان تخلو منه، ثم يتفرق الناس إلى بلادهم...».

أو «عسفان» كما قيل.

وما أن علم أبو سفيان وأصحابه بخروج النبي وأصحابه، ونزولهم في «بدر» حتى داخله خوف الفشل، فبدأ له في الرجوع، وأخذ يبرر موقفه المهزوز لأصحابه، فيقول لهم: «ارجعوا فإنه لا يصلح العرب، إلا عام خصب غيداق، نزعى فيه الشجر، ونشرب اللبن وعامكم هذا عام جذب ...».

ثم رجع بأصحابه إلى مكة، فجعلوا يشربون السويق^(١) في الطريق، فأخذ أهل مكة، يعيرونهم بعد رجوعهم ويسمون جيش أبي سفيان هذا: «جيش السويق». وأخذ صفوان بن أمية الجمحي وبعض زعماء قريش يلومون أبا سفيان على تراجعهم بذلك النحو الفاضل^(٢).

وانصرف رسول الله ﷺ من مكانه إلى المدينة، ولم يلق كيداً.
ولعبد الله بن رواحة^(٣) أبيات في هذا الشأن، منها قوله:

وعدنا أبا سفيان بدرأ فلم نجد	لميعاده صدقاً وما كان واليها
فالقسم لولا قبينا لسلقيننا	لأبت نسيماً والمثلثات المواليا
تركنا به أوصل عتبة وابنه	وعمرأ أبا جهل تركناه ثاوي ^(٤)

● عرض قصة واقعة الخندق ودور أبي سفيان فيها

وكذلك كان أبو سفيان في دور جاهليته أيضاً قائد المشركين، ومجمع الأحزاب على

(١) السويق بالفتح: الخمر المتخذ من العنب على الغالب.

(٢) عامة كتب السير ضمن حوادث أخريات السنة الرابعة للهجرة وقد تحدثنا بإيجاز عن صفوان هذا وشدة مواقفته للنبي ﷺ ودنه في ثأياها وشمس الفصل السابع من الجزء الأول من الكتاب ص ٢١٣.

(٣) عبد الله بن رواحة الخزرجي الأنصاري: أحد القواد الثلاثة الذين استشهدوا في غزوة مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة وقد تحدثنا عنه، وعن زميله، جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة في أخريات الفصل السادس من الجزء الأول من كتابنا ضمن الحديث عن أبي طالب وولده جعفر وكيفية تهادته.

(٤) نهاية الأرب للنوري: ج ١٧ ص ١٢٣، ط دار الكتب المصرية، والبداهة والنهاية لابن كثير: ج ٤ ص ٨٨، ط بيروت أؤيست، وسيرة ابن هشام: قسم ٢ ص ٢١٠، ط ثانية، وفي بعض هذه المصادر: أن الأبيات الستة رويت لأبي زيد كعب بن مالك الغفاري.

رسول الله ﷺ وإسلامه والمسلمين يوم الخندق في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة على الأصح^(١).

وموجز عرض القصة باقتضاب من عامة كتب المؤرخين: أن جماعة من زعماء اليهود من بني النضير^(٢) وبني وائل كما قيل^(٣)، أرادوا الواقعة بمحمد ﷺ والتخلص من دينه بعد ما اتسع أمره في المدينة فقدموا على قريش بمكة، ودعوهم إلى ما يريدون الإقدام عليه، وقالوا لهم فيما قالوا: «إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله». وانشرحت صدور قريش لهذه البادرة من اليهود، فإن محمداً عدو مشترك للجميع، فسرعان ما أجابوهم لما يريدون، واجتمعوا فيما بينهم، وضرىوا موعداً معيناً للتجمع والخروج. ثم خرج أولئك النفر من اليهود من «قريش» بعد أن اطمأنوا باستجابتهم لما دعوههم إليه فجاءوا إلى «بني غطفان»^(٤) وبني سليم^(٥)، وغيرهما من بعض القبائل العربية. فدعوههم إلى نفس ما دعوا «قريشاً» إليه، وأخبروهم بموافقة قريش لهم سلفاً فاستجابت «غطفان» و«سليم» وغيرهم كذلك.

واتفق جميع الأحزاب المتآمرين على محمد ﷺ: من اليهود، والعرب على يوم معين للخروج، وكان في العشر الأوائل من شعبان، ولعله الخامس منه على الأكثر. وتجهزت قريش، وجمعت أحاديثهم ومن تبعهم من العرب وكانوا أربعة آلاف

(١) وفي تاريخ العقوبي: ج ٢ ص ٤١، ط: النجف: «إن وقعة الخندق كانت في السنة السادسة بعد مقدم رسول الله ﷺ بالمدينة بخمسة وخمسين شهراً».

(٢) في المحرر للنسابة البغدادي: ص ٣٨٧ ط بيروت: «النضير بن النعام بن ينحوم بن عوف بن قيس بن قنعاص بن المازر بن الكاهن بن هارون بن عمران...».

وفي تاريخ العقوبي: ج ٢ ص ٤٠ ط: النجف: «بني النضير فخذ من جذام أي: ابن عدي بن حارث بن مرة، إلا أنهم يهودوا ونزلوا جبلاً يقال له: (النضير) فسكنوا به»، ولعل ما في (المحرر) أقرب إلى الحقيقة وأنسب بالمقام، والله العالم.

(٣) يحتمل أن يكون المراد بني وائل بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس بن حارثة، أو بني وائل بن قاسط بن هنب بالكسر فالتسكين بن أفضى بالتصغير بن دهمي بالضم والياء بن جديلة بن أسد، وكلنا القبيلتين مشهورتان.

(٤) غطفان بالتحريك بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار.

(٥) سليم بالتصغير بن منصور بن عكرمة بالكسر بن خصفة بالتحريك بن قيس عيلان.

وعقدوا اللواء في «دار الندوة»، وحمله عثمان بن طلحة بن أبي طلحة التيمي، وقادوا معهم ١٥٠٠ بعير و«٣٠٠ فرس»، وخرجوا من مكة بذلك العدد، وبذلك العدة، بقيادة رأس المشركين، وحرية المنافقين: أبي سفيان بن حرب.

وخرجت بنو «غطفان» وبنو «هزارة»^(١) بجيش كثيف يتجاوز عدده «الألف رجل»، ومعهما ألف بعير بقيادة عينية بالتصغير بن حصن بالكسر بن حذيفة بن بدر.

وخرجت بنو سليم، فوافتهم بـ «مَرَّ الطهران» واد قرب مكة، بنحو ٧٠ رجل بقيادة سفيان بن عبد شمس السلمي حليف حرب بن أمية وهو أبو أيي الأعور السلمي سفيان بن عمرو الذي كان على مقدمة جيش معاوية يوم صفين.

وخرجت بنو أسد^(٢) بجمع غفير، بعد المئات من الرجال بقيادة طليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة الأسدي.

ترجمة سلمان الفارسي وكيفية اسلامه، وزهده، ومراسلاته مع عمر وخرجت بنو «مُرَّة»^(٣) وهم «٤٠٠ رجل» بقيادة الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري.

وخرجت بنو «أشجع»^(٤) وهم «٤٠٠ رجل» بقيادة مسعر بالكسر بن رحيلة بن نويرة بالتصغير بن طريف.

وخرج غير هؤلاء من فلول العرب وشذاذ المشركين. فكان جميع من وافى الخندق من تلك الجيوش والأحزاب: عشرة آلاف أو يزيدون.

وكانوا ثلاثة فصائل وعساكر، ومرجع أمر الجميع إلى أبي سفيان بن حرب، فكان هو القائد الأعظم لجيش الأحزاب.

(١) هزارة بالفتح بن ذبيان بالضم بن بهس على فعل بن ريث بالتسكين بن غطفان بالتحريك إلى آخر نسب غطفان الآنف الذكر.

(٢) أسد بن خزيمه بالتصغير بن مدركة بن الياس بن مضر... أو أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مُرَّة، والظاهر أن المراد الأول.

(٣) مُرَّة بالضم فالتشديد بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بهس بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان المضرى.

(٤) أشجع على أفعل بن ريث بن غطفان بن سعد.. إلى آخر نسب «مُرَّة».

فلما بلغ رسول الله ﷺ خروج الأحزاب من مكة، وتجمعهم على حربه، ندب المسلمين، وأخبرهم بذلك، وشاورهم في الأمر، فأشار عليه سلمان الفارسي^(١) بحفر

(١) أبو عبد الله: سلمان الفارسي المحمدي، الصحابي العظيم، بل من مقامي الصحابة، ومفطليهم، وعلمائهم، وزهادهم، ومن حواري رسول الله ﷺ وأحد الأركان الأربعة في الإسلام، أصله من «فارس» من «إسهرمز»، ويقال: بل كان من «أصفهان» من قرية، يقال له: «جى» أو حيان بالفتح التشديد.

واختلوا في اسمه حينئذ في بلاده، وكذلك في اسم أبيه، والأشهر: إنه (روزبه) بضم الأول وكسر الباء بن يهود أو يهودان بن بدخشان أو بودخشان بن مؤسلا بن فرودز بن مهرز بالفتح من أبناء «منوچهر» أحد ملوك الفرس القدماء وكان يُلقب سلمان المحمدي، أما هو إذا سئل عن اسمه ونسبه، فكان يقول: أنا سلمان بن الإسلام، من بني آدم. عاش عمراً طويلاً في المجوسية دين أبيه وذويه ولكنه ما كان يسجد لمطلع الشمس كما كانوا يفعلون بل كان سجوده لله سبحانه بإيمانه من نفسه.

وكان إسلامه بعد الهجرة بعام ونيف من الشهور، أما في كنية إسلامه، فقد ذكروا ذلك روايات مختلفة، ولعل أشهرها، وأجمعها لمعظم ما روي عنه ما اقتضناه فيما يلي.

قالوا: كان سلمان (ابن دهقان) تلك القرية التي أشرنا إليها من فارس، وكان أحب خلق الله إلى أبيه، حتى كان أبوه من فرط حبه له يحسه في بيته كما تحس الجارية، وكانت لأبيه ضيعة خارج القرية التي يسكنها، فأمره أبوه يوماً أن يخرج إليها لقضاء بعض ما يريد، وأمره بسرعة العودة إلى البيت، فخرج سلمان إلى جهة الضيعة، فمر في طريقه بكنيسة من كنائس النصارى، فدخل الكنيسة، فرأى النصارى يصلون، ويرتلون، ويؤدون طقوسهم، فرغب فيما رأى وما سمع، وأخذ يقول في نفسه: (دين هؤلاء خير من الدين الذي نحن عليه) وظل في الكنيسة حتى غربت الشمس، وأخذ يسأل في أثنائه ذلك من النصارى: عن أصل هذا الدين، ومطلقه، والممثل له، فقل له: إنه في الشام.

فرجع إلى أبيه بعد غروب الشمس دون أن ينتجز له ما أراد من ضيعته، فسأله أبوه عن السبب في طول غيبته عن البيت؟ فقص سلمان على أبيه القصة.

فانتهره أبوه، وقال له: يا بني، دينك ودين آبائك خير من هذا الدين، فقال له سلمان: كلا والله إنه لخير من ديننا، فخافه أبوه على أمره، فعمد إليه فقتله ثم حبسه في البيت.

ثم إنه انتهز غرة أبيه، ففك قيده، ثم خرج من البيت، فإذا هو بركب من النصارى، يُريدون الشام فخرج معهم من دون زاد ولا رسالة حتى إذا دخل الشام، سأل أهلها عن أفضل ممثل لهذا الدين؟ فقل له: «الأسقف في الكنيسة».

فدخل عليه، وأخذ يتعلم منه، ويصلي معه، يقول عنه سلمان: «ما رأيت رجلاً أزهده في الدنيا، ولا أرحب منه في الآخرة». حتى إذا حضرته الوفاة قال له سلمان: «يا فلان، قد حضرك من أمر الله ما ترى، فماداً تأمرني وإلى من توصيني؟»، فقال له الأسقف: «والله يا بني قد هلك الناس، وتركوا دينهم، إلا رجلاً بالموصل، فالحق به؟ فإنك ستجده على مثل حالي».

فلما مات الأسقف، وجهزته النصارى، لحق سلمان بالموصل، فسأل عن ذلك الرجل؟

→ قُتل عليه: أنه الأسقف في كنيسة الموصل، فدخل عليه، ووجده كصاحبه الاسقف الأول في الزهادة والمهابة، فأقام عنده، يخدمه ويتعلم منه، فما لبث أن حضرته الوفاة، فقال له سلمان: أن فلاناً في العام قد أوصاني أن أكون بخدملك، وأعلم منك. وقد حضرتك الوفاة، فإلى من توصيني بعدك؟ قال: «والله، ما أعلم رجلاً بقي على الطريقة المستقيمة إلا رجلاً به «نصيبين» يفتح فكرك: بلاد عامرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وبعد أن مات الرجل، وجهزه ذووه، التحق سلمان ببلاد «نصيبين». فأقام عند ذلك الرجل على مثل ما أقام عند من قبله من الخدمة، والتعلم، ثم حضرت ذلك الأسقف الوفاة، فقال له سلمان: إلى من توصيني بعدك؟ فقال الرجل: أي بني، نذهب على رجل به «عمورية» يفتح ففهميد: بلاد عامرة من بلاد الروم، سميت باسم ابنة ملك الروم حينئذ.

قال سلمان: فأتيته ذلك الرجل، وأقمته عنده في كنيسه، فوجدته على مثل حال من قبله، واكتسبته، حتى كانت لي بتمرات وغنيمات. فلما حضره الموت، سأله سلمان: إلى من يوصي به؟ فقال: «أي بني، قد ترك الناس دينهم، والله، ما أعلم أحداً بقي على ما كنا عليه لأمر أن تأتيه؟ ولكن قد أطل زمان لبني ميعوت يدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب من الحرم، مهاجرة بين حرتين والحرّة بالتشديد، أرض ذات حجارة سود إلى أرض سيخة، ذات نخيل، وإن فيه علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كضيه خاتم النبوة، فأن أسقطته أن تخلص إلى تلك البلاد، فاقبل».

وبقي سلمان يحاول الوصول إلى المدينة، فيبينا هو كذلك إذ مر بمعمورة ركب من «تجار كلب» فطلب منهم أن يحملوه معهم إلى المدينة، فبينما هو كذلك إذ مر بمعمورة ركب من «تجار كلب» فطلب منهم أن يحملوه معهم إلى المدينة، ويظهر غنمه وقراته، فحملوه، حتى إذا بلغوا «وادي القرى» قريباً من المدينة، باعوه على أنه عبد من يهودي هناك من بني قريظة فيني عنده يحمل في نخله وزرعه مدةً فقدم عليه ابن صم له، فأبتاعه منه، فخرج به. هو الآخر، حتى قدم المدينة، فبقي سلمان في رقبه ذلك الرجل مدة من الزمن، حتى بعث الله محمد صلى الله عليه وآله بمكة، وكانت هجرة من طريق قباء وبقي فيها أياماً، فإذا برجل قريظي يقبل على صاحب سلمان، ويقول له: يا فلان، قاتل الله بني «قبيلة» قد اجتمعوا على رجل قباء، قدم عليهم من مكة، يزعمون أنه نبي.

فأخذ سلمان يستوضح الخبر من سيده، ففهمه ولطمه، فكف عن سؤاله، حتى إذا أمسى وكان عنده شيء من التمر حصيلة عمله عند سيده أقبل به، ودخل على رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال له: «بلغني أنك رجل صالح، وأن لك أصحاباً ذوي حاجة، وعندني شيء من الصدقة، فأرأيتك أحق به من غيركم» وقدمه إليه، فأخذه النبي صلى الله عليه وآله وقال لأصحابه: كلوا، وأمسك هو فلم يأكل منه. قال سلمان: «فقلت في نفسي: هذه علامة واحدة مما وصف لي صاحبي».

فلما كان من الغد، حمل سلمان ما تبقى عنده من التمر، وأتى به النبي صلى الله عليه وآله وقال له: إني رأيتك بالأمس ما أكلت من الصدقة، وهذه هدية، فأخذه النبي من عنده، وقال لأصحابه: كلوا وأكل هو معهم.

قال سلمان: «فقلت في نفسي: هذه علامة واحدة مما وصف لي صاحبي».

فلما كان من الغد، حمل سلمان ما تبقى عنده من التمر، وأتى به النبي صلى الله عليه وآله وقال له: إني رأيتك بالأمس ما أكلت من الصدقة.

→ وهذه هدية. فأخذها النبي من عنده، وقال لأصحابه: كلوا وألك هو معهم.

قال سلمان: «فقلت في نفسي: هاتان أتانان مما وصل لي صاحبي».

ثم إن سلمان أتى النبي ﷺ في اليوم التالي وهو يبيع الفرقد مقبرة أهل المدينة قد تبع جنازة رجل من أصحابه فرأه جالساً، مشتملاً بشملتين، فسلم عليه، ثم استدار خلف ظهره، يتأمل في ظهره، فأدرك النبي ﷺ ما يريد سلمان، فألقى رداءه عن ظهره، فنظر سلمان إلى الخاتم في ظهره، فأكتب عليه يقبله، ويكفي، ويقول في نفسه: وهذه العاقبة، فسأله النبي ﷺ عن قصته، فأخبره سلمان بواقع أمره، فأعجب النبي ﷺ وأصحابه بذلك.

ثم إن سلمان أسلم على يدي النبي ﷺ، فقال النبي: يا سلمان، كاتب صاحبك، فقال: فكاتبته على ٣٠٠ نخلة أغرسها له، وأربعين أوقية من الذهب، والمكانية بليجاز: معاملة بين العبد وسيدّه، على أن يؤدي العبد لسيدّه عوضاً معيناً ضمن أجل معين، فينتحق العبد عند تأدية العوض، وانتهاء الأجل، والتفصيل في كتب الفقه.

فالتفت النبي ﷺ للأصهار من أصحابه، وقال: أعينوا أخاكم؟ فأعانوه بالتخيل حتى جسموا له «٣٠٠ ودية» وهي من صفار الفسيل من التخيل، فأخبروا سلمان، فوجهها رسول الله بنفسه وبإعانة من أصحابه في الأرض، فصحت كلها، ثم جسي رسول الله ﷺ بمثل بيضة دجاجة من ذهب من خثائم بعض مغازيه فطلب (سلمان) فتأوله البيضة، وقال له: «خذها، وأد ما عليك من الذهب، فإن الله سيؤدي بها عنك».

قال سلمان: فأخذتها، فوزنت له منها أربعين أوقية، وأعتقت. باقتضاب من الدرجات الرفيعة للمدني: ص ٢٠٠-١٩٩ ط النجف، وسر أعلام النبلاء للذهبي: ج ١ ص ٣٦٢-٣٦٧ ورويت فيهما وفي غيرهما من بعض المصادر قصة إسلام سلمان بصورة أخرى. قد تلتقي مع ما ذكرناه من بعض الأطراف قالوا: ثم إن سلمان بعد ما أسلم على يد النبي ﷺ حسن إسلامه، وقوي إيمانه وصحب النبي ﷺ، وروى عنه، وحضر معه «الختنق» وعامة غزواته، ومشاهده بعدها، حتى وفاة النبي ﷺ، فكان أول أركان الإسلام الأربعة: هو، وأبو ذر، وعصار، والمقداد كما ذكر ذلك عامة من كتب عنه، من أرباب السر والمعاجم. وقد رويت في فضل سلمان أحاديث وروايات كثيرة عن النبي ﷺ وأهل بيته المصومين عليهم السلام، منها قوله عليه السلام: «سلمان منا أهل البيت»، وقوله عليه السلام: «الجنة تشقى إلى ثلاثة: علي وعصار وسلمان»، وقوله عليه السلام: «إن الله يحب من أصحابي أربعة، وأمرني أن أحبهم: علي وأبو ذر وسلمان والمقداد»، وقوله عليه السلام: «إن الجنة لأشوق إلى سلمان من سلمان إلى الجنة» سر أعلام النبلاء للذهبي: ج ١ ص ٣٩٣، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي: ج ١ ضمن ترجمته بعرف السين. والإستيعاب لأبي عمرو ضمن ترجمته بعرف السين، ورجال الكشي: ص ١٦، والدرجات الرفيعة للمدني: ص ٢٠٧.

ومنها قول علي أمير المؤمنين برواية أبي البخري وقد سئل عنه، فقال: «علم العلم الأول، والعلم الآخر، ذاك بحر لا ينزف، هو منا أهل البيت».

فمن الفضل بن يسار قال: «قال لي أبو جعفر عليه السلام: ترى ما يروي الناس، أن علياً قال في سلمان: أدرك علم الأول، وعلم الآخر؟

→ قلت: نعم، قال: فهل تدري ما حتى؟ قلت: يعني: علم بني إسرائيل، وعلم النبي ﷺ، فقال عليه السلام: ليس هكذا يعني، ولكن: علم النبي، وعلم علي، وأمر النبي وأمر علي، وقوله عليه السلام: برواية زاذان: «سلمان الفارسي مثل لسان الحكيم»، وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام عن علي عليه السلام: إنه قال: «ضاعت الأرض بسبعة، بهم ترضون، وبهم تتصرون، وبهم تمطرون، منهم: سلمان الفارسي، والمقداد، وأبو ذر، وعمار، وحذيفة، وأنا إمامهم، وهم الذين صلوا علي فاطمة عليها السلام».

ومنها ما رواه أبو بكر الحضرمي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: من قوله: «ارتد الناس إلا ثلاثة نفر: سلمان وأبو ذر والمقداد» يعني بعد وفاة النبي ﷺ، وما رواه الحسين بن صهيب عنه عليه السلام: قال: «ذكر عنده سلمان الفارسي، فقال: مه؟ أي أكف لا تقولوا سلمان الفارسي، ولكن قولوا: سلمان المحمدي، ذلك رجل منا أهل البيت، حنان بن سدير عن أبيه عنه عليه السلام قال، «جلس عدة من أصحاب رسول الله ﷺ ينتسبون وفهم سلمان الفارسي وأن عمر سأله عن نسبه وأصله؟ فقال: أنا سلمان بن عبد الله، كنت ضالاً فهداني الله بمحمد ﷺ، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمد ﷺ، وكنت مملوكاً فأعطني الله بمحمد ﷺ، فهذا حسبي ونسي. ثم خرج رسول الله ﷺ فحدثه سلمان، وشكى إليه ما لقي من القوم، وما قال لهم، فقال النبي ﷺ: يا معشر قريش، إن حسب الرجل دينه، ومروته خلقه، وأصله عقله، قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) إِنَّ أَقْرَبَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات: ١٣)، يا سلمان، ليس لأحد من هؤلاء عليك فضل إلا بقوى الله، وإن كان التقوى لك عليهم، فأنت أفضل منهم».

رجال الكشي: ص ١٦، ١٨، ١٩، والدرجات الرفيعة للمدني: ص ٩-١٠ ومنها ما رواه أبو بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: أنه قال: «كان الله علي محدثاً، وكان سلمان محدثاً، قلت: اشرح؟ قال: يبعث الله إليه ملكاً يخبر في أذنه كيت وكيت». وما رواه الحسن بن منصور قال: «قلت للصادق عليه السلام: أكان سلمان محدثاً؟ قال: نعم، قلت: من يحدثه؟ قال: ملك كريم، قلت: فإذا كان سلمان كذا، فصاحبه أي هو؟ يقصد: علي بن أبي طالب عليه السلام قال: أقبل علي شأنك؟ وعن أبي بصير عنه عليه السلام: «سلمان علم الأسم الأعظم». رجال الكشي: ص ٢١، ٢٣، والدرجات الرفيعة: ص ٢١، ٢١١.

ومنها ما رواه الكشي عن محمد بن قولويه بسنده عن أسباط بن سالم قال: «قال أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين حواريجي محمد بن عبد الله، رسول الله، الذين لم ينفصوا الهد ومضوا عليه؟ فيقوم سلمان، والمقداد، وأبو ذر .. إلى آخر الحديث» رجال الكشي: ص ١٥ ط النجف.

وكان سلمان جامعاً للعلوم والمغيبات، يأخذها كما يأخذ أمير المؤمنين عليه السلام من إمام الملك، ومن لسان النبي ﷺ، وكان عنده كما عند علي عليه السلام الأسم الأعظم، فقد روي عن أبي هريرة: أنه قال: «سلمان صاحب الكتابين: الإنجيل والقرآن»، وروي عن عائشة: أنها قالت: «كان لسلمان مجلس من رسول الله ﷺ ينفر به بالليل حتى كاد يهلبنا على رسول الله ﷺ» الاستصحاب بترجمته وقد هاجر كما ذكرنا من بلاده لأجل طلب العلم والحقيقة، فأخذ ينتقل من بلاد إلى أخرى، ومن أسقف إلى آخر في سبيل التعرف على الحقيقة، حتى دخل المدينة وأصل بالنبي ﷺ فأخذ العلم والحقيقة من لسانه، وأسلم على يده، فكان من طلائع أصحابه بل من أفضلهم باستثناء علي عليه السلام في العلم والمعرفة والإيمان، فقد روي عن

→ الفضل بن شاذان قوله «ما نشأ في الإسلام رجل من الناس أفقه من سلمان الفارسي» رجال الكشي: ص ٢١.
كما كان بأعلى درجة من الإيمان والتقوى، متميزاً عن جميع أصحاب النبي ﷺ، فقد أثر عنه: أنه كان يقوم الليل، ويصوم النهار، ويقرأ القرآن، ويلهج بذكر الله تعالى وكذلك كان متميزاً عن جميع أصحاب النبي ﷺ بالزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة.

فمن مظاهر ذلك: ما رواه ابن شهر آشوب عنه: «إنه وهو أمير على المدائن يحطب في عباءة، يفتش نصفها، ويلبس نصفها، ووقع حريق في المدائن وسلمان أميرها فلم يكن في يده إلا مصحف وسيف، فرفع المصحف في يده، وحمل السيف في عنقه، وخرج قائلاً: هكذا ينجو المخفون» الدرجات الرفيعة ص ٢١٥ وروي عن جرير بن عبد الله: أنه قال: «انتهت مرة إلى ظل شجرة وتحتها رجل نائم قد استظل بنطع له، وقد جاوزت الشمس النطع، فسوته عليه ثم أم الرجل استيقظ، فإذا هو سلمان الفارسي، فذكرت له ما صنعت، فقال: يا جرير، تواضع لله في الدنيا؟ فإنه من تواضع لله في الدنيا، رفعه الله يوم القيامة، أتدري: ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلت: لا، قال: فإنه ظلم الناس بعضهم بعضاً في الدنيا» الدرجات: ص ٢١٧.

وروي: إن أبا الدرداء كتب إلى سلمان من الشام: أقدم يا أخي إلى بيت المقدس، فملكك ثمرت فيه، فكتب إليه سلمان: «أما بعد، فإن الأرض لا تقسّد أحداً، وإنما يقسّد كلّ أحد، وإنما يقسّد كلّ إنسان عمله، والسلام» الدرجات ص ٢١٩ وقال الحسن ولعله البصري عنه: «كان عطاء سلمان خمسة آلاف، وكان أميراً على زهاء ثلاثين ألفاً من المسلمين، وكان إذا خرج عطاءه تصقّى به؛ وبأكل من عمل يده، وكان له عباءة، يفتش بعضها، ويلبس بعضها».

وذكر ابن وهب وابن نافع عن مالك، قال: «كان سلمان يعمل الخوص بيده فيعيش منه، ولا يقبل من أحد شيئاً، قال: ولم يكن له بيت، وإنما كان يستظل بالجدر والشجر، وإن رجلاً قال له: ألا أبني لك بيتاً تسكن فيه؟ فقال: ما لي به حاجة، فما زال به الرجل حتى قال له: إني أعرف البيت الذي يوافئك، قال سلمان: فصفه لي؟ قال: أبني لك بيتاً، إذا أنت قمت فيه أصاب رأسك سقفه، وإن أنت مددت فيه رجليلك أصابهما الجدار، قال سلمان: نعم، فبنى له بيتاً كذلك» الإستيعاب، ضمن ترجمته بعرف السن.

وكما كان سلمان في الطليعة من صحابة الرسول ﷺ في إسلامه، فكذلك كان في الطليعة من حوارى أمير المؤمنين عليه السلام في إيمانه، فهو أحد الاتي عشر من المهاجرين والأنصار الذين كانت لهم العوائف الصارمة، والاحتجاجات الحاسمة في الإنكار على أبي بكر حين توليه الخلافة وهو يعلم أن علياً أولى بها منه فكانت له خطبة واحتجاج بهذا الخصوص.
قالوا: وجاء سلمان إلى المسجد في اليوم الثالث من استخلاف أبي بكر بعد أن استأذن أمير المؤمنين عليه السلام فوقف أمام الناس حيث يسمع أبو بكر وأخذ يقول: «أهاها الناس، يسمعون عني حديثي واعتقلوه، ثم اتقلوه؟ وأني أوتيت علماً كثيراً، فلو حدثتكم بكل ما أعلم لقاتل طائفة منكم، إنه لمجنون، وقالت أخرى: اللهم اغفر لقاتل سلمان، ألا إن لكم منايأ تنبها هلايا، وإن عند علي علم المنايا والبلايا، وعلم الوصايا، وفصل الخطاب، وأصل الأسباب على منهاج هارون بن عمران من موسى عليه السلام، إذ قال له رسول الله ﷺ: أنت وصيي في أهل بيتي، وخليفتي في أمتي، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى،

→ ولكنكم أصبتم سنة بني إسرائيل، وأخطأتم الحق، فأنتم تطعون ولا تعلمون.

أما والله لتركبن طبقاً عن طبق أي حالاً بعد حال، ومنزلة بعد منزلة والقدّة بالقدّة أي متساوين على نسق واحد.
أما والله لو وليتموها أي الخلافة علماً لكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم، ولو دعوتهم الطير في جوار السماء لأجابعكم، ولو دعوتهم الحيتان من البحار لأتكنكم، ولما حال افتقر وليّ الله ولا طائش سهم من فرائض الله أي: مال عن قصده ولا اختلف اثنان في حكم الله، ولكن أبيتم، فوليتموها غيره، فأبشروا بالبلاء؟ واقتطوا من الرخاء؟ وقد نابذتكم هاجر تركم على سواء، فانقطعت المعصمة فيما بيني وبينكم من الولاة.

أما والله لو أني أذفَع طيماً، أو أعزّه ديناً لو ضمت سنيي على عاتقي، ثم لضرّبت به قدماً قدماً، أيها الناس، عليكم بآل محمد ﷺ؟ فيُهم القادة إلى الجنة، والدعاة إليها يوم القيامة.

عليكم بأمر المؤمنين علي بن أبي طالب؟ هو الله، لقد سلّنا عليه بالولاية وليرة المؤمنين.

مراراً جمّة مع نبيّنا، كل ذلك يأمرنا به، ويؤكد علينا، فما بال القوم؟ عرفوا فضله، فصدوه وقد حصد هابل قابيل قبله، فقتله.

وكفاراً قد ارتكبت أمة موسى بن عمران، فأمر هذه الأمة كأمر بني إسرائيل، فإين يذهب بكم؟

أيها الناس، ويحكم؟ مالنا، وأبو فلان، وفلان؟ أجهلتم؟ أم تجاهلتم؟ أم حسدتم، أم تحاسدتم؟ والله لئلا تردن كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيف، يشهد الشاهد على الناجي بالهلكة، ويشهد الشاهد على الكافر بالنجاة.

ألا، وإني أظهرت أمري، وسلّمت لنبيي، وانبعث مولاي ومولي كل مؤمن ومؤمنة علماً أمير المؤمنين ﷺ وسيد الوصيين،

وقائد الفر المحجلين وإمام الصديقين، والشهداء والصالحين «احتجاج الطبرسي ج ١ ص ١٥١-١٥٢، ط النجف، والدرجات

الرفيعة للسيد عليخان المدني ص ٢١٨، ط النجف.

ثم إن القوم بعد ذلك لبثوه أي أخذوا بمجامع ثوبه من حيث نحره وصدرة حتى غشّوه ووجئوا عنقه؛ ضربوه عليها حتى عركوها

كالسلمة بكسر ففتححتين الورك والقدّة الكبيرة فمزّ عليه أمير المؤمنين ﷺ وهم يفعلون به ذلك ويجبرونه على البيعة لأبي

بكر فقال له: يا أبا عبد الله، هذا من ذاك أي: تمزيك من العهد المعهود بيننا وبين رسول الله ﷺ فبإيع؟ عند ذلك بايع

سلمان، وهو يربطن بالفارسية، ويقول: «كرديد ونكرديد حق علي زارديد» أي فعلتم وما فعلتم وحق علي أخذتم من

الدرجات الرفيعة ص: ٢١٣.

وظل سلمان بعد ذلك كسيد أمير المؤمنين ﷺ وحواريه الاتني عشر ناقماً على سبب الخلافة كما كان ناقماً على مركزها

الأول إلى أن رست السفينة على ميناء صمر بن الخطّاب، فكان خليفة المسلمين بوصية من صاحبه الذي كانت بيعة هو

الآخر فلتة على حدّ تمييز عمر، فأول عمل قام به هذا الرجل الثاني: هو إبعاد وتفريق حواري علي بن أبي طالب ﷺ عن

مركز الخلافة الإسلامية المدينة أو تثبتت شخصياتهم الاجتماعية في عُقر واقعها، فأجبر عمار بن ياسر وعبد الله بن

مسعود على قبول ولاية وبيت مال الكوفة، ثم سرعان ما هزلهما عن ذلك، كما أجبر حذيفة بن اليمان على قبول ولاية

«المذائن» في العراق، ثم هزله عنها، وأجبر سلمان الفارسي على قبول الولاية عليها، فامتنع سلمان في البداية ثم قبلها

→ بأمر علي بن أبي طالب عليه السلام فجاء إلى المدائن، وألبأ من قبل عمر على الظاهر ومن قبل علي عليه السلام في الواقع كما ذكر ذلك السيد بحر العلوم في رجاله ج ٣ ص ٢٦ ط التجف. وقد بلغ عمر سلوك سلمان المتشكف في ولايته، فكتب إليه كتاباً يؤنبه فيه، ويحيره بخشونة ملبسه وجشونة مأكله، وسفه الخوص وتعيشه من ذلك، وتغريق عطائه بين المومنين، ونحو ذلك مما احتواه كتاب الخليفة إلى واليه الناقم عليه، فأجابها سلمان بكتاب هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من سلمان مولى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى عمر بن الخطاب.

أما بعد، فإنه أتاني منك كتاب يا عمر تؤني، وتعزني، وتذكر فيه: أنك بمحتني أميراً على أهل المدائن، وأمرتني أن أقص أثر حذيفة، وأستقصي أيام أعماله وسره، ثم أعلمك قبورها، وقد نهاني الله عن ذلك يا عمر في حكم كتابه حيث قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن، إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه، واتقوا إن الله تواب رحيم». (الحجرات / ١٢) وما كنت لأعصي الله في أثر حذيفة وأطيعه. وأما ما ذكرت أنني أقبلت على سف الخوص أي نسجه وأكل الشعر، لما هما مما يُعير به مؤمن، ويؤنب عليه، وأيم الله يا عمر لأكل الشعر وسف الخوص والاستغناء به عن رفيع الطعام والمشرب، وعن غصب مؤمن حقه وإدعاء ما ليس له بحق، أفضل وأحب إلى الله عز وجل وأقرب للتعزى، ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أصاب الشعر أكل وفرح به، ولم يسطفه. وأما ما ذكرت: من إعطائي، فإني قدمت له يوم فاطمي وحاجتي، ورب العزة يا عمر ما أبالي إذا جاز طعامي لهواني، وانساخ في حلقي لباب البر ومخ المعزة كان أو خشارة الشعر والخشارة ما لالب له من الشعر.

وأما قولك: إني خضعت لسلطان الله ووعته، وأذلت نفسي وامتهنتها حتى جهل أهل المدائن إبّارتي، واتخذوني جسراً يمشون فوقي، ويحملون عليّ ثقل حملوتهم، وزعمت أن ذلك مما يهين سلطان الله ويذلّه.

فاعلم، أن التذلل في طاعة الله أحب إليّ من التعزز في معصيته، وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله يتألف الناس، ويتقرب منهم، ويتقربون منه في نبوته وسلطانه، حتى كأنه بعضهم في الدنو منهم، وقد كان يأكل الجشب الفليظ الخشن ويلبس الخشن. وكان الناس عنده قرشهم وعريهم، وأبيضهم، وأسودهم سواء في الدين، وأشهد الله إني سمعته يقول: «من ولي سبعة من المسلمين يهدي، ثم لم يهدل فيهم، لقي الله وهو عليه غضبان». فليقتني يا عمر أسلم من إمارة المدائن؟ مع ما ذكرت أنني أذلت نفسي، وامتهنتها، فكيف يا عمر حال من ولي الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وإني سمعت الله يقول: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، والماقية للظنين﴾ (القصص / ٢٨).

إعلم يا عمر إني لم أترجيه أسوسهم، وأفهم حدود الله فيهم إلا بإرشاد دليل عالم، فنهجت فيهم بنهجه، وسرت فيهم بسيرته يقصد بذلك: علي بن أبي طالب عليه السلام وأعلم أن الله تبارك وتعالى لو أراد بهذه الأئمة خيراً، أو أراد بهم رشداً لولى عليهم أعلمهم وأفضلهم، ولو كانت هذه الأئمة من الله خانتين، ولقول نبي الله متبعين، وبالحق عاملين، ما سئوك أمير المؤمنين فاقض ما أنت باض، إنما تلقني هذه الحياة الدنيا، ولا تغتر بطول هفو الله عنك، وتمديه بذلك: من تعجيل عقوبته، واعلم، إنك ستدركك عواقب ظلمك في دنياك وآخرتك، وسوف تستل هما فذئت وأخرت، والحمد لله وحده، احتجاج الطبرسي: ج ١

«خندق» حول المدينة، فأعجب النبي والمسلمون برأيه، وعملوا عليه. فخرج النبي ﷺ بالمسلمين من المدينة، في أوائل ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة^(١)، وعسكر بهم إلى سفح جبل «سلع»^(٢)، وجعل الجبل خلف ظهره، وكانت عدة المسلمين ثلاثة آلاف^(٣).

واستخلف على المدينة: عبد الله بن أم مكتوم^(٤).
ترجمة سعد بن عباد الخزرجي وعرض مواقفه يوم السقيفة
ثم أمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة حماية لها ولجيش المسلمين من

→ ص ١٨٦ - ١٨٨ ط النجف.

ثم إن سلمان بقي في المدائن، طيلة سني خلافة عمر، وعامة سني خلافة عثمان. وتوفي سنة «٣٣ أو ٣٤ أو ٣٥» وقيل: في أوليات خلافة أمير المؤمنين عليه السلام سنة «٣٦» على الخلاف بين المؤرخين كما يشتر إليه أبو عمرو في الاستيعاب، وابن حجر في الإصابة وغيرهما، ولكن الأصح: إن وفاته كانت سنة «٣٤» كما صححه جذاً سيد الطائفة السيد مهدي بحر العلوم في رجاله: ج ٣ ص ٢١ ط النجف. وعمره يوم وفاته «٢٥٠ أو ٣٥٠ عاماً» على الخلاف، ففي الإصابة «ويقال: إنه أدرك عيسى بن مريم، وقيل: بل أدرك وصي عيسى، قال الذهبي: وجدت الأقوال في سنه كلها دالة على أنه جاوز المائتين وخمسين، والاختلاف إنما هو في الزائدة». وفي سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ١ ص ٤٠٣: «يقول أهل العلم: عاش سلمان ثلثمائة وخمسين سنة، فأما سائتان وخمسون فلا يشكون فيه». وفي تهذيب الأسماء واللغات للثوري: ج ١ باسمه: «وتقولوا اتفاق العلماء على أن سلمان عاش (٢٥٠ سنة). وقيل: (٣٥٠) سنة. وقيل: أدرك وصي عيسى بن مريم.

ولا يزال قبره في المدائن مزاراً مشهوراً يترك به الناس، ويقصدونه من كل صوب وحذب لقضاء الحاجة، واستجابة الدعاء. ترجم له عامة من كتب في التاريخ والتراجم والصحابة كطيفات ابن سعد، وتهذيب ابن عساكر، والإصابة لابن حجر، والاستيعاب، وصفة الصفوة، والذريعة، والدرجات الرفيعة، وحلية الأولياء، ومروج المسعودي، وأعلام الزركلي، ومعارف ابن قتيبة، ورجال السيد بحر العلوم، ومعالم العلماء لابن شهر آشوب، وغيرها كثير. وكتب فيه رسائل خاصة بعضها مطبوع، والبعض منها لا يزال من نفائس المخطوطات.

(١) ويقول الحقوقي في تاريخه: ج ٢ ص ٤١ ط نجف: «إنها كانت في السنة السادسة للهجرة».

(٢) سلع ينتح لسكون: اسم جبل يسوق المدينة، أو يقرّب منها.

(٣) هكذا في عامة المصادر التاريخية؛ وشذ الحقوقي في المصدر الأقف فقال: إن عدة المسلمين كانت سبعمئة رجل.

(٤) عبد الله بن قيس بن زائدة بن الأصم من بني عامر بن لؤي القرشي، وأمّه عاتكة بنت عبد الله المخزومية، أوجزنا الحديث عنه في أخريات الفصل السابع من الجزء الأول من الكتاب.

المشركين، وقسم عمل الحفر بين المسلمين المهاجرين منهم والأَنْصار فجعل لكل عشرة منهم حفر أربعين ذراعاً، وكان هو يعمل مع المسلمين، ينقل التراب على ظهره تشجيعاً لهم في العمل، وترغيباً لهم في الآخرة، فاشتدوا وجدوا فيه، حتى أنجزوه بأقل من الزمن المتعارف لأمثاله ستة أيام.

ثم عبأ أصحابه، فكان لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة، ولواء الأَنْصار بيد سعد بن عباد^(١)، ولواء النبي الأعظم بيد أمير المؤمنين عليه السلام.

(١) الصحابي الجليل أبو ثابت سعد بن عباد بالضم بن دليم بالتصغير بن حارثة بن حرام بن خزيمه بن ثعلبة الخزرجي الأَنْصاري، وأمه: الصحابية الجليلة عمرة بن مسعود، المتوفية بالمدينة أوائل السنة الخامسة للهجرة.

كان من المتقدمين في إسلامه، ومن أصحاب بيعة العقبة من السبعين من الأَنْصار. وأحد الثقاة الاثني عشر، ومن أشرف أهل المدينة، ومن أمرائهم في الجاهلية والإسلام، وكان يلقب في الجاهلية بالكمال، لبراعته في الخطابة والكتابة والرمي والسباحة، وكان قبيب بني ساعدة من الخزرج، وصاحب راية الأَنْصار في المشاهد كلها في الجاهلية والإسلام. أسلم في طلبه المسلمين من الأَنْصار، ولم يحضر مع النبي ﷺ «بدر» لأنه كان ملسوعاً، ولكنه حضر (أحدًا) والخندق ومشاهد النبي وغزواته كلها.

وكان هو وآبأؤه وأبناءؤه مشهورين بالشجاعة والكرم بين العرب، حتى قالوا: لم يكن في الأوس والخزرج بيت فيه أربعة مطعمون متوالدون متتالون إلا قيس بن سعد بن عباد بن دليم، وله ولآبأؤه وأبنائه في الجود والكرم قصص مأثورة في صفحات التاريخ، وكانت لسعد بالخصوص جفنة تدور مع النبي ﷺ حيثما دار في بيوت أزواجه كل يوم. وروي: أن أهل الصفة وهم الفقراء في مسجد النبي ﷺ إذا أمسوا انطلق الرجل بواحد منهم، والرجل باثنين، والرجل بالجماعة، فأما سعد فكان ينطلق بثمانين من أهل الصفة، وكان مناديه ينادي على أطمه بضمهتين وهو الحصن وأعلى البيت: من كان يريد لحماً وضمناً فلهاث سعداً؟

ولقد رويت في بيته بهذا الخصوص أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: «الكرم شيمة هذا البيت»، وقوله ﷺ: «اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عباد».

وكانت راية رسول الله ﷺ يوم فتح مكة بيد سعد، فلما مر بها على أبي سفيان وكان هو الآخر قد أظهر إسلامه حيثنذ فأخذ سعد يهر الزاية في وجهه، ويقول: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشاً». وأقبل النبي ﷺ في موكب من الأَنْصار، حتى إذا حاذى أبا سفيان، ناداه من بعيد: «يا رسول الله، أمرت يقتل قومك؟ فقد زعم سعد ومن معه حين مر بنا أنه قاتلنا، ومستحل لحرمنا، ولئي أنشدك الله في قومك».

فقال رسول الله: «يا أبا سفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم تصان الحرمة، اليوم أعز الله قريشاً»، ثم نادى رسول الله ﷺ: «يا علي، أدرك سعداً، فخذ الزاية منه قبل أن يدخل مكة وأدخل أنت بها رويداً، رويداً، فأخذ علي الزاية من سعد، ودخل بها كما

→ أمره رسول الله ﷺ وجاء حتى ركزها في البيت بين الركن والمقام، فأخذ الناس رجالاً ونساءً يبأيون للنبي ﷺ قبل مجيئه.

قال المؤرخون: وتخلف سعد بن بكرة، وشكل حزناً مستقلاً وتيمه عامة الأوس والخزرج من الأنصار في البداية حتى بنوا سقيفتهم واجتمعوا فيها ليأبوا سعداً على الإجارة.

فخطب سعد وهو إذ ذاك مريض لا يسمع صوته إلا القريب منه، فكان ابنه قيس ينقل للحميد ما يقول فقال فيما قال: «يا معشر الأنصار، إن لكم سابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام، ليست لأحد من العرب، ولئن محمداً لبث في قومه بضع عشرة سنة، يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلع الأصنام والأوثان، فما آمن به إلا القليل، ما كانوا يقدرون على منعه، ولا على إهزاز دينه، حتى إذا أراد الله بهم الفضيلة، ساق إليكم الكرامة، ورزقكم الإيمان به ورسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على عدوه، حتى إذا استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً ودانت لرسوله بأسيا فكم، وتوفاه الله، استهدوا بهذا الأمر دون الناس، وإنه لكم دونهم».

فاستجابوا بأجمعهم لمقاتته، وصوتوا رأيه، واختاروه من بينهم أن يتولى الأمر، والولاية.

ويلغ أباً بكر وعمر هذا الحدث المفاجئ، من قبل صوم الأنصار وهم القتل الكبير للإسلام فجاءا مسرعين ومعهما أبو عبيدة الجراح حتى توسطوا ذلك الحشد من الناس، فقدم أبو بكر للكلام، وقال فيما قال، «لئن الله قد بعث فينا رسولاً إلى خلقه، وشهدنا على أمته، ليمهده ويوحده، لخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه، والإيمان به، والصواب له، والصبر معه على شدة أذى قومه له، وتكذيبهم إياه، فلم يستوحشوا للثلة حدهم وشلف الناس لهم، فهم أول من عهد الله في هذه الأرض، وآمن بالله وبالرسول ﷺ. وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر يعني الخلافة من بعده، لا ينازعهم إلا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين، ولا سابقتهم في الإسلام، رضيكم الله أنصاراً لدينه ولرسوله إلى قوله: فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلةكم، فنحن أمراء، وأنتم الوزراء، لا تفاوتون بعشوة، ولا تفضي دونكم الأمور».

ثم انبرى من بين الأنصار الحباب بن المنذر بن الجموح، فأخذ يشد ويقوي هزيمة الأنصار على التمسك برأيهم، وتضامن في آخر كلامه، فقال: «لئن أبيت مع مهاجرين علينا، فمننا أمير ومنكم أمير».

فقال عمر: «هيهات، لا يجمع سيفان في غمد، والله إن العرب لا ترضى أن تؤرمكم، ونبيها من غيركم»... إلى آخر كلامه. فاشتد الحباب في الخطاب، وقال فيما قال: «يا معشر الأنصار، املكوا على أيديكم، ولا تسعروا مقالة هذا وأصحابه فتعبوا بنصيحتكم من الأمر..» ثم أخذ يردد ويكرر ويهدد في كلام طويل.

وتقدم من الأنصار بشر بن سعد أبو التعمان بن بشر وكان من سادات الخزرج ومن الحاسدين سحداً على زعامته فجعل يقول: «يا معشر الأنصار، إنا والله وإن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في الدين، فما أردنا بذلك ألا رضى ربنا، وطاعة نبيها، فما ينهي أن نستطيع على الناس بذلك، ولا ننتهي به من الدنيا هزواً، إلا أن محمداً ﷺ من قريش، وقومه

قالوا: وأقبلت قريش بعددها وعدتها حتى نزلت بمجتمع الأسيال من «رومة»^(١) في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تابعهم: من كنانة وأهل تهامة.

→ أولى به إلى قوله: فاتقوا الله ولا تخالفوه.

فبينما الفريقان بهذا ونحوه من الجدل، إذ تقدم عمر وأبو عبيدة الجراح وقالا لأبي بكر: «ابسط يدك لنايمك»، فلما ذهب لينايمانه، سبقهما بشر بن سعد، فبايعه، فناداه الحباب من بعيد عقتك عقاق، أنفت على ابن عمك الإمارة؟ فقال بشر: لا والله ولكني كرهت أن أنازع القوم حقهم.

ولما رأت الأوس مبادرة بشر وهو رأس الخزرج إلى بيعة أبي بكر، تصدع شملهم بل شمل عموم الأنصار فأخذوا يتبارون لمبايعة أبي بكر، فتقدمت الأوس بزعامه أسيد بن حضير وكان حاسداً لسمد على الإمارة فبايعوا، وأخذ عامة الأنصار يبايعون أبا بكر، حتى كادوا يطشون على سعد وهو جالس على بساط مترمل يشمله من شدة المرض فأخذ بعض أصحابه ينادي الناس: ويحك، لا تقتلوا سمداً فقال عمر: اقتلوه «قتله الله».

فانكسرت عند ذلك شوكة سعد، وأخفقت صفقته من الإمارة، فحمله أصحابه من الخزرج وهو مريض إلى داره. وروي: إن سعداً وبعض الأنصار معه لما فاتهم ما طلبوه من الإمارة، وصرفت أيديهم من الخلافة، وبويع أبو بكر من قبل عامة الناس، أخذوا يتادون: والله، لا نبايع إلا حلياً ذكر ذلك الطبري، وابن الأثير وبعض المؤرخين ضمن حوادث يوم السقيفة وربما اعتذر بعض المغالين بولاية سعد لأمر المؤمنين عليه السلام عن موقفه هذا بأنه أراد التقيض على الأمر، وامتلاك الساحة ليتسنى له عليه السلام بعد ذلك ما يريد، ولكن ذلك إنما هو من باب التعليل بعد الورود.

وعلى كل حال، فقد بقي سعد في بيعة أبي بكر، حتى أرسل إليه القوم أن يخرج لبيعة أبي بكر. فأبى عليهم، وامتنع امتناعاً شديداً، فتركوه، فبقي في المدينة مدة خلافة أبي بكر لا يُصلي بصلاتهم، ولا يجتمع معهم في جمعة ولا جماعة، وشطراً من خلافة عمر، ولم يبايعه أيضاً، ولم يجتمع معه ثم هاجر من المدينة إلى الشام، وفيها ضواحيها مدة، حتى مات في ضواحي دمشق في قرية تسمى «حوران» على الأصح وذلك سنة «١٤ أو ١٥» هـ.

وقيل: إنه وجد ميتاً في مفتله وموضع تطهره وقد أخضر جسده، وفي بعض المصادر كعارف ابن قتيبة: إنه نهشته حية فمات، وفي بعض المصادر: إن الجن قتله، حيث خرج ليلاً فبال قائماً، فرؤي ميتاً، ولم يشعر بموته، حتى سمعوا قائلاً يقول، ولا يرون له شخصاً!

قد قلنا سيّد الخزرج سعد بن عبيدة ورميائه بسهمين، فلم نخطب لؤاده

ويقال: إن أمير الشام من قبل عمر يومئذ أكرم له من رماه ليلاً وهو خارج إلى الصحراء بسهمين، فقتله، لخروجه عن طاعة الإمام، عن الدرجات الرفيعة للمدني: ص ٣٣٤ ط نجف.

كتبت عنه عامة كتب التاريخ والأنساب ضمن حوادث السقيفة وعامة المعاجم الرجالية باسمه ضمن حرف السين.

أمثال: أعلام الزركلي، وتهذيب ابن عساكر، وجمهرة الأنساب، والإحابة، والاستيعاب، وصفة الصفوة، وطبقات ابن سعد، والبدع والتاريخ، وشرح الحميدي للنهج، والسقيفة للمظفر وغيرها.

(١) رومة بالضم: أرض بالمدينة بين الجرف وهو موضع ثلاثة أميال عن المدينة نحو الشام وزغابة بالكسر وفيها بئر رومة.

وأقبلت على أثرهم بنو غطفان، وبنو شليم، ومن تابعهم من أهل نجد، حتى نزلوا إلى جانب «أحد».

وبعد أن اجتمع المشركون من هنا وهناك بقيادة أبي سفيان، كتب هو الآخر إلى رسول الله ﷺ كتاباً، جاء فيه:

«باسمك اللهم، أحلف باللات، والعزى، وإساف، ونائلة، وهبل^(١) لقد سررت إليك، أريد أستصلحكم، فأراك قد اعتصمت بالخذق، فكرهت لقائي، ولك مني كيوم أحد».

ترجمة الصحابي أبي بن كعب الأنصاري
وبعث الكتاب مع أبي سلمة الجشمي، فقرأه على النبي ﷺ أبي بن كعب الأنصاري^(٢).

(١) اللات بالتشديد والتاء الطويلة: اسم صنم كان في الجاهلية لتقيف بالطائف أو لقريش بنخلة موضع بين مكة والمدينة والعزى بالضم فالتشديد قاله التائيت: اسم صنم كان لقريش وبني كنانة. وقيل: اسم شجرة كانت لبني غطفان، يعبدها في الجاهلية وأساف بالكسر والفتح ونائلة: اسمان لرجل وامرأة من جرهم، فجر أحدهما بالآخر في الكعبة، فمسخهما الله حجبرين، اتخذتهما عرب الجاهلية صنمين، وتصوبهما على بئر زمزم في البيت الحرام، فكانوا يعبدهما، وينحرون عندهما القرابين. وأما هبل بضم هاء مفتوح فهو من أعظم أصنام العرب عامة وقريش خاصة وكان أول من نصبه في جوف الكعبة: خزيمه بن مدركة بن الياس بن مضر الجد الأعلى لقريش وكان يقال له: «هبل خزيمه»، وكانوا يعبدهونه؟ وينحرون عنده القرابين، وكان متخذاً من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد، وقد أدركته قریش كذلك.

(٢) الصحابي العارف القاري: أبي بالتصغير بن كعب بن قيس بن حبيد بن زيد أو يزيد بن معاوية بن عمرو الأنصاري، الخزرجي من بني النجار. وأمه: ضهبيلة بالتصغير بنت الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد أيضاً أنصارية. كان من أهل المدينة، وكان قبل الإسلام حراً من أحيار اليهود، مطلقاً على الكتب القديمة، مجيداً للقراءة والكتابة على فئة العارفين بهما يومئذ، ولما أسلم، جعله النبي ﷺ من كتاب الوحي، ومن يكتب القرآن له حتى جمعه على عهد، وعرضه عليه وحفظ عن النبي ﷺ علماً مباركاً، وحدث عنه أحاديث كثيرة.

شهد العقبة الثانية مع السجين من الأنصار، وهو أول من كتب لرسول الله ﷺ بعد الهجرة، وأعطى النبي ﷺ، حيث شذ بهه وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وشهد بدرأ وأحداً، وعامة غزوات النبي ﷺ وحروبه، وشهد مع عمر: وقعة الجابية، وكان عمر فيها يحيل إليه أسئلة علوم القرآن، فيجيب عنها، سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٢٨٣، وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس. وقد رويت في فضله وقراءته للقرآن، ونقته فيه أحاديث نبوية، منها قوله ﷺ له برواية أنس: «لئن الله أمرني أن اقرأ القرآن ..»، وقوله ﷺ: «اقرأ أمي أبي بن كعب»، وقوله ﷺ: «لعلك العلم أبا المنذر».

سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ١، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي ج ١ يؤسسه.

ومن وصاياه في القرآن وقد سئل الوصاية فيه: «اتخذ كتاب الله إماماً. وأرض به قاضياً وحكماً؟ فإنه الذي استخلف فيكم رسولكم، شفع مطاع، وشاهد لا يثبهم، فيه ذكركم وذكر من قبلكم، وحكم ما بينكم، وغيركم وخبر ما بعدكم» سير أعلام النبلاء: ج ١، بإسناده

روى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، تنوف على المائة، وروى عنه بعض الصحابة وكثير من التابعين كما هو مفصل في عامة المعاجم الرجالية وكتب الحديث.

وكان «أبي» من المعروفين بولائهم لأمر المؤمنين ﷺ، فقد تخلف مع من تخلف من خلص أصحاب علي ﷺ عن البيعة لأبي بكر يوم السقيفة وكان بعد ذلك من الاتني عشر الذين احتجوا على أبي بكر قصصه للخلافة بغير حق، فاستأذن أمير المؤمنين ﷺ في أن يأتي مع أصحابه الأحد عشر ويقول كلمة الحق أمام جمهور المسلمين، فأذن له علي ﷺ فجاء إلى المسجد وكان أبو بكر على منبر رسول الله ﷺ يخطب في الناس خطبة الجمعة، فقام (أبي) على قدميه، وقاطع أبا بكر، والتفت إلى الحاضرين فقال:

«يا مشر المهاجرين، الذين اتبعوا مرضاة الله، وأتوا عليهم في القرآن، ويا مشر الأنصار، الذين تبعوا الدار والدين، وأتوا الله عليهم في القرآن، تأسيتهم أم نسيتهم، أم بدلتهم أم غيرتم أم خذلتهم أم عجزتم؟ ألسنتم تعلمون: إن رسول الله ﷺ قام فينا مقاماً أقام فيه علياً، فقال: «من كنت مولاه فهذا مولاه (يعني علياً) ومن كنت نبياً، فهذا أسير».

ألسنتم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال لملي: «يا علي، أنت مني بمنزلة هارون من موسى، طاعتك واجبة على من بعدي كطاعتي في حياتي، غير أنه لا نبي بعدي» إلى قوله: ألسنتم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «علي المحصي لسنتي ومعلم أمي والقائم بحجتي وخير من أخلف بعدي، وسيد أهل بيتي، وأحب الناس إلي، طاعته كطاعتي على أمي». ألسنتم تعلمون أنه لم يول على علي أحداً منكم، وولاه في كل غيبته عليكم؟ إلى آخر استشهاده الكثيرة، واستقراراته القنوم في حق أسير المؤمنين ﷺ.

ثم قال بعد ذلك: أفما تبصرون، أفما تفهمون، أفما تسمعون؟ خربت عليكم الشبهات، فكان مثلكم كمثل رجل في سفر، فأصابه عطش شديد، حتى خشي أن يهلك، فلقي رجلاً عادياً في الطريق، فسأله عن الماء؟ فقال له: أمامك عينان أحدهما مالحة، والآخرى عذبة، فإن أصبت المالحة ضللت، وإن أصبت العذبة هديت ورويت، فهذا مثلكم أيها الأتة المهملة كما زعمتم وأيم الله ما أهملتم، لقد نصب لكم علم، يحمل لكم الحلال، ويحرم عليكم الحرام، ولو أطمعنوه ما اختلفتم، ولا تدابرتهم، ولا تعاقبتم، ولا يري بعضكم من بعض، فوالله، إلكم بعده لناقضون عهد رسول الله ﷺ وإلكم على عثره لمختلفون، وإن سئل هنا عن غير ما يعلم أفني برأيه، فقد أهدتم، وتغارستم وزعتم إلى الخلاف رحمة، ههنا: أبي الكتاب ذلك عليكم، يقول الله تعالى: «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم»، ثم أخبرنا باختلافكم فقال سبحانه، «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم» أي: للرحمة، وهم آل محمد ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا علي، أنت وشيعتك على الفطرة، والناس منها بُراء»، فهلا قبلتم من نبيكم؟ كيف وهو خيركم

فكتب إليه النبي ﷺ: «قد أتاني كتابك، وقديماً غزك - يا أحمق بني غالب، وسيفيهم باله الغرور وسيحول الله بينك وبين ما تريد، ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليك يومٌ أكسر فيه: اللات والعزى وأساف ونائلة وهبل يا سفيه بني غالب»^(١).

استمرار في عرض واقعة الخندق وطلب عمرو والمبارزة من المسلمين وقد حوصر المسلمون في تلك المدة عبر خندقهم، وأصابهم الخوف والجوع. ولكن الكثير منهم قابلوا ذلك بصبر وثبات، وتسلب بعض المنافقين منهم إلى أهلهم بغير إذن رسول الله ﷺ.

وبينما الجيوشان يهذأن ونحوه من الحذر والترقب، والمراشقة بالنبل، إذ بخمسة فوارس من شجعان المشركين، يقدمهم عمرو بن عبد ود العامري^(٢)، ومعه: ضرار بن الخطاب الفهري^(٣)، وعكرمة بن أبي جهل^(٤)، وهبيرة بن أبي وهب^(٥)، ونوفل بن عبد الله بن

→ باتت كاستكم عن وصية علي بن أبي طالب، وأمينه ووزيره، وأخيه، وولته، دونكم أجمعين. وأظهركم قلباً، وأقدمكم سلباً، وأعظمكم وعياً من رسول الله ﷺ .. إلى آخر احتجاجه البالغ الذي ذكره بتمامه: الشيخ الطبرسي في كتابه «الاحتجاج» ج ١ ص ١٥٤ - ١٥٧ ط النجف.

وبقي (أبي) في المدينة طيلة أيام أبي بكر وأكثر أيام عمر، ومات في أخريات أيامه سنة ٢٢ هـ على الأكثر أو سنة ٢٠، وقيل: في خلافة عثمان سنة ٣٠ أو أقل بسنة أو سنتين أو أكثر بمثل ذلك والله العالم.

(١) النزاع والتخاصم للمقرئزي: ص ١٨ ط النجف.

(٢) عمرو بن عبد ود بالضم على الأكثر، بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن حمل بكسر فسكون بن عامر بن لؤي القرشي. فارس قريش على الإطلاق، وشجاعها الطرقت غير منازع، أدرك الإسلام ولم يسلم، وشهد بدرًا، في طلبه المشركين. فارتدت وتضمخ بجراحه، فحمل من المعركة جريحاً، فلم يشهد على أثر ذلك أحدًا وحضر الخندق شاعرًا سيفه مدلاً بشجاعته معلماً ببأسه، وكان نديماً لأبي طالب في الجاهلية فكانت منيته على يد علي بن أبي طالب عليه السلام وعمره يومئذ يتناهز التسعين عاماً.

(٣) ضرار بالكسر بن الخطاب، بالتحديد بن مرداس بن كثير بن عمرو القرشي الفهري من سكان العمرة فوق الطائف، كان من بيت شرف ومنعة في الجاهلية، ومن فرسان قريش المعدودين، ومن شعرائها البارزين، قاتل المسلمين مع المشركين في أحد، والخندق أشد قتال ثم أسلم يوم الفتح كما قبل ترجمنا له في الفصل الخامس من الجزء الأول ضمن الحديث عن الزبير بن عبد المطلب الهاشمي.

(٤) عكرمة بالكسر بن أبي جهل عمرو بن هشام المخزومي، من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام، أسلم يوم الفتح وشهد

المغيرة (٦).

فجاءوا حتى وقفوا على شفير «الخنديق» فقالوا متعجبين: «والله إن هذه لمكيدة، ما كانت العرب تكيدها ولا تعرفها»، ثم أخذوا يطوفون بخيولهم وخيلائهم على الخندق، ويصوبون نظرهم فيه اصعاداً وانحداراً حتى تيمموا موضعاً ضيقاً من الخندق كان قد تركه المسلمون فضربوا خيولهم، وأقحموها على العبور، فعبرت وصاروا مع المسلمين على صعيد واحد، ورسول الله جالس ينظر إليهم، وأصحابه قيام على رأسه.

فتقدم عمرو بن عبدود من بينهم وجعل يطلب المبارز من المسلمين عدة مرار، فلم يقم إليه غير علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال لرسول الله ﷺ: أنا أبارزه يا رسول الله؟ فبأمره النبي ﷺ بالجلوس، ويعيد عمرو النداء وطلب المبارز والناس سكوت كأن علي رؤوسهم الطير.

فأخذ عمرو بعد ذلك يسخر من المسلمين، ويقول: أيها الناس، إنكم تزعمون أن قتلاك في الجنة، وقتلانا في النار؟ أفما يحب أحدكم أن يقدم على الجنة؟ أو يقدم عدو له إلى النار؟ فلم يقم إليه أحد غير علي عليه السلام، وهو يقول للنبي ﷺ: أنا له يا رسول الله، فأمره النبي ﷺ بالجلوس، فأخذ عمرو يجول فرسه مقبلاً ومدبراً وجاءت عظماء الأحزاب وفي طليعتهم أبو سفيان فوقفوا من وراء الخندق، ومدّوا أعناقهم متطلعين إلى نتيجة التحدي؟

ولما رأى عمرو عدم الاستجابة من المسلمين، أخذ يقول:

ولقد بحثتُ من النداء بجم معكم هل من مبارز؟
ووقفتُ مذ جبن المشئع موقوف القرن المناجز

→ الوقائع، واستشهد يوم اليرموك سنة ١٣ هـ عن نيف وستين من العمر، ترجمنا له في الفصل السابع من الجزء الأول من الكتاب ضمن الحديث عن حمزة بن عبد المطلب.

(٥) هيرة بالنصير بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ المخزومي (زوج هند) أم هاني بنت أبي طالب الهاشمي. وقد ترجمنا له في الفصل السابع من الجزء الأول ضمن الحديث عن حمزة بن عبد المطلب.

(٦) نوفل بن عبد الله بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قتل يوم الخندق كافراً، وكان له أخ، اسمه: عثمان بن عبد الله... أسر يوم «بدر» مع المشركين، وقيل: قتل بعد ذلك عن جبهة أنساب العرب لابن حزم.

إنني كذلك لم أزل متسرعاً قبل الهزاهز

إن الشجاعة هي الفتي والوجود من خير الفرائز

فقام إليه علي عليه السلام وقال: يا رسول الله، أئذن لي في مبارزته؟ فقال: أدن مني؟ فدنا منه علي عليه السلام فقلده سيفه، وعظمه بعمامته، وقال: امض لشأئك؟ ودعا له رسول الله صلى الله عليه وآله بالظفر المبين. ولما قرب علي عليه السلام من ابن ود، قال مجيباً رجزه:

لا نـعـجـلنـ فـلـد أنـك مـجـيـب صـوتـك غـيـر عـاجـز

دو نـيـة وبـصـيرة يـرجـو بـذاك نـجـاة فـائـز

إنسي لـامـل أن الـسـيم عـلـيـك نـائـحة الجـنائـز

مـن ضـرـبـة فـوـهـاء، يـبـقى نـكـرـها عـند الـهـزاهـز

فتأمله عمرو، وسأله متجاهلاً عن اسمه، ونسبه؟ فانتسب له علي عليه السلام وقال: أنا علي بن أبي طالب.

فقال عمرو: أجل وشعر بخوف في نفسه، وقال: يا علي، لقد كان أبوك نديماً لي، وصديقاً، فارجع؟ فإني لا أحب أن أقتلك.

فقال له علي عليه السلام: لكني أحب أن أقتلك.

وتزايد فزع عمرو من جواب أمير المؤمنين عليه السلام أكثر، وأراد أن يصرفه عن نفسه، فقال له: «يا ابن أخي، إني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك فارجع وراءك خير لك؟»

ولم يكثرث أمير المؤمنين عليه السلام بكلام عمرو، فتقدم نحوه أقرب، وقال له فيما قال: «ها عمرو، إن قریشاً تتحدث عنك إنك تقول: لا يدعوني أحد إلى ثلاث خصال، إلا أجبت، ولو إلى واحدة منها؟»

قال عمرو: أجل. فقال علي عليه السلام فإني أدعوك - أولاً - إلى الله، وإلى الإسلام؟ فقال عمرو: دع عنك هذه، فلا حاجة لي بها.

قال علي عليه السلام: «ثم أدعوك - ثانياً - إلى أن ترجع بمن تبعك من قریش إلى مكة؟»

قال عمرو: «إذاً تتحدث نساء قریش عني؟ أن غلاماً خدعني»، قال علي عليه السلام: «ثم أدعوك - ثالثاً - إلى البراز والنزال، فإنك فارس وأنا راجل؟ فترجل عمرو عن فرسه، وضرب وجهه،

وقال: ما كنت أظن أن أحداً من العرب يرومها فامتنع، ثم أقبل على علي عليه السلام فتجاوزوا ساعة واثارت لهما غيرة، وارتعها عن الناس، فإذا بعلي راكم على صدر عمرو، وهو يجز رأسه، فتعالى التكبير من المسلمين، وانهمز أصحاب عمرو ليعبروا الخندق إلى معسكرهم، فظفرت بهم خيولهم إلا نوفل بن عبد الله، فقد قصرت به فرسه فوق في الخندق، وجاء علي عليه السلام برأس عمرو إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فصادف نوفلاً في الخندق، فنزل إليه، فقتله، واحتز رأسه أيضاً^(١).

وتراجع اليهود والمشركون بمن فيهم أبو سفيان إلى مراكزهم خلف الخندق، وباتوا تلك الليلة بغزع ورعب من المسلمين، حتى إذا كان اليوم الثاني، كثر المشركون على المسلمين، فما كان من المسلمين إلا أن ينازلوهم القتال وصلاً: من الصبح إلى المغرب، واستمرت الملاحم بين الفريقين عدة أيام، حتى قذف الله الرعب في قلوب المشركين فباءوا بالهزيمة والخذلان، وحوصر المسلمون في خندقهم زهاء عشرين يوماً. قالوا: فيينما المشركون محدقون بالمسلمين المحاصرين، إذ أقبل نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي^(٢) من قبل جيش المشركين، فأسلم على يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم سراً خوفاً من قومه، فأمره النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يمشي بين أحزاب المشركين، فيخذلهم عن محاربة المسلمين؟ فامتل الرجل أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وجاء أولاً إلى بني قريظة، وأوقع الفتنة بينهم، وبين قريش، وغطفان، فقال لهم فيما قال: «إن قريشاً وغطفان ليسوا بكم، فقد جاءوا لحرب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من بلدهم، وأموالهم ونسأؤهم فيها، فإن رأوا نهضة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وأما أنتم فابلد بلدكم، فيه أموالكم وأبنائكم ونسأؤكم، ولا تقدرون على

(١) عامة كتب السير ضمن الحديث عن واقعة الخندق، وشرح النهج للحديدي: ج ١٩ ص ٦٢ - ٦٤ دار إحياء الكتب العربية بـبصر.

(٢) نعيم بن مسعود بن عامر بن أنف بن ثعلبة، من بني أشجع، ويكنى: أبا سلمة، الصحابي المشهور، ذو العقل الراجح، والرأي الصائب. قدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم متسللاً من بين جيش المشركين في (اليالي الخندق) فأسلم على يده، وكنم لإسلامه. فأمره النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يوقع الفتنة بين أحزاب المشركين المتجمعة لحرب المسلمين، ففعل ما أمره النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبدع في جولته بين القبائل الثلاثة: قريظة، وقريش، وغطفان، حتى كانت العصيلة تفرق الأحزاب. وتصدع شملهم، ورموهم عن مواصلة قتال المسلمين كما هو مفصل في محله. سكن المدينة. ومات في خلافة عثمان سنة ٣٠ هـ على الأكثر. وقيل: قتل في أول خلافة علي عليه السلام في طليعة وقعة الجمل، قبل قيام العرب.

التحول منه إلى غيره»، فتهاونوا وتناقلوا عن مواصلة القتال.

ثم خرج منهم، حتى أتى قريشاً وفي طليعتهم أبو سفيان فأوقع الفتنة بينهم وبين اليهود، ومما قال لهم في سبيل تخذيلهم عن الحرب: «إن معشر اليهود ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ﷺ، واسترضوه بأن يأخذوا له من قريش وغطفان: رجالاً من أشرافهم، فنضرب أعناقهم ثم يكونوا معه على من بقي منهم».

ثم خرج من قريش إلى غطفان، فقال لهم مثلما قال لقريش، فلم يمرّ على تلك الأحزاب الثلاثة قصيرٌ زمن حتى تخاذلوا كل على أفراد عن مواصلة الحرب، ودبّ الخذلان بين الجميع، وكانت ليلة السبت من شوال لتلك السنة، فإذا بأبي سفيان، ورؤوس غطفان يرسلون إلى بني قريظة وأحلافهم من اليهود: من يقول لهم: بأنا لسانا بدار مقام، فقد هلك الخفّ والحافر^(١) فاغدوا أنتم للقتال، حتى نتاجز محمداً وأصحابه؟ فأرسلوا إلى أبي سفيان، وعامة قريش وغطفان: «إن اليوم السبت، وهو يومٌ لا نعمل فيه شيئاً، ولسنا نقاتل معكم، حتى تعطونا رهناً من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا، فإننا نخشى أن ضرستكم الحرب^(٢)، وأشدت عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم^(٣) وتتركونا والرجل في بلادنا، ولا طاقة لنا بذلك منه».

فلما رجعت رسل بني قريظة بمقالتهم إلى قريش وغطفان، تخاذلوا، وأرسلوا إليهم: أنا لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال، فاخرجوا وحدكم؟ وأرجعت بنو قريظة القول إلى قريش وغطفان على لسان الرسل بعدم القتال دون الرهان.

فعند ذلك وقع الخلاف والخذلان بين الأحزاب، وأخذ أبو سفيان يقول: «ألا أراني أستعين بأخوة القردة والخنازير مشيراً إلى بني قريظة وأحلافهم من اليهود؟ وفي تلك الليلة، بعث الله على قريش والأحزاب ريحاً عاتية شديدة البرد، فكفأت قلوبهم،

(١) يمكن بالخف عن الأهل، وبالحافر عن الغيل.

(٢) أي: أخذت منكم مأخذها، كما يأخذ ذو الأخراس بأخراسه من القضم والغضم.

(٣) تنشمروا: تنقبضوا وتسرعوا.

وقلعت أبنيتهن».

● خطبة أبو سفيان في قومه

فقام أبو سفيان خطيباً في قومه حيث لا يرى أحدٌ أحدًا فقال: «يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، ولقد هلك الكرام، والخلف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح والبرد ما ترون، فارتحلوا، فإني مرتحل».

ثم قام إلى حملة وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث.

ثم قال: «فوالله، ما أطلق عقاله إلا وهو قائم»، ثم رجع بقريش إلى مكة.

وسمعت ورأت غطفان من أبي سفيان ومن قريش ما سمعت ورأت، فانكفوا هم الآخرون راجعين إلى بلادهم.

وأصبح رسول الله ﷺ فانصرف راجعاً بأصحابه إلى المدينة ووضعت الحرب أوزارها عن أربعة أو خمسة قتلى من المسلمين، وثلاثة أو أربعة من المشركين^(١).

● أبو سفيان يحاول قتل النبي ﷺ بعد يوم الخندق

ولم يبرد حقد أبي سفيان بعد واقعة الأحزاب على رسول الله ﷺ، حتى ندب يوماً نفرًا من قريش، كانوا مجتمعين عنده، وقال لهم: «ألا أحدٌ يفتز محمدًا؟^(٢) فإنه يمشي في الأسواق».

فجاء رجلٌ من الأعراب، قال: «يا أبا سفيان، قد وجدت أجمع الرجال قلباً، وأشدهم بطشاً، وأسرعهم شداً - يعني نفسه - فإن أنت قويتني، خرجتُ إلى محمد، حتى أغتاله، ومعي خنجرٌ مثل خافية النسر»^(٣).

(١) عامة كتب السير ضمن الحديث عن حوادث السنة الخامسة للهجرة بعنوان (واقعة الخندق)، ونهاية السوروي: ج ١٧ ص ١٦٦ - ١٧٨ ط دار الكتب المصرية. وفي ص ١٧٨ من النهاية: «وانصرف رسول الله ﷺ لسبع ليالٍ بقتن من ذي القعدة، سنة خمس». وفي تاريخ العقوبي: ج ٢ ص ٤٢ ط النجف بعنوان «الخندق»: «وقتل يوم الخندق من المسلمين ستة، ومن المشركين ثمانية». وراجع في ذلك أيضاً: سيرة ابن هشام: قسم ٢ ص ٢١٤ - ٢٢٢ ط ثانية بمصر، ورسالة النزاع والتخاصم للمقريزي، وغيرها من عامة كتب السير بعنوان الحديث عن واقعة الخندق.

(٢) اغتر فلاناً: أنه على غرة بالكسر وهي الغفلة.

(٣) خافية النسر أو مطلق الطائر: ريشة صغيرة في جناحه، دون الريشات العشر التي في مقدم الجناح. وقيل: الغواشي: هي

قأدرک أبو سفیان منيته، وقال للأعرابي: إذا أنت صاحبنا، فأعطاه بعيراً ونفقة، وقال له: «إطو أمرک وأخف سرک»؟

فخرج الأعرابي ليلاً من مكة، وسار على راحلته خمساً، وصيَّح في السادسة ظهر «الحرة» وهي على شرف المدينة ثم أقبل، فسأل عن رسول الله ﷺ حتى دُلَّ عليه، فعقل راحلته، ثم أقبل إلى رسول الله ﷺ وهو في مسجد بني الأشهل.

فلما رآه النبي ﷺ مقبلاً توسم في وجهه الشر، وقال لمن حوله: «إن هذا ليُريد غدراً». ثم إن الأعرابي ذهب ليُنْفِذَ غدره وقد أخفى الخنجر تحت ثيابه فجذبه أسيد بن حضير^(١) من طرف أزاره، فإذا بالخنجر يبدو فسقط في يد الأعرابي، ثم أخذ يصيح: دمي، دمي، فأخذ أسيد بلبته^(٢) وخنقه أشدَّ الخنق.

وهنا أدركت رسول الله ﷺ عليه الرحمة، فقال له: أصدقني، من أنت، وما خبرك؟، فقال الأعرابي: وأنا آمن؟ قال النبي ﷺ: نعم، فأخذ الأعرابي يقصُّ على النبي ﷺ قصته، وأنه مبعوث من أبي سفیان لا غتيالَه، فخلَّى رسول الله ﷺ سبيله؟ وباءت آخر مكيدة لأبي سفیان بالفشل^(٣).

هذا عرض بسيط عن مواقف أبي سفیان العدائية للنبي ﷺ وإسلامه، ومسيرته الطويلة في دوره الجاهلي قبل عام الفتح، وقد رأينا ماعر ضناه: كيف أصحرت نفسيته الحاقدة على النبي ﷺ وإسلامه، حتى كان في الرعيل الأول من مشركي قريش: عداً وانطواءً ومحاربة للنبي ﷺ وإسلامه بصور فظيعة مصحرة، فبينما كان النبي ﷺ ومعه العلية من أصحابه في السنوات العصيبة الأولى من الدعوة، يفكر باستمرار ويعمل بدأب في كيف تعلق كلمة التوحيد في الجزيرة العربية، كان أبو سفیان ومعه أشراف قريش يفكر باستمرار ويعمل بدأب بخط معارض كلِّ المعارضة للخط الذي عليه النبي ﷺ.

→ الرمشات الأربع اللواتي بعد المناكب.

(١) أسيد بن حضير بتصغير الكلمتين الأوسى الأصمري، ترجمنا له في ثنايا الفصل السابع من الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٢) لبة الرجل بالشدِّ: منحره، وموضع القلادة من صدر المرأة.

(٣) نهاية الأرب للتوحيدي ج ١٧ ص ٢١٤، ط دار الكتب المصرية تلاً عن طبقات ابن سعد.

هكذا قرأنا تاريخ أبي سفيان في دور جاهليته فلنقرأه بعد ذلك في دور إسلامه أي دور إظهار إسلامه على الأصح وسنوات نفاقه المزوق، حيث تَقَمَّصَ الإسلام، والتزم ببعض مظاهره، ليتمكن من إعلانها حرباً شعواءً على محمد وإسلامه من الداخل، بعد أن فشل في حربه لهما من الخارج.

ويبدأ هذا الدور الثقافي المزوق من «يوم الفتح» أي في السنة الثامنة للهجرة ولا ينتهي إلا بانتهاه آخر نفس من حياة هذا الشيخ المضلل المنافق.

فإلى عرض «قصة الفتح» باقتضاب من كتب السير والتأريخ فنقول:

● قصة فتح مكة

قال المؤرخون: وأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد الانتهاء من بعثه لغزوة «مؤتة»: جمادى الثانية، ورجب، وشرطاً من شعبان من السنة الثامنة للهجرة، وأخذ يتجهز لفتح مكة.

وكان قد هادن قريشاً، وصالحهم: عام الحديبية، أخريات السنة السادسة للهجرة: عشر سنين، ودخلت «خزاعة» معه في المهادنة والصلح، كما دخلت بنو بكر بن عبد مناة مع قريش في ذلك.

فاغتنمت بنو الدليل بالكسر وهم من بني بكر فرصة المهادنة المذكورة فبيّنت لخزاعة بالتوتير^(١) بمظاهرة قريش لهم في الخفاء وكان بين القبيلتين خزاعة وبكر ثأر جاهلي قديم، فأصابوا من خزاعة، وقتلوا منهم جماعة حتى حازوهم إلى الحرم. فاعتبرت «خزاعة» مظاهرة قريش للبكرين بالنفس والسلاح نقضاً لما بين النبي ﷺ وبينهم من المهادنة والمصالحة.

وأن الاعتداء عليهم بحكم دخولهم في حلف النبي ﷺ اعتداء على النبي ﷺ، فشخص قوم من خزاعة إلى المدينة، ودخلوا على النبي ﷺ وهو جالس في المسجد مع بعض أصحابه فتقدّم من بينهم عمرو بن سالم الخزاعي الكعبي، وأخذ يستعدي النبي ﷺ على قريش لمساعدتهم بني بكر على خزاعة، ويقول:

(١) التوتير: الإتيان ليلاً على غرة. والتوتير: اسم ماء لخزاعة خارج الحرم، كانوا قد نزّلوا به.

لهم أني ناهد محمداً هلف أبينا وأبيه الأتلياً^(١)
فولداً كنا، وكسنت ولداً ثعت أسلفنا ولم نخرع يدنا^(٢)
إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاك المؤكدا
هم بيتونا بالوتير مُجداً نلتوا القرآن: ركعاً وسجداً
فانصر - رسول الله - نصراً اعتدا وارع عباد الله ياتوا مدداً

إلى آخر أبياته الثمانية أو التسعة فالتفت النبي إلى ممثل «خزاعة».

قائلاً: «قد نصرت يا عمرو بن سالم»، وفي رواية: إن النبي ﷺ قام يجر رداءه، وهو يقول: «لا نصرت، إن لم أنصر خزاعة أو بني كعب مما أنصر منه نفسي»، ثم عرض له عنان من السماء، فقال: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب»، وينو كعب: هم «خزاعة».

ثم قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لأنكم بأبي سفيان قد جاءكم يقول: جدد العهد، وزد في الهدنة، وهو راجع بسخطه».

وتحقق ذلك التنبؤ من رسول الله ﷺ، فقد ندمت قريش مما جرى منها على بني خزاعة، فاختارت أبا سفيان أو هو تبرع لذلك أن يكون هو الرجل الذي يأتي النبي ﷺ فيطلب منه تجديد العقد بينه وبين قريش، وتمديد الهدنة بين الطرفين.

فخف أبو سفيان هو الآخر من مكة، وهو متخوف أن يكون عمرو بن سالم ورهطه من «خزاعة» قد سبقوه إلى محمد ﷺ.

وأقبل، تطوي به راحلته، حتى قدم المدينة، فدخل على النبي ﷺ فقال: «يا محمد، إني كنت غائباً في صلح (الحديبية) فاشدد العهد، وزدنا في العدة؟»

فقال رسول الله ﷺ: «ولذلك قدمت يا أبا سفيان؟»، قال نعم، قال ﷺ: «فهل كان قبلكم حدث؟ فقال: معاذ الله، فقال رسول الله: «فنحن على موثقتنا وصلحتنا يوم الحديبية، لا نغير ولا نبدل».

(١) المناجدة: المطالبة والتذكير، والأثمد كالثلج والثالد: القديم، ويقصد: الحلف القديم الذي كان بين «خزاعة» وعبد المطلب على المناصرة والمعاونة.

(٢) يقصد: أن بني عبد مناف أهم خزاعية، وكذلك أم قصي جد هاشم.

ثم قام أبو سفيان من عنده، وأخذ يتوسل إليه في تحقيق ما يرمي إليه بالمقرئين من عليه أصحابه، وأهل بيته، حتى أتى علياً، فكلّمه في ذلك، فقال علي عليه السلام: «ويحك - يا أبا سفيان إن رسول الله ﷺ قد عزم إلا يفعل، وليس أحد يستطيع أن يكلمه في شيء يكرهه»، قال له أبو سفيان: «فما الرأي عندك، تشير لأمري؟ فإنه قد ضاق علي».

قال علي: «والله، ما أجد لك شيئاً مثل أن تقوم، فتجير بين الناس، فإنك سيد كنانة». فقام أبو سفيان بين ظهرائي الناس، فصاح: «الأيّام قد أجرت بين الناس، ولا أظن محمداً يحقرني».

ثم دخل على النبي ﷺ فقال: «يا محمد، ما أظن أن ترد جوازي؟» فقال النبي ﷺ: «أنت تقول ذلك - يا أبا سفيان؟ وسكت. وانطلق أبو سفيان وقد طالت غيبته عن قريش، فاتهموه بأنه صبا واتبع محمداً سراً، فلما دخل على زوجته هند ليلاً قالت: قد احتبست حتى اتهمك قومك؟

فإن كنت جنتهم بنجح فأنت الرجل؟ فأخبرها أبو سفيان الخبر، وقال: لم أجد إلا ما قال لي علي. فضربت برجلها في صدره، وقالت: قبحت من رسول قوم؟ النبي ﷺ يتهاى لفتح مكة بعدته وعداده فلما أصبح أبو سفيان خلق رأسه عن الصنمين: أساف ونائلة، وذبح لهما، وجعل يمسح بالدم رؤوسهما، ويقول: «لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبي»، وإنما فعل ذلك ليبري نفسه مما اتهمته قريش به^(١).

قالوا: وكان رسول الله ﷺ قبل حادثة خزاعة يحاول غزو مكة عدة مرات، فلم يتسنّ له، فلما جرى ما جرى على خزاعة وهي داخلة في حلفه من مظاهرة قريش لبني بكر عليها، اغتتمها فرصة، وأخذ يتأهب، ويتجهز لما كان يرمي إليه من قبل. وعلى أثر خروج أبي سفيان من المدينة، أخذ النبي ﷺ بالتهيؤ للخروج وأمر أهله أن يجهزوه بالقمح والسويق والدقيق والتمر، وأمر الناس أن يتجهزوا ويتهيأوا للخروج،

ولكنه طوى عنهم الوجه الذي يريد.

فكان الناس بين ظان أنه يريد «سليماً» وظان: أنه يريد «هوازن»، وظان: أنه يريد «تقياً»، وظان أنه يريد الشام، وهكذا اضطرب عليهم الأمر الذي يريد وهو لا يؤشر لهم بطرف.

وأمر أن يجتمع الناس في المدينة، فاجتمع عنده من عامة أنحاء الحجاز من مختلف القبائل العربية، كأسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وخمرة وكعب، وغيرها من عرب الحجاز وأحلافها، العشرة آلاف أو يزيدون، فخرج بهم من المدينة بعد أن استخلف عليها: أيارهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري يوم الأربعاء لعشر مضي من شهر رمضان من تلك السنة الثامنة للهجرة على الأكثر.

فلما وصل النبي ﷺ إلى «مر الظهران»^(١) نزلها عشياً، وأمر أصحابه، فأوقدوا عشرة آلاف نار، فقال العباس بن عبد المطلب لمن حوله: «وإصباح قريش؟ والله، لئن دخل رسول الله ﷺ بهذه الحياة «مكة» غنة قبل أن يأتوه فيستأنوه، إنه لهلك قريش إلى آخر الدهر».

ثم إنه ركب بغلة رسول الله البيضاء، فخرج عليها يطوف في «الأراك»، وهو واد قرب مكة لعله يجد من يخبر قريشاً بمكان رسول الله ﷺ ليأتوه فيستأنوه؟ وإذا به يسمع في غلس الليل صوت أبي سفيان، ومعه: حكيم بن حزام بن خويلد، وبديل بن ورقاء الخزاعي، وكانوا قد خرجوا من مكة يتحسسون خبر النبي ﷺ ولم يكن لهم علم بخروجه بتلك الكيفية من المدينة، وسمع أبو سفيان يقول لصاحبه: «ما رأيت نيراناً قط أكثر من هذه»، فيقول له بديل: «هذه نيران خزاعة جاشها الحرب»، فيرد عليه أبو سفيان بغضب ويقول: «خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها».

وهنا يفاجئهم العباس، وينادي أبو سفيان من بعيد: يا أبا حنظلة^(٢)، قال: من

(١) الظهران بالفتح: واد قرب مكة. وعنده قرية يقال لها «مر» بالفتح تصاف إلى هذا الوادي. فيقال: «مر الظهران»، ومر الظهران

الظهران عيون وتغليل كثيرة لبني أسلم وهذيل، وغاضرة وغيرها من بعض القبائل العربية. اقتضاب من معجم البلدان للحموي.

(٢) كناه العباس باسم ولده المقتول كافراً يوم بدر. ولعله يرمي بذلك إلى تخويله وعهديده بسطوة الإسلام ليسلم، فإنه كان

المنادي؟ أبو الفضل؟ قال: نعم، قال أبو سفيان: فذاك أبي وأمي، ما وراءك؟ قال: ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله في المسلمين، أتاكم في عشرة آلاف وهو مصبحكم. قال: وما تأمرني، وما الحيلة؟ قال له العباس: «تركب معي، فاستأمن لك رسول الله ﷺ». فوالله، لئن ظفر بك ليضربن عنقك»، فرجع أصحابه، وأردفه العباس معه على البغلة. وانطلق يركض به نحو رسول الله ﷺ، فكلما مرّت البغلة على نارٍ من تلك النيران، قالوا: عمّ رسول الله على بغلة رسول الله ﷺ وغضوا النظر عن رديقه. فلما وصل العباس بأبي سفيان إلى النبي ﷺ، طلب منه الأمان له؟ فقال رسول الله وقد نظر إلى أبي سفيان ملياً: «إنّهب به - يا عباس - إلى زحلك؟ فقد أمانه، حتى تغدو عليّ به؟»

فلما أصبح العباس غداً بأبي سفيان إلى النبي ﷺ، فالتفت إليه النبي ﷺ وقال: ويحك «يا أبا سفيان، ألم يأن لك - أي لم يحن - أن تعلم أن لا إله إلا الله؟» قال أبو سفيان: «بأبي أنت وأمي، ما أوصلك، وأكرمك وأحلمك؟ والله لقد ظننتُ أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً».

فقال رسول الله ﷺ: «ويحك - يا أبا سفيان - ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي، ما أوصلك، وأكرمك، وأحلمك!! أما هذه، ففي النفس منها شيء»^(١). فلكره العباس، ودعاه وقال: «ويحك، إشهد شهادة الحق، قبل أن تضرب عنقك؟ فأظهر الشهادتين خوفاً من الموت، وطمعاً في الحياة. فالتفت العباس إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إن أبا سفيان يحب الفخر، فاجعل له شيئاً، يكون في قومه؟

فقال النبي ﷺ: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»^(٢)، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن،

→ صديقه بالرغم من إسلام العباس من يوم بدر، وبقاء أبي سفيان إلى يوم الفتح على يقين ببقائه على واقعه الكافر إلى آخر لحظة من حياته المناقفة.

(١) وبقي أبو سفيان على هذه الحيرة والضلالة والتشكيك في الرسالة. بالرغم من إنطهاره كلمة الشهادة بلسانه وقلبه مطمئن بالبحود إلى آخر نفس من حياته.

(٢) من المناسب هنا أن نذكر ما في (حياة الحيوان للدميري: ج ١ ص ١٣٢ ط الاستقامة بالقاهرة بعنوان «تمة» لما ذكره من

ومن دخل المسجد فهو آمن».

قالوا: فلما ذهب أبو سفيان لينصرف، قال رسول الله ﷺ لعمة العباس: «يا عباس، اذهب، فاحتبس بمضيق الوادي عند خطم الجبل أي: أنفه البارز حتى تمر به جنود الله، فيراها؟ ففعل العباس ما أمره النبي ﷺ، فأخذت القبائل والجيوش الإسلامية تمر على أبي سفيان، وهو ينظر إليها، ويتميز من الغيظ، ثم يسأل العباس عن كل قبيلة تمر عليه، فيجيبه العباس عنها.

فكانت أول قبيلة مرت عليه بنو سليم وهم ألف رجل فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل، من هؤلاء؟ قال العباس: بنو سليم، قال: ما لي ولبنو سليم؟ ثم مرت عليه بنو غفار في ثلثمائة، فقال: يا أبا الفضل، من هؤلاء؟ قال: بنو غفار، قال: ما لي ولبنو غفار؟، ثم مرت عليه بنو أسلم في أربعمائة، فسأل عنهم العباس؟ فقال: هؤلاء أسلم، فقال: ما لي ولأسلم؟، ما كان بيننا وبينهم ترة قط، ثم مرت بنو كعب بن عمرو بن خزاعة في خمسمائة فسأل عنها العباس؟ فقال: بنو كعب بن عمرو؟، قال: نعم، حلفاء محمد. ثم

→ فضائل الحسن والحسين (عليهما السلام) قال: «قال نصر الله أبو يحيى، وكان من الثقة، وأهل السنة: رأيت علي بن أبي طالب (عليه السلام) في المنام، فقلت له: يا أمير المؤمنين، تقتلون مكة فتقولون: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، ثم يتم على ولدك الحسين ماتم؟ فقال لي: أما سمعت أبيات ابن الصفي في هذا؟ فقلت: لا، فقال: اسمعها منه؟ ثم انتهت، فبادرت إلى «حيص يمس» فذكرت له الرؤيا، فتهق ويكي، وحلف بالله، لم تخرج من فمه، ولا خطه إلى أحد، وما نظمها إلا في ليلته، ثم أنتدني فوله:

ملكننا فكان العفو منا سجية	فلما ملككم سأل بالدم أبطح
وحلكنموا قتل الأسارى وطالما	غدونا عن الأسرى نعت ونصطح
وحسبكم هذا للفاوت بيننا	وكل إناء بالذي فيه ينضح

واسم الحيص يمس: سعد بن محمد بن سعيد أبو الفوارس التميمي، شاعر مشهور من أهل بغداد.

ويعرف بابن الصفي، ولقب بالحيص يمس لأنه رأى الناس يوماً في حركة مزعجة وأمر شديد، فقال: ما للناس في حيص يمس؟ فبقي عليه هذا اللقب، نشأ فقهاً، وغلب عليه الأدب والشعر.

وكان يتزها بزبي أمراء البادية، ويتقلد السيف ولا ينطق بغير العربية الفصحى، له ديوان شعر مطبوع.

توفي في بغداد سنة ٥٧٤ هـ عن ٨٢ عاماً، اقتضاب من وفيات الأعيان لابن خلكان، وطبقات الأعياء، والمنظوم لابن الجوزي، ولسان الميزان لابن حجر، ومجمع الأدباء للحموي.

مرت عليه بنو مزينة في ألف، فسأل عنها العباس؟ قال: هؤلاء «مزينة» قال: يا أبا الفضل، مالي ولمزينة؟ قد جاء تني تقعقع من شواهقها، ثم مرت عليه «جهينة» في ثمانمائة، فسأل عنها العباس؟ فقال: جهينة. فقال: مالي ولجهينة؟

ثم مرت عليه أشجع في ثلثمائة فسأل العباس عنها؟ فقال: بنو أشجع.

● مرور جيوش الفتح على أبي سفيان وهو يتميز من الغيظ

فقال أبو سفيان: هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد، قال له العباس: نعم، ولكن الله أدخل الإسلام قلوبهم، وذلك من فضل الله، فسكت أبو سفيان على مضض، ثم مرت به بنو كنانة وبنو ليث وضمرة بن أبي بكر في مائتين، فقال أبو سفيان من هؤلاء؟ قال العباس: بنو بكر، قال أبو سفيان: نعم أهل شؤم، هؤلاء الذين غرانا محمد لأجلهم، أما والله ماشوورت فيهم، ولا علمته، ولقد كنت له كارهاً حيث بلغني، ولكنه أمرٌ حم.

قال العباس: قد خار الله لك في غزو محمد إياكم، ودخلتم في الإسلام كافة، ثم قال أبو سفيان بعد أن مرت عليه عامة القبائل وعرفها: أما مر محمد بعد يا أبا الفضل؟ قال العباس: لا، ولو رأيت الكتيبة التي هو فيها لرأيت الحديد والخيل والرجال، وما ليس لأحد به طاقة، حتى إذا مر عليه رسول الله ﷺ في كتيبة الخضراء^(١) فيها من المهاجرين والأنصار ألفا دارع، لا يرى منهم إلا الحدق من كثرة الحديد والسلاح، فامتلاء أبو سفيان فرعاً ورعباً، وقال: سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار.

فقال أبو سفيان معترفاً بعظمة الإسلام من حيث يدري ولا يدري: «ما لأحد بهؤلاء قبلاً ولا طاقة، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً»، فقال له العباس: «ويحك إنها النبوة لا الملك»، قال: نعم إذاً، وهنا أطلق العباس سراح أبي سفيان، وقال له: إلحق بقومك سريعاً، فحذرهم؟ وجاء أبو سفيان حتى إذا كان دخل مكة أخذ يصرخ بأعلى صوته: «يا معشر قریش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به»، فهرع الناس إليه، وسألوه عما قال محمد؟، قال: «قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، قالوا: ويحك قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟،

(١) الكتيبة: القطعة الكبيرة من الجيش المتميزة عنه، ووصلها بالخضراء لكثرة الحديد فيها، وظهوره عليها.

قال: «قال: ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن». وأقبلت إليه امرأته هند بنت عتبة أم معاوية وأخذت بلحيته وشاربه، والتفتت إلى الناس، وهي تقول: اقتلوا هذا الحميت الدسم الأحمس؟^(١) ثم التفتت إليه، وهي تقول: «تُبعت من طليعة قوم؟» فنهروا أبو سفيان قائلاً: أرسلني لحيتي وشاربي؟ وأقسم لئن لم تسلمي أنت ليضربن عنقك، ثم التفتت إلى الناس المجتمعين حوله، وهو يقول: «لا تفرونكم هذه من أنفسكم؟ فإنه قد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به».

قالوا: ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى ذي طوى مكان قرب مكة، وقف على راحلته معتجراً بشقة برد من حبرة أحمر، وقد طأطأ برأسه تواضعاً لله بما أكرمه من الفتح المبين، ثم فرق جيشه من ذلك المكان وكانت رايته حينئذ بيد سعد بن عباد الخزرجي الأنصاري.

فأمره أن يدخل في بعض الناس من كداء كسماء: جبل بأعلى مكة فأقبل سعد بالراية، وهو يقول: اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمه اليوم أذل الله قريشاً، فسمعه أبو سفيان وبعض رجال قريش، فأقبلوا إلى النبي ﷺ وشكوا إليه ما يقول له سعد من التحدي.

فقال رسول الله ﷺ «اليوم يوم المرحمة، اليوم تصان الحرمه، اليوم أعز الله قريشاً»، ثم أمر علياً عليه السلام أن يأخذ الراية من سعد قبل أن يدخل مكة، ويدخلها هو رويداً رويداً، ففعل علي ما أمره النبي ﷺ حتى جاء بها وركزها بالحجون. ودخل رسول الله ﷺ من «أذاخر» مكان على شرف مكة حتى نزل بأعلى مكة، وضربت له هنالك قبته.

وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه حين أمرهم أن يدخلوا مكة ألا يقتلوا أحداً إلا من قاتلهم، ولكنه عهد في نفر ستمائة من الرجال ثمانية ومن النساء أربعة فأمر

(١) الحميت على فميل الرق الكبير من السنن، والدسم بفتح فكسر: الكثير الورك من اللحم والشحم، والأحمس هنا: الشديد اللحم.

بقتلهم، ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة.

وهم: عبد الله بن هلال بن خطل الدارمي، وعكرمة بن أبي جهل المخزومي، وهبار بن الأسود، والحويرث بن نقيد أو نفيل وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، ومقيس بن صبابه الليثي، وعبد الله بن الزهري السهمي، ووحشي الرومي قاتل حمزة وهند بنت عتبة أم معاوية وسارة مولاة بعض بني هاشم، وقينتان لعبد الله بن خطل المذكور.

وأُسفرت النتيجة بعد ذلك عن قتل البعض من هؤلاء، والعفو عن البعض الآخر، وإسلام الفريق الثالث، وحديثهم مفصل في كتب السير ضمن الحديث عن قصة الفتح.

قالوا: ولما دخل النبي ﷺ مكة وقف على باب الكعبة، وأخذ بالعضادة، وهو يقول: «إلا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة^(١)

أو دم أو مال يدعى، فهو تحت قدمي - هاتين - إلا سدانة البيت وسقاية الحاج إلى أن قال:

«يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾.

ثم قال بعد كلام طويل: «يا معشر قريش، ما ترون إني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم.

قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

فأعتقهم رسول الله ﷺ وقد كان الله أمكنه من رقابهم وكانوا له فيئاً، فبذلك سمي أهل مكة بالطلقاء^(٢). وإلى هنا ننهي الحديث عن قصة الفتح المبين، وهي في كتب السير أطول من ذلك لبلوغ ما نرمي إليه من التعرف على كيفية إسلام أبي سفيان المزوق ومبده

(١) مأثرة - يفتح فسكون فعض - الغصلة التي تتوارث ويحدث عنها الناس.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٣ ص ٤٣ - ٦١ ط دار المعارف بمصر، وكامل ابن الأثير: ج ٢ ص ١٦١ - ١٧٠ ط بيروت، والبداية والنهاية لابن كثير: ج ٤ ص ٢٢٨ - ٣٠٠ ط بيروت أولهست، وتاريخ الحقوقي: ج ٢ ص ٤٧ - ٥٠ ط التجف، ونهاية الإرب للنوري: ج ١٧ ص ٢٨٧ - ٣١٤ ط دار الكتب المصري، وشرح النهج للحديدي: ج ١٧ ص ٢٥٧ إلى آخر الجزء، والسيرة النبوية لابن هشام: قسم ٢ ص ٣٩٠ - ٤٢٧ ط تانية بمصر، ومعجم البلدان للحموي بمادة (إذا خر) وغيرها من كتب السير في الحديث عن فتح مكة ضمن السنة التاسعة للهجرة باختلافها في اختصار العرض وتفصيله.

دوره الإسلامي.

● أبو سفيان ودوره بعد إظهار إسلامه

ولقد لمسنا من خلال ما عرضناه من قصة الفتح كيفية إسلام أبي سفيان حينئذ وتشكيكه الصريح في رسالة النبي محمد ﷺ وتوقفه عن إظهار كلمة الشهادة بها في البداية حتى قالها في النهاية بالضغط من صديقه في الجاهلية العباس عبد المطلب. ثم إنه بعد ذلك الموقف المذكور ظل أبو سفيان مشككاً في رسالة السماء، وحنقاً على الرسول محمد ﷺ وحاسداً عليه مقامه العظيم، فقد روى ابن حجر في (إصابته) بترجمته عن ابن سعد في (طبقاته): إنه «لما رأى أبو سفيان: الناس يطؤون عقب رسول الله ﷺ حسده فقال - في نفسه: لو عاودت الجمع لهذا الرجل؟ فضرب رسول الله ﷺ في صدره - لما علم خبث ما في نفسه، ثم قال له: «إذا يفزيك الله».

والتفت أبو سفيان إلى أن ما أنطوى عليه من سوء ينافي ما كان أظهره من كلمتي الإسلام، فقال، وهو يحاول تبرير التوائه النفسي: «استغفر الله وأتوب إليه، والله ما تفوهت به إلا شيء حدثت به نفسي».

وفي رواية: «وقال: ما أيقنت أنك رسول الله حتى الساعة».

وفي الإصابة^(١) أيضاً برواية عبد الله بن أبي بكر بن حزم: «إنه قال أبو سفيان في نفسه: ما أدري: بم يغلبنا محمد؟ فضرب النبي ﷺ في ظهره وقال: «بالله نغلبك» فقال أبو سفيان: أشهد إنك رسول الله ...».

استمرار في نفاق أبي سفيان بعد إظهار إسلامه

قالوا: ثم كان أبو سفيان يوم بويع أبو بكر يثير الفتن والشغب بين الناس، وينادي: «إني لأرى عجاجة لا يطفئوها إلا دم»، ثم يميل ثانياً بتظاهر ونفاق إلى بني هاشم، ويصيح: «يا آل عبد مناف، فليم أبو بكر من أموركم؟ أين المستضعفان؟

أين الأذلان: علي والعباس؟ ما بال هذا الأمر يعني الخلافة في أقل حي من قريش؟ يعني: نيم بن مرة»، ثم يلتفت - ثالثاً - بلغته المنافقة - ويخص علياً بخطابه، ويقول: «أبا حسن أبسط

(١) الإصابة لابن حجر برقم ٤٠٤٦ بإسم صخر بن حرب.

يدك، أبايعك؟ فوالله لئن شئت لأملأنها عليه - يقصد أبا بكر - خيلاً ورجالاً» فأبى علي عليه، فجعل يتمثل بشعر المتملمس^(١)، ويقول:

ولن يقيم على خسف يراد به إلا الأذلان: عيركي والود^(٢)

هذا على الخسف معكوس برمته وذا يشع فلا يسبكي له أحد^(٣)

فزجره علي عليه السلام وقال مشيراً إلى زئبقية نفسه الخبيثة: «إناك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة؟ وإناك - والله - طالما بغيت للإسلام شراً، لا حاجة لنا في نصيحتك»^(٤).

قالوا: فجعل بعد ذلك أبو سفيان يطوف في أزقة المدينة ويقول:

بني هاشم، لا تطمعوا الناس فيكم ولا سيما تيم بن مرة أبو عدي

فما الأمر إلا فيكم وإليكم وليس لها إلا أبو حسن علي

فقال عمر لأبي بكر: إن هذا الرجل قد قدم أي إلى المدينة وقد كان النبي ﷺ يستألفه على الإسلام، فدع له ما في يده من الصدقة؟ ففعل أبو بكر ذلك، فرضي أبو سفيان، وبأيعه^(٥).

وفي رواية ثابت قال: «لما استخلف أبو بكر، قال أبو سفيان: مالنا ولأبي فصيل؟ إنما هي بنو عبد مناف، قال: فليل له؛ إنه قد ولّى ابنك - أي يزيد - قال: وصلته رحم»^(٦).

(١) هو جرير بن عبد المزى بن عبد المسيح من بني ضبيعة من ربيعة، المعروف بالمتملمس بكسر الميم شاعر جاهلي من أهل البحرين وهو خال طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي المعروف كان ينادي: عمرو بن هند ملك العراق في الجاهلية ثم فارقه وهجا فأراد عمرو قتله فلم منه إلى الشام ولحق بملوك «آل جفنة» هناك ومات بقرية «بصري» من أعمال «حوران» سورية حوالي سنة ٥٠ هـ له ديوان مطبوع اقتضاب من خزانة البغدادي، ومعاهد التنصيص وشمار القلوب، وحماسة التبريزي، وسطم اللثالي، والشعر والشراء للمرزباني، وأعلام الأزركلي، ومعجم المؤلفين لعمد رضا كعالة.

(٢) الخسف بالفتح: الذل والهوان. والعير بالفتح: العمار الوحشي، والود بالفتح: وسكن: مارز في الحائط والأرض من خشب ونحوه.

(٣) معكوس: من العكس. ومن معانيه: شدّ حتى الدابة إلى إحدى يديها. ولرمة بالضم فالتشديد: العبل.

(٤) تاريخ الطبري: ج ٣ ص ٢٠٩ ط دار المعارف بمصر، والكامل لابن الأثير: ج ٢ ص ٢٢٠ ط بيروت، وغيرهما من كتب السير ضمن حوادث السقيفة. (٥) العقد الفريد للأندلسي: ج ٤ ص ٢٥٧ ط ثانية بمصر.

(٦) المصدر الآنف من تاريخ الطبري، وفي مروج المسموعي ج ٢ ص ٣٠٩ ط ثانية بمصر: إن أبا بكر أنشد يزيد بن أبي سفيان إلى الشام وأوصاه وهو مشيع له، فقال ..

ولقد عرف أبو بكر: نفاق أبي سفيان في إظهار كلمتي الإسلام، فلم يقم له أي وزن طيلة أيام خلافته فقد ذكر المدائني عن أبي زكريا العجلاني عن أبي حازم عن أبي هريرة: قال: «حج أبو بكر (رض) ومعه أبو سفيان بن حرب، فكلم أبو بكر أبا سفيان، فرفع صوته، فقال أبو قحافة: أخفض صوتك - يا أبا بكر - عن ابن حرب؟ فقال أبو بكر: يا أبا قحافة، إن الله بنى بالإسلام بيوتاً، كانت غير مبنية، وهدم به بيوتاً كانت في الجاهلية مبنية وبيت أبي سفيان مما هدم»^(١).

ويعلق المقرئ في أوائل رسالته بعد أن يذكر كيفية إسلام الرجل، فيقول: فهذا حديث إسلامه: كما ترى، واختلف في حسن إسلامه، فقيل: إنه شهد «حنيناً» مع رسول الله ﷺ وكانت الأزمات معه^(٢) يستقسم بها، وكان كهفاً للمنافقين.

● استمرار في نفاق أبي سفيان إلى حين وفاته

وفي خبر عبد الله بن الزبير: «إنه رآه يوم اليرموك^(٣) واقفاً عن كتب، فكانت الروم إذا ظهرت، قال أبو سفيان: أي بني الأصفر؟ فإذا كشفهم المسلمون قال أبو سفيان: «وبنو الأصفر الملوك، ملوك الروم لم يبق منهم مذكور»^(٤).

(١) القدير للأميني: ج ٣ ص ٢٥٣ ط ثانية بطهران.

(٢) أزمات: جمع زلم بالتحريك وهو السهم الذي لا ريش عليه وكانت العرب في الجاهلية يستقسمون بالأزمات أي: يطلبون برميها: القسمة والعطف، فحرم ذلك الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ...﴾.

(٣) وقعة اليرموك كانت بين الروم المشركين، والعرب المسلمين في السنة الثالثة عشرة هـ وأواخر خلافة أبي بكر وكان القاص فيها أي الذي يحض الناس على مواصلة القتال أبو سفيان، فكان يقف هو وابنه يزيد على كل كردوس من الجيش، فيشجع العرب على قتال الروم هكذا يقول المؤرخون.

(٤) ذكر هذا البيت من الشعر نسبة إلى عدي بن زيد العبدي: يا قوت الحموي في معجم البلدان في مادة الروم وهو عدي بن زيد بن حماد بن زيد العبدي الحميري، من الثغراء الجاهليين، ودهاتهم، وفصاحتهم وكان يحسن العربية والفارسية، وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى، حينما اتخذته في خاصته، وجعله ترجماناً بينه وبين العرب فسكن المدائن في مقر من قصور كسرى أنوشروان حينما اتخذته في خاصته، وجعله ترجماناً بينه وبين العرب وبعد موت كسرى وتولي ابنه «هرمز» أقرّ هدياً ورفع منزله، ووجهه رسولاً إلى ملك الروم (طليبا يوس) الثاني في القسطنطينية بهدية، فزار بلاد الشام،

فحدث عبد الله بن الزبير بذلك أباه، فلما فتح الله على المسلمين، قال الزبير عن أبي سفيان: «قاتله الله يأبى إلا نفاقاً، أو لسنا خيراً له من بني الأصفر»^(١).

وذكر القمي في كتابه: (الكتي والألقاب بعنوان: أبو سفيان)، قال: «روي عن ابن عباس، قال: والله، ما كان أبو سفيان إلا منافقاً، ولقد كنا في محفل فيه أبو سفيان - وقد كَفَّ بصره وفينا علي عليه السلام، فأذن المؤمن^(٢)، فلما قال: أشهد أن محمداً رسول الله، قال أبو سفيان - وهو يخاطب الحضور: ها هنا من يُحتشم؟ قال واحد من القوم: لا، فقال أبو سفيان: لله در أخي هاشم؟ انظروا كيف وضع اسمه؟

فقال علي عليه السلام: أسخن الله عينيك - يا أبا سفيان؟ الله فعل ذلك بقوله - عز من قائل: ﴿وَوَقَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، فقال أبو سفيان: أسخن الله عين من قال لي: ليس ها هنا من محتشم».

ثم نراه يُصحر في إعلان زندقته وكفره أمام الخليفة الأموي عثمان بن عفان الذي مهد له، ولعموم بني أمية من بعده: كل وسائل التناول على الله، وعلى رسوله، وعلى عموم الناس فقد دخل أبو سفيان يوماً على عثمان حين صارت الخلافة إليه فقال: «يا عثمان قد صارت إليك الخلافة - بعد تيم وعدي - فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية؟ فإنما هو الملك، ولا أدري: ماجنة، ولا نارة»^(٣).

وفي لفظ المسعودي: «إن أبا سفيان دخل دار عثمان - عقيب الوقت الذي يبيع فيه - ومعه

→ وعاد إلى المدائن، يهدي قصر ملك الروم إلى هرمز، ويحكم مكائنه من كسرى وابنه تزوج هنداً بنت النعمان بن المنذر، فحسنت حاله عند النعمان، حتى حسده بعض المتفرجين من النعمان، فوشوا به إلى النعمان بما أوغر صدره، فسجنه وقتله في سجنه في الحيرة، وذلك قبل الهجرة بنحو من (٣٥ عاماً).

وهذا البيت من الشعر من عدة أبيات له ذكرتها المجاميع الأدبية والشعرية اقتضاب من خزائن الأدب للبغدادي، وأغاني أبي الفرج، والعبر لابن خلدون، وجمهرة الأنساب لابن حزم، والشعر والشعراء لابن قتيبة، ومعجم الشعراء للمرزباني، وكامل ابن الأثير، وسمط اللثالي، وأعلام الزركلي، ومعجم الأدهاء للحموي، وغيرها.

(١) النزاع والتخاصم للمقرئ: ص ١٨ ط التجف، ويذكر ذلك ابن حجر في إصابته بالمصدر الأقف كما ذكره أبو عمرو في الاستيعاب بكنيته.

(٢) الظاهر: إن المراد من الأذان هنا: أذان الأعلام، قبل دخول الوقت، إذ من البعيد بقاء مثل علي عليه السلام وابن عباس في ذلك المحفل عند حضور وقت الصلاة وأهه العالم.

(٣) الاستيعاب لأبي عمرو القرطبي ضمن ترجمته بكنيته.

بنو أمية - فقال أبو سفيان - وكان قد عمي - أليكم أحد من غيركم - يخاطب بني أمية - فقالوا: لا، قال: يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة؟ فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلي حبيباتكم ورافة...»^(١).

وأخرج ابن عساكر في (تاريخه: ج ٦ ص ٤٠٧) عن أنس: «إن أبا سفيان دخل على عثمان - بعد ما عمي - فقال: هل هناك أحد؟ فقالوا: لا، فقال: اللهم اجعل الأمر أمر جاهلية، والملك ملك غاصبية، واجعل أوتاد الأرض لبني أمية».

ولقد عرّفه لنا علي أمير المؤمنين عليه السلام وهو أعرف الناس بحقيقة الناس - بالكفر، والشقاق، والنفاق، وعدم الاستقامة وغيرها من الكلمات المعبرة عن شئنة أبي سفيان وبني أمية، فهذا ابن أبي الحديد يذكر في (شرح النهج) عدة مكاتبات جرت بين علي ومعاوية حينما تمرد عليه بالشام كان من بينها: قوله عليه السلام يخاطب معاوية من كتاب له إليه:

«.. فإننا كنا نحن - يقصد نفسه وعموم بني هاشم - وأنتم ويقصد: معاوية وعموم بني أمية على ما ذكرت من الإلفة والجماعة، ففرّق بيننا وبينكم أمس: إنا آمنّا، وكفرتم، واليوم: إنا استقمنا، وفتنتم، وما أسلم مسلمكم إلا كرهاً...».

ويعلق ابن أبي الحديد على الجملة الأخيرة، فيقول: «كأبي سفيان وأولاده: يزيد، ومعاوية، وغيرهم من بني عبد شمس...».

ثم يقول: «وكان أبو سفيان وأهله من بني عبد شمس أشدّ الناس على رسول الله في أول الهجرة إلى أن فتح مكة...»^(٢).

ومن بينها قوله عليه السلام لمعاوية من كتاب له إليه: «.. فلقد سلكت مدارج أسلافك بادعائك الأباطيل، واقتحامك غرور المين، والأكاذيب...».

ويعلق ابن أبي الحديد على هذه الجملة، فيشرحها بقوله: «أي: اتبعت طرائق أبي سفيان

(١) مروج الذهب للمسعودي: ج ٢ ص ٣٥٦ ط ثانية بصر.

(٢) شرح النهج للحيدري: ج ١٧ ص ٢٥٣ ط جديد.

أبيك وعتبة جدك^(١) وأمثالهما: من أهلك ذوي الكفر والشفاق...^(٢).

وحسينا: ما ذكرناه لأبي سفيان: من مظاهر دوره الإسلامي الذي لا يختلف في واقعه عن دوره الجاهلي، إلا من حيث الشكلية والإطار الخارجي، فأبو سفيان كما قرأناه في هذا الدور هو أبو سفيان الذي قرأناه في دوره الأول غير إنه كان قبل الفتح يحارب النبي ﷺ وإسلامه سراً ومن الداخل ولعل حربه الداخلية هذه أوغل أثرأ على الإسلام من حربه الخارجية تلك كما هو واضح لكل متأمل.

● وفاة أبي سفيان

قال أرباب السير في ذلك: لقد فُتت إحدى عينيه: يوم الطائف فبقى أعور، وفُتت الأخرى: يوم اليرموك، فصار أعمى البصر والبصيرة، ومات في خلافة عثمان سنة ٣١ أو ٣٢ أو ٣٣ أو ٣٤ هـ على الخلاف بين المؤرخين والنسابين.

ولعل الأول أشهر كما عليه النويري في نهايته وعمره يومئذ يناهز التسعين عاماً، أو يقف عندها، أو يتجاوزها بأشهر على الخلاف أيضاً ولعل الأول أشهر حيث ولد قبل الهجرة بـ (٥٧) عاماً ومات بعدها بـ (٣١) عاماً، وصلى عليه عثمان وقيل: ولده معاوية، ولعل الأول أشهر، ودفن ببيقاع المدينة. اقتضاب الحديث عن أبي سفيان من أغاني أبي الفرج، والإصابة لابن حجر وفتوح البلدان للبلاذري، ونكت الهميان، والمحبر للنسابة البغدادي، والبدء والتاريخ وغيرها كثير من كتب السير والنسب والمعاجم.

● آل أبي سفيان وأبنائهم على ضلالة

وانعكست نفسية أبي سفيان الجاحدة، والحاقدة بكلادورها: الجاهلي والإسلامي على عامة أهله وأبنائه: في عدائهم للنبي ﷺ وإسلامه، ولعموم أهل بيته، والعصا من العصية كما يقولون.

فهذه أخته حمالة الحطب أم جميل بنت حرب بن أمية زوجة أبي لهب بن عبد

(١) يقصد: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس المقتول كافرأ هو وأخوه شيعة، وابنه الوليد وهو أبو هند بنت عتبة أم معاوية التي

مثلت بجسد سيد الشهداء حمزة فقتل عبد المطلب يوم أحد فيكون عتبة هذا جد معاوية لأمه.

(٢) شرح النهج للحديثي: ج ١٨ ص ٢٢ ط جديد.

المطلب، كافر بني هاشم وحاقدهم كانت تحتطب أغصان الشوك من هنا وهناك من صحراء مكة وتحزمها بحبل من ليف، وهو المسد كما في الآية وتحملها على ظهرها كل يوم لتطرحها ليلاً في طريق النبي ﷺ من بيته إلى المسجد، فتدمي قدماء إذا سار عليها في النهار وهي تنظر إليه، وتسخر منه، ومن دينه، وكانت تنم على رسول الله ﷺ وتنقل أحاديثه إلى كفار قريش فينالون منه بالشتم والضرب والتوهين.

وفي ذمها، وذم زوجها أبي لهب نزلت سورة من القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جَيْدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾.

فلما نزلت هذه السورة، قالت أم جميل: «قد هجاني محمد، والله، لأهجوته، كما هجاني» فأخذت تنشد وتقول:

مَدَامَ لَبِئْنَا، وَدَيْهَ أَبِينَا، وَأَمْرَهُ عَصِينَا.

وأخذت فأساً أو حجراً كبيراً وعرضت للنبي ﷺ لتضربه، فأغشى الله عينها عنه، وردّها بغيطها خاسئة مذمومة. ولم تزل على عدائها للنبي ﷺ وإسلامه، حتى هلكت كافرة^(١).

● أبناء أبي سفيان على وتيرة أبيهم من الضلال

وهذا ابنه يزيد ولعلّه من أكبر أبنائه، وبه كان يكنى أبوه وهو شقيق حبيبة زوجة النبي ﷺ من أمهما: زينب بنت نوفل الكنانية.

قضى ردحاً من عمره في ظلال جاهلية أبيه، ونفاقه، وعدائه للنبي ﷺ وإسلامه، حتى إذا كان «فتح مكة» أظهر الإسلام كما أظهره أبوه خوفاً وطمعاً، وظل بعد ذلك منحرفاً عن علي عليه السلام وعموم بني هاشم واختاره أبو بكر في أيام خلافته أحد الأمراء الأربعة الذين ندبهم لفزو الروم، ولما فتحت دمشق أيام عمر أمره عليها.

وتوفي بالطاعون سنة ١٨ هـ ولا عقب له، وعند وفاته استعمل أخاه «معاوية» على الشام، فأقره عمر على ذلك^(٢).

(١) رسالة النزاع والتخاصم فيما بين أمية وهاشم للمقرئ: ص ٢٠ - ٢١ ط النجف.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ١ ص ٢٣٨ ط دار المعارف بمصر، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي ضمن أولاد

وهذا ابنه الآخر: حنظلة الذي كان أبوه يكنى به أيضاً من طلائع مشركي قريش في حربه للنبي وعدائه لإسلامه، فقد عده النسابة الهاشمي البغدادي في كتابه «المحتر» أحد ثلاثة من بني عبد شمس وهم: حنظلة، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة كانوا من «المقتسمين» من قريش، الذين اقتسموا عقاب مكة وأزقتها، فكانوا إذا حضروا الموسم يصدّون الناس عن رسول الله ﷺ وينفرونهم عنه، وفيه وفي أصحابه الآخرين نزل قوله تعالى: ﴿كُنَّا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُتَقَسِّمِينَ﴾.

وخرج حنظلة هذا مع مشركي قريش لحرب النبي ﷺ والإسلام والمسلمين يوم بدر فلم يزل يحارب بلا هوادة حتى قتل بسيف علي بن أبي طالب عليه السلام وهو كافر مشرك، ولم يُعقب^(١).

وهذا ابنه الثالث: عمرو وشقيق معاوية من أمهما هند بنت عتبة بن ربيعة آكلة الأكباد وهو زوج بنت عقبة بن أبي معيط.

فقد خرج هو الآخر مع المشركين يوم بدر لحرب النبي ﷺ وإسلامه. ولم يزل يحارب في صف المشركين حتى وقع أسيراً بيد علي بن أبي طالب عليه السلام وجي به إلى المدينة، فاقترح بعض المقربين إلى أبيه أن يفديه، فأبى أبو سفيان، وقال مغضباً: «أجمع علي مالي ودمي، قتلوا حنظلة، وأهدي عمرواً دعوه في أيديهم»؟

وبينما عمرو ومحبوس في المدينة بأسره، إذ شاهد أبو سفيان سعد بن النعمان بن أكال الأنصاري بمكة: معتمراً، وكان حليف بني عمرو بن عوف، وكان شيخاً مسلماً وشرافاً في بني عمرو، فعدا عليه أبو سفيان، فحبسه بآبائه عمرو وبالرغم من أن قريشاً ما كانت تتعرض لحاج ولا لمعتمر، فمشى بنو عمرو بن عوف إلى النبي ﷺ وسألوه أن يفك أسار عمرو ولمفاداة سعد بن النعمان؟ فأجابهم النبي ﷺ إلى ذلك، فأخذ أبو سفيان ابنه عمرواً،

→ أبي سفيان.

(١) سر أعلام النبلاء: ج ١ ص ١٢٥، والمحرر للنسابة البغدادي: ص ١٦١ ط بيروت، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم بعنوان

أبي سفيان.

وأطلق لبني عمرو: سعداً^(١).

وهذا ابنه الرابع المطعون في نسبه: واللعين بن اللعين، أخو اللعين على لسان رسول رب العالمين: عتبة بن أبي سفيان.

فقد روى نصر بن مزاحم بسنده عن عبد الله بن عمر قال: «خرج رسول الله ﷺ من «فج»، فنظر إلى أبي سفيان - وهو راكب - ومعه: معاوية، وأخوه عتبة: أحدهما - قائد، والآخر - سائق، فقال ﷺ: اللهم العن الراكب والقائد والسائق»^(٢).

ازدلف إلى أبي بكر مع أبيه وأخوته وعموم بني أمية ثم إلى عمر في سنواته الأخيرة ثم كان في طليعة المبايعين لعثمان يوم الشورى ومن شهد يوم الدار مدافعاً عن عثمان بضراوة، ثم بعد مقتل عثمان، تخلف عن بيعة أمير المؤمنين ﷺ، وازدلف إلى معاوية، وشهد يوم الجمل مع الناكثين: أصحاب عائشة وطلحة والزبير، وفُقت فيه إحدى عينيه، فظل أعور، كما يقول النسابة البغدادي في المحبّر، ثم كان بعد ذلك من القاسطين في صفين، وحتى إذا كانت خديعة المصاحف وتمّ الأمر لمعاوية التحق به في الشام، فكان من بطانته، وهو الذي اقترح على معاوية حينما اضطرب عليه الأمر في صفين أن ينتخي بعمر بن العاص، وأن يقربه إليه، وأن يعطى «مصر» وخراجها مهما بلغ إن هي صفت له، فأخذ برأيه معاوية، وأعطى عمرواً «مصر وخراجها» فكانت خديعة رفع المصاحف والتحكيم.

ثم إن معاوية عينه بعد ذلك لولاية مصر، فدخلها في سنة ٤٣ هـ ثم خرج إلى الاسكندرية مرابطاً، فابتنى بها داراً مفخمة في حصنها القديم، وتوفي بمصر سنة ٤٤ هـ وأخباره كثيرة^(٣).

ولأبي سفيان أبناء آخرون غير هؤلاء كمحمد وعنبسة ومعاوية ولقد ورث الجميع

(١) كامل ابن الأثير: ج ٢ ص ٩٣ ط بيروت، وغيره من كتب السير ضمن الحديث عن واقعة بدر.

(٢) كتاب صفين لنصر بن مزاحم: ص ٢٤٧ ط مصر.

(٣) وردت له أخبار كثيرة ضمن الحديث عن يوم الدار، ويوم الجمل، ويوم صفين في شرح النهج للحلي: ج ٢ ص ٦٧ وج ٨ ص ٦١، وج ١١ ص ١٠٠ ط جديد، وفي عامة كتب السير ضمن الحديث عن واقعة صفين.

من أبيهم الكفر والضلالة، وتفرعوا عن شجرة الخبيثة: البغض والضغينة للنبي محمد ﷺ ولأهل بيته عامة ولأمير المؤمنين ﷺ بالخصوص وليسوا أهلاً أن نتعب القلم ونشحذ الفكر يعرض توار يخهم الملطخة بالحق والشنآن لأمناء الرحمن، فإن في أخيهام الخبث المنافق «معاوية» صورة مفصلة عن بقية إخوته في الضلالة والنفاق المصحرين.

فاليه نوجه مسيرة القلم لمرض حياته الحاكمة على الإسلام والمسلمن عامة وعلى علي ﷺ ومواليه، وعموم بني هاشم بخاصة بالرغم من إظهار إسلامه بلسانه، لكن قلبه منطوي على الكفر والضلالة والنفاق.

فالى الفصل الثامن الخاص في الحديث عن معاوية بن أبي سفيان:

الفصل الثامن

معاوية بن أبي سفيان

مؤسس الدولة الأموية في الشام، وأحد دهاة الغرب
المتميزين بالكذب والنفاق، والمتظاهرين بالعداء الصارخ
للنبي ﷺ وأهل بيته - عامة - ولعلي عليه السلام وشيعته -
بالخصوص، ثم عرض تاريخي مفصل لمواقفه العدائية
لعلي وولديه الحسنين عليهما السلام ولملاحقته وتنكليه بالعلية من
الصحابة والتابعين من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام - ثم
عرض واقعة صفين، وغارات معاوية على مراكز خلافة
أمير المؤمنين عليه السلام.



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

● معاوية بن أبي سفيان

الحديث عن معاوية بن أبي سفيان من حين ولادته ونشأته في مكة إلى حين تمرده ووفاته في الشام ذو فصول ومؤشرات وجهات كثيرة كما يظهر لمن يقرأه على صفحات التاريخ، فهو الشخصية البارزة في هذا البيت الأموي المتسامي وبه تتنَّزَّ بيته وسيطر سمته على مسرح التاريخ، فهو رأس الدولة الأموية ومنطلق مسيرتها الطويلة ملكاً وأميراً بعد الخليفة عثمان بن عفان (رض) المعدود ثالث الخلفاء الراشدين بل إن معاوية له الفضلُ على «عثمان» بمحاولته ونفاقه ترميم ما أصحَّ به الخليفة من التواءات وثغرات وهنات كثيرة ممَّا أوجبت انتقام العلية من المسلمين عليه، وقتله كما فصلنا ذلك في الفصل الخامس من هذا الجزء من الكتاب فإذا أردنا تفصيل الحديث عن معاوية من شتى جوانبه وظواهره وسياسته والإمام بها استدعى ذلك أن نكتب كتاباً مستقلاً عنه، وقد لا يكفي الكتاب الواحد في هذا المضمار الواسع الموضوع الشائك العرض.

فلذلك يجدر بنا ونحن نستطرِّد الحديث عن معاوية باعتباره أحد الجذور الغليظة بل من أوغل الجذور المباشرة للثورة الحسينية كما سيتضح لنا ذلك من خلال هذا الفصل يجدر بنا أن نُسلِّط الضوء من قريب أو بعيد على بعض جوانب تلك الشخصية الناشزة عن سنن الشرع والعرف الاجتماعي، ولغة الإنصاف، فنقصر الحديث ولو بإيجاز على ما يمتُّ إلى الصراع المسلَّح وغير المسلَّح بين الإمام علي عليه السلام وسياسته الإسلامية، وبين الملك معاوية وسياسته الجاهلية، فننتحدث عن حقد الملك الأموي وجاهليته على عدالة الخليفة الشرعي وإسلامه، وموافقه إياه في حياته، ونستدرج العرض بالحديث عن ملاحقة معاوية بعد شهادة الإمام عليه السلام لكل ما يمتُّ إلى الإمام عليه السلام من مساحب التاريخ، والتنكيل بأهل بيته من الهاشميين وبالعلية من الصحابة والتابعين من أصحابه،

واغتياله الإمام الحسن بن علي عليه السلام بعد المهادنة والمصالحة بينهما بالقهر والغلبة، ثم محاولته اليائسة المتواصلة أخذ البيعة لولده يزيد من الإمام الحسين عليه السلام بعد شهادة أخيه الحسن عليه السلام، ومن خلال تلك الظواهر قد نأتى على عرض أو إشارة لبعض المواقف التي سجلها التأريخ على هذا الملك الأموي المتمتر خصوصاً بعد مقتل الخليفة عثمان إلى أخريات حياته المتميزة بالظلم والإرهاب والطفيليات الناشزة عن سنن القرآن والسنة والعرف العربي.

فإلى عرض الحديث عن معاوية ومواقفه:

● لمحات عن الظلم والتعسف في سياسة معاوية

ولنقدم بين يدي هذا الفصل المختص بالحديث عن معاوية: لمأظة خفيفة عن سياسته الهوجاء بين الناس، مقارنةً بسياسة الإمام علي عليه السلام المستقيمة، لينحسر الواقع عن الظلم والظلام في جانب العدل والنور في جانب آخر، فنقول:

بعد مقتل الخليفة «عثمان» من قبل العلوية من المهاجرين والأئصار كما فصلناه في أخريات الفصل الخامس من هذا الجزء.

انثال الناس على بكرة أبيهم على أمير المؤمنين عليه السلام فأخرجوه من الدار إلى المسجد فبايعوه بعلن وإجهار، ولم يتخلف عن بيعته سوى بعض الشذاذ عن الحق من ذوي النفوس الضعيفة، والأغراض الدنيئة، أمثال طلحة، وابن عمر، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم، وحسان بن ثابت، ومحمد بن مسلمة، وكعب بن عجرة، وقدامة بن مظعون، وعبد الله بن سلام، والمغيرة بن شعبة، والوليد بن عتبة، وصهيب الرومي، وتخلف «معاوية» مع عموم بني أمية عن البيعة، ولم يكن لهؤلاء المتخلفين أي تأثير في استتباب البيعة لعلي عليه السلام وإنما جنوا في تخلفهم خسران الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

وبدأ الإمام عليه السلام بالإصلاحات الجذرية لمخلقات «عثمان» من محاور ثلاثة: الإدارة، والحقوق، والأموال.

أما فيما يرجع إلى الإدارة، فقد أصّر فورَ تسلمه عنان الخلافة الشرعية على عزل

عامة ولاية «عثمان» بمن فيهم معاوية أولئك الذين كانوا يُشكلون الحجر الأساس في الثورة على «عثمان» والإجهاز عليه، وإبداهم بالأبرار الأخيار من عيون المهاجرين والأنصار فولّى على البصرة: عثمان بن حنيف، وعلى الشام: سهل بن حنيف، وعلى مصر: قيس بن سعد، وثبّت أباً موسى الأشعري على الكوفة كما كان أيام عثمان.

وقال عليه السلام في شأن أولئك الولاة المعزولين، ومن لف لفهم بعد أن عزاهم عن الحكمة والدين: «... ولكنني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله ذللاً، وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً، فإن منهم الذي قد شرب فيهم الحرام، وجلد جلدأ في الإسلام، وإن منهم من لم يُسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائن...»، نهج البلاغة وشروحه.

أما فيما يرجع إلى الحقوق والاعتبارات، فقد صدر عليه السلام بيانه الأول بعد توليد الخلافة، فأمر مناديه أن ينادي في ملأ من الناس: بأن المسلمين جميعاً سواء في الحقوق والواجبات في الإسلام، وقد كانت هناك فروق حقوقية جاهلية، قضى عليها الإسلام، وأعيدت في عهد لا حقة، فقريش ذات الماضي العريق في السيادة على القبائل العربية، عادت في عهد «عثمان» إلى إيمانها بتلك الفروق، فغدا أناس ليس لهم ماضٍ مشرف بالنسبة إلى الإسلام ونبيّه يتعالون على أعظم المسلمين جهاداً وسابقةً وبلاءً، لمجرد أنهم قريشيون، نهج البلاغة وشروحه.

وأما فيما يرجع إلى السياسة المالية، فقد وقف الإمام عليه السلام موقفاً صارماً، لا هوادة فيه، في مصادرة إقطاعات «عثمان» وهباته للطبقة «الأوريستوقراطية» كما أعلن أنه سيتبع مبدأ المساواة في العطاء، فقال من خطبة له: «أيها الناس، إني رجل منكم، لي مالكم، وعليّ ما عليكم، وإني حاملكم على منهج نبيكم، ومنقذ فيكم ما أمر به، ألا، وإن كل قطعة أقطعها (عثمان) وكل مالٍ أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال، فإن الحق لا يبطله شيء» ولو وجدت قد تزوج به النساء، وملك الإماء وفرق في البلدان، لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه الحق، فالجور عليه أضيق»، نهج البلاغة وشروحه.

واستمر عليه السلام في إصراره على التأميم الشرعي لما رأى من بعض الطغاة المثرين من

بيت المال يتلاوذن في أصل البيعة أو يحاولون النكت بعد عقدها، فخطب الناس، وكشف عناصر الفتنة فقال من خطبة له: «فأما هذا الفئ فليس لأحد على أحد فيه إثرة، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا، وله أسلمنا، وعهد نبينا بين أظهرنا، فمن لم يرض به فليتل كيف يشاء» نهج البلاغة وشروحه.

ولم تقف «الأوريسقراطية» التي كانت منعمة في عهد الخليفة عثمان مكتوفة الأيدي في حيال تلك السياسة العادلة من قبل الإمام عليه السلام، فقد تحركت خطوات التمرد الأول على الإمام عليه السلام في البصرة تحت شعار الثأر لعثمان الشهيد، وكان من وراء ذلك التمرد بنو أمية وغيرهم من النفعيين بإيحاء الذئب الماكر «معاوية»، فأخذوا يحاولون عطف أزمة الحكم عن الإمام الشرعي، ويوجهون طغام الناس إلى الانحراف عن البيعة له، أو إلى نكتها بعد عقدها، ولكن الإمام عليه السلام بحكمته السديدة ونظرته البعيدة قضى على تلك المناوئة في مهدها ففر من بقي من أنصارها إلى الشام، حيث مركز «معاوية» وحكومته المتمردة، فانضوى تحت لوائه وفي كفنه كل من كان في قلبه دغل وحقّد على الإمام عليه السلام لعدالته وسياسته المنبته عن الدين والأخلاق أمثال عبيد الله بن عمر، فقد التحق بمعاوية خوفاً من سطوة عدالة علي عليه السلام أن تقيده بالهرمزان، حيث إن أبا لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبه الذي طعن عمر فقتله، كان في أرض العجم غلاماً للهرمزان، فلما قتل عمر شدّ عبيد الله على الهرمزان، فقتله بدم أبيه في حين لم يكن هو القاتل وكان «الهرمزان» عليلاً في الوقت الذي قتل فيه عمر، فعفا عثمان عن عبيد الله، فلم يُقده، فلما صارت الخلافة لعلي أراد قتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان لقتله إياه ظلماً وعدواناً ومن غير سبب استحققه، وشعر عبيد الله بخطر الحق، فلبجاً إلى معاوية فنجاً من سطوة أمير المؤمنين عليه السلام مروج الذهب للمسعودي: ج ٢ ص ٢١١ طبع السعادة.

التناقض والصراع بين سياستي علي عليه السلام ومعاوية من منهجي العدل والظلم ولجأ أيضاً إلى معاوية: مصقلة بن هبيرة الشيباني عامل علي عليه السلام في إحدى خطط فارس وسبب ذلك: أنه كان قد اشترى بغير استشارة علي عليه السلام أسرى الخوارج من جماعة الخريت بن راشد السامي، والنوى بما شرطه على نفسه من تمنهم، فلما طالبه

ابن عباس بأداء الدين قال: لو طلبت أكثر من هذا المال إلى «ابن عطان» ما منعتني إياه، ثم احتال وما طل حتى هرب من البصرة ولحق بمعاوية، فتلقاه معاوية أحسن لقاء وأطعمه وأرضاه حتى طمع مصقلة في أن يحمل أخاه نعيم بن هبيرة على نفس طريقته في اللحق بمعاوية الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين: علي وبنوه: ص ١٢٧.

وهكذا أخذ ابن هند؟ يتلقى الفارين من وجه عدالة الإمام علي عليه السلام من الطفلة والمترفين بأوسع التلقي، فيغدق عليهم العطاء من بيت مال المسلمين، فيزرع بتصرفه هذا بذور فساد الأخلاق في المسلمين، ويؤشج الناس على التمرد على مبادئ الدين الحنيف، ولم تقتصر نتائج ذلك الزمن الذي عاش فيه ابن أبي سفيان بل تعدته، فسارت في سجل الزمن منذ مصرع الإمام عليه السلام حتى يومنا هذا علي ومناوئوه للدكتور نوري جعفر ص ١٥٦ طبع القاهرة.

وتذكرني إشارة الدكتور في آخر عبارته الأبيات التي قتلها في رثاء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قبل زهاء خمسين عاماً كما هي مثبتة في قافية اللام من قصيدة لنا في ديواننا المخطوط «زورق الخيال»:

يا صريع ابن ملجم، لم تكن وحدك	في مذبذب الصلاة قديلاً
ولو أن الضمائم بينكما - حسب -	فهيأت يستقيم طويلاً
إنما لم تزل تستطيل في مسرح	التاريخ عذراء تصرع المستحيلاً
تترامى من عهد (قابيل هابيل)	صفوداً طوراً وطوراً نزولاً
إن سيفاً أرباك في ساحة الحفران	ما زال فوقنا مسلحاً
والدماء التي استقى ريثها المحراب	لا زال جرحهن خفياً
والنفاق الذي به امتحن الإسلام	قدماً قد عاود القمبلاً
فصراع ابن ملجم وعلي	يتخطى العصور: جيلاً فجيلاً
كسل عصر له إبطاز جديد	يتشبه النبرير والتظليل

وبينما كانت حكومة الإمام العادل تنهج بالمسلمين منهجاً عادلاً خالفاً من أي موارد ونفاق وإثرة، فتحقق للأمة قدر المستطاع في ظروفها السياسية والاقتصادية

والعسكرية: من الرفاه في العيش، والأمن والأمان، والتأمين في الحياة في ضوء المساواة بين جميع الطبقات الاجتماعية.

كان معاوية، والمتمددون من حوله في الشام، يعاكسون منهج الإمام عليه السلام فيسيرون في الحكم على شراء الضمائر بالمال الرخيص، والجاء المؤقت، والوعود الخلافة، وتفضيل طائفة متمرة على حساب طائفة أخرى متهاونة، وتعزيز الأمن والأمان في الناس.

ثم توالى حركات تمرد أخرى وراء المواجهة نفسها بزعامة معاوية وجلالوته: من الأمويين والضالعين وراء ركابهم الأهوج، فكانت واقعة «صفين» وكانت مهزلة التحكيم، وكانت واقعة «النهروان»، ثم آخر المطاف بقتل أمير المؤمنين بشمرة من ثمرات التحكيم. ثم كانت خلافة الحسن بن علي عليه السلام خلال شهور ستة عاصفة بالولايات إثر الولايات، حبلى بالدسائس والتآمر المبطن من قبل الانتهازين والوصوليين بدفع مباشر وغير مباشر من معاوية، الأمر الذي اضطر الإمام عليه السلام بالنتيجة إلى التخلي والموادعة تحت ضغط النفاق الناجم في كيان عسكره المهلهل، تفادياً لحرب فاشلة، تُراق فيها دماء زكية، دونما حصول نتيجة فاتحة من قريب أو بعيد.

وتمت الموادعة والتخلي عن مواصلة الحرب بين الإمام الحسن عليه السلام وبين معاوية، بشروط وضوابط وقعها معاوية وجلالوته وإن سماها معاوية وجلالوته بالصلح وعام الجماعة، حتى جاء ذلك على السنة المؤرخين بمن فيهم الشيعة إلى يومنا هذا ومهما كانت التسمية، فقد دال الأمر بعد لفّ ودوران من النفاق الظاهر والمبطن إلى معاوية، واستتبّ له أمر الأمة، وسيطر على العالم الإسلامي بعد أن أخذت البيعة من عامة الناس بالرضا والقهر على أثر تنازل الإمام الحسن عليه السلام عن مواصلة الكفاح والحرب مع معاوية، وذلك في سنة ٤١ هـ ووطوي الفتح واستبّح الرعيل.

وخلا الميدان لمعاوية ومردته ممن يعارضه في سياسته أو يفكر في معارضته، فأخذ يمارس سياسة مرصودة، استهدف خلالها القضاء على حرية الإنسان المسلم حتى في داخل بيته، سياسة تقوم على مبادئ خبيثة، وركائز ملغومة، كان من مظاهرها «الثالث

الخطر: الإرهاب والتجويع، وإحياء النزعة القبلية واستغلالها، وتخدير الأفكار وشل الروح الثورية باسم الدين.

ولتفصيل تلك الركائز الثلاث نقول:

● سياسة معاوية في التجويع واستغلال النزعات القبلية

أ - أما سياسة الإرهاب والتجويع:

فقد طَبَّقَ «معاوية» تلك السياسة الظالمة على الرعايا المسلمين، المخالفين له في المبدأ والسلوك والهدف، فأخذت تعنف وتتوغل أكثر بعد استشهاد الإمام علي عليه السلام ومهادنة الإمام الحسن عليه السلام حتى بلغت حداً بحيث كان المسلم يفضل أن يقال عنه: زنديق أو كافر، ولا يقال له: إنه من شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام، شرح النهج للحديدي: ج ٢ ص ١٧ وكانت شيعة علي عليه السلام إذا روت عن الإمام خبيراً يقولون: «أبو زينب» ويخشون على أنفسهم وإعراضهم من التصريح باسم الإمام، فقد حظر معاوية والأمويون على الناس أن يُطروا الاسم علي عليه السلام على ألسنتهم، أو يُسمون أولادهم باسمه شرح النهج للحديدي: ج ١ ص ١٧.

ونقل «معاوية» بعد عام الجماعة كما يقولون بيت المال من الكوفة إلى دمشق وزاد في عطايا أهل الشام، ونقص من عطايا أهل العراق الدولة العربية وسقوطها لبوليوس ولها وزن ص ١٥٨. وجعل يبرّر لمنتقديه في ذلك التفاضل في العطايا بقوله: «إن الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما أخذ من مال الله فهو لي، وما تركته كان جائزاً لي».

ب - وأما استغلاله النزعات القبلية بين الناس:

فبالرغم من دعوة الإسلام على لسانه: كتابه وسنته إلى نبذ التمسب القبلي، والتميز الطبقي، ونبذ العنصرية والجانبية في أبناء النوع الإنساني المشترك، وعدم التمايز والتفاضل بغير التقوى والاستقامة الدينية.

أقول: بالرغم من محاربة الإسلام لتلك التميزات القبلية والطبقية، فقد استغل «معاوية» في سلوكه الشخصي ومن خلال أوامره لعماله من الأمويين وذوهم تلك الروح القبلية والنزعة العصبية التي كانت متنمرة في الجاهلية.

فأخذ يقذها، ويحرك أوتارها بين حين وآخر ليحني ثمارها ولو كان فجاً ويُشعل الفتنة بين أفراد قبيلة واحدة ليستفيد ولو من الدخان قليل الفتنة.

فها هو يرسل ابن الحضرمي إلى البصرة بعد مقتل عثمان في سنة ٣٨ هـ ليضرم فتائل الفتنة بين قبائلها العربية بإثارة ذكريات حرب الجمل، ومقتل عثمان، فيوصيه أن ينزل في مصر، ويحذر ربيعة، ويتوَدَّد الأزد، وينمى «عثمان» ويذكرهم الواقعة التي أهلكتهم، ويمني من سمع منهم وأطاع دنياً لا تغنى، وإثارة لا يفقدوها، تاريخ الطبري: ج ٤ ص ٨٦٨٤.

ولا تلمس شيئاً من الصعوبة في إثبات واكتشاف هذا السلوك القبلي، والعنصري الطائفيين على سياسة «معاوية» ومردته، فنراه حيناً يحرّض شعراء عصره من ضعفاء النفوس على بث روح الفخر والهجاء كما كان الحال عندهم أيام الجاهلية، تاريخ الشعوب الإسلامية: ج ١ ص ١٤٨ لبروكلمان، وقصة الأدب في العالم: ج ١ ص ٣٧٢ للدكتور أحمد أمين، حتى أسف شاعره «الأخطل الأنصاري» فقال في مجال الدفاع عن معاوية على إثر هجائه من قبل الأنصار من قصيدة:

ذهبت قريش بالمكارم والعلی واللؤم تحت عثمان الأنصار^(١)

فاسترخص الأخطل الأنصاري هجاء قبيلته «الأنصار»: تزلفاً لمعاوية، وطمعاً وتبصبصاً لسخائه في هذا المضمار.

وعاد الأخطل مرة أخرى إلى التزلف والتميع أمام سخاء معاوية حتى صوّره بشعره الرخيص: مفروض الطاعة من الله تعالى على الأمة، فأخذ يقول من قصيدة:

إلى امري لا نُعدّينا نوافله أنظره الله فليهنأ له الظفر

الجانض الفمر والميمون طائره خليفة الله يستسقى به المطر

وقال في نفس المغزى من قصيدة في إطراء معاوية وبني أمية:

تمت جدودهم والله فضّلهم وجد قوم سواهم خامل نكد

هم الذين أجاب الله دعوتهم لنا ثلاث نواصي الضيل واجتلدوا

ويوم (صليين) والأنصار خاشعةً
أسدهم إذ دعوا من ربهم مدد
على الأولى قتلوا (عثمان) مظلةً
لم ينهم نشدُ عنه وقد نشدوا
وكذلك أخذ معاوية يشتري عواطف الشاعر الضعيف النفس «مسكين الدارمي»،
سياسة معاوية القبلية والعنصرية ويغريه بالوعود الخُلابَة حتى جعل يقول في شأن عقد
ولاية العهد لابنه يزيد:

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر
ومروان أم ماذا يقول سعيد
بني خلفاء الله مهلاً فإنما
يَبْؤُها الرهمانُ حيث يريد
إذا المنبر الغربي خُلاه ربه
فإن أمير المؤمنين يزيد

وغير هذين كثيرٌ من الشعراء الذين استهوتهم مطامع معاوية، حتى استغل الشعر إلى
جانبا النصوص الدينية في سبيل تعزيز أفكارهم المسمومة، فقد كان معاوية قادراً على
أن يُفيد مما لشعراء عصره من تأثير عظيم في الرأي العام بسبيل مصالحه العائلية تاريخ
الشعوب الإسلامية: لبر وكلمان ج ١ ص ١٤١.

وكثيراً ما كان معاوية يوعز إلى المغنين بإنشاد الشعر الجاهلي الذي كان متعارفاً
أيام الجاهلية، وقد استعرض مصاديق ذلك الموضوع أبو الفرج الإصبهاني في (أغانيه:
ج ٢ ص ١٧٠) ط الساسي.

ولقد انعكست سياسة معاوية القبلية والعنصرية على عماله وولاته في أمصار الدولة،
فكم كان يحدث أن الوالي يعتمد على إحدى القبائل ضد الأخرى، وبوجه عام على
قبيلته التي أتى بها معه، حتى إذا أتى والٍ جديد أتت قبيلة أخرى إلى الحكم، وينتج من
ذلك أن القبيلة التي نُحيت عن الحكم تُصبح عدواً لدوداً للقبيلة التي تحكم، وهكذا
أضحت الميزات القبلية ملطخة بالسياسة والخصام على الغنائم السياسية، الدولة العربية
له «ولها وزن»: ص ٥٨.

ولعلَّ زياد بن سمية كان من أروع عمال معاوية في التوغل بهذا الميدان، والخروج
بنتيجة ظافرة في ذات الوقت، فإنه حينما همَّ للقُبض على حجر بن عدي الكندي بأمر
معاوية أوعز إلى محمد بن الأشعث الكندي بالقُبض عليه، وضمَّ معه بعض جلاوزته،

مستهدفاً بذلك زرع الفتنة والشنآن في القبيلة الواحدة «كندة» التي هي من أقوى القبائل العربية عدة وعدداً في الكوفة، فعند ذلك استراح زياد من وحدة الصف وألهم كلاً من أنصار حجر، وأنصار ابن الأشعث بالتحيز الضيق، وأفلح في ذلك. الدولة العربية لـ «ولها وزن»: ص ١٠٥.

وقد كان المغيرة بن شعبة والي الكوفة من قبل معاوية يضرب على نفس الوتر الذي كان يضرب عليه عامة عمال معاوية، وينهج نفس ذلك المنهج الخبيث، فعندما ولي الكوفة جعل أكبر همّه الإفساد ما بين الخوارج والشيعة، وبذلك استطاع إشغال الكوفيين بأنفسهم عن معارضة الأمويين معارضة فعالة. تاريخ الشعوب الإسلامية لـ «بروكلمان»: ص ١٤٦.

وبالتالي، فقد استمر هذا الداء العضال التناحر القبلي ينخر، وكأنه الأرضة في كيان الأمة الإسلامية، حتى مزقها شراً ممزق، وقذف بها في عباب حروب طاحنة بين القبائل العربية، وزرع بين طوائفها الإحن والبغضاء، إلى آخر المطاف للتوسع في هذا الباب: يراجع البلاذري في أنسابه، وفيليب حتي في تاريخ العرب، وبروكلمان في تاريخ الشعوب الإسلامية، وحسن إبراهيم حسن في تاريخ الإسلام السياسي، وغيرهم في كتبهم وأقوالهم حول هذا المحور.

ج - وأما التحذير وشلّ التحرك باسم الدين:

فقد كان الأمويون وعلى رأس دولتهم «معاوية» من أخطر أعداء النبي محمد ﷺ وإسلامه، وإنما اعتنقوا الإسلام في أوج ظهوره يوم الفتح وما بعده مرغمين وطامعين، ثم أفلحوا إلى أن يحولوا إلى أنفسهم ثمرة حكم الدين بضعف سياسة «عثمان» في المجتمع الإسلامي، وسوء تصرفه بين المسلمين.

ومن المعلن التي بُلي بها حكم الدين: قيام بني أمية وعلى رأسهم معاوية عليه مع أنهم كانوا في البداية مقتصبين لسلطانه، وقوتهم في جيشهم الذي هو على أهبة الاستعداد في الشام، ولكن قوتهم لا يمكن أن تصبح حقاً في يوم من الأيام. تاريخ الإسلام السياسي: ج ١ ص ٢٧٨.

وبالتالي، فقد نال «معاوية» الملوكية التي يُسميها هو ومردته بالخلافة بحدّ السيف تارةً وبالمكيدة والنفاق تارةً أخرى.

يقول «نيكلسون»: ... اعتبر المسلمون انتصار بني أمية - وعلى رأسهم معاوية - انتصاراً للارستقراطية الوثنية، التي ناصبت الرسول وأصحابه العداء.

والتي جاهدوا رسول الله ﷺ حتى قضى عليها، وصبر معه المسلمون على جهادها، ومقاومتها حتى نصرهم الله، ففرضوا عليها، وأقاموا على أنقاضها دعائم الإسلام، ذلك الدين السمح، الذي جعل الناس سواسية في السراء والضراء، وأزال سيادة رهط كانوا يحتقرون الفقراء، ويستذلّون الضعفاء، ويبنزون الأموال لذلك، لاتندش إذا كره المسلمون بني أمية وغلرستهم وكبرياءهم، وإثارتهم الأحقاد القديمة، ونزوعهم للروح الجاهلية، ولا سيما أن جمهور المسلمين كانوا يرون بين الأمويين رجالاً كثيرين، لم يعتنقوا الإسلام إلا سعيّاً وراء مصالحهم الشخصية، ولا غرو، فقد كان معاوية يرمي إلى جعل الخلافة مُلكاً كسروياً، يدل على ذلك تصريحه الوقح: «أنا أول الملوك». كما في تاريخ اليعقوبي.

● معاوية ونشأته والتشكيك في نسبه

ولد معاوية قبل البعثة بخمس سنين بمكة كما عليه عامة المؤرخين والنسابين لأبوين عريقين بالكفر والإلحاد، والدغل والفساد، فأبوه: أبو سفيان (صخر) بن حرب بن أمية بن عبد شمس صاحب العير التي كانت ثقابة «واقعة بدر» بين المسلمين والمشركين كما ذكرنا من قبل.

وأمه: كما هي أم شقيقة هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس صاحب النفير، وقائد جيش المشركين النافر لحماية العير، ولحرب رسول الله ﷺ وللمسلمين يوم بدر حتى قتل كافراً بسيف الإسلام.

فمعاوية على هذا: ابن العير، والنفير، فكان أبوه صاحب العير، وجده لأمه صاحب النفير وبهما يضرب المثل فيقال للحامل «لا في العير ولا في النفير»^(١).

(١) في أمثال الميداني حرف اللام برقم «٣٥٤٣» ضمن شرح المثل: «لا في العير ولا في النفير»، «ووروي: أن عبد الله بن يزيد

«فأبو سفيان هو الذي حارب النبي ﷺ ولم يُسلم إلا بآخره حين لم ير من الإسلام بُدأً، وحين لم يكن إلا أن يختار بين الإسلام والموت .. ولم تكن أم معاوية بأقل من أبيه تنكراً للإسلام، وبغضاً لأهله وحفيظة عليهم، حتى قُتعت (مكة) فأسلمت كارمةً، كما أسلم زوجها كارهاً». الإمام علي بن أبي طالب لعبد الفتاح عبدالمقصود: ج ٢ ص ٦١.

هذا، لو صححنا نسبه الأموي من حيث أبويه، وللتشكيك في ذلك مجال غير ضيق، فقد ذكر ابن أبي الحديد عن الزمخشري: أن معاوية كان يُعزى لأربعة: أحدهم أبو سفيان وكان دميماً قصيراً، وثانيهم الصباح بالتشديد، مغن أسود كان لعامة بن الوليد وكان شاباً وسيماً وكان أجيراً لأبي سفيان، فدعته هند يوماً إلى نفسها، فغشيها، فولدت معاوية^(١)، ونشأ معاوية كأبيه وأخوته على شنشنة الجاهلية وضلال الشرك في بداية الدعوة الإسلامية إلى أن كان «فتح مكة» في السنة الثامنة للهجرة، فأظهر الإسلام مع أبيه وأخوته بلسانه وقلبه منطو على الشرك والارتباك في العقيدة، حتى أن النبي ﷺ كان يتألفه كما يتألف أباه، ولم يحسن إسلامه، كما لم يحسن إسلام أبيه^(٢).

→ بن معاوية أمي أخاه (خالد) فقال: يا أخي، لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك، فقال له: بشما هممت به في ابن أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين؟، فقال: إن خيلي مرّت به، فتمت بها وأصغرها وأصغرتي، فقال خالد: أنا أكفيك.

فدخل خالد إلى عبد الملك والوليد عنده إلى قوله، قال الوليد لخالد: اسكت يا خالد فوالله، ما تعدّ في العير، ولا في النخير.

فقال خالد: ويحك؟ من في العير، والنخير غيري؟، جدّي أبو سفيان صاحب العير، وجدّي هبة بن ربيعة صاحب النخير...».

(١) شرح النهج للحديدي: ج ١ ص ٣٣٦ ط دار المعارف بمصر تلاً عن ربيع الأبرار للزمخشري. والملاحظ: أن عامة من كتب عن معاوية عرّف جسمه بالبضاخة، والوسامة، فهو بقاعدة العرافة ملحق بالصباح المغني، وبقاعدة ولادته على فراش أبي سفيان ملحق به.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ٣، ضمن ترجمته برقم «٢٥٠».

وهي تاريخ ابن كثير ج ٨ ص ١٣١ قال: أخرجه أبو داود الطيالسي وابن عساكر: «قال الأسود بن يزيد: قلت لعائشة: ألا تعجبين لرجلٍ من الطلقاء يتنازع أصحاب رسول الله ﷺ في الخلافة؟ فقالت، وما تعجب من ذلك، هو سلطان الله يؤتيه البير والفاجر، وقد ملك فرعون أهل مصر أربعين سنة وكذلك غيره من الكفار».

تأمل في جواب عائشة للأسود كيف تشبه معاوية بفرعون وغيره من الكفار في الملك، فإن ذلك يعرب عن جلالة حقيقة الملك معاوية من حيث الكفر والضلال، قال الله تعالى: «وَمَا أَتَىٰ فِرْعَوْنَ بِرَحْمَةٍ مِّنْ قَوْمِهِ لَيَحْبَبْنَ يُؤَدُّوا لِمَا بَآوَأْتُهُمْ وَتَبْتَغِي السُّورَةَ الْمَوْزُودُ...».

وكان عمر معاوية يوم الفتح ثلاث وعشرون سنة. تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن ج ١ ص ٢٨٢.

قال ابن أبي الحديد: «وقد طعن كثير من أصحابنا في دين معاوية ولم يقتصرُوا على تلسيفه، وقالوا عنه: إنه كان ملحدًا، لا يعتقد النبوة، ونقلوا عنه - في ثلثات كلامه؟ وسقطات ألفاظه - ما يدل على ذلك.

وروى الزبير بن بكار في (الموفقيات) - وهو غير متهم على معاوية، ولا منسوب إلى اعتقاد الشيعة، لما هو معلوم من حاله: من مجانبة علي عليه السلام والانحراف عنه - قال المطرف بن المغيرة بن شعبة^(١): دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه، فيتحدث معه، ثم ينصرف إلي، فيذكر: معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه، إذ جاء - ذات ليلة - فأمسك عن العشاء، ورأيته مفتعماً، فانتظرت ساعة، ظننت أنه لأمر حدث فينا، فقلت: مالي أراك مفتعماً - منذ الليلة؟ فقال: يا بني، جئت من عند أكثر الناس، وأخبيهم.

قلت: وما ذاك؟ قال: قلت لمعاوية - وقد خلوتُ به - إنك قد بلغت سنًا - يا أمير المؤمنين - فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً، فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوانك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم، فوالله، ما عندهم - اليوم - شيء تخافه، وإن ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه؟ فقال: هيهات!! أي ذكر أرجو بقاءه؟ ملك أخوتيم، فعدل، وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره.

(١) المطرف بالكسر والتشديد بن المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن معتب بن مالك .. الثقفي، من الولاة السوار، والأمراء العقلاء. ولاء الحجاج بن يوسف الثقفي على المدائن، فاستقامت سيرته وسريته مع الرعية، واستمر على ولايته، إلى أن زحف عليه شبيب بن يزيد الخارجي فاستمد الحجاج عليه، فمدد الحجاج بجيش كثيف، فخرج به لقتال شبيب، فطوق شبيب بهجيشه المدائن، فلبث المطرف إليه: أن يرسل من أصحابه من يعرفونه ما يدعون إليه، فلبث إليه شبيب: بعض ذوي المعرفة من أصحابه، فمكتوا مع المطرف أياماً يندارسون، ويتطارحون، حتى مال المطرف، وبعض أصحابه إلى ما عليه شبيب وأصحابه، واتفق معهم أن يخلع عبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف، ويقاتل الظلمة حتى يعود الأمر شورى بين المسلمين، يرتضون لأنفسهم من يشاءون، فباهمه أصحابه على ذلك، وخرج بهم، ووصل خبرهم إلى الحجاج، فأرسل إليهم من قاتلهم في بعض جهات أصلهم من بلاد إيران فتزق أصحابه، وتفرقوا عنه، وقتل معه جماعة كثيرة قبل أن يستفحل أمره، وحمل رأسه إلى عبد الملك، وذلك سنة ٧٧ هـ باقتضاب من تاريخ الطبري، وكامل ابن الأثير ضمن سوانح سنة ٧٧ هـ.

إلا أن يقول قائل، أبو بكر، ثم ملك أخو عدي، فاجتهد، وشمر - عشر سنين - فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: عمر، وإن ابن أبي كبشة - يعني النبي ﷺ - ليصاح به كل يوم - خمس مرات: «أشهد أن محمداً رسول الله»، فأبي عمل يبق، وأي ذكر يدوم - بعد هذا - لا أبأ لك - لا - إلا دفناً، دفناً..^(١).

وروى أحمد بن أبي طاهر في كتابه (أخبار الملوك): «أن معاوية سمع المؤذن - يوماً - يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله»، فقال المؤذن: «أشهد أن محمداً رسول الله»، فقال معاوية: لله أبوك - يابن عبد الله - لقد كنت عالي الهمة، ما رضيت لنفسك إلا أن تقرن اسمك باسم رب العالمين». وهكذا بقي معاوية على هذا الانطواء السي في العقيدة، والضلال المخزي عن سنن الحق والدين، إلى آخر لحظة من حياته الحافلة بالموبقات والبدع بالرغم من تظاهره بمظاهر الإسلام، وازدواج شخصيته، وذبقية سلوكه، تلك الشكلية التي عميت على كثير من ذوي البصيرة في العلم، والتضلع بفقهاء التاريخ من كتابنا المعاصرين، كالأستاذ العقاد صاحب العبقريات حيث يغالي في مقام تبريره لتأخير إسلام معاوية بإيمانه بواقعية إسلامه فيقول: «ومعاوية بعد إسلامه لم تثبت عليه كلمة، ولا فعله تنقض تصديقه بدينه، ورعايته لغروحه، وشعائره: كان يُصلي، ويصوم، ويحج، ويقرأ القرآن، ويستمع إليه، وكانت كل لفظة فاه بها، وأحصيت عليه في مرض الوفاة تدل على الإيمان بقاء الله، وعلى الإيمان بالجزاء في العالم الآخر، ومما تواتر من أحاديث الملازمين له في ساعاته الأخيرة: أنه كان يحتفظ بقلامة من ظفر رسول الله ﷺ وشعرات من لحيته الشريفة، أخذها من وضوئه، وما زال محتفظاً بها، حتى أوصى بأن تدفن في كفنه..»^(٢).

أقول: لا أظن الأستاذ العقاد وهو من عرف بتأمله فيما يكتب يطمئن كمال الأطمينان لما صدر من قلمه (الشريف) وبيان (المنيف) في تلك الجمل المتراسة في مقام الثناء على ذاتيات معاوية خصوصاً: ما كان يرجع منها إلى دينه، وإسلامه، وواقعية سلوكه.

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد: ج ٥ ص ١٢٩ - ١٣٠ ط دار إحياء الكتب العربية.

(٢) معاوية بن أبي سفيان في الميزان للعقاد: ص ١٢٣ ط بيروت.

والظاهر من الأستاذ: أنه كان كثير الذنوب في شبابه، وأراد بكلامه هذا أن لا يناقشه الله حسابه يوم القيامة، على ضوء ما رواه ابن وهب عن مالك عن الزهري، قال: «سألت سعيد بن المسيب عن أصحاب رسول الله ﷺ فقال لي: اسمع يا زهري: من مات محباً لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وشهد للعشرة بالجنة، وترحم على معاوية، كان حقاً على الله ألا يناقشه الحساب»^(١).

وغير خفي على الأستاذ العقاد: أن حسابه يوم القيامة سوف يكون عسيراً بكلامه هذا ولا ينفعه تبصصه بأذيال معاوية، وترحمه وإطراؤه المناق علىه بالتدين والواقعية، تقليداً لسعيد بن المسيب^(٢). إن صحت الرواية المذكورة عنه.

وبعد هذا، نعيذ الأستاذ العقاد أن يكون أحد الذين ينطبق عليه ما نقله هو عن السيوطي في تاريخ الخلفاء عن الإمام أحمد بن حنبل: أنه سأل أباه عن علي ومعاوية؟ فقال: «أعلم إن علياً كان كثير الأعداء، ففتش له أعداؤه عيباً؟ فلم يجدوا، فجاءوا إلى رجل قد حاربه وقاتله، فأطروه كياداً منهم له»^(٣)، فتأمل جيداً؟

وسنستعرض بعد هذا موجزاً من أقوال وأفعال معاوية خصوصاً ما كان منها بعد إظهار إسلامه يوم الفتح لتعري الأستاذ العقاد من صدق إطرانه، وواقعية ثنائه لهذا الملك الأموي المنافق، وسنثبت أن جميع ما كان يتظاهر به معاوية مما ذكره العقاد إنما صدر منه عن مهادنة وتفاق واضحين من خلال كلماته وأفعاله وسلوكه.

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ج ٨ ص ١٣٩ ط بيروت أوليست.

(٢) أبو محمد: سعيد بن المسيب بالفتح والتشديد بن حزن بالسكن بن أبي وهب المخزومي القرشي من أئمة التابعين وشيوخهم، وكان أبوه وجده صحابين من مسلمي يوم الفتح، وبعد سعيد أحد فقهاء المدينة السبعة ومن حواري وقادة علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، ورويت بعض الأحاديث عنه في الثناء على علم سعيد وعلو مقامه وورعه، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من تجارته بالزيت، ولا يأخذ من الدولة عطاء، روى عن كثير من الصحابة، وروى عنه كثير من التابعين، وكانت ولادته سنة ١٣ هـ ووفاته بالمدينة سنة ٩٤ هـ على الأصح. اقتضاب من طبقات ابن سعد، والوفيات، وصفة الصفوة، وحلية الأولياء، وأعلام الزركلي، ورجال الكشي، وشذرات الذهب للحنبلي، وسفينة البحار للقمي.

(٣) معاوية بن أبي سفيان للعقاد: ص ١٤ - ١٥ ط بيروت.

● ذم معاوية ولعنه على لسان النبي ﷺ

ولقد ورد ذم معاوية، والدعاء عليه على لسان النبي ﷺ حتى في دور إسلامه في عدة مناسبات:

❑ منها حينما بعث إليه ليكتب له ^(١) فقيلاً: إنه يأكل، فبعث إليه تانياً فقيلاً: إنه يأكل، فقال في الثالثة: «لا أشبع الله بطنه» فما شبع معاوية بعد ذلك إلى أن هلك ^(٢).

❑ ومنها برواية أبي برزة الأسلمي ^(٣) قال: «كنا مع النبي ﷺ في سفر فسمع صوت غناء، فقال: انظروا! ما هذا؟ فصعدت، فنظرت فإذا معاوية وهمرو بن العاص يُغنيان، فجنحت النبي فأخبرته، فقال: اللهم أركسهما في الفتنة ركساً ودعهما في النار دعاً» ^(٤).

❑ ومنها برواية عبد الله بن مسعود قال: «قال رسول الله ﷺ: إذا رأيت معاوية بن أبي سفيان يخلب على منبري، فا ضربوا عنقه»، أو «فاقتلوه».

قال الحسن: فوالله، ما فعلوا، ولا أفعلوا ^(٥).

(١) يروي الذهبي في سير أعلامه: ج ٣ ضمن ترجمة معاوية برقم ٢٥٠ عن أبي الحسن الكوفي: إنه قال: (وكان معاوية يكتب للنبي ﷺ الكتب التي ينه ومن العرب ولم يكن يكتب الوحي).

(٢) المصدر الآنف: من سير أعلام الذهبي، ويعقب على الحديث بقوله: «فسره بعض المحدثين أو المعين فقال: لا أشبع الله بطنه، حتى لا يكون ممن يجرع يوم القيامة، لأن الخبر عنه ﷺ أنه قال: «أطول الناس شبعاً في الدنيا، أطولهم جوعاً يوم القيامة»؛ قلت: هذا ما صح، والتأويل ركك، وأضبه منه قوله ﷺ: «اللهم، من سبته أو شتمته من الأمة، فاجعلها له رحمة»، وعليه، فلا مجال لصرف دعاء النبي ﷺ المذكور على معاوية من الذم إلى المدح.

(٣) اشتهر بكنيته، واختلف في اسمه، وأسم أمه: إنه نضلة بن عبد الله أو عبيد الله أو بالعكس. أو نضلة بن عمرو، أو ابن عائد، ولعل الأصح: إنه نضلة بن عبيد الله بن الحارث الأسلمي من بني أسلم بن قيس بن هيلان كان من المتقدمين في إسلامه، ومن الذين حضروا مع النبي ﷺ عامة حروبه وغزواته، ومن الذين حضروا مع علي عليه السلام عامة حروبه، وبعد الانتهاء من واقعتي صفين والنهروان نزل البصرة ومات بها أو بفراسان حيث نزلها بعدما غزاها.

وكان موته قبل سنة ٦٠ هـ أو بعدها، ولعل الأصح: إنه توفي بعد موت يزيد: سنة ٦٥ هـ وسنأتي على طرف من ترجمته في بعض الفصول الآتية من الكتاب.

(٤) المصدر الآنف الذكر: من سير إعلاء النبلاء، ومستند أحمد بن حنبل: ج ٤ ص ٤٢١ ط مصر، وكتاب صفين: ص ٢٤٦ ط مصر، ولسان العرب لابن منظور ج ٧ ص ٤٠٤.

(٥) شرح النهج للحديثي: ج ٤ ص ٣٢ ج جديد، وتهذيب التهذيب لابن حجر: ج ٢ ص ٢٨، واللتالي المصنوعة للسيوطي ج ١ ص ٤٢٤، وتاريخ الخطيب في ج ١٢ ص ١٨١.

□ ومنها قوله ﷺ: «يطلع من هذا الفج رجل يموت - حين يموت - على غير سنتي، فطلع معاوية»^(١).

□ ومنها قول أبي ذر الغفاري لمعاوية: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: وقد مرت به: اللهم العنه ولا تشبهه إلا بالتراب» كما في غدير الأميني ج ٨ ص ٣١٢.

قلت: لا أدري ولعلي أدري ما وجهة نظر الأستاذ العقاد في تأويل هذه الأحاديث وأمثالها من المتواترة النقل عن النبي ﷺ في حق معاوية وصرفها عن مجراها اللغوي: من ورودها مورد الذم والغضب؟ وهل يعترف الأستاذ المحترم بورودها في حق رجلٍ قال هو عنه: «إنه لم تثبت عليه كلمة ولا فعلة تنقض تصديقه بدينه، ورعايته لفروضة وشعائره»^(٢)، اللهم أعذنا من شطحات الأوهام.

● مبدأ ولايته على الشام

استعمل عمر بن الخطاب: معاوية بن أبي سفيان على بعض قصبات الشام في سنة ١٨ هـ بعد موت أخيه يزيد بن أبي سفيان، وكان هو الآخر والياً على بعض قصبات الشام من قبل عمر.

فقد ذكرنا قبل هذا: أنه حينما استحضر «يزيد» عين أخاه معاوية مكانه، فعلم عمر بعد ذلك فأقره على ذلك.

ولكن ولاية معاوية كانت في زمن عمر غير موطدة ولا موسعة، وإنما هي صرف ولا متأرجحة، وليست ولاية تامة مستقرة.

وما أن جاء دور عثمان الزاهر لبني أمية بالخصوص حتى مهد لمعاوية دولته، ووسع له رقعة ولايته، وبسط له سلطانه، وبالأحرى: أن عثمان مهد لعامة بني أمية من بعده أسس الولاية، وركز لهم صولجان السلطان.

يقول الدكتور طه حسين: «وليس من شك في أن عثمان هو الذي مهد لمعاوية ما أتبع له:

(١) كتاب صفين: لنصر بن مزاحم؛ ص ٢٤٧ ط مصر، وفي تأريخ الطبري: ج ١١ ص ٣٥٧: «يطلع عليكم من هذا الفج رجلٌ

من أمّتي يحشر على غير سنتي».

(٢) بعض فقرات الجمل الإطرائية، التي نقلناها آنفاً عن كتاب الأستاذ العقاد: «معاوية بن أبي سفيان في الميزان».

من ثقل الخلافة ذات يوم إلى آل أبي سفيان، وتلييتها في بني أمية، فعثمان هو الذي وسع على معاوية في الولاية، فضم إليه (فلسطين) و(حمص) وأنشأ له وحدة شاميّة، بعيدة الأرجاء، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة، فكانت جيوشه أقوى جيوش المسلمين، ثم مدّ له في الولاية - أثناء خلافته كلها - كما فعل عمر، وأطلق يده في أمور الشام أكثر مما أطلقها عمر، فلما كانت (الفتن) نظر معاوية، فإذا هو أبعد الأمراء بالولاية عهداً، وأقوام جُنداً، وأملكهم لقلب الرعية^(١).

وقتل عثمان، فانقسمت الرقعة الإسلامية قسمين: أحدهما لا خلاف فيه وهو الشام حصّة معاوية، والآخر لا وفاق فيه، وهو حصّة علي من الحجاز والعراق، وقد تدخل مصر فيها حيناً وتخرج منها أكثر الأحيان.

وتولى معاوية بلاداً لا ينازعه فيها منازع، ولا يود أحدٌ فيها أن تخرج من يديه، وتوّل إلى غيره.

وتولى علي بلاداً، كلها نزاع: من أمر الخلافة، إلى أصغر الأمور... وهذا إلى الفارق بين وغرة المال من جانب، وندرتة من الجانب الآخر.

وهذا إلى فارق آخر أكبر وأعسر وأعضل على الحلّ والمحاولة، وهو الفارق بين الملك والخلافة، وقد اختلفت طريقتاهما منذ سنين، وتم افتراقهما بعد أيام عثمان. فكانت أعباء الخلافة كلها على علي، وكانت أحوال الملك كلها مع معاوية، مؤاتية له، محيطّة به فيما يريد، وفيما لا يريد^(٢).

● تمرد معاوية على علي عليه السلام في البيعة

وقتل عثمان حصيلة تصرفاته الناشئة عن سنن الحق والعدل بسيف الحق والعدل في أخريات ذي الحجة من سنة: «٣٥» هـ وتخلّف بعده علي بن أبي طالب عليه السلام، فبوع له بالحجاز بالإجماع.

وتخلّف عن بيعته ونكث عنها بعض أعناق الصحابة من المهاجرين والأنصار، أمثال: طلحة^(٣) والزبير^(٤)، ومحمد بن مسلمة^(٥)، وعبد الله بن عمر، وأخيه عبيد الله^(٦)، وأسامة بن

(١) الفتنة الكبرى لطلح حسن: ج ١ ص ١٢٠ ط مصر. (٢) معاوية بن أبي سفيان في الميزان للعقاد: ص ٣٠ ط بيروت.

(٣) أبو محمد: طلحة بن عبيد الله بن عمرو التميمي القرشي، من بني تميم بن مرة تميم: المكي بالولادة، والمدني بالهجرة المعروف

→ بطلة اليهود، والفايض لجوده وكرمه. ولد سنة ٢٨ قبل الهجرة، ثم كان من المتقدمين في إسلامهم، وصحب النبي ﷺ في مكة، ثم هاجر بعده إلى المدينة، وباع أباه بكر بعد وفاة النبي ﷺ وكان صهره على ابنته أم كلثوم ثم باع عمر بعد وفاة أبي بكر وكان من الستة أصحاب الشورى الذين رشحهم عمر للخلافة بعده ثم اذلف إلى جانب عثمان يوم الشورى فبايعه وظل من بطانته طيلة سني خلافته، وبعد مقتل عثمان واستخلاف علي عليه السلام تخلف عنه، بل بايعه في البداية ثم نكت بيعته، وتردد عليه، وأعلن العرب ضده مع التاكئين، أصحاب الجمل في البصرة وقتل في حرب البصرة وهو شاعر سلاحه في وجه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في جمادى الآخرة من سنة ٣٦ هـ ودفن هناك حيث قبره المعروف اليوم.

(٤) الزبير بالتصغير بن العوام بالتشديد بن خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشي.

ولد بمكة قبل الهجرة بـ «٢٨» عاماً وكان من المتقدمين في الإسلام والهجرة، ومن حوارى رسول الله ﷺ، وابن عمته صفية بنت عبد المطلب، وأول من سل سيفه مع علي عليه السلام في سبيل الله، وحضر مع النبي ﷺ بعد الهجرة بدرأ وما بعدها من حروبه وغزواته، وكان يوم السقيفة إلى جنب علي عليه السلام ولم يبايع أباه بكر حتى بايع علي عليه السلام، وكان من الستة أصحاب الشورى الذين عيّنهم عمر للخلافة بعده فتنازل بحقه إلى علي عليه السلام وانضم إليه.

ولم يزل مع علي عليه السلام حتى يبيع بعد مقتل عثمان فبايعه الزبير في البداية ثم كان من التاكئين المعارين له يوم الجمل فقتل حينئذ غدرأ وهو راجع من الحرب ودفن حيث مرقد اليوم، تحدثنا عنه بإيجاز ضمن الفصل السابع من الجزء الأول للكتاب، أثناء الحديث عن واقعة أحد، ومقتل حمزة فقي عبد المطلب.

(٥) محمد بن مسلمة بالفتح بن سلمة بالتحريك بن خالد بن عدي الأوسي، الأنصاري البصري.

ولد قبل الهجرة بـ ٣٥ عاماً ثم كان بعد ظهور الإسلام من المسارعين إليه، وإلى الهجرة مع أبيه. وشهد بدرأ مع النبي ﷺ وما بعدها من غزواته، واستخلفه على المدينة في غزوة تبوك، فلم يشهدا كما شهد فتح مكة وولاه عمر صدقات (جهينة)، وكان عنده معدأ لكشف أمور الولاة.

واعترل الفتنة في أيام عمر، فلم يشهد «الجمل» ولا «صلين» مع كلا الفريقين، وقيل إنه اتخذ سيفأ من خشب بعد وفاة النبي ﷺ فلم يشهد شيئأ من حروب الفتن، وتحول من المدينة إلى «الريضة» من قراها، حتى مات فيها سنة ٤٣ أو ٤٦ هـ عن نف أو سبعة وسبعين من العمر.

(٦) عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل بالتصغير بن عبد العزى بن رباح العدوي القرشي، وهو شقيق حفصة زوجة النبي ﷺ من أمهما زينب بنت مظهر بن الحصي، ولد قبل الهجرة بعشر سنين وأسلم وهاجر مع أبيه قبل أن يدرك، وكان ممن بايع تحت الشجرة، وكان له يوم بدر ثلاث عشرة سنة فلم يشارك في القتال، وكذلك استسفره النبي ﷺ يوم أحد، فرده إلى المدينة، وأول غزوة شارك فيها: «الغندق» وعمره يومئذ يتجاوز الخمس عشرة سنة، وشهد الفتح وله عشرون عاماً. اعترل في داره بعد وفاة النبي ﷺ وكذلك في سني الخلفاء الثلاثة، وبعد مقتل عثمان، واستخلاف علي عليه السلام تخلف عن البيعة له بالرغم من دعوة الإمام عليه السلام إياه وأتى عليأ في اليوم الثاني من بيعته، يدعو إلى أن يجعل الأمر شورى بين

زيد^(١) وسعد بن أبي وقاص^(٢)، وحسان بن ثابت^(٣)، وعبد الله بن سلام^(٤)، ومصقلة بن

→ المسلمين كما فعل أبوه عمر من قبل؟ فنهروا علي عليه السلام وقال له «قم عني يا أحق ما أنت وهذا الكلام»؟ فخرج من المدينة وأتى مكة فبسد الناس على علي عليه السلام، فتركه علي وشأنه. وبقي هواه في معاوية وإن اعتزل في بيته وتوغل هواه أكثر بعد قتل علي عليه السلام وصفاء الجو لمعاوية، فكان من الذين أيدوه لأخذ البيعة لابنه يزيد بعد أن أرسل إليه أموالاً كثيرة. ومن الذين بايعوا يزيد وسالموه بعد ذلك وقد ارتأى للحسين بن علي عليه السلام أن يصالح ويسالم «يزيد» فسفه الحسين عليه السلام وأبه ودعاه لنصرته، فامتنع.

كف بصره في آخرهات سني عمره. وتوفي بمكة سنة ٧٣ على الأشهر بعد قتل عبد الله بن الزبير بعدة أشهر عن ثمانين عاماً من العمر. وقد تكون لنا عودة خفيفة إلى ترجمته في بعض فصول الكتاب من أجزاءه الآتية اقتضاب من الإصاغة لابن حجر والاستيعاب لابن عبد البر، وأحياناً بن خلكان، وطبقات ابن سعد، وحلية أبي نعيم، وصفة الصفوة، وشذرات الحنبلي، وأعلام الزركلي.

وأما أخوه: عبيد الله بن عمر، فقد ولد على عهد رسول الله ﷺ وأسلم بعد إسلام أبيه، وأخيه، وكان من أنجاد قريش وفرسانهم وكرمائهم، وسكن المدينة بعد ذلك وغزا أفريقية هو وأخوه عبيد الله مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكان بعد وفاة النبي ﷺ وسني الخلفاء الثلاث متحرراً عن علي بن أبي طالب، ومزدلفاً إليهم كإخيه عبد الله.

وبعد مقتل عثمان، واستخلاف علي عليه السلام، امتنع عن البيعة له، ورحل إلى الشام، خوفاً من أن يقبده علي عليه السلام بالهرمز، وذلك: أن أبا لؤلؤة قاتل أبيه عمر كان في أرض فارس غلاماً للهرمز، فلما قتل عمر، شد عليه عبيد الله على الفور فقتله، واستجار بعثمان، فلما عنه عثمان طيلة سني خلافته فلما استخلف علي عليه السلام، أراد قتل عبيد الله بالهرمز لقتله إياه، فلماً وعدواتاً، ففر عبيد الله منه ولجأ إلى معاوية وجعل يعمل ضد علي عليه السلام فشده وقعة صفين مع معاوية فقتل فيها، وذلك سنة ٣٧ هـ اقتضاب من طبقات ابن سعد، وتاريخ الأسماء للنووي، واستيعاب ابن عبد البر، والأخبار الطوال، وأعلام الزركلي. (١) أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى الكلبي من كنانة عوف، صحابي، وابن صحابي، وحبيب رسول الله ﷺ وابن حبيبه، وأمه: أم أيمن حاضنة النبي ﷺ.

ولد بمكة قبل الهجرة بسبع سنين، ونشأ على الإسلام، لأن أباه زيدا كان من أوائل المسلمين، ورواه النبي ﷺ كما روى أباه وكان يدرج مع الحسن والحسين، ويهتدي بهما، وهاجر مع النبي ﷺ وأهل بيته إلى المدينة.

وأمره النبي ﷺ في بعض غزواته قبل أن يبلغ العشرين من عمره فكان مظفراً موفقاً. وطعن بعض الصحابة على النبي ﷺ تأمره له وهو بهذا السن فقال: «وأيهم الله، إنه لخلق بالإمارة، وإن أباه كان خليقاً بها». وأمره النبي ﷺ أيضاً وهو مريض على جيش لغزو الشام وفي الجيش أبو بكر وعمر فلم يخرجوا ولم يخرج أسامة، حتى توفي النبي ﷺ، فخرج إلى وادي القرى بمكة، واعتزل الفتنة. ثم انتقل إلى دمشق بعد مقتل عثمان واستخلاف علي عليه السلام ولم يبايع علياً عليه السلام، وبعد مقتل علي عليه السلام وصفاء الجو لمعاوية، سكن تالعة من قرى دمشق ثم عاد بعد ذلك إلى المدينة، فأقام فيها إلى أن مات بالجرع على ثلاثة أميال عن المدينة سنة ٥٤ هـ على الأصح.

ترجمنا لأبيه زيد، وأشرنا إلى ترجمته في آخرهات الفصل السادس من الجزء الأول من الكتاب.

هبيرة^(٥) وغيرهم ممن هربوا من عدالة علي بن أبي طالب عليه السلام.

قالوا: وممن تخلف عن بيعته علي أمير المؤمنين عليه السلام وتمرد عليه: معاوية بن أبي سفيان، وكان أشد المتمردين عليه، وأعنفهم، فطلب إلى الإمام عليه السلام بعض أصحابه أن ينهض على الفور بهم إلى حربه، بعد فراغه من حرب الجمل، فلم يجبههم علي عليه السلام إلى المبادرة، قبل أن يستدرجه، ويقيم الحجة عليه ببعث الرسائل والرسائل إليه.

● المكاتبات بين علي عليه السلام ومعاوية

لقد دارت بين أمير المؤمنين عليه السلام وبين معاوية على إثر تمرده معاوية عن البيعة لعلي عليه السلام بعد مقتل عثمان وتقبض معاوية على الشام بعامة بلدانها ونواحيها، وكانت

(٢) سعد بن أبي وقاص (مالك) بن أهب بن عبد مناف بن زهرة القرشي تقدمت ترجمته منا في خضون الفصل السادس، أثناء الحديث عن الوليد بن عقبة وولايته.

(٣) ترجمناه في أخريات الفصل السابع للجزء الأول من الكتاب.

(٤) عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، حليف الأنصار، قيل: إنه من أبناء أو أسباط النبي يوسف بن يعقوب عليه السلام. أسلم عند الهجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، وكان اسمه قبل إسلامه «الحصن» فسماه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما أسلم عبد الله، وهو المراد عند بعض المفسرين من قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى يَدَيْهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مَنْ عَيْتُهُ فَلَهُ الْكِتَابُ». شهد مع عمر فتح بيت المقدس، والجابية، وبقي نازلاً في المدينة حتى إذا كان مقتل عثمان، واضطربت الفتنة بين علي ومعاوية، اتخذ سيفاً من خشب، واعتزل في بيته ولم يبيع علياً عليه السلام إلى أن مات بالمدينة سنة ٤٣ هـ.

(٥) مصللة بالفتح بن هبيرة بالتصغير بن شبل بالكسر التلمذي، الشيباني، من بني بكر بن وائل، كان من التواد، والولاء، والروءاء، وكان من رجال علي عليه السلام في البداية بعد مقتل عثمان ومن المبادرين إلى بيعته فأقامه علي عليه السلام عاملاً له في بعض كور الأهواز. ولكنه سرعان ما ترك عمله، والتحق بمعاوية، حيث إنه كما يقول السعدي في مروجوه كان قد اشترى أسرى الخوارج من جماعة الخريز بن راشد السامي، فالتوى بما شرطه على نفسه من تمنهم، فطالبه ابن عباس بأداء الدين، فقال له: «لو طلبت أكثر من هذا المال إلى ابن عفان ما منعتني إياه»، فاحتال، فهرب من الأهواز إلى البصرة، ومنها إلى الشام، فتلقا معاوية أحسن لقاء، وأكرمه وأرضاه نكابةً بعلي عليه السلام، وبقي مع معاوية في الشام حتى إذا كانت وقعة صفين حضر معه، وبعد استقرار الأمر لمعاوية بعد مهزلة الصلح جهزه معاوية في جيش كثيف، عدته (عشرة آلاف، أو عشرون ألفاً)، وولاه «طبرستان» قبل فتحها فتوجه إليها، فتوغل في بلادها، وبينما هو عائد يجتاز بعض عقباتها، إذ احتوشه العدو، وجهشه، ففقدوهم بالحجارة والصخور من أعالي الجبال حتى قتل، وقتل معه أكثر من معه وذلك في سنة ٥٠ هـ باقتضاب من مروج السعدي، ووقعة صفين، وفتوح البلدان للبلاذري، ومجموع البلدان للحموي، والشعر والشعراء للمريزاني، وأعلام الزركلي.

المكاتبات ثم إرسال الرسل بينهما من طلائع حرب «صفين»، ثم كانت الحرب بين الفريقين.

فكان أوّل ما كتبه الإمام (عليه السلام) إلى معاوية من المدينة على أثر انشغال الناس لبيعته بعد مقتل عثمان: كتابه الذي يقول فيه: «من عبد الله أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد، فقد علمت إغداري فيكم، وإعراضي عنكم، حتى كان ما لا بد منه، ولا دفع له، والحديث طويل، والكلام كثير، وقد أدبر ما أدبر، وأقبل ما أقبل، فبايع من قبلك، وأقبل إلي في وفد من أصحابك، والسلام»^(١).

والملاحظ: أن الكتاب بدءاً وختاماً موجه إلى معاوية، غير أن الخطاب في خلاله إلى عموم بني أمية باعتبارهم الشجرة التي تفرع عنها معاوية، وأنه بهم، وبأحلافهم، ومردتهم من أهل الشام كان لمعاوية ذلك التنمر الصلف في وجه أمير المؤمنين (عليه السلام)، وحيث أن له في كладوري الجاهلية والإسلام مواقف معادية لبني هاشم عامة ولعلي بن أبي طالب خاصة باعتبارها الشاخص المفضل من بني هاشم بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما أشرنا إلى ذلك.

وقوله (عليه السلام): «وقد علمت إغداري فيكم ...» أي فيما وعمّا فعلتم واقترفتم وتنتمتم أيام عثمان، بتمهيد منه، ويقطع كلامه.

ثم يقول: وقد أدبر من ذلك الزمان أي: زمان عثمان، وطوينا صفحته، وأقبل ما أقبل من هذا الزمان أي زمان خلافته بعد عثمان.

ثم يأمر معاوية بعد الغض عما مضى أن يبايع الآن ويقبل إليه مع وفد من أصحابه وذويه ليعلن البيعة بين الناس.

وهنا يعلق ابن أبي الحديد على هذه الفقرة الأخيرة من الكتاب فيقول: «وكيف يبايع معاوية علياً وعينه طامحة إلى الملك والرئاسة، منذ أقره عمر على الشام ...

وكيف يُطليح علياً؟ والمحزّضون له على حربه عدد الحصى؟

ولو لم يكن إلا الوليد بن عقبة، لكفى، وكيف يسمع قوله:

(١) نهج البلاغة فصل الكتب والوصايا وشروحه، خصوصاً: شرح ابن أبي الحديد: ج ١٨ ص ٦٨ ط دار إحياء الكتب العربية.

فوالله ما همد بأك إن مضى النهار ولم يثأر بعثمان شائر
أيقتل عبد القوم سيد أهله ولم تقتلوه ليت أمك عاقر
ومن عجب أن بث بالشام وادعاً قريراً وقد دارت عليك الدوائر

ويطبع علياً؟ ويُبائع له، ويقدم عليه؟ ويُسلم نفسه إليه؟

وهو نازل بالشام في وسط قحطان، ودونه منهم (حزة) ^(١) لا تُرام، وهم أطوع له من نعله، والأمر قد أمكنه الشروع فيه ^(٢).

أقول: وكيف يريد علي عليه السلام من معاوية أن يبايعه ويطيعه ويقدم عليه؟ «وقد كان معاوية على قدم الدهر مبغضاً لعلي، شديد الانحراف عنه؟ وكيف لا ييفضه، وقد قتل أخاه حنظلة يوم بدر وخاله الوليد بن عقبة، وشرك عمه أي عم علي وهو الحمزة في جده أي جده معاوية لأمه، وهو عتبة بن ربيعة أو في عمه: شيبه على اختلاف الرواية، وقتل (علي) من بني عمه عبد شمس نفراً كثيراً من أعيانهم، وأماهم» ^(٣).

ثم إن هذا الكتاب من علي عليه السلام مبده الكتب والمراسلات بينه وبين معاوية في شأن البيعة، وبعد ذلك أخذت الكتب تتوالى بين الجانبين مدة من الزمن، قبيل واقعة صفين، فعلي عليه السلام يكتب إلى معاوية، يدعوه بالإسراع لمبايعته وطاعته بحكم كونه الخليفة الشرعي الذي بايعه عامة الناس بعد مقتل عثمان، ومعاوية يجيب علياً بالرد والامتناع عليه، ويعرض بسببه وشتمه بحكم تمرده وتقويه في قضية الشام الواسعة بتمهيد عثمان له وجعله الوالي المدلل، المتميز عن بقية ولاته، وقد حفلت بتلك المراسلات بين الفريقين عامة كتب السير ضمن الحديث عن واقعة صفين وكذلك ذكرت في كتاب صفين لنصر بن مزاحم المنقري، وكذلك ذكرت في كتاب «نهج البلاغة» وشروحه، خصوصاً: شرحه المفصل لابن أبي الحديد ^(٤).

(١) من معاني «المرآة» بالفتح والشدة: الأرض ذات حجارة نخرة سود، كأنها أحرقت بالنار.

(٢) المصدر الآنف: من شرح النهج. (٣) شرح النهج للحديدي: ج ١ ص ٢٣٨ ط جديد.

(٤) مراجع منه: الأجزاء التالية: ١٤، ١٦، ١٨ وغيرها من الطبع الجديد، ومن المناسب الإشارة إلى غير الكتاب المذكور من

بعض ما كتبه الإمام عليه السلام إلى معاوية فنقول: «من كتاب له عليه السلام إلى معاوية: «فألق عما أنت عليه، من الفئ والضلال على

وحيث أن درج جميع المراسلات بين الفريقين يخرجنا عن الإيجاز إلى التفصيل فنحيل إلى مظانها من المصادر المشار إليها، وغيرها.

→ كبر سنك، وفناء عمرك، فإن حالك اليوم كحال التوب المهيل الذي لا يُصلح من جانب إلا فسد من آخر. وقد أردت جيلاً من الناس كثيراً، خدعتهم بغيرك، وألقيتهم في موج بحرك، تفشاهم الظلمات، وتلاطم بهم الشبهات، فجاروا عن وجهتهم ونكسوا على أعقابهم، وتولوا على أدهارهم، وعولوا على أحسابهم، إلا من فاء من أهل البصائر، فيكفهم فاروقه بعد معرفتك وهربوا إلى الله من مؤازرتك، إذ حملتهم على الصعب، وعدلت بهم عن القصد: نهج البلاغة مع شروحه.

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية: «فإن ما أنبت به من ضلالك ليس يبيد الشبه بما أتى به أهلك وقومك الذين حملهم الكثر وتغني الأباطيل على حسد محمد ﷺ حتى صرعوا مصارعهم حيث علمت لم يمتعوا حريماً، ولم يدفعوا عظيماً، وأنا صاحبهم في تلك المواطن، الصالي بحريهم، والقال لعدتهم، والقاتل لرؤوسهم ورؤوس الضلالة، والمُتَّبِعُ إن شاء الله خلفهم بسلفهم، فيتس الخلف خلف أتبع سلفاً محله ومعه التار...» نهج البلاغة وشروحه.

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية قوله: «أما بعد، فإن مساويك مع علم الله تعالى فيك حالت بينك وبين أن تصلح لك أمرك وأن يرعوي قبلك، يا ابن سخر اللعين، زعمت أن يزن الجبال حملك، ويفصل بين أهل التشك حملك، وأنت الجلف المنافق، الأغلف القلب، القليل العقل، الجبان الرذل...».

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية: «... أما بعد فقد آن لك أن تتطع باللمح الباصر من عيان الأمور، فلقد سلكت مدارج أسلاك بادعائك الأباطيل واقتحامك غرور الدين والأكاذيب: من اتحاك ما قد علا عنك، وابتزازك لما قد اخترت دونك، فإراداً من الحق وجحوداً لما هو أزم لك من لحملك ودمك مما قد وعاء سمك وملى به صدرك، فمافدا بعد الحق إلا الضلال المبين». نهج البلاغة وشروحه.

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية: «مضى كنتم يا معاوية ساسة للرعية أو ولاة لأمر هذه الأمة بخير قدم حسن ولاشرف سابق على قومكم، فشر لما قد نزل بك، ولا تمكن الشيطان من يمينه فيك، مع أنني أعرف إن الله ورسوله صادقان، فتعوذ بالله من لزوم سابق الشقاء..»

وإلا فتعلم أعلملك ما أغتاله من نفسك فإنك مترف قد أخذ منك الشيطان مأخذه، فجري منك مجرى الدم في المروى». نهج البلاغة وشروحه وكتاب صفين لنصر بن مزاحم.

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية: «... فائق لله فيما لديك، وانظر في حقه عليك، وارجع إلى سرقة ما لا تحذر لجهافته، فإن للطاعة أعلاماً واضحة وسبلاً نيرة، ومحجة نهجة، وغاية مطلوبة، يردها الأكياس، ويغالفها الانكاس، من نكب عنها جار عن الحق، وخط في التيه، وغير الله نعمته وأحل به تقته، فنفسك نفسك فقد بين الله لك سبيلك وحيث تاهت بك أمورك فقد أجريت إلى غايه خسر ومحللة كفر، وإن نفسك قد أولجتك شرراً، وأفسدتك شياً وأوردتك المهالك، وأوعرت عليك المسالك». نهج البلاغة وشروحه.

● المراسلات بين الفريقين في طلائع حرب صفين

وكان أول رسول بعثه الإمام عليه السلام إلى معاوية في هذا الشأن هو جرير بن عبد الله البجلي^(١) بعد أن استجلبه من موقع عمله في ثغر همدان^(٢) إلى الكوفة.

(١) جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك بن نصر بن ثعلبة .. البجلي القسري، وقسر: من قبائل قحطان.

أسلم في رمضان للسنة العاشرة للهجرة ومعه من قومه: ١٥٠ رجلاً، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله عن إسلامه، وإسلام قومه من قبل فقال يوماً لأصحابه: «يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذي يمن» أي: من خير أهل اليمن طلع جرير على راحلته، ومعه قومه، فأسلموا. سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ٢ ضمن ترجمته برقم ٢٠٧.

وكان جرير حسن السمات، جميل الصورة، أنيق المنظر واللباس، أنهر به عمر بن الخطاب، فقال عنه: «جرير يوسف هذه الأمة» المصدر الآنف وكان يوم القادسية على ميمنة سعد بن أبي وقاص حتى إذا وضعت الحرب أوزارها، وتمصرت الكوفة نزل فيها، ثم انتقل إلى «فرقيسا» بقالين، وباء من بلد على نهر الخابور من شمال العراق، واستعمله عثمان طيلة سني خلافته على همدان. وبعد مقتل عثمان واستخلاف علي عليه السلام وفراغه من حرب البصرة واستقراره في الكوفة كتب إليه كتاباً يدعو فيه إلى بيعته وأهل همدان فأجاب جرير كما أجاب أهل همدان إلى ذلك وأقره علي عليه السلام على ولاية همدان، وتفصيل قصته وقصتهم بفصلها ابن أبي الحديد في شرحه: ج ٣ ص ٧٠ - ٧٣ من الطبع الجديد.

قال ابن أبي الحديد: «... لما قدم علي عليه السلام الكوفة بعد القضاء أمر الجمل كاتب العمال، فكتب إلى جرير بن عبد الله البجلي مع زحر بن قيس الجعفي وكان جرير عاملاً لخصان على ثغر همدان:

«أما بعد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَتَّبِعُوا مَا يَأْمُرُهُمْ وَإِذَا تَرَادَىٰ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنِّ إِلَهٍ﴾ الرعد: ١١. وإني أخبرك عن نيا من سرنا إليه من جموع طلعة والزير عند نكتهم يعني وما صنعوا بعاملي عثمان بن حنيف، وأني نهضت من المدينة بالمهاجرين والأنصار، حتى إذا كنت بالطبيب بالتصغير: ماء عن يمن القادسية لبني تميم بعثت إلى أهل الكوفة: الحسن بن علي وعبد الله بن عباس وعمار بن ياسر وقيس بن عباد، فاستنفرتهم فأجابوا عسرت بهم حتى نزلت بظهر البصرة، فأعذرت في الدعاء وأقلت العثرة، وناشدتهم عهد بيمينهم فأبوا إلا قتالي، فاستعنت الله عليهم، فقتل من قتل وولوا مدبرين إلى مصرهم، وسألوني ما كنت دعوتهم إليه قبل اللقاء، فقبلت العافية ورفعت السيف، واستصلت عليهم عبد الله بن العباس، وسرت إلى الكوفة، وقد بعثت إليك زحر بن قيس فأسأله عما بدا لك، والسلام».

قال الرازي: «فلما قرأ جرير الكتاب، قام فقال: «أيها الناس هذا كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو المأمون على الدين والدنيا، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما نحمد الله عليه، وقد بايعه الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ولو جمل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقهم بها، ألا وإن البقاء في الجماعة، والفناء في الفرقة، وإن علياً حاكمكم على الحق ما استقمتم وإن ملتم أقام مملكم».

فتجاوب الناس وقالوا: سمعاً وطاعة، رضينا ورضينا.

● إرسال علي عليه السلام جريراً إلى معاوية مع كتابه إليه

قال ابن أبي الحديد نقلًا عن وقعة صفين: «فلما أراد علي أن يبعث إلى معاوية رسولاً قال له جرير: ابعثني - يا أمير المؤمنين إليه، فإنه لم يزل مستخصاً، ووداً، آتية، فادعوه على أن يسلم لك هذا الأمر، ويجامعك على الحق على أن يكون أميراً من أمراك، وعاملاً من عتاك، ما عمل بطاعة الله، واتباع ما في كتاب الله، وادعو أهل الشام إلى طاعتك وولايتك، فجلهم قومي وأهل بلادتي، وقد رجوت ألا يعصوني».

فاعترض مالك الأشتر: علياً عليه السلام في بعث جرير، وقال له فيما قال: «يا أمير المؤمنين، لا تبعه، ولا تُصدق؟ فوالله، إني لأظن هواه: هواهم، ونيتهم نيتهم». يعني: معاوية وبني أمية. فقال له الإمام عليه السلام: دعه، حتى ننظر ما يرجع به إلينا؟ هكذا في كامل ابن الأثير ج ٣. وقال له عليه السلام حين أراد أن يبعثه: «إن حولي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من أهل الرأي

→ قال ابن أبي الحديد نقلًا عن نصر بن مزاحم: «ثم إن جريراً قام في أهل همدان خطيباً فقال: الحمد لله الذي اختار لنفسه الحمد وتولاه دون خلفه. لا تخشع له في الحمد ولا نظير له في المجد، ولا إله إلا الله وحده الدائم القائم، إله السماء والأرض. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أرسله بالأنوار الواضحة والحق الناطق داعياً إلى الخير وقائداً إلى الهدى» ثم قال: «أيها الناس إن علياً قد كتب إليكم كتاباً لا يقال بعده إلا رجيع من القول، ولكن لا بد من رد الكلام، إن الناس يابحوا علياً بالمدينة عن غير محابة له ببيعتهم، لعلهم بكتاب الله، وسنن الحق، وإن طلحة والزبير نقضا بيعته على غير محابة حدثت، وأثبتا عليه الناس، ثم لم يرضيا حتى نصاب له الحرب، وأخرجنا (أأم المؤمنين) فلقبهما، فاعذر في الدعاة وأحسن في البقية، وحمل الناس على ما يعرفون، فهذا عيان ما غاب عنكم، وإن سأتم الزيادة زدناكم، ولا قوة إلا بالله»، ثم قال:

اتنابنا كتاب علي فلم	نرد الكساف بارض العجم
ولم نعلم ما فيه لما أتى	ولمنا نذم ولمنا نكلم
ونحن ولاة على ثغورنا	نخيم العزيز ونحمي للذمم
نساقبهم الموت عند اللقاء	بعاس المنايا ونشفي القرم
فصلى الإله على أحمد	رسول المليك تحام النعم
رسول المليك ومن بعده	خليفتنا القائم المذمم
عليّاً عنيث وصي النبي	نجالد منه غواة الأمم
له الفضل والسبق والمكرمات	وبيت النبوة لا يسهضم

قال نصر: فسر الناس بخطبة جرير وشعره.

(٢) همدان بالتحريك والإعجام والإجمال: مدينة كبيرة بجهال بلاد فارس في طريق طهران للذهاب من العراق.

والدين: من قد رأيت. وقد اخترتك عليهم، لقول رسول الله ﷺ فيك: إنك من خير ذي يمن - أي أهل اليمن - إئت معاوية بكتابي؟ فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون، وإلا، فانبذ إليه، وأعلمه أنني لا أرضى به أميراً، وأن العامة لا ترضى به خليفة».

فانطلق جرير وهو يحمل كتاب علي إلى معاوية وهذا نصه:

«أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة لزمك، وأنت بالشام، لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر، وعمر، وعثمان - على ما بويعوا عليه - فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار - إلى قوله في آخر الكتاب - فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحب الأمور إلي فيك العافية، إلا أن تتعرض للبلاء، فإن تعرضت له قاتلتك، واستعنت بالله عليك. وقد أكثرت في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه الناس؟ ثم حاكم القوم إلي أحملك - وإياهم - على كتاب الله.

فأما تلك التي تريدها - ولعله يقصد: جباية الشام ومصر - فخذعة الصبي عن اللبن. ولعمري، لئن نظرت بعقلك دون هواك، لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان، وأعلم أنك من الطلقاء^(١) الذين لا تحل لهم الخلافة، ولا تعرض فيهم الشورى. وقد أرسلت إليك وإلى من قبلك: جرير بن عبد الله البجلي، وهو من أهل الإيمان والهجرة، فبايع؟ ولا قوة إلا بالله».

وانطلق جرير بكتاب علي ﷺ حتى أتى الشام، ودخل على معاوية، فقال بعد الحمد والثناء «أما بعد، يا معاوية فإنه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين وأهل المصريين، وأهل الحجاز، وأهل اليمن، وأهل مصر، وأهل العروض - والعروض بالفتح: عُمان، وأهل البحرين، واليمامة، فلم تبق إلا هذه الحصون التي أنت فيها، لو سال عليها سيلاً من أوديته، غرقها، وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك: إلى مبايعة هذا الرجل ..».

ودفع جرير إلى معاوية: كتاب علي الذي زوده به ثم جلس.

خطبة معاوية بأهل الشام ومبايعتهم له وأجابوه إلى الطلب بدم عثمان ثم إن جريراً بعدما دفع كتاب علي ﷺ إلى معاوية، وقرأه معاوية على الحاضرين

(١) وهم الأسارى الذين أطلقهم الرسول ﷺ يوم فتح مكة، فلم يسترقهم ولا استغفاهم، بل قال لهم: كلمة العفو العام: «أذهبوا فأنتم الطلقاء»، كما تحدثنا عن ذلك في تنهايا الفصل السابع من هذا الجزء من الكتاب.

نهض خطيباً في المجلس فقال فيما قال:

أيها الناس إن أمر عثمان قد أعبى من شهوده، فكيف بمن غاب عنه؟ وإن الناس قد بايعوا علياً - غير واثق ولا موتور، وكان طلحة والزبير ممن بايعاه، ثم نكثا بيعته، على غير حدث، ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتنة، وقد كانت بالبصرة أسس روعة ملحمة أن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس، وقد بايعت العامة علياً، ولو ملكنا والله الأمور لم نختر لها غيره.

ثم التفت إلى معاوية، وقال: «ادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس، فإن قلت: استعمنني عثمان، ثم لم يعزلني، فإن هذا قول، لو جاز لم يبق لله دين، وكان لكل امرئ ما في يديه، ولكن الله جعل للأخ من الولاة حق الأول وجعل الأمور موطأة، ينسخ بعضها بعضاً»، ثم جلس وسكت.

فقال معاوية لجريز: أنظر، وتنظر، وأستطلع رأي أهل الشام؟ ومضت أيام بعد هذا وإذا بمعاوية يأمر مناديه أن ينادي بالصلاة جامعة، فلما اجتمع الناس في الجامع، صعد المنبر، وقال في أواخر ما قال: «أيها الناس قد علمتم اني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان عليكم، وأنى ولي عثمان - وقد قتل مظلوماً - والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَاناً فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾^(١)، وأنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان؟».

فقام إليه أهل الشام بأجمعهم وأجابوه إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك، وأوتقوا له على أن يبذلوا بين يديه أموالهم وأنفسهم، حتى يدركوا بثاره، أو تلحق أرواحهم بالله؟

ثم إن معاوية أمسى تلك الليلة وقد أغتم بما هو فيه، وجته الليل، وعنده أهل بيته، فسمع يقول في أخريات الليل:

تطاول ليلي واعترنني وساوسي	لأتى بالثرهات البساسيس ^(٢)
أناني جريز والحوادث جمه	بتلك التي فيها اجتداغ المعاطس

(١) الإسراء / ٣٣، وأول الآية هكذا: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾.

(٢) الثرعات بالتشديد: الأباطيل، والدواهي، والبساسيس: الأمور الباطلة، نظير الثرعات.

أكايدهِ والسيفَ بيَني وبينه ولست لأُكوابَ الدُني بلباس^(١)
 إن الشامَ أعطت طاعةَ يَمني توأصلها أشياخنا في المجالس
 فإن يَغلوا أهدمَ علياً بجهبة تفتُ عليه كل رطبٍ ويابس^(٢)
 وإنني لأرجو خير ما نال نائل وما أنا من تلك العرافِ بآيس
 واستحثه جريرٌ بالبيعة، فقال معاوية: «يا جرير، إنها ليست بخلسة، وإنه أمرٌ له ما بعده،

فأبلغني ربي حتى أنظر؟»

ثم دعاه معاوية بثقاته ومنهم أخوه: عتبة بن أبي سفيان، وكان نظيره في يقضه لعلي عليه السلام فأشار عليه بالاستعانة بعمر بن العاص، وقال له: إنه من قد عرفت، وقد اعتزل أمر عثمان في حياته، وهو لأمرك أشدَّ اعتزلاً، إلا أن يضمن له دينه أو يرى فرصة^(٣).

● إخفاق جرير في سفارته إلى معاوية

قالوا: وأتى معاوية بعد ذلك جريراً في منزله، فقال له: يا جرير، إنني قد رأيت رأياً؟ قال: هاته؟ قال معاوية: أكتب إلى صاحبك يعني علياً: يجعل لي الشام ومصر جبايةً، فإذا حضرته الوفاة، لم يجعل لأحد بعده في عنقي: بيعة، وأسلم له هذا الأمر، وأكتب إليه بالخلافة.

فقال جرير وقد لفه معاوية بحبالته: اكتب ما أردت وأكتب معك؟

فكتب معاوية ما أراد إلى علي، وكتب جرير معه، كما أراد، فكتب علي عليه السلام إلى جرير وهو بعد لا يزال في الشام: «أما بعد، فإنما أراد معاوية ألا تكون لي في عنقه بيعة، وأن يختار من أمره ما أحب، وأراد أن يريتك، ويبطئك، حتى يذوق أهل الشام إلى قوله في آخر الكتاب: فإن بايعك الرجل، وإلا فأقبل، والسلام».

فلما انتهى الكتابُ إلى جرير، أتى معاوية، فأقرأه كتاب علي عليه السلام وقال له: «يا معاوية، إنه لا يطبع على قلبٍ إلا بذنب، ولا يشرح صدر إلا بتوبة، ولا أظن قلبك إلا مطبوعاً عليه؟ أراك قد

(١) المكيدة: المكر والخديعة، ويقصد: علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٢) المراد بالجهبة هاهنا: الخيل، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس في الجبهة صدقة» أي زكاة، عن شرح ابن أبي الحديد.

(٣) شرح النهج للمحدي: ج ٣ ص ٧٨ - ٧٩ ط جديد، نقلًا عن وقعة صفين لنصر بن مزاحم.

وقفت بين الحق والباطل، كأنك تنتظر شيئاً في يد غيرك.

فقال معاوية: ألقاك بالفصل في أول مجلس إن شاء الله، وشاع بين العرب خبر كتاب معاوية إلى علي عليه السلام وطلبه منه ما طلب ورفض علي عليه السلام ذلك. فبعث إليه الوليد بن عقبة يؤنبه على خضوعه وتنازله لعلي عليه السلام بهذه الآيات:

معاوي، إن الشام شامك فاعتصم	بشامك لا تدخل عليك الأساعيا
وحام عليها بالصوارم والقنا	ولا تك موهون الزراعين وانبا
وإن علياً نافر ما تجيبه	فأمد له حرباً تشيب النواصيا
وإلا فسلم إن في السلم راحة	لمن لا يريد الحرب فاختر معاويا
وإن كتاباً - يابن حرب - كتبه	على طمع، يُزجي إليك الدواهيا
سألت علياً فيه ما لن تناله	ولو ناله لم يسبق إلا ليلابا
وسوف ترى منه التي ليس بعدها	بقاء فلا تكثر عليك الأماني
أمثل علي تعتريه بخدعة	وقد كان ما جرّبت - من قبل - كالبا

● إصرار معاوية على مناجزة الحرب

ثم إن جريراً أبطأ في الشام، حيث أخذه معاوية بدهائه، حتى اتهمه الناس بأنه صبا إلى معاوية، وأبطأ على علي عليه السلام حتى آيس منه، وقال على ملاً من أصحابه: «قد وقت لجرير وقتاً، لا يُقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً».

وكتب علي عليه السلام إلى جرير بعد أن أستبطأه: «أما بعد فإذا أتاك كتابي، فاحمل معاوية على الفصل؟ وخذه بالأمر الجزم؟ ثم خيّرهُ بالجواب: بين حرب مجلية، أو سلم مخزية؟ فإن اختار الحرب فانبذ إليه؟ وإن اختار السلم فخذ بيعته؟ والسلام»^(١).

(١) ويشرح ابن أبي الحديد: بعض فقرات الكتاب، فيقول: «فاحمل معاوية على الفصل... أي: القطع ولا تتركه متلكتاً متردداً يطمعك تارة ويؤسك أخرى، بل احمله على أمر فيصل: إما البيعة، أو الإذن في الحرب، «وخذه بالأمر الجزم» أي: الأمر المقطوع به، ولا تكن ممن يقدم: رجلاً ويؤخر أخرى، «وحرب مجلية» أي: تجلي المفهوين فيها عن ديارهم، أي: تخرجهم عنها.

و«سلم مخزية» أي: فاشحة، وإنما جعلها مخزية لأن معاوية امتنع أولاً عن البيعة.

فإذا دخل في السلم فإنما دخل فيها بالبيعة، وإذا باع بعد الامتناع فقد دخل تحت الهضم، ورضي بالضم وذلك هو الغزي.

ولما آيس «جدير» من تطويع معاوية لعلي عليه السلام وعزم على الرجوع إلى الكوفة، كتب معاوية معه: جواباً عن كتاب علي عليه السلام إليه، أصرح فيه عن رأيه الأخير في امتناعه عن بيعته علي، وتصميمه على محاربته، جاء فيه:

«من معاوية بن صخر إلى علي بن أبي طالب، أما بعد، فلعمرى، لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بري من دم عثمان كنت كأبي بكر، وعمر، وعثمان.

ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين، وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل، وقوي بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت - أي الخلافة - شورى بين المسلمين.

ولعمري، ليس حجتك علي، كحجتك على طلحة، والزبير، لأنهما بايعاك، ولم أبايك، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة، لأن أهل البصرة أطاعوك، ولم يطعك أهل الشام».

ثم كتب في آخر كتاب: شعر كعب بن جعيل^(١) الذي أوله:

أرى الشام تكبره أهل العراق وأهل العراق لهم كارهونا^(٢)

(١) كعب بن جعيل بالصغير بن عجرة بن قمبر أوبالكس التفلي، شاعر تغلب في عصره. ومن الشعراء المخضرمين الذين عرفوا في الجاهلية والإسلام وكان شريف قومه في العهدين وكان من المهابة بين الناس بحيث لا ينزل يقوم إلا أكرموه، وضرى له قبة وحده.

وكان شاعر معاوية، وبعض زعماء أهل الشام، يمدحهم، ويرد عنهم، وشهد مع معاوية وقعة صفين، وقال فيها الشعر، والأشهاد الحرية، ومن ذلك: قصيدته المشار إليها، توفي نحو سنة ٥٥ هـ انتصاب من سمط الثاني، وخزانة للبيضاوي، والشعر والشعراء، ومجمع الأدباء، وأعلام الزركلي.

(٢) أشار هنا ابن أبي الحديد إلى أول بيت من قصيدة كعب هذا وذكرها بجملة في ج ٧ ص ١٢٦ - ١٢٨ من شرحه وهي بعد البيت الأول:

وكل لصحابه شيبض	يرى كل ما كان من ذاك ديننا
إذا مكارهونا رميناهم	ودناهم مثل ما يقرضونا
وقالوا علياً أمام لنا	فقلنا: رخصنا ابن هند رخصنا
وقالوا: نرى أن ندينوا لنا	فقلنا: ألا لا نرى أن نديننا

بهذه النتيجة المصهرة: من موقف أمام أمير المؤمنين عليه السلام رجح جرير وقد أخفق في سفارته بعد الإبطاء، حتى ظنَّ الناس به الظنون، فصَحَّ ما تكهن به مالك الأشر من قبل^(١).

وبعد أن سلَّمه جرير كتاب معاوية، وقرأه، كتب جوابه هكذا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر بن حرب.
أما بعد، فإنه أتانني منك كتاب امري، ليس له بصُرْ يهديه ولا قائد يرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده الضلال فاتبعه، زعمت أنك إنما أفسد عليك تبعتي خطيئتي في عثمان، ولعمري،

→ ومن دون ذلك خرط الفتاد	وطعنٌ وضرب يُفترِ العيوننا
ومكَل يسرُ بما عسده	يرى غث ما في يديه سميننا
وما لي علي لمستعتب	مقلَّ سوى ضمته المحدثينا
وإبطاره - اليوم - أهل الذنوب	ورفع القصاص عن القاطنين
إذا سبيل منه هذا شبيهة	وعنى الجواب على السائلينا
فليس براهن ولا ساخط	ولا فسي الفهاة ولا الأمرينا
ولا هسو ساء ولا سره	ولا بئ من بعض ذا أن يكونا

ويعلق ابن أبي الحديد على الشعر هناك فيقول: «وهذا شعر غيبت منكرو، ومقصد عميق، وما قال هذا الشعر إلا بعد أن قتل إلى أهل الشام كلام كثير لأمر المؤمنين عليه السلام في عثمان يجري هذا المجرى نحو قوله: «ما حربي ولا ساءني»، وقيل له: أرضيت بقتله؟ فقال: لم أرض، فقيل له: أسخطت قتله؟ فقال: لم أسخط، وقوله تارة: الله قتله وأنا معه، وقوله أخرى: ما قتلت عثمان، ولا مالأت في قتله، وقوله تارة: كنت رجلاً من المسلمين، أوردت إذا أوردوا، وأصدرت إذا أصدروا، ولكل شيء من كلامه إذا صح عنه تأويل، يعرفه أولوا الألباب».

(١) وهنا يقول ابن الأثير في كامله: ج ٣ ص ١٤٢ «فلما عاد جرير إلى أمير المؤمنين علي، وأخبره خبر معاوية واجتماع أهل الشام معه على قتاله وأنهم سيكون على عثمان ويقولون إن علياً قتله، وآوى قتلته، وأنهم لا ينتهون عنه حتى يقتلهم أو يقتلوه، قال الأشر لعلي: قد كنت تهتك أن ترسل جريراً وأخبرتك بهداوته وغشقه، ولو كنت أرسلتني لكان خير من هذا الذي أقام عنده، حتى لم يدع باباً يرجي فتحه إلا فتحه ولا باباً يخاف منه إلا أخلقه، فقال جرير لمالك: لو كنت ثم تقتلوه، لقد ذكروا لك من قتلة عثمان، فقال الأشر: والله، لو أتيتهم لم يهينوا جوارهم، ولحملت معاوية على خطئه أعجله فيها عن الفكر، ولو أطاعني فبك أمير المؤمنين لمحسبك وأشباهك حتى يستقيم هذا الأمر».

ما كنتُ إلا رجلاً من المهاجرين، أوردت كما أوردوا وأصدرت كما أصدروا، وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا ليضر بهم بالعمى.

وبعد، فما أنت وعثمان: إنما أنت رجلٌ من بني أمية وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه، فإن زعمت إنك أقوى على ذلك، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكم القوم إليّ وأما تمييزك بينك وبين طلحة والزبير، وبين أهل الشام وأهل البصرة، فلعمرى، ما الأمر فيما هناك إلا سواء، لأنها بيعة شاملة، لا يستثنى فيها الخيار، ولا يستأنف فيها النظر، وأما شرفي في الإسلام وقرباتي من رسول الله ﷺ وموضعي من قريش، فلعمرى، لو استطعت دفعه لدفعته^(١).

وأخذ معاوية وجلاوزته، وفي طليعتهم عمرو بن العاص عند ذلك يتأهبون لعصيان مسلح ضد نظام الحكم الإسلامي، المتمثل حينئذ بحكومة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. وجعل معاوية يحتضن الجناة الفارين من وجه عدالة الإمام عليه السلام ويفدق عليهم العطاء الثر من بيت مال المسلمين، بلا هوادة.

وطفق معاوية يتمرد على الخليفة الشرعي، ويتنكر لمباي الدين الحنيف، متظاهراً بالطلب بدم عثمان المقتول ظلماً على حدّ تعبيره الإعلامي.

وكان علي معاوية لو صححنا مطالبته بدم عثمان، صفرياً وكبروياً أن يزدلف إلى علي عليه السلام مع أولياء دم عثمان وهم أولاده بالدرجة الأولى فيطالبون بالقود ممن قتله مع التحقيق العادل في ذلك كما أشار علي عليه السلام إلى ذلك في جواب كتاب معاوية ولكن معاوية كما لا يخفى على كل من سبّر تأريخه المنافق لم يكن يتمرده على أمير المؤمنين عليه السلام يريد الثأر لعثمان، بقدر ما كان يريد صرف الخلافة عن علي عليه السلام ليستوسق له الأمر ويستتب، بدليل أنه بعد أن استقامت له الأمور، وصفا له الجوّ بعد واقعة صفين، أو بعد مقتل علي عليه السلام على الأحرى تناسى دم عثمان، وتفاضى عن الأخذ بشاره، واشتغل واهتم بتركيز نفسه وتوطيد حكومته في البلاد الإسلامية.

فالطلب بدم عثمان من قبل معاوية لم يكن إلا مسرحية إعلامية مرصودة اشترك في عرض فصولها على طغام الناس خصوصاً أهل الشام كل منافس لعلي عليه السلام وحاقد عليه،

ومتبرم من عدله في السياسة، وكان في طليعة أولئك بنو أمية، ومردتهم وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان.

● إرهابيات وطلائع لحرب صفين

قال أرباب التاريخ: ولما امتنع معاوية من البيعة لعلي عليه السلام ورّد رسوله: جرير بن عبد الله في هذا الشأن، أرسل خلف عمرو بن العاص ليلاً، فأحضره عنده، وباتا إلى الصباح يتداولان في هذا الأمر، ولما أصبح عمرو أعطاه معاوية خراج مصر طعمة له، وكتب له بذلك كتاباً، ثم سأله عن رأيه فيما جاء به رسول علي عليه السلام من الأمر بالطاعة والبيعة؟ فقال عمرو لمعاوية: امض على رأيك الأول يعني الامتناع عن البيعة.

فعند ذلك بعث معاوية: مالك بن هبيرة الكندي^(١) في طلب محمد بن أبي حذيفة، فأدركه فقتله، وبعث إلى قيصر بالهدايا، فوادعه.

ثم قال معاوية لعمره: ما ترى في علي؟ قال: أرى فيه خيراً، أذاك في هذه البيعة خيرُ أهل العراق يعني جرير البجلي ومن عند خير الناس في أنفس الناس يعني علي بن أبي طالب ودعواك أهل الشام إلى ردّ هذه البيعة خطر شديد، ورأس أهل الشام: شرحبيل بن السمط الكندي^(٢) وهو عدوٌ لجرير المرسل إليك فأرسل عليه، ووطن له ثقاتك،

(١) الصحابي مالك بن هبيرة بالتصغير بن خاله السكوني الكندي؛ من رؤساء كندة في العصر الأموي بالشام، ومن الخطباء البلقاء، ومن الشجعان المعدودين، كان مع معاوية أيام صفين وبعد تمامية الحرب جاء إليه، وقال له بعد خطبة بين يديه: «بسط يدك لأبيك على ما أحببنا وكرهنا، فكان أول من بايع معاوية على ذلك، وغزا في البحر سنة ٤٨، وولي حمص لمعاوية، وبقي فيها حتى بعد وفاة يزيد، وتولي مروان بن الحكم على الشام في أواخر سنة ٦٤، فبايعه وسار معه إلى مصر، وكان معه إلى أن توفي بعد ذلك في الشام سنة ٦٥ هـ اقتضاب من جمهرة الأنساب لابن حزم ص ٦٠٣، والإصابة برقم ٧٦٦٩، والاستيعاب باسمه، والنجوم الزاهرة ج ١ ص ١٣٧، ووقعة صفين لابن مزاحم، وأغانبي أبي الفرج: ج ١ ص ٢١ ط الساسي، ومروج الذهب للمسعودي ص ٢٠٠ ط باريس، وأعلام الزركلي باسمه.

(٢) أبو يزيد: شرحبيل بالضم فالفتح بن السمط بن الأسود الكندي له صعبة كما قيل كان من القادة والولاة الشجعان في العصر الأموي.

وشهد القادسية مع سعد بن أبي وقاص والفتح حمص وقاتل في الردة، وعهد صفين مع معاوية وله فيها عظيم جولات متميزة، وولي حمص نحواً من عشرين سنة، ومات فيها سنة ٤٠ هـ دفن هناك اقتضاب من تهذيب التهذيب لابن حجر، وتهذيب ابن عساكر، وإصابة ابن حجر، واستيعاب ابن عبد البر باسمه.

فليفشوا في الناس: أن علياً قتل عثمان، وليكونوا أهل الرضا عند شرحبيل، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب، وإن تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشي أبداً. فكتب معاوية بدوره إلى شرحبيل: «إن جريراً بن عبد الله قدم علينا من عند علي بن أبي طالب بأمر فظيع، فاقدم».

ودعا معاوية: يزيد بن أسد، ويسر بن أرطاة، وعمر بن سفيان، ومخارق بن الحارث، وحمزة بن مالك، وحابس بن سعد الطائي، وهؤلاء رؤساء قحطان واليمن، وكانوا ثقة معاوية وخاصته، ومستشاريه في الأمور السياسية وكانوا بني عم شرحبيل بن السمط، فلما اجتمعوا أمرهم أن يلقوا «شرحبيل» ويخبروه: أن علياً قتل عثمان، وكتب معهم كتاباً بذلك، فلما قدم كتاب معاوية على شرحبيل وهو يحرص استشار أهل اليمن، فاختلفوا عليه، فقام إليه عبد الرحمان بن غنم الأزدي، وهو صاحب معاذ بن جبل وختنه، وكان أفعه أهل الشام، فالتفت إلى شرحبيل حيث يسمعه الحاضرون وقال: «يا شرحبيل، إن الله لم يزل يزيدك خيراً مذ هاجرت إلى اليوم وأنه لا ينقطع المريد من الله حتى ينقطع الشكر من الناس، ولا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم: إنه قد ألقى إلينا قتل عثمان، وإن علياً قتل عثمان، فإن يك قتله، لقد بايع المهاجرون والأنصار وهم الحكماء على الناس، وإن لم يكن قتله فعلام تصدق معاوية عليه؟ لا تهتك نفسك وقومك، فإن كرهت أن يذهب بحظها جرير فسر إلى علي، فبايعه؟ على شامك وقومك».

فلم يقبل «شرحبيل» نصيحة عبد الرحمان، وأبى إلا أن يسير إلى معاوية، وقدم على معاوية، فتلقاء الناس، فأعظموه، ودخل على معاوية، فرحب به، وخطب الناس فقال بعد الحمد والثناء: «يا شرحبيل، إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة علي، وعلي خير الناس^(١) لولا أنه قتل (عثمان بن عفان) وقد حبست نفسي عليك، وإنما أنا رجل من أهل الشام، أرضى ما رضوا، وأكره ما كرهوا».

(١) تأمل هذا التفاف المزوق من هذا الرجل الغيب ذي اللسانين وذو الوجهين، فهو يحارب علياً بلسانه وسنانه وجنانه، وهنا

يعبر عنه بأنه خير الناس؛

فقال «شرحبيل»: أخرج فأنظر؟ فخرج، فلقى هؤلاء النفر الموطؤون له، فكلّهم يخبره بأنّ علياً قتل «عثمان»، فرجع مغضباً إلى معاوية، وهو يقول: «يا معاوية، أبى الناس إلا أن علياً قتل عثمان، فوالله لئن بايعت له لنخرجك من الشام أو لنقتلك».

قال معاوية: ما كنت لأخالف عليكم، وما أنا إلا رجلٌ من أهل الشام.

قال شرحبيل: فردّ هذا الرجل يعني جريراً إلى صاحبه إذاً يعني علياً.

فهناك عرف معاوية: أن شرحبيل قد نفذت بصيرته في حرب أهل العراق، وإن الشام كله مع شرحبيل.

فخرج «شرحبيل» من عند معاوية، فأتى حصين بن نمير السكوني^(١)، فقال: ابعث إلى جرير فليأتنا؟ فبعث إليه حصين، أن زرنا، فإن عندنا شرحبيل بن السمط، فاجتمعنا عنده، فتكلم «شرحبيل» فقال: «يا جرير، أتيتنا بأمر ملفف أو ملفق لتلقينا في لهوات الأسد، أردت أن تخط الشام بالعراق، وأطرات علياً وهو قاتل عثمان، والله سائلك عما قلت يوم القيامة». فأقبل عليه جرير، فقال: «يا شرحبيل، أما قولك: إني جئت بأمر ملفف، فكيف يكون أمراً ملففاً، وقد اجتمع عليه المهاجرون والأنصار، وقوتل على رذّة طلحة والزبير، وأما قولك: إني ألقيتك في لهوات الأسد، ففي لهواتها ألقيت نفسك، وأما خطب العراق بالشام، فخطبهما على حق خيرٌ من فرقتهما على باطل.

وأما قولك: إن علياً قتل (عثمان)، فوالله، ما في يدك من ذلك إلا القذف بالغيب من مكان بعيد، ولكنك ملت إلى الدنيا، وشيء كان في نفسك على زمن سعد بن أبي وقاص، فبلغ معاوية قول الرجلين، فبعث إلى جرير، فزجره ولم يدر ما أجابه أهل الشام، وكتب جرير إلى شرحبيل:

شرحبيل يا بن السمط لا تتبع الهوى	فمالك في الدنيا عن الدين من بدل
وقل لابن حرب: مالك - يوم - هرمة	تروم بها ما رمت فاقطع له الأمل
شرحبيل، إن للحق قد جد جدّه	وإنك مأمون الأديم من النفل

(١) قد نأتي على ترجمته في بعض أجزاء الكتاب الآتية عند الحديث عن سرقته الإيجابي في الخروج إلى حرب الحسين عليه السلام.

وأورد ولا تفرط بشي نخافه	عليك ولا تعجل فلا خير في العجل
ولا تك كالمجري إلى شر غاية	فقد خرق للسربال واستنوق الجم
وقال ابن هند في علي عضيبة	ولله في صدر ابن أبي طالب أجل
وما لعلي في ابن عفان سلطة	بأمر ولا حطب عليه، ولا قتل
وما كان إلا لازماً قعر بيته	إلى أن أتى عثمان في بيته الأجل
فمن قال قولاً غير هذا فحسبه	من الزور والبهتان قول الذي احتمل
وصي رسول الله من دون أهله	ومن باسمه في فضله يضرب المثل

قال الراوي: فلما قرأ شرحبيل رسالة جرير الشعرية، ذعر وفكر، وقال: هذه نصيحة لي في ديني ودنياي، ولا والله لا أعجل في هذا الأمر بشي، وفي نفسي منه حاجة، وكاد أن ينصرف عما أقدم عليه في البداية لولا أن يستزله القوم، ويلقف له معاوية الرجال، فيدخلون إليه ويخرجون منه، ويعظمون عنده قتل عثمان، ويرمون به علياً، وقيمون له الشهادات الباطلة والكتب المختلفة، حتى سيطروا عليه، وأعادوا رأيه الأول وشحذوا عزمه في الأخذ بثار عثمان، وبلغ ذلك قومه، فبعث ابن أخت له من بارق وكان يرى رأي علي بن أبي طالب، فبايعه بعد ذلك وكان ممن لحق من أهل الشام بجماعة علي عليه السلام، وكان من المتعبدین الناسكين فقال في معاوية وشرحبيل:

لعمري الأشقى ابن هند لقد رمى	شرحبيل بالسهم الذي هو قاتله
وللف قوماً يسحبون ذيولهم	جميعاً وأولى الناس بالانذب فاعله
فألقى يسمانياً ضعیفاً نخافه	إلى كل ما يهون تحدى رواجه
فطاط لها لما رموه بقتلها	ولا يُرزق التقوى من الله خائله
ليأكل ديتاً لابن هند بدينه	ألا وابن هند قبل ذلك آكله
وقالوا علي في ابن عفان خدعة	ودبت إليه بالشنان غوائله
ولا والذي أرسى ثبيراً مكانه	لقد كف عنه كفه ووسائله
وما كان إلا من صحاب محمد	وكلهم تغلي عليه مراحله

فلما بلغ شرحبيل هذا القول، قال: هذا بعيت الشيطان، الآن امتحن الله قلبي، والله

لأسيّر صاحب هذا الشعر أو ليفوتنني، فھر الفتى إلى الكوفة، وكاد أهل الشام أن يرتابوا فيما كانوا عليه: من أخذهم بثار عثمان.

قال الراوي: وعند ذلك بعث معاوية إلى شرحبیل بن السمط كتاباً جاء فيه: «إنه كان من إجابتك، وما وقع فيه أجرك على الله، وقبله عنك صلحاء الناس ما علمت، وإن هذا الأمر الذي قد عرفته لا يتم إلا برضا العامة، فسر في مدائن الشام وناد فيهم: بأن علياً قتل عثمان، وأنه يجب على المسلمين أن يأخذوا بدمه».

فسار شرحبیل بدوره كما أمره معاوية فبدأ بأهل حمص، فقام فيهم خطيباً وقال: «يا أيها الناس، إن علياً قتل عثمان بن عفان، وقد غضب له قوم فقتلهم وهزم الجميع، وغلب على الأرض، فلم يبق إلا الشام، وهو واضع سيفه على عاتقه، ثم خائض به غمار الموت حتى يأتيكم أو يحدث الله أمراً، ولا نجد أحداً أقوى على قتاله من معاوية، فجدوا وانفضوا؟ فأجابه الناس إلا نساك «حمص» فإنهم قاموا إليه، فقالوا: «بيوتنا قبورنا ومساجدنا، وأنت أعلم بما ترى».

وجعل شرحبیل يستنهض مدائن الشام حتى استفرغها، فكان لا يأتي على قوم إلا قبلوا ما أتاھم به، فبعث إليه التجاشي بن الحارث وكان صديقاً له بهذه الأبيات:

شرحبیل ما للدين فارقت امرنا	ولكن لبغض المالكی جریر
وشحناء دبت بين سعد وبينه	فأصبحت كالحادي بغير بعير
وما أنت إذ كانت بجيلة هاتبت	قريشاً، فيا لله بعد نصير
أفصل أمراً غبت عنه بشبهة	وقد حار فيها عقل كل بصير
يقول رجال لم يكونوا أئمة	ولا للنبي لقوكها بحضور
وما قول قوم غائبين تقاذفوا	من الغيب ما دلاهم بسرور
وتترك أن الناس أعطوا عهدهم	علياً على أنس بهم وسرور
إذا قيل: ماأوا واحداً يقتدى به	نقليراً له لم يفصحوا بنقلير
لملك أن تشقى الغداة بحربه	فليس الذي قد جثته بصغير

اقتضاب من كتاب صفين لنصر بن مزاحم، والاستيعاب لابن عبد البر بترجمة

شرح حبيب، وأسد الغابة بترجمته، وكامل ابن الأثير: ج ٣، وشرح النهج للحديدي: ج ٣ ط جديد.

● طلائع حرب صفين

قال المؤرخون: لما رجع جرير بن عبد الله البجلي من معاوية إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يحمل كتاب معاوية المتضمن إصراره على الحرب، واجتماع أهل الشام على ذلك. خرج علي عليه السلام من الكوفة بجيش عظيم فعسكر بالنخيلة^(١)، وخرج معاوية من الشام بجيش كثيف أيضاً إلى جهة العراق^(٢)، وبعث عليّ أمامه: زياد بن النضر الحارثي، وشریح بن هاني الحارثي وكلاهما من قواده وعليه أصحابه في اثني عشر ألفاً، فلما انتهيا إلى سور «الروم» لقيهما أبو الأعور السلمي سفيان بن عمرو في جند كثير، أرسله معاوية من الشام مقدمة لجيشه، فوقف في وجههما عن الاجتياز، وتضارب الفريقان، وترادا في الكلام والسلاح، فأرسل زياد وشریح من ذلك المكان إلى علي عليه السلام يعلمانه بخبرهما، فأمدّهما علي عليه السلام على الفور بمالك الأشتر^(٣) مع جنود من العراق، وأمره بالإسراع لانتقاذ موقف الطليعة الأولى من جيشه، وقال له فيما أوصاه: «إذا قدمت فانت عليهم، وإياك أن تبدأ القوم بقتال، إلا أن يبدؤوك؟ حتى تلقاهم، فتدعوهم، وتسمع منهم، ولا يحملك بغضهم على قتالهم قبل دعائهم، والإعذار إليهم: مرة بعد مرة؟ واجعل على ميمنتك: زياداً، وعلى ميسرتك: شريحاً؟ ولا تدن من القوم دنو من يريد أن ينشب الحرب؟ ولا تباعد منهم تباعد من يهاب البأس؟ حتى أقدم عليك، فإني حثيث المسير في أثرك إن شاء الله» وكتب إلى زياد، وشریح بمثل ذلك، وأمرهما بطاعة الأشتر؟^(٤)

(١) النخيلة بالتصغير: موضع قرب الكوفة من جهة الشام، وكان خروج علي عليه السلام من الكوفة لخمسة خلون من شوال سنة ٣٦هـ ويقول ابن الأثير هنا: «وتخلف عنه نفر من أهل الكوفة منهم مرة الهمداني، ومسروق فلد أخلداً أعطياهما وقصدا فزوين».

(٢) وقد اختلف المؤرخون في عدد جيشهما بين مقلّ ومكثر، والنطق عليه في عدد جيش علي عليه السلام تسعون ألفاً، وفي عدد جيش معاوية خمسة وثمانون ألفاً كما عليه السعدي في مروج.

(٣) تقدمت منا ترجمة بسيطة لمالك في أوائل الفصل الثالث من هذا الجزء الثاني من الكتاب.

(٤) ويذكر ابن الأثير في كامله، ج ٣ ص ١٤٤ نص كتاب علي عليه السلام إلى زياد وشریح هكذا: «أما بعد، فإني قد أترث هليكما

فسار الأشر من النخيلة مغدًا حتى قدم على زياد، وشرّح، وضمهما وجندهما إلى جنده. فصار على مقدمة الجيش، وهما على جناحيه، واتبع ما أمره علي عليه السلام وكفّ عن قتال القوم، ولم يزل الفريقان متواقفين، حتى إذا كان المساء من ذلك اليوم حمل أبو الأعور السلمي مع أصحابه على الأشر وأصحابه، واضطربوا ساعة، ثم انصرف أهل الشام إلى مواقعهم.

وتقدم الأشر في اليوم التالي إلى جهة معاوية وجيشه، فواقه ساعة، وسرعان ما لحق به علي عليه السلام فتواقف الفريقان طويلاً من النهار حتى رجع معاوية وأصحابه إلى مراكزهم، وكان معاوية وأصحابه قد سبقوا علياً وأصحابه إلى شريعة الفرات، واختاروا لهم موقعاً منها فسيحاً أفيح، وليس في ذلك الصقع حينئذ شريعة واسعة غيرها، وجعل معاوية: أبا الأعور السلمي مع جماعة من الجند عليها وطلب أصحاب علي عليه السلام شريعة غيرها ينزلون عليها، فلم يجدوا، فأتوا علياً، فأخبروه بما فعل القوم: من حماية الفرات، وبعطش الناس.

فدعا بصعصعة بن صوحان^(١) وأرسله إلى معاوية، وقال له: «أنت معاوية؟ قلل له: إنا سرنا مسيرنا هذا ونحن نكره قتالك قبل الإغذار إليكم فلذمت لنا بخيلك ورجالك فقاتلنا، قبل

→ مالكا فاسمعا له وأطعما فإنه ممن لا يخاف رعد ولا سقاط ولا بطء. عما الإسراع إليه أحزم ولا الإسراع إلى ما البطء عنه أمثل، وقد أمرته بمثل الذي كنت أمرتكما به، ألا يهدأ القوم حتى يلقاهم فدهوهم ويحذر إليهم....».

(١) صمصمة على فطلة بن صوحان كسبحان بن حجر بالكسر بن الحارث العبدي، من سادات عبد القيس من أهل الكوفة، أسلم في عهد رسول الله ﷺ ولم يره، ولم يرو عنه.

كان من خطباء العرب، وبلغاتهم، وفصاحتهم، وعقلاهم في عصره وقد أثنى أمير المؤمنين عليه السلام عليه بالصراحة، فقال: «هذا هو الخطيب الشحشح» أي البليغ وحسبه تلك الشهادة من أمير البلاء والفصاحة دلالة على علو مقامه في هذا المضمار. وكان من عليّة أصحاب علي عليه السلام الذين حضروا معه حروبه الثلاثة ومن الموالين المتفانين في حبه، فقد زاره علي عليه السلام في مرضه، وقال له: «لا تتخذن زيارتا إياك فخراً على قومك»، فقال صمصمة: «لا يا أمير المؤمنين ولكن ذكراً وفخراً». وكان من الذين سترهم عثمان في خلافته إلى الشام تحت رقابة معاوية، وله هناك مع معاوية مكالمات ومواقف تدل على قوة إيمانه، وصلابة تشيعه.

وغضب عليه المغيرة بن شعبة في ولايته على الكوفة من قبل معاوية لما كان يظهره من مواقفه الولائية لعلي عليه السلام وأهل بيته، فنفاه من الكوفة إلى جزيرة «أفال» في البحرين بأمر معاوية، فمات بها في نحو سنة ٦٠ هـ.

أن نقاقلك، ونحن من رأينا الكف، حتى ندعوك، ونحتج عليك، وهذه أخرى، قد فعلتموها؛ منعتم الناس عن الماء، والناس غير منتهين، فابعث إلى أصحابك، فليخلوا بين الناس وبين الماء، وليكفوا، لننظر فيما بيننا وبينكم، وفيما قدمنا له وقدمتم؟ فإن أردت أن نترك ما جئنا له، ونقتتل على الماء، حتى يكون الغالب هو الشارب، فعلنا؟

وانطلق صعصعة إلى معاوية، فعرض عليه كلام علي عليه السلام، فاستشار معاوية بدوره خلص أصحابه؟ فأشار عليه الوليد بن عقبة، وعبد الله بن سعد يمنع الماء عن علي وأصحابه كما منعوا عثمان عنه يوم الدار وأشار عليه عمرو بن العاص بتخليته لهم. فاتبع معاوية رأي الوليد، وابن سعد، فمنعه.

ورجع صعصعة، فأخبر علياً بذلك، فقال علي لأصحابه: قاتلوهم على الماء؟ فقاتلوهم في اليوم التالي بعد صلاة الغداة واشتد القتال بين الفريقين وأخذ عبد الله بن عوف الأزدي الأحمر يخطب أصحاب معاوية ويرتجز بقوله:

شكوا لنا ماء الفرات الجاري أو انسبوا لجحش جزار
لكل قوم مستبث شاري مطاعن برمه كرار
فمراب هامت العدى مفوار لم يخش غير الواحد القهار

ولم يزل أصحاب علي عليه السلام يواصلون القتال بضراوة طوال ذلك النهار، حتى ملكوا الفرات منهم، وأزاحوهم عنه، وصار الماء في أيدي علي وأصحابه، فقال بعضهم: والله، لانسقي أهل الشام، ونمنعهم منه، كما منعونا منه أول مرة، وعلم علي عليه السلام بذلك، فأرسل إلى أصحابه: «أن خذوا من الماء حاجتكم، وخلوا بينه وبين القوم، ولا تمنعوه عليهم؟ فإن الله نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم».

وهذه ظاهرة من سجايا الإسلام، وأريحية من نبل بني هاشم.

● أواخر رسل علي عليه السلام إلى معاوية

ثم إن علياً عليه السلام كما كان شأنه في حرب الجمل من قبل أبي أن يبدأ عدوه بقتال أو يفاجئه بمكره قبل الإعذار إليه، فدعا: أبا عمرو بشير بن عمرو بن محسن بكسر أوله

وفتح ثالته الأتصاري، وسعيد بن قيس الهمداني^(١)، وشيث بن ربيعي التميمي^(٢) وقال لهم: «انثوا هذا الرجل - يعني معاوية - وادعوه إلى الله، وإلى الطاعة والجماعة؟ واحتجوا عليه، وانظروا ما رأيه»، وكان ذلك في أوائل شهر ذي الحجة من سنة ٣٦ هـ.

فحضر الجماعة عند معاوية، وابتدأ بشير بن عمرو بالكلام، فقال بعد الحمد والثناء: «يا معاوية، إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، وأن الله محاسبك بعملك ومجازيك عليه بما قدمت يدك، وأني أنشدك الله أن تفرق جماعة هذه الأمة، وأن تسفك دماءها بينها».

فقطع معاوية عليه الكلام، وقال: «هلاً أوصيت بذلك صاحبك؟» يعني: علي بن أبي طالب عليه السلام.

فقال بشير: «إن صاحبي ليس مثلك، إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر - يعني الخلافة - في الفضل والدين والسابقة والإسلام، والقرابة من الرسول ﷺ».

قال معاوية: «فما تقول؟» قال بشير: «نأمرك بتقوى الله عز وجل وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه: من الحق؟ فإنه أسلم لك في دنياك، وخير لك في عاقبة أمرك».

قال معاوية: «ونترك دم ابن عفان؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً».

ثم ذهب سعيد بن قيس ليتكلم، فبادره شيث بن ربيعي، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «يا معاوية، قد فهمت ما رددت علي ابن محسن، إنه والله لا يخفى علينا ما تطلب،

(١) سعيد بن قيس بن زيد، سيد بني همدان، وفارسها المعلم، وعظيمها المطاع لها، ومن دعاة العرب، وأجوادهم، ومن التابعين الموالين لأمر المؤمنين عليه السلام لو أمرتنا بالمسير إلى قسطنطينية ورومية، مشاة حفاة على غير حطاء ولا قوة، ما خالفناك أنا ولا أحد من قومي».

قاتل مع علي عليه السلام يوم صفين قتال الأبطال، وتوفي بعد ذلك في حدود سنة ٥٠ هـ.

(٢) شيث بن النعمان بن ربيعي بالكسر التميمي، من شيوخ مضر، وزعماء بني تميم في الكوفة، أدرك النبوة، ولحق بسجاحة المنتبهة، وكان يؤذن لها، ثم عاد على الإسلام.

وكان بعد وفاة النبي ﷺ من أصحاب علي عليه السلام كما كان من الثائرين على عثمان، وبعد قتله، واستخلاف علي عليه السلام حضر معه: حرب صفين، ثم تخلف عنه في مسيره إلى حرب الخوارج في النهروان، وصار منهم. وكان ممن بايعوا الضب، وخلصوا بيعة علي عليه السلام، ثم تاب بعد ذلك، ثم كان من الخارجين لحرب الحسين عليه السلام ثم انقلب عليه، وقتله.

وبعد قتل المختار بقي في الكوفة إلى أن مات، حدود سنة ٧٠ هـ من شيوخه من عمر.

إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس، وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم، إلا قولك: «قتل أمامكم مظلوماً، فنحن نطلب بدمه» فاستجاب لك سفهاء طغام، وقد علمنا إنك أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلّة التي أصبحت تطلب، ورب متمني أمر، وطالبه يحول الله دونه، وربما أوتي المتمني أمنيته، وفوق أمنيته، ووالله، مالك في واحدةٍ منهما خير إلى قوله: فإتق الله يا معاوية ودع ما أنت عليه؟ ولا تنازع الأمر أهله؟.

فجابهه معاوية، وقال: «أما بعد، إن أول ما عرفْتُ به سفْهُك وخُفْةُ حلمك، أن قطعت على هذا الخسيب الشريف سيّد قومه: منطقة، ثم اعترضت بعدُ فيما لا علم لك به، فقد كذبت ولؤمّت - أيها الأعرابي الجلف الجافي - في كل ما ذكرت ووصفت» ثم التفت إلى الجماعة مغضباً وقال لهم بقولة واحدة: «انصرفوا من عندي؟ فليس بيني وبينكم إلا السيف»، فقال له شبت بن ربعي: أتَهول بالسيف، أقسم بالله، لنجعلنّها إليك.

وخرج الجماعة من معاوية مخفقين في استصلاحه، وأتوا علياً عليه السلام فأخبروه الذي جرى بينهم وبينه، وعرفوه بأنه مصمم على القتال.

فعند ذلك أخذ الإمام عليه السلام بالتهيؤ للحرب، فجعل يؤمر، ويخرج الرجل من أصحابه لمبارزة أهل الشام، وكذلك، جعل معاوية يؤمر ويخرج الرجل من أصحابه لمبارزة أهل العراق، هكذا استمرت المبارزات الفردية بين الفريقين في كل يوم، فكان علي عليه السلام يخرج مرة الأشتري، ومرة: حجر بن عدي الكندي، ومرة: شبت بن ربعي، ومرة: خالد بن المعمر، ومرة زياد بن النضر الحارثي، ومرة: زياد بن خصفة التيمي، ومرة: سعيد بن قيس الهمداني، ومرة معقل بن قيس الرياحي، ومرة: قيس بن سعد الأنصاري، وكان الأشتري أكثرهم خروجاً.

وكذلك كان يفعل معاوية في أصحابه فمرة: يخرج عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وأبا الأعور السلمي، وحبیب بن مسلمة الفهري، وأبن ذي الكلاع الحميري، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وشرحبيل بن السمط الكندي، وخمرة بن مالك الهمداني. وظل القتال بين الفريقين هكذا إلى آخر أيام ذي الحجة من سنة ٣٦ هـ.

● الهدنة بين الفريقين

ودخل شهر المحرم من سنة ٣٧ هـ فتنادى الناس بالقاء السلاح وجرت مودعة مؤقتة بين الفريقين على ترك الحرب طيلة هذا الشهر الحرام، رعايةً لحرمة، وأملاً في السلم وحقق الدماء^(١)

الهدنة بين الفريقين عند حلول المحرم وتبادل الرسل بينهما

قال المؤرخون: ولما هلّ شهر المحرم من سنة ٣٧ هـ كان المودعة بين علي ومعاوية بترك الحرب حتى ينتضي هذا الشهر، واختلفت بينهما الرسل أملاً في الصلح والوفاق. فبعث علي عليه السلام: عدي بن حاتم الطائي^(٢)، ويزيد بن قيس الأرحبي^(٣)، وشبث بن

(١) تاريخ الطبري: أخريات الجزء الرابع ط دار المعارف بمصر ضمن الحديث عن أخريات حوادث سنة ٣٦ هـ وكان ابن الأثير: أوليات الجزء الثالث ط بيروت ضمن الحديث عن أخريات حوادث سنة ٣٦ هـ أيضاً والبداهة والنهاية لابن كثير: ج ٧ ص ٢٥٣ - ٢٨٥، ط بيروت، ضمن حوادث أخريات سنة ٣٦ هـ أيضاً ونهاية الأرب للنوري: ج ٢٠ ص ١٠٠ - ١١٠ ط القاهرة، بعنوان (ذكرى وقعة صفين وابتداء أمرها)، وشرح النهج للحديدي: ج ٤ ص ١٤ - ٢٠ ط جديدة.

(٢) عدي بن حاتم الجواد المشهور بن عبد الله بن سعد بن الحشر بن أمي القيس...

الطائي. صحابي جليل، وأمير معظم، ومن أجواد العرب كآبيه ومن عقلائهم، وذوي الرأي فهم، وكان رئيس قومه «طي» بد أبيه حاتم في الجاهلية والإسلام.

وفد على النبي ﷺ سنة تسع للهجرة على الأصح مع بعض رجال قومه، فأسلم وأسلموا على يده، وكان قبل ذلك على دين النصرانية. وشهد بحد وفاة النبي ﷺ فتح العراق، ثم سكن الكوفة، ثم سكن «قرقيسيا» من أرض الجزيرة.

وكان من خواص أمير المؤمنين عليه السلام وحضر معه حروبه الثلاثة، وكان في صفين على قومه (طي) وقتلت عينه لها.

وكان بحد مقتل علي عليه السلام من عليه أصحاب الإمام الحسن عليه السلام.

وقد وفد بعد ذلك على معاوية، فسأله عن أولاده الثلاثة: طريف وطارف وطرفة فقال عدي: قتلوا يوم صلبين بين يدي علي عليه السلام. فقال له معاوية: ما أنصفك علي بن أبي طالب، إذ قدّم بتركه، وآخر بنيه.

قال عدي: بل ما أنصفت أنا علياً، إذ قتل، وبقيت.

قال معاوية: صف لي علياً؟ فاستغفاه عدي، فآخ عليه معاوية؟ فقال: «كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول عدلاً، ويحكم فضلاً، تفجر الحكمة من جوانبه، والعلم من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته...» إلى آخر

كلامه من نواحيه المشهور المأثور مات بالكوفة سنة ٦٨ هـ عن ١٢٠ عاماً أو أكثر من العمر.

(٣) يزيد بن قيس بن تمام بن حاسب بن تمام بن مسعود بن كعب.. بن أرحب بن مالك بن بني صعب بن دومان الهمداني.

ربيعي التميمي^(١)، وزياد بن خصفة التميمي إلى معاوية، فلما حضروا عنده وعمر وبن العاص إلى جانبه.

رسل علي عليه السلام يدعون معاوية الى البيعة والطاعة

تقدم عدي، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد - يا معاوية - فإننا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا، وأمتنا، وتمنن به الدماء، وتؤمن به السبل، وتصلح به ذات البين، إن ابن عمك سيد المسلمين - أفضلها سابقة، وأحسنها في الإسلام أثراً، وقد استجمع له الناس، ولم يبق أحد غيرك، وغير من معك. فاحذر - يا معاوية - لا يُصيبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل؟».

فاتنقض معاوية وقال: «كانك - يا عدي - إنما جئت متهدداً، ولم تأت مصلحاً؟ هيهات - يا عدي - كلا والله - إني لأبئ حرب، لا يقعق لي بالشئان^(٢)، وإنك - والله - لمن المجلبين على عثمان، وإنك لمن قتلته، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به.

→ فهو أرحمي، همداني، أدرك النبي ﷺ ولم يصعبه، ولم يرو عنه، فهو من التابعين من سكنة الكوفة، وحينما تار أهل الكوفة على سعيد بن العاص الأموي أمرهم من قبل عثمان وأخرجوه منها إلى المدينة، اجتمع القراء وذوو الرأي والدين منهم، فأمروه عليهم، وبلغ عثمان ذلك، فأفرهم على ما فعلوا.

وبعد قتل عثمان، واستخلاف علي عليه السلام كان من المهادين إلى بيته، والموالين له، وحضر حروبه الثلاثة، ولما انتهى علي عليه السلام من حرب البصرة، ونزل الكوفة، ولأه: إصبيان، والري، وهمدان من بلاد فارس.

وكان من خطباء العرب، وفصائهم، وشجعانهم، وذوي الرأي فيهم.

ومن عليه الموالين لأمر المؤمنين عليه السلام، وهو القائل له في بداية حرب صفين: «إن أخا الحرب ليس بالسؤوم، ولا النؤوم، ولا من إذا أمكنته الفرصة أجلها، واستنار فيها».

وله في التحريض على حرب معاوية يوم صفين خطبة مفصلة، يقول فيها: «إن هؤلاء القوم والله ما إن يقاتلونا على إقامة دين رأونا ضيعناه، ولا إحياء عدل رأونا أمتناه، ولن يقاتلونا إلا على إقامة الدنيا، ليكونوا جبارة فيها ملوكاً...».

قاتل يوم صفين إلى جنب أمير المؤمنين عليه السلام وأهلى بلاءً حسناً، ثم قتل.

(١) ترجمنا له آنفاً قبل صفحات.

(٢) القصة: تحريك الشيء بحيث يسمع له صوت، والشئان بالكسر: جمع شئ كذلك وهو القرية الخليفة الياسة، كانت العرب

يومئذ تحركها للإبل، يضرب لمن لا يمتنع لحوادث الدهر، ولا تروعه ما لا حقيقة له.

هيئات - يا عدي بن حاتم - قد حلبت بالساعد الأشده^(١)، فتكلم شبت بن ربيعي، وزيد بن خصفة كلاماً واحداً فذكرا من فضل علي عليه السلام، ثم قالوا: «أتيناك - يا معاوية - فيما يصلحنا وإياك، فأقبلت تخرب لنا الأمثال، دع ما لا ينفع من القول، والفعل؟ وأجبنا فيما يعفنا وإياك نفعه؟»

وتكلم يزيد بن قيس، فقال: «إنا لم نأت إلا لنبلغك ما أرسلنا به إليك، ونؤدي عنك ما سمعنا منك ونحن على ذلك لم ندع أن ننصح لك، وأن نذكر ما تكون به الحجة عليك، ويرجع إلى الألفة والجماعة، إن صاحبنا - يعني علياً - من قد عرف المسلمون فضله، ولا يخفى عليك، وإن أهل الفضل والدين لن يعدلوا به، ولن يميلوا بينك وبينه، فاتق الله - يا معاوية - ولا تخالفه؟ فإننا - والله - ما رأينا في الناس رجلاً - قط - أعمل بالتقوى، ولا أزهدي في الدنيا، ولا أجمع لخصال الخير - كلها - منه».

فتقدم معاوية للجواب، وقال: «أما بعد، فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة، فأما الجماعة التي دعوتم إليها، فمعناها هي، وأما الطاعة لصاحبكم، فإننا لا نراها، لأن صاحبكم قتل خليفتنا، وفرق جماعتنا، وأوى ثأرنا، وقتلتنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نرد عليه ذلك، فليدفع إلينا قتلة صاحبنا، لنقتلهم، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة».

فانبرى شبت بن ربيعي، والتفت إلى معاوية قائلاً: «أنشدك الله - يا معاوية - لو تمكنت من عمار، أكنت قاتله»^(٢)، قال معاوية: وما يمنعني من ذلك لو تمكنت من ابن سمية لقتلته بناتل مولى عثمان».

فقال شبت: «والذي لا إله غيره، لاتصل إلى ذلك حتى تنذر الهام عن كواهل الرجال»^(٣)، وتضيق الأرض الفضاء عليك».

فقال معاوية: «إنه لو كان ذلك لكانت الأرض عليك أضيق».

(١) أي: أخذت بالقوة، إذ لم تأت الرفق.

(٢) ولعل شبت إنما خصص عماراً بهذا الاستنكار من دون بقية أصحاب أمر المؤمنين عليهم السلام الذين ثاروا على عثمان لقتلوه، لما يتمتع به عمار بالخصوص من الحدية المنبثة من قول النبي ﷺ عنه: «قتله الفئة الباغية»، فهو ميزان بين الحق والباطل، وبقتله إصغار الفئة التي تقتله: أنها الباغية الممتدة.

(٣) نذر الشيء من موضعه: إذا زال عنه، وإلهام: الرؤوس، والكواهل: جمع كاهل، وهو أعلى الظهر مما يلي المنق.

وتفرق القوم عن معاوية، ورجعوا إلى علي عليه السلام فأخبروه الخبر.
وبعث معاوية إلى زياد بن خصفة، وخلا به، وقال له: يا أخا ربيعة، إن علياً قطع أرحامنا وقتل إمامنا، وآوى قتلة صاحبنا، وإنني أسألك النصر عليه بعشيرتك، ثم لك عهد الله وميثاقه أني أوليك إذا ظهرت أي المصريين أحببت.
فقال زياد، أما بعد، فإنني على بينة من ربي وما أنعم الله عليّ، فلن أكون ظهراً للمجرمين.

● معاوية يبعث رسله إلى علي عليه السلام للاستظهار

قالوا: ثم إن معاوية بعث أيضاً إلى علي عليه السلام: وفدأ للنقاش والاستظهار مؤلفاً من: حبيب بن مسلمة الفهري^(١)، وشرحبيل بن السمط الكندي^(٢) ومعن بن يزيد بن الأخنس^(٣) فدخلوا عليه، فابتدأ حبيب الكلام بعد الحمد والثناء فقال: «أما بعد، فإن عثمان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب الله، وينيب إلى أمره، فاستنقذتم حياته واستبطأتم وفاته، فعدوتم عليه، فقتلتموه.

فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت إنك لم تقتله تقتلهم به؟ ثم اعتزل أمر الناس؟ فيكون أمرهم شورى بينهم، يؤولونه من أجمعوا عليه؟»

فقال له علي عليه السلام: «ما أنت لا أم لك والعزل، وهذا الأمر؟ اسكت لست هناك، ولا بأهل لذاك؟» فقال حبيب: «أما والله لتراني بحيث تكره».

فقال علي: «وما أنت؟ ولو أجلبت بخيلك ورجلك؟ لا أبقي الله عليك، إن أبقيت علينا، اذهب فصوب وصعد ما بدا لك»^(٤).

(١) تقدمت له منا ترجمة موجزة في أثناء الفصل الخامس من هذا الجزء من الكتاب.

(٢) شرحبيل بن مسلمة الكندي... الكندي. من الولاة، والقادة في العصر الأموي، تحدثنا عنه قريباً في هذا الفصل الثامن من هذا الجزء.

(٣) معن بالنسبة بن يزيد بن الأخنس بن حبيب السلمي، من بني مالك بن خفاف بن أمية القيس، من سلالة النضر له إدراك وصحة بعد إسلامه وكانت له منزلة رفيعة عند عمر بن الخطاب في أيامه وشهد فتح دمشق، وكان ينزل الكوفة، ثم نزل مصر، ثم رحل إلى الشام، فشهد صفين مع معاوية، ووقعة «مرج راهط» مع الضحالة بن قيس الفهري، وقتل فيها سنة ٥٤ هـ على الأثر.

(٤) صوب نظره أو رأسه بالتشديد: إذا خفطه شد: صدهما.

وهنا تكلم شرحبيل وقال: «ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي، فهل عندك جواب غير هذا الذي أجبت به؟»

قال علي عليه السلام: «نعم، لك ولصاحبك ليس عندي جواب غير الذي أجبت به: ثم حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن الله تعالى بعث محمداً بالحق، فأنقذ به من الضلالة والهلكة، وجمع به من الفرقة، ثم قبضه الله إليه، وقد أدنى ما عليه، فاستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر: عمر، فأحسننا السيرة وعدلاً في الأمة وقد وجدنا عليهما^(١) أن توليا الأمور، دوننا ونحن آل رسول الله فغفرنا ذلك لهما، وولى الناس: عثمان، ففعل بأشياء عابها الناس عليه، فساروا إليه فقتلوه، ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم فقالوا لي: «بايع؟ فأبيت عليهم، فقالوا لي: بايع؟ فإن الأمة لا ترضى إلا بك، وإننا نخاف إن لم تفعل أن يتفرق الناس»، فبايعتهم، فلم يرعني الإشفاق رجلين - يعني طلحة والزبير - قد بايعاني، وخلاف معاوية، الذي لم يجعل الله عز وجل له سابقة في الدين، ولا سلف صدق في الإسلام، طليق ابن طليق، حزب من هذه الأحزاب، لم يزل حرباً ولرسوله وللمسلمين - هو وأبوه - حتى دخلا في الإسلام كارهين.

ولا عجب إلا من اختلافكم معه، وانقيادكم له وتدعون آل بيت نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً.

ألا إنني أدعوكم إلى كتاب الله، وسنة رسول الله وإمارة الباطل، وإحياء الحق ومعالم الدين، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين».

فقال حبيب، وشرحبيل: تشهد: أن عثمان قتل مظلوماً؟

قال لهما علي عليه السلام: «لا أقول: إنه قتل مظلوماً، ولا ظالماً».

قالا: «فمن لم يزعم: إنه قتل مظلوماً، فنحن منه براء».

ثم قاما، وانصرفا، فقال علي عليه السلام في عقبهما حيث يسمعان: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَذْبِرَيْنَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الضَّالِّينَ إِنَّ تَسْمِعَ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

ثم أقبل على أصحابه، وقال: «لا يكن هؤلاء أولى بالجد في ضلالهم منكم بالجد في حكم

● تعبئة الفريقين للحرب

قال المؤرخون: ولما لم تُجدِ الرسائل والرسل بين الفريقين طيلة شهر المحرم في استصلاح معاوية وتطويعه، وانسلخ المحرم، من سنة ٣٧ هـ بعث علي رضي الله عنه في أول يوم من صفر: نفرأ من أصحابه إلى جهة معسكر معاوية، وأخذ مناديهم ينادي أهل الشام عند غروب الشمس، بحيث يسمعون:

«يا أهل الشام، إن أمير المؤمنين علياً يقول لكم: إننا لم نكف عنكم شكاً في أمركم، ولا إبقاء عليكم، وإنما كلفنا عنكم لخروج المحزّم، وقد أنسلخ، فلم تستجيبوا إلى الحق، وإننا قد نبذنا إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين».

فاجتمع أهل الشام أمرائهم ورؤسائهم، وخرج معاوية وعمر بن العاص يكتبان الكتائب، ويعبئان العساكر، وأوقدوا النيران، وأعلقوا الشموع، وكذلك بات علي رضي الله عنه تلك الليلة كلها يُعبي الناس، ويكتب الكتائب، ويدور في الناس ويحرضهم على قتال أهل الشام.

ويقول لأصحابه: «لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم، فأنتم بحمد الله على حجة، وترككم قتالهم حجة أخرى، فإذا هزمتهم، فلا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تملأوا بقتيل، فإذا وصلتكم إلى رجال القوم، فلا تهتكوا سترأ، ولا تدخلوا دارأ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم؟ ولا تهيجوا امرأة وإن شتمن أعراضكم، وسببن أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضعاف القوى والأنفس».

وكان يقول بهذا المعنى لأصحابه في كل موطن، واخفصوا الأصوات، وأقلوا الكلام، ووطنوا أنفسكم على المنازلة والمجادلة والمزاولة والمناضلة والمعانقة والمكادمة، والملازمة، فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب

(١) المصادر الآتية: من تاريخ الطبري، أوليات الجزء الخامس، ضمن حوادث سنة ٣٧، وكامل ابن الأثير، ج ٣ ص ١٤٧ -

١٤٩، والبدية والنهاية لابن كثير، ج ٧ ص ٢٥٨ - ٢٥٩، ونهاية النوري، ج ٢٠ ص ١١١ - ١١٥، وشرح النهج للحمدي:

ج ٤ ص ٢١ - ٢٤، وكتاب الفتوح لابن أحنم: أوائل الجزء الثالث، طبع حيدر آباد.

ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين».

وأصبح علي عليه السلام فجعل على خيل الكوفة: «الأشتر»، وعلى جند البصرة: سهل بن حنيف، وعلى رجال الكوفة: عمار بن ياسر، وعلى رجال البصرة: قيس بن سعد، وهاشم المرقال معه الراية، وجعل: مسعر بن فذكي على قراء الكوفة وأهل البصرة. وبعث معاوية على ميمته: أبْنُ ذِي الكلاع الحميري، وعلى ميسرته: حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى مقدمته، أبَا الأعور السلمي، وعلى خيل دمشق: عمرو بن العاص، وعلى رجاله دمشق: مسلم بن عقبة المري، وعلى الناس كلهم، الضحّاك بن قيس، وباع رجال من أهل الشام على الموت، فعلقوا أنفسهم بالعمائم وكانوا خمسة صفوف.

● المنازلات بين الفريقين

قالوا: لما أصبح الناس أول يوم من صفر، وهو يوم الأربعاء خرج من جيش علي عليه السلام مالك الأشتر النخعي^(١) وهو أمير الحرب يومئذ للمراقبين مع خيله ورجاله، فخرج له حبيب بن مسلمة الفهري وهو أمير الحرب يومئذ لأهل الشام بعده وعدّته من جيشه، فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً حتى كادت الشمس أن تغرب، ثم تراجعوا إلى مراكزهم وقد انتصف بعضهم من بعض.

ثم خرج في اليوم الثاني وهو يوم الخميس: هاشم بن عتبة المرقال^(٢) وهو أمير الحرب يومئذ للمراقبين بالخيال والرجال، فخرج له أبو الأعور السلمي وهو أمير الحرب يومئذ لأهل الشام بخيله ورجاله، فاقتتلوا يومهم كله وقد صبر بعضهم لبعض، ثم انصرفوا.

ثم خرج في اليوم الثالث وهو يوم الجمعة عمار بن ياسر^(٣) وكان معه زياد بن النضر الحارثي، وكان عمار على الرجال، وزياد على الخيل.

(١) تحدثنا عن مالك بتفصيل في أوائل الفصل الثالث من هذا الجزء الثاني من الكتاب في خلال الحديث عن ولاية سعيد بن العاص على الكوفة من قبل (عثمان).

(٢) تقدمت ترجمته في أوائل الفصل الثالث من هذا الجزء، عند الحديث عن ولاية سعيد بن العاص من قبل عثمان على الكوفة.

(٣) تقدمت ترجمته في أوائل الفصل الخامس عند الحديث عن تكبير عثمان بشيعة أمر المؤمنين عليه السلام.

فخرج إليهما من جانب معاوية عمرو بن العاص^(١) بخيله، ورجاله من تنوخ وبهراء، فاقتتل الفريقان، وشدّ عمار في الرجالة على عمرو، فأزاله عن موقفه، ولم يزل الفريقان يواصلان القتال حتى انصرف كل منهما إلى جهته.

ثم خرج في اليوم الرابع وهو يوم السبت محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية^(٢) في جمع عظيم من جيش العراق، وخرج له عبيد الله بن عمر بن الخطاب^(٣) في جمع عظيم أيضاً من جيش الشام عن حمير، ولخم وجذام، فتقابلوا، وطلب ابن عمر من ابن الحنفية أن يبارزه، فتقدم إليه ابن الحنفية، وإذا بعلي عليه السلام يحرك دابته، ويمشي إلى ابن عمر، ويقول له: هلّم إليّ؟ فقال له ابن عمر: ليست لي في مبارزتك حاجة، وقال محمد لأبيه لو تركني لرجوت قتله، ثم تراجع الفريقان إلى مراكزهما.

ثم خرج في اليوم الخامس وهو يوم الأحد: عبد الله بن عباس^(٤) مع جماعة من خيالة أهل العراق، وخرج له الوليد بن عقبة^(٥) مع رجالة كثيرة من أهل الشام، ودنا الوليد من ابن عباس، فأخذ يسبه، وينال منه ومن بني عبد المطلب، فأرسل إليه ابن عباس: أن يبارزه؟ فأبى الوليد، وقاتل ابن عباس يومئذ أشد قتال.

ثم خرج في اليوم السادس وهو يوم الاثنين قيس بن سعد الأنصاري^(٦)، وكان على

(١) تقدمت ترجمته ضمن الفصل السادس من الجزء الأول عند الحديث عن جعفر بن أبي طالب، ويعتبه من قبل النبي صلى الله عليه وآله إلى الحبشة مع جماعة من المسلمين.

(٢) ستحدث عنه تفصيلاً في بعض الفصول الآتية من أجزاء الكتاب.

(٣) تقدمت ترجمته قبل هذا ضمن عرض المتخلفين عن بيعة أمير المؤمنين عليه السلام.

(٤) سوف نتحدث عن حياته تفصيلاً في بعض الفصول الآتية من أجزاء الكتاب؟

(٥) الوليد بن عقبة بضم فسكون بن أبي معيط أبان بن عمرو بن أمية، أخو عثمان بن عفان لأمه، وأحد ولاته المدللين في ولايته وسيطرته، ولقد تحدثنا عنه، وعن ولايته من قبل عثمان على الكوفة، وعن فسقه ومجونته وبغضه لعلي بن أبي طالب عليه السلام وأهل بيته أوائل الفصل الخامس من هذا الجزء أثناء الحديث عن أبيه عقبة بن أبي معيط.

(٦) قيس بن سعد بن عبادة بالضم بن دليم بالتصغير بن حارثة بن خزيمة بن تلبية بن طريف ... الخزرجي الأنصاري، المدني، صحابي معظم، ووال جليل، ومن دهاة العرب والمسلمين وذوي الرأي والمكيدة في الحرب، ومن ذوي النجدة والشهامة، وأحد أجواد العرب والمسلمين المشهورين، فقد ذكر ابن حجر في (إصابته): أنه استقرض منه أحد أصحابه ثلاثين ألفاً قلناً ردّها

رجالاً أهل البصرة، وخرج له: ابن ذي الكلاع الحميري^(١) وكان على ميمنة جيش الشام فاقتتلوا طوال ذلك النهار، ثم تراجعوا إلى مراكزهم^(٢).

→ عليه، أبي أن يقبلها، وقال النسابة البخداي في (معبره بعنوان: أجداد الإسلام): «كان قيس، وسبعة من آباءه أجواداً إلى طريف، كل جواد مطامع للطعام، ولقيس أحاديث في ذلك منها أنه مرض، فاستبطأ إخوانه في عيادته، فقتل له: إسمه يستحيون أن يأتوك من أجل ديونك عليهم، فأمر متادياً، فنادى: من كان لقيس عليه دين فهو منه في حل، فكثر عواده، حتى كسروا درجته».

وقال عنه وعن آباءه النبي ﷺ: «الجهود من شمة أهل ذلك البيت» كما في الإصابة.

وكان قيس بعد أبيه سعد شريف قومه، ورأس سيادتهم وزعامتهم، غير مدافع، وكان جميلاً، طويلاً، قيل: إنه أجمل وأطول شخص في أيامه، شهد مع النبي ﷺ عامة مشاهدته وغزواته، وكان يحمل راية الأنصار بين يدي النبي ﷺ، وولي أمور الحربية. وكان بعد وفاة النبي ﷺ من المتظاهرين بالموالاة والتشيع لعل بن أبي طالب عليه السلام، وله أيام السلفية وأيام الشورى، ويوم النار ونحوها مواقف ولائمة مشهورة في صفحات التاريخ وبعد مقتل عثمان واستخلاف علي عليه السلام كان له الدور الفعال في الدعوة إلىبيعة علي عليه السلام وفأتهب المتخلفين عنه.

وشهد حروبه، ومواقفه، وأبلى فيها البلاء الحسن، وكان على مقدمة جيشه في صفين، كما أن له الدور المشرف في قيادة الحرب ضد معاوية أيام الإمام الحسن عليه السلام حتى أنه أبى مصالحة معاوية بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام ولكنه قبل بعد ذلك بأمر من الإمام عليه السلام وقبضه بقلبي حقدًا على معاوية، وبعد تسمية الصلح رجع إلى المدينة، وتوفي فيها في آخر أيام سني معاوية سنة ٥٨ هـ على الأكثر.

(١) واسمه شرحبيل واسم أبيه ذي الكلاع الحميري أبيض أو سمينع بن ناكور بن عمرو بن عفر بن يزيد من أهل اليمن، والظاهر: أنه من «حمير»، ويقال: إنه ابن عم كعب الأحبار.

وكان ذو الكلاع رئيساً في قومه، مطاعاً فيهم، كتب إليه النبي ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، والمعاونة بيد جرير بن عبد الله الجبلي، فأسلم وخرج مع جرير إلى النبي ﷺ فكان من أصحابه، وبعد وفاة النبي ﷺ انصرف عن علي عليه السلام فكان من حلبة أصحاب معاوية يوم «صفين»، وقتل قبل انتضاء الحرب.

ولما قتل أرسل ابنه المشاعر إليه وكان هو الآخر مع أبيه إلى سعيد بن قيس وكان على ميمنة علي عليه السلام يطلب جثة أبيه، فأذن له سعيد، فجاء ومعه غلام أسود إلى عسكر علي عليه السلام فوجد أباه قد ربط برجله طنط لسطاط، فاستأذن أصحاب اللسطاط في أخذ الجثة فأذنوا له وكان قد انتفض فكلمها حاول ومعه غلامه أن يرفع الجثة من مكانها، لم يتمكن، فانتخى بمن يعاونه من الحاضرين، فخرج إليه رجل من أصحاب علي عليه السلام يقال له «خندف»، فقال: تنحوا؟ قال ابن ذي الكلاع: ومن الذي يرفعه؟ قال: يرفعه الذي قتله، فاحتمله وحده، ورمى به على ظهر البغل الذي جاء به ابنه فشدته ابنه وغلامه بالبغل، وانطلقا به إلى عسكر معاوية، ودفناه هناك.

(٢) هكذا في عامة المصادر التاريخية، وفي مروج السعدوي: أن قيادة الجيشين في هذا اليوم مع سعيد بن قيس الهمداني من العراق وذو الكلاع الحميري نفسه.

ثم عاود الأشر، وحبيب بن مسلمة بجيشهما: القتال، صباح اليوم السابع الثلاثاء بعنفٍ وشدة، حتى إذا صار الظهر، انصرف كل منهما إلى معسكره، وهو غير غالب لصحابه.

ثم إن علياً عليه السلام برم من تتابع القتال والمنازلات طيلة تلك الأيام الستة أو السبعة من دون نتيجة حاسمة فأخذ يقول: «حتى متى لا نناض هؤلاء القوم بأجمعنا؟» وأرادها حرباً جماعية شاملة ذات حصيلة سريعة، فخرج عشية الثلاثاء بعد صلاة العصر، وقام في الناس خطيباً، وقال في آخر خطبته:

«ألا، وإنكم لا قوا القوم غداً، فاطيلوا الليلة القيام؟ وأكثروا تلاوة القرآن؟ واسألوا الله النصر والصبر، والقوم بالجد والحزم؟ وكونوا صادقين»، ثم انصرف فمرّ كعب بن جُعيل فقال:

أصبحت الأمة في أمر عجب والملك مجموع غداً لمن غلب

فلت قولا صادقا غير كذب إن غداً نهلك أعلام العرب

فأخذ القوم يصلحون سلاحهم، وجعل علي عليه السلام يعبا الناس ليلته كلها حتى إذا أصبح زحف بالناس زحفاً شاملاً على معاوية وجيشه، وخرج إليه معاوية في حشود أهل الشام.

فسأل علي عليه السلام عن القبائل من أهل الشام، فعرف مواقفهم، فقال للأزد: اكفونا الأزد؟ وقال لخنثم: اكفونا خنثم؟، وأمر كل قبيلة من العراق أن تكفيه أختها من الشام، إلا أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد، فيصرفها إلى قبيلة أخرى من الشام ليس بالعراق منهم أحد، مثل «بجيلة» لم يكن بالشام منهم إلا القليل، فصرفهم إلى «لخم».

وتناهض الفريقان، طوال ذلك اليوم (الأربعاء) واقتتلوا قتالاً شديداً حتى إذا كان المساء، انصرف كل إلى مركزه، ولم تظهر الغلبة لأحدهما.

فلما كان يوم الخميس، صلى علي عليه السلام بأصحابه صلاة الغداة بغأس، ثم جعل على ميمته: عبد الله بن يدیل^(١)، وعلى مسيرته: عبد الله بن عباس، والقراء، وعماراً، وقيس

(١) عبد الله بن يدیل بالتصغير بن ورقاء بن عمرو بن ربيعة بن عبد العزى ... الخزاعي.

بن سعد، والناس على رأياتهم، وثبت هو في القلب في أهل المدينة بين أهل الكوفة والبصرة.

ثم خرج بالناس إلى أهل الشام، فزحف إليهم، وكان معاوية في وسطهم قد رفع قبة عظيمة، ألقى عليها الكرايس من الثياب الفارسية، وبايعه معظم أهل الشام على الموت وقد أحاطت خيل أهل الشام بقبته.

وزحف عبد الله بن بديل^(١) في ميمنة أهل العراق نحو حبيب بن مسلمة في مسيرة أهل الشام، فلم يزل يحوزهم ويكشف خيلهم، حتى اضطروهم إلى قبة معاوية عند الظهر. وأخذ ابن بديل يحرض أصحابه على مواصلة القتال، فجعل يقول: «إلا إن معاوية ادعى ما ليس له، ونازع الحق أهله، وعاونه من ليس مثله، وجادل بالباطل ليدحض به الحق، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب الذين قد زين لهم الضلالة، وزرع في قلوبهم حب الفتنة، وليس عليهم الأمر، وزادهم رجساً إلى رجسهم.

فقاتلوا الطغاة الجفاة ولا تخشوهم، ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾، وأخذ يزيد بن قيس الأرحبي^(٢) يحرض الناس على مواصلة القتال، فقال: «إن المسلم من سلم في دينه ورأيه، وإن هؤلاء القوم - يعني معاوية وأهل الشام - والله لا يقاتلوننا على إقامة دين ضيعناه وإحياء حق أمتناه، إن يقاتلوننا إلا على هذه الدنيا، ليكونوا جبارين فيها ملوكاً، فلو ظهوروا عليكم لا أراهم الله ظهوراً ولا سروراً ألزموكم بمثل سعيد، والوليد، وابن عامر السفهية الضال - إشارة إلى ولاة عثمان الجبابة - يجبر أحدهم بمثل

→ من الصحابة الأجلاء، ومن الشعاة الفصحاء، ومن القادة الزعماء، انتهت إليه سيادة خزاعة بعد أبيه أسلم هو وأخوه عبد الرحمن مع أبيهما قبيل يوم الفتح أو يومه وحضر حنيناً، والطائف، وتبوك مع النبي ﷺ، وكان أخوه سمع رسول النبي ﷺ إلى أهل اليمن في الدعوة إلى الإسلام.

وكان وأخوه معه أيضاً بعد وفاة النبي ﷺ من المحروطين بموالاتهم وتشجيعهم لملي وأهل بيته ﷺ، وحضر وأخوه معه بعد ذلك «واقعة صفين»، وكان على رجاله أهل العراق، وكان يحثهم على قتال معاوية فيقول: «إن معاوية نازع الأمر أهله، وصال عليكم بالأحزاب والأعراب، وأنتم والله على الحق، فقاتلوا...». ولم يزل يقاتل، حتى انتهى إلى معاوية، فأزاله عن موقفه، فتكاثر عليه أهل الشام، حتى قتلوه.

(١) وقد مرّت ترجمته آنفاً.

(٢) وقد مرّت ترجمته قبل صفحات.

ديته ودية أبيه وجده في جلسة، ثم يقول: هذا لي ولا إثم علي، كأنما أعطى تراثه عن أبيه وأمه، وإنما هو مال الله أقامه علينا برماحننا وسيوفنا، فقاتلوا عباد الله القوم الظالمين، فإنهم إن يظهروا عليكم يفسدوا عليكم دينكم ودنياكم، وهم من قد عرفتم وخبرتم، والله ما ازدادوا إلى يومهم إلا شراً.

فأقبل الذين بايعوا معاوية على الموت، وأحاطوا بقبته، فأمرهم أن يصمدوا لابن بديل في الميمنة، وبعث إلى حبيب بن مسلمة أن يحمل بمن معه على ميمنة أهل العراق، فحمل عليهم، فأنكشفوا أمامه فلم يبق مع ابن بديل غير مائتين أو ثلاثمائة من القراء وأمر علي رضي الله عنه سهل بن حنيف^(١) فاستقدم فيمن كان معه من أهل المدينة فاستقبلتهم جموع عظيمة لأهل الشام، فألحقهم بالميمنة المنهزمة من أهل العراق، حتى انتهت الهزيمة إلى علي رضي الله عنه وقد أحاط به جموع أهل اليمن فأقبل يمشي وولده معه نحو الميسرة، وإذا بالأشتر يركض نحو الفرع^(٢) قبل الميمنة، فناداه علي رضي الله عنه فأتاه على الفور فقال له: «أنت هؤلاء القوم - يعني المنهزمين من أهل العراق - فقل لهم: أين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه إلى الحياة التي لن تبقى لكم؟»

فمضى مالك، واستقبل المنهزمين، فأطلق عليهم كلمات أمير المؤمنين رضي الله عنه، وأخذ يحثهم ويناديهم ويقول: «أيها الناس إني إلي؟ أنا الأشتر...»، فأقبلت إليه طائفة منهم، وتخلفت عنه أخرى، فأخذ ينادي المتخلفين بأسمائهم وبقبائلهم ويؤنبهم ويحضهم

(١) أبو سمد سهل بن حنيف بالتصغير بن واهب أو وهب بن المكيم بن ثعلبة بن الحرث بن مجدة بن عمرو بن جيش بن عوف .. الأنصاري الأوسي من خيار الصحابة، ومن السابقين إلى الإسلام والهجرة، شهد مع النبي صلى الله عليه وآله بدرًا، ونبت يوم أحد يناهض عن النبي صلى الله عليه وآله. ثم شهد مشاهد النبي كلها بعد ذلك وأخى النبي صلى الله عليه وآله بينه وبين أمير المؤمنين رضي الله عنه بعد الهجرة. وكان بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله من المظاہرين بولائهم لعلي وأهل بيته، وحضر مع علي رضي الله عنه عامة حروبه، واستخلفه علي رضي الله عنه على البصرة بعد الانتهاء من واقعة الجمل، ثم شهد معه: وقعة صفين، وأهل فيها بلاة حسناً، وتوفي بعد الانتهاء من صفين بالكوفة سنة ٣٨ هـ فحزن عليه علي حزنًا شديدًا وكفنه يرز أحمر وحريرة يمانية وصلى عليه، فكير خمس تكبيرات، أو سبهاً أو أكثر وقيل له في ذلك، فقال: «لو كبرت عليه سبعين تكبيرة لكان أهله باقتضاب من أعلام الزركلي، ورجال الكشي، والإصابة برقم ٣٥٢٧، والمحبر للنسابة البغدادي ص ٧١ و ٢٩٠، وشذرات الحنيلي: ج ١، وسفينة البحار للقمي.

(٢) من معاني الفرع بالضمير بك: الخوف، والإغاثة والاستغاثة.

على الإتياء ويقول: «أيها الناس، ما أقبح ما قاتلتم منذ اليوم، أخلصوا لي مذبحاً؟ فاقبلت مذبح إليه، فقال لهم؟ ما أرضيتكم ربكم ولا نصحتم له في عدوكم وكيف ذلك وأنتم أبناء الحرب، وأصحاب الغارات، وقتيان الصباح، وفرسان الطراد، وحتوف الأقران، ومذبح الطعان، الذين لم يكونوا يسبقون بثأرهم ولا تطلّ دماؤهم، وما تفعلون هذا اليوم فإنه ماثور بعده، فانصهروا واصدقوا عدوكم اللقاء؟ فإن الله مع الصادقين، والذي نفسي بيده، ما من هؤلاء - وأشار إلى أهل الشام - رجل على مثل جناح بعوضة من دين ..»

فطأوعه الكثير، فأخذهم نحو الميمنة، ثم حمل على أهل الشام، فألحقهم بصفوف معاوية المحيطة بقبته، وأخذ يفوس في أوساطهم ويستعرض أيمانهم وأيسارهم وفي يده صحيفة يمانية حتى انتهى إلى عبد الله بن بديل، وهو في عصابة من القراء نحو المائتين أو الثلاثمائة فكشف عنهم أهل الشام، فانطلق عبد الله مع أصحابه القراء نحو معاوية ويده سيفان وهو يقتل كل من دنا إليه حتى دنا من معاوية، فأزاله عن موقفه، فتعاوره الناس وأحاطوا به وبجماعته القراء من كل جانب حتى قتلوه وجماعته من أصحابه.

● زحف مالك الأشتر

ثم زحف الأشتر بجيشه وقاتل أهل الشام حتى أزالهم عن مواضعهم وألحقهم بالصفوف الخمسة المعلقة بالعمائم حول قبة معاوية، ثم حمل عليهم حملة أخرى، فصرع أربعة من تلك الصفوف حتى انتهى إلى الصف الخامس الذي حول معاوية ودعا معاوية بفرسه، فركبها وكان يقول بعد ذلك: «أردت أن أنهزم فذكرت قول ابن الأظنابة الأنصاري الجاهلي:

أبت لي عفتي، وحياء نفسي	واقدامي على البطل المشيع
وإعطائي على المكروه مالي	وأخذي العمد بالخن الربيع
وقسولي كلما جشأت وجاشت	مكاته حمدي أو تستريجي ^(١)

(١) في بعض المصادر ثبت صدر البيت الأول هكذا: أبت لي عفتي وأبي بلاتي، وفي معجم الشعراء للمرزباني: ص ٩ دار

فمنعني هذا القول من الفرار»، ونظر حينئذ إلى عمرو بن العاص فقال: «اليوم صبر، وغداً فخر»، فقال عمرو: صدقت.

قالوا: ثم إن علياً عليه السلام لما رأى عودة ميمنته إلى مواقعها بعد الهزيمة أقبل عليها، فجعل يؤنبها على الفرار، ويشجعها على القتال بعد عودتها إلى الصف.

فيقول: «إني قد رأيت جولتكم وانحيازكم من صفوفكم، يحوزكم الجفأة الطفأة، وأعراب الشام، وأنتم لهاميم القرب^(١)، والسنام الأعظم^(٢)، وغفار الليل بتلاوة القرآن، وأهل دعوة الحق، إذ ضل الخاطئون، فلو لا إقبالكم بعد إيدباركم، وكركم بعد انحيازكم، لوجب عليكم ما وجب على المولي - يوم الزحف - ذبیره، وكنتم... إلى آخر كلامه.

● مصرع أبي كعب الخثعمي وابنه

وهنا أرسل عبد الله بن حنش الخثعمي (رأس خثعم الشام) إلى أبي كعب (رأس خثعم العراق) يطلب منه المواعدة بين بني خثعم من الطرفين؟ فأبى أبو كعب ذلك، فالتقى خثعم وخثعم من الجانبين وتزاحفوا، فإذا برجل من خثعم الشام يطلب المبارزة من خثعم العراق، فبرز إليه وهب بن مسعود من خثعم الكوفة فقتل الشامي، ثم اضطربوا ساعة واقتتلوا أشد قتال، وجعل أبو كعب يحفز أصحابه يثيرهم على قتال خثعم الشام، وإذا بشمر بن عبد الله من خثعم الشام يحمل على أبي كعب، فيطعنه، فيقتله.

فوثب كعب بن أبي كعب إلى راية أبيه، فأخذها، وقاتل حتى صرع، ثم أخذها جماعة آخرون من خثعم العراق، فقاتلوا وصرعوا.

وكانت راية «بجيلة»^(٣) مع أبي شداد قيس بن هبيرة الأحمسي^(٤)، وقد طلبها منهم

→ إحياء الكتب العربية: يذكر الأبيات أربعة وبهذا النص:

وأخذي الحمد باليمن الوبيح	أبت لي عفتي وأبى بلاني
وغيري هامة البطل المشيح	وإكرامي على المكروه نفسي
مكائك تحفدي أو تسترجحي	وقولي كلما جشأت وجاءت
وأهمي بعد عن عرض صحيح	لأدفع من مآثر صالحات

(١) لهاميم: جمع لهوم بالضم ومن معانيه: الجواد السخي من الناس.

(٢) سنام البحر: الحدة البارزة في ظهره، والتعبير كنانتي. (٣) وبجيلة بطون كثيرة، منها بنو أحمر بن الفوث بن أنمار.

قائلاً «والله، لئن أعطيتونيها، لا أنتهى بكم دون صاحب هذا الترس المذهب»^(٥) وكان صاحبه عبد الرحمان بن خالد بن الوليد^(٦) وكان قائماً على رأس معاوية، ويده ترس مذهب يستره عن الشمس.

فقالوا له: اصنع ما شئت؟ وأعطوه رأيهم، فأخذ يزحف بها وهم من حوله يضربون الناس، ويقتلون.

وشد أبو شداد بسيفه نحو صاحب الترس، فتمرض له مولى رومي لمعاوية، فضرب قدم أبي شداد، فقطعها، وضربه أبو شداد بالسيف على رأسه، فقتله، وأشرعت الرماح على أبي شداد، فقتل.

فأخذ راية «بجيلة» بعده جماعة من الأحمسيين: عبد الله بن قلع، ثم عفيف بن إياس، ثم حازم وغيره فقاتلوا، وقتلوا على التوالي.

وكانت راية «غطفان» العراق مع عياش بن شريك بن حارثة بن جندب بن زيد بن

(٤) أبو شداد، قيس بن المكشوح هبيرة بن هلال بن العارث بن عمرو بن عامر بن أسلم الأحمسي البجلي، صاحب الرأي والشجاعة والدهاء في الحروب ومن الشراء المجيدين وهو ابن أخت عمرو بن معد يكرب، أسلم متأخراً في مرض النبي ﷺ أو بعد وفاته وكان سيد «بجيلة» على كثرة بطونها في الجاهلية والإسلام وله مواقف حاسمة في الفتوحات الإسلامية أيام عمر وعثمان وقلعت عينه يوم اليرموك، وكان بعد وفاة النبي ﷺ من المظاهرين بهولانهم لأنسير المؤمنين ﷺ، وحضر معه وقعة «صفين» وكان يومئذ صاحب راية بجيلة على الإطلاق لقاتل وأبلى بلاءً حسناً في الجهاد والجلاد، حتى قتل ﷺ وقتل معه جماعة من قومه. باقتضاب من تهذيب الأسماء واللغات للتوحي ج ٢ باسمه، ومعجم الشراء للمريزاني، والاستيعاب لابن عبد البر باسمه، وأعلام الزركلي باسمه.

(٥) الترس بالضم: صفحة من الفولاذ ونحوه، تحمل في الحرب للوقاية من السيف ونحوه.

(٦) عبد الرحمان بن خالد بن الوليد بن النخعة القرشي السخزومي، أدرك النبي ﷺ وأسلم وليس له معه صحبة ولا له عنه رواية.

كان من فرسان قريش وشجعانهم كأيه خالد وكان معروفاً بانحرافه عن علي عليه السلام وأهل بيته كأيه خالد بل هو أشد. ازدلف إلى معاوية أيام خلافة علي عليه السلام وشهد معه «صفين»، ولما أراد معاوية أخذ البيعة لولده «يزيد» في أخريات سنته خطب أهل الشام، وأطلق لهم حرية الاختيار، فاختاروا عبد الرحمان، فشق ذلك على معاوية، وأسرها في نفسه، فمرض عبد الرحمان بعد ذلك فأمر له معاوية بطبيب يهودي، فسقا شربة سم، فمات على أثرها، ودخل أخوه المهاجرين خالد بعد ذلك دمشق مستخفياً فرأى ذلك الطبيب اليهودي خارباً من مجلس معاوية فقتله، والقصة مفصلة في كتب التاريخ.

خلف بن رواحة، فخرج رجل من آل ذي الكلاع الحميري من الشام، يسأل المبارزة من أهل العراق، فبرز إليه قائد بن بكير العبسي من أهل العراق، فشد عليه الكلاعي، فقتله، فتقدم عياش بن شريك نحو الكلاعي، فاذا الحديد مفرغ عليه، بحيث لا يبين من نحره إلا مثلُ شراك النعل من عنقه بين بيضته ودرعه، فضرب الكلاعي عياشاً، فقطع بعض حجفته^(١)، وضربه عياش على ذلك الموضع المبان من نحره، فقطع نخاعه، فقتله.

● مقتل حريث مولى معاوية بسيف علي عليه السلام

وكانت راية بني نهد^(٢) بالعراق مع مسروق بن الهيثم بن سلمة النهدي، فقاتل وقومه معه حتى قُتل، وقتلوا معه على التابع، حتى آلت الراية إلى عبد الرحمان بن محنف الأزدي^(٣) فقاتل وقتل الكثير من أصحابه، ثم تراجع. ثم تقدم من قومه: جندب بن زهير الأزدي^(٤) فبارز رأس أزد الشام، فقتله الشامي، وقتل من رهطه جماعة.

وتقدم عقبة أو عقبة بن حديد أو جويرية التميمي^(٥) من جيش العراق، وأخذ يخطب الناس ويحضهم على مواصلة الكفاح، والفوز بالشهادة. ثم توجه بخطابه إلى إخوته: عبد الله وعوف ومالك، فاستجابوا له وقاتلوا، وقتلوا بين يديه، حتى قتلوا جميعاً.

(١) حجة: بالحاء المهملة والتحرير: واحدة الحجب، وهي تروس من جلود بلا خشب، ولا عقب تستعمل للتوقي عن الضرب في الحرب.

(٢) وهو نهد بن زيد بن لث بن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاة، وهم بطون كثيرة، منها تسكن اليمن، ومنها تسكن الشام، ومنها تسكن الأندلس، ومسروق هذا من سكة اليمن.

(٣) وأزد الكوفة بطون كثيرة منهم بنو مازن الذي ينتمي إليه عبد الرحمان هذا فهو ابن مخنف بن سليمان بن الحارث بن عوف بن ثعلبة بن عامر بن زهل بن مازن بن ذبيان بن ثعلبة. وكان عبد الرحمان هذا من القواد الشجعان أيام العصر الأموي.

(٤) وجندب هذا من بطن مازن بن ذبيان، فهو ابن زهير بن الحارث بن كثير بن جشم بن سبيع بن مالك بن زهل بن مازن بن ذبيان بن ثعلبة.

(٥) وتميم بالتصغير: بطن من تميم، فهو ابن أسيد بالتصغير والتشديد بن عمرو بن تميم.

قالوا: وكان لمعاوية مولى، شجاع فارس، اسمه «خريث» بالتصغير، وكان معاوية يُعده لحملاته المهمة في الحروب وكان يلبس سلاحه متشبيهاً به، فأوصاه معاوية في يوم من أيام صفين أن يبارز كل أحد، ويتقي علياً عليه السلام، فأغراه عمرو بن العاص أن يبارز علياً، فاغتر العبد، وخرج من عسكر معاوية، ودعا علياً للمبارزة فأقبل عليه أمير المؤمنين عليه السلام، فما كان أسرع من أن ضربه ضربة واحدة قده نصفين.

فجزع معاوية عليه، وأخذ يؤثبه ويعاتب ابن العاص على إغرائه، ويقول:

حريث، ألم تعلم وجهك ضائر	بأن علياً للفوارس قاهر
وأن علياً لم يبارزه فارس	من الناس إلا أقصده الأظفار
أمرته أمراً حازماً فعصيتني	فجده - إذ لم تسأل النصح - عائر
وولاه عسكرو والحوادث جمعة	غروراً وما جرت عليك المقار

فلما قتل «خريث» برز عمرو بن الحصين السكسكي ^(١)، فطلب المبارزة من علي عليه السلام فأوماً علي إلى سعيد بن قيس اله ^(٢) المداني فبارزه، فضربه بالسيف فقتله.

وفي عيون الأخيار لابن قتيبة: «إن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب خرج يوماً من أيام صفين وهو مكفّر بالسلاح وعيناه تبصّان من تحت المغفر، كأنهما عينا أرقم، ويده صفيحة يمانية وهو على فرس له صعب، إذ هتف به هاتف من أهل الشام يقال له «عرار بن أدهم» ودعاه إلى البراز، فطلب العباس منه النزول، فنزل الشامي ونزل العباس، ثم جمع فضلات درعه في حجّزته، ودفع قوسه إلى غلامه، ثم دلف كل منهما إلى صاحبه، وتنازلا، وكفّ الناس أعنة خيولهم، ينتظرون ما يكون من الرجلين، فتكافحا ملياً من النهار، فلحظ العباس وهياً ^(٣) في درع الشامي من حيث صدره، فأهوى إليه فخرقه بيده، ثم عاد لمجاولته، فضربه العباس على المكشوف من صدره، فخرّ

(١) السكسك أو السكاسك على الأصح: بطن من كندة، فهو السكاسك بن أشرس بن كندة.

(٢) سعيد بن قيس بن زيد، من بني زيد بن مرثد الهمداني، من سلالة ملوك همدان، كان من الدهاق، والأجواد والشجعان.

وكان من خواص أمير المؤمنين عليه السلام وإليه ينسب السعديون في بيت «زور» من أهل اليمن وهم شعبة علي عليه السلام.

حضر سعيد مع علي عليه السلام «صفين» فأبلى فيها بلاءً حسناً وكان صاحب راية من كراديس الهمدانيين.

(٣) وهي الثوب، ونحوه: وهياً: أنشق وأنشرق.

توفي بعد ذلك نحو سنة ٥٠ هـ

الشامي لوجهه، وكثير الناس تكبيرة ارتجت لها الأرض من تحتهم، فسأل علي عليه السلام عن الخير؟ فقبل له: هذا ابن أخيكم قتل «عراق بن آدم»، فالتفت علي إليه، وقال: ألم أنهك وابن عباس أن تخلأ بمرکزكما، وأن تباشرا حرباً؟

● مقتل اللخمين من قبل علي عليه السلام

قال العباس: يا أمير المؤمنين: أفأدعى إلى البراز، فلا أجيب؟ قال علي: نعم، طاعة إمامك أولى من إجابة عدوك، ثم سكن علي، وتطامن من غضبه، وأخذ يقول: «اللهم، اشكر للعباس مقامه؟ واغفر ذنبه؟ إني قد غفرت له، فاغفر له». وتأسف معاوية على عراق كثيراً، وقال: متى ينتطح فحل يمثله؟ أيطل دمه؟ لاها الله إذاً.

فانتدب له رجلان من «لخم»^(١) فقال: اذهبا فأيكما قتل العباس برازاً فله كله، فأتى اللخميّان: المعركة، ودعوا العباس إلى البراز؟

فقال العباس: إن لي سيّداً أريد أن أوامره؟

فأتى علياً، فأخبره الخبر، فقال علي: «والله لوّ معاوية أنه لم يبق من بني هاشم نافع ضربة إلا طعن في نيّطه»^(٢) إطفاء لنور الله ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ نَوْرُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ...﴾^(٣) ثم قال: يا عباس، ناقلني سلاحك بسلاحي؟ فناقله العباس، ووثب علي عليه السلام على فارس العباس، وقصد اللخميّين، فلم يشك أنه العباس، فبرز له أحدهما، فضربه ضربة، فكانما اختطفه، ثم برز الآخر، فالحقه بالأول، ثم أقبل علي عليه السلام إلى مركزه، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ لَمَنِ اخْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اخْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾^(٤) الآية - ثم قال: يا عباس، خذ سلاحك، وهات سلاحي؟ فإن عاد لك أحد فعد إليّ^(٥).

(١) لخم بالفتح فالسكون وهو مالك بن عدي بن العارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب.

ولخم بطون كثيرة تنفر من ولديه: حزيلة، ونمازة بالزاي المنقطة أو بالراء المهملة.

(٢) النيّط: نياط القلب، وهو العرق الذي يتعلق به القلب. (٣) التوبة / ٣٢.

(٤) البقرة / ١٩٤.

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ج ١ ص ١٨٠ - ١٨١ ط دار الكتب المصرية، وستترجم له في بعض الفصول الآتية من أجزاء الكتاب.

وخرج رجلٌ من «عك» من أهل الشام، وهو يطلب البراز، فخرج إليه قيس بن فهران أو فهدان الكندي من العراق، فحمل عليه العكي وتجاوزا ساعة، فما ألبثه الكندي أن طعنه فقتله، وأخذ يقول:

لقد علمت «عك» بصفين أننا إذا ما تلاقى الخيل نطعننا شزرا

ونحمل رايات القتال بحلها فنوردها بيضا ونصدرها حمرا

وأبلى «محارب»^(١) يومئذ مع أمير المؤمنين عليه السلام بلاءً حسناً، وكان عنتر بن عبید بن خالد بن المحاربي أشجع الناس يومئذ فلما رأى أصحابه متفرقين، ناداهم: يا معشر قيس، أطاعة الشيطان أبز عندكم من طاعة الرحمن؟ ألا إن الفرار فيه معصية الله وسخطه، وإن الصبر فيه طاعة الله ورضوانه، أفتختارون سخط الله على رضوانه ومعصيته على طاعته؟، ثم أخذ يقاتل حتى أرثت^(٢).

وقالت طي^(٣) يومئذ مع علي عليه السلام قتالاً شديداً فغُبْتُ لهم جموع كثيرة، فأتاهم حمزة بن مالك أو بالراء الهمداني من جانب أهل الشام فقال: من القوم؟ فقال له عبد الله بن خليفة البولاني^(٤): وكان شيعياً، شاعراً، خطيباً: «نحن طي السهل، وطي الرمل، وطي الجبل الممنوع ذي النخل، ونحن حماة الجبلين إلى ما بين العذيب والعين، ونحن طي الرماح، وطي البطاح، وفرسان الصباح»، فقال حمزة بن مالك: يخ، يخ، إنك لحسن الثناء على قومك، واقتتلوا أشد قتال، فناداهم عبد الله: يا معشر طي، فدى لكم طارفي وتليدي، قاتلوا على الدين والأحساب؟

● القبائل العراقية في صف علي عليه السلام تحارب أمثالها في صف معاوية

وحمل بشر بن العسوس الطائي من جانب علي عليه السلام فقاتل، حتى فقت عينه يومئذ بسهم أصابها، فجعل يقول:

(١) بنو محارب بن خصفة بالتحريك بن قيس عيلان بن مضر من قبائل قيس الغاملة في البادية يومئذ وهم بطون، كلها من سكة البوادي.

(٢) ارتت: مبنى للمجهول: حمل من المعركة جريحاً، وفيه رمق فهو مرتث بجراحه.

(٣) طي هو جلهمة بالضم بن أدد بالضم بن يشجب بن عريب بن زيد كهلان بن سبأ، وطي: بطون كثيرة، متفرعة من ولده: فطرة، والغوث، والحارث.

(٤) نسبة إلى بولان بالفتح: عُضْن بن عمرو بن الغوث بن طي.

ألا ليت عيني هذه مثل هذه فلم أمش بين الناس إلا بفناء
وياليتني لم أبق بعد مطرف وسعد وبعد المستنير بن خالد
ويا ليت رجلي كم فُتنت بنصفها ويا ليت كفي كم طاحت بساعدي
فوارس لم تغزو الحواضر مثلهم إذا الحرب أبدت عن هدام الخرائد
وقاتلت «النخع»^(١) يومئذ مع أمير المؤمنين عليه السلام قتالاً عنيفاً، فأصيب منهم جماعة،
وجرح آخرون، وقُطعت رجل علقمة بن قيس النخعي الفقيه، وقُتل أخوه أبي بن قيس،
فكان علقمة يقول بعد ذلك: «ما أحب أن رجلي أصح ما كانت، لما أرجو بها من حسن
الثواب».

وكان يتولى راية «ربيعة»^(٢) كلها الحُضَيْنُ بن المنذر الرقاشي^(٣)، وكان يومئذ شاباً،
حدث السن، فأقبل يزحف بالراية وكانت حمراء أمام ربيعة وعلي عليه السلام معجب بزحفه
وثباته، فأخذ يقول عليه السلام:

لمن راية حمراء يخفق ظلها إذا قيل قدّمها حبيبٌ قدما
ويدنو بها في الصف حتى يزيها حياض المنايا تقطر الموت والدماء
تراه إذا ما كان يومٌ عظيم أبى فيه إلا عزة وتكرما
وأحزم صبراً يوم يدعى إلى الوغى إذا كان أصوات الكماة كُفمفا

(١) النخع بالتحريك، وهو جر بالفتح بن عامر بن علة بالضم والتشديد بن جلد بالتحريك بن مالك بن أد .. ونخع بطون
كثيرة متفرعة من ولديه: مالك، وعوف.

(٢) وهم: ربيعة بن زرار بن معد بن عدنان، ويطونها كثرة من أبنائه، أسد ومنعة، وأكلب، ودخل بنوه في خضم، وعائشة.

(٣) أبو سلسان: الحُضَيْن بن المنذر بن الحارث بن ولة بن المجالد بن البشر بن الريان بن الصارث بن مالك بن شيان بن
ذهل بن ثعلبة «الرقاشي» نسبة إلى أم جدّه الأعلى (مالك بن شيان)، فإن أمه وأم أخيه زيد بن مناة رقاش بنت ضبة بن
قيس بن ثعلبة.

كانت ولادته في سنة ١٨ هـ هو من التابعين الموالين لملي بن أبي طالب عليه السلام، وكان من سادات ربيعة وشجعانهم، وذوي الرأي
فيهم، وكان صاحب راية ربيعة يوم صفين مع علي عليه السلام وهو ابن ١٩ سنة وولاه علي بعد ذلك اصطخر، ولما استتب الأمر
لعمامة وفد عليه فأكرمه، وكان قتيبة بن مسلم وهو يبرو يستشره في أموره، وكان يقول عنه: إنه باقة العرب، وداية
الناس. وطال عمره حتى أدرك إمارة سليمان بن عبد الملك، وتوفي سنة ٩٧ هـ بانقضاب من تهذيب ابن عساكر، وسقط
اللتالي، وخزانة البغداد، وتاج العروس بمادة حضن، وأعلام الزركلي باسمه.

أذلنا ابن حرب طعننا وفسادنا بأسيا فلما حتى تولى وأهجا
جزى الله قوماً صابروا في لقائهم لدى الموت حملاً ما أعف وأكرمنا
ربيعة أعني أنهم أهل نجدة وبأس إذا لاقوا حميماً عرمرما^(١)

فأقبل ذوالكلاع الحميري في «حمير»^(٢) ومن لف لفها وكانوا في ميمنة أهل الشام ومهمهم: عبيد الله بن عمر بن الخطاب وكان في أربعة الآلاف من قراء أهل الشام، فحملوا جميعهم على ربيعة وهم في ميسرة أهل العراق، وفيهم الحبر عبد الله بن عباس حملة شديدة فتضعضت ربيعة العراق بيد الحاضن بن المنذر، وبان الضعف فيهم، فانصرف عنهم أهل الشام، ولم يلبثوا إلا قليلاً.

ثم سرعان ما كثر عبيد الله بن عمر على ربيعة العراق، وأخذ يشجع أصحابه القراء، ويثيرهم على قتال ربيعة، ويقول: «يا أهل الشام، إن هذا الحي من العراق قتل عثمان بن عفان، وأنصار علي بن أبي طالب، ولئن هزمت هذه القبيلة أدركتم ثاركم من عثمان، وهلك علي وأهل العراق، فشدوا على الناس شدة عظيمة».

فتثبت لهم ربيعة العراق، وصبرت صبراً حسناً، وقاتلت قتالاً متواصلاً، إلا قليلاً من الفسلة والضعفاء منهم.

وانصرف خالد بن المعمر وكان في مقدمة ربيعة يومئذ فلما رأى صبر وثبات أهل الرايات رجع إلى الصف، وأخذ يؤنب المنصرفين منهم، وبأمرهم بالإنابة والرجوع^(٣).

(١) هذه الأبيات وإضافة أبيات أخر في بعض المصادر تنسب إلى علي بن أبي طالب في عامة المصادر التاريخية، وفي بعض المصادر: إنها من إنشاء الحاضن بن المنذر، قالها حينما تقدم براءة ربيعة.

(٢) حمير بكسر فسكون ففتح بن سبأ بن يشجب بن حرب بن قحطان، وهم بطون كثيرة متفرعة من بنيه الكثيرين؛ جميعهم ومالك، وزيد، وهرب، ووائل، ومسروج، وهميكرب، وأوس ومزة.

(٣) وهنا يعلق ابن أبي الحديد في شرحه: ج ٥ ص ٢٢٨ ط جديد، فيقول: «لا ريب عند علماء السيرة إن خالد بن المعمر كان له باطن سوء مع معاوية، وإنه انهزم هذا اليوم لكسر المعصرة على علي بن أبي طالب، ذكر ذلك الكلبي، والواقدي، وغيرهما. ويدل على باطنه هذا إنه لما استظهرت «ربيعة» على معاوية وعلى صفوف أهل الشام في اليوم الثاني من هذا اليوم أرسل معاوية إلى خالد: أن كف عنى ولك إمارة خراسان ما بقيت، فكف عنه فرجع بربيعة وقد شارفوا أخذه من مضربه...».

وكان في جملة «ربيعة» من «عزة»^(١) وحدها أربعة الآلاف مجفف أي من يلبس التجفاف، وهو ما جلل به الفارس من سلاح يقبه السهام. واشتد القتال بين ربيعة من أهل العراق وحمير من أهل الشام حتى كثرت القتلى، والجرحى بين الفريقين.

ثم خرج نحو من خمسمائة فارس أو أكثر من أصحاب علي عليه السلام على رؤوسهم البيض، وهم غائصون في الحديد، لا يرى منهم إلا الحدق، وخرج إليهم من أهل الشام نحوهم في العدد والعدة، فاقتلوا بين الصفين، والناس وقوف تحت راياتهم، فلم يرجع من هؤلاء، ولا من هؤلاء مخبر، لا عراقي، ولا شامي، قتلوا جميعاً بين الصفين. وكان اليوم الثاني، وكانت التعبئة فيه كالتيبة في الذي قبله، وحمل عبيد الله بن عمر في قراء أهل الشام، ومعه ذو الكلاع في «حمير» على جموع ربيعة وهي في مسيرة علي عليه السلام فاشتد القتال.

فأتى زياد بن خصفة إلى «عبد القيس»^(٢)، فأعلمهم بما لقيت بكر بن وائل^(٣) من «حمير»، وقال: يا عبد القيس، لا بكر بعد اليوم إن ذا الكلاع، وعبيد الله أبادا «ربيعة» فانهبوا لهم، وإلا هلكوا»، فأتت «عبد القيس» «بني بكر بن وائل» واشتركت معهم في قتال «حمير» وابن عمر، فقتل ذو الكلاع الحميري، ثم قتل عبيد الله بن عمر بعده.

قالوا: وخرج عمار بن ياسر من بين صفوف أهل العراق وهو يقول: «اللهم إنك تعلم: أنني لو أعلم أن رضاك في أن أذف بنفسي في هذا البحر لمفعلته، اللهم إنك تعلم إنني لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظبة سيدي^(٤) في بطني ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهري، لمفعلته، وإنني لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم عملاً هو أرضى لك منه

(١) بنو عزة بالتحريك بن أسد بن ربيعة بن زرار. وهم بطون كثيرة متفرعة من بنه وأحفاده.

(٢) عبد القيس من بطون ربيعة الكثيرة، فهو عبد القيس بن أقصى بن دهمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة وبنو عبد القيس بطون كثيرة أيضاً متفرعة من ابنه أقصى، وحليده: شن، ولكيز.

(٣) بكر بن وائل بطن من بطون ربيعة أيضاً فهو بكر بن وائل بن قاسط بن حنبل بن أقصى بن دهمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة، وبنو بكر بن وائل بطون أيضاً متفرعة من بنه: علي، ويسكر، وبدن ودخل بنوه في بني يشكر.

(٤) الظبة بالفاء المعجمة المضمومة والتخفيف: حد السيف أو السنان، جمعه: ظبي، وظبات، وظبون.

لفعلته، والله، إني لأرى قوماً ليضربنكم ضرباً، يرتاب منه المبطلون، وأيم الله، لو ضربونا، حتى يبلغوا بنا سقافات «هجر» لعلمت أنا على الحق، وأنهم على الباطل».

● مصرع عمار بن ياسر

ثم أخذ يحض أصحابه على قتال معاوية، وأهل الشام ويقول: أين من يتفي رضوان الله، ولا يثوب إلى مال ولا ولد؟، فاستجاب له عصابة كثيرة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام. ومضى ومعه تلك العصابة من القراء والصحابة وهو يقول لهم: «اقصدوا بنا هؤلاء القوم، الذين يطلبون دم عثمان؟ والله ما أرادوا الطلب بدمه، ولكنهم ذاقوا الدنيا، واستحبوها، وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه منها، ولم يكن لهم سابقة يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم، فخذعوا اتباعهم وقالوا: إمامنا قتل مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً» إلى آخر كلامه.

ثم مضى ومعه تلك العصابة، وكان لا يمر بوادٍ من أودية «صفين» إلا تبعه من كان هناك من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله.

ثم جاء إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وهو المرقال^(١) وكان صاحب راية أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك اليوم وكان أعور، فقال: «يا هاشم، أعوراً وجنباً؟ لا خير في أعور لا يغشى البأس، اركب يا هاشم؟».

فركب هاشم ومضى معه، وجعل يقول:

أعور يبغى أهله محلاً قد هائج الميابة حتى ملا

لا بد أن يفل أو يفلأ يتلهم بذئ الكعوب فلا

وعمار يقول له: «تقدم يا هاشم؟ الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسل، وقد فتحت أبواب السماء، وتزينت الحور العين، اليوم ألقى الأحبة: محمداً وحزبه».

ثم تقدم عمار، حتى دنا من عمرو بن العاص، فقال له: «يا عمرو بعث دينك بمصر؟ تبأ لك !! طالما بغيت في الإسلام عوجاً».

فقال له عمرو: «لا، ولكن أطلب بدم عثمان».

قال عمار: «أنا أشهد على علمي فيك: إنك لا تطلب بشي من فعلك وجه الله، وإنك إن لم تقتل اليوم تمت غداً فانظر إذا أعطي الناس على قدر نياتهم، ما نيتك» إلى آخر كلامه.

ثم أخذ عمار يقاتل، حتى عطش، فأخذ يقول: إيتوني بأخر رزقي لي في الدنيا^(١)، فأني بضياح من لبن وهو الممزوج بالماء فشربه، ولم يزل يقاتل حتى قتله أبو الغادية الجهني^(٢)، واحتز رأسه ابن حوي السكسكي^(٣).

ووقف الإمام عليه السلام مع ثلة من أصحابه على مصرع عمار، وجعل يؤبنه بكلمات الحزن والثناء، ثم أنشأ يقول:

ألا أيها الموت الذي ليس نارعي أرحمني فقد أفضيت كل خليل
أراك بصيراً بالالدين أحبهم كأنك تسمى نعوهم بدليل

وحزن علي عليه السلام لمقتل عمار حزناً عميقاً، فخرج من موقعه من العسكر، وجاء إلى «ربيعه» و«همدان» وانتدبهم وانتخى بهم، وقال لهم: «أنتم درعي ورمحي»، فانتدب له منهم نحو من اثني عشر ألفاً فتقدمهم على بغلته، وحملوا معه حملة رجل واحد، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض، وقتلوا كل من انتهوا إليه، حتى بلغوا معاوية، وعلي يرتجز ويقول:

أفستهم ولا أرى معاوية الجاهظ العين العظيم معاوية

ثم نادى علي معاوية: «يا معاوية، علام يقتل الناس بيننا؟ هل أم أهلكم إلى الله؟ فأبنا قتل صاحبه استقامت له الأمور».

فالتفت عمرو بن العاص إلى معاوية، وقال: «أنصك الرجل»، فقال معاوية: «ما أنصفتي أنت، إنك تعلم أنه لم يبرز إليه أحد إلا قتله»، فقال عمرو: «ما يحسن بك ترك مبارزته»، فقال معاوية: «طمعت فيها - أي الإمارة - بعدي؟»

(١) يشير إلى ما قاله النبي صلى الله عليه وآله له: «يا عمار، تقتلك الفئة الباغية، وآخر شربة تشربها ضياح من لبن»، بهذا النص ويقرب منه: حديث مشهور، متواتر النقل من قبل عامة الرواة والحفاظ.

(٢) واسمه كما هن ابن حزم: يسار بن سبع الجهني، وفي بعض المصادر «أبو الغازية» بالثمن المعجمة والزاي، ولكن الأول أشهر بين المؤرخين وأرباب النسب.

(٣) حوي بالضم بن ماع بن زرعة بن يحيى بن حبيب بن ثور بن خدش، من بني عامر ابن السكاسك.

● مبارزة ومقتل هاشم المرقال

ثم إن هاشم بن عتبة المرقال دعا الناس بعد مقتل عمار عند المساء وقال: «ألا من كان يريد الله، والدار الآخرة فإني؟ فأقبل إليه جمع كثير من أصحابه فحمل بهم على أهل الشام - مراراً - وهم يصبرون له، واستمر يقاتل قتال المستميت، ويقول لأصحابه: لا يهولنكم ما ترون من صبرهم؟ فوالله ما هو إلا حمية العرب، وصبرها تحت راياتها، وعند مراكزها، وإنهم لعلى الضلال وإنكم لعلى الحق...» إلى آخر كلامه ثم حمل في عصابة من القراء، فلم يزالوا يقاتلون حتى رأوا بعض ما يسرون من الظفر، وإنهم لكذلك، إذ خرج عليهم من أهل الشام فتى شاب وهو يقول:

أنا ابن أرباب الملوك غسان والدائن اليوم بدين عثمان

إنني أناني خيرٌ بأشجان إن علياً قتل ابن عثمان

فقال له هاشم: «يا عبد الله، إن هذا الكلام بعده الخصام، وإن هذا القتال بعده الحساب، فأتق الله؟ فإنك راجع إلى الله، فساألك عن هذا الموقف وما أردت به.

قال: فإني أقاتلكم، لأن صاحبكم لا يصلي وأنتم لا تصلون وإن صاحبكم قتل خليفتنا وأنتم ساعدتموه على قتله».

فقال هاشم: «وما أنت وابن عثمان؟ إنما قتله أصحاب محمد ﷺ وأبناء أصحابه، وقرأء الناس، حين أحدث الأحداث، وخالف حكم الكتاب، وهم أهل الدين والعلم وما أعملوا أمر هذا الدين طرفه عين، وهم أولى بالنظر في أمور الناس منك، ومن أصحابك، وأما قولك: إن صاحبنا لا يصلي، فإنه أول من صلى وأفقه خلق الله في دين الله، وأولى بالرسول محمد ﷺ، وأما كل من ترى معي فكلهم قاري لكتاب الله، لا يتام الليل تهجداً، فلا يفوتك هؤلاء الأشتياء».

ودار بينهما كلام طويل، قال الشاب لهاشم في آخره: «إني أظنك امرئ صالحاً، وما أظنك والله إلا نصحت لي، فأخبرني هل تجد لي من توبة؟».

قال هاشم: «نعم يا عبد الله تب إلى الله يتب عليك؟ فإنه يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات، ويحب المتطهرين».

فرجع الفتى عن الحرب، فقال له أحد أهل الشام: خدعك المراقبي، قال: كلا، ولكن

نصحني.

وأخذ هاشم يواصل قتاله لأهل الشام، حتى قتل منهم عشرة، فأقبلت عليه كتيبة لتنوخ عند المغرب، فحمل عليه منهم الحرث بن المنذر التنوخي، قطعنه في بطنه، فانشق بطنه، وسقط هاشم إلى الأرض قتيلًا.

قالوا: ومَرَّ عليٌّ عليه السلام بكتيبة من أهل الشام وهم غسان فرآهم لا يزالون عن مواضعهم، فقال: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَزُولُونَ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ إِلَّا بَطْنِ دِرَاحٍ، وَضَرْبُ يُلُوقِ إِبْهَامٍ، وَيَطِيحُ بِالْعِظَامِ، وَتَسْقُطُ مِنَ الْمَعَاصِمِ وَالْأَكْفِ، وَحَتَّى تَقْرَعَ جِبَاهُهُمْ بِعَدَدِ الْحَدِيدِ، أَيْنَ أَهْلُ النُّصْرَةِ وَالصَّبْرِ، وَطُلَّابُ الْأَجْرِ؟ فَأَتَتْهُ عَصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَدَعَا ابْنَهُ مُحَمَّدًا فَقَالَ لَهُ: «امْشِ لِهِمْ نَحْوَ هَذِهِ الرَّايَةِ مَشْيًا رَوِيدًا عَلَى هَيْئَتِكَ - أَيَّ عَلَى عَادَتِكَ فِي السُّكُونِ وَالْوَقَارِ - حَتَّى إِذَا أَسْرَعْتَ فِي صُدُورِهِمُ الرِّمَاحَ، فَأَمْسِكْ حَتَّى يَأْتِيكَ أَمْرِي». ففعل محمد ما أمره أبوه، وأعدَّ لهم عليٌّ مثلهم من الناس وسيرهم إلى ابنه محمد وأمره بقتالهم، فحملوا عليهم، وأشرعوا الرماح بصدورهم فأزالوهم عن مواقفهم، وأصابوا منهم رجالًا كثيرين.

ومَرَّ الْأَسْوَدُ بْنُ قَيْسٍ الْمُرَادِيُّ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ الْمُرَادِيِّ وَهُوَ صَرِيحٌ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: يَا أَسْوَدُ، وَعَرَفَهُ، وَقَالَ لَهُ: عَزَّ عَلَيَّ مَصْرَعُكَ، ثُمَّ نَزَلَ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ:

إِنْ كَانَ جَارُكَ لِيَأْمَنَ بِوَأَثْقِكَ، وَإِنْ كُنْتَ مِنَ الذَّاكِرِينَ كَثِيرًا أَوْ صَنِي رَحِمَكَ اللَّهُ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ: أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَإِنْ تَنَاصَحَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْ تَقَاتِلَ مَعَهُ الْمُحَالِينَ حَتَّى تَظْهَرَ أَوْ تَلْحَقَ بِاللَّهِ، وَأَبْلَغُهُ عَنِي السَّلَامَ، وَقَالَ لَهُ: قَاتِلْ عَلَى الْمَعْرَكَةِ حَتَّى تَجْعَلَهَا خَلْفَ ظَهْرِكَ، فَإِنَّهُ مِنْ أَصْبَحَ غَدًا وَالْمَعْرَكَةُ خَلْفَ ظَهْرِهِ كَانَ الْعَالِي، ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ إِنْ لَفَظَ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ وَمَاتَ، فَأَقْبَلَ الْأَسْوَدُ إِلَى عَلِيٍّ عليه السلام فَأَخْبَرَهُ بِخَبَرِ عَبْدِ اللَّهِ وَوَصِيَّتِهِ فَقَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: «رَحِمَهُ اللَّهُ جَاهِدْ عَدُوَّنَا فِي الْحَيَاةِ، وَنَصِّحْ لَنَا فِي الْوَفَاةِ».

● ليلة الهيرير واشتباك القتال

ثم اقتتل الناس من الفريقين تلك الليلة كلها إلى الصباح، وهي «ليلة الهيرير» فتطاعنوا حتى تقصفت الرماح، وتراموا حتى نفذ النبل، وتضاربوا حتى تشلمت السيوف، وعليٌّ عليه السلام يسير فيما بين الميمنة والميسرة، ويأمر كل كتيبة أن تقدم على التي تليها، فلم

يزل يفعل ذلك بالناس حتى أصبح، والمركة كلها خلف ظهره، والأشتر في الميمنة، وابن عباس في الميسرة، وعلي في القلب، والناس يقتتلون من كل جانب، وكان ذلك يوم الجمعة، فما صلى أكثر الناس صلاة المغرب تلك الليلة إلا إيماءً.

وأصبح الأشتر يزحف بالميمنة، ويقا تل فيها وكان قد تولاه عشية الخميس وليلة الجمعة إلى ارتفاع الضحى، وهو يقول لأصحابه: ازحفوا قيد هذا الرمح؟ وهو يزحف بهم نحو أهل الشام.

فإذا زحفوا، قال لهم: ازحفوا قيد هذا القوس؟ فإذا فعلوا سألهم مثل ذلك، حتى مل أكثر الناس من الإقدام.

فلما رأى الأشتر ذلك منهم، دعا بفرسه فركبها وترك رايته مع حيان بن هوزة النخعي، وخرج يسير في الكتاب وهو يقول: «من يشتري نفسه من الله، ويقا تل مع الأشتر يظهر أو يلحق بالله؟»

فاجتمع إليه ناس كثير فيهم حيان بن هوزة النخعي وغيره، فرجع إلى المكان الذي كان فيه من الميمنة، يحفر أصحابه على مواصلة الكفاح، ويقول لهم: «شدوا شدة - فدئ لكم خالي وعمي - ترضون بها الرب وتغزون بها الدين»، ثم نزل وضرب وجه دابته وقال لصاحب رايته: أقدم بها؟ وحمل على القوم وحملوا معه، فجعل يضرب أهل الشام حتى انتهى بهم إلى معسكرهم، ثم قاتلوه عند المعسكر فقتل صاحب رايته.

فلما رأى علي بن أبي الطر يروح على حملات الأشتر أمدّه بالخيال والرجال واشتد القتال بين الفريقين.

● حيلة رفع المصاحف

وهنا رأى عمرو بن العاص: أن أمر أهل العراق أخذ يشتد، وخاف في ذلك الهلاك والإبكسار، فالتفت إلى معاوية، وقال له: «يا معاوية هل لك في أمر أعرضه عليك، لا يزيدنا إلا اجتماعاً. ولا يزيدهم إلا فرقة؟»، قال معاوية: «نعم»، قال عمرو: «نرفع المصاحف ثم نقول لأهل العراق: ما فيها حكم بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها، وجدت فيهم من يقبلها، فتكون

فرقة بينهم، وإن قالوا: بلى نقبل ما فيها رفعنا القتال عنا إلى أجل».

فارتاح معاوية لهذا الرأي، فرفعت المصاحف بالرماح، وأخذ مناديه يقول: «يا أهل العراق، هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم، من لشغور أهل الشام بعد أهله؟ ومن لشغور أهل العراق بعد أهله؟»، فلما رآها الناس وقد برموا من مواصلة القتال قالوا: نجيب إلى كتاب الله ونتيب إليه.

فصاح علي عليه السلام بأصحابه: «عباد الله، امضوا على حكمكم وصدقكم وقتال عدوكم؟ فإن معاوية، وعمرو بن العاص، وابن أبي معيط، وحبيب بن مسلمة، وابن أبي سرح، والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم، قد صحبتهم أطفالاً، ورجالاً، فكانوا شرّاً أطفال، وشرّاً رجال».

ويحكم؟ لأنهم والله ما رفعوها إلا خديعة، ووهناً ومكيدة».

فقال الناس من أهل العراق: «لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله».

فقال لهم: «فإني إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم الكتاب، فإنهم قد عصوا الله عز وجل فيما أمرهم، ونسوا عهده ونهذوا كتابه».

فقال له مسعر بن قذكي التميمي السعدي، وزيد بن حصين الطائي السنبسي في عصابة من القراء الذين صاروا خوارج حرورية بعد ذلك: «يا علي، أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دعيت إليه؟ وإلا دفعناك برمك إلى القوم، أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان».

قال: «فاحفظوا عن نهبي إياكم، واحفظوا مقاتلكم لي؟ فإن تطيعوني فقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم؟»

قالوا: ابعت إلى الأشتر فليأتك؟

فبعث علي عليه السلام: يزيد بن هاني السبيعي إلى الأشتر، يستدعيه؟ فأتاه يزيد، وبلغه أمر علي عليه السلام فقال له الأشتر وهو لم يعلم ما وصل إليه الأمر من الحرجة: «قل لعلي: ليست هذه الساعة بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني عن موقعي؟، إني قد رجوت أن يفتح الله لي، فلا تعجلني»، فرجع يزيد إلى علي عليه السلام بمقالة الأشتر، فعلت الأصوات وارتفع الرهج من الناس ومن الأشتر، وقالوا لعلي عليه السلام: «والله، ما نراك إلا أمرته أن يقاتل».

فقال علي: «هل رأيتموني ساررت؟ أليس كلمته على رؤوسكم، وأنتم تسمعون؟» قالوا: فابعث إليه، فليأتك؟ وإلا والله اعترلناك.

والنفث الإمام عليه السلام ليزيد مغضباً وقال له: «ويلك يا يزيد قل له: أقبل إلي؟ فإن الفتنة قد وقعت».

فمضى يزيد، وأبلغ الأشر ب حالة الإمام، ومقاتته، فقال له الأشر: أرفع المصاحف؟ قال: نعم، فقال الأشر: «والله، لقد ظننت أنها ستوقع اختلافاً وفرقةً إنها مشورة ابن العامر يعني ابن العاص، ألا ترى إلى الفتحة؟ ألا ترى ما صنع الله لنا؟ ليس ينبغي أن أدع هؤلاء وأنصرف عنهم؟»

فقال له يزيد: «يا مالك، أتحب أن تظفر هاهنا وأمير المؤمنين يُسلم إلى عدوه، أو يقتل هناك؟».

قال الأشر: لا والله سبحانه الله!! وأعلمه يزيد بقولهم، وتهديدهم يقتل الإمام عليه السلام إن هو لم يأمر بالموادعة وهنا أدرك الأشر خطورة الموقف، فرجع، حتى انتهى إلى القوم، فأخذ يؤنبهم، ويقول: «يا أهل العراق، يا أهل الذل والرهن، أحين علوتم القوم، وظنوا إنكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف، يدعونكم إلى ما فيها؟ وهم والله قد تركوا ما أمر الله به فيها، وسنة من أنزلت عليه، فأهلوني فواقاً^(١)، فإني قد أحسست الفتحة؟ قالوا: لا، قال: أمهلوني عدو الفرس، فإني قد طمعت في النصر؟ قالوا: إذا ندخل معك في خطيئتك، قال: فخبروني عنكم متى كنتم محقين: أحين كنتم تقاتلون، وخياركم يُقتلون؟ فأنتم الآن محقون؟ فقتلاك الذين لا تنكرون فضلهم وهم خير منكم في النار إناً؟»

فقالوا: دعنا منك يا أشر؟ قاتلناهم في الله، وندع قتالهم لله.

فأخذ يؤنبهم بكلمات قارصة، ويقول: «خُذْ عَمَّ وَالله فانخدعتم، ودُعِيتم إلى وضع الحرب؟ فأجبتكم، يا أصحاب الجباه السود، كنا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا، وشوقاً إلى لقاء الله، فلا أرى مرادكم إلا الدنيا، ألا قبهاً لكم يا أشباه النبيب الجلالة^(٢)، ما أنتم برائين بعدها عزاً

(١) الفراق بالفتح والضم: ما بين الحلبتين من الوقت، وقيل: ما بين فتح يد العالِب. وقبضها على الضرع.

(٢) النبيب: النوق المسنة، والجلالة: التي تأكل البعر منها.

أبداً فابعدوا كما بعد القوم الظالمون».

فلم يكن منهم ومنه إلا أن سيّوه وسبهم، وضربوا وجهه دأبته بسياطهم وضرب وجوه دوابهم بسوطه، فصاح به وبهم علي عليه السلام فكفوا، وقال للناس: «قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينكم حكماً».

وهنا جاء الأشعث بن قيس^(١) إلى علي عليه السلام وكان في طليعة الداعين إلى تحكيم الكتاب، والواقفين في وجهه علي عليه السلام في ذلك، فقال له: «أرى الناس قد رضوا أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه: من حكم القرآن، فإن شئت أتيت معاوية، فسألته: ما يريد؟»

(١) أبو محمد: الأشعث بن قيس بن معدي كرب بن معاوية بن جبلة بن عدي بن ربيعة بن الحارث .. الكندي. من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وأمر كندة في الجاهلية والإسلام وصاحب مربع «حضر موت»، حيث كانت ولادته وإقامته فيها. ولد قبل الهجرة بـ ٢٣ سنة، وولد على النبي صلى الله عليه وآله بعد ظهور الإسلام في مكة سنة عشر للهجرة مع ستين أو سبعين أو ثمانين من قومه، منهم عمرو بن معدي كرب الزبيدي، فأسلموا واسلموا معه، ثم رجع إلى اليمن.

ولما ولي أبو بكر الخلافة، امتنع الأشعث من البيعة له، وارتد معه بطون كندة في حضر موت وتردوا على والي حضر موت، ثم حوصروا فاستسلموا، وأرسل الأشعث أسيراً إلى أبي بكر في المدينة، فلما مثل أمامه قال له: استغني لعربك، وزوجني أختك؟ فأطلقه أبو بكر، وزوجه أخته «أم فروة»، فأقام في المدينة، وشهد اليرموك فأصيبت عينه، ثم شهد الوقائع أيام عمر بن الخطاب وكان مع سعد بن أبي وقاص في حروب العراق، ثم كان حاملاً لعثمان على «أذربيجان».

ولما قتل عثمان، وآل الأمر إلى علي عليه السلام، كان الأشعث معه في وقعة صفين، ومن أمرائه على «كندة»، كما حضر معه «وقعة النهروان» وورد المدائن ثم سكن الكوفة، وكان مروحاً يفضه لملي وأهل بيته عليه السلام، وقال عنه علي عليه السلام: «إن الأشعث لا يزن عند الله جناح بعوضة، وأنه أقل في دين الله من عقطة عنز»، كما قيل منه يوماً وكان يخطب في مسجد الكوفة، فاعترض الأشعث بعض كلامه، وقال له فيما قال: «يا أمير المؤمنين، هذه عليك لا لك»، فخفض الإمام عليه السلام بصره إليه ثم قال: «وما يدريك ما عليّ؟ عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين، حاتك ابن حاتك، منافق ابن كافر، والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى»، وعن ابن أبي الحديد: «إن كل فساد في خلافة أمير المؤمنين عليه السلام وكل اضطراب حدث، فأصله الأشعث»، وكان علي عليه السلام يسميه (عق النار أو حرف النار)، وروى الكليني في أصوله عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «إن الأشعث بن قيس شرك في دم أمير المؤمنين عليه السلام وليسته جمعة سميت الحسن عليه السلام ومحمداً أبنيه شرك في دم الحسن عليه السلام». توفي في الكوفة قبل الهدنة بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية في أوائل شهر ذي القعدة من سنة ٤٠ هـ بعد مقتل علي بنيف وأربعين يوماً عن ٦٣ سنة من العمر.

بانتساب من تاريخ ابن عساكر، وتاريخ الخميس للديار بكري، وخزانة البهادر ودائرة المعارف الإسلامية، وتاريخ بغداد للخطيب، وأعلام الزركلي، وشذرات الحنبلي، وسفينة البحار للمقي، والإصابة لابن حجر.

ولم يجبه الإمام عليه السلام في البداية فأخذ يلح عليه أن يكون هو الموقد بالسؤال من معاوية، ولا ندري؟ لعله لخبث في نفسه؟ فقال له الإمام بعد ذلك انته، فسله؟

فأتى الأشعث معاوية، وقال له: يا معاوية، لأي شيء رفعتم هذه المصحاف؟ فأجابه معاوية بالخداع والأباطيل: «لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه: تبعثون منكم رجلاً ترضون به، ونبعث منا رجلاً نرضى به، ثم نأخذ عليهما أن يعملأ بما في كتاب الله، لا يعدوانه، ثم نتبع ما اتفقا عليه».

قال الأشعث وهو يقر معاوية على خداعه: «هذا الحق هذا الحق»، وعاد إلى علي عليه السلام وأصحابه، وأخبره بمقالة معاوية.

فصاح الناس: «إنا قد رضينا وقبلنا، فأجب القوم يا علي». هذا: وعلي ساكت لا يتكلم إلا بكلمات الأسي والألم، ويقول «لقد كنت أمس اميراً فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت أمس ناهياً، فأصبحت اليوم منهيأ». ثم رضى الإمام عليه السلام للأمر الواقع، وقبل التحكيم، ولكنه أراد العرية في تعيين المحكم من قبله فلم يتسن له ذلك.

فقال أهل الشام: إنا قد رضينا بعمر بن العاص، وقال أهل العراق وفي طليعتهم الأشعث وأولئك الذين صاروا خوارج من بعد: «إنا قد رضينا بأبي موسى الأشعري»^(١). فزجرهم الإمام عليه السلام ونهاهم عن انتخابه وقال لهم: «إنكم قد عصيتموني في أول الأمر، فلا تعصوني - الآن؟ إني لا أرى أن أولي أبا موسى».

ورضى الإمام علي عليه السلام إلى أصل التحكيم، وإلى فرض الأشعري حكماً من قبله ولم يجد معهم كلام الإمام شيئاً وإنما أصرروا وفي مقدمتهم الأشعث على انتخابه، فتصايحوا من هنا وهناك: «لا نرضى إلا به».

وأخذ الإمام عليه السلام يبين لهم وجهة نظره في كراهيته له فقال: «إنه ليس لي بلفة، قد فارقتني، وخذل الناس عني ثم هرب مني حتى أمنت بعد شهر، ولكن هذا ابن عباس نوليّه ذلك»، فأبى

(١) عبد الله بن قيس بن سليم المعروف بأبي موسى الأشعري، تقدمت ترجمته في أوائل الفصل الثالث من هذا الجزء.

الناس إلا الإصرار على غيهم وجهلهم، فقالوا: «والله، ما نبالي؛ أنت كنت أم ابن عباس، لا نريد إلا رجلاً، هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحد منكما بأدنى منه إلى الآخر...».

فقال علي عليه السلام: «فإني أجعل الأشر».

فقال الأشت وجماعته من الذين صاروا خوارج بعد ذلك: «وهل سفر الأرض غير الأشر؟»

وأيس الإمام علي عليه السلام بعد هذه المحاورة من إقناعهم، فقال لهم: «إن أبيتم إلا أبا موسى، فاصنعوا ما أردتم؟»

فعند ذلك بعثوا إلى أبي موسى وكان قد اعتزل القتال في ناحية فجاء حتى دخل العسكر، وجاء الأشر إلى علي عليه السلام وقال: «الزني بعمر بن العاص؟ هو الله، لئن ملأ عيني منه لأقتله».

● ترجمة الأحنف بن قيس

وجاء الأحنف بن قيس^(١) إلى علي عليه السلام فقال: «يا أمير المؤمنين، إنك قد رميت بحجر

(١) أبو بحر: الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين بن حسان بن حيابة .. الري، السعدي، المنقري، التميمي.

واتفق عامة المؤرخين: أن الأحنف لقب له، لحنف في رجليه، واختلفوا في اسمه: أنه الضحالك على الأقل أو صخر على الأكثر. ولد في البصرة قبل الهجرة بثلاث سنوات، وأدرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يره ولكنه دعا له بالخير حينما وفد عليه وقد من تميم فذكره له. وقد وفد على عمر بن الخطاب حينما آلت الخلافة إليه في المدينة، فأكرم مقامه واستبقاه عنده سنة كاملة، يستشير في عامة مهامه، ثم استأذنه في الرجوع إلى البصرة؟ فأذن له وكتب إلى أبي موسى الأشعري عامله على البصرة يومئذ: «أما بعد، فادن الأحنف، وشاوره واسمع منه...» إلى آخر كتابه.

وشهد الفتح في (خراسان)، فقد قال ياقوت الحموي في معجم البلدان عنه: «أنفذه عمر سنة ١٨ هـ لنزو خراسان، فدخلها وتملك مدنها فبدأ بالطيبين، ثم هراق، ومرو الشاهجان، ونسايور في مدة يسيرة، وهرب منه يزدجر بن شهر بار ملك الفرس إلى خاقان ملك الترك».

كان سيده بني تميم على الإطلاق وأحد المظالم الدهاة من العرب، ومن ذوي القتل والرأي فيهم، ومن النجمان الفاتحين ومن النصحاء والبلغاء، والحكماء والحلماء المشهورين، ومن ذوي الأصالة في رأيه، والإيمان في دينه.

وقد انتادت له مضر كلها بالبصرة، بعد قتل مسعود بن عمرو العنكي، فكان إذا دخل المسجد الجامع يوم الجمعة لا تبقى حبة إلا حلت إعطاماً له، ومن ذلك ما نقله ابن العباد الحنبلي في شذراته عن الإمام الطرطوشي قال: «إن بعض الخلفاء سأل رجلاً

→ عن الأخنف بن قيس وعن صفاته؟ فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، إن شئت أخبرتك عن واحدة؟ وإن شئت أخبرتك عن اثنتين؟ وإن شئت أخبرتك عن ثلاث؟

فقال الخليفة: أخبرني عنه بواحدة؟ قال الرجل: كان من أعظم الناس سلطاناً في قيامه على نفسه.

قال الخليفة للرجل: أخبرني عنه باثنتين؟ قال الرجل: كان يفعل الخير ويحب، ويتوقى الشر ويبغضه.

قال الخليفة للرجل: أخبرني عنه بثلاث؟ قال الرجل: كان لا يمسد أحداً، ولا يهني على أحد، ولا يمنع أحداً حقّه.

وكان كثير الصوم في عامة أيام السنة، فقيل له في ذلك فقال: أهدى لشر يوم عظيم، ثم قرأ «وَيَقَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَظْهِرًا». وكان من شيمة علي عليه السلام المواليين له، وتخلّف عنه يوم الجمل لأنه كما قيل يمّث إليه: «إن شئت أتيتك في مائتي فارس فكنت معك، وإن شئت اعتزلت بيني سعد، فكففت عنك سنة الآف سيف؟»، فكتب إليه علي عليه السلام باختيار اهتزاله، فاهتزّل خارج البصرة.

ولما قدمت عائشة البصرة، أرسلت إليه؟ فأبى أن يأتيها، فأرسلت إليه ثانياً فأتاها.

فقال له: «ويحك؟ يا أخنف؟ هم يعتذرون إلى الله من ترك جهاد قتلة أمير المؤمنين عثمان؟ أمن قلة عدد أو أنك لا تطاع نبي المشيرة؟»

قال: «يا أم المؤمنين، ما كثرت السن، ولا طال العهد، وإن عهدي بك عام أول تولين فيه، وتالين منه».

قالت: «ويحك؟ يا أخنف؟ إنهم ما صوّه موسى الإنا، ثم قتلوه».

قال: «يا أم المؤمنين، إني أخذ بأمرك وأنت راضية، وأدعه وأنت ساقطة».

وكانت وقعة «صفين» فشهدا مع علي عليه السلام وأبلى فيها بلاءً حسناً، ووفد على معاوية بعد الانتهاء من التحكيم فعاتبه معاوية، وأغلظ له في الكلام، ومما قال له: «ما أذكر صفين إلا وكانت في قلبي حرارة».

فقال له الأخنف: «يا معاوية، إن القلوب التي أبغضناكم بها لقي صدورنا، وإن السوف التي قاتلناكم بها لقي أعماصها». ثم قام وخرج من المجلس مضطرباً، فصر عليه معاوية فستل عن صبره على مثل ذلك؟ فقال: «هذا الذي إذا غضب غضب له مائة ألف فارس من تميم، لا يدرون فيم غضب».

وروي أنه وفد على معاوية بعد وقتي الجمل وصفين فقال له معاوية: «أنت الساعي على أمير المؤمنين عثمان، وخاذل أم المؤمنين عائشة، والوارد الماء على علي بصفين؟»، فقال الأخنف: «يا أمير المؤمنين، من ذلك ما أعرف ومنه ما أنكر، أما أمير المؤمنين عثمان فأنتم معشر فريش حصرتموه بالمدينة والدار منا عنه نازعة، وقد حضره المهاجرون، والأنصار عنه بمنزل وكنتم بين خاذل وقاتل، وأما عائشة فإني خذلتها في طول باع ورحب شرب، وذلك إني لم أجد في كتاب الله إلا أن تهر في بيتها، وأما ورود الماء بصفين فإني وردت حين أردت أن تقطع رقابنا عطشاً، فسكت معاوية حتى إذا تفرق الناس وبقي الأخنف وحده أكرمه بمئسمين ألف درهم، وقال له حين ودعه: حاجتك؟ قال الأخنف: ندر على الناس أعطياتهم وأرزاقهم، فإن سألت الممدد أنك من رجال سلطنة الطاعة، شديدة النكابة».

الأرض، وأنى قد عجمت أبا موسى^(١)، وحلبت أشطره^(٢)، فوجدته كليل الشفرة^(٣)، قريب القفرة، وأنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم، حتى يصير في أكفهم، ويبعد عنهم، حتى يصير بمنزلة النجم منهم، فإن أبيت أن تجعلني حكماً، فأجعلني ثانياً، أو ثالثاً؟ فإنه لن يعقد عقدة إلا حلتها، ولا يحل عقدة أعقدها لك إلا عقدت أخرى أحكم منها».

فأبى الناس إلا أبا موسى، والرضا بالكتاب.

فقال الأحنف: «فإن أبيتم إلا أبا موسى، فأدفعوا ظهره بالرجال»؟

● وثيقة التحكيم المفروضة على أمير المؤمنين عليه السلام

قالوا: وحضر عمرو بن العاص عند علي عليه السلام لتكتب القضية بحضوره، فكتبوا: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين، فاعترض ابن العاص، وقال للكاتب: «اكتب اسمه واسم أبيه؟ هو أميركم، وأما أميرنا فلا».

فبدر الأحنف، وقال لأمر المؤمنين عليه السلام: «لا تمح اسم إمارة المؤمنين؟ فإني أتخوف إن

→ ولما أراد معاوية أخذ البيعة لابنه يزيد أحضر وجوه أهل الشام، فاستشارهم في ذلك، فناقضوه، وحذروا له الأمر وكان الأحنف حاضراً في المجلس حينئذ وهو ساكت لا يتكلم فالتفت إليه معاوية، وقال «ما تقول أنت يا أبا بكر؟ فقال: «أخاف الله إن كنت، وأخافكم إن صدقت» فتيم معاوية كلامه وقال له: «جزاك الله من الطاعة خيراً».

وأمر له بهال جزيل، فانصرف عنه.

ولكنه بالرغم من تشييعه لأمر المؤمنين عليه السلام لم يوفق لنصرة ولده يوم الطف بالرغم من مكاتبة إياه وطلبه النصرة منه كما سنشر إلى ذلك في بعض الفصول الآتية من أجزاء الكتاب.

وبالجملة فأخبار الأحنف من حيث الثبات والإيمان والزمامة والصراحة والشجاعة وما إلى ذلك من الصفات الإنسانية كثيرة، متفرقة في كتب التاريخ والأدب والبلاغة لو جمعت لكانت كتاباً مستقلاً سكن الكوفة في أخريات سنه وكان صديقاً لمصعب ابن الزبير فحارب المختار معه، ومات بعد ذلك سنة ٧٢ على الأصح فصلى عليه مصعب ومضى راجلاً بين يدي نعه بغير رداء، وقال: «هذا سيد أهل العراق» ودفن في الكوفة.

بافتضاب من طبقات ابن سعد، وتاريخ ابن خلكان، وجمهرة الأنساب لابن حزم، وتاريخ الخميس للديار بكري، وتاريخ الإسلام للذهبي، وألف بهاء لبُلُوي، والشذرات للحنلي، والأعلام للزركلي، ورجال الكشي.

(١) عجم العود: عضه ليعلم صلابته من رخاوته، وعجم الشيء: امتحنه واختبره.

(٢) الأشطر، جمع شطر، ومن معانيه: شطر الناقة، وهو أحد شطريها حيث أن لها شطرين: قدامان، وآخران لكل خلفين شطر.

والتصير هنا كناية.

(٣) كل، وكلل السيف، ونحوه: لم يقطع فهو كلّ وكليل، والشفرة: حد السيف.

محوتها إلا ترجع إليك أبداً؟ لا تمحوا، وإن قتل الناس بعضهم بعضاً؟.

فأبى ذلك علي عليه السلام ملياً من النهار ثم قال له الأشعث: أمحُ هذا الأسم؟ قمحي، فصاح علي: «الله أكبر، سنة بسنة، ومثل بمثل، والله، إني لكانتُ بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الحديبية فكتبتُ: محمد رسول الله، فقالوا: لست برسول الله، ولا تشهد لك بذلك، ولكن اكتب: اسمك، واسم أبيك؟، فأمرني رسول الله صلى الله عليه وآله بمحوه، فقلت: لا أستطيع، فقال: أرنيه؟ فأرنيته، فمحاها بيده، وقال: إنك ستدعي إلى مثلها، فتجيب».

فقال عمرو بن العاص: «سبحان الله! أنشبه بالكفار، ونحن مؤمنون؟».

فقال علي عليه السلام: «يا بن النابغة، ومتى لم تكن للفاسقين ولياً؟ وللمؤمنين عدواً؟»

فقال عمرو: «والله، لا يجمع بيني وبينك مجلس أبداً بعد هذا اليوم».

فقال له علي: «وإني لأرجو أن يظهر الله عز وجل مجلسي منك ومن أشباهك».

وكتب الكتاب، كما أراد ابن العاص هكذا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان: قاضى علي على أهل الكوفة - ومن معهم من المؤمنين والمسلمين - وقاضى معاوية بن أبي سفيان على أهل الشام - ومن معهم من المؤمنين والمسلمين.

إننا ننزل عند حكم الله بيننا، وكتابه، ولا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا، ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله: عملاً به، وما لم يجده في كتابه الله، فالسنة العادلة الجامعة غير المفترقة.

وأخذ الحكمان من علي، ومعاوية ومن الجندين: من اليهود والمواثيق: أنهما آمان على أنفسهما وأهليهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه.

وعلى عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص عهد الله ورسوله أن يحكما بين هذه الأمة، ولا يرادها في حرب، ولا فرقة حتى يعصيا، وأجل القضاء إلى رمضان، وإن أحبنا أن يؤخر ذلك أخره، وإن مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام.

على أن يواتي علي ومعاوية موضع الحكومة يدومة الجندل^(١) في شهر رمضان، ومع كل واحد من الحكمين أربعمائة من أصحابه، وكتبت الصحيفة في يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة ٣٧ هـ^(٢).

وسجل فريق من أصحاب علي عليه السلام ومثلهم من أصحاب معاوية: شهادتهم في ذيل الصحيفة.

فكان من أصحاب علي: الأشعث بن قيس الكندي، وعبد الله بن العباس الهاشمي، وسعيد بن قيس الهمداني، وورقاء بن سمي البجلي، وعبد الله بن محل المجلي، وحجر بن عدي الكندي، وعبد الله بن الطفيل العامري، وعقبة بن زهاد الحضرمي، ويزيد بن جحفة التميمي أو التميمي، ومالك بن كعب النهدي، وغيرهم.

وكان من أصحاب معاوية: أبو الأعور عمرو بن سفيان السلمي، وحبيب بن مسلمة الفهري، والمخارق بن الحارث الزبيدي، وزفل بن عمرو العذري، وحزمة بالراء أو الزاي بن مالك الهمداني، وعبد الرحمان بن خالد بن الوليد المخزومي، وسُبَيْع بالتصغير، بن يزيد الأنصاري أو الحضرمي ويزيد بن الحرّ العبسي، ووائل بن علقمة العدوي، وعتبة بن أبي سفيان الأموي، وغيرهم.

وقيل للأشعث: ليكتب فيها؟ فقال لا صحبتني يميني، ولا نفعني بعدها شمالي إن خط لي في هذه الصحيفة اسم ولست على بينة من ربي من ضلال عدوي أو لستم قد رأيتم الظفر؟ فقال له الأشعث: والله ما رأيته ظفراً هلم إلينا لا رغبة بك عنا؟ فقال الأشعث: بلى والله الرغبة عنك في الدنيا للدنيا، وفي الآخرة للآخرة، لقد سفك الله بسيفي دماء رجال ما أنت خير عندي منهم ولا أحرم دماً.

وقيل لعلي عليه السلام: إن الأشعث لا يقر بما في الصحيفة، ولا يرى إلا قتال القوم، فقال علي عليه السلام: وأنا والله مارضيت ولا أحببت أن ترضوا، فإذا أبيهتم إلا أن ترضوا فقد رضيت،

(١) دومة الجندل بالضم، موضع بين الشام والمدينة على سبع مراحل من دمشق، فهو إلى الشام أقرب.

(٢) هكذا في عامة كتب التاريخ، غير أن المسعودي في أخبار الجزء الثاني من مروج، ط السعادة بمصر يرى أنها كتبت لأيام بقين من صفر.

وإذ رضيتُ، فلا يصلح الرجوع بعد الرضا، ولا التبديل بعد الإقرار، إلا أن يعصى الله ويتعدى كتابه، فقاتلوا من ترك أمر الله، وأما الذي ذكرت من تركه أمري - أي الأشر - وما أنا عليه، فليس من أولئك، فلست أخاف على ذلك، ياليت فيكم مثله اثنين، ياليت فيكم مثله واحداً يرى في عدوي ما أرى إذ أُلخفت على مؤنتكم، ورجوت أن يستقيم لي بعضٌ ودكم، وقد نهيتكم فعصيتُموني، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن:

وهل أنا إلا من غزية أن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

والله لقد فعلتم فعلة ضعفت قوة، وأسقطت منه، وأورثت وهنا وذلة، ولما كنتم الأعلين، وخاف عدوكم الاجتماع، واستحز بكم القتل، ووجدوا ألم الجراح، رفعوا المصاحف فدعوكم إلى ما فيها، ليفتنوكم عنهم ويقطعوا الحرب، ويتربصوا بكم المنون خديعةً ومكيدةً، فأعطيتوهم ما سألوها وأبيتم إلا أن تذهبوا وتجيروا، وأيم الله ما أظنكم بعدها توفقون للرشد، ولا تصيبون باب الحزم ...».

● الاجتماع في دومة الجندل

ولما جاء وقت اجتماع الحكمين في أوائل شهر رمضان أرسل علي عليه السلام أربعمائة رجل من أهل الكوفة، عليهم: شريح بن هاني الحارثي^(١)، وأرسل معهم: عبد الله بن

(١) أبو المقدم: شريح بن هاني بن يزيد بن الحارث بن كعب الحارثي، ولد بمكة قبل الهجرة بأعوام، وأدرك النبي صلى الله عليه وآله وهو بعد لم يبلغ الحلم حيث وفد أبوه على النبي صلى الله عليه وآله فسأله عن أكبر ولده، فقال: شريح، فكان به وكان قبل ذلك يكنى أبا الحكم. وهاجر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة، وبعد من كبار التابعين.

كان من الرجال المبدعين ومن الشجعان المعروفين، ومن ذوي الرأي المستقيم، وكان من مقدمي أصحاب أسير المؤمنين رضي الله عنهم الذين حضروا حروبه الثلاثة، فكان يوم الجمل من أمراء جيشه المبرزين، وكان يوم صفين من أصحابه المستشارين في الأمور الحربية، ولذلك اختصه بإفاده على رأس وفده المذكور للتحكيم المدني، كان عدده ٤٠٠ رجلاً.

وأخيراً: قتل غازياً بسجستان سنة ٧٨ هـ حيث كان الكفار قد أخذوا دروب المسلمين عليهم، وعمره يومئذ أكثر من مائة عام بنيف أو بعشر سنين كما في الإصابة، وكان يرتجز في أخريات أيامه ويقول:

وعشت بين المشركين أعصراً	أصبحت ذابت أقسامي الكبرا
وبسعد صديقه وعصراً	شمت أدركت النسبي المفدرا
والجمع في صديقه والنهروا	ويوم مهرا ويوم تسترا
هيئات ما أطول هذا الغمرا	ويا حميرول والمشرعرا

عباس، يُصلي بهم، ويلي أمورهم، ومعهم أبو موسى الأشعري.
وكذلك أرسل معاوية: أربع مائة من أهل الشام، عليهم: عمرو بن العاص، حتى اجتمع الجميع في «دومة الجندل».

وحضر معهم: عبد الله بن عمر بن الخطاب^(١)، وعبد الرحمن بن أبي بكر^(٢)، وعبد الله بن الزبير بن العوام^(٣)، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام^(٤)، وعبد الرحمن بن عبد يغوث، وأبو جهم ابن حذيفة العدوي، والمغيرة بن شعبة^(٥).

(١) تقدم الحديث عنه وعن أخيه عبيد الله في أوائل هذا الفصل الثامن من الكتاب، عند العرض لعداء المتخلفين عن بيعة أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) الصحابي عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي عاتقة التيمي، شقيق عاتقة من أمهما: رومان، حضر بدرأ واحدًا مع المشركين وأسلم بعد ذلك أيام صلح الحديبية وكان اسمه في الجاهلية عبد الكمية، فسماه النبي بعد إسلامه عبد الرحمن، ثم هاجر إلى المدينة وصحب النبي ﷺ فيها وحضر كثيراً من مشاهدته بعد ذلك.

كان أسن أبناء أبيه وكان من الرماة المهديين ومن الشعراء المجيدين ومن الشجعان البارزين، حضر البعثة وشهد غزو إفريقية وحضر وقعة الجمل مع شقيقته عاتقة، وكان من ذوي الاعتزاز بأرائهم، فقد دعاه معاوية حينما ورد المدينة لأخذ البيعة بعد وفاة الحسن بن علي بسنوات لأنه يزيد إلى ذلك، فامتنع عليه أشد امتناع، وقال له: «يا معاوية أهرق دماء كل ما مات قبصر كان قبصر مكانه، لا نفل والله أبدًا»، فبعث إليه معاوية: ألف درهم ليعقبه، فردها وقال للرسول: «لا أبيع ديني بدنياي». توفي بالصفاق خارج مكة وحمل على رقاب الرجال إلى مكة، فدفن فيها وذلك سنة ٥٣ هـ على الأشهر، ولعل الأصح: إنه كان حيًّا في سنة ٥٦ هـ وتوفي بعدها بأشهر والله العالم.

(٣) وسأتي الحديث عن حياته، وعن ثورته ضد السلطة الأموية وأدعائه الخلافة في الحجاز، وقتله في الحرم سنة ٧٣ هـ في بعض الفصول الآتية من الكتاب.

(٤) عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله المعزومي القرشي، التابعي ابن الصحابي ومن أشرف قرش، وذوي الرأي فيهم.

ولد بمكة في السنة الأولى للهجرة، وأدرك النبي ﷺ وعمره أقل من عشر سنين ومات أبوه الحارث في طاعون الشام سنة ١٨ هـ فتزوج عمر بن الخطاب أمه فاطمة بنت الوليد بن المغيرة أخت خالد فنشأ عبد الرحمن في حجر عمر، وترى في بيته، وتزوج بعد ذلك بنت عثمان بن عفان، فكان أحد شباب قرش الأربعة الذين عهد إليهم عثمان بنسخ المصاحف، وتوزيعها على الأمصار، وتوفي بعد ذلك في المدينة سنة ٤٣ هـ.

(٥) أبو عبد الله: المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي ولد بطائف الحجاز قبل الهجرة بعشرين سنة، ونشأ فيها ورحلها في الجاهلية مع جماعة من بني مالك، فدخل الإسكندرية ولحقاً على «المقوقس» فأكرمهم أكثر مما أكرمه، فدخل

واجتمع الحكمان في ذلك المكان المعهود، فالتفت ابن العاص إلى أبي موسى وقال له: أأنت تعلم أن عثمان قتل مظلوماً؟ قال أبو موسى: أشهد.

قال له ابن العاص: أأنت تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه؟ قال: بلى.

قال ابن العاص: فما يمنعك منه، وبيته في قريش كما قد علمت؟ فإن خفت أن يقول الناس: ليست له سابقة، فقل: إني وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم، والطالب بدمه، الحسن السياسة والتدبير.

وعرض له ابن العاص بالسلطان عند معاوية، وقال له فيما قال: إن ولي معاوية أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة.

فقال أبو موسى: يا عمرو اتق الله عز وجل: أما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا الأمر أي الخلافة ليس على الشرف يولاه أهله، ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة بن الصباح^(١)، إنما هو لأهل الدين والفضل، مع إني لو كنت معطيه أي الأمر أفضل قريش

→ لهم المغيرة، فساقهم حتى ثملوا، فقتلهم وأخذ أموالهم وكانوا ثلاثة عشر رجلاً.

ولما ظهر الإسلام بمكة تردد المغيرة في قبوله برهة من الزمن، ثم أسلم عام الخندق وشهد «الحديبية» و«البماة» وفتح الشام بعد ذلك وذهبت إحدى عينيه في «الرمولة»، ثم شهد القادسية ونهاوند وحمدان وغيرها من فتوح العراق، ولوران.

وولاه عمر بن الخطاب على «البحرين» فكرهه أهلها، فزله عنها، وولاه «البصرة»، فكان أول من فتح ديوانها وأول من سلم عليه بالبرة فيها، فبقي ثلاث سنوات، ففتح عدة بلدان، ثم عزله عمر عنها، وولاه الكوفة وبقي فيها إلى أن قتل عمر، فأقره عثمان عليها. وكان كاتبه فيها حينئذ زياد بن أبيه، ثم عزله عثمان عنها، وولاه على اليمن وبقي فيها حتى مقتل عثمان، فلم يبايع علياً عليه السلام بعد استخلافه، واعتزل الفتنة بين علي ومعاوية في صفين، لكنه حضر مع الحكمين في دومة الجندل كما ذكرنا.

وبعد مقتل علي عليه السلام وصلى الحسن عليه السلام واستتاب الأمر لمعاوية بأية المغيرة فولاه الكوفة، فلم يزل فيها إلى أن مات في رجب سنة ٥٠ هـ عن سبعين عاماً من العمر.

يقول عنه مؤرخوه أنه كان أحد دهاة العرب وقادتهم وولايتهم وذوي الرأي منهم، حتى كان يعرف به «مغيرة الرأي».

ونقل عن الشعبي قوله: «إن دهاة العرب أربعة: معاوية للأثاء، وعمر بن العاص للمعضلات، والمغيرة للبديعات، وزيد بن أبيه للصغير والكبير».

وعن الزهري قوله: «كان دهاة العرب في الفتنة خمسة؟ فمن قريش: عمرو بن العاص ومعاوية، ومن الأنصار: قيس بن سعد بن عبادة، ومن تغلب: المغيرة بن شعبة، ومن المهاجرين: عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي».

(١) أبرهة بن الصباح الحميري أحد ملوك اليمن العرب في الجاهلية، ولي بعد حسان بن عمرو واستمر ملكه ٧٣ سنة، وكان

شرفاً، أعطيته: علي بن أبي طالب.

وأما قولك: إن معاوية ولي دم عثمان فوله هذا الأمر، فلم أكن لأوليه معاوية، وأدع المهاجرين الأولين..

وأما تعريضك لي بالسلطان، فوالله، لو خرج لي معاوية من سلطانه كله ما وليته، وما كنت لأرتشي في حكم الله، ولكنك إن شئت أن تحيي اسم عمر بن الخطاب؟ أي ترشحه للخلافة.

فرد ابن العاص على كلام أبي موسى بقوله: إن كنت تحب بيعة ابن عمر، فما يمنعك من ابني عبد الله؟ وأنت تعلم فضله، وصلاحه؟

فقال أبو موسى: إن ابنك رجل صدق، ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة.

فقال له ابن العاص وهو يريد التعريض بابن عمر، وإطراء ابنه: «إن هذا الأمر - أي الخلافة - لا يصلح إلا لرجل له ضرس - أي تجربة في الأمور - يأكل ويطعم - إلى آخر كلامه. ثم إن ابن العاص قد عود أبا موسى أن يقدمه في الكلام، لشيخوخته وطول صحبته وهو يرمي بذلك أن يقدمه في خلع علي عليه السلام فقال له بعد أن أراد منه تقديم ابنه فأبى وأراد منه أبو موسى تقديم ابن عمر، فأبى ابن العاص، وقال ابن العاص لأبي موسى «خبرني ما رأيك؟»

قال أبو موسى: «أرى أن نخلع هذين الرجلين - يعني علياً ومعاوية - ونجعل الأمر شورى، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا».

فوافق ابن العاص على رأيه وهو مضمر في نفسه: إنه سيصرعه: فأقبل إلى الناس من الفريقين وهم مجتمعون لاستماع نتيجة الحكم، فقال عمرو: يا أبا موسى، أعلمهم: إن رأينا قد اتفق؟

فتكلم أبو موسى فقال: «أيها الناس؟ إن رأينا قد اتفق على أمر، نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة».

→ عالمأجواداً حليماً، وهو غير أبرهة ابن الصباح الحبشي صاحب الغيل انتضاب من إصاثة ابن حجر، وأسد الغابة، وطبقات ابن سعد، ومعجم الشعراء للمرزياني، والمعبر للنسابة البغدادي، والأعلام الزركلي، وشذرات الحنبلي ج ١.

فقال عمرو: صدق وبر، تقدم يا أبا موسى فتكلم؟

فتقدم أبو موسى ليتكلم فصاح به ابن عباس وقال: «ويحك والله إنني لأظنه قد خدعك إن كنتما قد اتفقتما على أمر، فقدمه، فليتكلم به قبلك ثم تكلم به بعده؟ فإنه رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا بينكما، فإذا قمت في الناس خالفك».

وكان أبو موسى رجلاً مغفلاً، فقال لابن عباس: إنا قد اتفقنا، فتقدم أمام الناس وقال: «أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نرَ أصحح لأمرها، ولا ألم لشعثها من أمرٍ قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن نخلع علياً ومعاوية، ويولى الناس أمرهم من أحبوا، وإنني خلعتُ علياً ومعاوية.

فاستقبلوا أمركم، وولوا عليكم من رأيتموه أهلاً؟ ثم تنحى عن الناس فأقبل عمرو، واستقبل الناس وقال: «إن هذا قد قال ما سمعتموه، وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه - كما خلعه - وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان بن عفان والطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه». فاستشاط أبو موسى غضباً على ابن العاص من هذه الخديعة، فقال له: «لا وفقك الله غدرت وفجرت، إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث».

فقال له ابن العاص ساخراً: «إنما مثلك كمثل الممار يحمل أسفاراً».

ثم انصرف أبو موسى إلى مكة، مقنعاً بالغزي والعار حيث لم يستطع أن يواجه علياً بجلية أمره، وانصرف ابن العاص ومعه أهل الشام مستظهِراً بالمكر والخديعة إلى معاوية، فسلموا عليه بالخلافة، ورجع ابنُ عباس، وشريح بن هانئ ومعهما بعض أهل العراق وملؤا قهقهة وأسف لما حدث من نتيجة التحكيم المزيف فاخبروا علياً عليه السلام بما حدث، فصفق إحدى يديه على الأخرى، وأخذ يلعن: معاوية وابن العاص، وأبا الأعور السلمي، وحبيب بن مسلمة، وعبد الرحمن بن خالد، والضحاك بن قيس، وغيرهم من شياطين معاوية، ومردته، ويكيل بالتأنيب واللائمة بشدة على أصحابه الذين فرضوا المغفل أبا موسى كفواً في الحكم للذئب الماكر عمرو بن العاص، وطوي الفتح واستبجح، فإنا لله وإنا إليه راجعون^(١).

(١) انضمام من: تاريخ الطبري أوائل الجزء الخامس منه، ط دار المعارف بمصر، وكامل ابن الأثير: ج ٣ ص ١٤٩ - ١٦٨ ط

● رجوع علي إلى الكوفة ورجوع معاوية إلى دمشق

وانتهت معركة صفين عن أكثر من خمسين ألف قتيل، ومثلها من الجرحى، والمعوقين من الفريقين وطويت حباتل التحكيم الفادرة عن فشل علي في ممثله المفروض عليه الشيخ المغفل الخرف: أبي موسى الأشعري، ونجاح معاوية في ممثله الذئب الماكر: عمرو بن العاص.

فاذا بعلي يرجع أدراجه إلى الكوفة وقد لَصَّ حقه واستبيحت كرامته، وانتهب مجده وكاد أن لا يسلم على حشاشة نفسه المقدسة، حتى من أصحابه المقربين إليه.

وعاش طيلة حياته مستهدف الأُسنة والأكسنة من قبل المناققين الخوارج عليه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة شهيداً بسيف الخارجي القشوم عبد الرحمن بن ملجم المرادي^(١)

→ بيروت، وبداية ابن كثير: ج ٧ ص ٢٦٠ - ٢٧٨ ط بيروت، ونهاية النوري: ج ٢٠ ص ١١٦ - ١٦٠ ط القاهرة، ومسروح السعودي: ج ٢ ص ٢٧٨ - ٤١٠ ط ثانية بالقاهرة، والإمامة والساسة لابن قتيبة أوائل الجزء الأول وغيرها من كتب السير ضمن حوادث ٣٦ و ٣٧.

(١) عبد الرحمان بن ملجم بضم أوله وفتح ثالثة المرادي التدوئي الحميري، فأنك فارس أدرك الباهلية ثم أسلم متأخراً ثم هاجر إلى المدينة في خلافة عمر وكان من القراء وذوي المعرفة بعلوم الدين ومن المتظاهرين بالعبادة والزهادة، شهد فتح مصر، فسكنها فكان فيها فارس «بني تدول».

كان معروفاً بتشجيعه لملي بن أبي طالب عليه السلام، وحضر معه «صفين» وكان فيها صاحب راية ورأي، ثم خرج عليه بعد الصلح والهدنة مع من خرج من الخوارج وذلك مقاً يدل على خبث واقعه وخبث نطقه، فقد قال له علي عليه السلام يوماً: «قد أخبرتك أملك إنها قد حملت بك في بعض حبشها»، وعن ابن عباس قوله فيه: «كان ابن ملجم من ولد قدار حافر ناقة صالح، وقصتها واحدة، لأن قدار عشق امرأة يقال لها «رباب» كما عشق ابن ملجم فقام».

فاضق ابن ملجم بعد ذلك مع العجاج بن البرك، وعمرو بن بكر على قتل علي، ومعاوية، وعمرو بن العاص، فقصده ابن ملجم الكوفة من مكة لتنفيذ مهمته، واستعان برجل خارجي يدهى «شبيب بن بجرة الأشجعي»، واتفق مع قطام بنت شجنة بن هدي بن عامر بن عوف أجمل نساء الغارجيات بالكوفة أن تتزوجه عند قتله علياً، لأنها مواترة منه بقتله أباه وأخاه يوم النهروان، فلما كانت ليلة التاسعة عشرة من رمضان سنة ٤٠ هـ مات هو ومعاونوه في مسجد الكوفة، وخرج علي عليه السلام لصلاة الغداة أو ناقلتها فباغته ابن ملجم فضربه ضربة على رأسه فصرعه، وحمل الإمام عليه السلام إلى داره وتوفي بعد ثلاثة أيام من ضربته، وبعد دفن الإمام في مرقده الشيف أحضر ابن ملجم بين يدي الإمام الحسن بن علي عليه السلام فضربه ضربة قاضية، ثم ألقاه مقاً فتناولوه بنو هاشم وبعض خواص أمير المؤمنين فقطعوه بأسيا فاهم، وقيل: أحرقوا جثته بعد ذلك والقصة ملخصة في التاريخ.

وهو ساجد في محراب صلاته من مسجد الكوفة.

وإذا بما عاوية يرجع إلى دمشق بالظفر المرتجل، والفتح المتحدي فيدعي: «خليفة المسلمين» في عامة أمصار وأقطار العالم الإسلامي، ويلقب بلقب أمير المؤمنين طوعيةً وكُرهاً من قبل المؤمنين على مرأى ومسمع من أبناء «أمير المؤمنين الحق» وأصحابه المخلصين، مأساة، وباليها من مأساة!!.

وليت علياً وأبناء علي وأشياعه سلموا بعد ذلك من أنياب وأظفار الحقد الأموي الشرس؟، وليت معاوية ومردته من الأمويين وأحلافهم كفوا الألسنة والأسنة بعدما أغمدت السيوف، ووضعت الحرب أوزارها واكتفوا بما انتهوه من مجد علي عليه السلام وحقه وكرامته وكرامة العلويين: من هاشميين وغيرهم، ولم يشرعوا أسنة الحقد الأموي الكافر في وجه علي وآل علي بحروب غير مسلحة في أخريات حياته، وبعد وفاته لا وهيات! فذلك حقد قديم، وغل دفن، وخبت متأصل، وشنشة جاهلية، نبضت عليها القلوب الحاقدة ونسجت عليها الضمائر الواجدة.

● غارات معاوية على بلدان أمير المؤمنين عليه السلام

فهذا معاوية وقد كسب الجولة المناققة عبر مهزلة التحكيم، أخذ يتابع الغارة إثر الغارة على البلدان الآمنة، المستظلة بظلال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

١ - غارة الغامدي

ولنستمع إلى حديث سفيان بن عوف الغامدي^(١) أحد قواد معاوية العسكريين يقول:

(١) سفيان بن عوف بن المغفل بن عوف بن عمرو بن كلب بن ذهل بن يسار بن والبة الغامدي، الأزدي، وغامد: جد قبيلة من اليمن، ترجع إلى أزد شثوة في الكوفة من بني نصر بن الأزد. من الصحابة، والقواد الفاتكين ومن ذوي اليأس والنجدة والسقاء، وكان مع أبي عبيدة بن الجراح بالشام حين افتتحت وولاء معاوية «الصراتق»، فظفر واشتهر، ثم سيره بجيش من الشام إلى غزو بلاد الروم فأوغل فيها حتى إذا بلغ أبواب القسطنطينية. توفي في مكان هناك يقال له الرنداق ودفن فيه، وذلك سنة ٥١ أو ٥٢ أو ٥٣ ولعل الأخير أصح باقتضاب من الإجابة، ومروج الذهب، وجمهرة ابن حزم ص ٣٥٧، والنجوم

«دعاني معاوية فقال: إني باعك بجيش كثيف، ذي أداة وجلادة، فالزم لي جانب الفرات؟ حتى تمرّ بهيت^(١)، فنقطعها؟ فإن وجدت بها جنداً، فأغر عليهم، وإلاّ، فامض حتى تغير على الأنبار؟ فإن لم تجد بها جنداً فامض حتى توغل في المدانن، إن هذه الغارات - يا سفيان - على أهل العراق ترعب قلوبهم، وتفرح كلّ من له هوى فينا منهم وتدعو إلينا كلّ من خاف الدوائر. فاقتل كلّ من لقينته ممن ليس - هو - على مثل رأيك واضرب كلّ ما مررت به من القرى، وأحرب الأموال فإن حرب الأموال شبيهة بالقتل، وهو أوجع للقلب.

فخرج الغامدي من دمشق في زهاء ستة آلاف مقاتل ومرّ بهيت، فمنعوه في البداية ثم قطعها، ومرّ بصند وداء وهي قرية كانت في غربي الفرات فوق الأنبار ففرّ أهلها قبل أن يدخلها، ومضى حتى افتتح الأنبار، فسأل من غلمان القرية وقال لهم: كم بالأنبار من أصحاب علي عليه السلام؟ قالوا: كانوا خمسمائة رجل، وتبددوا ورجعوا إلى الكوفة ولم يبق منهم غير مائة رجل، فهاجم على أهل الأنبار وقتل منهم ثلاثين رجلاً، منهم: عامل علي على الأنبار، وهو: أشرس بن حسان البكري، ونهب ما كان بالأنبار من أموال وأمتعة ثم انصرف راجعاً إلى معاوية فأخبره الخبر، فشكره معاوية على فعله^(٢).

٢ - غارة عبد الله بن مسعدة

قال ابن الأثير في (كامله ج ٣ ضمن حوادث سنة ٣٩):

وفي هذه السنة أيضاً وجه معاوية: عبد الله بن مسعدة بن حكمة بن مالك بن بدر الفزاري^(٣) في ألفي رجل، فلحق ابن مسعدة بتيماء، فاقتتلوا ذلك اليوم حتى زالت

→ الزاهرة ج ١ ص ١٣٤، وتاريخ الإسلام للذهبي ج ٢ ص ٢٦٢، وتهذيب ابن عساکر: ج ٦ ص ١٨١، والكامل لابن الأثير ج ٣

ص ١٩٤ وعامة كتب التاريخ ضمن حوادث سنة ٣٩ هـ

(١) هيت بالكسر بلد على الفرات، فوق الأنبار، من جهة الشمال.

(٢) شرح التهج للحدّيد ج ٢ ص ٨٥ - ٨٨ ط جديد باقتضاب وتاريخ الطبري وكمال ابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير

ضمن حوادث سنة ٣٩ هـ

(٣) عبد الله بن مسعدة بن مسعود بن حكمة بن مالك بن بدر الفزاري، كان من كبار القواد والأمراء في العصر الأموي، ويلقبه المؤرخون بصاحب الجيوش لأنه كان يؤمر على الجيوش، في غزو الروم ونواحيها من قبل معاوية، وقد تربي صغيراً في

الشمس قتلاً شديداً، وحمل المسيب على ابن مسعدة، فضربه ثلاث ضربات، لا يريد قتله، ويقول له: التجاء، التجاء، فدخل ابن مسعدة وجماعة معه الحصن، وهرب الباقون نحو الشام، وانتهب الأعراب إبل الصدقة التي كانت مع ابن مسعدة، وحصره المسيب ومن معه في الحصن ثلاثة أيام، ثم ألقى الحطب في باب الحصن وحرقه، فلما رأى ابن مسعدة وجماعته الهلاك أشرفوا عليه وأخذوا ينادون: يا مسيب، قومك، فرق لهم المسيب وأمر بالنار فأطفئت، وقال لأصحابه: قد جأنتني عيوني، فأخبروني إن جنداً قد أتاكم من الشام، فقال له عبد الرحمان بن شبيب: سرّ حني في طلبهم، فأبى ذلك عليه، فقال: غششت أمير المؤمنين وداهنت في أمرهم^(١).

٣- غارة الضحاك بن قيس

ولنعدنا لنأستمع إلى قصة غارة الضحاك بن قيس^(٢) أحد مستشاري معاوية، وقواده

→ بيت علي وفاطمة كما قيل وبعد إن كبر ساءت عاقبته واستماله معاوية بالمال فصار من أشد الناس على علي عليه السلام، وكان إلى جانب معاوية في وقعة صفين، وبعد استتاب الأمر لمعاوية في الشام بخته على رأس جيش كثيف إلى غارة الحرمين كما ذكرنا ثم لما رجع إلى معاوية سالماً بغيانة المسيب، بقى في الشام حتى غزا الروم في سنة ٤٩ هـ بأمر معاوية، ثم كان على جند دمشق سنة ٦٣ هـ وقعة الحرة أيام يزيد، وتوفي بعد ذلك في دمشق سنة ٦٥ هـ عن الإصابة، وأعلام الزركلي وغيرهما.

(١) المسيب بن نجيبة بالتحريك بن ربيعة بن رباح الفزاري: من عيون التابعين، ومن عليه أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وحضر معه جميع مشاهد، وسكن الكوفة، وسار مع التوابين الآخرين بنار الحسين عليه السلام، وقتل مع سليمان بن صرد في تلك الوقعة سنة ٦٥ هـ وسنأتي على تفصيل ترجمته وعرض قصة التوابين في أحد فصول الكتاب من أجزائه الآتية.

(٢) أبو أمية: الضحاك بن قيس بن خالد بن وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن شيخان الفهري القرشي ولد قبل الهجرة بخمسة سنين، ثم كان بعد ذلك من صفار الصحابة ومن سادات بني فهر في عصره ومن كرماء قريش المعدودين، وأحد الولاة المتميزين والشجعان القاتحين، ومن ذوي الكبر والخيلاء حتى قيل: إنه كان يخطب بالكوفة قاعداً. شهد فتح دمشق وسكنها وشهد صفين مع معاوية وكان فيها من القواد والمستشارين، وولا معاوية على الكوفة سنة ٥٣ هـ بعد موت زياد بن أبيه فيها ثم نقله إلى ولاية دمشق فبقي فيها إلى أن مات معاوية سنة ٦٠ هـ فكان هو المظطلع بتجهيزه والصلاة عليه ودفنه والقيام بوصايته إلى حين قدوم ابنه يزيد وكان خارج دمشق فأدّى إليه وصاية أبيه وبايعه وسلم عليه بأمر المؤمنين.

ولما مات يزيد، واستخلف ابنه معاوية وخلع نفسه، انصرف الضحاك يدعوه إلى بيعه عبد الله بن الزبير في دمشق.

الفاحين حيث أن معاوية بلغه عن علي عليه السلام بعد واقعة التحكيم: إنه يريد التحمل إليه والخروج عليه، فخرج بدوره من دمشق، معسكراً خارجها، وبعث إلى عامة أطراف الشام يخبرهم بما بلغه عن علي، ويستنفرهم للاستعداد والتأهب لمواجهته وحربه، فاجتمع الناس إليه من كل كورة من كور الشام^(١).

فمكث معاوية يجيل الرأي مع بطانته، وشياطينه أمثال: حبيب بن مسلمة^(٢)، وعمرو بن العاص^(٣)، والوليد بن عقبة^(٤)، وأبي الأعور السلمي^(٥)، يومين أو ثلاثاً حتى قدمت

→ ثم بعد موت معاوية بن يزيد في أواخر سنة ٦٤ أقبل أهل دمشق على الضحاك وقيل بوصاية من معاوية هذا فبايعوه على أن يصلي بهم، ويولي أمورهم، حتى يجتمع الناس على خليفة.

ثم انعقدت البعثة العامة لمرwan بن الحكم في أوائل سنة ٦٥ والضحاك في مرج زاهط فامتنع عليه وتمرد بمن معه من المستنمين المتمردين وهم زهاء ألف فارس ودعا لنفسه بالخلافة، فشن عليه مروان جيشاً كثيفاً في دمشق، وخاضه وحاربه، حتى قتله وقتل معه ثمانين رجلاً من أعيان أهل الشام، ثم حزوا رأسه وجاؤا به فوضوه بين يدي مروان فتألم مروان وتأسف على قتله، وكان ذلك في أوائل محرم من تلك السنة على الأشهر باقتضاب من كامل ابن الأثير وتاريخ الطبري وغيرهما من كتب السير ضمن حوادث سنة ٦٥ هـ ومروج السعدي، وتهذيب ابن عساكر ج ٧، وسير أعلام النبلاء ج ٣، وشذرات الذهب للحنبلي ج ١، وأعلام الزركلي.

(١) الكورة: الضيق المشتمل على عدة قرى بما فيها من القصبات والمدن.

(٢) حبيب بن مسلمة بالفتح بن مالك الفهري، ولد بمكة قبل الهجرة بستين، وكان من كبار القواد الفاتحين. وخرج إلى الشام في أيام أبي بكر، فشهد البرموك ودخل دمشق مع أبي عبيدة الجراح ثم أمره عمر (رض) بنزول أرمينية، فتوغل فيها واشهرت شجاعته فيها ثم قصد المدينة حاجاً، فبقي في المدينة مكراً من قبل عمر، وعاد إلى الشام في ولاية معاوية عليها من قبل عمر، وولاه عمر على الجزيرة، وضم إليه أرمينية وآذربيجان، ثم عزله، فأقام في الشام وظل فيها إلى أن قتل عثمان، وكان معاوية يستشير في كثير من شؤونه الحربية والسياسية، وآخر أمره أنه تولى من قبل معاوية أرمينية، فبقي فيها إلى أن توفي فيها سنة ٤٢ هـ باقتضاب من أعلام الزركلي، وتهذيب ابن عساكر، وأشهر مشاهير الإسلام.

(٣) سبق أن تحدثنا عنه في أواخر الفصل السادس من الجزء الأول للكتاب.

(٤) سبق أن تحدثنا عنه في أوائل الفصل الخامس من هذا الجزء الثاني للكتاب.

(٥) عمرو بن سفيان أو بالعكس بن عبد شمس بن سعد بن قائل بن الأوقص السلمي بالتحريك المشهور بأبي الأصور السلمي، بتغليب كنيته على اسمه، أدرك الجاهلية وأسلم متأخراً، فقد شهد حنيناً وهو مشرك وليس له صحة ولا رواية. وكان حليف أبي سفيان في الجاهلية، وكان أمير جيش الشام في خلافة عثمان، وغزا قبرص سنة ٢٦ هـ وكان مع معاوية يوم صفين، وعليه وعلى بعض شياطين معاوية كان مدار الحرب والشورة وكان فيها من أشد أحوال معاوية على علي عليه السلام.

عليه عيونه بأن علياً اختلفت عليه أصحابه وهم الخوارج فانشغل بمحاربتهم ومحاربتهم، ورجع عن التوجه إليكم.

فعند ذلك دعا معاوية: الضحاك بن قيس، وأمره بالتوجه إلى جهة الكوفة، وقال له فيما قال: سر حتى تمر بناحية الكوفة، وترتفع عنها ما استطعت؟ فمن وجدته من الأعراب في طاعة علي عليه السلام فأغر عليه؟ وإن وجدت له مسلحة^(١) أو خيلاً، فأغر عليه؟ وإذا أصبحت في بلدة فامس في أخرى، ولا تقيمن لخييل بلغك إنها قد سرحت إليك لتلقاها فتقاتلها؟

فسرحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف مقاتل من أهل الشام، فأقبل الضحاك، متوجهاً نحو الكوفة، فنهب الأموال، وقتل من لقي في طريقه من الأعراب، حتى مر «بالعلبية»^(٢) فأغار على الحاج، فأخذ أمتعتهم، ثم أقبل، فلقي عمرو بن عيسى بن مسعود الذهلي وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ وكان في خيل لعللي^(٣) فقتله في طريق الحاج عند «القططانة»^(٤)، وقتل معه ناساً كثيراً من أصحابه الموالين لعللي بن أبي طالب بتفصيل في كتب التاريخ^(٥).

→ ولذلك كان علي بعد ذلك يلعبه في الفتوت كما يلعب معاوية وابن الماص وحبیب بن مسلمة ونظرائهم. وكان بعد ذلك من طلائع الخارجين لحرب الحسين عليه السلام من الكوفة إلى كربلاء ضمن جيش عمر بن سعد، وعينه ابن سعد ومعه عمرو بن الحجاج الزبيدي في أربعة آلاف رجل على المشرفة لمنع الماء على الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه يرم السايح من المحرم، وأخيراً قدم مصر مع مروان بن الحكم في خلافته سنة ٦٥ هـ وتوفي بعد ذلك بسنوات أو أشهر باقتضاب من عامة كتب السير ضمن حوادث سنة ٦٥ هـ

(١) مسلحة على مفصلة: القوم ذوو سلاح وعتاد.

(٢) العلبية: من منازل طريق مكة إلى الكوفة وإلى الكوفة أقرب.

(٣) هكذا في شرح النهج للحدادي كما يلي وأنساب ابن حزم: ص ١٩٧ ط دار المعارف بمصر، وتاريخ الطبري أوائل حوادث سنة ٣٩ هـ ولكن في إصابة ابن حجر: ج ٣ برقم ٥٩٢٢: «كان من عمال علي، فقتله بسر بن اوطاة لما أرسله معاوية للغارة على عمال علي...» والظاهر إنه اشتباه، والصحيح: إن الذي قتله هو الضحاك بن قيس والله العالم.

(٤) القططانة بضم القافين: موضع قريب من الكوفة من جهة البرية بالطف، وكان فيه سجن النعمان بن المنذر.

(٥) تاريخ الطبري: ج ٥، وكامل ابن الأثير: ج ٣، وبداية ابن كثير ج ٧، ونهاية النويري: ج ٢٠ أوائل حوادث سنة ٣٩ هـ وشرح

٤ - غارة النعمان بن بشير

ولنقرأ رابعاً: غارة النعمان بن بشير^(١) على عين التمر^(٢)، قالوا: بعث معاوية: النعمان

→ النهج للحمدي: ج ٢ ص ١١٦ - ١١٧ ط جده، وفيها بعد ذلك: إن علياً عليه السلام لما بلغه قتل ابن عيسى وأصحابه، استنهض الناس وسرح حجر بن عدي الكندي في أربعة آلاف من الكوفة، فلم يزل مغزياً في أثر الضحاك حتى لقيه بناحية (تدمر) فافتتلوا ساعة، فقتل من أصحاب الضحاك تسعة عشر رجلاً، ومن أصحاب حجر رجلاً، وحجز الليل بين الفريقين، فهرب الضحاك بأصحابه إلى الشام، ورجع حجر بأصحابه إلى الكوفة.

(١) الصحابي ابن الصحابي: أبو عبد الله النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن جلاس بالضم بن زيد بن مالك ... الخزرجي الأنصاري. أبوه بشير من السابقين إلى الإسلام، وقتل في وقعة (عين التمر) سنة ١٢ هـ. وأمه: عمرة بنت ربيعة: أخت عبد الله بن ربيعة الخزرجي الأنصاري أحد القواد الثلاثة المستشهدين في واقعة مؤتة سنة ٨ هـ وكانت ولادة النعمان هذا في المدينة بعد الهجرة بستين، فهو أول مولود من الأنصار ولد في الإسلام بالمدينة، كما أن عبد الله بن الزبير كان أول مولود من المهاجرين ولد في الإسلام بالمدينة.

كان النعمان من الخطباء والأمراء والشعراء، وكان عثمان الهروي، منصرفاً عن علي وأهل بيته، شذوذاً عن عامة الأنصار الذين كانوا علويين في هواهم وتشبههم، وعلى هذا الفرار وجهته فأنزلت زوجة عثمان بعد قتله بقميصه الملطخ بدمه، إلى معاوية في الشام، فنزل على خيافة معاوية وعنايته، فمضى إليه عثمان ونشر قميصه.

وأرسله معاوية بعد ذلك ومعه أبو هريرة إلى علي عليه السلام وأمرهما أن يسألانه أن يدفع إليه قتلة عثمان ليقتلهم به، فجاء الرجلان إلى علي عليه السلام وأدبا رسالة معاوية إليه، ورجعوا منه بشدة أن يستجيب إلى ذلك.

فلم يلتفت علي عليه السلام إلى أبي هريرة ولا إلى كلامه، والتفت إلى النعمان، فأنبه على شذوذه عن قومه في انصرافه عنه إلى معاوية، فقال له النعمان بلغة الحياة والمجاملة: «إنما جئت لأكون معك، وأزملك بعد أن أؤدي رسالة معاوية».

وانصرف أبو هريرة مدحوراً إلى الشام، فأخبر معاوية بالخبر، وبقي النعمان في الكوفة مع علي عليه السلام فأقام بعد أبي هريرة شهراً، ثم خرج فاراً من علي عليه السلام إلى جهة الشام، حتى إذا مرّ بعين التمر، أخذته مالك بن كعب الأرحبي عامل علي عليها فحبسه عنده، ثم أطلقه بشفاعة قرظة بن كعب الأنصاري جابي خراج عين التمر لطي وأذره أن لا يبقى في «عين التمر» أكثر من يوم وليلة، فخرج النعمان، مسرعاً، لا يلوي على شيء، وضلت به راحلته ثلاثة أيام من فزعه، وبعدها احتدى الطريق إلى الشام، فقدم على معاوية، فأخبره بما لقي من سفره: من نصب وغزاع وما رآه وسمعه من علي عليه السلام، وبقي عند معاوية وشهد صفين منه حتى إذا غزا الضحاك أرض العراق، ورجع إلى الشام طلب النعمان أوامره معاوية أن يغير على شاطئ الفرات، فكانت غارته المذكورة على عين التمر ثم رجع إلى معاوية.

وبقي النعمان مسجوناً لدى معاوية، وابنه يزيد من بعده، فولاه معاوية قضاء دمشق بعد فضالته بن عبيد كما ولّاه علي اليمن بعد ذلك كما استعمله على الكوفة بعد ذلك على أثر عزله لعبد الرحمن بن أم الحكم عنها سنة ٥٩ هـ وبقي على ولاية الكوفة، إلى ما بعد وفاة معاوية، وخلافة يزيد سنة ٦٠، ثم عزله يزيد عنها بعد ورود مسلم بن عقيل إليها، واشتداد أمره فيها وولى

في ألفي رجل^(٣) للإغارة على عين التمر وحواليها وكان عليها مالك بن كعب الأرحبي^(٤) مسلحة لملي في ألف رجل فأقبل النعمان، حتى إذا دنا من «عين التمر» وعلم بن مالك أذن لأصحابه أن يتفرقوا عنه، فرجعوا إلى الكوفة ولم يبق معه إلا مائة رجل.

فكتب مالك إلى علي عليه السلام يخبره، ويستعده فلم يصله المدد منه حيث إن علياً عليه السلام حينما وصله كتاب مالك خطب الناس بالكوفة واستنفرهم للخروج إلى مالك فثاقلوا ولم يستجيبوا.

وكتب مالك أيضاً إلى مخنف بن سليم يستعده وكان قريباً منه فوجه إليه مخنف: خمسين رجلاً بقيادة ابنه عبد الرحمان، فلما رآهم أهل الشام وهم مدججون بالسلاح ظنوا أن لهم مدداً من الكوفة، فأنخذلوا وفروا، فأتبعهم مالك بمن عنده من الرجال وقتلهم أشد قتال حتى المساء، فقتل منهم ثلاثة نفر ثم مضوا على وجوههم منهزمين^(٥).

٥ - غارة الحارث الثقفي

→ عليها عبيد الله بن زياد، إضافة إلى البصرة، فارتحل النعمان عندئذٍ إلى الشام، فولاه يزيد إمارة حمص من بلاد الشام، وفيها كذلك إلى حين موت يزيد، وخلع ابنه معاوية نفسه عن الخلافة، وتولي مروان بن الحكم الخلافة في دمشق وذلك في سنة ٦٤ هـ فأخذ النعمان عند ذلك يدعو إلى خلافة عبد الله بن الزبير في الحجاز كما كان الضحاك بن قيس يفعل ذلك فلم يقبل منه أهل حمص ذلك، وأرادوا قتله، فهرب منهم بأهله وتقله وبعض أصحابه، فأدركوه بقيادة خالد بن خلي الكلاعي خارج حمص فقتلوه واحتزوا رأسه وأرسلوه إلى مروان في دمشق، فافتتح مروان دولته في الشام بقتله، وذلك في أوائل سنة ٦٥ هـ بافتضاب من كتب التاريخ بالإضافة إلى التهذيب وجمهرة ابن حزم، وأسد الغابة، ومعجم البلاذري، ومعجم المطبوعات، ومحبر البغدادي، وأغاني الأصفهاني، وأعلام الزركلي.

(٢) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة.

(٣) هكذا في عامة المصادر التاريخية كتاريخ الطبري، وبداية ابن كثير، وشرح النهج وغيرها وفي بعضها ككامل ابن الأثير، ونهاية التويري «ألف رجل».

(٤) ينتهي نسبه إلى بني أرحب بن دعام - بالضم - بن مالك بن معاوية بن صعب بن رومان، وهم بطن ضخم من بكنل بن جشم - بضم ففتح - بن خيران بن نوف بن همدان - بالنسكين - بن مالك بن زيد بن أرسلة بن ربيعة بن الخيار.

(٥) المصادر الآتية: من تاريخ الطبري، وكامل ابن الأثير. وبداية ابن كثير، ونهاية التويري أوائل حوادث سنة ٣٩ هـ وشرح النهج للحدادي: ج ٢ ص ٣٠٣ - ٣٠٥.

ويعت معاوية بعد ذلك أيضاً رجلاً من أصحابه، يقال له: الحارث بن نمير التنوخي^(١) في ألف رجل من أهل الشام وأمره بالفارة على بلاد «الجزيرة» ممن هم على طاعة علي عليه السلام فأقبل الرجل التنوخي بجيشه حتى بلغ تخوم «صيفين»، فأغار على قوم من بني تغلب^(٢) ممن كانوا في طاعة علي عليه السلام فأسروا منهم ثمانية نفر، وانصرفوا راجعين إلى الشام.

فعند ذلك انتخى رجل من أهل الجزيرة من أصحاب علي من التغلبيين يقال له: «عتبة بن الوعل»^(٣)، فجمع قومه، ثم صار إلى جسر «منبج»^(٤) فعبر الفرات، وأغار على أوائل الشام، فغنم غنائم كثيرة، ورجع إلى موطنه من بلاد الجزيرة، وأنشأ يقول:

أبلى معاوية بن حرب فإني قد أغرت كما نغير
صحبنا منتجاً بالخيال نردى شواذب في أساطلها ضميم^(٥)

(١) تنوخ: بطون ثلاثة: بطن من فهم بن تم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب، وبطن من نزار وليس نزار لهم أب ولا أم، ولكنهم من بطون قضاة كلها - وبطن يقال لهم الأحملاف، وهم من جميع قبائل العرب: كندة، ولخم، وجذام، وعبد القيس، وغيرها - من جمهرة أنساب ابن حزم - ولها ينقله المسعودي أن (تنوخ) جد جاهلي، كانت لبيته دولة قبل الإسلام في أرض الحيرة والأببار لم يطل عهدها، وعدة من ملك منهم ثلاثة: النعمان بن عمرو، وابنه عمرو، والحوار بن عمرو.

(٢) تغلب بن وائل بن قاسط ... من بني ربيعة بن نزار، وهم بطون كثيرة متفرعة من أولاد تغلب المتصافين. فمن ولده: غنم، وأوس، وعمران، ومن ولد غنم وهم المشهورون بالنسبة إلى تغلب: عمرو، ووائل، ومن ولد عمرو وهم الكثير: حبيب بالتصغير إلى آخر بطونهم الكثيرة كما في جمهرة ابن حزم.

(٣) في جمهرة أنساب العرب لابن حزم: ص ٣٠٥ ط دار المعارف المصرية يذكر نسبه ويضبط اسم أبيه بالإعجام فيقول هكذا: «عتبة بن الوعل بن عبد الله بن هنز بن حبيب بن الهجر بن تم بن سعد بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بالتسكين بن تغلب بن وائل ...».

(٤) منبج بفتح أوله وكسر تائه بلدة على الفرات، منها إلى حلب يومان، ومنها إلى ملطقة أربعة أيام، وإلى الفرات يوم واحد بالقتصاب عن المصم.

(٥) ودبت الخيل: إذا رجعت الأرض بحوارها من شدة السير، والشواذب كالغرب بالضم والتشديد: جمع الشاذب، وهو من الغيل: الضامر البطن، فهو سريع العدو، والأباطيل كالأطال: جمع إطل بالكسر فالسكون وهي المغامرة.

بكل سميذع ماضٍ جسور على الأهوال في ضحك يسير^(١)
وكل مجرب بطل همام لدى الهيجاء مطلبه عسير
وفتيان يرون للصبر مجداً بأيديهم مهندهُ ذكور^(٢)

وبلغ علياً عليه السلام أسر أولئك النفر من أصحابه من قبل غارة الحارث التنوخي، فكتب إلى معاوية كتاباً شديداً، يأمره فيه بإطلاقهم ويهدده فيه بعدم إطلاق من كان عنده من أسراء الشام إن هو لم يفعل، فما أن وصل كتاب علي إلى معاوية، حتى أطلق سراحهم^(٣).

٦ - غارة بسر بن أرطاة

فقالوا: وما أن دخلت سنة ٤٠ هـ حتى تحركت شيعة عثمان، وأتباع بني أمية في بعض أطراف اليمن، فتمردوا على أميرهم الشرعي من قبل علي عليه السلام: عبيد الله بن العباس^(٤).

(١) سميذع يفتح الأول والثاني والراب، وبذال مججمة: السيد الكريم الشريف السخي والجماع الفارس. وقد تضبط الكلمة بالذال المهملة ولعله اشتباه.

(٢) المهند والمهندة يفتح فتشديد من السيوف: المطبوع من حديد الهند، وهو أجود الحديد وأصلبه، والذكر من السيوف: المطبوع من أجود الحديد.

(٣) الفتح لابن أعمم الكوفي: ج ٤ ص ٤٦ - ط حيدر آباد دكن أوغست.

(٤) الصحابي بن الصحابي: أبو محمد عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي. أحد إخوته الثمانية، وأحد أشقائه الخمسة: الفضل، وعبد الله، وعبد الرحمن، وقيم، ومعد من أمهم: «لبابة بنت الحارث بن حزن الهلالية».

ولد بمكة في السنة الأولى للهجرة، وكان أصغر من شقيقه عبد الله الحبر بسنة، بعده السابة البغداد في «المحبر» في طليعة أجود الإسلام من مطلق العرب، ويقول عنه عامة مؤرخيه: إنه كان فنحراً، ويزبح، ويعظم كل يوم وكان أول من طرح المواثد في الطرقات، وكان يهب الألواف من الدراهم والدينار لمن يعرف ولعن لا يعرف، وأغباره في الجود والكرم والسخاء أكثر من أن تحصى، وهي منتشرة في مظانها من كتب التاريخ، حضر واقعتي الجمل وصفين مع أمير المؤمنين عليه السلام، وأبلى فيهما بلاءً حسناً، وأمره علي عليه السلام على الموسم سنة ٣٩ هـ وبعد تلك السنة بعاه أغار بسر بن أرطاة على اليمن، فهرب عبيد الله. وظفر بسر بولديه الصغيرين فقتلهما، وبقي عبيد الله على اليمن. حتى إذا قتل علي عليه السلام واستخلف من بعده الإمام الحسن عليه السلام وتنازع معاوية الحرب، جليه من اليمن، وجعله قائد عسكره في حرب معاوية، فأغراه معاوية بالأموال الطائلة، فخذل الإمام عليه السلام وازدلف بمظلم عسكره إلى معاوية، وأنزل في غلس من الليل، فانكسر عسكر الإمام عليه السلام. وكانت حصيلة ذلك الهدنة، وفتنة المصالحة كما هو مفصل في كتب التاريخ. وبقي عبيد الله بعد ذلك في الشام مكرماً بجانب من معاوية، ثم رجع إلى المدينة قبيل وفاة معاوية، فمات فيها سنة ٥٨ هـ أو بعد وفاة معاوية بأشهر أو سنة ٨٧ هـ كما في أعلام

وأظهروا البراءة من علي عليه السلام وخلعوا بيعته.

فأرسل إليهم عبيد الله من مركز إقامته: «صنعاء» فأنهيم أشد التأنيب، وهذّدهم بالتنكيل وحبس البعض منهم، فما زالوا يشتدون في الخلاف، حتى امتنعوا عن إعطاء زكاتهم، فكتب عبيد الله بدوره إلى علي عليه السلام بتصدع الأمر عليه.

ووصل كتابه إلى علي، فدعا يزيد بن أنس الأرحبي^(١) وأطلعه على الأمر، فقال له يزيد: «يا أمير المؤمنين إن شئت كتبت إليهم، ونظرت ما يكون من جوابهم: فإن رجعوا إلى طاعتك وإلا سرّ - أنا - إليهم، فكيفك أمرهم إن شاء الله».

فكتب إليهم أمير المؤمنين عليه السلام كتاباً، يأمرهم فيه بتقوى الله، والرجوع إلى الطاعة، وترك الخلاف، وختم الكتاب بقوله: «وإن لم تفعلوا فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها. وما ربك بظلام للعبيد».

وبعث الكتاب مع رجل من همدان يقال له «الحز بن نوف بن عبيد»، فأقبل الهمداني بكتاب علي عليه السلام حتى وصل إلى «الجنّد» بالتحريك: مدينة من مدن اليمن، كان أهلها قد خلعوا بيعة علي عليه السلام وكتبوا إلى معاوية، يسألونه أن يوجه إليهم أميراً من قبله ليبايعوه على يده فنزل الهمداني عندهم، وقرأ عليهم كتاب علي عليه السلام، وأخبرهم أن زعيمهم «يزيد بن أنس» أراد التوجه إليهم بالخيّل والرجال، غير إنه ما أحبّ استعمال الأمر، قبل استكشاف أمرهم بكتاب علي عليه السلام وتكلم معهم الهمداني، ونصحهم بالطاعة ونهاهم وخوفهم من الشقاق.

فأجابه كبارؤهم بقول واحد، وقالوا له: «يا هذا، إنا سمعنا كلامك، فاذهب إلى علي، فليبعث إلينا من شاء، فإننا على بيعة أمير المؤمنين عثمان بن عفان».

ثم كتبوا إلى معاوية، يستعجلونه في إرسال مبعوث من قبله، ليبايعوا له على يديه،

→ الزركلي، ولعل الأول أصح والله العالم. باقتضاب من أعلام الزركلي، وذيل المذيل، وخزانة البغداد، ورواية الأمل وغيرها من كتب السير.

(١) وكان من زعماء بني أرحب بالكوفة، وبني أرحب بن دعام بن مالك بن معاوية بن صهب بن رومان بن بكيل، بطن واسع من بطون همدان.

والأعتذروا إلى علي خلافتهم عليه^(١)، فعندما وصل كتابهم إلى معاوية، استدعى: يُسر بن أرطاة^(٢) الفاتك الجبار، فأمره أن يأخذ طريق الحجاز، والمدينة ومكة، حتى ينتهي إلى «اليمن» وأطرافها، فيغير عليها، ويفتك بأهلها فتكاً ذريعاً، وقد بعته في ثلاثة آلاف من جند الشام أو يزيدون، وقال له فيما قال: «لا تنزل على بلد، أهله على طاعة علي إلا بسطت عليهم لسانك، حتى يروا أنهم لا نجاء لهم، وأنت محيط بهم؟ ثم أكف عنهم، وادعهم إلى البيعة لي؟ فمن أبى فاقتله؟ واقتل شيعة علي حيث كانوا».

(١) الفتوح لابن أعمم الكوفي: ج ٤ ص ٥٣ - ٥٥ ط هيدر آباد، أوفست.

(٢) أبو عبد الرحمن: يُسر بن أرطاة أو ابن أبي أرطاة بن عويمر بن عمران بن الحليس بن يسار بن نزار بن معيص بن عامر العامري القرشي أحد غرابة الشام وجبابرة العرب الفاتكين، ومن ألد أعداء أمير المؤمنين عليه السلام وأهل بيته. ولد بمكة قبل الهجرة بستين، وأسلم وهو صغير فليس له صحة، ولا رواية، ثم كان بعد ذلك من قواد عمر بن الخطاب، مدداً لابن العاص في فتح مصر واخطأ بها داراً، ثم سكن الشام فكان من بطانة معاوية ومردته، وشهد صفين معه، فكان من قواده، وقد بارز يُسرُ علياً يوم صفين فطعنه علي، فصرعه فانكشفت حورته، فكف علي عنه كبرياء عن خسة القتل بتلك الحالة، كما عرض ذلك لابن العاص مع علي في نفس المعركة فأشار الشاعر الكلمي إليهما بقوله من أبيات:

أفسي كل يوم فارس ليس يفتني	وعورته وسط العجاجة باديه
يكف لها عنه علي سنانه	ويضحك منها في الخلاء معاويه
بدت - أمس - من عمرو فلقن رأسه	وعورة يسر مثلها حدو حاذيه
فقلوا لعمر ثم يسر: ألا انظروا	سبيلكما لا تلقيا الليث ثنائيه

ولما كان بعد التحكيم والنهروان أي في أوائل سنة ٤٠ هـ وجهه معاوية في أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل من الشام للإغارة على الحرمين واليمن وحولهما، وأوصاه فيما أوصاه يقتل كل شي من موال لملي بن أبي طالب عليه السلام، فأتمر بسر بما أمره معاوية، فكانت حصيلة غاراته على تلك البلدان ثلاثين ألف قتيل، مع إحراق النفوس وهدم الدور، ثم عاد إلى معاوية، يشيره بتنفيذ أمره، ففكره معاوية على سوء فعله، فوَلَّاهُ بعد ذلك سنة ٤١ هـ مقتل علي عليه السلام وصلاح الحسن عليه السلام البصرة، فمكث فيها يسيراً، ثم جلبه إلى الشام، ثم ولاء البحر فزاد الروم سنة ٥٠ هـ حتى بلغ القسطنطينية.

وأصبح بعد ذلك يعقله على أثر دعاء الإمام علي عليه السلام عليه بذلك حينما بلغته غاراته المشؤومة على تلك البلدان المقدسة والأمنة. فكان يهذي ويخلط بالسيف، ويردد قوله: «أعطوني سيفاً أقفل به»، فاتخذوا له سيفاً من خشب، فكانوا يدنون منه المرفقة، فلا يزال يضربها، حتى يمشی عليه، فلبث كذلك عدة سنوات إلى أن مات لعنه الله في دمشق، وقيل: في المدينة في أخريات أيام معاوية ٥٨ هـ أو في أخريات أيام عبد الملك سنة ٨٦ هـ كما عليه الزركلي في أعلامه، أو في أخريات أيام ابنه الوليد سنة ٩٦ والوسط أقسط عن نحو تسعين عاماً بالقتضاب من الإصابة، وتهذيب ابن عساكر، وميزان الاعتدال، وتاريخ الإسلام للذهبي، وسنة البحار للقمي وغيرها.

وقال له أيضاً: «سر حتى تمر بالمدينة، فاطرد الناس، وأخف من مررت به؟ وانهب أموال كل من أصبت له مالاً؟ ممن لم يكن دخل في طاعتنا، فإذا دخلت المدينة، فأرهم أنك تريد أنفسهم، وأخبرهم أنه لا براة لهم عندك ولا عذر، حتى إذا ظنوا أنك موقع بهم فاكلف عنهم؟ ثم سر تدخل مكة؟ ولا تعرض فيها لأحد؟ وأرهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة؟ واجعلها شردات^(١)، حتى تأتي صنعاء والجند^(٢)، فإن لنا بهما شيعة وقد جاثني كتابهم^(٣)».

فخرج بُسر من الشام في ذلك الجيش الكثيف، حتى إذا توجه إلى المدينة وكان عليها أبو أيوب الأنصاري من قبل علي عليه السلام^(٤) خرج هارباً عنها، ولحق به علي عليه السلام وأخبره

(١) لعله يقصد: شراذم متفرقين من الشرود والشراد وهو التفور.

(٢) صنعاء بالمد: قريبة من عدن بينهما نحو من سبعين ميلاً. وهي قصبة اليمن، وعاصمتها، وأحسن بلادها من حيث الممران، والجمال، والخيرات.

والجند بالتحريك من نواحي اليمن الكبيرة، بينها وبين صنعاء زهاء ستين فرسخاً، فيها مسجد عظيم بناه معاذ بن جبل يقصده الناس من عامة الأطراف.

(٣) المصدران الآفان: من شرح النهج: ج ٢ ص ٦ - ٧، وفتوح ابن أعمش: ج ٤ ص ٥٦، ويشير معاوية إلى ما ذكرناه قبل هذا من طلبهم إليه إرسال مبعوث إليهم.

(٤) الصحابي الجليل خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد عوف من بني النجار، من الأنصار، المشهور بأبي أيوب الأنصاري، وأمه: هند بنت سعيد بن عمرو الخزرجية، كان من السابقين في إسلامه، وصحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وشهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق وما بعدها من مشاهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان فيها الشجاع المتقدم، وكان فقيراً صابراً، حقاً، مؤمناً، ومحباً للفرز والجهاد، وقد نزل عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قدومه إلى المدينة حيث بركت ناقته على باب داره فأقام عنده، إلى أن بنيت بيوته ومسجده، وقد أخى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينه وبين مصعب بن عمير في المدينة.

روي: إنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً وطلب منه أن يوصيه، ويقتل في وصيته ليحفظها، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أوصيك بخمس: بالأس عما في أيدي الناس، فإنه الغنى، ولهاك، والطمع، فإنه الفقر الحاضر؟ وصل صلاة مودع؟، ولهاك، وما تعتذر منه؟ وأحب لأخيك ما تحب لنفسك؟».

شهد مع أمير المؤمنين عليه السلام عامة مشاهد، وقد استخلفه على المدينة لما خرج إلى العراق في حرب البصرة، ثم لحق به بعد ذلك، وشهد قتال الخوارج في (وقعة الثهروان) وكانت معه راية أمان، فمن خرج من عسكر الخوارج، واستظل تحت رايته كان آمناً. ولقد عاش إلى أيام بني أمية، وكان يسكن المدينة، ثم رحل إلى الشام فبقي معزراً مكرماً من قبل معاوية وابنه يزيد، ولما غزا يزيد أيام أبيه بلاد الروم صحبه معه للبركة وكان يومئذ شيخاً هرماً فوفى عند القسطنطينية، فأمر يزيد أن

الخبر. ودخل يُسر: المدينة. ولم يقف في وجهه أحدٌ، فخطب الناس، وشتهم وتهددهم وتوعدهم بالقتل والدمار، ومما قال لهم في خطابه الشديد: «يا أشرار الأنصار، ويا حلفاء اليهود، بني زريق وبني النجار وبني عبد الأشهل أما والله لأوقعن بكم وقعة تشفي غليل صدور المؤمنين وآل عثمان» إلى آخر خطابه الجريء.

فلم يكلمه أحد بشي، غير حويطب بن عبد العزى^(١) فقام إليه وقال: أيها الأمير، عشيرتك، وقومك، وأنصار نبيك، ليسوا بقتلة عثمان. فآله، الله بهم؟.

فلم يُجبه بسر بشي. ونزل عن المنبر، فأخذ أهل المدينة بالبيعة لمعاوية، ثم أحرق دوراً، وهدم أخرى عامتها كانت لشيعته أمير المؤمنين عليه السلام ثم كف وعفا عنهم.

● ترجمة أبي هريرة الدوسي واستخلف عليهم: أبا هريرة الدوسي^(٢).

→ يدفن بالقرب من سورها البخاري واتخذ على قبره مشهداً هناك وكانت وفاته سنة ٥٠ أو ٥١ أو ٥٢ هـ ولعل الأخير أصح باقتضاب من طبقات ابن سعد. والإصابة لابن حجر، والعلية لأبي نعيم، وصفة الصفوة، وذيل المذيل، ورجال الكشي، وسفينة البحار، وأعلام الزركلي وغيرها.

(١) حويطب بن عبد العزى العامري القرشي، من مسلمي عام الفتح وتوفي سنة ٥٤ هـ تقدم الحديث عنه بإيجاز في أوائل الفصل الرابع من الجزء الثاني للكتاب في بداية الحديث عن الحكم بن أبي العاص.

(٢) عبد الرحمن بن صخر. من بني سعد بن ثعلبة بن سُلمم بالتصغير بن فهم بن غنم بالتسكين بن دوس بالفتح بن عدنان. إحدى قبائل العرب الجنوبية. واختلف مؤرخوه في اسمه واسم أبيه على أكثر من عشرين قولاً، ولعل الصحيح ما ذكرناه. وأمه: ميمونة أو أمية بنت صبح بالصغير بن الحارث واشتهر بكنيته، حيث كان منذ صغره مولماً بالللب مع الهرر، حتى إذا أسلم ورأه النبي ﷺ يوماً وفي كفه حرة صغيرة، ناداه: يا أبا هريرة، فاشتهر بذلك.

ولد في بعض نواحي اليمن قبل الهجرة بـ ٢٦ عاماً ونشأ هناك يتيماً ضعيف الحال والسال، يخدم الناس، ويرعى غنهم لإشباع بطنه وسد فاقته، وأسلم في السنة السابعة للهجرة حيث جاء من بلاده لما بلغته الدعوة الإسلامية إلى رسول الله ﷺ وهو بخير على أثر الانتهاء من الواقعة فأسلم على يده، وهره يومئذ يتأخر الأيمن عاماً، فطلب من النبي ﷺ أن يسهم له مع الفانمين فأجاب، واستزاده فلم يُجبه، ومنذ ذلك الحين سقط من عين النبي ﷺ ومن عيون صحابته المقربين، ووسموه بالشرة والنهم. ولقد صرح هو بأنه إنما صحب النبي ﷺ لشيح بطنه كما في فتح الباري في شرح البخاري: ج ٧ ص ٦١ وج ١٣ ص ٢٧١ فانطلق من خيبر إلى مسجد النبي ﷺ واتخذ من مؤخرة المسجد من الجهة الشمالية وهي المسماة بالصفة: مسكناً ومجيداً، أسوةً ببعض كسالى المسلمين.

→ ولقد كان أشهرهم ملازمة للصفة، فكان النبي ﷺ إذا خرج من المسجد إلى منزله عند المساء يأمر كل رجل من أصحابه، فينصرف برجلي أو أكثر من أهل الصفة إلى منزله، فيلعبه ويسقيه، ثم يطلقه، وكان أكثر الصحابة إسرافاً لأبي هريرة بل ولغيره من فرقاء الصفة جعفر بن أبي طالب شهيد مؤتة، وأخو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حتى استأثر من دون جميع الصحابة بمدح أبي هريرة، وإطرائه، فكان يقول بملأ من الناس: «ما احتذى النبال، ولا ركب المطايا، ولا وطأ التراب بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبي طالب». سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ١ ص ١٥٨، ضمن ترجمة جعفر وكان أبو هريرة معروفاً بالنهم والشر، للطعام والمال حتى وردت الرواية عنه: «أنه لما نصب القتال بين علي ومعاوية في صفين كان يأكل على سائده معاوية ويصلي خلف علي، وإذا احتدم القتال لزم الجبل واعتزل ويقول: «الصلاة خلف علي أتم، وسماط معاوية أسلم، وترك القتال أسلم». شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي: ج ١ ص ٦٤ وعن ابن المسيب: «كان أبو هريرة إذا أعطاه معاوية سكت، وإذا أسلكتك تكلم». البداية والنهاية لابن كثير: ج ٨ ص ١١٤ حتى أنه اشتهر من ذلك العين يلقب «شيخ المضرة»، والمضرة: صنف من الطعام كان مشهوراً بين أطمعة معاوية الفاخرة، وكان أبو هريرة مولعاً به، وأخذ أبو هريرة بحكم خفف نفسه وجوع بطنه وشره يقدّم إلى بني أمية، وآل أبي معيط جهوده وجهاده بلسانه بعدما آل الأمر إليهم، ودالت الدنيا لهم، فيقاضهم بأحاديث، يصنعها في مدحهم، وذم علي عليه السلام حتى ينال رضاهم ويأكل من موائدهم الدسمة رغم أنف الجهاج من فرقاء المسلمين.

لقد وضع حديثاً عن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإفشاف حول عثمان كما في مسند أحمد. ووضع آخر في الذم والأخذ بالمصاحف التي نسخها عثمان فأجيب ذلك عثمان، وأمر له بعشرة آلاف البداية والنهاية لابن كثير: ج ٧، كما وضع حديثاً آخر ادعى أنه سمعه من رسول الله ﷺ حيث يقول: «الأخاء ثلاثة: جبرئيل وأنا ومعاوية» ونحوها كما في المصدر ألقاف من نهاية ابن كثير ج ٨ كما وضع حديثاً في النحل من علي عليه السلام ادعى أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن لكل نبي حراماً، وإن حرمي بالمدينة ما بين «هري» إلى «ثور»، فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ثم قال: واشهد بالله إن علياً أحدث فيها» فلما بلغ معاوية قوله، أجازته وأكرمه، وولاه إمارة المدينة. شرح النهج للحديد: ج ٤ ص ٦٣ ط جديد.

ولقد عرف بنو أمية وعلى رأسهم معاوية صنع أبي هريرة معهم فأخذوا عليه من أفضالهم، فلم يلبث أن تحول من شظف العيش إلى سعته ومن فقر مدقع إلى ثراء مترف، ومن ستر حورته بنمرة بالية إلى لبسه الأردية الفضفاضة من الخز والديباج والكتان كما احترق هو بذلك برواية محمد بن سيرين، حيث قال: «كنا عند أبي هريرة فتسخط فمسح بردائه وقال الحمد لله الذي تمخط أبو هريرة في الكتان». سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ٢ ص ٢٦، ومثله ما في صحيح البخاري.

ولقد كانت أول لفظة من المؤمنين إليه: أن ولاد معاوية علي المدينة، ثم ازدادوا إليه التفاتاً فبنوا له قصره بالعقيق وأقطموه أرضاً به وأخرى بذي الحليفة ثم ازدارت أياديهم عليه، فزوجوه وهو الأبرق نسباً وحسباً من الأميرة الجليلة في النسب والحسب: بكرة بنت غزوان أخت الأمير الجليل الصحابي المجاهد: عتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب الحارثي المازني.

→ وذلك بمباشرة من مروان بن الحكم أيام ولايته على المدينة وأمر من معاوية الإصابة: ج ٤ كتاب النساء وفيه: «أن أبا هريرة كان أجبرها ثم تزوجها».

وظل معاوية يواصل جزاء الصنيع لأبي هريرة حتى بعد وفاته، فقد ذكر المؤرخون: أن أبا هريرة حينما مات كتب الوليد بن عتبة والي المدينة يومئذ إلى معاوية يخبره بموته.

فأجابيه معاوية بكتاب جاء فيه: «انظر من ترك، وادفع إلى ورثته: عشرة آلاف درهم وأحسن جوارهم وافعل إليهم معروفات». وكان أبو هريرة مزاحاً في سلوكه بين الناس، فكان مروان بن الحكم في ولايته على المدينة ربما استخلفه عليها، فتركب الحمار، ويلقى الناس فينادي: الطريق؟ قد جاء الأمير يعني نفسه.

وكان يمر بالصبيان وهم يلعبون بالليل لعبة الأعراب فلا يشعرون إلا وقد ألقى نفسه بينهم ويضرب برجله كأنه مجنون ويريد بذلك أن يضحكهم فيزع الصبيان منه، ويفرون عنه هائلاً وهائلاً وهم يتضاحكون. بداية ابن كثير: ج ٨ ص ١١٣، وسير أعلام الذهب: ج ٢ ص ٤٤٢.

ولعله لهذه الخلقة المشينة كثرة مزاحه أو لمهائته في نفسه وتسكعه بين الناس لتشبع بطنه، أو لغير هاتين من الخلال الذميمة التي لسمها النبي ﷺ فيه أقصاه عن المدينة المشرفة تنزيهاً لها ولساكنيها إلى البحرين مع العلاء بن الحضرمي حينما ولاه عليها وأوصاه بأبي هريرة خيراً، فضغره العلاء بعد أن وصلاً إلى البحرين: أبة وطيفة يختارها؟ فاختار أبو هريرة «التأذين»، فجعله مؤذناً له في صلواته، وذلك في أوائل ذي القعدة من السنة الثامنة للهجرة كما عليه عامة المؤرخين وبقي هنالك عدة سنوات ثم عاد إلى المدينة.

وقد ولاه عمر سنة ٢٠ هـ على البحرين وسرعان ما عزله لما بلغه عنه ما يخل بأمانة الوالي وسريته بين الرعية فاستدعاه وحاسبه بشدة ونكل به ثم أخذ منه: عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً فجعلها في بيت المال. سير أعلام الذهب: ج ٢ ص ٤٤٤، وطلقات ابن سعد ج ٤ قسم ٢ ص ٥٩، وتاريخ الذهب الكبير: ج ٢ ص ٣٣٨.

وما أن عاد أبو هريرة من ولاية البحرين معزولاً إلى المدينة حتى تهاوى في أحضان كعب الأحمار اليهودي، فأخذ هو الآخر يلقته من إسرائيلياته وغرافاته ما شاء حتى كان لأبي هريرة هذا السيل المتدفق من الأحاديث، التي ما أنزل الله بها من سلطان، وهو يدعي أنه سمعها من النبي ﷺ، وقد أجمع رجال الحديث على أن أبا هريرة كان أكثر الصحابة تصديقاً عن رسول الله ﷺ، ففي «مسند بقي بن مخلد الأندلسي المتوفي سنة ٢٧٦هـ»: «إن أحاديثه بلغت ٥٣٧٤ حديثاً، وقد رواها عنه مباشرة وبواسطة أكثر من ٨٠٠ صحابياً وتابعياً» في حين أنه لم يصحب النبي ﷺ أكثر من سنة وبعة أشهر وهي المدة ما بين إسلامه في شهر صفر سنة ٧ هـ إلى حين إقصائه من المدينة إلى البحرين في شهر ذي القعدة من السنة الثانية، تلك المدة التي قضاه مع الفقراء التشككين في صفة المسجد النبوي وعلى أبواب الأئمة من الصحابة لإتباع بطونهم.

فلا غرابة بعد هذا إذا شن عليه الصحابة بالإنكار والإتهام بالوضع والتدليس.

قال ابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث: ص ٤٨): «لما أتى أبو هريرة عن النبي ﷺ ما لم يأت بمثله من صحبه من جلة

→ الصحابة والسابقين الأولين إليه انهموه وأنكروا عليه .. وكانت عائشة أشدهم إنكاراً عليه .. وقال الأسدي في (الأحكام في أصول الأحكام: ٢ ص ١٠٦): «ولقد أنكرت الصحابة عليه كثرة روايته حتى قالت عائشة: رحم الله أبا هريرة لقد كان رجلاً مهذاراً. وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام كما في سفينة البحار للقمي قوله فيه: «أكذب الناس على رسول الله ﷺ: أبو هريرة الدوسي».

وتنه الخليفة عمر بن الخطاب إلى خطر ما يرويه أبو هريرة بكثرة عن النبي ﷺ. بعد رجوعه من البحرين واتصاله بكعب الأحبار اليهودي، فادعاه وزجره وضربه بالدرّة، ودفع في صدره حتى ألقب على ظهره ونهاه عن رواية الحديث عن رسول الله ﷺ. وكذلك نهى كعب الأحبار عن التحديث بإسرائيلياته، وقال فيما قال لأبي هريرة: «أكثر يا أبا هريرة، وأحرى بك أن تكون كاذباً على رسول الله ﷺ؟». شرح النهج: ج ٤ ص ٦٧ ط جديد وهكذا فعل معه عثمان في دور خلافته، ولم يتسع له مجال التحديث إلا في دور معاوية وبني أمية عامة.

وطريقة أبي هريرة في روايته للحديث النبوي: أن يرفع كل ما يرويه إلى النبي ﷺ سواء كان قد سمعه منه مباشرة أم أخذه من غيره من الصحابة فمن ابن عتيبة في تأويل مختلف الحديث النبوي: ص ٥٠، «كان أبو هريرة يقول: «قال رسول الله: كذا، وإنما سمع من الثقة عنده فحكاه».

وكذلك اعتبره العلماء من المدلسين في الحديث إضافة إلى كونه من الكذبة فيه قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: ج ٢ ص ٤٣٨: «قال يزيد بن هارون: سمعت شعبة يقول: كان أبو هريرة يدلس»، ثم يعلق الذهبي على هذا القول بقوله «تدليس الصحابة كثير، ولا حيب فيه» وعلى الإسلام السلام وفي بداية ابن كثير: ج ٨ ص ١٠٩: «وقال يزيد بن هارون: سمعت شعبة يقول: أبو هريرة كان يدلس» أي: يروي ما سمعه من كعب، وهو كعب الأحبار اليهودي وما سمعه من رسول الله ﷺ ولا يميز هذا من هذا ذكره ابن عساکر».

وفي شرح النهج للحديدي: ج ٤ ص ٦٨ ط جديد: «... والصحابة كلهم عدول ما عدا رجلاً، ثم عد منهم: أبا هريرة وأنس بن مالك». ولم يقتصر كذبه على نقل الأحاديث النبوية، بل كان يكذب حتى نقل الحوادث والوقائع التاريخية. كادعائه حضور «فتح خيبر» مع النبي ﷺ كما روى ذلك عنه البخاري ومسلم في صحيحهما في حين أنه لم يشهد الواقعة، بل جاء بعدها بأيام بإجماع المؤرخين وكادعائه أنه كان مع أبي بكر في حجته لما بعث النبي ﷺ إلى أهل مكة بسورة براءة، ومع علي عليه السلام لما بعث النبي ﷺ في أخذ السورة من أبي بكر ولذاته هو بها كما روى ذلك البخاري في صحيحه، والحاكم في مسنده، وأحمد في مسنده في حين أنه لم يكن مع أبي بكر في بعثه بالسورة، ولا مع علي في أخذه منه كما يتضح ذلك من كتب التاريخ والتفسير وكادعائه كما في مستدرک الحاكم: أنه دخل على رقية بنت رسول الله ﷺ وبسبب مشط فأخبرته: أنها رجلت شعر أبيها رسول الله ﷺ آنفاً. قال الحاكم بعد ذكر الحديث: «هذا حديث صحيح الإسناد، وأهي المتن، فإن رقية ماتت سنة ٣ من الهجرة وأبو هريرة أسلم بعد فتح خيبر في سنة ٧ من الهجرة».

توفي بقصره في «الطريق» خارج المدينة ثم حمل إليها ودفن فيها، وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة يومئذ

ترجمة قثم بن العباس بن عبد المطلب
ثم خرج بُسر إلى مكة وكان في طريقه يقتل الرجال وينهب الأموال فلما قرب منها
وعلم به قثم بن العباس عامل علي عليه السلام^(١) عليها غيَّب وجهه عن البلد، فدخلها بُسر

→ من قبل معاوية وذلك سنة ٥٩ أو ٦٠ هـ نحو من ٧٨ أو ٨٠ عاماً، على أصح الأقوال.

وحسبنا بهذا الإيجاز في الحديث عن أبي هريرة دلالة واضحة على أنه شخصية مفروضة على حضرة الصدق، وقضية الأمانة
وظلال الواقع منذ بداية التأريخ الإسلامي إلى هذا الحين بل وإلى يوم يعنون بألزام من هلهلة تلك الشخصية الضيئة
وعربها عن كل ما يمت إلى الصدق والأمانة والواقع بأدنى صلة وما كان أبو هريرة شيئاً يذكر في التاريخ لولا دعم معاوية
وجلاوته من البلاط الأموي الفاسد.

ولتفصيل الحديث عن هذه الشخصية من عامة أطرافها يستحسن مراجعة ما كتبه الملمان الباحثان: السيد عبد الحسين شرف
الدين والشيخ محمود أبو رية المصري في كتابهما المستظلم بعنوان: (أبو هريرة وشيخ المصنوعة) فجزاها الله عن الإسلام
كل خير.

(١) قثم بنم مفتاح بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي وأمه وأم أخوته: أم الفضل: لبابة بنت الحارث الهلالية ثانية السلمات
بعد خديجة كما يقول الكلبي. أدرك النبي صلى الله عليه وآله في صدر الإسلام وهو طفل ومن النبي صلى الله عليه وآله عليه راكباً وهو يلعب مع
الأطفال فأمر فحمل إليه، ثم أودعه معه على دابته، وكان كثير الشبه بالنبي صلى الله عليه وآله، وروي أن أباه العباس كان يضعه على
صدره وهو طفل فيرقصه ويقول:

شبيبة ذي الأنثى الأثيم

حبي قثم

برغم من وغم

نسبي ذي النعم

وكان رضيع الحسن بن علي عليه السلام فقد روي كما في الإصابة وغيرها: «إن أم الفضل جاءت يوماً إلى النبي صلى الله عليه وآله وقدم في حجرها
فقال: يا رسول الله، رأيت البارحة كأن في بيتي عضواً من أعضائك؟ فقال لها: «لا» وأتت ستد فاطمة غلاماً، ترضعه
يلين ابنك قثم»، فولدت فاطمة رضي الله عنها أول ولدها: الحسن بن علي عليه السلام فأرضعته (أم الفضل) بلبن قثم، وقد التمس على
الذهبي في كتابه: (سير أعلام النبلاء ج ٢) فزعم أنه رضيع الحسين بن علي عليه السلام.

كتب عنه مؤرخوه بأنه كان على درجة رفيعة: من السيادة والورع والصلاح، كما كان على جانب كبير من السخاء والكرم،
مدحه في ذلك شاعره داود بن سلم بقوله:

يا نفاق أن أدنيتني من قثم

عزلت من حل ومن رحمة

حالني اليسر ومات العمم

إنه أن أدنيت منه غداً

وبدئ وفي العرين من شمم

في كفه بحر وفي وجهه

ما عن الخير به من صمم

أصم عن قيل الخنا سمعه

بجيشه الشرس فعات فيها، وشتم أهلها وانتهبهم، وقتل الرجال، وأخذ البيعة منهم لمعاوية، واستخلف عليها من قبل معاوية شيبة بن عثمان العبدري^(١)، ثم خرج من مكة إلى الطائف فدخل البلاد واغزى أهلها فقتل الرجال، والأطفال، ونهب الأموال وأخذ البيعة من الناس لمعاوية ثم أتى «نجران»^(٢)، فقتل عبد الله بن عبد المطلب^(٣).

→ لم يدرك ما «لا» وبلى لدري شعاعها واعتاض عنها «نعم»

كما كان آخر العهد برسول الله ﷺ، فقد نزل معه في بئر مع من نزل فكان آخر من خرج منهم، وكان مع أبيه وأخوته وعموم بني هاشم في جانب أمير المؤمنين عليه السلام يوم السقيفة، فلم يبايعوا لأبي بكر حيثئذ بالخلافة.

وقد ولاه علي عليه السلام أوائل خلافته بعد مقتل عثمان على مكة على أثر عزله: قتادة الأنصاري عنها فلم يزل وألها عليها، حتى قتل علي عليه السلام، وهذا هو الصحيح كما عليه ابن حجر في الإصابة، وابن عبد البر في الاستيعاب، والذهبي في سير أعلام النبلاء، والسيد علي خان في الدرجات وغيرهم من عامة كتب السير والأنساب، وإن زعم الزبير بن بكار أن قتلاً هذا كان وألها من قبل علي عليه السلام على المدينة فالتبس الأمر على بعض المؤرخين والتساين من بعده، فاتهموه، والصحيح: إن الذي كان على المدينة من قبل علي عليه السلام هو أبو أيوب الأنصاري كما ذكرنا.

ثم إن علياً عليه السلام كتب إلى قثم هذا كتاباً جاء فيه: «أما بعد، فأقم للناس الحج، وذكركم بأيام الله، واجلس لهم العصرين؟ فالتفت المستفتي وعلم الجاهل؟ وذكر العالم؟ ولا يمكن لك إلى الناس صغير إلا لسانك...».

وفي هذا الكتاب من أمير المؤمنين عليه السلام: من الدلالة على عظمته وسمو قدره ومدى الاعتماد عليه ما لا يخفى على التأمل. وأخيراً: غزا سمرقند مع وألها سميد بن عثمان بن عفان فاستشهد هناك، ودفن خارج سور البلد، وذلك في سنة ٥٧ هـ وليس له عقب.

(١) الصحابي بن المشرية: شيبة بن عثمان الأوفى بن أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عبد الدار القرشي العبدري. وأمه: أم جميل بنت عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وقتل أبوه عثمان فيمن قتل من المشركين يوم أحد بسيف علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان شيبة هنا مشاركاً أبى عمه عثمان بن طلحة في حامية البيت الحرام، وقد ورثها في الجاهلية عن آبائه من بني عبد الدار.

وبقيت الحجابة في بيته بعد إسلامه وإقرار النبي ﷺ له على ذلك وكان إسلامه عام الفتح، فقد خرج مع النبي ﷺ من مكة وهو مشرك إلى غزوة حنين، وكان قد نوى التدر بالنبي ﷺ في خروجه معه كما قيل فيقتضيه ضميره، وأرادت من سوء قصده وأسلم على يد النبي ﷺ وبقيت معه، وأخذ يقاتل دونه، مات بمكة سنة ٥٨ أو ٥٩ هـ ولعل الثاني أصح.

(٢) نجران على فعلان في مخاليف اليمن من ناحية مكة، وقد بنى كعبة نجران بنو عبد المطلب بن الديان الحارثي على منوال بناء الكعبة وعظموها وكان فيها عدة أساقفة وقسس باقتضاب من محبم البلدان.

(٣) عبد الله بن عبد المطلب عمرو بن الديان يزيد بن لطن بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن كعب بن الحارث الحارثي،

وابنه: «مالكاً» كما قتل رجالاً آخرين من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، ثم جمع الناس وخطبهم وهددهم وأخذ البيعة منهم لمعاوية.

ثم خرج حتى أتى «صنعاء اليمن» فلما علم به عبيد الله بن العباس عاملها من قبل علي عليه السلام ^(١) خرج من البلاد متخفياً، واستخلف عليها: عمرو بن أراكة الثقفي، فوقف هو الآخر في وجه بسر، فقاتله بسر حتى دخله ودخل اليمن، فقتل منها قوماً كثيرين ونهب أموالاً وهدم دوراً ولم يدع شيعياً لعلي عليه السلام إلا نكل به أو قتله، وطلب عبيد الله بن العباس فلم يظفر به وكبس داره وظفر بولديه الصغيرين قثم وعبد الرحمان فذبحهما وأمهما وهي عائشة بنت عبد المدان الحارثي تنظر إليهما، فاختلَّ عقلها وجعلت تدور حولهما وهي تقول:

كالدريتين تشظى عنها الصدف	ها من أحس بابني اللذين هما
سمعي وقلبي فقلبي اليوم مخنطف	ها من أحس بابني اللذين هما
مخ العظام لمحي اليوم مزدهف	ها من أحس بابني اللذين هما
من إفكهم ومن القول الذي اقترفوا	نبتئت بسر وما صدقت ما زعموا
من الشفار كذلك الإثم بقرف	أضنى على ودجي ابني مرهف

● عرض غارة بسر وما فعله من جرائم القتل والتفكيك

إلى آخر أربابها الستة أو الثمانية المذكورة في عامة كتب السير قال ابن الأثير ضمن حوادث سنة ٤٠ هـ «فلما سمع أمير المؤمنين عليه السلام بقتلها جزع جزعاً شديداً ودعا على بسر فقال «اللهم أسلبه دينه وعقله»، فأصابه ذلك وفقد عقله فكان يهذي بالسيف ويطلبه فيؤتى بسيف من خشب ويجعل بين يديه زق منق منفوخ فلا يزال يضربه ولم يزل كذلك حتى مات ..».

→ صحابي من سادات العرب وكان اسمه في الجاهلية «عبد الحجر»، فلما أسلم سماه النبي صلى الله عليه وآله: «عبد الله»، كما يقول ابن الكلبي، وغيره من المؤرخين والنسابين وأقام في قومه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله بأمرهم بالإستقامة على الإسلام، وبناهاهم عن الزرع والرد، وكان عبيد الله بن العباس صهره على ابنته أو أخته كما قيل عائشة وهي أم ولديه اللذين قتلها بسر في غارته كما أضربنا، وقد ولي نجران وبعض أطراف اليمن لعلي عليه السلام، فكانت غارة بسر قاتله عبد الله، فقتل هو وابنه مالك وذلك في سنة ٤٠ هـ

(١) تحدثنا عنه قبل صفحات من هذا الموضع.

ثم خرج من «صنعاء»، فأتى أهل «جيشان»^(١)، وهم شيعة علي عليه السلام فقاتلهم وقتلوه. ثم أخنى عليهم فقتلهم قتلاً ذريعاً، ثم رجع إلى «صنعاء» فقتل بها مائة شيخ من أبناء فارس من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام.

وبلغ علياً عليه السلام ما فعله بسر في غاراته على تلك البلدان الآمنة وقتله الذريع بأهاليها وإنشاعة الرعب والفساد فيها، فجمع الناس في جامع الكوفة وندبهم بخطاب بليغ ليحث سرية في أثر بسر وإيقاظ الناس من ويلاته، فأجابته ممن أجابه: جارية بن قدامة السعدي^(٢)، فبعثه علي عليه السلام في ألفين، فمخضخص «جارية» إلى البصرة، ثم أخذ طريق الحجاز مغزداً في سيره حتى قدم اليمن فسأل عن بسر فأخبر: أنه أخذ في بلاد بني تميم وعلم بسر بملاحقة «جارية» إياه، فانهدر إلى «اليمامة» وأخذ «جارية» يلاحقه، حتى لحقه بسر بالشام فأخبر معاوية بخبر غاراته، فشكره معاوية على فعله، وأجازه عليه، وقرب منزلته منه، وكان الذين قتلهم بسر في وجهه ذلك ثلاثين ألفاً عامتهم من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام كما حرق قوماً كثيراً بالنار، وهدم دوراً كثيرة، وسبى نساء وأيتام أطفالاً. وهذه إحدى موبقات معاوية في التاريخ «وعلى هذه فقس ما سواها»^(٣).

(١) جيشان يفتح فسكون: مخلاف باليمن. شمالي الحج وغربي بلاد يافع.

(٢) الصحابي الجليل، أبو عمرو جارية قدامة بن مالك بن زهير بن حصن أو بالصغير بن رزاح بن سعد أو أسعد بن بجير بن ربيعة بن كعب السعدي التميمي كان من زعماء بني تميم في البصرة، وكان الأحنف بن قيس على جلالة يدهو حبه على سبيل التظلم، وكان على درجة عالية من المعرفة والفضل، فقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: «يا رسول الله قل لي قولاً ينفعني وأقل لملي أعتقه؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تنضب» فأعاد عليه السؤال مراراً فكان جواب النبي صلى الله عليه وسلم له هو الأول، فانصرف عنه وكان من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام الملازمين له بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يهرع مع الهارعين إلى بيعة أبي بكر حتى إذا قتل عثمان ويومع علي عليه السلام كان في الطلعة من أصحابه الذين حضروا معه حروبه الثلاثة، وهو صاحب السرايا والألوكة يوم صلبن، وهو الذي بعثه أمير المؤمنين عليه السلام إلى هب الله بن الحضرمي الميموني من قبل معاوية لأخذ البصرة له من علي عليه السلام فعاصره جارية ثم حرق عليه ومعه سبعون من أصحابه، ولجارية هذا موقف صارم وكلام شديد مع معاوية حينما وفد على معاوية بعد أن أرسل إليه فقال له معاوية في آخر اللقاء: سل حاجتك يا أبا قندس؟ قال جارية: «نقر الناس في بيوتهم فلا توفدهم إليك؟ فإنما يوفدون إليك الأغنياء ويدرون الفقراء».

(٣) بالقتضاب من: تاريخ الطبري. وكامل ابن الأثير، وبداية ابن كثير، ونهاية النوري أوائل حوادث سنة ٤٠ هـ وفتوح ابن

● نهاية الكتاب

وتفادياً عن تضخم هذا الجزء الثاني من الكتاب أكثر من المعتاد، فقد ختمناه بالحديث الموجز عن ملاحقة معاوية، وحرره المسلحة لعلي عليه السلام وشيعته في حياته المقدسة بعد حرب صفين إلى حين مقتله الشريف في شهر رمضان المبارك من سنة ٤٠ هـ وأرجأنا الحديث عن ملاحقة معاوية وحرره غير المسلحة لعلي عليه السلام وأهل بيته وشيعته بعد مقتله الشريف وخصوصاً ما كان منها بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام المفضوح عليه، كفرض التحكيم على أبيه من قبل إلى الفصل الأول في مستهل الجزء الثالث من الكتاب، والحمد لله رب العالمين. فإلى هناك...

الحسين بن التقي آل بحر العلوم

فهرس الكتاب

٧	لمحات سريعة عن المؤلف وكتابه
١٧	المقدمة
٢٠	الإهداء
٢٥	حسين مني، وأنا من حسين

الجزء الأول / الفصل الأول

٣٥	جذرية الصراع بين الهاشمين والأمويين
٣٩	عقب هاشم وعبد شمس
٣٩	عقب هاشم
٤٠	أولاد عبد المطلب
٦١	روافد الخلاف بين القبيلتين

الجزء الأول / الفصل الثاني

٦٦	سمات هاشم وصفاته

الجزء الأول / الفصل الثالث

٧٧	عبد المطلب بن هاشم
٨٠	سمات عبد المطلب وصفاته
٨٤	حلف عبد المطلب
٨٥	حفر زمزم
٨٩	فوز عبد المطلب بالتداح
٨٩	كرامة لعبد المطلب
٩٢	كرامة أخرى لعبد المطلب
٩٥	كرامة أخرى لعبد المطلب
٩٦	أهم كرامات عبد المطلب
١٠٧	وفادة عبد المطلب على سيف بن يزن

الجزء الأول / الفصل الرابع

١١٧	عبد الله والد النبي ﷺ

١١٩	تسمية عبد الله بالذبيح
١٢٤	زواجه بآمنة
١٢٥	وفاة عبد الله
١٢٦	عقب عبد الله في ابنه محمد ﷺ

الجزء الأول / الفصل الخامس

١٢٩	الزبير بن عبد المطلب (صاحب حلف الفضول)
١٤٤	وفاة الزبير وراثؤه

الجزء الأول / الفصل السادس

١٤٩	أبو طالب
١٥٠	أبو طالب وابن أخيه إلى الشام
١٥٢	يسود قومه وهو فقير
١٥٣	أبو طالب يخطب خديجة لمحمد ﷺ
١٥٣	إيمان أبي طالب بالإسلام
١٦٨	أبو طالب وصحيفة قريش
١٧٢	فك الحصار عن بني هاشم
١٧٦	إيمان أبي طالب من خلال كلماته وشعره
١٨٠	إيمان أبي طالب من خلال شعره
١٨٥	ختام الجولات في إيمان أبي طالب
١٨٦	وفاة أبي طالب
١٨٩	أنباء أبي طالب
١٨٩	طالب بن أبي طالب
١٩٧	الهجرة إلى الحبشة
٢٠٣	وشاية رسولي قريش على المسلمين
٢٠٦	نجاح جعفر واندحار رسولي قريش
٢١٠	غزوة مؤتة وشهادة جعفر
٢١٧	شهادته وقبره

الجزء الأول / الفصل السابع

٢٢١	الحمزة فتي عبد المطلب

الثورة الحسينية بجذورها ومعطياتها / الجزء الثاني ٦٠١

سماته وصفاته ٢٢٦

واقعة أحد وشهادة حمزة ٢٢٩

مصراع حمزه بحربة وحشي ٢٣٩

رثاء وتأبين ٢٤٨

الجزء الأول / الفصل الثامن

العباس بن عبد المطلب ٢٥٧

سماته وصفاته ٢٥٨

كتان إسلامه في مكة ٢٥٩

إظهار إسلامه في المدينة ٢٦٣

من أعماله الإسلامية عند واقعة أحد ٢٦٥

فرح العباس بفتح خيبر ٢٦٦

موقفه الصامد يوم حنين ٢٦٩

مدحه النبي ﷺ بشعره ٢٧٣

ثناء ولده عليه ٢٧٦

اختصاصه بتجهيز النبي ﷺ ٢٧٨

موقفه الصارم يوم السقيفة ٢٧٨

انتفاضته في وجه الشيخين ٢٨٢

ختام المطاف ٢٨٧

مقدمة الجزء الثاني ٢٩١

الجزء الثاني / الفصل الأول

عرض موجز لأبناء عيد مناف الأربعة ٢٩٥

المقارنة بين هاشم وعبد شمس من حيث السمات والصفات ٢٩٦

الخلاص بين عبد شمس وأخيه هاشم ٢٩٩

الجزء الثاني / الفصل الثاني

ملامح التشكيك في بنوة أمية لعبد شمس ٣٠٣

سمات أمية وصفاته ٣٠٨

مواقف أمية وتمردّه على الأعراف العربية ٣٠٩

المنافرة بين عبد المطلب وأميه ٣١٢

- ٣١٤ منافرة حرب لعبد المطلب.
- ٣١٥ توارث العداوة بين القبيلتين
- ٣١٥ أبناء أمية الأكبر

الجزء الثاني / الفصل الثالث

- ٣١٩ كفر العاصي وابنه سعيد وحفيده.
- ٣١٩ حفيدا العاصي بن أمية
- ٣٢٢ ترجمة مالك الاشر ومقتله بالسم.

الجزء الثاني / الفصل الرابع

- ٣٣١ أبو العاصي بن أمية وأبنائه
- ٣٣٧ مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية

الجزء الثاني / الفصل الخامس

- ٣٤٥ عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس.
- ٣٤٦ الشورى وكيفية استخلاف عثمان
- ٣٦٠ تأميم علي عليه السلام قطائع عثمان
- ٣٦٢ ترجمة عمار بن ياسر، أبي ذر الغفاري، عبد الله بن مسعود.
- ٣٧٢ استمرار في التنكيل بعمار بأمر الخليفة الأموي
- ٣٧٧ وأما بالنسبة إلى التنكيل بأبي ذر ونفيه
- ٣٧٩ تسير الخليفة أبا ذر إلى الشام
- ٣٨٩ توديع أبي ذر من قبل علي عليه السلام وأصحابه
- ٣٩٣ يموت أبو ذر في الربرة، ويدفن فيها
- ٣٩٤ قصة تنكيل الخليفة بعبد الله بن مسعود
- ٣٩٩ اضطهاد الخليفة وعماله الامويين اصحاب الرسول من قراء الكوفة
- ٤٠١ تنكيل الخليفة بكمب بن نهد بعد المشادة بينهما
- ٤٠٢ تنكيله بعامر التميمي
- ٤٠٣ تنكيل الخليفة بعبد الرحمان بن حنبل الجمحي
- ٤٠٦ قتل الخليفة الاموي من قبل المسلمين

الجزء الثاني / الفصل السادس

- ٤٠٩ ضلال أبي العيص بن أمية وأبنائه بالرغم من إظهار إسلامهم

الثورة الحسينية بجذورها ومعطياتها / الجزء الثاني ٦٠٣

عقبة بن أبي معيط (أبان) المكنى بأبي الوليد ٤١٠

الوليد بن عقبة ٤١٣

الجزء الثاني / الفصل السابع

أبو سفيان ولعن القرآن إياه في عدة آيات ٤٣٣

أبو سفيان (صخر) بن حرب بن أمية ٤٣٣

خروج المشركين بقيادة أبي سفيان الى أحد ٤٤١

شماتة أبي سفيان بحمزة وأصحابه من شهداء أحد ٤٤٤

اصرار ابي سفيان على مواصلة الكرة لأحد الثانية ٤٤٧

عرض قصة واقعة الخندق ودور أبي سفيان فيها ٤٤٩

خطبة أبو سفيان في قومه ٤٧٠

أبو سفيان يحاول قتل النبي ﷺ بعد يوم الخندق ٤٧٠

قصة فتح مكة ٤٧٢

مرور جيوش الفتح على أبي سفيان وهو يتميز من الغيظ ٤٧٨

أبو سفيان ودوره بعد إظهار إسلامه ٤٨١

استمرار في نفاق أبي سفيان الى حين وفاته ٤٨٣

وفاة أبي سفيان ٤٨٦

آل أبي سفيان وأبنائه على ضلالة ٤٨٦

أبناء أبي سفيان على وتيرة أبيهم من الضلال ٤٨٧

الجزء الثاني / الفصل الثامن

معاوية بن أبي سفيان ٤٩٣

لمحات عن الظلم والتعسف في سياسة معاوية ٤٩٤

سياسة معاوية في التجويع واستغلال النزعات القبلية ٤٩٩

معاوية ونشأته والتشكيك في نسبه ٥٠٣

ذم معاوية ولعنه على لسان النبي ﷺ ٥٠٨

مبدأ ولايته على الشام ٥٠٩

تمرد معاوية على علي عليه السلام في البيعة ٥١٠

المكاتبات بين علي عليه السلام ومعاوية ٥١٣

المراسلات بين الفريقين في طلائع حرب صفين ٥١٧

- إرسال علي عليه السلام جريراً إلى معاوية مع كتابه إليه ٥١٨
- إخفاق جرير في سفارته إلى معاوية ٥٢١
- إصرار معاوية على مناجزة العرب ٥٢٢
- إرهاصات وطلائع لحرب صفين ٥٢٦
- طلائع حرب صفين ٥٣١
- أواخر رسل علي عليه السلام إلى معاوية ٥٣٣
- الهدنة بين الفريقين ٥٣٦
- معاوية يبعث رسله إلى علي عليه السلام للاستظهار ٥٣٩
- تعبئة الفريقين للحرب ٥٤١
- المنازلات بين الفريقين ٥٤٢
- زحف مالك الأشتر ٥٤٨
- مصرع أبي كعب الغنصمي وابنه ٥٤٩
- مقتل حريث مولى معاوية بسيف علي عليه السلام ٥٥١
- مقتل اللخمين من قبل علي عليه السلام ٥٥٣
- القبائل العراقية في صف علي عليه السلام تحارب أمثالها في صف معاوية ٥٥٥
- مصرع عمار بن ياسر ٥٥٨
- مبارزة ومقتل هاشم المرقال ٥٦٠
- ليلة الهرير واشتبك القتال ٥٦٢
- حيلة رفع المصاحف ٥٦٣
- ترجمة الأنحف بن قيس ٥٦٧
- وثيقة التحكيم المفروضة على أمير المؤمنين عليه السلام ٥٧٠
- الاجتماع في دومة الجندل ٥٧٢
- رجوع علي إلى الكوفة ورجوع معاوية إلى دمشق ٥٧٧
- غارات معاوية على بلدان أمير المؤمنين عليه السلام ٥٧٨
- ترجمة أبي هريرة الدوسي ٥٩٠
- عرض غارة بسر وما فعله من جرائم القتل والتكيد ٥٩٧
- نهاية الكتاب ٥٩٨